المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومى للترجمة



تاريخ الإمبراطوريات الزنجية
فى غرب إفريقية

طبعة ثانية منقحة

تأليف : ك. مادهو پانيكار

ترجمه وعلق عليه
وحققه على مصادره العربية

أحمد فؤاد بلبع



١٩٩٨


صفحة فارغة

المتن ترجمة لكتاب :

THE SERPENT AND THE CRESCENT

A History of the Negro Empires of Western Africa

K. MADHU PANIKAR

Asia Publishing House

Bombay . Calcutta . New Delhi . Madras

London . New Yourk


صفحة فارغة

الجزء الأول


صفحة فارغة

تصدير الطبعة الثانية

مؤلف متن هذا الكتاب المؤرخ والسياسي ورجل الدولة الهندي سردار كاڤالام مادهاڤا پانيكار (١٨٩٥ - ١٩٦٣) . ولد بولاية ملبار (كيرالا حاليا) بالهند . وتلقى تعليمه فى الكلية المسيحية بولاية مدراس الهندية ، ثم فى كلية « كريست تشرش » فى أكسفورد بانجلترا ، حيث التحق بقسم التاريخ الحديث . كما تعلم القانون بقصد مزاولة المحاماة ، وقام بالتدريس فى جامعتى أليجار وكلكتا بالهند ، ثم تحوّل إلى الاشتغال بالصحافة رئيساً لتحرير جريدة **هندوستان تيمس** فى عام ١٩٢٩ .

دخل مجال الحياة السياسية فى خدمة أمراء الهند ، وأصبح سكرتيراً لرئيس الأمراء ، وشغل أيضاً منصب وزير خارجية ولاية باتيالا ، ثم وزير خارجية ولاية بيكانر ، فمنصب رئيس وزرائها (١٩٤٤ - ١٩٤٧) . وبعد استقلال الهند عيّن سفيراً لبلاده فى الصين (١٩٤٨ - ١٩٥٢) ، ثم سفيراً لها فى مصر (١٩٥٢ - ١٩٥٣) ، وسفيراً لها فى فرنسا (١٩٥٦ - ١٩٥٩) . كما عيّن بلجنة إعادة تنظيم الولايات الهندية . وفى الأعوام الأخيرة من حياته عاد إلى الحياة الجامعية ، وكان آخر منصب له عند وفاته فى ١٠ ديسمبر ١٩٦٣ هو نائب رئيس جامعة ميزور .

ويعتبر پانيكار أحد الباحثين الثقة فى علاقات أوروبا بآسيا وإفريقية فى مرحلة الاستعمار والتوسع الاستعمارى منذ بداية الكشوف الجغرافية . ومن أشهر كتبه فى هذا المجال Asia and Western Dominance الذى صدرت له ترجمة عربية فى القاهرة فى عام ١٩٦٢ تحت عنوان : **آسيا والسيطرة الغربية** ، وهو كتاب بالغ الأهمية ، ويتبين منه إلمامه ، إلى جانب اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، باللغة البرتغالية التى يبدو أنه درسها لتيسر له الاطلاع على وثائق المستكشفين البرتغاليين الذين كان لهم دور رائد فى حركة استكشاف آسيا وإفريقية .

ولپانيكار أيضاً دراسات وكتب متنوعة فى الأدب والمسرح والتاريخ والسياسة ، وبخاصة فى تاريخ القومية والولايات الهندية ، وأثر البرتغاليين والهولنديين فى ولاية ملبار . وقد أصدر فى عام ١٩٥٥ كتابه الشهير In Two Chinas الذى عبّر فيه عن تعاطفه مع الصين التى يقول عنها إنه أمضى فيها أحلى سنى حياته الدبلوماسية . كما كان پانيكار أحد المعدّين الثلاثة للمجلد السادس والأخير« *القرن العشرين* » من موسوعة **تاريخ البشرية** التى أصدرتها منظمة اليونسكو .

أما كتابه The Serpent and the Crescent ، الذى أضع بين يدى القراء ترجمة عربية لنصه ، إلى جانب تعليقاتى عليه وتحقيقاتى له على جميع مصادره العربية ، فقد صدر عن دار النشر الهندية " Asia Publishing House " ، فى عام ١٩٦٣ ، أى فى العام الذى توفى فيه ، ويبدو أنه آخر أعماله .

وقد استند پانيكار فى إعداد هذا الكتاب إلى بعض المصادر الأجنبية ، إنجليزية وفرنسية ، ولكن مصادره الأساسية فى أغلب أجزاء الكتاب مصادر عربية وإسلامية قديمة ، وهو بطبيعة الحال قد نقل عن الترجمات الأجنبية لهذه المصادر ، سواء أكانت إنجليزية أم فرنسية ، وهى ترجمات مستكملة ومتوفرة فى الخارج فى جميع المكتبات ومراكز البحث العلمى الهامة ، ومن اليسير الرجوع إليها . ولم يكن مقبولاً بأية حال لدى ترجمة عمل بهذه الخصوصية والأهمية أن يُكتفى فيه بمجرد النقل المباشر المتعجل إلى العربية ، فالمؤلف أورد آلافاً من أسماء الأشخاص والأماكن والأحداث ، ومئات من الفقرات الكاملة ، وهذه أخذها جميعا من ترجمات أجنبية لمراجع عربية قديمة . ولذلك فإن ردها إلى العربية بالترجمة المباشرة يعد تشويهاً للكتاب ، وانتقاصاً خطيراً من قيمته ، وإخلالاً بطلاوة النصوص القديمة ودقتها .

لذلك كان لزاماً أن يكتب كل اسم لعلم أو مكان أو حدث كما ورد فى مصدره الأصلى ، وأن تنقل كل فقرة مصدرها عربى من منطوقها الأصلى . ولما كان الكتاب قد خلا تماماً من الحواشى وقوائم المصادر والمراجع ، فإنه يكون غنيًا عن البيان أن جميع الحواشى بذيل صفحات الكتاب ، التى تزيد

علـى ألـف حاشية ، هى جهد شخصى قمت به ومسؤولية شخصية أتحمل تبعاتها . والحقيقة أنه كان جهداً مضنياً للغاية استغرق سنوات ، واقتضى الرجوع إلـى عشرات المراجع التاريخية والجغرافية العربية القديمة والتنقيب فيها ، بل وقراءة بعضها بالكامل ، توصلاً إلى اسم أو فقرة ، أو توثيقا لحادثة .

وكانت النية متجهة فى الأصل إلى أن يكون العنوان الرئيسى للكتاب ترجمة حرفية لصيغته بالإنجليزية ، أى **الثعبان والهلال** . ولكن عنواناً عربياً بهذه الصيغة قد يجعل من المتعذر على القارئ العربى للوهلة الأولى فهم مقصد الكتاب ؛ لـذلك آثرت استخدام عنوان أكثر دلالة على مقصده هو **الوثنية والإسلام** ، حتى وإن كان العنوان الفرعى للكتاب (**تاريخ الإمبراطوريات الزنجية فى غرب إفريقية**) يفى ببعض الغرض .

ومن أجل مزيد من الإيضاح لما قصد إليه المؤلف من العنوان الرئيسى (**الثعبان والهلال**) أشير إلى أن « الثعبان » يكاد أن يكون قاسماً مشتركاً فى غالبية الديانات الوثنية الإفريقية . فالإفريقيون تنتشر بينهم فكرة أن أرواح الأسلاف تسكن الحيوان : من ذلك الزولو الذين يقولون بأن أرواح الأسلاف تسكن الأفاعى ، ولذا فهم لايقتلونها ؛ والماساى يرون الرأى نفسه ، ولكنهم يحددون أفعى معينة لكل قبيلة ؛ وعند البارى ثعبان أخضر خالٍ من السم تتمثل فيه روح النجون الأرضى وأرواح السلف .

وفى بلاد الهوسا عندما وصل الرحالة المجهد باياچيدا إلى إحدى القرى كان يريد جرعة ماء ، فقيل له إنه لا أمل فى الحصول على الماء لأن الثعبان الذى يحرس البئر لايسمح باستخراج الماء إلا مرتين فى الأسبوع ، عندئذ طلب باياچيدا دلواً ، وجذب الثعبان بعيداً وقتله . كذلك تنتشر بين قبائل إفريقية كثيرة فكرة الثعبان الضخم الذى يقوم على حراسة آبار المياه .

وأحب فى هذه العجالة أن أبرز فكرة أولاها پانيكار جُلَّ اهتمامه وتناولها فى كتابه فى أكثر من وضع ومناسبة ، وتتمثل هذه الفكرة فى

العقبتين الرئيسيتين اللتين كانتا ، في رأيه ، تقفان حجر عثرة تحول دون أن يحقق الإسلام مزيدا من الانتشار فى إفريقية ، وهما تجارة الرقيق واستخراج الذهب .

ذلك أن صيد البشر والاتجار فيهم كانا عماد الاقتصاد فى الدول السودانية والإفريقية ، ومن بينها الدول الإسلامية التى قامت فى غرب إفريقية ، وكانا يحققان لهذه الدول أرباحا تبلغ من الضخامة حداً صرف أنظار حكامها عن تشجيع أى نشاط زراعى أو صناعى ، فقد كان الرقيق عصب صادراتها والسلعة الغالبة فيها ، ومن أثمان بيعهم كانت تسدد أثمان الجانب الأكبر من وارداتها ، وبخاصة الأسلحة اللازمة للحروب ،بل إن الجزية كانت تدفع بالرقيق أكثر مما تدفع بالذهب ، كما أصبحوا العملة الشائعة فى هذه الدول . فضلا عن أن الرقيق كانوا سلعة يسهل الحصول عليها . وفى داخل هذه الدول كانت توجد سوق كبيرة للرقيق بوصفهم من ضرورات الحياة ، فهم فى الأعمال الشاقة كانوا يستخدمون بديلا عن حيوانات الجر والحمل والنقل التى كانت نادرة الوجود . وقد عُرفت بلاد السودان منذ أقدم العصور بأنها سوق للرقيق ، وكان الطريق من تشاد إلى طرابلس ماراً بكوار وفزان هو طريق الرقيق . ويقول پانيكار إن هذا الطريق الملطخ بالدماء لابد أن ينكّر المرء بما أحدثته تجارة الرقيق من تأثير مدمر على حياة السودان الاقتصادية .

وهكذا فإن الدول الإسلامية فى غرب إفريقية بتجارتها وجهازها الإدارى وأساليبها الإنتاجية القائمة على تجارة الرقيق ، « رذيلة السودان الكبرى »، لم تكن تعدو دولاً مغتصبة أساسها اقتناص البشر والاتجار بهم، ممازجٍ بها فى نزاع مع الإسلام ، إذ لم يكن من صالح الدول الإسلامية على وجه الخصوص انتشار الإسلام فى المناطق الوثنية التابعة لها ، فالإسلام يحرم استرقاق المسلمين ، ولذلك فإنه من الناحية الجوهرية ظل الإسلام فى هذه الدول دين طبقات عليا ودين مدن . ففى البرنو ظل الأهالى

على وثنيتهم على الرغم من أن المايات (السلاطين) اعتنقوا الإسلام بداية من حكم الماى دونمه بن أوم (١٠٨٦ – ١٠٩٧) ، كذلك ظل الهوسا على وثنيتهم برغم أن الملوك وأبناء الطبقات العليا اعتنقوا الإسلام عند حلول القرن الثانى عشر .

وهذه المعضلة لم تحل إلا فى القرن التاسع عشر عندما تمزقت تجارة بلاد السودان مع شمال إفريقية ، وأبينت تجارة الرقيق عبر المحيط . عندئذ حاول الحكام المسلمون والمجاهدون فى كل مكان إدخال الوثنيين فى الإسلام . ويقول پانيكار إنه مالم تحتل هذه المشكلة مكانها الجدير بها فى تفكيرنا فإن تاريخ الإسلام بأسره فى إفريقية ، وعدم انتشار الإسلام بين بعض القبائل ، أو بين أقسام كبيرة من القبائل الأخرى ، سيظلان من الألغاز المحيرة .

والعائق الثانى أمام انتشار الإسلام فى غرب إفريقية على نطاق واسع كان ، فى رأى پانيكار ، هو استخراج الذهب . وقد قدم منساموسى سلطان مالى تفسيرا لعدم قيام سلاطين مالى بتبليغ الإسلام فى المناطق الوثنية التابعة لهم ، برغم أن ذلك كان باستطاعتهم ، وهو أن خبرتهم قد علمتهم أنهم عندما يغزون منطقة للوثنيين ، ويرتفع فيها صوت الآذان ، ينخفض محصول الذهب ، على حين يزيد فى المناطق الوثنية المجاورة لها . ولذلك استقر رأيهم على ترك هذه المناطق فى أيدى الوثنيين ، والاحتفاظ بعلاقات طيبة معهم ، مقابل أن يحصلوا منهم على إتاوة سنوية مقررة من الذهب والرقيق .

والإشارات إلى ذلك كثيرة فى كتب الجغرافيين والمؤرخين العرب القدامى ، وبخاصة فى **تحفة النظار** لإبن بطوطة ، وفى **صبح الأعشى** للقلقشندى (نقلا عن **التعريف بالمصحف الشريف** « فى الحديث عن غانة » **ومسالك الأبصار** لإبن فضل الله العمرى ، انظر ، الحاشية ١ – ١٤ أدناه) . واكتفى هنا بما ورد فى الصفحتين ٢٨٦و ٢٨٧ بالجزء الخامس من صبح

الأعشى : « قال فى **مسالك الأبصار** : وفى شمالىّ بلاد مالى قبائل من البربر بيض تحت حكم سلطانها : وهم ... قال : وكذلك فى طاعته قوم من الكفار بعضهم يأكل لحم الآدميين . ونقل عن الشيخ سعيد الدكالى : أن فى طاعة سلطانها بلاد مغارة الذهب ، وهم بلادهمج ، وعليهم إتاوة من التبر تحمل إليه كل سنة ، ولوشاء أخذهم ، ولكن ملوك هذه المملكة قد جربوا أنه مافتحت مدينة من هذه المدن وفشا فيها الإسلام ، ونطق بها داعى الآذان ، إلا قلّ بها وجود الذهب ، ثم يتلاشى حتى يعدم ، ويزداد فيما يليه من بلاد الكفار ، فرضوا منهم ببذل الطاعة ، وحمل قُرِّر عليهم . »

هذا ما حكاه منساموسى سلطان مالى وغيره من الحكام الإفريقيين المسلمين ، وماقاله الجغرافيون والرحالة والمؤرخون العرب نقلا عنهم وعن غيرهم . وقد قالوه انسياقاً وراء خرافة لا أساس لها واعتقاد وهمى خاطئ وضار رسخ فى أذهان الحكام المسلمين لبلاد السودان ، واعتبروه حقيقة واقعة . وپانيكار بدوره انساق وراءهم دون محاولة منه لكشف طبيعة مثل هذه المعتقدات ، ومدى ماألحقته ، ولاتزال ، بالشعوب المتخلفة التى يأسرها سحر الخرافة وتستعبدها قوة العادة . وعلى أية حالة فإن ذلك هو ماكان يعتقد فيه هؤلاء الحكام ومايتقيدون به ، فامتنعوا عن غزو المناطق الوثنية الغنية بالذهب خشية ضياع هذه الثروة من أيديهم ، مؤثروين بقاء أهلها على وثنيتهم مقابل الإتاوة التى يحصلون عليها منهم ، واكتفاءً ببذل الطاعة .

ويلزم التنويه إلى أن كلمة **السودان** مستخدمة فى الكتاب ، متنه وحواشيه ، بأكثر من مدلول ، فهى تشير إلى أهل المنطقة ، وهم زنوج ذوو بشرة سوداء ، وذلك تمشيا مع تسميتهم فى كتب الجغرافيين والمؤرخين العرب القدامى ، وتمييزاً لهم عن البيضان ، أهل الشمال الإفريقى ذوى البشرة البيضاء ، كما تشير إلى الأرض التى يقيمون عليها (بلاد السودان) . هى تستخدم أيضا كصفة ، فيقال مثلا « العلماء السودان » . هذا وقد استخدمت كلمة الرقيق ، فى المتن والحواشى ، فى صيغتى المفرد والجمع ،

فيقـال رقيق واحـد وخمسة رقيق ، وذلك بدلا من كلمتى « عبد » و « عبيد » .

وأود أن أشير أيضا إلى أن پانيكار قد نقل فى توسع واستفاضة عن كتابين غاية فى الأهمية هما : **تاريخ الفتاش** لمحمود كعت و**تاريخ السودان** لعبد الرحمن السعدى ، وكان هذان الكتابان من أهم المصادر فى دراسته ، وبخاصة فى تناوله لتاريخ الدول الإسلامية فى غرب إفريقية – غانا ومالى والسنغى – ، وأوضاعها الاقتصادية وجهازها الإدارى وأحوال المجتمع فيها ، كما كانا عماده فى سرد وقائع وأحداث الغزو المراكشى لدولة السنغى ، ولما كان مؤلفا هذين الكتابين من أبرز العلماء الزنوج الذين كتبوا تاريخ بلادهم بالعربية ، كان لزاما علىّ أن أورد عنهما نبذتين وافيتين تحققان الغرض . وبرغم حرصى على الإيجاز فقد كانت هاتان النبذتان طويلتين بدرجة تعذر معها إيرادهما فى ذيل المتن ، مثلما كانت الحال مع بقية المراجع التاريخية التى اتسع الذيل لنبذ موجزة عنها ، ولذلك أفردت لهما حيزًا مستقلا فى نهاية الكتاب .

وفيما يتعلق بقائمة أسماء المايات (حكام كانم – بريو) فقد جاءت هذه الأسماء فيها مبتورة ، كما جاءت تواريخ توليهم السلطة مختلفة عنها فى مصادر أخرى فى حدود بضع سنوات . ولذلك حاولت استكمال الأسماء وضبط التواريخ مستعينا بمصدرين آخرين ، كما هو موضح فى موضعه بنهاية الكتاب ، كما أضفت أسماء المايات الذين حكموا بعد ظهور أسرة الكانمى ، وتواريخ تولى هؤلاء المايات السلطة .

كذلك أضيف بنهاية الكتاب ثبت بالمراجع – وجانب كبير منها مراجع عربية قديمة ، وبعضها مراجع عربية وأجنبية حديثة – وهى المراجع التى اطلعت عليها وأخذت عنها معظم ماورد بحواشى الكتاب ، واستعنت بالعربية القديمة منها فى تحقيق المتن على جميع ما أخذه پانيكارمنها .

تنويه أخير: هو أنه تحقيقا للترابط بين موضوعات الكتاب ، وبخاصة فيما بين الحواشى ، وتيسيراً للإسناد فيما بينها ، فقد رمزت لكل حاشية بتسلسلها الرقمى فى الفصل الذى تقع فيه ، وبرقم الفصل نفسه . فمثلا الحاشية ١ - ٥٤ ترمز للحاشية رقم ٥٤ فى الفصل الأول ؛ والحاشية ٧ - ٢٣ ترمز للحاشية رقم ٢٣ فى الفصل السابع ، وهكذا .

أرجو أن أكون قد وفقت ،

أكتوبر ١٩٩٧ أحمد فؤاد بلبع

مقدمة

أولا

إفريقية هى آخر الحدود ، والحدود الحقيقية هنا تنحصر فى فراغ المعرفة ، والجهل المطبق يجعل منها القارة المظلمة ، وأنا أرى أن أقصر هذه الدراسة على ماكان العرب يسمونه بلاد السودان Bilad es Sudan [1] . والبلاد الأصلية ضاقت ، وما أتناوله هنا لا يعدو الأقطار التى كانت تعرف فيما سبق على أنها إفريقية الغربية الفرنسية وتشاد ونيجيريا وغانة . وهذه المنطقة يسيطر عليها نهر النيجر [2] وروافده .

والنيجر أحد أنهار العالم الكبرى ، وهو ينبع من مرتفعات غينيا ، ويجرى قرابة ألف ميل نحو الشرق ثم يتحول نحو الجنوب الغربى ، وبعد بضع مئات أخرى من الأميال يصب فى المحيط الأطلسى ، وفى هذه الرحلة الطويلة يتعرض لتغيرات كثيرة . فمن مجرى جبلى فى المرتفعات يصبح قرب بَمَكو نهراً بطيئاً مهيباً عرضه قرابة الميل ، ولاتصب فيه أية روافد عند اتجاهه نحو الشرق على الرغم من أنه فى الأزمنة السابقة ، عندما لم تكن الصحراء الكبرى

---

(١) جريا على عادتهم فى تسمية الزنوج جنوبى الصحراء الكبرى بالسودان ، والبيض فى الشمال بالبيضان .

(٢) ساد اعتقاد لدى المؤرخين والجغرافيين العرب بأن نهر السنغال هو نهر النيجر ، وقالوا عنه إنه يتجه من الشرق إلى الغرب . وقال بذلك ليو الإفريقى أيضا ، ولكن إبن بطوطة ، وهو سابق عليه ، قال بأن نيل مصر (نهر النيجر) يتجه من الغرب إلى الشرق . وكان أول من أكد هذه الحقيقة من المستكشفين الأجانب الرحالة الاسكتلندى مونغوبارك الذى وصل إلى المنطقة فى عام ١٧٩٥ موفداً من الجمعية الجغرافية الملكية لاكتشاف نهر النيجر. وننقل هنا بعض ماجاء عن رحلته : « لقد رأيت بسرور بالغ ثمار الغرض الاساسى يتمثل أمامى فى عظمة نهر النيجر الذى يتلألأ مع شمس الصباح ... والذى يصب فى بطء ناحية الشرق ... إن انحناء النهر صوب الشرق لم يثر فى نفسى دهشة أو قلقا ... رغم أنى كنت أفضل دائما الاعتقاد بأنه يجرى فى الاتجاه المخالف ». I. N. L. BAKER. History of Geographical Discovery and Exploration ،لندن ١٩٤٨، الصفحة ٢٠٤ .

منطقة صحراوية ، كانت هناك بضعة أنهر تتدفق نحو الجنوب ، بيد أن النيچر في الوقت الحاضر يكاد يصب كل مياهه في المنطقة شبه القاحلة . وبرغم أن منطقة البحيرات ، بما تبقى فيها من بحيرات سابقة ، تمتلئ خلال فصل الأمطار ، فإن النيچر بسبب تدفقه غير المستوى لم يكن ذا فائدة عظيمة في تنمية الموارد الزراعية للأرض .

بعد التحول نحو الجنوب الغربي يصبح النيچر نهرا مختلفا تماما ، إذ تصب فيه جداول استوائية كثيرة ، وعندما يدخل مواطن اليوربا (٢) تصبح له قوة نهر استوائي عظيم وغزارته . وقرب الساحل يتفرع إلى عدد لايحصى من الجداول التي تتصل ببعضها بعضاً مكوّنةً بذلك دلتا هائلة .

والنيچر عرف للعالم منذ وقت طويل ، وقديما كان هناك خلط بين النيل والنيچر ، بل زعم أنهما نهر واحد . وكان النيچر عادة يسمى نيل الزنوج ، ولكن هذا الاسم هو لسوء الحظ إحدى تلك المقارنات التي تزيد الأمور غموضا بدلا من أن تجلوها . والنيل فضلا عن ذلك شريان الحياة بالنسبة لمصر ، فهو الذي خلق الرخاء المصري ، أما النيچر فليس لديه ادعاء من هذا القبيل ، فهو لم يقدم إلى البشرية عونا مماثلا . وإلى جنوبي الصحراء الكبرى يقيم سكان مستقرون ، وقامت هناك مراكز تجارية عظيمة .

ودلالة النيچر في تاريخ العالم ذات وجهين ، فالشعوب التي عاشت في المنطقة التي يسيطر عليها هي التي صنعت تاريخ غرب إفريقية . وعلى الرغم من أن هذا التاريخ قد عولج على أنه لا أهمية له ، فربما تكون دلالته العظيمة أنه يصوّر كيف أن ثقافة تجارية لم تُنمِّ موارد إنتاجية قد دمرت الحضارة . والدلالة الحقيقية لتاريخ غرب إفريقية بالنسبة للعالم هي أن ثقافة فياضة النشاط ، قامت

---

(٢) تقع أوطان اليوربا غرب نهر النيچر ، وهم يشكلون حاليا أكبر قومية تعيش في غرب نيچيريا ، وقد احتفظوا بوثنيتهم حتى منتصف القرن الثامن عشر ، ومع تغلغل الإسلام هناك ، لاسيما في إلورن ، أصبحت هذه المنطقة جزءاً من إمبراطورية خلفاء عثمان دان فوديو . وبعد مجيء الاستعمار حدثت حركة تبشيرية واسعة النطاق ، ويشكل المسلمون منهم الآن حوالي الثلث ، والمسيحيون أكثر قليلا ، والوثنيون البرز الباقي . ويحتفظ هؤلاء الوثنيون بكثير من عباداتهم الوثنية القديمة وبخاصة عبادة الأسلاف .

لا على الإنتاج وإنما على التبادل ، وتخصصت فى تجارة الرقيق ، قد أخفقت فى أن تتطور إلى ما هو أبعد من مرحلة معينة . ومرجع ذلك أن التجارة فى الزباد والتبر والعاج والبشر ، وإن حققت رخاءً للمشتغلين بها ، كانت بغير جذور حقيقية . ولم يكن النشاط الذى انخرطت فيه الدول الإفريقية سوى أحد أوجه نشاط متعدد الصور ؛ فالزَّباد والتبر والرقيق كان يُجمع ويباع . ولم تكن هذه الدول بالمعنى الواسع تشجع الزراعة أو الحرف ، وذلك لأن الأرباح التى تستخلص من الاتجار فى البشر كانت على درجة من الضخامة تجعل التشجيع النشط للصناعة والزراعة فى غير صالح الطبقات الحاكمة .

وظلت التجارة الإفريقية تجارة فى مواد الترف ، ولم تكن لإفريقية الغربية حضارة مكتفية ذاتيا شأن الصين أو الهند . فسعيها الدائم كان نحو توريد التبر والرقيق مقابل مواد الترف القادمة من الشمال . ولكن على الرغم من أن المنسوجات القطنية والحريرية وغيرها كانت ترد إلى السودان بالفعل ، فإن المواد الغذائية الأساسية كان يتعين زراعتها ، وهكذا وجدت الزراعة ، وإن كانت فى الأساس زراعة كفاف . وربما تبين فى وقت ما أن الصناعات القطنية يمكن أن تزدهر ، بيد أنه فى التنازع بين مصالح القطن والاتجار فى الرقيق انعقد لواء النصر لهذا الأخير .

ثانيا

تعد الصحراء الكبرى الأساس لفهم تاريخ غرب إفريقية ، فهذا التاريخ الذى بدأ علماء الآثار ينقبون عنه لايمكن فهمه إلا على أساس أن الصحراء الكبرى كانت منذ آلاف السنين منطقة شديدة الخصوبة ، ومع الجفاف التدريجى للمنطقة أرغم الناس على هجرة الصحراء الكبرى ، وبذلك أصبحت الحاجز العظيم . فإلى أين تحرك هؤلاء الناس ؟ يقول بعض الدراسين الثقة إن الحضارة المصرية نشأت منهم ، وكذلك ربما يكون بعضهم قد تحرك إلى غرب إفريقية ، بيد أنهم لم يستطيعوا تطوير نفس المستوى من الحضارة بسبب الأحوال الأقل ملاءمة .

ولقد أحدث اكتشاف لوت (٤) لسلسلة جديدة تماما من النقوش الصخرية ثورة في تفكيرنا عن تاريخ الصحراء الكبرى . فالنقوش تشير إلى مراحل متعاقبة في تطور هذه الحضارة بدءا من العصر الحجرى المبكر ، وانتهاءً بالنقوش وأعمال الحفر الخاصة بالقرن السادس عشر قبل الميلاد ، والتى تحتوى على صور لخيول وعجلات حربية والهجمات الوحشية لحروب الصحراء ، ويميز لوت ست عشرة حقبة على الأقل في هذه الحضارة ، من الصيد حتى رعى الماشية ، مع وقوع مرحلة الصيد عند حوالى القرن التاسع قبل الميلاد ، ومن الصور يمكننا تمييز بعض نماذج زنجية شديدة الوضوح ، وبالقرب من واحة أوروهت عند حافة تاسيلي (٥) عثر لوت على رسم لقناع شديد الشبه بالأقنعة التى كان يرسمها أبناء قبيلة سنفو (٦) الذين يقطنون ساحل العاج .

ويقال إن الصحراء الكبرى كانت منطقة شديدة الخصوبة حتى أربعة آلاف عام قبل الميلاد . ويؤيد ذلك وجود بقايا الحيوانات الاستوائية وحيوانات البحر المتوسط في الصحراء الكبرى . وفي سلسلة جبال أحجار (٧) تظهر الضفادع

---

(٤) هنرى لوت H.Lhote : رحالة فرنسي ومن علماء السلالات البشرية ، بدأت رحلاته إلى إفريقية في عام ١٩٢٨ ، وزار مناطق أحجار وتاسيلي وأير وتشاد ومنحنى النيجر وشمال الكمرون ، حيث أجرى دراسات السلالات ، والخصائص الأنثربولوجية لشعوبها ، وكذلك السمات الأركيولوجية . وبخاصة أعمال الرسم والحفر والنقش ، فضلا عن دراساته على الجماجم في تاسيلي التى أثارت اهتمامه أكثر من غيرها . وقد واصل نشاطه في عام ١٩٥٦ على رأس بعثة لتصوير الرسوم الجدارية المشهورة في تاسيلي الخالية تماما من الحياة الآن بعد أن كانت آهلة بقوم خلفوا قدرا هائلا من الرسوم على جدران بيوتهم .

(٥) أصل الكلمة من لغة البربر ، ومعناها هضبة ، وهى سلسلة جبلية جيرية في أقصى جنوب الجزائر بالقرب من حافة الصحراء الكبرى ، وقد وردت في الأصل الفرنسي لكتاب لوت ، وفي ترجمته الانكليزية ، Tasili ، لذا آثرت كتابتها تاسيلي بدلا من Tassali كما أوردها بانيكار .

(٦) إحدى القبائل التى تشكل أسلاف الشعوب الحالية الناطقة بلغة الجور والقاطنة إلى الشرق من المندى ، توجد غالبيتهم حالياً في كوت دى فوار (ساحل العاج) ، كما توجد أجزاء أخرى في مالى . اشتهرت ممالكهم القديمة بأشغال النحاس والحديد ، وقد تميزوا بالأسلوب المجوف Concave Style . تأثرت بهم القبائل المنحدرة من الأشانتى من حيث استخدام الأقنعة الخشبية في رقصاتها خلال المراسم الدينية .

(٧) أحجار : اسم يطلق على الهضبة الهائلة وسط الصحراء ، وقد أسماها إبن بطوطة (محمد بن عبد الله اللواتى) هكار : « إلى بلاد هكار ، وهم طائفة من البربر ملثمون لاخير فيهم ... » تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، طبعة بيروت ، الصفحتان ٦و٧ .

عقب سقوط الأمطار . وتوجد التياتل والنعام فى مناطق كثيرة ، وقد اصطاد الچنرال مرغريت النعام فى المنطقة بين واحتى غادريا ولاغوست . كما توجد تماثيل فى حالة متحللة عند إندى . ومازالت أشجار الصنوبر ناضرة عند الحافة الجنوبية لسلسلة جبال تاسيلى ، وتبين النقوش الصخرية للفيلة وأفراس البحر والزراف أن الرسامين كانت لديهم معرفة وثيقة بهذه الحيوانات بصورتها التى هى عليها الآن . وقد اكتشفت مؤخراً مجموعة جديدة من النقوش بها جمال وثيران ، كما تشمل كائنات بشرية مسلحة بالحراب ، وتظهر بها العربات ذات العجلتين وذات الأربع عجلات ، وفى واحة أورورهت اكتشفت نقوش تتضمن عربات كثيرة يتراوح طولها بين ١٥ و ٤٥ سنتيمتراً ، ويمكن تقسمها إجمالاً إلى أربعة أنواع : ١ – عربات ذات عجلتين وعريش واحد ؛ ٢ – عربات ذات عجلتين ويدين ؛ ٣ – عربات بها أكثر من عجلتين وعريشين ؛ ٤ – عربات ذات أربع عجلات .

وقد قوبلت النقوش الصخرية فى الصحراء الكبرى بترحيب حار بوصفها أحد الاكتشافات العظيمة فى عصرنا . فحركة الجمل فى السلويت (الصورة الظلية) ، على سبيل المثال ، يمكن مقارنتها بأروع الأعمال الفنية فى أى عصر . كما عثر فى واحة چيرات على الخيول التى تجر العربات وهى تركض فى اتساع ، أى تتحرك قدماها اليمنيان الأمامية والخلفية معا ، وكذلك قدماها اليسريان ، وهو أسلوب يتميز له فن **العصر الميسينى** ، [٨] ولكنه لم يعرف فى مصر . وعلى مقربة من هذه النقوش الصخرية تظهر كائنات بشرية عارية شبيهة بسكان الكهوف الإثيوبيين القدامى الذين وصفهم الرومان .

والمنطقتان الأساسيتان اللتان عثر فيهما على الرسوم الصخرية هما تاسيلى – فزان والمنطقة الساحلية من مراكش الجنوبية ؛ والعربات ذات اليد

---

(٨) العصر الميسينى : نسبة إلى المدينة الإغريقية القديمة ميسينى . بدأ هنريخ سكليمان حفائرة فى موقع طروادة فيما بين عامى ١٧٨٠ و ١٨٣٣ ، ثم امتدت إلى ميسينى فى عام ١٨٧٦ ثم إلى تيرونسى فى عام ١٨٨٤ ، وهى الحفائر التى كشفت عن فنون العصر الميسينى .

الواحدة تسود فى الغرب ، على حين أن العربات ذات اليدين هى السائدة فى فزان ، ومما يسترعى الأنظار فى الرسوم الصخرية أنها تقتصر على طريقى التجارة الكبيرين اللذين كانا يمران بطبيعة الحال بالمناطق الأكثر ازدحاماً بالسكان . وما يهمنا بالنسبة لهذه الرسوم هو التوصل إلى تعاقب زمنى . واستناداً إلى ثيودور مونو (٩) فإن هذه الرسوم تنطوى على مشكلة بالغة التعقيد، وإنه من المتعذر الوصول إلى ماهو أكثر من تعاقب زمنى تقريبى للغاية . وليس باستطاعتنا أن نقرر ما إذا كان ينبغى تمييز فترة الخيل كوسيط فى التعاقب العام : (أ) التياتل ؛ (ب) الماشية ؛ (ج) الخيول ؛ (د) الجمال . بيد أن بعض المؤرخين صوروا فترتين عريضتين . والحيوانات التى تظهر فى الفترة الأولى هى أساسا حيوانات استوائية مثل فرس البحر والزراف ، وهذه توجد حتى درعة وجبال أطلس وفزان . وترجع هذه الرسوم إلى فترة مبكرة كان باستطاعة الصحراء الكبرى فيها أن تقيم أود هذه الحيوانات ، وعندما جفّت الصحراء أصبحت منطقة لرعى الماشية ، وحصلنا على نقوش خاصة بالثيران .

والنقوش الصخرية لم يعثر عليها فى الصحراء فقط ، بل فى بُرْكُو (١٠) أيضا بالقرب من بحيرة تشاد . ويرى هوارد (١١) أن نقوش بُرْكُو شديدة الشبه بتلك التى عثر عليها فى إندى، ولكن بينما تشمل الحيوانات التى عثر عليها فى إندى

---

(٩) ثيودور مونو Theodore Monod : (روان ١٩٠٢ – ؟) من علماء التاريخ الطبيعى الفرنسيين ، شغل منصب مدير المعهد الفرنسى لإفريقية السوداء . وصف چيولوچيا ونباتات الجزء الأكثر جفافا من الصحراء الكبرى ، عارض فروبنيوس بعض نظرياته .

(١٠) بُرْكُو : جزء من منطقة تشاد بإفريقية الاستوائية ، تحيط بها إندى من الشرق وجبال تبستى من الشمال ، وتنبسط فى اتجاه الجنوب والشرق ناحية سهول وداى ودارفور ، يستقر بوديانها الشمالية سكان ينحدرون من قبائل التبو ، أما سكانها البدو فيتكونون من قبائل التدا والتكازا والعرب الذين قدموا من الشمال . اشتهرت بالتجارة وبخاصة فى الرقيق الذين كانوا ينقلون عبرها فيما بين وسط القارة وشمالها . أجرى فيها أركل حفائر أثرية هامة .

(١١) ب . هوارد B.Huard عالم فرنسى متخصص فى حضارات ماقبل التاريخ .

الزراف والتياتل والنعام والكلاب فإن النقوش الستة والعشرين الموجودة في بُرْكُ تصور فقط الثيران والجمال والفيلة ، فهل كانت الفيلة والثيران تعيش في عصر واحد ؟ إن هوارد يعتقد ذلك ، وبخاصة أن « الماشية لها قرون على شكل أقواس ، وأنها قادمة من مصر » ، وتتدلى من أعناق الثيران تمائم تشير إلى حضارة رعوية ، كما يرى أن النقوش الصخرية تظهر تأثيرات مصرية تسترعي الأنظار .

ولحضارة **النوك** (١٢) أهمية أكبر لفهم غرب إفريقية . وقد اكتفشت هذه الحضارة مصادفة في هضبة چوس ، ولذا تمس الحاجة إلى مسح أركيولوچي شامل لهذه المنطقة . ويعتقد فاج (١٣) الذي كان شديد الاهتمام بحضارة النوك أن هذه الحضارة ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد . بيد أنه تأكد بناء على **الاختبارات الكربونية** (١٤) أنها لابد أن تكون قد قامت حوالي القرن الثاني ق.م. إن التعقيد والتنوع البالغين للآثار التي وجدت في هذه الكهوف يدعوان للعجب ، وقد غيّرا تماما الأفكار التي كانت سائدة عن فن النحت في غرب إفريقية ، إذ أنه حتى اكتشاف حضارة النوك كان الشائع عن هذا الفن ، شأنه شأن فن النحت المصري ، أنه فن جاف وجامد للغاية . بيد أن النوك أثبتوا أن تماثيلهم ، التي هي أبعد ما تكون عن الجمود ، تزخر بتشكيل وليونة ولدونة تجعل بينها وبين فن النحت الهندي أوجه تماثل وشبه صارخين . ويتناول فاج تمثالا برونزيا

---

(١٢) النوك : موقع في شمال نيچيريا : عثر فيه على عدة تماثيل صغيرة ورؤوس بالحجم الطبيعي بعد القرن الثاني ق.م، وقامت حضارته على الحجارة والحديد ، أي ماتلا العصر الحجري الحديث . وقد أجرى فاج حفائرة به في وادي بنوى وإلى الشمال منه . وثمة تضارب بين العلاقة الوراثية بين حضارة النوك والفن البشري لدى إيفه .

(١٣) برنارد فاج : عالم أثري شهير ألقت حفائرة الضوء على حضارة النوك . وتمتاز الآثار الخزفية التي عثر عليها بالنضج الفني ، وبأسلوب تخرج به على قانون تصوير الوجه من الأمام الشائع في النحت الإفريقي ، كما جذبت أنظار الدارسين بسبب ماألقته من ضوء على إفريقية فيما قبل التاريخ .

(١٤) الاختبارات الكربونية : إسمها العلمي « تقدير عمر الآثار بوساطة الكربون المشع » ، وهي تعتمد على نسبة الكربون التي تخلق في العينة بمرور الزمن بتأثير الأشعة الكونية ، وهي نسبة تزداد كلما طال عمر العينة . وعن طريق قياسها وتقديرها يمكن تحديد عمر العينة ، ولذا تختص هذه الاختبارات بالعينات المكونة من مواد عضوية كالعظام والبقايا الحيوانية والإفرازات النباتية . وهي تعطينا عمر العينة في حدود مائة سنة بالعجز أو الزيادة ، كما تقتصر على العينات التي يتجاوز عمرها ألف عام .

فى وضع الجلوس به قدر من الليونة والحيوية والتشكيل تفتقر إليه التماثيل المصرية القديمة . كما استرعى نظره تمثال طبيعى على قاعدة لجسد قرد بلا رأس ، وكذلك تمثال لرأس قرد ، والتمثالان مصنوعان بطريقة تثير الإعجاب ، ويجمعهما تماثل واضح مع القرود فى فن النحت الهندى . والأمر الأكثر أهمية ، حتى من التشكيل ، هو أن النوك وفروا صلة نسب بفن قبائل إيفه (١٥) وبنين (١٦) ، وأن استمرار التراث من النوك إلى بنين قد أرسى الأساس للنظرية القائلة بأن فن غرب إفريقية له منشأ خارجي .

ولاتكمن أهمية النوك فقط فى أنها ترسى حضارة غرب إفريقية على قواعد راسخة في موطنها المحلى ، وإنما فى أنها تساعد أيضا على إثبات أن الاكتشافات التى تمت فى چوس ليست ظاهرة منعزلة . فوجود محاور حجرية ، وكذلك الكثير من مصنوعات الصفيح والحديد ، يوضح أنه لابد أن مدنيّة حضرية قد قامت فى الهضبة . ويقول وينرايت (١٧) إن مصنوعات الحديد قد نشأت فى وادى النيل الأعلى حوالى القرن الرابع ق.م. ، ومن هناك انتشرت إلى مصر . كذلك قد تكون الجسور الحجرية التى عثر عليها من صنع الشعب نفسه .

ولايشذ النوك عن هذه القاعدة ، وتساعدنا أعمال لوبوف فى حوض تشاد

---

(١٥) إيفه : فى جنوب نيجيريا الحالية . كانت فى وقت ما أهم مراكز نحت الحجارة فى غرب إفريقية ، كما كانت العاصمة الدينية لليوربا . والتمثال الرئيسى لعبادتهم هو إله البحر أولوكون . وثمة شكوك حول منشأ أسلوب إيفه فى النحت وإن لم يقم دليل معقول على أن منشأه ليس محليا خالصا . ويغذى هذه الشكوك شدة اقترابه من الأساليب الفنية القياسية الكلاسيكية الإغريقية ، والتماثل الغريب بين أساطير إيفه وأساطير اليونان .

(١٦) بنين : اسم أطلق على شعب وحضارة ومملكة ونهر . واشتهرت بمشغولاتها من النحاس ، وإن ظلت حتى أواخر القرن الثالث عشر تحصل على الرؤوس اللازمة للموتى من إيفه ، ويقال إن بدايات فنها إنما تنبع من تراث إيفه . كاد فنها أن يقتصر على تزيين البلاط . وتنوعت مصنوعات البرونز عند بنين حتى أصبحت كلمة البرونز جزءاً من المصطلحات التقليدية المستخدمة في وصف أعمالها . أنظر الفصل الثامن أدناه (الفرع الخاص ببنين) .

(١٧) ج . أ. وينرايت G.A.Wainwright : من علماء المصريات ، قام بحفائر كثيرة فى وادى النيل ، وله دراسات كثيرة فى العلاقات المتبادلة بين مختلف الحضارات الإفريقية ، كما أن له مؤلفات فى ديانات مصر القديمة وتاريخها ومواقعها الأثرية .

على الإلمام بشئ عن شعب الصاو [18] . فالتماثل بين نظريات تلك الأيام والقسمات البارزة فى فنها ، وبين نظريات العصور التالية وقسماتها ، إنما هو تماثل يسترعى الأنظار حقاً . وماتم التنقيب عنه ليس كثيرا جداً ، فهناك أولا أشكال صلصالية ذات أجسام بسيطة ، ولكن بأسلوب مبهرج فى الوجه ؛ وهناك ثانيا حلى وأدوات تستعمل فى الطقوس الدينية . ولكن مايسترعى الأنظار أكثر فى رأى لوبوف هو الأشغال البرونزية التى تصنع بطريقة الشمع المفقود [19] التى تدل على تفوق فى تشكيل القوالب « ويمكن مقارنتها بما هومتميز فى الأشغال الخزفية ، كما تدل على معرفة كاملة بتقنيات البرونز ، ويمكن القول بأن هذه المجوهرات تعتبر بين الأشغال البرونزية (والنحاسية) أكثر الأشكال دقة فى إفريقية السوداء » . وهكذا كلما ازدادت معرفتنا بافريقية الغربية أصبحت نظرتنا أكثر اتساعا ، وكما يقول المثل الرومانى القديم : إن كل شئ جديد نعرفه عن إفريقية يكتسب مغزىً جديدا .

ثالثا

إفريقية هى أرض الأسرار . وكان بلينوس [20] مجرد معبر عن هذه الفكرة ، عندما أعلن أنه يوجد دائما شئ جديد عن إفريقية ، ولايزال باستطاعة إفريقية أن تأتى بالمفاجآت ، وذلك لجهلنا الشديد بهذه القارة الهائلة ، وقد أجاد هيلّيربِلّوك [21] التعبير عما يشعر به معظم الناس تجاه إفريقية .

---

(18) الصاو : شعب عاش فى جنوب بحيرة تشاد وشرقها ، ويعتقد أن الكوتوكو الحاليين من سلالتهم. اشتهروا بمهارتهم فى تشكيل الخزف وفى بناء قراهم من الطين . تزخر أماكن عبادتهم بتماثيل صغيرة مخصصة للقربان . كانت عبادة الأسلاف أهم عبادة لديهم ، فعندما يموت أحدهم يوضع قناعه الجنائزى فى المحراب .

وقد قام عالم الآثار الفرنسى ج.ب لوبوف بحفائر أركيولوجية جنوب تشاد كشفت عن آثار حضارة قديمة فى دلتا نهر شارى ، وكشفت حفائر أخرى له عن موقع ينتمى إلى العصر الحجرى الحديث ، وعن معبد هام عند تاجو به تماثيل وأقنعة فخارية مثيرة ترمز إلى عبادة الأسلاف .

(19) الشمع المفقود Cire perdue : طريقة قديمة شائعة فى صناعة التماثيل من البرونز .

(20) بلينوس الأكبر : (جايوس بلينوس سكوندس) (٢٣ -٧٩م) ، عالم نبات رومانى ترك كتابا قيِّما فى التاريخ الطبيعى أشبه بموسوعة فى طبيعة الكون والجغرافيا وعلم الأعراق وعلم الحيوان وتاريخ الفنون .

(21) جوزيف هيلّيربِلّوك : (١٨٧٠ - ١٩٥٣) ، كاتب اجتماعى وشاعر بريطانى ، وضع مؤلفات أدبية وتاريخية كثيرة ودواوين شعرية .

أواه يا إفريقية ! أيتها الأرض الغامضة !

كم تكتنفك الرمال ،

وكم تزخرين بالعشب والأشجار

ذلك خليق تماما بإفريقية السوداء : أما إفريقية الشمالية ومصر فلم تكونا فقط معروفتين جيدا ، وإنما كانتا جزءاً من عالم البحر المتوسط . وبالنسبة للإغريق والرومان كان شمال أوروبا ، وليس إفريقية ، هو الأرض الغريبة غير المألوفة ، وكان ازدياد نفوذ الكنيسة فى أوروبا ، وهيمنة الإسلام على سواحل آسيا وإفريقية الواقعة على البحر المتوسط ، هما اللذان حطّما وحدة هذه الحضارة . ففى أوروبا جمعت المسيحية الشمال والجنوب معا ، وفى آسيا وإفريقية ظهر إلى الوجود مجتمع إسلامى دينا ، وعربى ثقافة ، وأصبح النزاع أمراً مقرراً بين المسيحية والإسلام ، ومع ذلك فإنه حتى هنا احتفظ عالم البحر المتوسط بوحدته ، كما أن مراكش وشبه جزيرة أيبريا جمعهما لبعض الوقت تاريخ مشترك ، وفى شرقى البحر المتوسط حافظت **بيزنطة** (٢٢) فى أول الأمر ، ثم الامبراطورية العثمانية بعد ذلك ، على وحدة ذلك الجزء من عالم البحر المتوسط سليمة لم تمس . وفى **صقلية وكلابريا** (٢٣) (جنوب إيطاليا) ازدهرت دولة إسلامية لبعض الوقت فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين . وحتى عندما حل القرن الرابع عشر الميلادى « كان هناك اعتقاد بأن شعبى صقلية وكلابريا يمكن أن يكونا أكثر تعاطفا مع الحكم الإسلامى الذى سبب المتاعب للأسبان خلال الفترة التى كانت بلادهم محتلة فيها » . وفى إيطاليا تحطمت العلاقات السياسية ، بيد أنه ظلت هنا علاقات تجارية وثيقة بين المدن

---

(٢٢) **بيزنطة** : مدينة قديمة على البسفور قامت استانبول على موقعها ، استولى عليها الرومان واختارها قسطنطين الأول (٣٣٠م) موقعا للقسطنطينية التى أصبحت فيما بعد عاصمة للامبراطورية البيزنطية .

(٢٣) **صقلية وكلابريا** : فتح العرب صقلية فى عهد الأغالبة على يد القاضى أسد بن الفرات فى منتصف القرن التاسع الميلادى . وفى بداية القرن الحادى عشر استولى النورمان (الشماليون أو الفيكنج) على صقلية ، ولكنهم سمحوا للعرب بالبقاء فيها ، وكان لهم جنود من العرب . وقد عاش الشريف الإدريسى - الجغرافى العربى المعروف - فى بلاط روجار ملك النورمان ، وأطلق إسمه على كتابه فى الجغرافيا ، كتاب روجار ، وكان بعض ملوك النورمان يتكلمون العربية .

الأوروبية ودول البربر . كما كانت المدن الإيطالية ومرسيليا وتولوز وكل مقاطعة بروفانس [٢٤] على صلة وثيقة بدول البربر : فقد كانت هذه المدن تحتفظ بقناصل فى جميع الموانئ البحرية الهامة . وكان هؤلاء القناصل يرعون مصالح مواطنيهم ويقومون بتمثيلهم لدى الدول الإسلامية . وكانت سفائن نابولى وبيزا والبندقية ومرسيليا وقشتالة [٢٥] تقوم بزيارات منتظمة لموانئ البربر ، وسيطرت جنوا وبيزا ، كما سيطر نورمان صقلية فيما بعد ، على هذه التجارة . وكان الأمر الهام هو الحصول على معاهدة تتضمن حقوقا استئثارية ، وكان نورمان صقلية هم أول من حصل على حقوق احتكارية ، ولكن مالبث أن تبعهم الآخرون . وقد أدركت دول البربر أن منح مثل هذه الحقوق لا يخدم مصالحها ، وسرعان ما أخذت تتمسك بالمنافسة الطليقة والتجارة الحرة . ونرى فيما سيأتى كيف أن المنافسة بين الولايات الإيطالية من أجل التجارة كانت على درجة من الضراوة جعلتها تتطلع إلى التغلغل فى الصحراء سعيا وراءها .

كذلك لم تكن التجارة هى العامل الوحيد فى الوحدة ، فقد احتفظ شمال إفريقية ، حتى بعد الفتح العربى ، بعلاقات وثيقة مع جنوب أوروبا ، وكان المرتزقة الأوروبيون يشكلون الحرس الخاص لبعض الحكام فى شمال إفريقية ، وذلك لنفس السبب الذى من أجله كان حكام فرنسا يفضلون السويسريين لحراستهم . وكان اعتناق الدين المسيحى مباحا منذ وقت مبكر ، وحتى فى العصر الوسيط كانت هناك جاليات مسيحية كبيرة تعيش فى المنطقة . وكان للمرتزقة المسيحيين حق ممارسة الشعائر الدينية وفق طرائقهم الخاصة وكانوا يمارسونها تحت إشراف قسس يرسلون من روما .

---

(٢٤) بروفانس : مقاطعة فرنسية تقع فى جنوب شرق فرنسا .

(٢٥) قشتالة · كستلا بالاسبانية ، مملكة قديمة بشمال أسبانيا ووسطها . كانت تنقسم إلى قشتالة القديمة وقشتالة الجديدة ، وقام الملوك اللاحقون بتوسيع الأولى على حساب العرب (قشتالة الجديدة) . وقد عرفت قشتالة بأنها حملت عبء المقاومة المسيحية ضد الإسلام فى الأندلس ، واستطاعت عن طريق توحيد الإمارات المسيحية الشمالية أن تدفع الوجود الإسلامى شيئا فشيئا خارج أسبانيا .

وهكذا ظل عالم البحر المتوسط محتفظاً بوحدته حتى بعد حدوث الانقسام إلى مسيحية وإسلام ، بيد أنه كان يستسلم فى بطء لمفهوم العالمين المسيحى والإسلامى . وأدى الاندماج العرقى بين قبائل البرابرة السابقة ، مثل الفرنجة والسكسون والتيوتون [٢٦] والشماليين [٢٧] من ناحية ، والأتراك والأكراد من ناحية أخرى ، واعتناق هذه القبائل لدين جديد ، إلى ظهور قوى جديدة . وتحول توازن القوى من سواحل البحر المتوسط إلى شواطئ بحر الشمال وسهول آسيا. فضلا عن أن مفهوم « آسيا » و « أوروبا » أخذ يزداد بروزاً . وفى ذلك قال أرنولد توينبى : « لقد وُجِد هذا الوهم عندما أعطى عقل هيلينى [٢٨] متوقد الخيال تغييرا ثوريا فى المعنى للإسمين الجغرافيين التقليديين أوروبا وآسيا ، بتحويلهما من خريطة البحارة إلى الخريطة السياسية وإلى الرسوم البيانية التى سجلها علماء الاجتماع للمواطن البشرية والحضارات ، وهذه الحيلة من حيل الخيال كانت لسوء الطالع حيلة موحى بها ، إذ على الرغم من أنه كان على هيرودوت أن يحولّها إلى هذا البيان الأدبى الجيد ، فإنها كانت مع ذلك وهماً حوّل المعقول إلى لا معقول ... أما عن مطابقة قارات البحارة بمواطن الحضارات المتنوعة فقد كان ذلك – لو أمكن – حتى أقرب إلى الوهم من سوء التطبيق السياسى لهذه المصطلحات البحرية ، وذلك لأن المؤرخ لايمكنه على الإطلاق أن يضع إصبعه على أية فترة ، مهما بلغت من القصر ، لم يكن فيها من التنوع الحضارى المتميز بين السكان الآسيويين والأوروبيين

---

(٢٦) التيوتون : الجرمان .

(٢٧) الشماليون (الفيكنج) : تعرف الفترة مابين ٧٥٠ – ٩٩٩م باسم فترة قراصنة البحار أو الفيكنج ، لأنه فى ذلك الوقت تعرضت أوروبا للغزوات البحرية التى كان يشنها سكان اسكنديناوه ، الذين عُرفوا بالشماليين أو الفيكنج . استخدموا السفن فى غزواتهم التى بدأوا أولاها على الجزيرة البريطانية ، ثم شبه جزيرة نورمنديا بفرنسا فى عام ٨٩٠ ، وبعدها توصلوا إلى معرفة البحر المتوسط وبحر قزوين وبحر أزوف ، كما اتجهوا أيضا إلى جزر الأطلسىّ .

(٢٨) هيليني : العصر الهليني هو عصر الحضارة اليونانية فى بلاد اليونان نفسها ، أى قبل الغزو المقدونى ، ويقابله عصر الحضارة الهلنستية ، أى عصر انتشار الحضارة اليونانية فى المشرق عقب فتوحات الإسكندر .

أكثر مما بين شاطئين متقابلين يفصلهما ممر مائى واه .... » وهكذا فإن المؤرخين الأوروبيين الذين كتبوا عن روما وعن اليونان يزعمون بأن تلك الحضارة إنما هى تراث الأوروبيين الشماليين ، فى حين يستبعد منها شمال إفريقية وشرق البحر المتوسط اللذان شاركا فيها . ويمكن لإفريقية الاستوائية بدورها أن تزعم الشئ نفسه ، لابالنسبة لروما فقط ، وإنما بالنسبة لمصر أيضا .

وكان باستطاعة شمال أوروبا أن يدعى لنفسه مأثورات اليونان وروما ، ليس لأن لأبنائه أية حقوق « كأوروبيين » ، بل لأنهم كانوا يخضعون فى رفق للتأثير الحضارى لهذه المأثورات . وبالمثل أصبح العرب فى الفترة بعد القرن السابع الميلادى المؤتمنين الرئيسيين على معارف الإغريق . فلماذا لم تكن استفادة شعوب إفريقية الاستوائية ، والتى تقع بدورها على حدود حضارة البحر المتوسط ، قدر استفادة شعوب شمال أوروبا ووسطها وشعوب صحراء شبه الجزيرة العربية ؟ لقد كانت تلك مسألة جغرافية أكثر منها أى شئ آخر . فالإمبراطورية الرومانية هى التى أدخلت الحضارة إلى شمال أوروبا ووسطها ، إذ امتدت حدودها حتى الراين والدانوب . وبعد اضمحلال روما لم تكتف الكنيسة بإدخال البرابرة فى الدين المسيحى ، بل فرضت القانون الرومانى أيضا ، وخلقت مجتمعا جديدا أساسه المفاهيم الرومانية والتيوتونية . بيد أن هذا كان مستطاعا فى أوروبا لأنه لم تكن هناك حواجز جغرافية كبيرة بين عالم البحر المتوسط والشمال ، ولذلك كان من الممكن حدوث تغلغل بطيئ . وبالمثل لاتوجد حواجز طبيعية كبيرة بين السواحل الآسيوية للبحر المتوسط والجزء الداخلى مما يعرف اليوم بالشرق الأوسط . وهكذا فإن ماسمح للأوروبيين باكتساب الأساس الذى يقيمون فوقه بنيانا علويا ليس عبقرية ينفردون بها ، وإنما هو الاتصال المستمر من خلال الغزو والتجارة .

فماذا كان الوضع فى إفريقية ؟ كان شمال إفريقية المركز لمجتمع حيوى شديد البأس . وقد قدم هذا المجتمع طوال تاريخه رجالاً ذوى تميز عظيم

يكفينا أن نذكر منهم القديس أوغسطين [29] وابن خلدون [30] . بيد أن حضارته ظلت بسبب الصحراء الكبرى حضارة ساحلية محدودة الصلات بالداخل . وقد أقيمت مراكز تجارية معينة . ولكن مصاعب عبور الصحراء وأخطاره حَدَّت كثيراً من الاتصال بين الساحل والداخل ، لذلك أخفق شمال إفريقية فى القيام بدور فعال فى نشر حضارته فى المناطق الاستوائية . وكانت النتيجة مزدوجة – فلم يتلق شمال إفريقية أى معين من البأس البربرى ، وظل حضارة ساحلية ، كما كان من نواح كثيرة جزيرة تفتقر إلى العمق الجغرافى وعاجزة عن تنمية حضارة مستقلة ، وأصبح بسبب الدين الإسلامى واللغة العربية تابعا للشرق فكريا وثقافيا . فضلا عن ذلك ظلت إفريقية الاستوائية إحدى مناطق العالم القليلة للغاية التى تكاد تعتمد كلية على مواردها الخاصة . وهكذا فعلى الرغم من أن سكان الغابات فى شمال أوروبا ووسطها ، وكذلك سكان الغابات فى الأجزاء المطيرة من إفريقية ، قد بدأوا من نفس المستوى وكانوا يفتقرون إلى نفس المزايا ، فإن الأوروبى استطاع أن يحقق تقدما سريعا

---

(٢٩) القديس أوغسطين : (٣٥٣– ٤٣٠م) ولد فى طاجسكا من أعمال نوميديا (الآن سوق الأخرس بالجزائر) لأب وثنى وأم مسيحية . شب أول الأمر على وثنية أبيه ، ثم اعتنق المسيحية وهو فى الرابعة والثلاثين ، وعلا شأنه فى العالم المسيحى بسبب دفاعه الشديد عن الكنيسة . أيقن بوجود العقل ، فالشك هو نفسه تفكير عقلى ، ووجود العقل فى الإنسان دليل على وجود الله ، والمعرفة الحسية كلها موضع شك من العقل حتى يثبتها أو ينفيها ، إذن فمصدرها هو الله . يقسم الناس إلى طائفتين : أهل « مدينة الله » ولهم نعيم مقيم ؛ وأهل الدنيا ولهم حياة الرذيلة وعذاب الآخرة . من كتبه المشهورة الاعترافات . وهو أقرب إلى السيرة الذاتية ؛ مدينة الله وهو تحليل دينى للمجتمع والتاريخ ؛ الثالوث . وفيه شرح للعقيدة المسيحية وتفنيد ما أثير حولها من أباطيل . وقد جمع أوغسطين بين الثقافة اليونانية والعقيدة المسيحية وأدرك ما بينهما من اختلاف وتأثير متبادل .

(٣٠) أبو زيد ولى الدين عبد الرحمن بن محمد الشهير بابن خلدون : (١٣٣٢ - ١٤٠٦) ، المؤرخ وعالم الاجتماع العربى المعروف ، وقد أخذ عنه بانيكار إشارات واقتباسات كثيرة بذلت جهدى لتحقيقها على مصدرها العربى . وبالنسبة لمقدمة إبن خلدون رجعت إلى الطبعة التى حققها الدكتور على عبد الواحد وافى (الطبعة الأولى ١٩٥٧ ، لجنة البيان العربى ، القاهرة) ، وسأشير إليها بطبعة لجنة البيان العربى ؛ أما عن العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، فتوجد منه عدة طبعات ، أولاها وأقدمها طبعة بولاق ، ١٨٦٨ ، ثم طبعة « دار الشعب » ، وطبعة بيروت ، والأخيرة أفضلها وتتضمن فهارس كشافة بالترتيب الأبجدى للأعلام والبلدان والقبائل وغيرها ، وقد أخذت عن الأولى وعن هذه الأخيرة ، وأشرت إليهما على التوالى بطبعة بولاق وطبعة بيروت .

للغاية بسبب قدرته على استعارة الأساليب الفنية والأفكار وغيرها من مقومات الحضارة . ولأن الأوروبى كان لديه كنز من حكمة عالم البحر المتوسط المتراكمة يستعيد منه ويكّيف وينمى ، تمكنت تلك الحضارة الأوروبية من أن تنمو سريعا .

أما إفريقية الاستوائية فكانت أقل حظاً ، فقد تركت وشأنها . صحيح أن بعض التجار وقليلا من الدعاة المسلمين ، وحملات الغزو العارضة ، قد حملوا معهم الأفكار الأجنبية ، إلا أن الضغط المستمر للأفكار والبشر ، الضرورى لخلق الحضارة ، كان مفتقدا . وهكذا تطورت إفريقية الإستوائية على أساس ظروفها الخاصة . وكانت حضارتها تنمو باطراد وإن لم تكن فى لمعان حضارات المناطق الأخرى ، وكان من المحتّم أن تنمو حضارة غرب إفريقية بسرعة أكبر لو أنه هيئ لها أساس اقتصادى مختلف . وكما سنحاول أن ندلل فيما بعد ، فإن السبب الذى من أجله عجزت إفريقية الاستوائية عن أن تتطور بسرعة أكبر هو أن شمال إفريقية كان بالنسبة لها عامل هدم أكثر منه عامل بناء .

رابعا

خليق بنا قبل أن نقطع شوطاً أبعد أن نصغى إلى مشورة أعظم المؤرخين الإفريقيين . فابن خلدون ، أعظم مؤرخى شمال إفريقية ، يذكر الصعاب التى يواجهها كل من يحاول كتابة التاريخ . ويقول إن المادة التاريخية ينبغى أن تضبط مرارا ، وإن المرء ينبغى أن تكون لديه القدرة على أن يزن الأمور ، وأن يأخذ حذره من المبالغات . « وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط فى الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثًّا أوسميناً لم يعرضوها على أصولها ، ولاقاسوها بأشباهها ، ولا سبروها بمعيار الحكمة ، والوقوف على طبائع الكائنات ، وتحكيم النظر والبصيرة فى الأخبار . فضلّوا من الحق وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط ، ولاسيما فى إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت فى الحكايات ، إذ هى مظنة الكذب

ومطية الهذر ، ولابـد من ردها إلى أصـولها وعرضـها على القـواعد » . (٣١)
ويـورد إبـن خلدون ، على سبيل المثال ، الروايـة المنافيـة للمعقول التى رواهـا الـبكرى (٣٢) عن « المدينة ذات الأبواب » (٣٣) التى يزيد محيطها على مسيرة ثلاثين يوما وبها عشرة آلاف باب ، ورواية المسعودى (٣٤) عن « مدينة النحاس » التى يقول فيها إنها مدينة كل بنائها نحاس بصحراء سجلماسة ...» وإنها مغلقة الأبواب ، وإن الصاعد إليها من أسوارها إذا أشرف على الحائط صفق ورمى بنفسه ، فلا يرجع أخر الدهر . » ويقول إبن خلدون إن ما ينبغى أن نأخذ حذرنا منه هو اللغو الذى تنطوى عليه حكايات من هذا القبيل . « فصحراء سلجماسة قد نفضها الركاب والأدلاء ولم يقفوا لهذه المدينة على خبر ثم أن الأحوال التى ذكروا عنها كلها مستحيل عادة مناف للأمور الطبيعية فى بناء المدن واختطاطها؛ وأن المعادن غاية الموجود منها أن يصرف فى الآنية والخرثى ، وأما تشييد مدينة

---

(٣١) العبر ، المجلد الأول (مقدمة إبن خلدون) ، طبعة بولاق ، الصفحتان ٧ و ٨ .

(٣٢) أبو عبيد ، عبد الله بن أبى مصعب بن أبى زيد محمد بن أيوب بن عمرو البكرى : الوزير الفقيه والعالم اللغوى والجغرافى العربى المعروف . لم تصرح الكتب بسنة ميلاده ، وإنما ذكرت سنة وفاته (٤٨٧هـ) عن سن متقدمة . ولد فى الأندلس ، وشغل بها مناصب عالية ، أهم مؤلفاته المسالك والممالك . وقد طبع البارون دى سلين جزءاً من هذا الكتاب باسم المغرب فى تكريلاد إفريقية والمغرب ، مع مقدمة بالفرنسية ، وصدر فى الجزائر فى سنة ١٨٥٧ . وأصدرت دار الكتاب الإسلامى بالقاهرة طبعة مصورة لهذا الكتاب ، وعن هذه الطبعة أخذت ماأوردته نقلا عن البكرى .

(٣٣) « ومن الأخبار المستحيلة ... مانقله البكرى فى بناء المدينة ذات الأبواب تحيط بأكثر من ثلاثين مرحلة وتشتمل على عشرة آلاف باب والمدن إنما اتخذت للتحصين والاعتصام كما يأتى ، وهذه خرجت عن أن يحاط بها . » العبر ، المرجع السابق ، الصفحة ٣٠ .

(٣٤) على بن الحسن بن على بن عبد الله : (٩٠٠ - ٩٥٧ م) الجغرافى والمؤرخ العربى ، من ذرية الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود ، ولذا عرف بالمسعودى . ولد ونشأ فى بغداد ، واستقر ومات فى مصر، جاب معظم أرجاء العالم القديم . خرج على من سبقه فى كتابة التاريخ ، فعدل عن كتابته سنة بسنة وقسمه حسب الموضوع ؛ اقتفى إبن خلـدون أثره فى كتابة التاريخ ، وتـأثر به إبـن حـوقل والبيرونى . أعظم كتبه مروج الذهب ومعادن الجوهر ، وقد حققه محمد محيى الدين عبد الحميد ، وصدرت طبعته الأصلية عن مطبعة بمصر ثـم صدرت له طبعـة مصـورة عن المكتبة العصرية بصيدا - بيروت ، وهى الطبعة التى أخذت عنها .

منها فكما تراه من الإستحالة والبعد » . (٣٥) ولو وجدت حقيقة غريبة كهذه فلابد أن لاحظها الرحالة وورد ذكرها على لسانهم ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث .

ومـــرة أخـــرى فيما يتعلق بالأنساب ، إذ يبين إبن خلدون أن المؤرخين العرب حرصوا على إثبات أن العـــرب غـزوا المغـرب تحت لـواء الملك اليمنى تُبّع الذى حكم وقت سليمـان . واستنادا إليهم فإن الملك هو الذى أطلق عليهم كلمة بربـر « حين سمع رطانتهم وقال ما هذه البربرة » ، وإنه قام بتوطين بعض قبـائل حمـــير فى الغرب ، وتزعم الأسرة الحاكمة فى المغرب أنها تنحدر منها . ويقـــول إبن خلدون « إن ملك التتـابعة إنما كان بجـزيرة العـرب وقرارهم وكرسيهم بصنعاء اليمن ... فلا يجد السالكون من اليمن إلى المغرب طريقا غير السويس ويبعد أن يمر بهذا المسلك ملك عظيم فى عساكر موفورة من غير أن تصير من أعماله ... وأيضا فالشقـة مـن البحـر إلى المـغرب بعيـدة والأزودة والعـلوفة للعساكر كثيرة ... وإن نقـلوا كفايتهم من ذلك من أعمالهم فلاتفى الرواحل بنقله ... » (٣٦) .

وأخيرا : ينبغى للمرء أن يحـذر من الأحكام المسبقة ، وأن يزن أية مشكلة بعقلانية ، ليتبين إن كان حدوثها ممكنا ، وأن يتقبل الحل الذى يبدو أقرب إلى العقل على ضوء الحقائق ، فغزوة حميرية للمغرب مثلا بدت لإبن خلدون أمراً غير محتمل ، وربما من وحى خيال المؤرخين ، وتاريخ غرب إفريقية ، كما سنرى ، زاخر بخرافات من هذا القبيل تحتاج إلى قدر أكبر من الفحص والتدقيق . (٣٧)

---

(٣٥) هذه الاقتباسات نقلاً عن العبر ، المرجع السابق ، الصفحتين ٣٠ و ٣١ . وبذلك يكون من الواضح أن ما ذكره بانيكار منسوباً إلى البكرى والمسعودى إنما مصدره العبر . (الغرنى هو أساس المنزل .) ونورد هنا فقرة أخرى تسبق تلك التى أوردتها فى المتن : « وكما نقله المسعودى أيضاً فى حديث مدينة النحاس وإنها مدينة كل بنائها نحاس ... » المرجع نفسه ، الصفحة ٣٠ .

(٣٦) المرجع نفسه ، الصفحتان ٩ و ١٠ .

(٣٧) « وأمـــا الأخبار عن الواقعات فلابد فى صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة . فلذلك وجب أن ينـظر فى إمكان وقوعه ... وإذا كان ذلك فالقانون فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر فى الاجتماع البشرى الذى هو العمران ... وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانونا فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار والصدق من الكذب بوجه برهانى لامدخل للشك فيه . » المرجع نفسه ، الصفحة ٣١ .

خامسا

ماذا كان القدماء يعرفون عن إفريقية الاستوائية ؟ يقدم هيرودوت [٣٨] ثلاث روايات مستقلة عن العلاقات مع غرب إفريقية منها أسطورة ناسامون [٣٩] .

« إن مجرى النيل معروف لاحيث يعبر مصر فقط ، وإنما أيضا إلى مسيرة شهور جنوبا بَراً وماءً ؛ وذلك لأن الحسابات توضح أن ذلك هو الوقت اللازم للسفر من جزيرة فيله حتى الصحراء . فعند تلك النقطة يجرى النهر من الغرب إلى الشرق ؛ وبعد ذلك لايعرف مجراه على وجه اليقين ، فالمنطقة غير مأهولة بسبب الحرارة » . ويذكر هيرودوت أنه سمع رواية من بعض أهالى سيرين [٤٠] تفيد أنهم تناولوا موضوع النيل والغموض الذى يحيط بمجراه خلال زيارة لمهبط وحى أمون [٤١] ، وذلك فى حديث لهم مع الملك الأمونى ايتارخوس الذى أخبرهم أن بعض الناسامونين ، وهم شعب يعيش فى سرت وفى البلد الذى يقع نحو الشرق ، قد زاروه ذات يوم وأخبروه أثناء الزيارة أن فريقا من خمسة شبان قد كشفوا الصحراء الليبية ، وحاولوا التغلغل إلى أبعد مما تغلغل أحد من

---

(٣٨) هيرودوت : (٤٨٤؟ - ٤٢٥ ؟ ق.م) المؤرخ الإغريقى المعروف ، زار بلدانا كثيرة من بينها مصر ، كان كاتبا موهوبا طلى الأسلوب بارعا فى الوصف قديراً على الصياغة الأخاذة لما يسمعه . وهو خليق بمكانة ملحوظة في تاريخ البشرية والحضارة ، وصفه شيشرون بأنه « أبو التاريخ » لأنه هو الذى خلق فلسفة التاريخ وأول من عالجه كموضوع بحث علمى . وقد عثرت على ترجمة عربية قديمة كاملة لكتابه فى التاريخ ، استعنت بها فى ضبط ترجمة الفقرات التى أوردها پانيكار عنه ، وجاء فى صدر هذه الترجمة مايلى « تاريخ هيرودوتس الشهير ، ترجم من الفرنسوية بقلم الشهم الغيور حبيب أفندى بسترس ، طبع فى بيروت بمطبعة القديس جاورجيوس سنة ١٨٨٦ - ١٨٨٧ » .

(٣٩) الناسامونيون : شعب عاش فى سُرْت . وسرت اسم قديم لخليجين داخليين من البحر المتوسط فى ساحل إفريقية الشمالى ، أحدهما كبير ويعرف الآن بخليج السدر ، والآخر صغير واسمه الآن خليج قابس .

(٤٠) سيرين : مدينة القيروان الحالية بتونس .

(٤١) مهبط وحى أمون : واحة سيوة المعروفة ، حيث أقامت الجالية الإغريقية معبدآمون الشهير الذى زاره الإسكندر الأكبر عقب مجيئه إلى مصر . ذاعت شهرته عند الإغريق بخاصة بسبب ماقيل عن هلاك جيش قمبيز الذى جاء لغزوها .

قبل . » وكل ساحل ليبيا ، الواقع على البحر المتوسط ، من مصر حتى رأس سوليس [٤٢] حيث نهايته ، تقطنه قبائل مختلفة من الليبيين ، عدا الجزء الذى يمتلكه الإغريق والفينيقيون ؛ غير أنه فى الأجزاء الداخلية جنوبى المنطقة الساحلية المأهولة لاتوجد سوى الحيوانات المفترسة ، وإذا توغلنا أكثر فى اتجاه الجنوب وجدنا صحراء مجدبة لاحياة فيها من أى نوع » . وقد بدأ الشبان أسفارهم بمؤونة طيبة من الزاد والماء ، وبعد المرور بالأجزاء المأهولة من البلد وصلوا إلى منطقة الحيوانات المفترسة ، ثم مضوا إلى الصحراء يعبرونها فى اتجاه الغرب ، وبعد أيام ترحال عديدة عبر الصحراء لمحوا بضع أشجار فوق رقعة منبسطة . ولكن ماإن اقتربوا من المكان وأخذوا فى التقاط شيئ من الفاكهة من الأشجار حتى أطبق عليهم بعض رجال قصار – أقصر من المألوف– وقبضوا عليهم وساقوهم عنوة . وكان حديث هؤلاء الأقزام غير واضح . كما لم يكن باستطاعتهم أن يفهموا الناسامونيين . ومضى الرجال القصار بالناسامونيين خلال بقعة مليئة بالمستنقعات ، وأخيرا« وصلوا إلى مدينة سكانها جميعا سود البشرة ولهم نفس القامة القصيرة . وكان يشق المدينة من الغرب إلى الشرق نهر كبير ملئ بالتماسيح » [٤٣]

ويذكر هيرودوت ، وهو يقدم وصفاً لشعب ليبيا ، أنه يوجد إلى الغرب من الأمونيين [٤٤] داخل الصحراء ، على مسيرة عشرة أيام ، مكان يدعى أوجله [٤٥] ، وهنا يأتى الناسامونيون من أجل محصولهم من التمر . وعلى

---

(٤٢) رأس سوليس : المقصود بها فى أغلب الظن المنطقة الصخرية فى ساحل إفريقية الغربى التى عرفت فيما بعد باسم سبارطل .

(٤٣) ربما كان هذا النهر هو النيجر كما جاء فى رحلة موليان .

(٤٤) الأمونيون : سكان واحة سيوة .

(٤٥) « وحدود بلاد الأوشية من الغرب بلاد الناسامونه وهم كثيرو العدد . وفى الصيف يترك الناسامونه مواشيهم على شاطئ البحر ويصعدون إلى قطر يقال له اوجيلس ليحملوا منه التمر فى الخريف . » تاريخ هيرودوتس ، بيروت ، ١٨٨٧ ، الصفحة ٣٢٣ .

مسيرة عشرة أيام أخرى فى اتجاه الغرب تقع بلاد **الفارمنطيس** (٤٦) ، وهم أفراد قبيلة غفيرة العدد ينشرون الطمى فوق الملح ليبذروا حبوبهم . (٤٧) وعلى مسيرة ثلاثين يوما أخرى من بلاد الفارمنطيس توجد أرض **لوتو فاجى** (٤٨) ، « والماشية لديهم ترعى وهى تتقهقر فى سيرها ، وتفسير هذه العادة الغريبة يكمن فى تكوين قرونها التى تنحنى إلى أمام وإلى أسفل مما يمنعها من التحرك فى الاتجاه المعتاد ، إذ لو حاولت ذلك لاصطدمت قرونها بالأرض » . ويقوم الفارمنطيس بصيد سكان الكهوف السود فى عربات تجرها أربعة خيول . « وسكان الكهوف هؤلاء يعدون بسرعة فائقة . وهم يأكلون الحيات والسحالى وغيرها من الزواحف ، ويتكلمون لغة لاتجمعها صلة بأية لغة على وجه الأرض ويظن من يسمعها أنها صراخ خفافيش . »

وعلى مسيرة عشرة أيام أخرى يوجد موطن قبيلة أتارنته التى لا يتخذ أفرادها أية أسماء فردية ، فأتارنته هو الاسم الجماعى للقبيلة . ولما كانت الشمس هى سبب بؤسهم كله فإنهم يلعنونها وينعتونها بكل إسم معيب . وبعد مسيرة عشرة أيام أخرى فى اتجاه الغرب نصل إلى جبل أطلس . ويتخذ هذا الجبل شكل مخروط رشيق ، ولكن ارتفاعه لايستهان به ، ولذا فإن قمته لاترى إذ لا تغادرها السحب قط لاصيفاً ولاشتاءً . والأهالى يسمونه عمود السماء ،

---

(٤٦) الفارمنطيس : شعب أقام جنوب غرب طرابلس الحالية ، واتخذوا اسمهم من جارما (جرما عند الإدريسى) ، وفزان الحالية جزء من أراضى الفارمنطيس القديمة ، وعندما غزا الرومان بلادهم فى القرن التاسع قبل الميلاد أطلقوا عليها اسم فزانيا ، ومنها اسم فزان . كانت غدامس معقلالهم قبل ظهور المسيحية . تضاربت حولهم الآراء ، هل من أصل ليبى أم زنجى ، ومن رأى المؤرخين والجغرافيين العرب أنهم من البيضان ، أى ليسوا زنوجا .

(٤٧) « وسكان هذه البلاد أمة الفارامنته وهى كثيرة العدد يطرحون فوق الملح ترابا ثم يزرعون » تاريخ هيرودوتس ، المرجع السابق ، الصفحة ٣٢٧ .

(٤٨) لوتوفاجى : الاسم الذى عرفت به جربه الحالية لدى الجغرافيين الإغريق والرومان حتى القرن الرابع الميلادى . وجربه جزيرة تبعد قليلا عن ساحل إفريقية الشمالى وتشكل جزءاً من تونس ، ويفصلها عنها مضيقان أحدهما غرباً ويؤدى إلى خليج قابس . تصارع نورمان صقلية والأسبان والأتراك على ملكيتها . سقطت فى أيدى الأتراك فى عام ٩٦٨ .

ومن أجله يسمونه أتلنته ، ويفترض فيهم ألا يأكلوا أية مخلوقات حية وألا يروا قط أحلامًا في منامهم . (٤٩)

ويقول هيرودوت إن البحر يغسل ليبيا من جميع جوانبها ماعدا حيث تتصل بآسيا . وأثبت ذلك الملك المصرى نخاو ، فقد أرسل أسطولا مزودًا ببحارة من الفينيقيين ، ويحمل أمرا بالطواف حول إفريقية ، وأبحر الفينيقيون نحو المحيط الجنوبى ، وكانوا عندما يحل الخريف يحطون الرحال فى بقعة مريحة على الساحل الليبى ، ويبذرون الحب وينتظرون حصاد العام التالى ، وبعد جنى المحصول يبحرون مرة أخرى ، وبعد عامين كاملين دخلوا إلى البحر المتوسط ، وفى العام الثالث عادوا إلى مصر ، وقد أعلنوا أنهم « عندما اتجهوا نحو الغرب حول طرف ليبيا الجنوبى كانت الشمس على يمينهم – فى اتجاه الشمال منهم . وبهذه الكيفية اكتشف فى أول الأمر أن ليبيا محاطة بالبحر .... » ويذكر هيرودوت أن أكزركسيس ملك الفرس أرسل قائد جيشه ساتاسب ليطوف بحرا حول إفريقية ، لكنه لم يوفق ، فقد حاول أن يذهب فى عكس الاتجاه الذى سار فيه الفينيقيون . (٥٠) « بعد عبور المضايق انكفأ راجعا إلى رأس سبارطل ، واستمر فى الإبحار جنوبا عدة شهور ولكن عندما تبينت له ، بعد المسافة الطويلة التى قطعها ، ضرورة الإبحار مسافة أخرى أقلع عائدا إلى مصر . » ويبدو أنه وصل إلى إفريقية الغربية ، فهو يذكر أنه وصل إلى أرض يقطنها أناس قصار

---

(٤٩) « وكذلك على مسافة عشر مراحل من الغرامنته تجد أكمة أخرى من الملح ونبع ماء وحولها الناس ويسمون أتارنته . وهم وحدهم ممن أعرف من الناس ليس لهم أسماء تميز بعضهم عن بعض ، وهم يلعنون الشمس حينما تكون فى أعلى نقطة من ارتفاعها وقوتها ويشتمونها بكل أنواع الشتائم لأنها تحرقهم وتحرق جلودهم .

« وعلى مسيرة عشر مراحل تجد أكمة أخرى من الملح وحولها ناس . وجبل أطلس يتصل بتلك الأكمة وهو ضيق مستدير من كل جهة لكنه شامخ حتى يستحيل على مايقال أن ترى قمته لسبب الغيوم التى لاتزال محجوبة بها شتاء وصيفا وأهل البلاد يقولون إنه عمود من السماء ، ومن اسم هذا الجبل سموا أتلنته ، ويقال إنهم لايأكلون شيئا مافيه حياة وأنهم لايرون أحلاما مطلقا . » تاريخ هيرودوتس ، المرجع السابق ، الصفحة ٣٢٨ .

(٥٠) الفينيقيون : قوم يتكلمون السامية ، احتلوا الساحل الشرقى للبحر المتوسط واستقروا فى فينيقيا (بين صور وصيدا) . اكتسبوا مهارة شديدة فى الملاحة والتجارة حتى أصبحوا سادة التجارة في البحر المتوسط (١٢٥٠ ق . م) . حينما رحلوا أنشأوا مستعمرات أشهرها قرطاجة .

القامة يرتدون ثيابا مصنوعة من سعف النخيل . » وعندما نزلوا إلى البر كان الأقزام يهجرون مواطنهم ويفرون إلى الجبال . »

بعد محاولة الدوران بحرا حول إفريقية جاء **القرطاجيون** (٥١) تحت قيادة **هانو** (٥٢) . « يروى لنا القرطاجيون أيضا أنهم يبحرون مع عنصر من البشر يعيش فى جزء من ليبيا فيما وراء **أعمدة هرقل** (٥٣) . وعندما يجئ أفراده إلى هذا البلد يفرغون بضاعتهم ويرتبونها بعناية بمحاذاة الشاطئ ، ثم يعودون إلى قواربهم ويطلقون دخانا ، حتى إذا رأوا كمية معينة من الذهب وضعت مقابل البضاعة يعودون إلى الشاطئ ويلقون نظرة عليه . فإذا اعتقدوا أنه يمثل ثمنا معقولا حملوه ومضوا به ، وإذا بدا لهم من الناحية الأخرى ضئيلا للغاية يعودون إلى قواربهم وينتظرون ، ويحضر الأهالى ويضيفون إلى الذهب حتى يقنع القرطاجيون . وتتوفر أمانة كاملة لدى الجانبين ؛ فالقرطاجيون لايمسون الذهب قط حتى تتساوى قيمته مع ما يقدمونه للبيع ، والأهالى لايمسون البضاعة قط حتى يأخذ أصحابها الذهب . » (٥٤)

---

(٥١) القرطاجيون : نسبة إلى قرطاجة فى خليج تونس التى أسسها الفينيقيون فى القرن التاسع قبل الميلاد ، والتى ينتمى إليها الملاح هانو .

(٥٢) هانو : بحار قرطاجى قام قبل ٤٨٠ ق.م برحلة إلى المحيط الأطلسى وغرب إفريقية . سارت الرحلة بمحاذاة ساحل شمال إفريقية ، ويقال إنها اخترقت جبل طارق ، ووصلت إلى ريودى أورو حيث أسست مركزا تجاريا استخدم كقاعدة لرحلات القرطاجيين صوب الجنوب . وقد كتب هانو تقريرا عن رحلته باللغة البونية علق فى معبد ملكارت بقرطاجة ، وقد عثر فيما بعد على كتاب باليونانية عنوانه Periplus يقال إنه ترجمة لتقرير هانو .

(٥٣) أعمدة هرقل : عرف جبل طارق عند الجغرافيين بكالبى أو الايبى ،أما الربوة عند سبتة على الساحل الإفريقى فى مواجهة جبل طارق فعرفت وقتئذ بأبيلا ، وقد شكلت كالبى وأبيلا ماعرف بأعمدة هرقل التى ظلت طويلا أقصى ماتصل إليه المغامرات البحرية .

(٥٤) هذا النوع من التجارة عرف بالتجارة الصامتة ، وقد حفلت كتب المؤرخين العرب بإشارات إليها مما يؤكد استمرار وجودها فى إفريقية حتى أيامهم « .... وساروا (التجار) مجدين بعناية حتى يقدموا الموضع الذى يحجز بينهم وبين أصحاب التبر فإذا وصلوا ضربوا طبولا معهم عظيمة تسمع من الأفق ... فإذا علم التجار أنهم قد سمعوا الطبل أخرجوا ماصحبهم من البضائع المذكورة فوضع كل تاجر مايخصه من ذلك كل صنف على جهة ويذهبون عن الموضع مرحلة فيأتى السودان ومعهم التبر فيضعون إلى جانب كل صنف منها مقدارا من التبر وانصرفوا ، ثم يأتى التجار بعدهم فيأخذ كل واحد منهم ما وجد بجانب بضاعته من التبر ويتركون البضائع وينصرفون بعد أن يضربوا طبولهم ....» ياقوت الحموى ، كتاب معجم البلدان ، طبعة طهران ، ١٩٦٥ ، المجلد الأول ، الصفحتان ٨٢١ و ٨٢٢ .

ولرحلة هانو أهمية كبيرة فى فهم علاقة الفينيقيين بغرب إفريقية ، فهل دار هانو حول إفريقية ؟ إن هيرودوت ، رغم روايته للقصة ، لايؤمن بها من جميع جوانبها ، وموضع اعتراضه أن هانوا ينكر أن الشمس تأتى من الجانب الأيسر ، ولكن ذلك هو بطبيعة الحال أقوى سبب لقبولها اليوم . غير أن نوع الرحلة التى قادها هانو لابد أن تكون قد خلّفت وراءها شيئاً ، فقد أخذ معه ثلاثين ألف رجل ، ويحملنا هذا على الاعتقاد بأنه كان ينوى أن يؤسس مستعمرات . والرواية الوحيدة المتوفرة لدينا عن رحلة هانو هى تلك التى قدمها هيرودوت ، وتعتمد روايته على ماكان شائعا يومئذ . فلا الترجمة اليونانية لكتاب بريبلوس (٥٥) ، ولا الأصل المحفوظ بأحد معابد قرطاجة ، قد رآه أحد من العلماء القدامى أو اقتبس منه . وأدى هذا بالبعض إلى القول بأن الوثيقة هى فى المقام الأول بغرض الدعاية ، وبأن هانو لم يدر بحرا حول إفريقية ، ولكن ذلك لايدعونا إلى الوقوف عند هذا الحد ؛ فالسفن القرطاجية أبحرت حتى وصلت إلى بريطانيا ، وفيما عدا مصاعب الملاحة والمشكلة المتعلقة بحجم الأسطول الذى قاده هانو ، فإنه لايوجد ما يدحض قيام الحملة الفينيقية .

وقد أثارت رحلة هانو جدلاً شديداً ، لاسيما حول مدى ماوصل إليه الفينيقيون فعلا أسفل ساحل إفريقية الغربية . وهل كل ماهنالك أنهم عبروا مضيق جبل طارق وأبحروا بمحاذاة ساحل مراكش ؟ ذلك أن جدب التربة وندرة المياه والمصاعب الملاحية ، مثل الرياح والتيارات البحرية المعاكسة ، قد حملت غالبية الناس على الاعتقاد بأنهم لم يتقدموا إلى ماهو أبعد من مراكش الجنوبية . وترد على ذلك الحجة القائلة بأن الغوريللا وحمم النار المتدفقة إلى البحر قد ذكرها هانو الذى تدعونا روايته لها إلى الاعتقاد بأن الفينيقيين لابد أن يكونوا قد بلغوا سيراليون على الأقل . بل إن

---

(٥٥) بريبلوس Periplus : كلمة يونانية معناها الدوران بحرا حول الأرض ، من أهم ماتبقى من هذا الكتاب « بريبلوس البحر الأحمر " Periplus Mare Erythraeum " . أنظر الحاشية ١ - ٥٢ أعلاه .

بالمو (٥٦) يرى أن مترجمى الفينيفيين من أهل ليكسيتاى (٥٧) هم من أسلاف الفولانى (٥٨) . وعلى جانب آخر يرجح كثيرا أن بعض رجال رحلة هانو ، الذين بلغ عددهم ثلاثين ألفا ، هم البقايا المتناثرة من بدو الصحراء الذين كانت لدى الفرعون رغبة شديدة فى التخلص منهم ، وكانت رحلة هانو فرصة ليرسلهم إلى آخر الدنيا ، وهؤلاء البدو قد يكونون بالفعل أسلاف الفولانى ، لأنهم كما يقول بيرتون (٥٩) لا يزالون يتمسكون بالأسطورة القائلة بأنهم قدموا أصلا عبر البحار . وربما يكون ذلك تفسيرا لحالتهم البدوية ، ولحبهم للرعى ، وكذلك لحركتهم فى اتجاه الشرق .

وكانت معرفة الرومان بالصحراء الكبرى أوسع قليلا من معرفة الإغريق ، ومع ذلك يؤكد سالوست (٦٠) أن ماكان يعرف عن إفريقية قليل . « لم يكن فى

---

(٥٦) هربرت ريتشموند بالمو : من أبرز مؤرخى غرب إفريقية ، وبخاصة إمبراطورية البرنو ، من أشهر كتبه Bornu Sahara and Sudan ، وتوجد نسخة منه بدار الكتب وأخرى بمعهد الآثار الألمانى بالقاهرة ، وهو يتضمن سردا تفصيليا لتاريخ مايات (سلاطين) الأسرة السيفية فى برنو ؛ Sudanese Memoirs ، ويقع فى ثلاثة مجلدات فى كتاب واحد ويتضمن تراجم كاملة لبعض من أهم المؤلفات العربية فى تاريخ المنطقة ، لاسيما مؤلفات أحمد بن فرتوا مؤرخ الأسرة السيفية ، وكذلك تاريخ كانو ؛ ولايوجد أثر لهذا الكتاب فى جميع المكتبات العامة بالقاهرة ، ولكن توجد نسخة وحيدة منه فى مكتبة قسم التاريخ بكلية الآداب ، جامعة الإسكندرية .

(٥٧) ليكسيتاى : منطقة العريش الحالية فيما كان يعرف بمراكش الأسبانية .

(٥٨) أنظر الحاشية ١ - ١٠٦ أدناه .

(٥٩) سير ريتشارد ف . بيرتون : (١٨٢١ - ١٨٩٠) ، مكتشف ولغوى وكاتب بريطانى : تعلم عدة لغات شرقية منها العربية . زار مكة والمدينة متخفيا فى زى حاج مسلم ، وكتب عن رحلته « القصة الشخصية لحاج إلى المدينة ومكة » . وقد أصدرت الهيئة العامة للكتاب بمصر مؤخراً ، ضمن سلسلة « الألف الكتاب الثانى » ترجمة لهذه القصة تحت عنوان رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ، الجزء الأول ، قام بها دكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ . قام بيرتون مع سبيك وآخرين برحلة إلى الصومال ثم إلى شرق إفريقية للبحث عن منابع النيل ، وبقى فى طابورة ، على حين سار سبيك شمالا واكتشف بحيرة ڤيكتوريا ، ترجم « ألف ليلة وليلة » إلى الإنكليزية .

(٦٠) سالوست (جايوس سالوستيوس كريسبوس) : (٨٦ - ٤٣ ق . م) مؤرخ رومانى معروف .

مقدوري أن أقـدم في يسر رواية أكيدة وثابتة عن هذه المناطق ، وعن هؤلاء الذين يندر أن تجمعهم رابطة بسبب القيظ أو صعوبة الاتصال أو الاتساع الشديد الصحراء . » وقد أدت إقامة مقاطعة رومانية في شمال إفريقية بعد تدمير قرطاجة إلى خلق مشكلة الحدود المفتوحة ، فروما لم تكن ترى أنه من الضروري أن تغزو الصحراء ، ولكنها عزمت على إقامة مواقع تستطيع منها كبح جماح البدو . وَوُجِّهت إلى القبائل حملة تأديبية عارضة ، وبذلت محاولة للسيطرة على المراكز التجارية . وفي العام التاسع عشر قبل الميلاد قاد **كورنيليوس بالبوس** (٦١) حملة إلى فَزان ، وأُخضِعت مدن مثل **غدامس** (٦٢) وزورلا . وكانت الحملة تستهدف في المقام الأول إبقاء الطريق إلى بلاد السودان مفتوحاً . وإذا أخذنا برواية **بطلميوس** (٦٣) فلابد أن يكون الرومان قد وصلوا إلى حدود بلاد السودان في العام المائة بعد الميلاد . « أما عن الرحلة من بلاد الغارمنطيس إلى بلاد الإثيوبيين ، فقد قاد سپتيميوس إلاكوس جيشا من ليبيا في اتجاه الجنوب ، ووصل إلى بلاد الإثيوبيين في ثلاثة شهور . وكذلك فإن يوليوس ماترنوس الذي بدأ من **ليبتس ماجنا** (٦٤) ، وزحف من جاراما بصحبة ملك

---

(٦١) كورنيليوس بالبوس : هناك شخصان حصلا على المواطنة الرومانية في القرن السابق للميلاد : كورنيليوس بالبوس الكبير ، وابن أخيه كورنيليوس بالبوس الصغير . ومن الواضح أن المقصود هنا هو الأخير الذي اشترك في حروب الإسكندرية والحروب الأسبانية ، وأوقع الهزيمة بالغارمنطيس وضم بلادهم إلى الامبراطورية الرومانية وأسماها فزانيا .

(٦٢) غـدامس : مدينة في واحة تحمل نفس الاسم ، كانت معقل الغارمنطيس قبل ظهور المسيحية .

(٦٣) كلوديوس بطلميوس : نشأ بالإسكندرية ، وتوفي بعد عام ١٦١ م. عالم فلك ورياضة وجغرافيا وفيزيقيا ومؤرخ يوناني مصري . قام بتبويب وتسجيل نتائج وقوانين علماء الإسكندرية . تعتبر أعماله الجغرافية أقرب إلى الفلك وقد اعتمد فيها على أعمال مارينوس .

(٦٤) ليبتس ماجنا : ميناء قديم في موضع طرابلس الحالية أسسه بحارة من صيدا ، أغارت عليه قبائل من فزان وهدمته في القرن الرابع الميلادي ، وأعاد البيزنطيون بناءه وتحصينه ، ولكن سرعان ما دمره البربر . خلف أطلالا رومانية رائعة .

الغارمنطيس فى اتجاه الإثيوبيين ، قد وصل بعد أربعة أشهر إلى أچيسومبا [٦٥] ، وهى منطقة يتجمع فيها الكركدن » .

وذلك لابد أن يكون قد وصل بالرومان إلى حدود إفريقية الزنجية . وثمة أسباب أخرى تحمل على الاعتقاد بأن غرب إفريقية كان مألوفا لدى الرومان ، وقد أكدت الحفائر الأثرية الأخيرة معرفتهم بالصحراء الكبرى . فعلى بعد قرابة ٤٥٠ ميلا جنوب ليپتس ماجنا ، أى حوالى خمسين ميلا شمال مُرْزُق [٦٦] ، وجدت خرائب ترجع إلى عصر الرومان . كما عثر هنا فى غابة صغيرة وحيدة على بقايا أوانٍ خزفية . وفى غات [٦٧] تم الكشف عن كميات كبيرة من الأوانى الخزفية من أيام الرومان . هذا وقد عثرت البعثة الإيطالية التى أرسلت إلى الصحراء فى عام ١٩٣٣ على مقبرة فى چيرما بها أدوات شبيهة بأدوات قرطاچة .

وفضلا عن التأثيرات المعروفة من المحتمل تماما وجود تأثير للشرق من خلال إفريقية الوسطى . ويرجح أن الطريق من الشمال لم يكن قد استخدم حتى جاء الجمل . ذلك أن الجمل ، استنادا إلى بعض المؤرخين ، حيوان آسيوى . وقد التقى به الرومان أول الأمر فى أثناء حملتهم على عرب الصحراء ، وجئ به في القرن الأول الميلادى ، وسرعان ماأصبح عماد النقل فى الصحراء ، وهكذا فإن مشكلة السفر فى الصحراء – النقل – لم تحل إلا بعد إدخال الجمل . كذلك يبدو من المحتمل أنه لم يحدث أى تغلغل واسع من الشمال قبل القرن الرابع الميلادى عندما أصبح الجمل مألوفا فى الصحراء .

---

(٦٥) أچيسومبا : تم ضبط الاسم على الموسوعة البريطانية (Agisymba) طبعة ١٩٥٨، D 746 - 14 ، وقد وردت فى النص الإنجليزى « Asigymba » .

(٦٦) جاءت فى النص الإنكليزى MUZURK ، وربما كان ذلك خطأ آخر ، فالمقصود هنا هو واحة مُرْزُق Morzok التى اتخذتها أسرة بنى محمد عاصمة لها ، وتقع على بعد ٢٥٠ ميلا إلى الشمال الشرقى ,واحة غات . وقد وردت بهذه الصيغة فى أطلس تاريخ الإسلام ، للدكتور حسين مؤنس ، الصفحات ٦٦ ,٦٧ و ٨١ ومواضع أخرى .

(٦٧) غات : كانت هى وغدامس مركزين يتحكمان فى الطرق التجارية المحاذية لصحراء الحمادا من ناحية الغرب ، والمتجهة إلى الجنوب بين سلسلتى الجبال أحجار وتمو قاصدة النيجر وبحيرة تشاد ، أخذت أهميتها التجارية تتضاءل عند أوائل القرن الحالى .

ولا ينبغى أن يحملنا ذلك على الاستنتاج بأن إفريقية لم تكن تعرف الجمل ، وربما يكون قد جاء مباشرة من شبه الجزيرة العربية . ذلك إن إفريقية واليمن يفصلهما عند الطرف الجنوبى للبحر الأحمر شريط مائى ضيق تعبره الزوارق حتى فى أيامنا هذه دون أية صعوبة . والسودان - سواء المصرى الإنكليزى السابق أو الفرنسى السابق - بلاد رعوية . ولوكان العرب قد عبروا المياه لما وجدوا اختلافا شديدا . وكان هناك فيما يبدو طريقان شائعان : أحدهما يحاذى سفوح الجبال ويدخل بلاد السودان ؛ والثانى يمر بوادى النيل قرب كورسوكو ويمتد عبر **صحراء العطمور** (٦٨) حتى يتصل بالنيل بالقرب من **أبو حمد** (٦٩). وهذا يعنى مروره بمنطقة قاحلة ، وإن كانت تزوده بقدر كاف من الماء . ولذا كان باستطاعة العرب إدخال كل من الجمل والحصان . فضلا عن أن مصر **ومورى** (٧٠) القديمتين كانتا فى فترة عظمتهما التاريخية عدوانيتين من الناحية الحضارية ، وربما تكونان قد تغلغلتا فى الحوض الواقع بين النيل وبحيرة تشاد . ويرى معظم الخبراء البريطانيين أن هذا قد حدث فعلا ، وأن التأثيرات المصرية على غرب إفريقية ، إن وجدت ، يرجع أنها جاءت من الشرق أكثر مما جاءت من الشمال ، ومن ناحية أخرى يؤكد **مونى** (٧١) أنه فى العصور التاريخية على الأقل كانت النوبة وتشاد موزعتين بين دول صغيرة متعددة ، وبعد أن دخل الإسلام مصر والسودان كانت دولة **دنقلة** (٧٢) المسيحيةبمثابة حاجز فعال ، وإن كاد مفعولها أن يتلاشى فى عصر العظمة المصرية . فحملات الاتجار المصرية تغلغلت فى إفريقية السوداء ، وبرغم ذلك فليس هناك مايقطع بأنها عبرت المنطقة

---

(٦٨) صحراء العطمور : بشمال السودان ومن أكثر جهاته جفافا . تخترقها سكة حديد وادى حلفا أبو حمد .

(٦٩) وردت فى النص الإنكليزى Abou Hamed ، ولكن صحة الاسم أبوحمد Abou Hamad .

(٧٠) مروى : عاصمة المملكة النوبية الجنوبية التى عرفت باسم مملكة مروى فيما بين القرنين الثالث قبل الميلاد والثالث الميلادى . من أشهر ملوكها الملكة كنداكة أو كنداسة فى النصف الثانى من القرن الأول الميلادى ، وكانت ملامحها زنجية ظاهرة . تأثرت حضارتها كثيرا بالحضارة المصرية .

(٧١) مونى : عالم فرنسى من المهتمين بحضارة شرق إفريقية .

(٧٢) دنقلة : مديرية شمال جمهورية السودان ، وعلى بعد ١٤٠ كم منها كانت دنقلة القديمة عاصمة دنقلة المسيحية أو مملكة المقرة ، اعتلى عرشها أول حاكم مسلم تابع للمماليك فى عام ١٣١٦ ، وحكمها المماليك الفاروق فيما بين عامى ١٨١١ و ١٨٢٠ ، ووقعت فى أيدى المهديين .

القاحلة بين النيل وتشاد ، إذ الأرجح أن هذا الطريق لم يكن أكثر صعوبة من الطريق الشمالى . لكن ماذا كان هناك من حوافز بالنسبة للمصريين ؟ إن احتياجاتهم من العاج والرقيق ، وبل والأقزام ، وكذلك من المعادن ، كان يمكن الحصويل عليها من المنطقة الاستوائية . وحتى إذا كان ذلك هو سبب تغلغلهم فى حوض تشاد فإن المنطقة لم يكن بإمكانها أو توفرلهم شيئا مما يفتقرون إليه . وهكذا فإن تأثير مروى على دارفور لا يعنى بالضرورة أن المصريين قد وصلوا إلى وادى النيجر ، والأمر المرجح هو اتجاه الناس غربا بمجرد أن تحللت سلطة مروى . ودارفور كانت جارة لمروى ، لذلك خضعت باستمرار لتأثيرها الحضارى . ولاينازع مونى فى أن طريق النيل – تشاد لم يكن مستخدما ، وإن كانت الأدلة على ذلك واهية للغاية . ففى منطقة تشاد لم يعثر على شيئ من عالم البحر المتوسط ذى قيمة أثرية كبيرة ، وماتم العثور عليه بأعداد كبيرة إنما هو من آثار العصر العربى . ويأخذ مونى عن كاتب فارسى مجهول الاسم ، وكذلك عن **إبن حوقل** (٧٣) الذى يقول إنه برغم أن التجار المصريين كانوا يذهبون إلى السودان من أجل حجر الشب والقصدير والخصيان ، فإنهم لم يكونوا راضين عن الطريق .(٧٤) وكان الطريق المفضل هو الطريق بين فزان وكوّار وهو طريق مشترك

(٧٣) أبو القاسم محمد بن العلى الموصلى : لا يعرف تاريخ مولده ، توفى فى عام ٩٧٧ . ولد ونشأ وتوفى فى بغداد . رحالة وجغرافى عربى معروف . بدأ التجوال يوم أن انقطع المسعودى عن الترحال . بدأ ترحالة من بعداد فى عام ٩٤٣ متخذا التجارة مهنة له ، ولكنه ربما كان داعية سياسيا . زار شمال إفريقية والأندلس ونابولى وباليرمو ، ويعرف عن كتب العراق وإيران وجزءا من الهند . كما دخل بلاد البلغار ووصل إلى أعالى الفولجا . يحمل مُؤَلَّفه فى العادة اسم كتاب المسالك والممالك ، والمفاوز والمهالك برغم وجود تسمية أخرى له هى كتاب صورة الأرض ، وقد نشر دى غويه طبعة أولى منه ، ونشر كرامس طبعة ثانية أفضل منها عن أقدم مخطوطة له ، وهى مخطوطة استانبول التى ترجع إلى عام ١٠٨٦ ، أى بعد مائة عام من تأليف الكتاب ، وقد أخذت عن طبعة أصدرتها « دار الكتاب الإسلامى » بالقاهرة تحت عنوان كتاب صورة الأرض .

(٧٤) « وفيها الطريق من مصر وغانة فتواترت الرياح على قوافلهم ومفردتهم ، فأهلكت غير قافلة واتت على غير مفردة ، وقصدهم أيضا العدو فأهلكهم غير دفعة ، فانتقلوا عن ذلك الطريق وتركوه إلى سجلماسة .» إبن حوقل ، كتاب صورة الأرض ، الصفحة ٦٥ .

« وأما الواحات فإنها كانت معمورة ... وكان يسلك من ظهرها إلى بلاد السودان بالمغرب على الطريق الذى كان يؤخذ ويسلك قديما فى مصر إلى غانة فانقطع ، .... ولم تزل سافرتهم وسافرة أهل مصر على غير طريق تتصرف إلى المغرب وبلد السودان فى برارى ، ولم ينقطع ذلك إلى حين أيام دولة أبى العباس أحمد بن طولون . وكان لهم طريق إلى فزّان وبرقة فانقطع ... » المرجع نفسه ، الصفحتان ١٤٣و ١٤٤ .

مع طريق غرب السودان حتى زويلة ثم يتفرع من هناك . وهكذا كانت غالبية التجارة فى العصر الوسيط تتم عن طريق الصحراء ، بيد أن الطريق الشرقى لم يكن مجهولا ، وربما يكون هو طريق الهجرة كما تزعم الروايات . وهذه الهجرة لم تكن على أية حال من مصر ، بل كانت على الأرجح حركة إلى الداخل لأناس من السودان الشرقى .

ولاينبغى أن نبخس قدر التأثيرات المصرية . وسواء أكان حرخوف (٧٥) أم غيره من التجار المصريين قد جاء إلى غرب إفريقية ، فمن المؤكد أن تجارة الرقيق والعطور التى كانت تواجه منافسة شديدة قد أغرت المغامرين المصريين بالتغلغل على مهل فى غابات إفريقية الوسطى ، ويصعب تماما الحصول على بيِّنة على تجارة الرقيق أو المقايضة فى العصور الوسطى . ولكن الروايات التى نقلت إلى مصر ،كتلك الخاصة بسحرة چنى (٧٦) ، قد يكون أساسها إحساسا شعبيا . والاكتشافات الأخيرة فى بُرْكُ تعزز بدورها الاعتقاد بأن طريق النيل - تشاد لم يكن حاجزا فعالا .

وقد توصل أركل (٧٧) إلى بيانات هامة ترجح أن طريق بحيرة تشاد كان مستخدما . وكشفت حفائر الخرطوم عن عظام تياتل وحيوانات تعيش فى المستنقعات مثل جرذان البوص ، وهى حيوانات لا تعيش الآن فى الخرطوم ، وأقرب شيئ لها عثر عليه هو لعنصر منقرض فى واد يمتد من سلسلة جبال

---

(٧٥) حرخوف : (ويقال هاركيف) وزير بيبى الثانى فى أواخر الدولة القديمة . قاد أربع قوافل إلى النوبة أشهرها الثالثة التى بلغ فيها السودان ، وسلك إليه طريق الأربعين ، وحمل عند عودته البخور والعطور والسمسم وخشب الأبنوس وجلد الفهد ، وكذلك قزما من قلب إفريقية .. ودونت أخبار تلك الرحلة على جدران قبره .

(٧٦) چنى : كانت العاصمة الثقافية لإمبراطورية السنغى ومركزا للتعليم الزنجى . يعتقد أن السنغى أسسوها فى القرن الثامن الميلادى . يقول بعض المؤرخين إنها أعطت أسمها لكل الساحل وإن كلمة غينيا مشتقة منها . مازالت توجد بها اثار من الفنون المراكشية . تحدث عنها السعدى وكمت كثيرا عرفت بلؤلؤة النيجر .

(٧٧) إ . ج . أركل : مؤرخ آثار معروف ، عين مديرا لمصلحة الآثار والأنثروبولوچيا بالسودان ، أبرز من أرخ للسودان وألقى الضوء على منشأ الفن الإفريقى . أثبتت حفائره فى شمال الخرطوم أن شعب هذه المنطقة كان زنجيا يستخدم الفخار ويعيش على الأسماك والحيوانات والتقاط الفاكهة ، كما يستخدم المحار والبلطة والمطرقة المصنوعتين من الحجر ، وعثر أركل أيضا على آثار تنتمى إلى العصر الحجرى الحديث .

أحجار . كما عثر في الخرطوم على حراب بها ثقب وثلاث شوكات معكوسة أو أكثر . وأقرب شيئ إلى هذه الحراب عثر عليه في غرب إفريقية على بعد ٢٥٠ ميلا من المكان الذى عثر فيه على عيّنة منقرضة من جرذان البوص . والمصنوعات الحجرية التي تصفها مس كاتون ثومبسون (٧٨) بأنها تنتمى إلى العصر الحجرى الحديث بمنطقة الفيوم لم توجد فقط فى الخرطوم وإنما وجدت أيضا فى هضبة تبستى (٧٩) إلى الجنوب الشرقى من جبال أحجار ، فضلا عن أزولا . ويتمثل وضوح حضارة الفيوم فى الآلة الحجرية (الأزميل المقعر (٨٠)) التى لم يعثر عليها فى وادى النيل وإنما فى غرب إفريقية والخرطوم . وهناك أيضا الأعمدة الحجرية العظمية التى اكتشفت فى الخرطوم وعليها نقوش غير واضحة للجمال ، كما اكتشفت أعمدة مماثلة فى لكوادار بموريتانيا .

ولذلك نستطيع أن نخلص إلى أن طريق النيل – تشاد كان مستخدما منذ العصور القديمة ، وأن الجمل قد دخل إفريقية من الشرق ، وتستند إلى ذلك نظرية بالمر القائلة بأن الطوارق (٨١) هم أحفاد

---

(٧٨) مس كاتون ثومبسون : عالمة آثار اشتهرت بحفائرها بمنطقة الفيوم التى كشفت عن حضارة تنتمى إلى العصر الحجرى الحديث تماثل فى قسمات كثيرة تلك التى كشفت عنها حفائر أركل فى الخرطوم ، وترجع هى وحضارة الخرطوم إلى حوالى ٣٩٠٠ ق.م .

(٧٩) تبستى : منطقة جبلية وسط الصحراء تقطنها حاليا قبائل التيبو . بها مجار مائية جافة غائرة العمق استكشفها جزئيا جوستاف تشيجال فى عام ١٨٧٠ ، واستكمل كولونيل س . تيلهو أعماله فى عام ١٩١٥ .

(٨٠) وردت فى النص الانجليزى « gonge » ، ولكن صحتها « gouge » ، وتؤكد ذلك الصفحة ٣٠ من كتاب أركل « Early Khartum » ، كما أن المقابل الانجليزى لكلمة « أزميل » هو « gouge » .

(٨١) الطوارق : مسلمون من البربر يقطنون غرب الصحراء الكبرى من توات حتى تمبكت ، ومن فزّان حتى زندر . ويفضلون سكنى المراكز التى تتفرع منها طرق التجارة . بشرتهم صفراء مشوبة باحمرار وشعرهم أسود حريرى الملمس ، وعيونهم سوداء وأنوفهم صغيرة ، وأجسامهم مفتولة العضلات ، وهم طوال القامة لطاف الشمائل يلبس رجالهم اللثام ليل نهار ، ولا يظهر من اللثام غير عيونهم ، على حين لاتلبسه نساؤهم ، ولذا أسماهم العرب بالملثمين أو أهل اللثام ، كما يسمون المسوفة فى بعض المصادر . يشتغلون بتربية الإبل ، ويحتقرون الزراعة ويتركونها للعبيد ، ويعكس النظام القبلى عندهم بعض ملامح النظام الأمومى ، وتتمتع المرأة عندهم بمركز ممتاز فى المجتمع ، ولها حق الاختلاط واختيار الزوج والاشتراك فى مجالس القبيلة .

البليميين [٨٢] القدامى الذين استوطنوا النيجر الأعلى ثم رحلوا فيما بعد إلى برنو ، وقد استخدم **عرب الشوا** [٨٣] بدورهم هذا الطريق للوصول إلى برنو .

وجدير بنا أن نتذكر أن المنطقة بين تشاد والنيل كانت مأهولة بالسكان . وكانت توجد بدنقلة في القرن السابع الميلادى أغلبية مسيحية وأقلية مسلمة . وفي عام ٦٥٧ ، أي بعد أحد عشر عاما من فتح العرب لمصر ، وقّع الحاكم **عبد الله بن سعد** [٨٤] مع حاكم دنقلة معاهدة تعهد فيها الأخير بالإبقاء على المسجد المحلى والسماح بإقامة الشعائر الدينية فيه ، مما يبين أن دنقلة كانت بها جالية إسلامية كبيرة وأن المسلمين كانوا يزورونها . ولم يكن من العسير على التجار المصريين ، حتى في العصور القديمة ، أن يتغلغلوا في المنطقة ، وبخاصة أن ذلك كان ميسّراً للمبشرين المسيحين في القرنين الثاني والثالث ، ولذلك فبرغم الافتقار إلى دليل مباشر على وجود مصرى في تشاد ، فإنه ينبغى التسليم بإمكانية أن مصر ومروى لم تكونا غريبتين على غرب إفريقية .

---

(٨٢) تحمل هذا الاسم قبيلة عدوانية من بدو الصحراء عاشت في مناطق النوبة بين النيل والبحر الأحمر ويطلق عليها بعض المؤرخين اسم البجاة (أو البجة) . كانوا يحجون إلى إيزيس في جزيرة فيله . تتكون حاليا من البشاريين وبنى عامر والهدندوه وغيرهم ، اعتنق كثيرون منهم المسيحية في القرن السادس الميلادى . ظلوا لفترة يشكلون تهديدا لمصر العليا ، وبخاصة لطيبة ، ولكن محاولات غزوها صدت جميعاً .

(٨٣) عرب الشوا : يتركزون على الشواطئ الجنوبية والغربية لبحيرة تشاد . تكونت تجمعاتهم نتيجة هجرات عربية إلى برنو منذ القرن السابع عشر . ينقسمون إلى مجموعات حسب نظام حياتهم ، فمنهم رعاة الإبل ورعاة البقر إلخ .. من أهم مجموعاتهم : الحصاونة الذين جاءوا عن طريق طرابلس ؛ جهينة الذين جاءوا عن طريق وادى النيل الأوسط . كان لهم دور كبير في تاريخ البرنو وفي قوة جيشها إذ كانوا يزودونها بالفرسان الشجعان المدربين ، فقد كان الفرسان عماد جيش برنو ، أنظر ، الفصل السادس أدناه .

(٨٤) عبد الله بن سعد بن أبي سرح : (؟ – ٦٥٧ م) قرشى ، فاتح إفريقية . شارك عمرو بن العاص فتح مصر ، ثم ولى الحكم فيها عام ٦٤٧ . زحف لفتح مابين طرابلس الغرب وطنجة ، ودان له الشمال الإفريقى . غزا البيزنطيين بحرا وانتصر عليهم في معركة ذات الصوارى في عام ٦٥٤ ، وقد سميت كذلك لكثرة ما استخدم فيها من السفن . انضم إلى معاوية بالشام بعد مقتل عثمان ، مات بعسقلان . وقع مع حاكم دنقلة معاهدة البقط (البقط بمعنى العهد والميثاق) في عام ٦٥٧ ، وبمقتضاها ألزم النوبيون أنفسهم بإعادة من نزل بلادهم من المسلمين والعبيد الأبقين والذميين الذين يجب عليهم أداء ضريبة الرؤوس ، ويتحمل نفقات مسجد يشيد في دنقلة .

فهـل كانت هناك تأثيرات مصرية على غرب إفريقية ؟ تخلص الآنسة هومبرجر من دراسة أجرتها فى اللغات الزنخية إلى أن هذه اللغات مشتقة من اللغة المصرية القديمة . وذلك زعم لايمكن لغير العلماء أن يقرّوا صحته ، ولكن هومبرجر تقول إن أحدا لم ينقض حجتها . وفضلا عن الأشغال المعدنية التى يقول وينرايت إنها كانت منتشرة على نطاق إفريقية الزنجية ابتداء من السودان وفيما بين الإيوى(٨٥) ، فإنه لاتـزال تعلـق بالذاكرة صـورة « كور » يعمل بالقدم ، كذلك توجد بالقرب من الأويو (٨٦) حلقة خطاف أخضر اللون تلتف حول حديد متوهـج داخـل الفرن ، وتستخدم هذه الحلقة فى سحب الحديد إلى الخـارج ، وهى شديدة الشبه بصور بعض الصناعات المعدنية المبكرة . وثمة أعراف معينة فى نيچيريا حملت بعض العلماء ، بسبب تماثلها مع أعراف مصر القديمة ، على الاعتـقاد بأنها قد تكون مصرية المنشأ . فالكبش على سبيل المثال حيوان مقدس عند اليوربا مثلما هو مقدس لدى المصريين ، كما أن ديانة اليوربا تجمعها بديانة مصر القديمة عناصر شبه كثيرة تسترعى الانتباه . وبالمثل يوجد شبه مثير بين تابوت مقبرة أتاجلاً ذى الشكل الكهفى المجوف ، أو القوارب التى استـعمـلت كتوابيت عند النوبى (٨٧) ، وبـين الرسـومـات الموجـودة على الجبانات المصرية .

---

(٨٥) الإيـوى : شعب من أصل زنجى ، توزع أبناؤه لأسباب تاريخية إلى أربعة أقسام : ساحل الذهب ، توجـو لاند البريطانية ؛ توجـو لاند الفرنسيـة ؛ داهومـى . يشاطـرون الأشانـتى ثقافتـهم وأعرافهـم وطقوسهم الدينـية . يشكلون الغالبيـة العظمـى من سكان جنـوب توجو ، وهم يشتـغلون بالزراعة والتجارة .

(٨٦) الأويـو : فـروع من اليوربا . قامت دولتهم قـبل القـرن الحـادى عشر فى جنـوب غـرب نيچيريا الحديثـة ضمن ماعـرف بدول الغـابات ، وقبل أن يبدأ الأوروبيون التجارة على الساحل تـأثر توسعهم بالرغبة فى صيد الرقيـق لبيعهم للأوروبيين وبالحصول على الأسلحة فى المقابل . وصلت دولتهم إلى ذروة رخائها واتساعها فى القرن الثـامن عشـر ، بعد ما أدت تجـارة الرقيق إلى حروب مستمرة وتحلل فعلى .

(٨٧) النوبى : مجموعة القبائل بجنوب نيچيريا ووسطها حيث يوجد خليط من الوثنيين والمسلمين ، وحيث تنتشر لغة خاصة تعرف بلغة النوبى ، وتشمل قبائل الباتاتشى و البينى والبينو والشاكيانچ والديبو والإيباچى والإيبى وغيرها ، ولديهم نظام اقتصادى وسياسى شبيه بنظام الهوسا ، نشأت بينهم بعض الممالك والدول القوية .

وقد فضل آخرون البحث عن منشأ فينيقى أو يهودى أو حتى إغريقى . من ذلك قول فروبنيوس [88] بأن المصنوعات الخزفية الجميلة فى إيفه لابد أنها من صنع الإغريق الرحل الذين استقروا فى المنطقة ، وبأن بلاد اليوربا هى أتلنتس المفقودة . وتكمن أهمية دراسة التأثير الحضارى على غرب إفريقية فى أنها تعطينا مفتاحا لفهم الفكر الأوروبى . ويقال إن ديانة الناس هنا قبل مجئ الإسلام لابد أن تكون اليهودية أو المسيحية . وعلى أساس أدلة واهية للغاية يقال إن الطوارق لابد أنهم كانوا مسيحيين لأن كلمة عيسى فى لغة التَمَشِكْت تعنى إلهاً ، وأن مقبض السيف عند الطوارق عبارة عن صليب .

وبين هذه الأساطير تعد الأسطورة اليهودية أكثرها أهمية . يقول البكرى إنه وجدت فى مراكش جاليتان يهوديتان ، وإن مهنة المعمار فى سجلماسة كانت وقفا [89] عليهما . والإدريسى [90] هو الذى أقام

---

(88) ليوفروبنيوس : (١٨٧٣ – ١٩٣٨) ، مستكشف وعالم آثار ألمانى ، ويعد من أهم المصادر فى فنون ماقبل التاريخ . أسس « معهد المورفولوجيا الثقافية » فى فرانكفورت عام ١٩٣٢ . اهتم بالكتابة فى الفولكلور عند اليوربا وقبائل أخرى .

(89) « وأهل سجلماسة ... والبناءون عندهم يهود لايتجاوزهم هذه الصناعة » ، البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، الصفحتان ١٤٨ و ١٤٩ .

(90) أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسى (الملقب بالشريف) : (١٠٩٩ – ١١٨٠) الرحالة والجغرافى العربى الكبير ، زار بلدانا كثيرة وخلف وصفا شيقا لمعالمها . طاف بآسيا الصغرى ومصر ومراكش والأندلس ، وعبر البحر إلى إنجلترا بعد أن زار فرنسا ، ثم عاد إلى صقلية حيث قوبل بالترحاب وأغدقت عليه العطايا والهبات من ملكها روجر الثانى المعروف فى الكتب العربية باسم « رجار » . وقد اصطنع له الإدريسى كرة أرضية كتب عليها بأحرف عربية كل مايعرفه عن البلدان المختلفة ، وقد فقدت هذه الكرة وفقدت معها المعارف الجغرافية قيمة علمية عظيمة . سجل مشاهداته فى كتاب أطلق عليه نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . تلمح فى كتابه ملامح واضحة للجغرافيا البشرية ، وصلة بين الجغرافيا الاجتماعية والاقتصادية ، كما لا يخلو من لمحات لتوزيع الأعراق البشرية ومن إشارات إلى بعض نظم الحكم السائدة مما يعد محاولة أولى لدراسة الجغرافيا السياسية . قام جوبرت فى عام ١٨٢٠ بترجمته إلى الفرنسية ونشره عن نسخة خطية بمكتبة باريس تعتبر اختصاراً لنسخة موجودة فى مكتبة الأسكوريال بأسبانيا ، ثم صدرت للكتاب طبعات كثيرة بلغات مختلفة ، منها كتاب صدر فى الهند بالعربية يحوى ماجاء فى نزهة المشتاق عن الهند ، وآخر يحوى ماجاء به عن إيطاليا وصقلية ، وثالث يحوى ماجاء به عن بحر القلزم ، إلخ .. وقد أصدرت مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة طبعة من نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، وعن هذه الطبعة حققت ماأورده بانيكار نقلا عن الإدريسى ، وسأشير إليها بنزهة المشتاق .

الأسطـــورة اليـهوديـــة عـلــى أساس سلــيم ، وهو يقول ، استناداً إلى الروايات ، إن رجـال لملم يهــود ، لكـنهم أنغمسوا فى الجهـل وعدم التقوى . ومـــن العسير أن نفهم كـيف استطـــاع الإدريسى الحصـــول عـلى هذه الرواية . (٩١)

ومع مقدم العصور الوسطى ارتدت الأسطورة فى الواقع إلى حقيقتها . ففرنانديز (٩٢) يقول إن الجرويت يهود لأنهم يمارسون الختان ، ولأنهم محتقرون. وقد عثر ملفانتى (٩٣) على يهود فى مدن الصحراء الكبرى مثل توات (٩٤) ، حيث كانوا يتبعون للطبقة الحاكمة المحلية ، وكان بعضهم شديدى الثراء . ولكن ملفانتى لسوء الحظ ليس شاهدا يركن إليه لأنه وجد أيضا فى الصحراء الكبرى تجارا هنودا وكذلك فلسطينيين . وكعت (٩٥) هو الشاهدالأكثر أهمية على وجود فترة يهودية فــى غـرب إفريقـية ، وهـــو يـذكر أن الـيهود كـانت لـهم مـملكة

---

(٩١) « أرض لملم ... وأهلها فيما يذكره أهل تلك الناحية يهود والغالب عليهم الكفر والجهالة . » نزهة المشتاق ، المجلد الأول ، الصفحة ١٩ .

(٩٢) أنطونيو فرنانديز : مستكشف برتغالى قام باستكشاف منطقة المونوتوما (الماشولاند) قبل عام ١٥١٤ . والجرويت طائفة من المغنين والمداحين ومحيى الحفلات .

(٩٣) أنطونيو ملفانتى : رحالة إيطالى فى القرن الخامس عشر تحدث عن تاجر مصرى جاء إلى هذه المنطقة بصحبة بعض الهنود المسيحيين ومعهم نحاس لمبادلته بالذهب . قدم فى عام ١٤٤٧ وصفا للمجتمع اليهودى المزدهر فى تامنتيت (تتنرم) الذى قضى عليه المغيلى .

(٩٤) توات : مجموعة الواحات فى غرب الصحراء الكبرى ، من أهمها واحتا جرارة فى الشمال وتيديكلت فى الجنوب مع مركز عين صالح الهام . أطلق عليها الفرنسيون أرخبيل توات . وضع العرب أيديهم عليها فى القرن الرابع الهجرى ونشروا فيها الإسلام .

(٩٥) محمـــود كعـــت : مـــؤرخ دولة السنـــى الكـبرى ، وصاحب المرجع التاريخى المعروف تاريخ الفتاش فى أخبار البـلدان والجيوش وأكـابر النـــاس ، الذى حققـــه ونشره ، إلى جانب ترجمة فرنسية له ، المستشرق الفـرنسى ديلافـوس وصـهـره المستشرق الفـرنسى هــودا . وسنشير إلى هذا الكتاب أدناه باسم تاريخ الفتاش . مـــن أجـل مزيـد من التفـاصيل عن الكـتاب وصاحبه انـظر الإضـافـة المرفـقـة بنهاية الكتاب .

فى الصحراء الكبرى اتخذت عاصمة لها مدينة تامنتيت [٩٦] التى تقع على طريق النخيل وهو عبارة عن أرخبيل من الواحات يمتد مسافة ٨٠٠ ميل ، وتتم صيانته بنظام من الفجّارا [٩٧]. ولكن السعدى [٩٨] لايقول شيئا عن هذه الأشياء الرائعة . ويزودنا كعت بمفتاح لهذه الأسطورة عندما يقول إن أسكيا محمد رأى حلما عن بنى رسرائيل .[٩٩] وهكذا يكون بنو إسرائيل هم الملاذ الذى يلّجأ إليه فى كل شيئ يتعذر تفسيرة . وهذا هو الأساس الذى بنى عليه ديلافوس [١٠٠] نظريته فى الأصول اليهودية .

وربما كان التـأثير الأكثر أهمية هو تأثير الفينيقيين الذين استوطنوا شمال إفريقية . فقرطاجة مثلا لم يكن غائبا عنها أنه توجد عبر الصحراء مملكة غنية بمواردها الاستوائية . ولابد أت التجار القرطاجيين قد عبروا الصحراء بحثا عن العاج والذهب ، واستوطنو هناك وتزوجوا بنساء محليات . وقد حاول ديلافوس دعم هذا الاستدلال بدراسة فى تأثير اللغات السامية على اللغات السودانية ، وتبين له أن هذا التأثير كان كبيرا ، وعلى الرغم من أن معظم هذا التأثير قد جاء بعد الإسلام ومن اللغة العربية ، فإن بعضه قد حدث – طبقا لرأية – قبل

---

(٩٦) يرجح أن هذه المدينة هى تندرمة أو تندرم التى أشار إليها محمود كعت .

« وفى هذا العام وهو عام الثانى والتسعماية بنيت تندرمة وأمره اسكى محمد أن يبنى لنفسه مدينة ... فلما جاء عمر يريد بناها أى تندرم ... وقال له هل وجدت هنا أحداحين تنزل فقال له ما وجدت هنا حينئذ إلا عبدا شيخا كبيرا ابيض شعره حتى أحمر من بقايا قوم بنى إسرائيل » تاريخ الفتاش ، الصفحات ٦٢و٦٣و٦٤ .

(٩٧) أحد أساليب الرى التى استخدمها سكان الواحات ، وبخاصة توات وغرارا . وهو عبارة عن قنوات من صنع الإنسان تحفر تحت سطح الأرض بميل خفيف لجلب المياه الجوفية إلى الواحة بفعل الجاذبية الأرضية .

« حتى أتى تندرم فأعجبه ذلك المكان وكان قبل مسكن قوم بنى إسرائيل وأجداثهم وآبارهم هنالك إلى الآن فلما رأوا آبارهم ووجدوها يومئذ ثلاثمائة وثلاثين بيرا فى جوانبها ووسطها ورأوا عجيب حفرها وحالها ... » المرجع نفسه ، الصفحة ٦٢ .

(٩٨) عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدى (وقيل السعيدى) : صاحب تاريخ السودان . من أجل مزيد من التفاصيل أنظر الإضافة المرفقة بنهاية الكتاب .

(٩٩) أفاض محمود كعت فى سرد تفاصيل هذا الحلم بحيث يتعذر نقل اقتباس موجز يفى بالغرض انظر ، المرجع نفسه ، الصفحات ٢٤ وما بعدها .

(١٠٠) موريس ديلافوس : (١٨٧٠ – ١٩٢٦) ، المستشرق الفرنسى المعروف ، وصهر المستشرق الفرنسى هودا ، وقد قاما معا بتحقيق كتاب تاريخ الفتاش ، وترجمته إلى الفرنسية . يعد من أقدر العلماء الفرنسيين دراية بالشؤون الإفريقية ، وله مؤلفات كثيرة فى هذا المجال . وقد عمل محاضرا بمعهد اللغات الشرقية الحية فى باريس .

الإسلام . كما أن الأشكال اللغوية التى اتخذتها بعض الكلمات مختلفة تماما عما يمكن أن تكون عليه لو كانت قد استعارتها من اللغة العربية .

ومنذ وقت قريب قالت السيدة ميروفيتز (١٠١) إن « ثقافة الأكان (١٠٢) وحضارتهم ليستا من منشأ زنجى إفريقى ، وإنما يمكن تصنيفها بوجه عام على أنهما من أصل ليبى – بربرى ، وبصورة أكثر دقة على أنهما من أصل ليبى – فينيقى أو قرطاجى » . وهى تؤسس نظريتها على أنهم أموميون (١٠٣) ، وأن أنظمتهم الدينية متماثلة ، وبخاصة تانيت ونيانى (١٠٤) . ولكن صفات النيانى الكثيرة وطقوس عبادتهم – التضحية بالأطفال والعذارى ، دور القمر الهام فى العبادة ، مفهوم النيانى كألوهية مسلحة ، المخروط الثلاثى ، ثنائية الجنس ،

---

(١٠١) إيفا ل. ر. ميروفيتز : اشتهرت بكتاباتها التى تبحث فى الروابط الحضارية بين مصر القديمة والأكان فى غانة . ولها فى هذا الموضوع ، إلى جانب بحوثها ومقالاتها الكثيرة الهامة ، أربعة كتب من بينها كتاب At the Court of an African King الذى قام الدكتور زاهر رياض بترجمته إلى العربية ضمن سلسلة الألف كتاب الأول تحت عنوان فى بلاط ملك إفريقى .

(١٠٢) الأكان : أهم المجموعات القبلية فى غرب إفريقية ، وهم جميعا من أصل زنجى ، وينتمى إليهم الأشانتى والجزء الأكبر من سكان غانة ، ويمكن تقسيمهم اليوم من الناحية اللغوية إلى مجموعتين رئيسيتين : الفنتى والتوى .

(١٠٣) الأمومية : اصطلاح يستخدم لوصف العشيرة أو العائلة التى تتركز حول الأم بدلا من الأب ، فتسكن العائلة فى موطن الأم ويأتى الأب ليعيش معها ، وتكون مسئولياته نحو الأولاد قليلة إلا فيما يتعلق بمعاشهم . ويحمل الأولاد إسم الأم ، ويتمتع الخال بسلطة كبيرة على أولاد أخته الذين يرثون ممتلكاته .

(١٠٤) تانيت : الإلهة العذراء ، إلهة السموات والقمر والوصية على شعب قرطاجة ، وهى تقابل الإلهة شتروت عند الفينيقيين ، وهناك أسطورة فينيقية تقول إن تانيت هى نفسها الإلهة ديدو أو إليزا مؤسسة قرطاجة . وكانت ديدو إبنه للملك ماتون وزوجة لاسبرياس ، وقد ذبح زوجها على أيدى أخيها بيجماليون ، فهربت بعد ذبحه إلى قبرص ، ومنها إلى ساحل إفريقية حيث اشترت قطعة من الأرض أسست عليها قرطاجة .

أما نيانى فقد وجدتها فى الكتب التى توفرت لدى نيامى . وأقول فى هذا الصدد إن الأكان كانوا يرون القمر إلها ينبغى عبادته ، وإن أصلهم يرجع إلى أشعته التى تجسدت فى صورة الأم التى أنجبت عشائرهم الأولى . وقد عرفت الإلهة الأم لديهم باسم « نيامى » المشتق من لفظ « نيام » بمعنى البريق والضياء . وإذا تعرفنا على طبيعة عقيدة القمر لدى شعوب قرطاجة فإننا نرى أوجه شبه كثيرة بين عقيدتى تانيت ونيامى ، كما نرى أيضا أن « الطواطم المفضلة » ، وهى الحيوانات التى تجسدتا فيهما ، تكاد أن تكون واحدة لدى القرطاجيين والأكان .

الحيوان الذى هو رمز مقدس للإلهة – قد وجدت أيضا فى عبادة الإلاهات لدى شعب أمومى آخر ، لذلك يكون من الخطأ الاعتقاد بأن النظام الاجتماعى الذى قام لديهم إنما هو نتيجة أصلهم الليبى البربرى . ومن سوء طالع الإفريقى أن أقل تماثل بينه وبين الشعوب الأخرى قد حمل مؤرخى إفريقية الأوروبيين على استنتاج أن الثقافة لا يمكن إلا أن تكون قد جاءت من الخارج .

وعلى الرغم من أن الأوروبيين قد حاولوا أن يرجعوا الحضارة الإفريقية إلى أصول يهودية وقرطاچية ومصرية ، فإنه قله منهم حاولت إجراء دراسة منظمة عن إمكان وجودتأثيرات هندية . والحقيقة أن فلورا شو (١٠٥) بذلت محاولة لتبين أن الفولانى (١٠٦) قد جاءوا من الهند . غير أن كثيرين يتفقون على وجود تماثل يسترعى الأنظار بشدة فى النمط العرقى لشعوب ماليزيا وميلانيزيا وجنوب الهند وإفريقية . كما أن بعض الأنثروبولوچيين على استعداد للتسليم بأنه توجد بدرجة ما صفات درافيدية (١٠٧) فى إفريقية . ويشير لاترْز فى كتابه Individuality of the Blood إلى خريطة لتوزيع فصائل الدم عثر عليها تتعلق بإندونيسيا وبذلك الجزء من غرب إفريقية حيث توجد التماثلات الثقافية . فالودع الذى استعمل كعملة فى غرب إفريقية جاء من المحيط الهندى ، وهو لا يستخدم إلا فى ملبار (١٠٨) وحدها مثل استخدامه فى غرب إفريقية من أجل

---

(١٠٥) فلورا شو . زوجة لورد فردريك چون لوجارد ، ولذا يشير إليها پانيكار فى مواضع أخرى باسم ليدى لوجارد . اشتهرت بكتاباتها فى شؤون المستعمرات البريطانية ، وقد ذاع صيت لورد لوجارد فى أواخر القرن الماضى ومطلع القرن الحالى فى استكشاف القارة الإفريقية وغزوها .

(١٠٦) الفولانى : هم قبائل الفولبى المعروفة أيضا بالفولا ، وقد أطلق عليهم العرب إسم الفلاته . يوجدون فى غرب بلاد السودان والبعض من شرقها من سنغمبيا غربا إلى تشاد شرقا . منهم الرعاة الرحل والزراع المستقرون . يشكلون الطبقات الحاكمة فى بعض أجزاء نيچيريا الشمالية . نشروا نفوذهم خلال إمبراطورية غانة ، ثم شقوا طريقهم إلى بلاد الهوسا ، ويؤرخ فتحهم بإعلان عثمان دان فوديو حربا مقدسة على أمرائها فى عام ١٨٠٤ . يتكلمون لغة الفلفدى ذات الأهمية الكبيرة فى فهم بعض مشكلات اللغة فى إفريقية .

(١٠٧) الدرافيديون : اسم أطلق على أكبر مجموعة من سكان الهند قبل مجئ الآريين إليها ، ويطلق اليوم على مجموعة بشرية كبيرة تعيش بجنوب الهند ، ويفترض أنهم من سلالة درافيديى ما قبل التاريخ ، ويتميزون بخصائص زنجية واضحة .

(١٠٨) ملبار : ولاية هندية عند أقصى جنوب الهند ، وقد ظلت تعرف بهذا الإسم حتى إعلان الاستقلال ، ومنذ ذلك الحين أصبحت تعرف بولاية كيرالا التى ينتمى إليها پانيكار مؤلف هذا الكتاب .

قراءة الطالع . وفى كوش [١٠٩] كان الودع يستعمل كقطع نقود صغيرة القيمة ، وهكذا يحتمل أن يكون قد ظهر فى أجزاء أخرى من الساحل الغربى . فضلا عن أن أركل ، على سبيل المثال ، يربط مابين التيسيجونت ، وهو قرط يستعمله الطوارق ، وبين الأقراط التى عثر عليها فى جبال جارو [١١٠] . ويتفق مونو أيضا على أن الطوارق لايعرفون أصل الأقراط أو مصدرها ، وعلى أنه توجد أوجه شبه ملفتة للنظر بينها وبين أقراط أسام [١١١] ، فكل منها يتخذ شكل القارب . ثالثا ، فإن التلاخميت ، استنادا إلى أركل ، لابد أن يكون قرطا كرمليا من جوچرات [١١٢] له الشكل المتدهور للإلهة الأم على هيئة لينجام يونى [١١٣] . وهذا القرط ربما جاء إلى الصحراء الكبرى إما من السودان الشرقى أو من سوريا .

وقد عثر بومان وأنكرمان [١١٤] فى غرب إفريقية على مجوهرات ذات تأثير هندى على هيئة الدنتلا ، وإن أى دارس يعقد مقارنة بين المعبد الهندى والمعبد فى غرب إفريقية لابد أن يتبين بينهما تماثلات تسترعى الأنظار كثيرا . وكان الاجيبرا [١١٥] فى نيچيريا ، على غرار قناصة الرؤوس فى أسام وإندونيسيا ، ينظرون إلى الرأس على أنها مصدر الخصوبة ، كما كانوا يعتبرون الحياة مادة محسوسة يمكن تحويلها إلى مادة أخرى . ويرتبط ذلك بعبادة الحجارة ،

---

(١٠٩) كوش : إمارة هندية سابقة فى غرب الهند ، أصبحت فى عام ١٩٥٦جزءاً من حكومة بومباى.

(١١٠) جبال جارو : مقاطعة فى وادى أسام ، أخذت اسمها عن الجارو ، وهم قبيلة تنمى إلى التبت وبورما ، والأرجح أنهم قسم من قبيلة بودو التى احتلت فى وقت ماجزءا كبيرا من أسام .

(١١١) أسام : الولاية الشمالية الشرقية لجمهورية الهند ، تكاد بنغلاديش أن تفصلها عن بقية الهند .

(١١٢) جوچرات : مدينة بغرب باكستان . توجد حاليا فوق موقع كان مأهولا فيما سبق ، طبقا للروايات ، بمدينتين متعاقبتين دمرت الثانية منهما فى عام ١٣٠٣ عام الغزو المغولى ، وبعد ذلك بأكثر من مائتى عام شيد شيرشاه أو أكبر شاه المدينة الحالية .

(١١٣) لينجام - يونى : انتشرت فى أجزاء من العالم عبادة الذكر حيث تقدس وظيفة الإخصاب التى يرمز لها بعضو التذكير ، وقد عرفت على وجه خاص فى الهند ، وهناك يسمى عضو التذكير لينجام أو لينجا ، ويقابله عضو التأنيث يونى .

(١١٤) أنكرمان : عالم ألمانى واصل دراسات فروبنيوس منذ عام ١٩٠٤ فى الانثروپولوچيا والحضارات الإفريقية .

(١١٥) الإجيبرا : إحدى قبائل نيچيريا الشمالية ، وهم ينتمون إلى مجموعة النوبى وينتشر الإسلام بينهم ، كما يقوم التبشير المسيحى بدور كبير هناك .

واستخدام النواقيس الخشبية الضخمة ، وشعائر أكل لحوم البشر ، والمعالجة الخاصة للفك الأسفل (١١٦) . كما يرتبط به أيضا زورق محفور بشكل خاص ، وينظر إلى هذا الزورق باحترام وتوقير فى كل من أسام ونيچيريا ؛ ففى أسام يوضع فى قاعة العزاب ، وفى نيچيريا الشرقية يوضع فى مكان خاص يسمى مبان . وبين كل من قبائل الناجا (١١٧) ونيچيريا الشرقية يرتبط الموت بنضج المحصولات ، كما أن هذه القبائل تضع عظام الموتى فى مخزن الغلال الخاص بالعائلة ، وتتبع عادة مماثلة فى نيچيريا الشرقية . والأرواح التى تغادر الأجساد الراحلة تزود بأجساد أخرى . ومن بين المعتقدات الأساسية فى غرب إفريقية أن الأرواح يمكن أن تغادر الجسد عندما يكون الشخص نائما ، وقد تهيم الأرواح على وجوهها ، ولذلك فإن الموت الجسدى ينظر إليه فى نيچيريا ، كما هى الحال فى الهند ، على أنه مرحلة انتقالية . ومن هنا لايتعذر على المرء أن يجد أوجه شبه تسترعى الأنظار بين الرقصات الشعبية ذات الأقنعة ، وبخاصة تلك التى يؤديها أهالى نيچيريا ، والرقصات الشعبية فى الهند . ولعل الأمر الأكثر إثارة هو صناعة التاريدو – صناعة اللباد أو قماش لحاء الشجر من أجل القوارب التى تصنع بدق أنسجة الحيونات مع بعضها بعضا حتى تمتزج فيما بينها . وهذه الصناعة لاتوجد إلا فى الهند وإندونيسيا ونيچيريا وبين بعض الزنوج السودان .

فهل نخلص من ذلك إلى أن حضارة غرب إفريقية قد تأثرت تأثرا عميقا بالهند ؟ إن التأثيرات الهندية ، شأنها شأن التأثيرات المصرية والقرطاچية والإغريقية ، يمكن أن تكون قد تغلغلت فى غرب إفريقية ، إذ أنه لا الصحراء الكبرى أو الغابات الاستوائية كانت تشكل حاجزا يحول دون هذا التغلغل .

---

(١١٦) تنتشر عادة خلع القواطع بين قبائل البارى ، ولها دور رئيسى فى نظام التنشئة لديها ، وقوامها خلع القواطع الأربعة السفلى . وعند الدنكا تجرى هذه العملية فى سن العاشرة وتعتبر لديهم مظهرا لتنشئة الصبى وانتقاله إلى مرحلة الفتوة . تعرف كذلك عند القبائل التى لاتمارس الختان فى حفلات التنشئة، مثل قبائل سارا . وقد تتخذ عادة انتزاع القواطع الأمامية وسيلة لحفظ المرأة من تطلع الرجال الغرباء .

بيد أن أى تأثير هندى فى غرب إفريقية لابد بالضرورة أن تكون فعاليته غير المباشرة أقوى من فعاليته المباشرة . وكانت مروى هى المكان الذى أثرت فيه حقا الحضارتان الإغريقية والهندية ، ومنها يمكن أن تكون هذه التأثيرات قد تغلغلت إلى الداخل . وكانت **كوش** (١١٨) **وأكسوم** (١١٩) مستودعين كبيرين لتجارة إفريقية الشرقية . ولكن هذه التأثيرات كانت كبيرة وهامة فى مروى . « فأبيدماح » أسد مروى المعبود ، ذو الرؤوس الثلاث والذراعين ، يبدو أنه تكييف للتصور الهندى للإنسان الأسد ، **نارسيمها مورثى** . (١٢٠) ثم هناك صورة لملك مروى يركب فيلا وهو عارى الظهر ، وهى صورة يرى أركل أنه لانظير لها فى وادى النيل كله . والقطن الذى تم التعرف عليه فى المقبرة الشمالية فى مروى لابد أنه جاء من الهند ، كما أن نوع الخزانات التى عثر عليها فى مروى أيضا لابد أنها جاءت من الهند لأنها غير معروفة فى مصر .

وربما يكون غرب إفريقية قد تأثر بحضارات أخرى ، ولكن ينبغى توخى الحذر فى استخلاص نتائج من أوجه الشبه . فأهالى جبال الناجا ونيجيريا الشرقية قبليون ، كما أن أوجه الشبه التى تسترعى انتباه المراقب قد يكون مرجعها ردود فعل البشر للظروف المماثلة ، وليس هناك مايدعو إلى الاستنتاج بأن جماعة ماأخذت عن أخرى . وينطبق ذلك بالمثل على التأثيرات الأخرى .

---

(١١٨) كوش : اسم قديم لبلاد النوبة أيام الأسرة المصرية القديمة الثانية عشرة (٢٠٠٠ ق.م) ، ويرجح أن « كرما » كانت عاصمة لها .

(١١٩) أكسوم : عاصمة لدولة حملت نفس الاسم فى شمال الحبشة ، بلغت أقصى ازدهارها فيما بين القرنين الثانى والسادس . كشف العالم الألمانى ليتمان عن حضارتها حين عثر على نقوش تحمل أخبار حملات الملك « عيزانا » الأربع التى قضى فيها على قوة القبائل المجاورة .

(١٢٠) ناراسيمها مورثى : إله هندى ورد اسمه كثيرا فى أساطير الديانة الهندوستانية منذ آلاف السنين . يحمل نفس فكرة « أبو الهول » عند قدماء المصريين ، إلا أن له جسم إنسان ورأس أسد على خلاف « أبو الهول » .

سادسا

هناك شعبان يكتسب أصلهما أهمية خاصة فى تاريخ غرب إفريقية هما : الفولانى واليوربا . وفى رأى ليدى لوجارد [١٢١] أن الفولانى قبيلة غجرية هندية تحركت إلى المنطقة الاستوائية من شمال إفريقية . وتستند السيدة لوجارد فى ذلك إلى ماذكره استرابو [١٢٢] من أن المؤرخين يقولون بوجود مملكة ذات أصل هندى فى الجهةالمقابلة لأسبانيا ، بل ان لوجارد تقول بأن الونقارة [١٢٣] ، وهم الجماعة التجارية الكبيرة فى غرب إفريقية ، قد جاءوا من مدينة أونجارا فى شمال غرب باكستان . وتكمن دلالة أصول الفولانى فى أنهم يعدون أحد العناصر الرئيسية التى تحركت من منطقة إلى أخرى منشئة الحضارات .

ونجد فى أعمال ديلافوس أفضل تأريخ للفولانى بوصفهم صانعى حضارة غرب إفريقية . وعلى أساس هذه الأعمال بنى معظم المؤرخين نظريتهم فيما يسمى العنصر الرئيسى . وهو يرى أن الفولانى من أصل يهودى سوريانى . فعندما قادموسى قومه عائدا إلى إسرائيل لم يتبعه قومه جميعا ، وفضل بعض منهم التحرك فى اتجاه الغرب ، وقد اكتسب هؤلاء السوريانيون خلال عبوديتهم الطويلة فى مصر بعض الخصائص المصرية .[١٢٤]

---

(١٢١) ليدى لوجارد : « فلوراشو » زوجة فردريك لوجارد ، أنظر الحاشية ١ – ١٠٥ أعلاه .

(١٢٢) استرابو (أو استرابون) : (٦٣ق م – ؟) جغرافى إغريقى ، زار روما ويروى أنه زار الجزر الإغريقية حيث قابل أغسطس الذى كان فى طريق عودته إلى روما ، وأنه صحب إيليوس جالوس والى مصر فى رحلته إلى الصعيد . له أسفار كثيرة ، ولكنه لم ير كل المناطق التى ذكرها ، وإنما اعتمد فى ذلك على أعمال الجغرافيين الإغريق الآخرين .

(١٢٣) ونقارة : الاسم الذى أطلقه عليها الإدريسى « وأرضه بأرض ونقارة وهى بلاد التبر : ....» ، نزهة المشتاق ، المجلد الأول ، الصفحة ٢٣ . ويبدو أن كلمتى واكورى وونقارة تنتميان إلى الأصل نفسه ، كذلك يبدو أن السوننكى والديولا والمندنغو كلها تسميات تؤدى نفس الغرض .

(١٢٤) تضمنت هذه العبارة مغالطات تاريخية أرى تصحيحها على النحو التالى : ١ – أن اليهود لم يعودوا إلى إسرائيل لأنهم كانوا فى مصر ولم يفدوا إليها ؛ ٢ – أن موسى ولد وعاش فى مصر حتى الخروج ولم يصل أبدا إلى إسرائيل بنص التوراة ؛ ٣ – أن إسرائيل كانت إسم يعقوب ولم تطلق على أرض فلسطين إلا بعد دخول اليهود إليها بمدة ؛ ٤ – أن اليهود لم يكونوا مستعبدين فى مصر ، بل كانوا يعيشون معززين مكرمين فى أرض جاسان (محافظة الشرقية) [أنظر ، شفيق مقار ، قراءة سياسية للتوراة ، رياض الريس للكتب والنشر ، لندن ، ١٩٨٧ .]

وعندما بلغوا برقة تحركوا من هناك جنوبا فى بطء وفى مجموعات مختلفة إلى توات وأيّر (١٢٥) ، وفى نهاية الأمر وصلوا إلى ماسنة . وهنا اتبع النظام الذى وضعه النبى يوسف فى مصر ، فاحتل الرعاة مراكز النفوذ ، وفيما بعد استولوا على السلطة . وقد حكموا مايزيد على ثلاثمائة عام ، وفى ذلك الوقت حدث امتزاج ملحوظ فى الدم . وكان حكمهم جائرا ، وتمكن السكان المحليون من طردهم ، ولكنهم وجدوا ملاذا لهم بين **السوننكى** (١٢٦) – حيث استطاعوا بمرور الوقت الاستيلاء على السلطة ، وكانت هذه بداية مملكة غانة . وثار السوننكى بدورهم بعد أن ضاقوا بهم ذرعا . وحدث أيضا امتزاج فى الدم ، وتحرك أسلاف الفولانى إلى جورجول التى كانت جزءا من إمبراطورية **التكرور** (١٢٧) . وهنامرة أخرى اتبع أسلاف الفولانى النظام الذى وضعه النبى يوسف ، وتزوج رئيسهم بإبنة الأمير المحلى . وبمرور الوقت استولوا على السلطة ، ولكنهم لم يلبثوا أن طردوا منها . وعلى الرغم من أن حكمهم لمنطقة التكرور لم يزد على مائتى عام ، فإنهم اتخذوا من لغة التكرور لغة لهم ، كما أخذوا عنهم نظام الطوائف والطبقات .

---

(١٢٥) أيّر : منطقة جبلية فى الصحراءالكبرى ، أهم مدنها أغدس ، سكانها من الطوارق أو البربر المسلمين ، مع وجود خليط قوى من الدم الزنجى ، وهم من البدو أساسا ، وإن كانت لديهم محال دائمة تستخدم كمراكز تجارية ومحطات للقوافل . تسمى « أهير » أيضا .

(١٢٦) السوننكى : ورد الإسم فى المتن Sonnike ، وصحته Soninke ، والسوننكى تعنى السركلى أو الواكورى (وعكرى كما وردت فى تاريخ الفتاش) ، ويبدو أن السوننكى والونقارة ينتمون إلى أصل واحد. « فقلت إنى أحب أن أعرف أصل سغى وأصل وعكرى فقال نمير بن يعقوب ياأمير المؤمنين وخليفة المسلمين إنى سمعت من شيخى شمهروش رضى الله عنه وأرضاه أن جد سغى وجد وعكرى وجد ونكر كانوا جميعا إخوانا شقائق ... » تاريخ الفتاش : ، الصفحتان ٢٤ و٢٥ . [سغى : سنغى ؛ وعكرى : واكورى أو سوننكى ؛ ونكر : ونقارة .]

(١٢٧) التكرور : شعب من الزنج يقطن معظمهم فى وهاد فوتا السنغالية ، كما تنتشر مساكنهم فى أنحاء أخرى من إفريقية الغربية ، وهى مساكن أقاموها فى منتصف القرن التاسع عشر بعد غزوات الحاج عمر ، وجرى العرف من بعد على إطلاق اسم تكرور على جميع بلاد السودان الممتدة من المحيط الأطلسى إلى حدود وادى النيل والتى دخلها الإسلام . ولذا أصبحت فى نظرهم مرادفة لكلمة سودان . وتبعهم فى ذلك المؤرخون الذين كتبوا بالعربية ، وهم جميعا من المسلمين ، بل إنهم كانوا أسبق شعوب السودان إلى الإسلام . وقد تغلغل الإسلام فى فوتا السنغالية حوالى النصف الأول من القرن الحادى عشر عند بداية حركة المرابطين وتحت رعايتها .

ولكن بِلّ (١٢٨) أكثر اعتدالا ، إذ يكتفى بذكر أن عربيا أو يهوديا إسمه عقبة بن ياسر جاء من الشرق ، وأقام بالبلاد ، وتزوج بامرأة وطنية إسمها مج مغ (١٢٩) ، وأنجب منها أربعة أولاد ، وبعد بضع سنوات غادر البلاد . وقد شب أولاده وهم يتكلمون لغة مولدة وتحركوا جميعا فى اتجاه الشرق ، وعندما جاء الإسلام إلى البلاد اتخذوه دينا لهم . ولم يذكر بلمر شيئا عن أمجادهم الماضية ، كذلك لم يفعل المؤرخون شيئا من هذا القبيل . ويزعم بالمر أن الفولانى هم على الأرجح أبناء مخلّطون لنساء من البربر وجنود سود ، وأنهم أخذوا العادات الرعوية عن البربر . وتجد فكرة الأصل المختلط للفولانى بعض سند لها فى حقيقة أن الأبناء المخلّطين للجنود الفرنجة والنساء الوطنيات فى الشرق (سوريا ولبنان) قد عرفوا بالبولانى ، والصعوبة التى تكتنف نظرية ديلافوس هى أن الفولانى ، كما يقول بالمر ، شعب حديث المنشأ ، فقد ورد ذكرهم لأول مرة فى القرن الحادى عشر ، ولايوجد فضلا عن ذلك أى دليل على هجرة

---

(١٢٨) سلطان محمد بِلّ : (١٧٨١ - ١٨٣٧) . يرد إسمه بِلّو فى مصادر كثيرة . والواو الساكنة هنا لمد الإشباع ، وربما تحذف كتابة كما ورد فى كتابات بِلّ نفسه . إبن الشيخ عثمان دان فوديو ، يعتبر أبوه وعمه عبد الله محمد بن عثمان وجده محمد بن عثمان من النماذج البارزة فى تاريخ الدعوة الإسلامية فى بلاد الهوسا كما سيجئ بيانه . اتسع وقته للبحث والدرس والتاليف ، برغم انهماكه فى مشاكل الحكم والحرب والإدارة . استمرت خلافته إحدى وعشرين سنة ، وتوفى فى برنو« بلده وموضع رباطة » . له مؤلفات كثيرة فى تاريخ هذه المنطقة من أشهرها « إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور » الذى نقل عنه پانيكار فى مواضع كثيرة . وفى مناسبة زيارة أحمدُ بِلّ رئيس وزراء شمال نيجيريا لمصر فى عام ١٩٦٤ ، شكلت وزارة الأوقاف المصرية لجنة من موظفى الوزارة لتحقيق الكتاب ونشره . وصدر الكتاب أثناء الزيارة مع مقدمة بقلم أحمدُ بِلّ . كذلك قام المستشرق البريطانى هويتنج فى عام ١٩٥٧ بنشر طبعة مصورة لمخطوطة الكتاب عهد إليه بها أحدأبناء نيجيريا ، وقد أخذت عن طبعة وزارة الأوقاف .

(١٢٩) نقل پانيكار هذه الرواية عن إنفاق الميسور ، لذلك فضلت كتابة الإسم كما ورد به ، رغما عن اختلافه عما ورد بالمتن Bajaange : « قال لهم أمير التورود : أتيتمونا بالدين ونحن جاهلون به ، فخلفوا لنا من يعلمنا فخلفوا لهم عقبة بن ياسر - أو عقبة بن عامر - أو عقبة بن نافع ، فجلس يعلم الدين والشرائع فزوجه ابنته - مج مغ - فولد منها أربعة أولاد : دعت - وناس - ووى - ورعرب ، ثم سار لبلاده حتى وصل مصر وخلف بنيه عند أمهم ، فشبوا وتكلموا بلسان غير لسان أبيهم وأمهم ، ... ولما جاء الإسلام أسلموا عليها ، وأقبلوا فى أمر الدين متمسكين به غاية التمسك ، ... » إنفاق الميسور ، الصفحتان ٢٢٥ و ٢٢٦ .

هذا على الرغم من أن عبد الله الفودى ، فى كتابه تزين الورقات ، طبعة م . هكست ، جامعة إبادان ، ١٩٦٣ ، قد كتب الإسم بطريقة تقارب ماورد فى المتن : « وتزوج عقبة ابنة ملكهم بَجّ مَنْغَ فولد الفولانيين جميعا » ، الصفحة ٤٠ . وهذا الاسم يعنى السيدة العجوز الفريدة الفولانية . أما فى الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب ، وهى جزء منه ، فقد وردت Bajju Munghu ، الصفحتان ٩٧ و ١١١ .

تمت عن طـريق أير . ثم أنه يبدو غريبا أن الفولانى من سكان المدن ، الذين فقدوا معظم سماتهم العنصرية المميزة بعد مائة عام من غزوهم لبلاد الهوسا (١٣٠) ، كان باستطاعتهم المحافظة على نقائهم العنصرى طوال فترات تنقلهم . فلو أنهم غزوا ماسنة لكانوا على الأقل قد اتخذوا لغة الناس وأعرافهم ، أو فرضوا لغتهم وأعرافهم على رعاياهم ، إذ يزعم أنهم اتخذوا لغة التكرور وأعرافهم . والحركة فى اتجاه الغرب كانت حركة اضطرارية أملتها مصالح السياسة السيادية ، وقد وطنهم منسات (١٣١) مالى فى ماسنة ، وذلك على الأرجح للتحكم فى العناصر المستعصية فى تلك المنطقة . وينبغى أيضا إزالة اللبس الذى نشأ بسبب غزوات من يسمون بالفولانى فى القرن التاسع عشر ، إذ أن ذلك صحيح على وجه الإجمال فقط . وتتحدث كـتب التاريخ عـن الغـزو الـذى قـام بـه التـورنكى أو التورنكاوا الـذين هـم شعب من التكرور .

إن سبب بروز الفولانى كعنصر سائد هو أنهم ليسوا زنوجا . فملامحهم الجسدية تتناقض بوضوح مع ملامح الزنوج ، كما أنهم يوفرون مخرجاً مرضياً لمن يتوق إلى العثور على تأثير أجنبى مهيمن فى إقامة الإمبراطوريات . ولذلك من الشائع القول بأن الغزاة الحاميين هم الدين أقـامـوا الدولة المنظمـة والحضارة بين الزنوج : فالزنجى ، كما كان يعتقد ، عاجز عن إقامة حضارة . ولذلك كاد الفولانى أن يكونوا الـبديل الحقيـقى . وكما يقول ديـلافوس نفسه ،

---

(١٣٠) الهوسا : كلمـة تدل على لغـة وحضارة أكثر من دلالتها على شعب معين . يقصدبهم الأقوام الـذين يعيشون الآن فى مناطـق نيجيريا الشمـالية وما حولها ، فضلا عن جاليـاتهـم المـنتشرة فى مراكز تجارية كثيرة فى غرب إفريقية . توطنوا فى بادئ الأمر فى برنو وشرق بحيرة تشاد ثم اتجهوا غربا . ليسوا من سلالة زنجية خالصة ، إذ اختلطوا أولا بالسكان الأصليين ثم بالبربر وأخيرا بالفولانى وبالعرب القادمين من الشمال . تركز تنظيمهم السياسى حول المدن ذات الأهمية التجارية والتى تطورت فيما بعد إلى مايسمى ممالك الهوسا السبع . انتشر الإسلام بينهم منذ القرن الثامن الهجرى . يتبعون مذهب الإمام مالك، ويتكلمون لغة حامية تنتمى إلى اللغات البربرية فى شمال إفريقية ، وتكتب بحروف عربية وحروف لاتينية .

(١٣١) جمع منسا ، وهو لقب سلاطين مالى كما سيرد بيانه تفصيلا فى الفصل الثالث .

« ذكر سلطان مالى ... وهو السلطان منسى سليمان .. » تحفة النظار ، الصفحة ٦٩١ .

«لأنهم قليلا ما يكونوا سائدين وأقوياء، فإنهم كثيرا جدا مايقبلون قوانين البلدان التى تستقبلهم ويعيشون بين الزنوج كأتباع ، بل فى بعض الأحيان كمنبوذين ». وهم صنف يندر أن يقبلهم الملوك أزواجاً لبناتهم . كما أن المؤرخين الأوروبيين المبكرين لم يكونوا فقط مقتنعين بأن الزنجى عاجز عن إقامة حضارة ، بل كانوا أيضا بحكم تربيتهم يرغمون على تفسير كل شئ من زاوية الكتاب المقدس . فاليهود والفلسطينيون ، حام وسام ، هم النقاط الثابتة التى يدورحولها تفسيرهم لتاريخ غرب إفريقية . وقد نظر الزوار الأوائل إلى النزاع القائم بين الطوارق والبربر على نحو مانظروا إلى النزاع بين الفلسطينيين واليهود ، بل أن دارسا بارزا وضع كتابا عن الحضارة العبرية فى غرب إفريقية . والكتاب المقدس ليس فى أفضل الأحوال مرشدا سليما إلى التاريخ . وكما يشير إبن خلدون ، فإنه لم يذكر فى التوراة سوى أن نوحا قد دعا على حام بأن يكون نسله عبيداً لسام ، وإنه لم يرد فى أى موضع منها ذكر للون البشرة ، وليس القول بأن الزنوج هم أحفاد حام إلا تبريراً للعبودية . (١٣٢) وقد قيل عن أهل الشمال إنهم أحفاد يافث (١٣٣) « وما أداهم إلى هذه الغلط إلا اعتقادهم أن التمييز بين الأمم إنما يقع بالأنساب فقط ، وليس كذلك ؛ فإن التمييز للجيل أو الأمة يكون بالنسب فى بعضهم كالعرب وبنى إسرائيل والفرس ، ويكون بالجهة والسمة كما للزنج والحبشة والصقالبة والسودان ، ويكون بالعوائد والشعار والنسب كما للعرب ؛ ويكون بغير ذلك من أحوال الأمم وخواصهم ومميزاتهم ، » .(١٣٤) بيد أن إبن خلدون حاول أن يفسر الفروق بين الزنوج وغيرهم بالنظر إلى العوامل المناخية ، وهو يعزو سواد الزنوج إلى الحرارة ، ويرجع بياض السلاف وغيرهم إلى

---

(١٣٢) « وقد توهم بعض النساب ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات أن السودان هم وُلْدُ حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها فى لونه وفيما جعله الله من الرق فى عقبه ... ودعاء نوح على ابنه قد وقع فى التوراة وليس فيه ذكر السواد وإنما دعا عليه بأن يكون ولده عبيدا لولد إخوته لاغير .. » العبر ، المجلد الأول ، الصفحتان ٧٠ و ٧١ .

(١٣٣) « ولما رأى النسابون اختلاف هذه الأمم بسماتها وشعارها حسبوا ذلك لأجل الأنساب : فجعلوا أهل الجنوب كلهم السودان من وُلْدُ حام .. وجعلوا أهل الشمال كلهم أو أكثرهم من ولد يافث ... » المرجع نفسه ، الصفحة ٧٢ .

(١٣٤) المرجع نفسه . الصفحة ٧٢ .

البرودة .(١٣٥) الأمر الوحيد هو أنه مادام التمييز قد تم على أيدى البيض فقد لاحظوا العمومية الشاملة للسود ، فلم يستطيعوا أن يميزوا فيما بينهم شعباً عن آخر ، ولكن إبن خلدون يرى أن كلا من أهل الشمال وأهل الجنوب قد أزيحوا من المراكز الحقيقية لحضارة المنطقة المعتدلة - التى كان مركزها البحر المتوسط (١٣٦) .

وتحفل بالإثارة نظريات أصل العناصر المتعلقة بقبائل الأكان واليوربا ، إذ أنها تلقى ضوءاً كاشفا على مأساة المثقفين الزنوج ، وتبين أن الزنوج قد سلموا بوجهة النظر الغربية ، ومفادها أنهم عاجزون عن تطوير حضارة خاصة بهم . وهكذا نجد بيوباكو (١٣٧) شديد الحرص على إثبات أن أسطورة اليوربا عن أدوبا والديك إنما تتضمن رواية الكتاب المقدس للطوفان . كذلك يحكى بيوباكو قصة مورّينى وأولورجويو على أنها تحوير اليوربا للبعث . فمورّينى كان عليها أن تضحى بابنها أولورجويو لآلهة النهر ، ولكنه بدلا من أن يموت يصعد إلى السماء بوساطة حبل . وبالمثل أخذ بيوباكو عن رواية سلطان بِلُّ التى تقول إن اليوربا ، شأنهم شأن الهوسا ، وقد انحدروا من قبائل كنعان . (١٣٨)

---

(١٣٥) « وفى القول بنسبة السواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد ... وذلك أن هذا اللون شمل أهل الإقليم الأول والثانى من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب ، فإن الشمس تسامت رؤوسهم مرتين فى السنة ... فيكثر الضوء لأجلها ويلح القيظ الشديد عليهم وتسود جلودهم ... ونظير هذين الإقليمين مما يقابلهما من الشمال ... شمل سكانهما أيضا البياض من مزاج هوائهم البرد المفرط ... فتبيض ألوان أهلها وتنتهى إلى الزعورة ، ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعور . » المرجع نفسه ، المجلد الأول ، الصفحة ٧١ .

(١٣٦) أفاض إبن خلدون طويلا فى هذه النقطة ، المرجع نفسه ، الصفحة ٤٠ وما بعدها .

(١٣٧) سابورى أولاديتى بيوباكو : مؤرخ وأنثروبولوجى نيجيرى ، ولد فى أبيكوتا ، نيجيريا ، فى عام ١٩١٨ ، تعلم فى لندن وعمل باحثا ودارسا فى آثار بلاده . تولى إدارة مشروع البحوث التاريخية المتعلقة بقبائل اليوربا . وله كتاب بعنوان The Egba and Their Neighbours ، (الإيجبا وجيرانهم) ،أكسفورد ، ١٩٥٧. أنظر، بازل دافيدسون The African Past ، مكتبة بنجوين الإفريقية ، ١٩٦٦ الصفحتان ٧ و ٣٦٥ .

(١٣٨) « وأما بلده فبلدة واسعة ، ... فمنها الأخبار العجيبة ، والأمور الغريبة ... وأهل هذا البلد على ما يقال - أنهم من بقايا بنى كنعان الذين هم عشيرة نمرود ... ، وسبب مقامهم بالمغرب ... أن يعرب قحطان هو الذى طردهم من العراق إلى المغرب فسلكوا بين مصر والحبشة ، حتى وصلوا إلى يرب ، وكان يخلفون فى كل بلد طائفة منهم ... » إنفاق الميسور ، الصفحة ٤٨ . [يقصد بكلمة يرب هنا اليوربا .]

وأول من قدم تفسيرا لقصة موريّني هو چونصون (١٣٩) الذى ربما انتهى كمسيحى إلى الاعتقاد بأن التماثل بين أساطير اليوربا والأساطير المسيحية يؤدى إلى المزيد من التحول من دين لآخر . ولكن الاتجاه الحديث هو المطابقة بين موريّني والعذراء مريم . بل إن فكرة العذراء قد أُخِذ بها ، وإيفه بدورها ارتبطت بعيسى .كما أن المحاولة التى قام بها بيوباكو ، استنادا إلى رواية بِلّ ، ومستعيناً باقتباسات من فروبنيوس ولوكاس وغيرهما ، لإثبات أن اليوربا انحدروا من كنعان أو من الشرق ، لاتعدو أن تكون محاولة للبحث عن أصل أجنبى . وللتماثل مع مصر وقعه عند لوكاس ، ومرجعه فى المقام الأول هو الدين . بيد أن كل المجتمعات الزراعية تقريبا لديها معبد مماثل ، كما أن التماثلات يمكن أن توجد لامع جزر بولينيزيا فقط ، وإنما مع المكسيك أيضا . ومن سوء الطالع أنه لايوجد دليل مدعوم بالوثائق على هجرة اليوربا أو هجرة أية قبيلة أخرى . ويشير بيوباكو إلى مصادر تقيلدية وعربية ، ولكنها مصادر لم يرد لها ذكر فى أى مكان . صحيح أن بِلّ قد أشار إلى ذلك ، ولكن كتاباته كانت فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . وعلى أية حال فإن غالبية القبائل الإفريقية تفاخر بأن تجد لنفسها أصلا يمنيا أو فلسطينيا ، وسبب ذلك فى أغلب الظن هو أن الديانتين السائدتين فى المنطقة قد نشأتا فى هذين البلدين .

والأمر الأشد أهمية بكثير من سلاسل الأنساب الجاهزة هو الخرافات المتعلقة بأصول قبائل معينة. ففى منطقة السنغى تبين قصة زا الأيمن.(١٤٠)

---

(١٣٩) صمويل چونسون : صاحب كتاب History of The Yorubas (تاريخ اليوربا) ، لاجوس ، ١٩٢٧. ويمكن القارئ أن يجد بعض اقتباسات من هذا الكتاب فى بازل داڤيدسون ، المرجع السابق ، الصفحتين ٧٨ و ٧٩ .

(١٤٠) ضبط الإسم على تاريخ السودان ، وقد ورد الإسم فى الترجمة الفرنسية لتاريخ السودان Za-Alayuman . « ذكر ملوك سغى أول من تملك فيها من الملوك زا الأيمن ثم زازاكى .. « تاريخ السودان ، الصفحتان ٢و٣ . ووردت كلمة « زا » فى الملحق الثانى لتاريخ الفتاش (الترجمة الفرنسية) Dioua, dja (جوّ) و dioua (جع) . وتفيد الحاشية ٢ فى الصفحة ٣٢٩ من الترجمة الفرنسية أن كلمةdja أو dia ، وفقا للهجة السودانية ، تعنى بالفرنسية «Il est venu» « أى جاء » . كذلك ورد الاسم Dia فى كتاب م . فيلكس ديبوا المعتم Tombouctou la Mystérieuse (تمبكت الغامضة) باريس ١٨٩٧ ، وذلك حين عدد أسماء ملوك السنغى الأول .Dia Arkai, Dia Atkai و Dia Illiaman ، الصفحة ١٧ . ويبدو أن كلمة « زا الأيمن » كانت تعنى فى الأصل « جاء من اليمن » . ثم أصبحت كلمة « زا » (أى جاء) لقبا لملوك السنغى الذين خلفوا « زا الأيمن » أول ملك بينهم .

نموذجاً إسلامياً مفروضاً على نموذج محلى . فالأصل اليمنى للأجانب الذين جاءوا إلى هذه المنطقة لا أهمية له بطبيعة الحال ؛ وإنما الأمر الهام هو أن القبائل السائدة التى مارست السلطة فى تلك البلاد كانت تتحكم فى مصادر المياه . وتقول الأساطير إن سمكة حكمت البلاد ، وإن كل شخص كان يخضع لها ، وهذه الأسطورة شائعة . ففى بلاد الهوسا عندما وصل الرحالة المجهد باياچيد إلى إحدى القرى كان يريد جرعة ماء . وأبلغته امرأة عجوز ، عندما سألها بعض الماء ، بأنه لا أمل فى الحصول عليه لأن الثعبان الذى يحرس البئر لايسمح باستخراج الماء إلا مرتين فقط فى الأسبوع . عندئذ طلب باياچيد دلواً، وجذب الثعبان بعيدا وقتله بسيفه . ومرة أخرى نأخذ أصل مدينة وَغَدُغُ (وجادوجو) . ذلك أن جنّياً منع دجنة من استخراج الماء من أحد الآبار ، وبعد أن اختبر كل منهما قوة الآخر عقدا بينهما حلفا تُوِّج بزواج دجنة بابنه الچنّى ، ويقضى بأن يمسك أبناء دجنة بزمام السلطة ماداموا يحافظون على التحالف ، وكان يعبر عن ذلك فى الرواية الشعبية بأن يفتدى حفيد الجنِّى ، وهو ثعبان ضخم يقوم على حراسة الماء ، بعذراء جميلة . وعندما قام شاب أضناه الحب يدعى مامادى ، سنتم التضحية بمحبوبته ، بقتل الثعبان قاست وغدغ كثيرا طيلة سبع سنوات ، وأرغم الناس على الهجرة .

وعلى أساس قصص الأصل أو النسب هذه يكون من المستطاع الإلمام بفكرة ما عن التاريخ المبكر للسودان . فعندما أخذت الصحراء الكبرى تزداد جدبا تحرك الناس الذين يعيشون فيها صوب الجنوب ، وذهب البعض منهم إلى وادى النيل ، وطوّروا بمرور الوقت الحضارة المصرية القديمة ، وتحرك البعض الآخر إلى وادى النيچر ، وهنا طوروا فى ظروف أقل سخاء الحضارة المبكرة لغرب إفريقية .

وعندما تحرك أهالى الصحراء الكبرى إلى غرب إفريقية كان يقطنها أناس ذوو بشرة حمراء وقامة قصيرة ، وسرعان ماجعلوا منهم أتباعا وأقنانا ، وظلوا يحكمونهم بوصفهم أمراء إقطاعيين . وفى الصحراء الكبرى تعلموا أساليب حفظ المياه واستخدامها بأكثر الطرق فعالية ، وأصبحوا أصحاب الماء ، وكانوا

يقترون فى تقديمه للفلاحين الاقنان فى أيام معينة من الأسبوع . بل إنه حتى فى الوقت الحاضر مازال الأمير الإقطاعى فى الصحراء الكبرى يتحكم فى الماء ، ويربط الفلاحون به ولا يحصلون على الماء إلا بإذنه ، وهكذا فرضوا على أقنانهم اقتصاداً زراعياً .

وثمة قدر معين من التأييد غير المباشر لوجهة النظر هذه . فكعت مثلا يروى لنا أن كنفاو (١٤١) عمر عثر فى تندرمه (١٤٢) على بعض آبار عميقة الغاية يزيد عمقها على ٦٠ قدما ، وفى بلاد لابى عثر ليس فقط على آبار ، بل كذلك على أطلال خزانات ماء تحت الأرض . ويضيف كعت أن آبار تندرمه كانت مقسمة بين سبعة أمراء ، وإذا أخذ أحد الجنود ماء من بئر لايتبع مولاه فلابد أن يحصل صاحب البئر على تعويض .(١٤٣) وذلك على وجه التحديد هو ماتحاول الحكايات الشعبية أن تنقله لنا . فقد تحكمت فى المياه أرستقراطية غازية ، وقهرت الناس الذين لم يكن يسمح لهم باستخراج الماء إلا فى أيام ثابتة معينة .

وقد دُمّر هذا الحكم التعسفى عندما حدث غزو جديد من جانب البدو ، فهؤلاء البدو كانوا أفضل تسليحا ، ولديهم بغال أو خيل ، وأهم من ذلك أنه كانت لديهم حراب مصنوعة من الحديد شديدة الشبه بالعنزة (السيف القصير أو الحربة) والسيف . فضلاً عن أن جزءا كبيرا من السكان كان راغبا فى

---

(١٤١) كنفاو : كلمة كانت تستخدم كمرادف لعبارة « كرمن فار » التى سيشار إليها أدناه تفصيلا . أنظر ، الحاشيتين ١٢ – ٢ و ١٢ – ٥ أدناه ، ويبدو أنها مشتقة من لغة المندنغو ، ومعناها الحاكم الأول أو الرئيس الأعلى الذى كانت مرتبته تلى مباشرة مرتبة الأسكيا (السلطان عند السنغى) .

(١٤٢) تَنْدرمة : مدينة على الضفة اليسرى لنهر النيجر بالقرب من بحيرة فاتى . كانت عاصمة كرمن ومقرا الكرمن فار . « وتولى عمر كمزاغ الكنفاروية وذلك فى تلك السنة وهو أول من تسمى بهذا الاسم ولم يكن قبل ذلك بخلاف بلمع وبِنْكَفَرْم فإن اسميهما موجودان منذ زمن شى وفى هذا العام وهو عام الثانى والتسعماية بنيت تنْدرمه وأمره اسكى محمد أن يبنى لنفسه مدينة فجعل يتفتش فى الجزائر والصحارى حتى أتى تندرم فأعجبه ذلك المكان وكان قبل مسكن قوم بنى إسرائيل وأجداثهم وآبارهم هناك إلى الآن ... » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٦٢ . [انظر ، الحاشية ١ - ٩٦ أعلاه .]

(١٤٣) « ويحفر بعضهم مقدار مائة وأربعين ذراعا وبعضهم مقدار مائتى ذراع وبعضهم مائة إلى ستين ذراعا وكل ما نقصت على ستين ذراعا فلا تصلح للسلق ... وفى القرية يومئذ سبعة ملوك من بنى إسرائيل منهم ... كل منهم يتبعه جيش عرمرم وكل ملك مع جندة له ابار وكل من أخطأ وسقى سلقه من آبار غير ملك يردّ حسابه للملك صاحب البير سواء كان حرا أو عبدا ... » تاريخ الفتاش ، الصفحتان ٦٢ و ٦٣ .

الثورة . وهكذا كان باستطاعة زا الأيمن وباياچيد أن يطيحا بالحكام . وقد تزوجا من الأهالى ، ويقال إن الأسر تنحدر منهما . وربما كانت الطبقة الحاكمة فى بلاد لابى أكثر استقرارا فى السلطة ؛ وأغلب الظن أنها قامت بتحصين المدن التى أخفق الغزاة فى الاستيلاء عليها ، ولذلك كان التحالف مفضلا ، وهو وإن لم يكن أمرا يسيرا فقد دام بعض الوقت ، ولو أن البدو قد انتصروا فى نهاية الأمر . ولم يكن البدو يألفون الرى ، ولم يحاولوا المحافظة على النظام الذى ورثوه ، فسرعان ما أحدث الزمن أثره وأصبحت الآبار عديمة الجدوى ، وتلاشت الحضارة القديمة .

سابعا

كان النموذجان السائدان اللذان أثّرا فى تاريخ غرب إفريقية هما البدو وسكان الوادى المستقرون ، وكان هؤلاء الأخيرون زنوجا فى الأساس ، وصانعى كل حضارة قامت فى السودان الغربى .

وقد كان البدو منذ أقدم العصور ينتقلون بصفة مستمرة إلى المناطق المستقرة . ويرجح أن يكون أهالى الصحراء قد نزحوا فى العصور القديمة إلى وادى النيل ووادى النيچر فى وقت واحد تقريبا . وفى وادى النيل أدى ذلك إلى ازدهار الحضارة المصرية ، أما فى النيچر . كما رأينا فيما سبق ، فلم يحدث إلا تطور أكثر تقييدا .

والفرق فى التطور بين مصر وغرب إفريقية يمكن تفسيره أساسا بنزوات النهرين . فالنيل أصبحت له الهيمنة فى اقتصاد مصر ، وقد أقر المصريون بذلك بأن جعلوا منه إلهاً لهم . أما على النيچر فلم يكن مستطاعاً استخدام النهر إلا بأعظم قدر من المهارة فى العمليات الزراعية ، ولذلك لم يكن بمقدور البدو أن يضارعوا المصريين لأن اقتصادهم لم يقم على قاعدة واسعة ولم يكن مزدهرا . كان النهر يزودهم بحياة مريحة على حساب سخط السكان الأصليين . وكانت النتيجة أن موجة جديدة من المهاجرين ، الذين كانوا يقيمون

فى الصحراء ولم يألفوا أعمال الرى ، قامت بتدمير النظام المكروه .

وهكذا لم يكن الزنوج هم السكان الأصليون لغرب إفريقية . فحتى فى الوقت الحاضر يتم العثور على بقايا لهم فى الصحراء الكبرى . أما القاطنون الأصليون فهم طبقا لغالبية الأساطير المحلية أناس ذوو بشرة حمراء وقامة قصيرة . وقد نزح الزنوج إلى هذه المنطقة من الشمال واستوطنوا فيها . وحتى فى غضون العصر التاريخى كان يوجد فى الصحراء الكبرى عدد كبير من السكان الزنوج . وكان السكان الذين استوطنوا الصحراء لفترة طويلة زنوجا فى الأساس ، وكان نفوذهم هو النفوذ السائد عبر الصحراء .

وبالبطء نفسه الذى أكرهت به غزوات شمال إفريقية المختلفة السكان على الاتجاه نحو الجنوب دخل عنصر جديد إلى الصحراء هو بدو الصحراء . وهؤلاء يبدو فيما بينهم تماثل شديد فى السمات المميزة سواء أكانوا من الطوارق أم العرب أم البربر ، وفيما يتعلق بغرب إفريقية فإن الطوارق ، وليس العرب أو البربر ، هم العنصر ذو الأهمية . وأصل الطوارق يبدو موضع خلاف ، بيد أنهم قوم أموميون عاشوا مشتتين فى الصحراء . ويعتقد رود أن الطوارق أحفاد البليميين الذين استوطنوا أعالى النيل اتقاءً لخطر الغزاة البرابرة . ومن رأى ونكلر أنه فى ظل البليميين أصبح الجمل هو حيوان الصحراء المفضل . ولابد أنهم نزحوا فى اتجاه الشرق وأقاموا بالفعل فى كانم فى القرن العاشر ، ومن هناك نزحوا إلى أير التى وصلوا إليها طبقا للروايات المحلية فى القرن الحادى عشر .

وينقسم الطوارق إلى عشائر مختلفة تتقاتل بصورة دائمة فيما بينها ، ومجتمعهم من الناحية الجوهرية مجتمع هرمى . فالإمراچن أو المحاربون يحتلون مكانة تعلو الأمراء الذين هم أتباع لهم ، ويلى هؤلاء الأقنان وأخيرا الرقيق .

وكان الطوارق خلال معظم تاريخهم يخضعون للملوك الزنوج الذى يقدمون لهم بناتهم ، وكان عدم وجود مستوطنات لهم يعنى أنهم كثيرو الترحال ، وأن بإمكانهم الإغارة على القرى الزنجية . وفى فترات الفوضى ، عندما تحطمت

الحكومة المركزية ، كانوا ينقضون على وادى النهر وينهبون الريف ، ولكن فى فترات السلم كانت الإمبراطوريات السودانية تستخدمهم فى حراسة الصحراء وحماية طرق التجارة ، وذلك أمر فى صالح الطوارق بقدر ماهو فى صالح السكان المستقرين ، ذلك أن أهالى الصحراء كانوا يعتمدون على السكان المستقرين فى الحصول على حاجتهم من الذرة ، ويتمتعون بحرية ترك جمالهم ترعى فى الأراضى القريبة من النهر ، ويستمدون ثروتهم من التجارة بين الشمال والجنوب .

والشعوب التى يمكن مقارنتها ببدو الصحراء الكبرى هى القبائل البدوية فى أواسط آسيا : **الهون** (١٤٤) والاتراك والمغول . ولكن هذه المقارنة ليست بالمرة فى صالح أهالى الصحراء الكبرى . فسكان آسيا الوسطى كانوا حقا برابرة ، كان يدمرون ، ولكنهم أدخلوا زخما جديدا إلى المراكز التى غزوها . وفضلا عن ذلك كان لديهم تنظيم مهيب ، وربما كانوا أعظم قوة عسكرية فى عصرهم . وهكذا كانت فتوحاتهم منتظمة وأدت إلى تكوين إمبراطوريات كبيرة ، ولكن الحقيقة أنها سرعان ماتحطمت بسبب اتساعها . وفى غرب إفريقية تغلغل أهالى الصحراء ، دمروا ، لكنهم لم يقيموا حضارة ولا كان باستطاعتهم تقديم صفوة سياسية وعسكرية جديدة . ومن الممكن تماما أن يكون كثيرون من أبناء الطوارق قد تغلغلوا فى وديان النهر واستوطنوا فيها ، وتزوجوا بنساء زنجيات فذلك يحدث حتى فى أيامنا هذه .

ويعتبر البربر أكثر الشعوب الرعوية الأخرى أهمية ، ولذلك تزعم غالبية العائلات النبيلة أنها ذات أصل بربرى ، ويرجح أن أعدادا من البربر والطوارق كانت بين الحين والآخر تستقر فى وادى النيجر وأن بعضا منهم قد تزوجوا

---

(١٤٤) الهون : شعب رحل من شمال آسيا الوسطى . كان تنظيمهم فى القالب عسكريا ، وكانوا منقسمين إلى قبائل . ظهروا فى القرن الثالث قبل الميلاد عندما بنى سور الصين العظيم لحصرهم . احتلوا الصين ثم غزوا وادى الفولجا ، وتقدموا غربا دافعين القوط الشرقيين والغربيين أمامهم ، وبهذا بدأوا موجات الهجرات التى حطمت الامبراطورية الرومانية . انسحبوا بعد موت الامبراطور ثيودوسيوس الثانى ، ولايعرف عن حركاتهم بعد ذلك إلا القليل .

بنساء محليات. كما يرجح أيضا أن تكون نساء البربر قد اتخذن أزواجا لهن من الزنوج ، فذلك كان يحدث خلال فترة لاحقة ، ويمكن أن يكون قد حدث فى فترات مبكرة ، لأن فكرة الأمير الأبيض الذى يفرض سطوته على السود إنما هى فكرة حديثة . فقبل أن يقع الغزو المراكشى كان السود يحكمون البيض فى الصحراء .

والمجموعة الرعوية الهامة الأخرى هى الفولانى ، وقد أوليتُ اهتماما كبيرا للأبحاث المختلفة التى عينت بدراسة أصول هذا الشعب ، وأنا معنىٌ هنا بدورهم فى التاريخ . إنهم مجموعة مشتتة . من ذلك أن جادن [١٤٥] مثلا يربط مابين كلمة « فولا » والتشتت . ووجوهم ليست جميلة بأية حال ، وهم أقل سوادا من الزنوج ، وملامحهم أكثر لينا . كما أنهم لايتكلمون البولار كمجموعة وطنية . ويرى مولارد أن ثمانين فى المائة من الفولانى الذين يتكلمون البولار من سلالة الرقيق ، فضلاً عن أنهم قليلو الكلام ويتجنبون المدن ، ويقتصر اهتمامهم على العناية بماشيتهم . وولعهم الشديد إلى حد الهوس بالماشية هو الذى يميزهم عن غيرهم . وهم إذا كانوا مسلمين يحكمهم المرابطون ، أما إذا كانوا وثنيين فيحكمهم كهنتهم . وقد كان المرابطون المسلمون هم الذين حققوا فيما بينهم نوعا من التماسك الاجتماعى .

والأمر الهام فيما يتعلق بالفولانى هو طبيعتهم المشتتة ، على حين كمنت القوة العظيمة لبدو الصحراء فى أن الجمل كان يوفر لهم قدرة على الحركة تفتقر

---

(١٤٥) جادن : عمل ضابطا بالجيش الفرنسى بافريقية فى أواخر القرن الماضى ، وقام بدور فى هزيمة البطل الإفريقى المعروف ساموري (أنظر الفرع عاشرا من الفصل التاسع) . له فضل العثور على مخطوط لكتاب تذكرة النسيان فى أخبار ملوك السودان ، فقد رأى جادن مؤلفا عربيا فى أيدى زعيم سودانى ، وقيل له إنه يحوى معلومات تاريخية هامة ، فطرأت له فكرة نسخه ، وحمل النسخة معه إلى فرنسا حيث سلمها للمستشرق الفرنسى هودا ، الذى قام بتحقيقها ونشرها بالعربية ، كما نشر ترجمة فرنسية لها عام ١٩٠١ تحت رعاية مدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس . وكتاب تذكرة النسيان مجهول المؤلف ، وإن تبين من فقرة فى الجزء الخاص بتاريخ سكتو أن مؤلفه هو الحاج سعيد الذى كان يعمل مقرئا القرآن لدى « عليوة » إبن محمد بلُّ . والكتاب يعد ثالث المراجع العربية الهامة فى تاريخ هذه المنطقة بعد تاريخ الفتاش وتاريخ السودان ، كما يعد تكلمة للكتاب الأخير ، إذ أن الأحداث التاريخية التى يتناولها وقعت بعد تلك التى يتناولها تاريخ السودان . ولا توجد نسخة عربية من هذا الكتاب فى أية مكتبة عامة فى القاهرة ، ولكن توجد نسخة من الترجمة الفرنسية بقاعة الاطلاع بالمكتبة العامة بجامعة القاهرة .

إليها ممالك السودان ، وهى قدرة كانت تمكنهم من توجيه الضربة والفرار على وجـه السرعة . وقـد افتقر الفولانى تماما إلى قدرة من هذا القبيل . وبينما كان البربر والطوارق يعيشون على النهب ، ومن ثم كانوا معتادين على استخدام الأسلحة ، فإن الفولانى لم يكونوا حتى بداية القرن التاسع عشر يعرفون بنزعتهم الحربية ، وكثيرا ما نقرأ عن الغارات التى كانت تشن على الفولانى ، وعن السرقات التى كانت تتعرض لها ماشيتهم ونساؤهم . كيف إذن واصل الفولانى الحياة فى حين كان كل شئ يسير ضدهم ؟ أولا ، كان هناك الاعتزاز بالعنصر ؛ فالفولانى حتى عندما يكون مولَّدا ، أو حتى عندما تكون الطريقة الوحيدة لتمييزه عن الزنجى هى زعمه بأنه فولانى ، كان يظل فولانيا . وهكذا فإن الفولانى المقيم الذى استقر فى مكان ما ، واتخذ له أعرافا وعادات ، وتزوج حيث يقيم ، لم يكن يفقد أبدا إحساسه بعنصره . وفى القرن التاسع عشر كان الفولانى فى طليعة الحركة نحو إقامة دولة فى ماسنة والإطاحة بنظام ممالك الهوسا . ثانيا ، فتنة نساء الفولانى ، فقد دفع أناس بارزون كثيرون إتاوة لقاء سحرهن ، بيد أن قلة نادرة هى التى ذهبت إلى ما ذهب إليه مولارد حين قال إن الفولانى الذين كانوا يرسلون بناتهم عن طيب خاطر إلى حريم الأمراء السود كانوا يستخدمون جمالهن لتأمين مراكزهم فى الجماعة .

إن الصانعين الحقيقيين للحضارة فى غرب إفريقية هم السود . والعناصر فى إفريقية ، وبخاصة فى السودان ، متشابكة للغاية بحيث يتعذر على المرء الحديث عن عنصر الولوف أو السركلى أو الموسى . بيد أنه يمكن تمييز فئتين عريضتين . ففى الشمال المتاخم للصحراء الكبرى توجد مجموعة من الناس طوال القامة ، والجزء الأسفل من أجسامهم شديد الطول بالنسبة لبقية الجسم ، وهم ذوو هيكل عظمى نحيل للغاية . وهؤلاء هم قبائل الولوف والسرير والسركلى والسنغى والغرمة والزرمة والموسى . وفى هذه المجموعة الشمالية توجد سلسلة مراتب اجتماعية ؛ فالشماليون كانوا أكثر تأثرا بالإسلام ، ومع ذلك فإن التمايز الحقيقى فى السودان لم يكن بين من تأثروا بالإسلام ، وبين من لم يتأثروا به ،

ولكنه بمعنى عام تمايز جغرافى بين مناطق السفانا (١٤٦) ومناطق الغابات ، وهو تمايز استمر حتى وقتنا هذا ، وربما نلمسه بصورة أوضح فى شعب مثل الموسى الذى هو فى الواقع شعب من سكان الحدود . وقد كانت قبائل الموسى طوال تاريخها بمثابة درع ضد الغارات القادمة من الشمال ، وكانت غاراتها تمتد بعمق فى الشمال ، وتسفر لا عن نهب تمبكت وحدها ، بل ولاته (١٤٧) أيضا . بل إن ممالك الموسى تشكل حتى فى الوقت الحاضر حاجزاً ضد انتشار الإسلام جنوبا . فالتماسك الاجتماعى فيما بينهم انتهى بهم إلى قبول الكاثوليكية دينا لهم مع احتفاظ إمبراطورهم برئاسته القبلية . ولكنهم عندما يستقرون فى مستعمرات شركة النيجر سرعان مايكتسبون أساليب الحياة السودانية ، وفى مقدمتها اعتناق الإسلام . فهم باعتبارهم سكان حدود يواجهون كلا النوعين من الأساليب ، ولكن التماسك الاجتماعى كان ينتهى بهم دائما إلى الوقوف فى وجه انتشار الإسلام فى مناطقهم . وهكذا تحتفظ الغابة بخلفيتهما القديمة القائمة على عبادة الاسلاف (١٤٨)

---

(١٤٦) السفانا هى المناطق التى تحد الغابات الاستوائية وتفصل بينها وبين الصحارى الحارة ، وهى تجود بكمية من الأمطار تنمو عليها أعشاب تكفى لرعى الماشية .

(١٤٧) ولاته : إلى الشمال الغربى من تمبكت ، وشرقى الحوض . وهذه الكلمة ربما تعنى الأراضى المرتفعة كناية عن الطبيعة المرتفعة للمنطقة فى مقابل أراضى الحوض المجاورة التى تعنى الأراضى القليلة الغور . أسماها السعدى « بير » (أنظر ، تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤٧ ومواضع أخرى ؛ وكذلك تاريخ السودان ، الصفحة ٢١ ومواضع أخرى .) تسمى أيضا « ولاتن » . كما أسماها إبن بطوطة « إيولاتن » « ثم إلى مدينة إيولاتن ..... بعد شهرين كاملين من سجلماسة .... » تحفة النظار ، الصفحة ٦٨٧ .

(١٤٨) عبادة الأسلاف : تنتشر بين الإفريقيين فكرة أن أرواح الأسلاف تسكن الحيوان ، فالزولو يقولون بأن أرواح الأسلاف تسكن الأفاعى ، ولذلك فهم لا يقتلونها ، ويرى المساى الرأى نفسه ، ولكنهم يحددون أفعى لكل قبيلة . وعند البارى ثعبان أخضر خال من السم تتمثل فيه روح النجون الأرضى وأرواح السلف . والرجل عند الدنكا لابد أن يكون له أخلاف يمجدون روحه ، فإذا لم يكن قد تزوج تظل الروح ناقمة عليه حتى يتزوج . وعند البميرة تتقمص الروح طفلا يتخذ اسم سلفه . وعند السارا تحل روح جد الأسرة فى أحد أحفاده ، ولذا لايليق أن يعيش الطفل مع أبيه تحت سقف واحد ، فيربى بعيداً عن الأسرة .

ولا توجد الصلابة نفسها فى المجموعات الاجتماعية ، وإن كانت الطقوس الدينية تبقى على القبيلة موحدة . وتتمتع النساء بحرية أوسع كثيرا ، وتوجد بينهن وبين الرجال مساواة أساسية إزاء العمل . والمجتمع مجزأ ، ولاتزال الأسرة هى الوحدة الأساسية فيه ، أما العائلة الممتدة والقبيلة فتعلوانها . وزراعة الكفاف هى حرفتهم الرئيسية . كما أن حفلات التنشئة (١٤٩) وفئات الأعمار (١٥٠) ، والطقوس الدينية الأخرى ، تحافظ على وحدة القبيلة . وبرغم أن التمايز بين السفانا والغابات حيوى للغابة ، فلاينبغى إعطاؤه أكثر مما يستحق . والمجتمع القبلى لايقل إحساسه بطائفته عن أى مجتمع مقسم إلى مراتب اجتماعية ، أما رؤساء القبائل والأطباء السحرة وفئات كبار السن مع جمعياتهم ، فكانوا منغلقين على أنفسهم شأن أية أرستقراطية .

---

(١٤٩) نظام التنشئة : فترة التنشئة هى فترة البلوغ عند الجنسين ، وفى ختامها ينتقل الفتى إلى مرحلة الرجولة ، وهو لكى يثبت صلاحيته لهذا الانتقال يجب أن تتوفر لديه صلابة بدنية وقوة احتمال وقدرة على قهر الخوف ، ذلك أن استسلامه للخوف يجعله موضع امتهان وفى عداد الصبيان ، ولا يجوز له الزواج . وبرغم أن مرمى هذا النظام أو معناه واحد عند مختلف القبائل فإن مراسمه تختلف من قبيلة لأخرى ، فعند الماساى يطوف الصبية بالمنازل يلتمسون الهدايا ، وهذه يقدمونه إلى رجل من كبار السن ليقوم بتنشئتهم ، ويتقبل الزعيم الهدايا ويزيد عليها ، ويعد ليوم التنشئة الذى تجرى فيه عملية الختان ، وكل عصابة يتم ختانها تأخذ لنفسها اسما خاصا مثل « الأسود » أو « المغيرين » ، ويقضى أفرادها فترة طويلة فى معسكرات يزرعون فيها ويرعون الماشية ويعدون الغارات ، ثم يعود كل منهم إلى مسكنه بعد أن يكون قد تزوج لينضم إلى زمرة الرجال . أما عند البارى فتقوم عملية خلع القواطع مقام عملية الختان ، فليس الختان من عادتهم .

(١٥٠) فئات الأعمار : يختلف نظام فئات الأعمار باختلاف القبائل ، وأهم اعتبار فيه تقسيم العمر إلى ثلاث مراحل أساسية : مرحلة الصبا حتى سن الرابعة عشرة ؛ مرحلة الفتوة حتى سن الثلاثين ؛ مرحلة النضج والرجولة بعد ذلك . أما عند البارى والنيليين الحاميين فالمراحل ليست محددة تماما . فبعد فترة يؤديها الأولاد في الخدمة يدخلون مرحلة الفتوة (بعد الخامسة والثلاثين) ثم الشيخوخة (بعد الخامسة والخمسين) . وتوجد عند البمبرة جمعية كومو السرية ، وهى جمعية دينية لها سلطات روحية من بينها مباشرة المراسم الجنائزية ، فيحرس الميت زملاؤه فى الرتبة والسن .

غانــة (*)

منشأ غانة مغلف بالغموض . فالإفريقيون الشماليون واليهود والبربر ، كل هؤلاء كان لهم نصيب فى نسبة تأسيس غانة إليهم . رأى واحد حول هذا المنشأ تجمع عليه الاجتهادات المختلفة ، مفاده أن حكامها الأوائل كانوا من العنصر الأبيض . يقول محمود كعت وهو سندنا الرئيسى : « واختلف أى قبيلة هم كانوا منها من وعكرى وقيل من وَنْجُرَ وهو ضعيف لا يصح وقيل من الصنهاجة وهو أقرب عندى لأنهم يقولون فى نسبهم أَسْكُعْ صُوبَ بهمزة مفتوحة فسين مهملة ساكنه فكاف مضمومة فعين مضمومة وهم حَمْ فى اصطلاح سودان لقباً والأصح أنهم ليسوا من السوداين والله أعلم وقد بعد زمانهم ومكانهم علينا ولايتأتّى لمؤرخ فى هذا اليوم أن يأتى بصحة شئ من أمورهم يقطع بها ولم يتقدم لهم تاريخ فيعتمد عليه » . (١) ويستبعد كعت بطريقة عرضية الروايات المحلية حول الأصول الزنجية .

(*) غانة التى يتناولها المؤلف فى هذا الفصل ليست بطبيعة الحال غانة الحديثة التى اتخذت هذا الاسم تيمنا ، والتى تقع على بعد قرابة ألف ميل جنوب غانة القديمة . ويقول الدكتور إبراهيم طرخان (« إمبراطورية غانة الإسلامية » ، الصفحة ٣٠) إن مدى إتساعها ليس معروفا بالضبط ، وإنها كانت صاحبة السيادة والنفوذ فى الأراضى الواقعة بين النيجر والمحيط الأطلسى ، وإنها امتدت من ناحية الشمال ، وخضعت لها غالبية القبائل الصحراوية ، وامتدت شرقا إلى جنوب تمبكت وجنوبا بغرب إلى أعالى النيجر وأعالى السنغال ، وربما امتدت فى بعض الأحيان إلى المشارف الشمالية لما هو الآن جمهورية غانة الحديثة ، وإلى أطراف منطقة الغابات الاستوائية . وتقع أطلالها اليوم بالقرب من الحدود الجنوبية لجمهورية موريتانيا الحديثة ، ضمن أراضى جمهورية مالى الحديثة .

(١) محمود كعت ، تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤٢ . وعكرى : وهم السركلى ، ومعناها بلغة أهل المنطقة الرجل الأحمر ، أى غير الأسود ؛ ونْجُرَ : وهم المندنغو ؛ ويقصد كعت بعبارة « لأنهم يقولون فى نسبهم أَسْكُعْ صُوبَ ... وهم حم فى إصطلاح سودان لقبا » القول بأنهم يسمون فى لغتهم أسكع صوب كلقب لهم ، وهو يعادل كلمة حام (إبن سيدنا نوح) . كما يقصد بعبارة « والأصح أنهم ليسوا من السوادين » أنهم ليسوا من أصول زنجية . هذا ومن المعروف أن الصنهاجة ليسوا زنوجا ، فصنهاجة صيغة عربية لاسم قبيلة زناتة البربرية الكبيرة التى تشكل إحدى المجموعتين الكبيرتيين اللتين ينقسم إليهما البربر فى شمال إفريقية .

وسندنا الآخر بطبيعة الحال هو السعدى . وهو لايذكر سوى أن الحكام كانوا من العنصر الأبيض ، وأنه كان هناك أربعة وأربعون أميراً ؛ إثنان وعشرون منهم حكموا قبل الهجرة ، وإثنان وعشرون بعدها . [٢] تلك هى المعلومات التى يقدمها رواة التاريخ . فلا السعدى ولاكعت عزز رأيه القائل بأن حكام غانة كانوا من العنصر الأبيض بأية أدلة تدعمها الوثائق . ولقد كتب السعدى وكعت روايتهما فى القرن السابع عشر ، بعد أن اجتاح المرابطون غانة بستة قرون . ولكن المؤرخين قبلوا قولهما بأن حكام غانة كانوا من العنصر الأبيض . ومرجع ذلك على أية حال هو الاعتقاد بأن الزنوج كانوا عاجزين عن تأسيس إمبراطورية . ومن رأى إرفوى أن فكرة الأمراء البيض الذين يسيطرون على سكان مستسلمين صاغرين لها مصدرها فى العصور الحديثة ، وأنه لايوجد فى تاريخ السودان ما يؤيدها .

وهذه الروايات البالغة الغموض حول مؤسسى غانة قد انتهت بمؤرخى غرب إفريقية إلى تكوين بعض النظريات المثيرة ، وأكثرها سذاجة تلك التى قدمتها ليدى لوجارد ، ومفادها أن الناس الذين كوّنوا مملكة غانة من الونْجَرَ ، وأنهم ربما قدموا من أنْجَرَ ، وهى مدينة فى شمال غرب شبه القارة الهندية على حدود إيران . ومع ذلك فإن النظرية المسلم بها على نطاق واسع هى تلك التى قدمها ديلافوس ، ومفادها أن الإمبراطورية قد تأسست على أيدى اليهود . وقد تبنى كل من بوفل وفاج هذه النظرية ، بيد أنه لايوجد فى التاريخ مايمكن أن يحملنا على الاعتقاد بأن اليهود ، حتى بعد مذبحة عام ١١٥ م [٣] ، قد

---

(٢) « وقَيَمَغْ هو الذى بدأ السلطنة فى تلك الجهة ودار إمارته غانة وهى مدينة عظيمة فى أرض بَاغَنَ قيل إن سلطنتهم كانت قبل البعثة فتملك حينئذ اثنان وعشرون ملكا وبعد البعثة أثنان وعشرون ملكا وعدد ملوكهم اربعة واربعون ملكا وهم بيضان فى الأصل ولكن ما نعلم من ينتمى إليه فى الأصل » تاريخ السودان، الباب الرابع ، الصفحة٩ . قَيَمَغْ وردت كَيَمَعْ فى تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤١ ، ويقول كعت فى الموضوع نفسه إن « كيمع .... معناه فى لغة وعكرى ملك الذهب » . والمقصود بالبعثة هنا الهجرة النبوية .

(٣) قبل الميلاد كانت الدولة الرومانية ترقب الصراع الدائر في صفوف اليهود لتنتهز فرصة التدخل ، وحانت الفرصة عندما نشب صراع بين قائدين متنافسين من اليهود ، فاجتاح الرومان فلسطين فى عام ٦٣ق. م ، وفى عام ٧٠ م سحق الامبراطور الرومانى تيطُس ثورة قام بها يهود بيت المقدس ودمر أورشليم وأحرق الهيكل الذى كان قد بنى برعاية قورش . وفى عام ١٢٥ م دمر الرومان أورشليم مرة أخرى تماما وتخلصوا ممن تبقى من اليهود بالقتل والتشريد ، فرحل من استطاع منهم الهرب إلى مصر وشمال إفريقية وأسبانيا وأوروبا . ومن هنا يرجح أن يكون تاريخ مذبحة اليهود المشار إليها هو عام ١٢٥م ، وليس عام ١١٥ م .

تحركوا جنوبا فى الصحراء إلى أبعد من المغرب أو مصر ، وهما بلدان كانا معروفين لديهم جيدا . وقد يكون غريبا أن يتحرك اليهود بنسائهم وأطفالهم إلى منطقة لم تكن حتى الجيوش الرومانية راغبة فى التغلغل فيها . كذلك لا أحد يعرف ديانة الناس الذين أسسوا غانة . فإذا حكمنا بأنهم الطوارق وعناصر صحراوية « بيضاء » أخرى ، فالأمر الأكثر احتمالا أنهم كانوا فى ذلك الوقت قبيلة وثنية أمومية . ذلك أن الخيار لا ينحصر بين الأديان السماوية الثلاثة ، ولا يوجد مايحتم بأنهم كانوا مسيحين أو يهوداً قبل اعتناقهم الإسلام . ومع ذلك فالأرجح أنه كانت توجد جاليات مسيحية ويهودية كثيرة على ساحل شمال إفريقية – كما كانت الحال فى الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية الرومانية – وهذه الحقيقة ربما تكون قد أدت بديلافوس إلى أن يعزو تأسيس غانة إلى اليهود .

وفى السودان . مثلما فى مصر ، استولى البدو أصحاب الماشية ، طبقا لهذه النظرية ، على السلطة والنفوذ ، واستوطنوا بين قبائل السوننكى ، وتمكنوا فى نهاية الأمر من تحقيق السلطة السياسية ، وكانت تلك هى بداية غانة . وبعد قرنين أو نحو ذلك هبَّ الأهالى ثائرين ، « وأطيحَ بالأسرة الحاكمة اليهودية السوريانية » ، وجاء إلى السلطة رئيس قبيلة محلى من السوننكى تحت اسم بِتّْجِن .

وإلى هذا الفراغ قدمت موجة جديدة من السوننكى بقيادة قيمغ الذى كان حاكما لقبائل السوننكى فى وغدو [٤] . وقد أثبت أنه قائد واسع الحيلة ، ولم تعترضه أية صعوبة فى غزو غانة . وهكذا فإن قيمغ الذى ورد ذكره فى تاريخ الفتاش ليس هو مؤسس الأسرة المالكة البيضاء ، وإنما الأسرة المالكة السوداء ، ولذا فإن المسألة المتعلقة بما إذا كانت قد قامت هناك أسرة مالكة بيضاء تظل برمتها مشكوكا فيها إلى أقصى حد .

والقليل الذى نعرفه عن غانة مصدره الجغرافيون العرب الذين كان لديهم بعض الإلمام ببلاد الزنوج . فلو كانت هناك أسرة حاكمة بيضاء لما أحجموا عن

---

(٤) وغدو : وردت فى تاريخ السودان « وغد » ، الصفحة ٢١ ؛ وفى تاريخ الفتاش « وكد » ، الصفحة ١١٩ . وهى تكتب الآن « واجادوجو » .

ذكرها .(٥) فاليعقوبى يقول فى كتاب البلدان إن ملك غانة ملك عظيم ، وإن بلاده غنية بمناجم الذهب ، ويخضع له عدد كبير من الممالك (٦) . ويضع كل من اليعقوبى والمسعودى (٧) غانة بين البلاد الزنجية ، ولم ترد فى مولفاتهما إشارة إلى أصل أبيض . كما إبن حوقل الذى زار أودغست وكان على علاقة وثيقة بتجارها ، يضع غانة بين البلاد الزنجية (٨). ويحذو حذوه كل من البيرونى (٩)

---

(٥) قال الخوارزمى ، الجغرافى العربى المعروف ، إن « غانة قوم يسمون إغرمنطين » . الخوارزمى ، صورة الأرض ، تحقيق هانس فون مزيك ، فيينا ، مطبعة أدولف هولز هوزن ، ١٩٣٦ ، الصفحة ١٠١ . والمقصود بالإغرمنطين هنا شعب الغارمنطيس ، وهم من البيض . (أنظر الحاشية ١ - ٤٦) .

(٦) أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (الشهير باليعقوبى) : جغرافى ومؤرخ أصفهانى عربى . قام بالترحال شرقا وغربا وزار بلاد فارس وأرمينيا والهند والشام والمغرب والأندلس ، يعد كتاب البلدان من أقدم المصادر الجغرافية وأوثقها . وتوجد فى المكتبات طبعة منه أصدرتها « دار إحياء التراث العربى » . كما أن له كتابا آخر عنوانه تاريخ اليعقوبى ، توجد منه طبعة فى جزأين أصدرتها « دار صادر » فى بيروت . ويبدو أن پانيكار قد خلط بين الكتابين ، فالإشارة الواردةفى المتن ليس مصدرها كتاب البلدان ، وإنما تاريخ اليعقوبى ، المجلد الأول ، الصفحة ١٩٤ : « ثم مملكة غانة ، وملكها أيضا عظيم الشأن ، وفى بلاده معادن الذهب ، وتحت يده عدة ملوك » .

(٧) « ولما تفرق ولد نوح فى الأرض سار ولدكوش بن كنعان نحو المغرب حتى قطعوا نيل مصر ، ثم افترقوا ، فسارت طائفة منهم ميمنة بين المشرق والمغرب ، وهم النوبة والبجة والزنج ، وسار فريق منهم نحو المغرب ، وهم أنواع كثيرة ، منهم الزغاوة والكانم ومركة وغانة وغير ذلك من أنواع السودان والدمادم . » المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الجزء الثانى ، الصفحة ٤ .

(٨) « ولقد رأيت بأودغست صكاً فيه ذكر حقٍّ لبعضهم على رجل من تجار أودغست .. » كتاب صورة الأرض ، الصفحة ٩٦ . « وملك أودغست هذا يخالط غانة ، وغانة أيسر من على وجه الأرض من ملوكها .. » المرجع نفسه ، الصفحة ٩٨ .

(٩) أبو الريحان محمد بن أحمد الخوارزمى البيرونى : (٩٦٢ أو ٩٧٣ - ١٠٤٨) مؤلف عربى من أصل فارسى . حصّل كثيرا من العلوم ، فكان مؤرخا ولغويا وأديبا وعالما بالرياضيات والفيزياء والفلك والطب والفلسفة والتصوف والأديان ، وله فى ذلك مولفات قيّمة تتميز بالإحاطة الشاملة والبحث الدقيق ، منها الآثار الباقية عن القرون الخالية ؛ تاريخ الهند ؛ تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة ؛ القانون المسعودى (فى الهيئة والنجوم) . له مع ابن سينا مراسلات وموازنات قيمة بين المذاهب الفلسفية والصوفية . وله أيضا كتب فى الأدب منها : شرح شعر أبى تمام ؛ مختار الأشعار والأسفار .

« ونسبة القلعة إلى الذهب ممكن أن يكون اسما وضعيّا ، وممكن أن يكون وصفا حقيّا ، فإن جزائر الزنج تسمى « أرض الذهب » ، لأن الذهب الكثير يرسب فى غسالة التراب القليل منه » . تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة ، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، الهند ، ١٩٥٨ ، الصفحة ٤٣٢ .

والبكرى (١٠) . وكان الإدريسى أول من قال شيئا مختلفا ، فهو يشير إلى أن الحاكم ينحدر من سلالة صالح بن عبد الله ، وهو من نسل النبى ، وقد وضع غانة على نهر النيچر ، وربما كان مرجع ذلك أن الإدريسى كتب بعد غزو المرابطين . وقد انقسمت غانة إلى جزأين : خضع الشمالى منهما لملك من البربر ربما كانت لديه مزاعم بأنه من سلالة الأشراف . (١١)

وهكذا لايوجد مايدعونا إلى أن نقيم الدليل على أن غانة كانت دولة بيضاء . فالمؤرخون الذين كتبوا بعد قيامها بأكثر من ألف عام يتعذر الأخذ عنهم كمصادر يُعوَّل عليها . والجغرافيون العرب القدامى لايذكرون شيئا عن أسرة حاكمة بيضاء فى غانة ، كما يفعلون مثلا بالنسبة لكانم ، ثم إنهم يقرون بصورة قاطعة بأن غانة مملكة زنجية . ومن المؤسف أن ضرورة تقديم تفسير للأحداث الإفريقية يستند إلى الكتاب المقدس ، وربط كل شئ بحام وسام ، وكذلك العزوف عن الاعتقاد بأن الزنوج كان فى مقدورهم أن يؤسسوا إمبراطورية ، يكمنان وراء غالبية الظنون المتعلقة بالأسرة البيضاء فى غانة .

ماذا نعرف عن غانة ؟ أقل القليل فى الحقيقة ! فمصدرنا الذى يعوَّل عليه ، والذى يتناول غانة فى شيئ من الإفاضة ، هو البكرى الذى يذكر المنطقة من حين لآخر ، وهذا ما يقوله عن غانة : « وغانة سمة لملوكهم واسم البلد أوكار واسم ملكهم اليوم وهى سنة سنتين وأربع ماية تنكامنين ... وغانة مدينتان سهليتان أحدهما المدينة التى يسكنها المسلمون وهى مدينة كبيرة فيها إثنا عشر مسجدا أحدهما يجمعون فيه ولها الايمة والموذنون والراتبون وفيها

---

(١٠) « وأفضل الذهب ببلاده (بلاد ملك غانة) ماكان بمدينة غيارو وبينها وبين مدينة الملك مسيرة ثمانية عشر يوما فى بلاد معمورة بقبايل السودان ... » البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، الصفحة ١٧٦ .

« وهى كان منزل ملك بلاد السودان المسمى بغانة .. » المرجع نفسه ، الصفحة ١٦٨ . (المقصود بمنزل الملك هنا عاصمته .)

(١١) « وغانة مدينتان على ضفتى النهر الحلو وهى أكبر بلاد السودان قطرا وأكثرها خلقا وأوسعها متجرا وإليها يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها وأهلها مسلمون وملكها فيها يوصف من ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وهو يخطب لنفسه ولكنه تحت طاعة أمير المؤمنين العباسى . » الإدريسى ، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، الجزء الأول ، الصفحة ٢٣ .

فقهاء وحملة علم وحواليها آبار عذبة منها يشربون وعليها يعتملون الخضروات ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة والمساكن بينهما متصلة ومبانيهم بالحجارة وخشب السنط وللملك قصر وقباب وقد أحاط بذلك كله حايط كالسور وفى مدينة الملك مسجد يصلى فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس حكم الملك وحول مدينة الملك قباب وغابات وشعراء يسكن فيها سحرتهم وهم الذين يقيمون دينهم وفيها دكاكيرهم وقبور ملوكهم ولتلك الغابات حرس ولايمكن لأحد دخولها ولامعرفة ما فيها وهناك سجون الملك فإذا سجن أحد انقطع عن الناس خبره وتراجمة الملك من المسلمين وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه ولا يلبس المخيط من أهل دين الملك غيره وغير ولى عهده وهو ابن اخته ويلبس ساير الناس ملاحف القطن والحرير والديباج على قدر أحوالهم وهم أجمع يحلقون لحاهم ونساؤهم يحلقن رؤسهن وملكهم يتحلى بحلى النساء فى العنق والذراعين ويجعل على رأسه الطراطير المذهبة عليها عمايم القطن الرفيعة وهو يجلس للناس والمظالم فى قبة ويكون حوالى القبة عشرة أفراس بثياب مذهبة ووراء الملك عشرة من الغلمان يحملون الحجف والسيوف المحلاة بالذهب وعن يمينه أولاد ملوك بلده قد ضفّروا رؤسهم على الذهب وعليهم الثياب الرفيعة ووالى المدينة بين يدى الملك جالس فى الأرض وحواليه الوزراء جلوسا على الأرض وعلى باب القبة كلاب منسوبة لا تكاد تفارق موضع الملك تحرسه فى أعناقها سواجير الذهب والفضة يكون فى الساجور عدد رمانات ذهب وفضة وهم ينذرون بجلوسه بطبل يسمونه دبا وهو خشبة طويلة منقورة فيجتمع الناس فإذا دنا أهل دينه منه جثوا على ركبهم ونثروا التراب على رؤسهم فتلك تحيتهم له وأما المسلمون فإنما سلامهم عليه تصفيقا باليدين وديانتهم المجوسية وعبادة الدكاكير وإذا مات ملكهم عقدوا له فيه قبة عظيمة من خشب الساج ووضعوها فى موضع قبره ثم أتوابه على سرير قليل الفرش والوطا فأدخلوه فى تلك القبة ووضعوا معه حليته وسلاحه وانيته التى كان يأكل فيها ويشرب وأدخلوا فيها الأطعمة والأشربة وأدخلوا معه رجالا ممن كان يخدم طعامه وشرابه وأغلقوا عليهم باب القبة وجعلوا فوق القبة الحصر

والأمتعة ثم اجتمع الناس فردموا فوقها بالتراب حتى تأتى كالجبل الضخم ثم يخندقون حولها حتى لايوصل إلى ذلك الكوم الا من موضع واحد وهم يذبحون لموتاهم الذبائح ويقربون لهم الخمور.» (١٢)

وغانة كانت بلدا يستخرج منه الذهب ؛ وجميع ركاز مناجمها ملك للملك ، وباستطاعة الأهالى أن يأخذوا التبر (تراب الذهب) فقط ، وبدون ذلك كان لابد أن يكثر الذهب حتى تنعدم كل قيمة عملية له . وقد زعم أن الملك يمتلك كتلة من الذهب فى حجم ضخم (١٣) . وكان لدى ملك غانة جيش من مائتى ألف محارب ، أربعون ألفا منهم مسلحون بالأقواس والسهام ، وكانت الخيول هناك ضئيلة الحجم . ويذكر البكرى أن كلمة غانة هى لقب الملك وأن البلاد اسمها أوكار ، وموقع العاصمة لايمكن تحديده إلا على ضوء المسافات التى ذكرها البكرى من أماكن مختلفة . فقد كانت على مسيرة أربعة عشر يوما من أودغست ، وأربعة أيام من سامقندى ، وخمسة عشر يوما من كوغة ، وعشرة أيام من تادمكة.(١٤)

---

(١٢) «البكرى ، المرجع السابق ، الصفحات ١٧٤ إلى ١٧٦ .

(١٣) « وهى (غانة) بلاد التبر المذكورة الموصوفة كثرة وطيبا والذى يعلمه أهل المغرب علما يقينا لا اختلاف فيه أن له فى قصرة لبنة من ذهب وزنها ثلاثون رطلا من ذهب تبرة واحدة خلقها الله خلقة تامة من غير أن تسبك فى نار أو تطرق بآلة وقد نقذ فيها ثقب وهى مربطة لفرس الملك وهى من الأشياء المغربة التى ليست عند غيره ولاصحت لأحد إلا له وهو يفخر بها على سائر ملوك السودان » الإدريسى ، نزهة المشتاق ، الجزء الأول ، الصفحة ٢٣ .

« لقد انتهى به الحال فى سرفه وتبذيره أن باع حجر الذهب الذى كان فى جملة الذخيرة عن أبيهم وهو يزن عشرين قنطارا منقولا من المعدن من غير علاج بالصناعة ولاتصفية بالنار كانوا يرونه من أنفس الذخائر والغرائب لندرة مثله فى المعدن » العبر ، المجلد السادس ، الصفحة ٢٠٣ .

(١٤) « وفى سنة ست وأربعين غزا عبد الله بن ياسين أودغست وهو بلد قايم العمارة مدينة كبيرة فيها أسواق ونخل كثير وأشجار الحناء وهى فى العظم كشجر الزيتون وهو كان منزل ملك السودان المسمى بغانة قبل أن تدخل العرب غانة وهى متقنة المبانى حسنة المنازل ومسافة مابينها وبين سجلماسة مسيرة شهرين وبينها وبين مدينة أودغست خمسة شر يوما » البكرى ، المرجع السابق ، الصفحة ١٦٨ .

« فأما الطريق من غانة إلى غيارو فإلى مدينة سامقندى أربعة أيام » المرجع نفسه ، الصفحة ١٧٧ .

« وعلى تسع مراحل من مدينة انبارة مدينة كوغة وبينها وبين مدينة غانة مسيرة خمس عشرة رحلة ..» المرجع نفسه ، الصفحة ١٧٩ .

« فأما الجادة من غانة إلى تادمكة وبينهما مسيرة خمسين يوما .. » المرجع نفسه ، الصفحة ١٨١ .

وقد وردت بعض المسافات بصورة غير دقيقة فى المتن ، أما أسماء المدن فقد تم ضبطها على البكرى .

وعلى أساس هذه الحسابات اعتقد مؤلفون مختلفون ، ومن بينهم كولى (١٥) وبارث (١٦) ، أن عاصمة غانة كانت تقع عند مكان على منحنى النيجر ، بيد أنه استناداً إلى روايات الأهالى ، وإلى ماذكره كعت من أن العاصمة تسمى قُنْبِ(١٧)، رجّح بونيل دى ميزيير (١٨) بأن العاصمة كانت تقع على حافة الصحراء الكبرى . بيد أنه كان هناك بلدان يحمل كل منهما اسم قُنْبِ ، وقد ربطت الأساطير المحلية بين العاصمة ومدينة قنب الواقعة على مسافة مائتى ميل إلى الشمال من بَمَكو ،

---

(١٥) وليم ديسبورو كولى : مؤلف كتاب The Negroland of The Arabs ، لندن ١٩٤١ . توجد نسخة منه بمكتبة جامعة القاهرة .

(١٦) هنريخ بارث : (١٨٢١ – ١٨٦٥) المستكشف والمستشرق الألمانى المعروف . بدأ رحلاته فى عام ١٨٤٥ من طنجة وزار شمال إفريقية ، ثم سافر إلى مصر وصعد مع النيل حتى وادى حلفا . عبر سينا إلى الشام وآسيا الصغرى واليونان . قام فى عام ١٨٥٠ مع زميلين له برحلة إلى قلب إفريقية موفدين من قبل الحكومة البريطانية ، غير أن زميليه توفيا فأكمل الرحلة بمفرده وعاد إلى مصر بعد رحلة بالغة الأهمية اخترق خلالها الصحراء الكبرى ، وعبر البلاد من بحيرة تشاد وباجرمى إلى تمبكت غربا والكمرون جنوبا . وطبعت قصة رحلاته بالإنكليزية والألمانية فى وقت واحد فى ثلاثة مجلدات تحت عنوان Travels and Discoveries in North and Central Africa (1857 - 58) . وأصدر بعد ذلك كتابا جمع فيه المفردات اللغوية الإفريقية . كان أول من عرّف أوروبا بكتاب عبد الرحمن السعدى تاريخ السودان ، ولكنه نسبه خطأ إلى أحمد بابا . (أنظر ، الإضافة المرفقة بنهاية الكتاب ، والخاصة بعبد الرحمن السعدى .)

(١٧) « ..... إن كيمع من الملوك الأوائل وقد مضى منهم عشرون ملكا قبل ظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم واسم بلدة قُنْبِ قُنْبِ مدينة عظيمة ... » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤١ . (وردت قُمْبِ فى الترجمة الفرنسية koumbi .)

(١٨) بونيل دى ميزيير : ضابط عمل فى إفريقية وتعمق فى الإسلام . كلف فى عام ١٩١١ بمهمة البحث عن مخطوطات لمؤلفات عربية تتناول تاريخ المنطقة . وتمكن بفضل درايته بالشؤون الإسلامية من كسب ثقة رجال الدين والفكر ، واستطاع أن يحصل من سيدى محمد الإمام بن السيوطى – المعلم بمدرسة تمبكت – على مخطوط كان سيدى محمد يعتبره أندر ما فى مكتبته ، فقام بنسخه وعهد بالنسخة إلى معهد اللغات الشرقية الحية بباريس ، ويتبين للمستشرق هودا أنه مؤلف ذو أهمية تاريخية كبيرة ولكن تنقصه الصفحات الثلاث الأولى فتعذر معرفة عنوانه . وفى عام ١٩١٢ عثر مسيوبريفيبيه على مخطوط آخر به الصفحات الناقصة ، وعرف منه أن المخطوط إنما هو لكتاب تاريخ الفتاش ، ولذا ينسب إليه فضل اكتشاف مرجع تاريخى هام . وقد قام دى ميزيير فى عام ١٩١٤ بأعمال حفر فى منطقة « الساحل » جنوبى الصحراء الكبرى ، واقتنع بأن هذا الموقع ربما يكون هو عاصمة غانة . وفى عام ١٩٤٩ استأنف الباحثان توماس ورايموندموني أعمال الحفر فى الموقع نفسه ، وأوضحا أن الآثار التى عثرا عليها ليست سوى بقايا المدينة الإسلامية أو القسم الإسلامى من عاصمة غانة .[كلمة الساحل هنا إشارة إلى ساحل الصحراء أى حافتها تشبيها بساحل البحر ، فالصحراء عند العرب هى بحر الرمال .]

وهذا الموقع يبدو مثاليا للتجارة عبر الصحراء الكبرى على طول الطريق الغربي ، وكان هذا هو أقصر طريق من البحر المتوسط إلى السودان . وقد جيئ ببونيل دى ميزيير إلى قُنْبِ صالح عندما أبدى رغبته وهو فى ولاته فى زيارة العاصمة القديمة لغانة . ومع ذلك فكما يقول مونى (١٩) . « لايمكننا اليوم أن نؤكد فى يقين ، حتى بعد الحفائر التى أجريت فى الأعوام ١٩١٤ و ١٩٣٩ و ١٩٤٩ - ١٩٥٩ فى موقع قنب صالح ، أنها كانت حقيقة قُنْبِ غانة » . ولكنه يوجد يقين معقول أساسه أن قنب هى المدينة الوحيدة التى ورد إسمها فى أى مرجع ، وأن الروايات المحلية تربط ما بين قنب صالح وغانة . وتشير الأطلال التى عثر فى الحفائر - الأوانى الفخارية والخرز إلخ - إلى موقع من العصور الوسطى .

وبالنسبة للجغرافيين العرب كانت مملكة غانة هى بلاد الذهب . فالفزارى (٢٠) الفلكى ذكر غانة بوصفها بلاد الذهب . كما أن الخوارزمى (٢١) الجغرافى واليعقوبى وإبن حوقل يذكرون جميعا ذهب غانة . يقول اليعقوبى : « ثم مملكة غانة ، وملكها أيضا عظيم الشأن ، وفى بلاده معادن الذهب ، وتحت يده عدة ملوك » (٢٢) . وهذا رأى إبن حوقل فى ملكها : « وغانة أيسر من على وجه

---

(١٩) رايموند مونى : مستكشف ومؤرخ فرنسى . له أعمال كثيرة من أهمها A.O.F. L'Encyclopedie Coloniles Navigations Medievales sur Cotes Sahariennes Anterieures á la Decouverte Portugaise ، لشبونة ، ١٩٠٦ .

(٢٠) محمد بن إبراهيم الفزارى : أول فلكى فى الإسلام . ترجم للخليفة العباسى المنصور رسالة « السندهند » المشهورة فى الفلك ، وكانت مع رحالة هندى قدم بها إلى بغداد . قيل أنه أول من صنع الاسطرلاب في الإسلام . كان أول جغرافى عربى يذكر مملكة غانة وعدة بلدان إفريقية قبل ١٨٥ هـ (٨٠١ م) .

(٢١) أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى : (؟ - ٨٥٠) ، رياضى وفلكى جغرافى ، ظهر فى عصر المأمون وكانت له مكانة سامية لديه . له فضل تعريف العرب والأوروبيين بنظام الأعداد الهندى . واضع الأساس لعلم الجغرافية العربى ، ذلك أن كتابه صورة الأرض الذى وضع فى أواخر عهد المأمون - أو فى عهد خليفته المعتصم على مايراه بعض المستشرقين - يعتبر من أمهات الكتب فى علم الجغرافية . وقد وردت به أسماء يونانية قديمة وأسماء معاصرة مما يدل على اهتمامه ببطلميوس وتأثره به . اشترك فى وضع الخرائط التى طلبها المأمون للأرض ، كما رسم مصوراً لوادى النيل . هذا وقد أخذت عن كتابه صورة الأرض (أنظر الحاشية ٢ - ٥ أعلاه) .

(٢٢) تاريخ اليعقوبى ، طبعة « دار صادر » ، المجلد الأول ، الصفحة ١٩٤ .

الأرض من ملوكها بمالديه من الأموال والمدخرة من التبر المثار على قديم الأيام للمتقدمين من ملوكهم .. ، » (٢٣) وقد كانت إفريقية الغربية تكتسب بالفعل شهرة واسعة باعتبارها بلاد الذهب .

والتاريخ السياسى لغانة مازال مجهولا لنا ، إلا فى أكثر التفصيلات غموضا . ونحن لانعرف شيئا عن الحكام الأوائل . واستنادا إلى ديلافوس فإن الإمبراطورية التى دانت لقيمغ لم تكن تمتد فقط إلى أوكار وباغن ، وإنما أيضا إلى كل أقاليم الساحل والحوض وتاجنت ، وربما امتدت جنوبا بغرب حتى بلاد التكرور ، ولكنها فى الشرق لم تمتد إلى ما وراء نهر النيجر . وهذا أساسه ضرب من التخمين بطبيعة الحال ، ولكن النقطة الهامة هى أنها كانت مملكة صحراوية ، وكان رخاء غانة رهنا ببقاء طريق الصحراء مفتوحا ، ومع الغزو العربى لشمال إفريقية ظهر خطر اضطراب هذا الطريق . وهكذا ففى القرن الثامن قام بنو أمية ، عندما أحكموا قبضتهم على مراكش الغربية ، بشن هجوم على غانة فيما بين عامى ٧٣٤ و ٧٥٠ . وكان هذا الهجوم هو أول حملة مراكشية ضد إحدى دول إفريقية الغربية نعرف عنه شيئا ، ولم تكلل الحملة بالنجاح . وكان أحفاد الغزاة يعيشون فى أوكار على أيام البكرى تحت اسم **الهنهين** (٢٤) .

وإليكم كيف يصف إبن خلدون تزايد قوة القبائل الصحراوية التى كان عليها أن تطيح بالإمبراطورية الزنجية وبالممالك المستقرة فى شمال إفريقية .

« هذه الطبقة من صنهاجة هم الملثمون الموطنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب أبعدوا فى المجالات هنالك منذ دهور قبل الفتح لايعرف أولها فنزحوا عن الأرياف ووجدوا بها المراد وهجروا التلول وجفوها واعتاضوا منها بألبان الأنعام ولحومها انتباذاً عن العمران واستئناسا بالانفراد وتوحشا

(٢٣) إبن حوقل ، المرجع السابق ، الفقرة ٥٦ ، الصفحة ٩٨ .

(٢٤) « وببلاد غانة قوم يسمون بالهنهين من ذرية الجيش الذى كان بنو أمية أنفذوه إلى غانة فى صدر الإسلام وهم على دين أهل غانة إلا أنهم لاينكحون فى السودان ولا ينكحونهم فهم بيض الألوان حسان الوجوه . » البكرى ، المرجع السابق ، الصفحة ١٧٩ .(المقصود بإقليم الساحل فى هذه الفقرة ليس الإقليم الواقع على ساحل المحيط الأطلسى ، وإنما الإقليم الواقع جنوبى حافة الصحراء الكبرى) .

بالعز عن الغلبة والقهر فنزلوا من ريف الحبشة جوارا وصاوروا ما بين البربر وبلاد السودان حجزا واتخذوا اللثام خطاما تميزوا بشعاره بين الأمم وعفوا فى تلك البلاد وكثروا وتعددت قبائلهم من كذالة فلمتونة فمسوفة فوتريكه فزغاوة ثم لمطة إخوة صنهاجة كلهم ما بين البحر المحيط بالغرب إلى غدامس من قبلة طرابلس وبرقة وللمتونة فيهم بطون كثيرة منهم بنو ورتنطق وبنوزمال وبنوصولان وبنوناسجة وكان موطنهم من بلاد الصحراء يعرف كاكرم وكان دينهم جميعا المجوسية شأنهم برابرة المغرب »(٢٥) .

وفى القرن التاسع نجحت قبيلة زناتة (صنهاجة) فى فرض سيطرتها على غرب الصحراء الكبرى ، وكان تعاظم قوتها الإقليمية يعنى أنها سرعان ماستدخل فى نزاع مع غانة . وقد أثبت رئيسها تيلوتان أو تين يروتان أنه حاكم عظيم . فقد كان يتبعه أكثر من عشرين ملكا زنجيا ، وامتدت حدود مملكته مسيرة شهرين ، وتجاوز قوام جيشه مائة ألف من راكبى الجمال .وقد شن حروبا ناجحة ، وتمكن من احتلال أوغام التى يذكر البكرى أنها تقع شرقى غانة.(٢٦) وقد حاول مونى تحديد هذه المدينة على أنها أشام ، المدينة البدوية القديمة الواقعة على النيچر ، على بعد أربعين ميلا إلى الشمال الغربى من تمبكت . ويقول إبن خلدون إن يروتان توفى سنة ٢٢٢ هـ ، وبحلول سنة ٣٠٧ هـ (٩١٩م) كان قد تم القضاء على سيادة الصنهاجة فى غرب الصحراء الكبرى . وكان باستطاعة غانة أن تغزو الحوض وتاجنت ؛ ومع ذلك احتفظت أودغست

---

(٢٥) إبن خلدون ، العبر وديوان المبتدإ والخبر ، طبعة بولاق ، المجلد السادس ، الصفحة ١٨١ ، تحت عنوان : « الطبقة الثانية من صنهاجة وهم الملثمون ومالهم بالمغرب من الملك والدولة » . وأود أن أشير إلى أن بانيكار أخذ عن إبن خلدون اقتباسات أخرى ترد مواضعها فيما يلى تلك من ، العبر الصفحات ١٨٢ إلى ١٨٦ .

(٢٦) « وكان صاحب أودغست فى عشر الخمسين وثلاث ماية تين يروتان بن ويسنو بن نزار رجل من صنهاجة وكان قد دان له أزيد من عشرين ملكاً من ملوك السودان كلهم يودى إليه الجزية وكان عمله مسيرة شهرين فى مثلها فى عمارة يعتد بها فى ماية ألف نجيب واستمده بعرين ملك ماسين على ملك أوغام فأمده بخمسين ألف نجيب فدخلت بلد أوغام وعساكره غافلة فغنمت البلد وأحرقته . » البكرى ، المرجع السابق ، الصفحة ١٥٩ .

باستقلالها برغم احتفاظها بعلاقات وثيقة مع غانة . فإبن حوقل يذكر أن أودغست كانت مدينة مستقلة . (٢٧)

وقد أدى تدعيم سلطان البربر فى الشمال إلى ضعف مؤقت فى قوة غانة . ويعتقد نيلافوس أن أتباع يروتان الزنوج العشرين ربما كانوا أتباعاً لغانة أيضا . وقد يكون ذلك وضعاً غريبا لما يمكن أن يؤدى إليه من نزاع بين السلطتين . والأمر الأكثر احتمالا هو أن غانة فقدت مقاطعاتها النائية فى الشمال ، كما أن تدعيم سلطان صنهاجة لابد أنه أدى إلى عرقلة تجارتها ، وهو ما يعد ضربة عنيفة لهذه التجارة ، لأنه يجعل باستطاعة البربر المتحكمين فى طرق التجارة فرض شروطهم على غانة . ولقد كان تدهور سلطان الصنهاجة إيذانا ببداية عهد جديد من الرخاء لغانة .

ذلك هو أوج سلطان غانة ، فقد أصبحت من جديد المركز التجارى العظيم ، وأذلت أعاق الأتباع الذين استفادوا من ضعفها . بيد أن ذلك كان مجرد فسحة من الوقت قصيرة ، إذ أن قوة جديدة كانت فى سبيلها إلى الظهور فى الصحراء من شأنها أن تدمر المملكة الزنجية ، هى قوة المرابطين . فقد فرضت القبائل البربرية ، وبخاصة لمتونة وجدالة سلطانها على الصحراء الكبرى ، وخرج أحد أفرادها ، وهو يحيى بن إبراهيم الجدالى ، إلى مكة لأداء فريضة الحج . وهناك راعته الخلافات بين المذاهب فى البلدان العربية حيث أشد الناس تقيدا بالشعائر الدينية . وفى طريق عودته فكر فى أن يصطحب معه عالما متفقها فى الشريعة

---

(٢٧) « ولهم ملك يملكهم ويدبرهم تكبره صنهاجة وسائر أهل تلك الديار . » إبن حوقل ، المرجع السابق ، الصفحة ٩٨ ، الفقرة ٥٧ . أودغست واحة تغدواست الحالية فى تاغنت ، وكانت أهم محطات القوافل فى هذه المنطقة ، واليعقوبى هو أول من أشار إليها ويسميها « غسط » . « ثم يصير إلى بلد يقال له غُسط ، وهو وادعامر ، ... يغزو بلاد السودان وممالكهم كثيرة . » كتاب البلدان ، الصفحة ١١٥ . كذلك تحدث عنها الإدريسى : « وفى هذا الجزء أيضا قطعة من شمال أرض غانة وفيها مدينة أودغست ... » نزهة المشتاق ، المجلد الأول ، الصفحة ١٠٨ . ويقول ياقوت الحموى ، نقلا عن المهلبى (معجم البلدان ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، المجلد الأول ، مادة أَوْذَغَسْتَ رقم ١١١٤ ، الصفحة ٣٢٩) « قال المهلبى : أوذغست مدينة بين جبلين ... جنوبى سجلماسة ... بها أسواق جليلة ، وهى مصر من الأمصار جليل .. وأهلها مسلمون يقرؤون القرآن ويتفقهون ، ولهم مساجد وجماعات ، أسلموا على يد المهدى عبيد الله ... »

الإسلامية يكون عونا على محاربة الجهل المتفشى فى الصحراء ، ووقع اختياره على عبد الله بن ياسين . ومن المؤكد أن إبن ياسين لم يكن شديد التفقه فى الدين ، بيد أنه كان واحداً من رجال الدين الذين تمكنوا عن طريق الجمع بين العصا والتهديد بعذاب الآخرة من أن يفرضوا إرادتهم ومن أن يحملوا الناس على اتباع ما يعتقد أنه الرأى الصحيح ، ومن ثم فرض انضباطا حديدياً على رعاياه . ولكن سكان الصحراء الذين يعشقون الحرية لم يرق لهم مسلكه ، واضطر إبن ياسين إلى الفرار وإلى أن يتخذ لنفسه ملجأ في جزيرة فى نهر السنغال حيث أسس رباطاً . وكان الرباط شديد التمسك بشعائر الدين ، وفرض فيه الانضباط بصرامة عسكرية . وعندما حصل إبن ياسين على سرية قوامها ألف من الجنود الحسنى التدريب ، والذين يتمتعون بالانضباط والتشدد الدينى، قرر أن يفرض بمساعدتهم سلطانه على لمتونة وجدالة .[٢٨] وفى عام ١٠٤٢ تمكن المرابطون بقيادة إبن ياسين من إخضاعهما ، ولكن رجال القبائل الصحراوية ثاروا ضد القيود الاستبدادية التى فرضها الغازى عليهم ، وأُجْبِر على الفرار إلى سجلماسة . وبمساعدة جيش تم تجنيده من بين رجال القبائل أرْغم إبن ياسين قبيلتى جدالة ولمتونه على الإدغان لسلطانه ، وأصبح باستطاعه عندئذ تكوين جيش قوامة ثلاثون ألفا تلهمهم الحماسة الدينية وعلى استعداد للفداء . وبهذا الجيش تحرك نحو الشمال وسيطر على سجلماسة المركز العظيم لتجارة

---

(٢٨) « كان هؤلاء الملثمون ... وكانوا على دين المجوسية إلى إن ظهر فيهم الإسلام لعهد المائة الثالثة ... وجاهدوا جيرانهم من السودان عليه فدانوا لهم .. وكانت رياسة كل بطن منهم فى بيت مخصوص ... ولما أفضت الرياسة إلى يحيى إبراهيم الكدالى .. وخرج يحيى بن إبراهيم لقضائه فرضه فى رؤساء من قومه فى سنى وأربعين وأربعماية فلقوا فى منصرفهم بالقيروان شيخ المذاهب المالكى أبو عمران الفاسى .. ، عهد إليه أن يلتمس لهم من يثق بدينه وفقهه ... فبعث معه عبد الله بن ياسين بن بك الجزولى ووصل معهم يعلمهم القران ويقيم لهم الدين ثم هلك يحيى بن إبراهيم وافترق أمرهم وأطرحوا عبد الله بن ياسين واستصعبوا علمه وتركوا الأخذ عنه لما تجشمو فيه من مشاق التكليف فأعرض عنهم وترهب وتنسك معه يحيى بن عمر بن تلاكاكين من رؤساء لمتونة وأخوه أبو بكر فنبذوا عن الناس فى ربوة يحيط بحر النيل من جهاتها ... فدخلوا فى غياضها منفردين للعبادة وتسامع بهم من فى قلبه مثقال حبة من خير فتسايلوا إليهم ودخلوا فى دينهم وغيضتهم ولما كمل معهم ألف من الرجالات .. فخرجوا وقتلوا من استعصى عليهم من قبائل لمتونة وكثالة ومهمومة حتى أنابوا إلى الحق واستقاموا على الطريقة . » العبر ، المجلد السادس ، الصفحتان ١٨٢ و ١٨٣ .

الصحراء ، ثم اتجه جنوبا ، وقرر فتح المركز التجارى العظيم الآخر فى قلب الصحراء ، أودغست – وكانت مدينة داعرة منغمسة فى اللذات – بابل الصحراء الكبرى ، وقد نهبت المدينة فى عام ١٠٥٤ ، ليس فقط بسبب انحلالها الخلقى وحياتها الشهوانية ، وإنما أيضا بسبب تبعيتها لغانة رغم كونها مملكة بربرية . ومن هنا كانت إساءة لكل من تزمتهم الدينى وكبريائهم البربرى . ولمرة واحدة أرخى إبن ياسين قبضته الحديدية وسمح لقواته بالسلب والنهب والاغتصاب . (٢٩)

واستاء أهل سجلماسة كثيرا من احتلال المرابطين لمدينتهم ، إذ لم يكونوا يتدخلون فقط فى ملذاتهم الجسدية وإنما فى التجارة أيضا . فالطريق المتجه إلى الجنوب ، إلى أودغست وولاته ، كان تحت سيطرة إبن ياسين . وبينما كان المرابطون ينشرون الدمار فى أودغست ثار أهل سجلماسة وذبحوا الحامية الصغيرة هناك . ولذلك تحرك إبن ياسين فى اتجاه الشمال ؛ أما سجلماسة فقد ألقت باللائمة على الصنهاجة لخشيتها من المحاربين الصحراويين ؛ ومرة أخرى احتل إبن ياسين سجلماسة وقرر غزو الشمال .

كانت مراكش عندئذ فى فترة أزمة ، ولذلك لم تكن فى حالة تمكنها من مقاومة المحاربين الصحراويين . وفتح إبن ياسين السوس فى عام ١٠٥٦ دون مشقة تذكر ، وبعد أن عبر جبال أطلس غزا دولة أغمات التى لا تقل ضعفا . ومات إبن ياسين فى عام ١٠٥٧ فى موقعة حربية ، وانتقلت الإمبراطورية إلى

---

(٢٩) يسهل إدراك أثر العوامل الاقتصادية فى هذا النزاع . فبسبب اهتمام المرابطين بالسيطرة على طريق القوافل الغربى عبر الصحراء الكبرى فقد اصطدموا مع مملكة غانة المسيطرة على طرفه الجنوبى ، وكذلك مع قبائل زناتة المختلفة المسيطرة على طرفه الشمالى ، لذا كان الزناتة القوة الرئيسية المناهضة المرابطين . ويمكن تفسير بطش المرابطين بأودغست عند احتلالهم لها بأن معظم سكانها كانوا من الزناتة . ولا بأس من قراءة رواية البكرى لغزوها :

« وفى سنة ست وأربعين غزا عبد الله بن ياسين أودغست ... وكان يسكن هذه المدينة زناتة مع العرب ، وكانوا متباغضين متدابرين ، وكانت لهم أموال عظيمة ورقيق كثير ، ... فاستباح المرابطون حريمها وجعلوا جميع من فيها فيئاً ... وإنما نقموا عليهم أنهم كانوا تحت طاعة صاحب غانة وحكمه . » البكرى ، المرجع السابق ، الصفحة ١٦٨ .

الأمير أبى بكر الذى كان موجودا بالفعل فى الشمال ، وكـان قـد تـزوج بالملكة البربرية الجميلة زينب . وأدى موت إبن ياسين إلى ثورة القبائل الصحراوية التى تتقاتل فيما بينها . الأمر الأكثر خطورة أن قبيلة عربية جديدة هى قبيلة بنى حمَّاد ، قامت بغزو المنطقة . لذلك استدار أبو بكر نحو الجنوب لمواجهة الخطر ، وترك قيادة الجيش فى شمال إفريقية لإبن عمه يوسف بن تاشفين ، كما طلَّق ذلك الرمز للملكية البربرية – الملكة زينب – التى تزوجت على الفور بالقائد الجديد للجيش . (٣٠)

وقد أثبت يوسف بن تاشفين أنه ليس مجرد فاتح عظيم ، بل حاكم عظيم أيضا . فقد أخضع لسيطرته كل شمال إفريقية ومراكش . ذلك أن أبا بكر بعد أن تغلب بنجاح على الثورة وأوقف غارات بنى حمَّاد ، اتجه صوب الشمال تراوده فكرة حكم الامبراطورية بكاملها . ولكنه عندما وصل إلى العاصمة الشمالية قدم له يوسف هدايا ثمينة وأمتعة خاصة بالصحراء . وأدرك أبو بكر مايرمى إليه يوسف وعاد إلى الصحراء ونذر حياته لغزو غانة . (٣١)

---

(٣٠) « .. وقدم مكانه أخاه أبا بكر وندب المرابطين إلى فتح المغرب فغزا بلاد السوس سنة ثمان وأربعين وافتتح ماسة وتارودانت .. وفر أميرها لقوط .. إلى تادلا واستضاف إلى بنى يفرن ملوكها وقتل معهم لقوط .. صاحب غمات وتزوج إمرأته زينب بنت إسحق النفزاوية وكانت مشهورة بالجمال والرياسة .. ثم دعا المرابطين إلى جهاد برغواطة ... وقد أمَّ المرابطين بعده سليمان بن حروا ليرجعوا إليه فى قضايا دينهم واستمر أبو بكر بن عمر فى إمارة قومه على جهادهم ثم استأصل شأفتهم ومحا أثر دعوتهم من المغرب .. ثم نازل أبو بكر مدينة لواته، وافتتحها عنوة وقتل من كان بها من زناتة ... وبلغه وهو لم يستتم فتح المغرب بعد ما وقع من الخلاف بين لمتونة ومسوفة ببلاد الصحراء .. فخشى افتراق الكلمة وانقطاع الوصلة وتلافى أمره بالرحلة وأكد ذلك وزحف بلكين بن محمد بن حماد صاحب القلعة إلى المغرب .. فارتحل أبو بكر إلى الصحراء واستعمل على المغرب ابن عمه يوسف بن تاشفين ونزل له عن زوجه زينب بنت إسحاق . » العبر ، المجلد السادس ، الصفحتان ١٨٣ و ١٨٤ .

(٣١) « .... فحينئذ سار يوسف بن تاشفين فى عسكره من المرابطين ودوَّخ أقطار المغرب ثم رجع أبو بكر إلى المغرب فوجد يوسف بن تاشفين قد استبد عليه وأشارت عليه زينب أن يريه الاستبداد فى أحواله وأن يعد له متاع الصحراء وماعونها ففطن لذلك الأمير أبو بكر وتجافى عن المنازعة وسلم له الأمر ورجع إلى أرضه فهلك لمرجعه سنة ثمانين وأربعمائة .. » المرجع نفسه ، الصفحة ١٨٤ .

ولم تكن إمبراطورية غانة حتى ذلك الوقت قد غُلِبت على أمرها . فقد سقطت أودغست فى عام ١٠٥٤ ، وكان لسقوطها أثره على تجارة غانة ، وهى التجارة التى اضطربت بالفعل نتيجة لقيام دولة الصحراء . وعندما قام المرابطون بغزو السوس وممالك مراكشية أخرى توقفت التجارة . ومع ذلك قاومت غانة ببسالة برغم عنف الضربة . وأخذت المقاطعات تسقط فى بطء فى أيدى الشماليين ، ولكن الملك كان لايزال مسيطرا على البلد الأصلى . وفى عام ١٠٧٦ سقطت غانة بعد حرب تواصلت دون انقطاع أربعة عشر عاما . وبسقوط العاصمة فى أيدى المحاربين الصحراويين كفت إمبراطورية عن غانة الوجود كقوة عظيمة . (٣٢)

وحتى بعد انتصار البربر احتفظت غانة بوجود هو أقرب إلى الشبح ، ولكن مجدها كان قد بارحها . فالتجارة التى قام عليها رخاؤها دمرت ، والمركزان التجاريان ، أودغست وسجلماسة ، كانا فى أيدى الغزاة الصحراويين . ويعتقد ديلافوس أن الغزو والفتح قد مزقا الإمبراطورية إلى جزأين : الشمالى منهما وسقط فى أيدى عائلة بربرية تزعم أنها من الأشراف ؛ وفى الجنوب ظلت الأسرة الوثنية القديمة تحتفظ بالسلطة . ولم تعد غانة التى أصابها الوهن فى وضع يمكنها من ممارسة أى نفوذ على المقاطعات التابعة التى أخذت تستقل عنها واحدة تلو الأخرى .

---

(٣٢) « ثم أن أهل غانية ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم واستفحل أمر الملثمين المجاورين لهم من جانب الشمال مما يلى البربر ... وعبروا على السودان واستباحوا حماهم وبلادهم واقتضوا منهم الإتاوات والجزى وحملوا كثيراً منهم على الإسلام فدانوا به ثم اضمحل ملك صاحب غانية وتغلب عليهم أهل صوصو المجاورون لهم من أمم السودان ... فى نواحيهم تلك واستطالوا على الأمم المجاورين لهم .. » المرجع نفسه ، الصفحة ٢٠٠ .

مالى وتوطيد أركان الدولة الإسلامية (*)

لايتوفر لدينا من الوثائق والأسانيد عن ظهور دولة مالى ونموها قدر ما يتوفر عن دولة السنغى . وقد نشأت الإمبراطورية فى الأصل عند المندى (١) ، واستنادا إلى ديلافوس فإن عاصمة الدولة ، التى أصبحت فى مجرى الزمن أهم إمبراطورية قامت فى السودان ، كانت قرية صغيرة تسمى كنجابا . ولكن ديلافوس عدل عن آرائه وانتهى فى عام ١٩٢٤ إلى أنه كانت هناك عاصمتان : العاصمة القديمة ، وهى ديالبيا ، عند ملتقى نهر سنكرنى بالنيجر فى مواجهة كنجابا . ووجهة النظر هذه تجد سندا لها فى **تاريخ الفتاش** ، ومع ذلك يقال إنه

(*) مالى هى أعظم ممالك السودان المسلمين ، قامت فى القرن الثالث عشر الميلادى فى جنوب المغرب متصلة غربا بالمحيط الأطلسى ، وشرقا ببلاد البرنو ، وشمالا بالصحراء الكبرى ، وجنوبا باليسع الوثنيين . وقد اشتملت على خمسة إقاليم كل منها مملكة مستقلة ، ثم اجتمعت كلها تحت ملك صاحب مالى ، ومالى هى أصل مملكته . وهذه الأقاليم هى : ١ - مالى : واتخذت الإمبراطورية هذا الاسم ، وقاعدتها بنبى ؛ ٢ - صوصو : إلى الغرب من إقليم مالى ؛ ٣ - بلاد غانة : غرب إقليم صوصو ، وتجاور المحيط ؛ ٤ - بلاد كوكو : شرق إقليم مالى ؛ ٥ - بلاد تكرور : شرق إقليم كوكو وقاعدته مدينة تكرور . وقد قامت مالى في قلب السودان وفى حوض النيجر ، وأصبحت غانة بعد ضعفها أحد أقاليم إمبراطورية مالى الإسلامية . أما جمهورية مالى الحديثة فهى جزء من دولة مالى الإسلامية وسميتها ووارثتها بالرغم من قلة مساحتها ، وقد استقلت فى عام ١٩٦٠ ، وكانت تعرف قبل استقلالها باسم السودان الفرنسى ، وأخذت إسم مالى بعد الاستقلال إحياء للمجد القديم [عن د. عيسى عبد الظاهر ، الدعوة الإسلامية .. الصفحة ١١٩ ؛ وكذلك د. إبراهيم على طرخان ، إمبراطورية مالى الإسلامية .]

(١) مالى هى النطق الذى عادة مايعطيه البيل (الفولانى) فى ما سنة ، وكذلك السنغى فى تمبكت ، للإقليم الذى يقيم به المندى (أو المندنغو أو الونجر - أنظر الحاشية ٢ -١أعلاه) الواقع على الشاطئ الأيسر للنيجر فيما بعد تمبكت فى اتجاه أعلى النهر ، كما يعطونه للإمبراطورية التى كان رؤساء هذا الأقليم هم رؤساؤها ، وذلك فيما بين القرنين الحادى عشر والسابع عشر ، والتى غزا السنغى الجزء الشمالى منها عند نهاية القرن الخامس عشر .

فى أيام سوندياتا تغيرت العاصمة إلى نيامى (٢) . بيد أنه فى مقابل ذلك لدينا رواية إبن بطوطة التى يذكر فيها عندما دخل عاصمة مالى كانت مقابر المسلمين هى أول ماقابله (٣) . ولكن الحفائر التى أجريت فى نيامى ، وإن تكن قد أدت إلى اكتشاف مدينة من العصور الوسطى ، لم تكشف عن أية مقابر إسلامية . وعلى الجانب الآخر يذكر العمرى بشكل محدد فى المسالك(٤) أن إقليم مالى هو

---

(٢) « وبد سلطان ملّ مبسوطة على الكل بالقهر والغلبة وكنا نسمع من أعوام عصرنا يقولون سلاطين الدنيا أربعة ماخلا السلطان الأعظم سلطان بغداد وسلطان مصر وسلطان برن وسلطان مل وبلده التى كانت فيها الإمارة الملكىْ اسمها جارب وأخرى تسمى يَنِعْ .. » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٣٨ . « واسم قريتهم يَنِعْ من أرض مل وهى مدينة ملكى ... » المرجع نفسه ، الصفحة ٥٦. [ملى هى مالى ؛ برن هى برنو؛ جارِبْ هى التى قصد بها بانيكار نيالبيا ؛ يَنِعْ هى التى قصدبها نيامى – وردت فى الترجمة الفرنسية Niani ؛ ملْكىْ هو سلطان مالى ، ذلك أن كلمة كُىْ KOÏ تعنى السلطان أو الملك .]

(٣) إبن بطوطة ، محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى :(١٣٠٤ – ١٣٧٨) ، ولد فى طنجة ، واستغرقت أسفاره ٣٨ عاما بدأها بالحج عن طريق شمال إفريقية ومصر . زار بلاد العرب والشام وفارس وشرق إفريقية وآسيا الصغرى والقرم والفولجا الأدنى . دخل القسطنطينية ومنها إلى خوارزم وبخارى وتركستان وأفغانستان ، ثم الهند حيث قضى ثمانية أعوام فى خدمة سلطان دلهى الذى أرسله فى سفارة إلى الصين ، وعاد إلى طنجة . ثم قام برحلة إلى الأندلس وأخرى إلى السودان الغربى ، وعاد إلى فاس حيث أقام فيها حتى وفاته .أملى وصف رحلاته باسم تحفة النظار ، وغرائب الأمصار، وعجائب الأسفار (ساشير إليه بتحفة النظار) . وقد أخذت عن طبعة حديثة (١٩٩٢) صدرت فى بيروت عن دار الكتب العلمية فى جزء واحد .

« فوصلت إلى مدينة مالى حضرة ملك السودان ، فنزلت عند مقبرتها ووصلت إلى محلة البيضان » تحفة النظار ، الصفحة ٦٩١ .

(٤) شهاب الدين أحمد بن يحى بن فضل الله العمرى الدمشقى : (١٣٠١ – ١٣٤٨) . ولد بدمشق وخدم السلطان الناصر محمد بن قلاوون . وضع مؤلفين هامين أولهما : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، وهو موسوعة فى ٣٢ جزءا ولاتقل أهمية وضخامة عن موسوعة النويرى ، وإن كانت أضيق منها نطاقا لاقتصارها على التاريخ والجغرافيا ، وهى تحوى وصفا للأرض والسكان والممالك والأقطار ومسالكها ، فضلا عن استطرادات أدبية وتاريخية وتراجم للأعلام . لم يكن مخطوطه موجوداً فى مصر ، وقد استطاع العلامة والبحاثة المصرى شيخ العروبة أحمد زكى باشا تصوير مخطوط له فى مكتبات أوروبا معتمدا على مخطوطات استانبول ، وأودعه دار الكتب بالقاهرة ، كما تولى تحقيق الجزء الأول منه ونشره فى عام ١٩٢٤ . ثم أصدر المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة مؤخرا الأجزاء الخاصة بممالك مصر والشام والحجاز واليمن ، والتى قام بتحقيقها الدكتور أيمن فواد سيد . أما باقى الأجزاء فمازالت على حالها . ثانى المؤلفين هو التعريف بالمصطلح الشريف ، وهو مصدر هام للتاريخ والجغرافية التاريخية . وقد استطاع العمرى فى هذا المصنف الجاف بطبيعته أن يرتفع إلى مستوى راق فى العرض الأدبى دون افتقاد النظرة الشاملة إلى مجموعه ، واقتفى القلقشندى أثره فى صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، وكاد أن يطبق ترتيبه وتبويبه بحذافيرها ، وقد نشر بالقاهرة سنة ١٣١٢ هـ .

وأشكر الظروف التى أغنتنى عن مشقة الاستعانة بمخطوط دار الكتب ، إذ استطعت الحصول على معظم ماورد فى المتن نقلا عن المسالك من مصدرين هما صبح الأعشى للقلقشندى ، طبعة بولاق ؛ مملكة مالى عند الجغرافيين العرب ، الدكتور صلاح المنجد الذى استقى اقتباساته من المسالك من مخطوط دار الكتب ، وكانت حكومة مالى قد عهدت إلى الدكتور المنجد بعد الاستقلال بجمع ماورد عن دولة مالى الإسلامية فى المصادر العربية القديمة .

الموضع الذى توجد به قاعدة الملك وأن عاصمة الدولة هى نيني [٥] ، وأن مالى لاتعنى سوى المقاطعات المحلية .

ولايعرف عن التاريخ المبكر لمالى إلا النزر اليسير ، وقد كان البكرى أول من ذكرها ، ولكنه لايقول شيئاً عن فترة ماقبل الإسلام . [٦] أما الإدريسى الذى قدّم رواية مشوّشة فقد أوضح أمرين : ففى منطقة للم ، أى المنطقة الوثنية ، لاتوجد إلا مدينتان أو قريتان كبيرتان هما مَلِل ودو ، والسكان يهود يعيشون فى جهل وعدم تقوى . وهو يذكر بوجه خاص طقوس التنشئة لديهم ، وعندما يصلون إلى مرحلة البلوغ تكون وجوههم موشومة بعلامات القبائل بوساطة الكى بالنار . ومالى لم تكن مدينة كبيرة ، وليس بها أسوار ، وبيوتها من الطوب المحروق . كما يقول إن للم هى المنطقة التى كانت قبائل الصالا والتكرور وبريس وغانة تجتاحها من أجل الرقيق . وهكذا عندما تظهر مالى فى التاريخ ، فإنما تظهر كجزء من غانة وكبلد وثنى اعتاد الشماليون الإغارة عليه من أجل الرقيق . [٧]

---

(٥) « قاعدة الملك بها مدينة ينى » ، مملكة مالى عند الجغرافيين العرب ، الصفحة ٤٣ .

« وقاعدته على ماذكره فى « مسالك الأبصار » : مدينة بنبى .. » ، صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٨٣ .

« وحاضرة الملك لأهل مالى هو بلد بنى متسع الخطة » العبر ، المجلد السادس ، الصفحة ٢٠٢ .

وقد زارها إبن بطوطة فى عام ١٣٥٢ وأسماها مالى ،أى أطلق عليها اسم الإمبراطورية التى كانت عاصمة لها . أنظر الحاشية ٢ - ٣ أعلاه .

(٦) « ووراءه بلد اسمه ملل وملكهم يعرف بالسلمانى » . البكرى ، المرجع السابق ، الصفحة ١٧٨ .

(٧) « ومن مدينة تكرور إلى مدينة بريس على النيل مشرقا ١١ مرحلة ومدينة بريس صغيرة لاسور لها غير أنها كالقرية الحاضرة وأهلها تجار متجولون وهم فى طاعة التكرورى ، وفى الجنوب من بريس أرض لملم ... وأهل بريس وملى وتكرور غانة يغيرون على بلاد لملم ويسبون أهلها ويجلبونهم إلى بلادهم فيبيعونهم من التجار الداخلين إليهم فيخرجهم التجار إلى سائر الأقطار وليس فى جميع أرض لملم إلا مدينتان صغيرتان كالقرى اسم إحداهما ملل واسم الثانية دو .. وأهلها فيما يذكره أهل تلك الناحية يهود والغالب عليهم الكفر والجهالة وجميع أهل بلاد لملم إذا بلغ أحدهم الحلم وسم وجهه وصدغاه بالنار وذلك علامة لهم .. » نزهة المشتاق ، المجلد الأول ، الصفحة ١٩ .

« وبناء هذه المدينة (ينى) باياد من طين ، مثل جدران بساتين دمشق ، وهو أن يبنى تقدير ثلثى ذراع بالطين ، ثم يترك حتى يجف ، ثم يبنى عليه مثله ، ثم يترك حتى يجف ، .. هاكذا حتى يتناهى .. » مملكة مالى ، المرجع السابق ، الصفحة ٤٦ .

وتؤكد الروايات المحلية ذلك بدورها ، فهى تقول إنه كانت هناك مملكتان : كيرى ودو . ويبدو أن كيرى كانت دولة مستقلة ، وأول من عرف من حكامها هو منسانيفين تيراوورا ، غير أن دو كانت خاضعة لغانة . ويذكر البكرى أن مملكة دو امتدت عبر منطقة مسيرتها ثمانية أيام ، وأن قواتها مسلحة بالسهام والأقواس . [٨] وحكام دو من أسرة كوناته ، ويقول مونتييه إن إسم كوناته غريب على مالى ، فهو من أصل سوننكى . وتفيد الروايات المحلية أن رؤساء دو الأوائل لم يكونوا يتمتعون بأية سلطات ، إنما كانوا مجرد موظفين تابعين لإمبراطورية غانة . وكان من عادة السودان أن يوجد فى كل دولة تابعة ممثل لسلطة الإمبراطور ، بمثابة مندوب سام ، وإن تكن وظيفته الرئيسية هى إبلاغ الإمبراطور عن الوضع السياسى ، ويشغل هذه الوظيفة عادة رقيق سبق تحريره ، وربما كان أبناء كوناته هم ممثلو غانة ، فقد أصبحوا حكاما مستقلين عندما كسرت شوكة غانة نتيجة لغزو المرابطين .

وتشير روايات الأهالى إلى جورماندانا كوناته بوصفه أول حاكم عظيم لملكة دو . وجورماندانا هذا قد يكون هو نفسه برمندان [٩] الذى ذكره المؤرخون العرب . ويذكر ليو [١٠] أن أول حاكم مسلم

---

(٨) « وما وازاها من ضفة النيل الثانية مملكة كبيرة .. سمة ملوكهم دو وهم يقاتلون بالنشاب » ، البكرى ، المرجع السابق ، الصفحة ١٧٨ .

(٩) « ويقال إن أول من أسلم منهم ملك اسمه سرمندانة ويقال بِرَمَنْدانة ... » ، المقريزى ، **الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفا والملوك** ، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، الصفحة ١٠ . [وجاء بحاشية بالصفحة نفسها « وقال القلقشندى بعد هذه الجملة : ثم حج بعد إسلامه ، فاقتفى سننه فى الحج ملوكهم من بعده » ، **صبح الأعشى** ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٩٣.]

(١٠) **الحسن بن محمد الزياتى الوزان المعروف بليو الإفريقى** : (؟- ١٥٥٢) ولد بقرطبة ، وفى سيرة حياته شبه كبير بسيرة حياة الإدريسى . يرد إسمه فى المصنفات الأوروبية Johannes Leo Elibritanus أو (Africanus) أى يوحنا الأسد الايبرى أو الإفريقى . قام من مراكش بصحبة عمه فى رحلةدبلوماسية ساقته إلى تمبكت ، حيث تعرف على إفريقية الداخلية والشمالية . زار استانبول ، وفى طريق عودته وقع أسيرا فى أيدى قراصنة من صقلية أهدوه لبابا روما ليون العاشر الذى عرف باطلاعه على المسألة الشرقية ، فاسترعى الوزان نظره . وفى روما اضطر إلى اعتناق المسيحية واتخاذ إسم ولى نعمته ، وهو چيوفانى ليونى ، كما أجاد الإيطالية واللاتينية إلى جانب الأسبانية . وفى عام ١٥٢٦ أتم الترجمة الإيطالية لكتابه **وصف إفريقيا** الذى وضعه أصلا بالعربية ، وبعد عامين تمكن من الإفلات عائدا إلى إفريقية حيث طرح المسيحية وعاد إلى الإسلام . وهناك خلافات حول وجود أصل عربى لكتابه ، كما صدرت آراء ترجح أنه كتب بالإيطالية رأسا. وتوجد للكتاب ترجمات باللاتينية والفرنسية والإنجليزية وغيرها . وقد صدرت للكتاب مؤخرا ترجمتان بالعربية أولاهما أصدرتها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض بمناسبة انعقاد المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول بالرياض فى سنة ١٣٩٩ هـ ، وسأشير إليها بطبعة الرياض ' وصدرت الثانية ضمن منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر (دار الغرب الإسلامى) سنة ١٩٧٨ ، وسأشير إليها بطبعة المغرب .

لمندى اعتنق الإسلام على يد أحد أعمام يوسف بن تاشفين ، [١١] وقد أطلق إبن خلدون على هذا الرجل إسم برمندان . [١٢] والبكرى هو الوحيد بين المؤرخين العرب الذى يقدم لنا رواية اعتناقه للإسلام . فقد تعرضت المملكة لجفاف استمر عدة سنين ، ومن أجل الحصول على المطر ضحّى الملك والشعب بماشية كثيرة ، وكان يبدو أن الماشية تشرف على الهلاك . وكان يعيش بين المندى رجل مسلم شديد الورع والتدين ، ويعمل جاهدا على هداية الناس إلى الدين الحنيف ، فاستغاث به الملك ليرى ما إذا كانت قدراته الدينية تستطيع التغلب على الجفاف ، وأجابه الرجل بإنه إذا ما تعهد بالاعتراف بالله وبوحدانيته ، وبرسالة النبى وشريعة الإسلام ، فإن الله ستأخذه الرحمة به ، وسيعم المملكة رخاء يحسدها عليه الجميع . وتعهد الملك بأن يفعل ذلك ، وقرأ الرجل الطاهر آيات من القرآن ، وأدخله فى دين الإسلام ولقنه تعاليمه وفرائضه ، ثم طلب إليه أن يصبر حتى يوم الجمعة ، وفى هذا اليوم وبعد أن تطهرا وتوضأ وارتديا الملابس القطنية ، انتصب الرجل واقفا وبدأ الصلاة ، والملك الذى اهتدى على يديه يقف عن يمنيه ، وقضى الرجلان جانبا من الليل على هذا النحو ، الرجل المسلم يصلى والملك يقول آمين ، وفى الصباح جادت السماء بالمطر ، فأمر الملك بتحطيم كل الأصنام وطرد الكهنة كافة . وأصبح هو وخلفاؤه مسلمين صالحين ، ولكن أهل مملكته ظلوا على

---

(١١) « لأنهم كانوا من السابقين إلى اعتناق الإسلام ، فحكمهم عند إسلامهم أكبر أمراء ليبيا وهو عم ليوسف (ابن تاشفين) ملك مراكش . ودام الحكم فى عقبه إلى عهد أسكيا ، فأصبح آخرهم خاضعا له .. » وصف إفريقيا ، طبعة المغرب ، الجزء الثانى ، الصفحة ١٦٥ .

(١٢) « وكانوا مسلمين يذكرون أن أول من أسلم منهم ملك إسمه برمندان .. وحج هذا الملك واقتفى سننه فى الحج ملوكهم من بعده ... » ، العبر ، المجلد السادس ، الصفحة ٢٠٠ .

وأسماه إبن خلدون فى موضع آخر برمندار وبرمندانة : « وحج جماعة من ملوكهم وأول من حج برمندار ، وسمعت فى ضبطه من بعض فلاتهم برمندانة ، وسبيله فى الحج هى التى اقتفاها ملوكهم من بعده .» العبر ، المجلد الخامس ، الصفحة ٤٣٣ .

وثنيتهم .(١٣) وتذكر رواية تؤيدها كتب المقريزى (١٤) أن أحد حكام مالى ، وهو موسى كيتا الأكوى ، قد أدى فريضة الحج فى عام ١٢١٣ .

وسرعان ما أطيح بالأسرة الحاكمة الأصلية وحلت محلها أسرة كيتا الحاكمة التى لم تكن من رعايا مالى، وإنما من « الونقارة » ، وقدمت إليها من منطقة أخرى . وطبقا لرواية تاريخ الفتاش فإن أفرادها من أصل بربرى.(١٥)

---

(١٣) « ووراءه بلد اسمه ملل وملكهم يعرف بالمسلمانى وإنما سمي بذلك لأن بلاده اجدبت عاما بعد عام فاستسقوا بقرابينهم من البقر حتى كادوا يفنونها ولايزدادون إلا قحطا وشقاء وكان عنده ضيف من المسلمين يقرأ القرآن ويعلم السنة فشكا إليه الملك مادهمهم من ذلك فقال له أيها الملك لو آمنت بالله تعالى وأقررت بوحدانيته وبمحمد عليه السلام وأقررت برسالته واعتقدت شرائع الإسلام كلها لرجوت لك الفرج مما أنت فيه وحل بك وأن تعم الرحمة أهل بلدك وأن يحسدك على ذلك من عاداك وناواك فلم يزل حتى أسلم وأخلص نيته وأقرأه من كتاب الله مما تيسر عليه وعلمه من الفرائض والسنن مالا يسع جهله ثم استأنا به إلى ليلة جمعة فأمره فتطهر فيه طهرا سابغا والبسه المسلم ثوب قطن كان عنده وبرزا إلى ربوة من الأرض فقام المسلم يصلى والملك عن يمينه يأتم به فصليا من الليل ماشاء الله والمسلم يدعو والملك يؤمن فما انفجر الصباح إلا والله قد أعمهم بالسقى فأمر الملك بكسر الدكاكير وإخراج السحرة من بلاده وصح اسلامه وإسلام عقبه وخاصته وأهل مملكته فوسموا ملوكهم منذ ذاك بالمسلمانى . » البكرى ، المرجع السابق ، الصفحة ١٧٨ .

(١٤) تاج الدين أحمد بن على المقريزى : (١٣٦٤ - ١٤٤٢) ، مؤرخ مصرى ، ولد بالقاهرة . برز فى البحث والدراسة عمل بديوان الإنشاء ، ثم عين قاضيا فإماماً لجامع الحاكم ، واختاره السلطان برقوق لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى . انتقل إلى دمشق حيث قام بالتدريس والنظر على أوقاف المارستان النورى والقلانسية ، وعاد ليتوفر على الدرس والعلم . رجعت إلى مؤلفاته التالية : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بكتاب الخطط ؛ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة ، والدكتور محمد جمال الدين الشيال ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٣٤ ؛ الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفا والملوك ، (أنظر الحاشية ٣ - ٩) ؛ جنى الأزهار من الروض المعطار ، مخطوطة بقسم المخطوطات بدار الكتب المصرية تحت رقم « ٤٥٨ جغرافية » ؛ قطعة عنوانها الخبر عن أجناس السودان تم تحقيقها ونشرها فى العدد الخامس عشر من الدورية Annales Islamologiques (حوليات إسلامية) التى يصدرها المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، الصفحات ١٩١ إلى ١٩٥ .

(١٥) « فقلت إنى أحب أن أعرف أصل سُغَىّ واصل وعكرى فقال دميرين يعقوب يا امير المؤمنين وخليفة المسلمين انّى سمعت من شيخى شمهروس رضى الله عنه وأرضاه أن جدّ وعكرى وجَد وذكر كانوا إخوانا شقائق وأبوهم كان ملكا من ملوك اليمن إسمه تَراسَ بن هارون فلما مات أبوهم تولى على المملكة أخوه يسرف بن هارون فضيّق على أبناء أخيه أشد التضييق فهاجر الأبناء من اليمن إلى ساحل البحر المحيط ومعهم زوجاتهم ووجداوا هنالك عفريتا من الجن فسألوه عن إسمه فقال رُوْرَ بن سارَ فقالوا ماجاء بك فى هذا المكان فقال تُكْ قالوا وما اسم هذا المحل فقالوا لا أعلم فقالوا يحق لهذا المكان أن يقال له تكرور » ، تاريخ الفتاش ، الصفحتان ٢٤ و٢٥. [فضلت استخدام الاسم الذى أطلقه المؤرخون على هذه القبيلة وهو « ونقارةَ » بدلاً من « ونجر » . وكلمة تكرور تتكون من كلمتين هما تُكْ ورُوْرَ . وكلمة تُكْ بلغة الماندنغو تعنى مصيرا أو قدرا ؛ أما كلمة رُوْرَ فهى إسم عفريت . أنظر ، الحواشى ١-١٢٣و١٢٦و٢-١٢٧ أعلاه ، كذلك الإضافة الخاصة بمحمود كعت فى نهاية الكتاب .]

وقد قدمت أسرة كيتا واستقرت فى جَاوِبَ (١٦) ، وهى قرية بالقرب من سجرى . وكانت إبنة رئيس دُجُلو تعانى مرضاً جلدياً صَدَّ عنها راغبى الزواج ، ولكن فاماغان زعيم المهاجرين أبدى رغبته فى الزواج منها ، فأكسبه هذ الزواج قوة ، ونشأت المتاعب بينه وبين إخوته الثلاثة . واتخذ أهالى بلدة دودُجُ جانب الإخوة ، وأرغم فاماغان على الإلتجاء إلى كيرى . وفى النزاع الذى ترتب على ذلك بين كيرى ودودُجُ كان النصر حليف كيرى بالرغم من كثرة حلفاء دودج ، وأصبح فاماغان الرئيس الأعلى لمالى .

وظلت غانة قائمة برغم ما أصابها من ضعف شديد . فقد فقدت مقاطعاتها الشمالية ، وفى الجنوب كانت القبائل المختلفة تعمل على تأكيد استقلالها . وفى عام ١٠٧٦ استقلت عنها كَياجَ (١٧) ، إحدى ولاياتها ، تحت حكم أسرة ديارسوّ التى ظلت تحكم حتى عام ١١٨٠ عندما مات الملك بياما . وكانت لهذا الملك زوجتان ، وبسبب شعور أولاد الزوجة الثانية أنهم الجانب الأضعف فقد طلبوا العون من رئيس حرس المملكة ديارة كَنْتى الذى كفل لهم النصر ، بيد أن الشقاق دبّ بينهم لخلاف حول وراثة العرش ، وانتهى هذا الشقاق العائلى باستيلاء ديارة كنتى على السلطة . وفى عام ١٢٠٣ خلفه إبنه سُمَنْغُرُ .

كان سُمَنْغُرُ فاتحا عظيما وضع نصب عينيه إقامة إمبراطورية كبيرة للصوصو ، فقام فى عام ارتقائه العرش بالهجوم على غانة التى كان الضعف قد تمكن منها ، وقضى عليها تماما . (١٨) وفر السكان المسلمون نحو الشمال وأسسوا مدينة

---

(١٦) « وبلده التى كانت فيه دار الإمارة الملكى اسمها جَاوِبَ ... » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٣٨ .

(١٧) « ولا يتولى ملك كَياج الا عبيده وأمراءه » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٣٩ .

(١٨) « ثم اضمحل ملك أصحاب غانة وتغلب عليهم أهل صوصو المجاورون لهم من أمم السودان واستعبدوهم وأصاروهم فى جملتهم » ، العبر ، المجلد السادس ، الصفحة ٢٠٠ .

تقع إمارة الصوصو فى منطقة كَنْياغة وهضبة المندى ، وقد ظلت تحكمها أسرة ديارسّو السوننكية من عام ١٠٧٦ إلى عام ١١٨٠ . وأخذ أفراد هذه الأسرة يتزوجون بنساء إحدى عشائر الفلاته هى عشيرة صو وأصبح نسلهم يعرفون بالصوصو ، كما أطلق إسم صوصو على العاصمة وعلى المملكة . وفى سنة ١١٨٠ أطاح بهذه الأسرة محارب من السوننكى يدعى ديارة كَنْتي ، وتولى هو حكم البلاد . وبعد الهزيمة فرت الأسرة مع أنصارها إلى تكرور حيث أنشئت أسرة حاكمة هناك ظلت تتوارث الحكم حتى أطاح بها الوولُف فى عام ١٣٥٠ .

ولاته ، وأصبح السودان يواجهون الآن صراعا من أجل الإمبراطورية . كانت هناك دول مستقلة تتصارع من أجل السيادة ، تتصدرها مملكة الصوصو بزعامة سمنغر ومملكة مالي ، وكانت الأولى أكثر منعة من الأخيرة إذ امتدت من النيجر شرقا حتى جلم وتاجنت غربا والسنغال جنوبا . بيد أنه تعين على سُمَنْغُرُ كي يدعم سلطته أن يخضع مالي ، وحانت له الفرصة عندما توفي ناري فاغان ملك غانة . وتوجد روايتان لما حدث ، ولكنهما تتفقان على أن مالي خضعت لحكم الصوصو . وتذكر إحدى الروايتين أن ناري فاغان أنجب إثنى عشر ولدا ، أحد عشر منهم من زوجة واحدة ، وسندياتا من الزوجة الأوخرى . وقام سُمَنْغُرُ في غضون عام واحد من موت ناري فاغان بغزو المملكة ، وقتل الأحد عشر ولدا ، ولكنه أبقى على سندياتا لصغر سنه وإصابته بالشلل ، غير أن سندياتا كان عليه أن يعترف بسلطان سُمَنْغُرُ . وتقول الأسطورة إن سندياتا شفي بمعجزة عندما سلمت إليه عصا والده الملكية ، وعندئذ عقد العزم على تدمير سُمَنْغُرُ . وتبين له أن خير طريقة لتحقيق غرضه هي إيفاد شقيقته لتعمل عينا له في بلاط الصوصو . ولم يلبث إمبراطور الصوصو أن وقع أسير جمالها ، وكان شرطا لأن تسلم له نفسها هو أن يثق بها ويبوح لها بمصادر قوته السحرية . وعندما كشف لها عما أرادت اختفت في صبيحة اليوم التالي . وهكذا استطاع سندياتا ، الذي يجله المندي باعتبار ساحرا عظيما ، التغلب على ملك الصوصو .

وتقول رواية مختلفة إن ناري فاغان كانت له زوجتان : سونجولو وكوتويوبولا ، والأخيرة جارية . وقد أنجبت كل منهما ولداً في اليوم نفسه ، ولكن مولد دنجارام ، إبن الجارية ، أبلغ لأبيه قبل إبلاغه بمولد الإبن الآخر . وهكذا على الرغم من أن سندياتا ولد أولا ، فإن أخاه ، إبن الجارية ، هو الذ أصبح الإبن الأكبر . وكان لسندياتا من أمه أخ وأخت آخران . وعندما مات ناري فاغان انتقل الحكم إلى دنجارام ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يُعوِّل على ولاء الشعب لكونه إبن جارية . ولذلك عقد العزم على قتل سندياتا . وفر سندياتا مع أمه وأخته وأخيه . عندئذ رأى دنجارام أن يدعم قوته بعقد حلف مع سمنغر ،

وقدم له أخته ليتزوجها ، واحتفظ سمنغر بالفتاة ، ولكنه رفض أن يشن حربا على سندياتا ، وكان يرمى من وراء ذلك إلى الإبقاء على مالى ضعيفة ومفككة . أما دنجارام الذى حكم عشر سنوات فقد قرر أن يثأر للإهانة ، ولكنه دحر وسقطت مالى فى يد الفاتح .

وفى هذه الأثناء مد سندياتا سلطانه عن طريق مصاهرة الأسرة الملكية فى نيارة [١٩] ، وفى غضون ست سنوات أخضع القبائل المجاورة لسيطرته ، ومع ذلك كان يخشى منازلة الصوصو . وكان شعب مالى يئن تحت وطأة القهر الذى فرضه الصوصو ، وكان المخلِّص الوحيد أمامه هو سندياتا فاستغاث به . واستشار سندياتا هاتف الوحى الذى تنبأ له بالنصر إذا ماتت أمه فى تلك الليلة ، وعندما حدث ذلك ازداد ثقة . كما أن المعلومات التى زودته بها أخت دنجارام ، زوجة سمنغر ، كانت عونا له أيضا . وفى موقعة كيسى فى عام ١٢٣٥ كان النصر حليف سندياتا . وأصبح المندى الذين قبضوا على الصولجان الإمبراطورى وثيقى الصلة بالسودان الغربى ، بحيث أصبحت لمالى والسودان ، فى رأى معظم العرب والأوروبيين ، حدود مشتركة .

ولايقدم المؤرخون العرب الشيئ الكثير عن مؤسسى عظمة مالى . فإبن خلدون لم يقل سوى مايلى « ... ، وكان ملكهم الأعظم الذى تغلب على صوصو وافتتح بلادهم وانتزع الملك من أيديهم اسمه مارى جاطة معنى مارى عندهم الأمير الذين يكون من نسل السلطان وجاطه الأسد » . [٢٠] وفى الأساطير المحلية ليس هناك سوى منسا موسى البطل العظيم الذى حرر مالى من سيطرة الصوصو ، كما أن عبارة « الأمير الأسد » ربما تكون اللقب الذى أسبغه شعب

---

(١٩) نيارة : تقع فى مقاطعة كنغى على مسافة قصيرة إلى الشمال الشرقى من الموقع الحالى لمدينة نيورو التى كانت عاصمة المقاطعة . وردت فى صيغة « زارَ » فى كل من تاريخ الفتاش ، الصفحة ٣٩ ، وتاريخ السودان ، الصفحة ٧٧ .

(٢٠) العبر ، المجلد السادس ، الصفحة ٢٠٠ . هذا ويقدم إبن خلدون تفسيرا آخر لعبارة « مارى جاطة » : « ويغلب على دولته وزيره مارى جاطة ومعنى مارى عندهم الوزير وجاطة تقدم » ، المرجع نفسه ، الصفحة ٢٠٢ . ويبدو من سياق الحديث أن سندياتا هو نفسه مارى جاطة .

معترف بالجميل . ودلالة سنندياتا في التاريخ السوداني هي تبجيله لبراعته في السحر . فهو الساحر العظيم الذي استطاع اجتياز جميع العقبات . وما دامت الأساطير قد جعلت منه ساحراً عظيماً فقد كان العلماء يظنون به الظنون ويحاولون الحط من قدرة مثلما فعلوا مع سنّ علي [٢١] . وبعد أن أتم إمبراطور مالي غزو الصوصو مد سلطانه على غانة - التي أصبحت دولة تابعة ، وبذلك امتدت إمبراطوريته إلى ساحل الأطلسي .

وخلف سندياتا إبنه منساولي ، « .. وكان من أعظم ملوكهم .. » [٢٢] . وقد أدى فريضة الحج في عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس ، وخلفه إثنان من إخوته هما ولي الثاني ، الذي حكم من عام ١٢٧٠حتى عام ١٢٧٤ ،ثم خليفة ، وهو مختل العقل ، « وكان أحمق يغلب عليه الحمق فيرمي الناس بالسهام فيقتلهم ، فوثب به أهل مملكته فقتلوه . » [٢٣] أما الحاكم التالي ، حسب رواية إبن خلدون ، فهو أبو بكر إبن أخت سندياتا .ويقول إبن خلدون إن الأسرة المكلية في مالي ، على غرار البربر في كل مكان ، كانت أمومية ، وإن الوراثة كانت تنتقل من الخال إلى إبن أخته . [٢٤] ويبدو هذا الكلام غريبا لأنه لم يذكر عن ولي ولا عن ولي الثاني أنه قد اغتصب السلطة ، ولذلك فإن كل ما يمكننا أن نخلص إليه هو أن أبا بكر لم يكن السلالة المباشرة . فهل انقرضت السلالة

---

(٢١) تم ضبط الاسم على تاريخ السودان ، الصفحة ٦ ، ومواضع أخرى ، وسيرد ذكر سنّ علي بالتفصيل في الفصل الرابع .

(٢٢) « ثم ملك بعده ابنه (منساولي) ومعنى (منسا) بلغتهم السلطان ، ومعنى (ولي) علي ، وكان من أعظم ملوكهم ، وحج أيام الظاهر بيبرس صاحب مصر . » صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٩٣.

(٢٣) « ثم ملك من بعده أخوه (والي) . ثم ملك من بعده أخوه (خليفة) وكان أحمق يغلب عليه الحمق .. فقتلوه » ، المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

(٢٤) لم يرد هذا التسلسل في العبر بنفس الترتيب الذي أورده بانيكار ، وإنما ورد بهذا الترتيب في صبح الأعشى نقلا عن العبر « وقد ذكر صاحب العبر . قال : ويقال إن أول من أسلم منهم ملك إسمه (بَرَامندانه) ... ثم ملك بعده أخوه خليفة ... فوثب به أهل مملكته فقتلوه . وملك بعده سِبْط من أسباط « ماري جاطة » المقدم ذكره ، إسمه (أبو بكر) على قاعدة العجم في تمليك البنت » صبح الأعشى ، المرجع نفسه ، الصفحتان ٢٩٣ و ٢٩٤ . لذا يبدو أن بانيكار كان ينقل في بعض الأحيان عن صبح الأعشى مايورده نقلا عن العبر ، ثم ينسبه إلى العبر مباشرة .

المباشرة ؟ أو كان أبو بكر قائدا لثورة نجح في الاستيلاء على العرش ؟ ذلك أن شعب مالى لم يكن أموميا ، كما أن أبا بكر يمكن أن يكون إبن أخت سندياتا وجنديا مظفرا فى الوقت نفسه ، أو أن السلالة الشرعية ربما تكون قد انتهت . وأبو بكر لم يخلفه أحد من أبنائه أو أى شخص من أخلاف سندياتا ، وإنما خلفه سيكرة ، وهو مغتصب للسلطة ، وتلك الحقيقة تؤيد فكرة أن أبا بكر نفسه كان قائدا موفقا وصل إلى السلطة . فقد حكم أبو بكر عشر سنوات ، وعند موته (عام ١٢٨٥) استولى سيكرة أبرز جندى فى عهده على العرش . وكان سيكرة فى أثناء حكم أبى بكر قد قاد جيشا عند تكدا وحاصرها إلى أن سقطت فى يده . واستنادا إلى إبن خلدون فإن أهمية تكدا لمالى ترجع إلى أنها تقع على طريق الحج ، كما كانت مدينة تجارية هامة . ويحدد إبن خلدون موقع تكدا على مسيرة عشرين يوما من وارقلة نحو الغرب ، فهى ملتقى القادمين من بلاد السودان قاصدين الحج .[٢٥]

فمتى قامت مالى بغزو غاو [٢٦] ؟ كانت غاو المركز التجارى العظيم لوادى النيچر الشرقى ، ومن ثم كانت منافسا خطيرا لمالى . ويرى مونتييه أنها فتحت منذ عام ١٢٠٠ . ويوضح **تاريخ السودان وتاريخ الفتاش** والملحق الثانى **لتاريخ الفتاش** أن تمبكت وسنغى كانتا خاضعتين لمالى فى عهد منسا موسى . ويذكر

---

(٢٥) « ولما هلك [مارى جاطة] ولى عليهم من بعده مولى من مواليهم تغلب على ملكهم اسمه ساكورة وقال الشيخ عثمان ضبطه بلسانهم أهل غانية سيكرة وحج أيام الملك الناصر وقتل عند مرجعه بتاجورا » . العبر ، المجلد السادس ، الصفحة ٢٠٠ . « ويغلب على دولته وزيره مارى جاطه ... وهو الآن حجر السلطان واستبد بالأمر عليه ونظر فى تجهيز العساكر وتجهيز الكتائب ودوّخ أقطار الشرق وتجاوز تخوم كوكو وجهز إلى منازلة تكرت بما وراءها .. وتكرت هذه على سبعين مرحلة من بلد واركلا من الجانب القبلى الغربى وفيها من الملثمين يعرف بالسلطان وعليهم طريق الحج من السودان . » العبر ، المرجع نفسه ، الصفحة ٢٠٢ .[المقصود بتكرت هنا « تكدا » ؛ والمقصود بواركلا هو وارقلة . ويلاحظ الفرق فى المسافة بين ماذكره إبن خلدون وبانيكار .]

(٢٦) غاو : مدينة نشأت فى أول الأمر على الضفة اليمنى لنهر النيچر ، ولكن القسم الواقع منها على ضفته اليسرى هو الذى أصبح مدينة غاو الحالية . وقد كان « زاكسى » الملك الخامس عشر من أسرة « زا » الحاكمة فى سنغى ، وأول من أسلم من ملوكها ، هو الذى نقل إليها عاصمة ملكه . وردت فى **تاريخ الفتاش** كاغ وكوكو . « فى اسم كاغ لغتان كاغ وكوكو » ، الصفحة ٤٥ ؛ وكذلك « كاو » ، الصفحة ١٤ ؛ ووردت فى **تاريخ السودان** « كاغ » ، الصفحة ٧ .

الملحق أن مسجد تمبكت قد بنى قبل عهد منسا موسى ، أما تاريخ السودان فلاينسب إلى موسى إلا بناء المئذنة . [٢٧] لذلك يمكن القول فى شئ من التأكيد إن غاو كانت خاضعة لسيطرة مالى فى عهد سيكرة .

وقد أدى سيكرة فريضة الحج عندما كانت مصر تحت حكم السلطان الملك الناصر ، ويقول ديلافوس إن سيكرة سلك فى عودته الطريق الشرقى ، وقتل على أيدى رجال الدناكل [٢٨] ، وحملت جثته إلى برنو حيث حنطت ثم نقلت إلى مالى . ويبدو ذلك بعيد الاحتمال ، ولا يذكر ديلافوس أى مصدر يؤيد نظريته . فإذا كان الغرض الأساسى الذى دفع سيكرة إلى غزو تكدا هو تأمين طريق الحج كما يقول إبن خلدون ، فإنه يبدو غريبا أن يختار طريقا يمر فى امتداده كله بمناطق ينعدم فيها الاستقرار . وإذا سلمنا بأنه كان بالغ الحمق بحيث يختار الطريق الشرقى ، فحتى عندئذ يكون الطريق الذى اختاره بعيدا جدا نحو الجنوب عن طريق الحج الحالى ، ويمر فى مناطق كانت فى ذلك الوقت فى أيدى المسيحيين . وقد نشأ سوء الفهم بسبب خلط فيما يتعلق بتاجوار . فتاجورا التى ذكرت على أنها المكان الذى نزل به سيكرة فى رحلة عودته يمكن أن تكون المدينة الواقعة على ساحل البحر المتوسط على بعد عشرين كيلو مترا إلى الشرق من طرابلس . وكانت أول محطة هامة من طرابلس إلى برقة ، وكانت أهميتها آخذه فى الأزدياد . ومن هنا كان من الأيسر له أن يأخذ طريق الحج العادى وأن يعود إلى مالى .

---

(٢٧) « وقيل إن السلطان كنكن موسى هو الذى بنى صومعة الجامع الكبير التى بها ... » تاريخ السودان » الصفحة ٨ . [المقصود بالصومعة هنا المئذنة .]

« وكان ملكِىْ كُنْكُ موسى سلطانا صالحا تقّيا عابدا ... ومن علامة صلاحه أنه كان يعتق كل يوم نفسا وحجّ إلى بيت الله وبنى فى حجه مسجد تنبكت ... » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٣٢ . [مِلِكِىْ كُنْكُ موسى يعنى موسى بن كُنْكُ ملك مالى ، ذلك أن مِلْ هى مالى وكُىْ تعنى الملك أو السلطان .]

أما عن الملحق الثانى لتاريخ الفتاش ، الذى تنفرد به الترجمة الفرنسية ويخلو منه النص العربى فقد جاء به ، الصفحة ٣٣٥ ، أن ملك مالى يمتلك مقرا ملكيا فى تمبكت معروفا جيدا .. وبالقرب من شمال هذا المقر كان يوجد المسجد الملكى .

« أما الجامع الكبير فالسلطان الحاج موسى صاحب ملّى هو الذى بناها وصومعتها على خمسة صفوف » تاريخ السودان ، الصفحة ٥٦ . [يتضح هنا أن تاريخ السودان ينسب إلى منسا موسى بناء المسجد والصومعة .]

(٢٨) الدناكل : قبيلة من العرب الإفريقيين من أصل حامى. عبادتهم الأساسية الدكاكير والأشجار ، ويدين كثيرون منهم بالإسلام من الناحية الاسمية ، « ولما هلك [مارى جاطة] ولى من بعده مولى من مواليهم تغلب على ملكهم اسمه ساكورة وقال الشيخ عثمان ضبطه بلسانهم أهل غانية سيكرة وحج أيام الملك الناصر وقتل عند مرجعه بتاجورا .. » العبر ، المجلد السادس ، الصفحة ٢٠٠ .

ويقـول إبن خـلدون إنه بعـد وفـاة سيكرة عـادت الامبراطورية إلى أخلاف مارى جاطة . وكانت هناك فترة من الفوضى تولى السلطة خلالها ثلاثة حكام لفترات قصيرة للغاية . وأخيراً ارتقى العرش منسا موسى بن أبى بكر . (٢٩)

وكان منسا موسى شابا أسمر البشرة وسيما ممتلئا طويل القامة ، كما كان متبحراً فى الفقه المالكى شديد التمسك بدينه . والحدث العظيم فى عهده هو أداؤه فريضة الحج ، الذى أثار شعورا فياضا فى العالم الشرقى كله . وقد أدى الفريضة فى عام ١٣٢٤ ، وبدأ رحلته من تمبكت فى حاشية ضخمة ، وتفاوتت تقديرات عدد من صحبوه تفاوتا كبيرا . فيصل السعدى فى تقديرهم إلى ستين ألفا ، (٣٠) ويقـدرهم **تاريخ الفتاش** ، نقلا عن إبن حجر العسقلانى ، بخمسة عشر ألفا ، ولكنه يقدرهم فى موضع آخر بثمانية آلاف فقط .(٣١) ويقدرهم المقريزى بعشرة آلاف ، ولكنه يذكر أيضاً أن خمسة عشر ألـف جارية صحبن الامبراطور.(٣٢) ويقدم إبن خـلدون رقما آخر هو إثنا عشر ألفا لحمل أمتعته ومؤنه ، ويضيف أنهم كانوا يلبسون أقبية الديباج والحرير اليمانى . (٣٣) ويقول

---

(٢٩) « وحـج أيام السلطـان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » ورجع فقتل فى أثر عوده . وملك بعده (قو) بن السلطان مارى جاطة ثم ملك من بعده (محمد بن قو) ثم انتقل الملك من ولد مارى جاطة إلى ولد أخيه أبى بكر . فـولى منهم (منسا موسى) إبن أبى بكـر ، قال فى العبر : وكان رجلا صالحا وملكا عظيما ... » ، **صبح الأعشى** ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٩٤ .

(٣٠) « تنبيه ، سلطان ككن موسى هو أول من ملك سغى من سلاطين ملى وهو صالح .. قد حج بيت الله الحرام وكان مشيـه فى أوائل القرن الثامن فى قوة عظيمة وجماعة كثيرة والجندى منهم ستون ألفا رجالا .. » **تاريخ السودان** ، الصفحة ٧ .

(٣١) الاقتباس المـأخوذ عن إبن حجر العسقلانى ورد فى الملحق الثانى من **تاريخ الفتاش** ، أى فى الترجمة الفرنسية فقط . انظر محمود كعت ، **تاريخ الفتاش** ، الترجمة الفرنسية ، الصفحة ٣٣٥ . أما الاقتباس الآخر فورد فى النص العربى : « وخرج كنك موسى بقوة عظيمة ومال جسيم ... سال يوم خروج الباشا على بن عبد القادر إلى توات زاعما أنه يريد الحج عن عدد من مشى معه من قومه فقيل له يبلغ من معه من حملة السلاح نحو ثمانين ... وقد خرج كنك موسى إلى الحج من هنا ومعه ثمانية آلاف » . **تاريخ الفتاش** ، الصفحتان ٣٢ و ٣٤ .

(٣٢) بعد بحث مضن فى كتب المقريزى لم أجد فيما يختص بعدد من صحبوا منسا موسى أثناء أدائه فريضة الحج سوى هذه الإشارة : « ويقال إنه قدم معه أربعة عشر ألف جارية برسم خدمته خاصة فأقبل أصحابه على شراء الجوارى من الترك والحبوش » **الذهب المسبوك** ، المرجع السابق ، الصفحة ١١٢ .

(٣٣) « ثم انتقل ملكهم من ولد السلطان مارى جاطة إلى ولد أخيه أبى بكر فولى عليهم منسا موسى بن أبى بكر ... وحج سنة أربع وعشرين وسبعمائة ... قال والذى تحمل آلته وحريته من الوصائف خاصة إثنا عشر ألفا لابسات أقبية الديباج والحرير واليمانى » . **العبر** ، المجلد السادس ، الصفحتان ٢٠٠ و ٢٠١ .

محمود كعت إنه في الطريق مابين تغازة (٣٤) وتوات أحست الامبراطورة برغبة في الاستحمام ، فأقيمت هناك بحيرة صناعية إرضاء لنزوتها . وربما كانت في هذه الرواية مبالغة واضحة . (٣٥) لذلك لايسع المرء إلا أن يستعيد نصيحة إبن خلدون الحكيمة إلى كل من يعنيه أمر التاريخ بأن يتحاشى تصديق ماهو بعيد الاحتمال دون بيّنة .

ووصل الامبراطور وحاشيته إلى القاهرة في العاشر من مايو ١٣٢٤، (٣٦) ومكث ثلاثة أيام عند الأهرامات ضيفاً على السلطان قبل أن يدخل المدينة . ويعدد كتاب المسالك ألوان المراسم المعقدة المتبعة في تلك الأيام . وأظهر

---

(٣٤) تغازة : إسم يطلق على منجم مشهور بمعدن الملح إلى الشمال الشرقي من تاودني ، وإلى الجنوب الغربي من توات . ذاع إسمها بسبب ندرة الملح عند الزنوج وارتفاع ثمنه ، حتى أنه كان يبادل بمثل وزنه ذهبا . ذكرها إبن بطوطه وغيره من الرحالة والجغرافيين العرب : « فوصلنا بعد خمسة وعشرين يوماً من سجلماسة إلى تغازى ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال ، ولا شجر فيها إنما هي رمل فيه ملح ..... » تحفة النظار ، طبعة بيروت ، الصفحة ٦٨٤ .

(٣٥) « حدث أن خرجت معه زوجته المسماة إنارِ كُنْتِ مع خمسماية نسوتها وخدمها إلى أن نزل بموضع من صحارى بين توات وتغاز ضربوا بها العطن وباتت زوجته تلك معه في فسطاطه ساهرة ونام هو ثم استيقظ ووجدها ساهرة لم تنم فسألها أما نمت ... فانشدها بالله عما أصابها فقالت ليست إلا وسخ بدني ودرنها وقد تمنيت البحر فاغتسل وأخوض فاغتمس وأعوم فهل لك تحصيل ذلك وإيجاده في ملكك ونهض كنك موسى جالساً وغاظه ذلك وجلس متفكراً ثم أمر بعبده الذي هو رئيس عبيده وقومه المسمى فَرْبَ .. قال له يافرب منذ تزوجت بزوجتي هذه ما طلبت مني وما خاطبتني بما تقصر عنه قدرتي ... إلا في هذه الليلة فقد سألتني البحر وإيجادها من العدم في قفارها ... وليس لهذا موجد إلا الله وحده فقد أعجزتني الآن ... وأمرهم بحفرة وحفروها وأخرجوا ترابها ثم حفروها ... ثم أمر بالرمال والأحجار حتى امتلأت الحفرة ثم امر بجذوات الحطب فجمعوه فوقها ثم بقلبات بلنغة ووضعها فوق ذلك كله ثم رمى عليها النار وقد اشتعل فذاب ذلك البلنغات على الأحجار والرمال وكسرهم وملست الحفر وصارت كالفخار ثم أمر بالمياه التي في قربهم وزقهم وحلّوا افواه القرب والزقوق فانصبت وسالت إلى الحفر حتى امتلأت وأعلت وسمت بحيث تضطرب فيها الأمواج وتلاطم البحر العظيم ..... » تاريخ الفتاش ، الصفحات ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ .

[ضربوا بها العطن معناها حطّوا الرحال ؛ فَرْبَ كلمة يمكن أن تكون اسما خالصاً أو لقباً ، وهي تعني عند المندنغو الرئيس الأعلى ويقول إبن بطوطة إن الفربا معناه النائب ، تحفة النظار ، المرجع السابق ، الصفحة ٦٨٧ ؛ البلنغة ، وهي زبد الشيئة ، وقد أشار إليا بانيكار كثيرا وبخاصة في الفصل الحادي عشر (الاقتصاد) باعتبارها من المحصولات الهامة في المنطقة ، وأشار إليها إبن بطوطة باسم القرتي ، المرجع نفسه ، الصفحة ٦٨٩ .]

(٣٦) السادس عشر من رجب عام ٧٢٤ .

السلطان عزوفا عن معاملة إمبراطور مالى كندٍ له ، وحاول مهمندار [٣٧] البلاط أن يحمل موسى إما على تقبيل يد السلطان أو الركوع بين حضرته ، مما يعنى اعترافه بالسلطان سيدًا أعلى له . ولم يبد موسى رغبة فى أن يفعل هذا أوذاك . ولم تذلل هذه العقبة إلا عندما همس أحد الحكماء بشيئ فى أذن الإمبراطور ، ووافق على أن يكون ركوعه لله . وهكذا ركع الإمبراطور عندما دخل قاعة الاستقبال ، ولكنه تظاهر بأن ركوعه لله وليس للسلطان ، وبذلك كان باستطاعته الاحتفاظ بكبريائه . ونهض السلطان لاستقبال موسى والحفاوة به . ودامت المقابلة طويلا . وبعد ذلك بعث السلطان بالهدايا لموسى ، وكبار مرافقيه ، ولكنها كانت هدايا تليق بأمير وليس بإمبراطور . وهكذا أظهر سلطان مصر بجلاء أنه لم يقبل الامبراطور الأسود ندًا له ، وإنما كحاكم تابع فقط . [٣٨]

---

(٣٧) « فسألت الأمير أبا العباس أحمد بن الحاكى المهمندار ..... » مملكة مالى ، المرجع السابق ، الجزء الخاص بالمسالك ، الصفحة ٦١ .

(٣٨) « قال فى مسالك الأبصار : قال لى المهمندار خرجت لملتقاه من جهة السلطان فاكرمنى إكراماً عظيماً ، وعاملنى بأجمل الآداب ، .... قال : ولما قدم ، قدم للخزانة السلطانية حِملاً من التبر ... وكنت أحاوله فى طلوع القلعة للاجتماع بالسلطان ... فيأبى خشية تقبيل الأرض للسلطان ويقول جئت للحج لا لغيره ، ولم أزل حتى وافق على ذلك . فلما صار إلى الحضرة السلطانية قيل له قبل الأرض ، فتوقف وأبى إباءً ظاهراً وقال : كيف يجوز هذا ؟ فأسر رجل كان إلى جانبه كلاماً – فقال : أنا أسجد لله الذى خلقنى وفطرنى ثم سجد ؛ وتقدم إلى السلطان ... فبعث إليه السلطان بالخلع الكاملة له ولأصحابه ، وخيلا مسرجة ملجمة .... وأجرى عليه الأنزال والإقامات الوافرة مدة مقامه » . صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٩٥ .

« وفيه قدم منسا موسى ملك التكرور يريد الحج ، وأقام تحت الأهرام ثلاثة أيام فى الضيافة ، وغدى (منسا) إلى بر مصر فى يوم ... وطلع إلى القلعة ليسلم على السلطان ، وامتنع عن تقبيل الأرض ، فلم يجبر على ذلك ، غير أنه لم يمكّن من الجلوس فى الحضرة السلطانية ، وأمر السلطان بتجهيزه للحج .. » المقريزى ، كتاب السلوك ، المرجع السابق ، الجزء الثانى ، القسم الأول ، الصفحة ٢٥٥ .

« ولما خرج منسا موسى من بلاد المغرب للحج ... وأهدى إلى الناصر هدية حفيلة يقال إن فيها خمسين ألف دينار ، ولقيه السلطان بمجلسه ، وحدثه ووصله وقرب إليه الخيل والهجن ، وبعث معه الأمراء يقومون بخدمته » العبر ، المجلد الخامس ، الصفحة ٤٣٤ .

« ٤٩٠٤ : موسى بن أبى بكر سالم التكرورى ملك التكرور قدم حاجا سنة ٧٢٤ فى رجب فادخل إلى السلطان فامتنع عن تقبيل الأرض وقال لا أسجد لغير الله ، فاعفاه السلطان وقرّبه وكرمه وأحسن تجهيزه إلى الحجاز ... » إبن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤١ ، الصفحتان ١٥٤ ، ١٥٥ .

وقد دخل موسى مصر حاملا معه مقداراً هائلا من تبر الذهب . يقول إبن خلدون ، نقلا عن الحاج يونس ، ممثل مالى فى مصر ، إن موسى أحضرمعه ثمانين حملاً من تبر الذهب زنة كل منها ثلاثمائة رطل ، [٣٩] ويصل المسالك بهذا العدد إلى مائة حمل ، [٤٠] فى حين يقول تاريخ الفتاش إن نقل الذهب تطلب أربعين بغلا .[٤١] وثمة تقدير وسط لما حمله من التبر يتراوح بين ثلاثمائة كيلو جرام وثلاثمائة وخمسة وسبعين كيلو جراما .

وراعت أهل القاهرة عزة نفس الحاكم السودانى ، كما راعهم أيضا ورع أفراد حاشيته والملابس النفيسة التى يرتدونها . فإلى ذلك الحين لم يكونوا يألفون رؤية زوّار بهذه الفخامة قادمين من الغرب . واهتز موقف الاستعلاء الذى كان المصريون يتخذونه من السودان . والآن استقر رأيهم على استغلال الإمبراطور ، وظهرت براعة أهل القاهرة الذين صنعوا من استغلال الأجانب منذ أقدم العصور فنًا رفيعاً . بيد أن إقامة موسى لسوء حظهم لم تدم طويلا ، فقد أعد له السلطان الترتيبات للمضى فى رحلة حجّه .

وعندما حان موعد الحج أعد السلطان ، استنادا إلى المسالك ، الترتيبات لسفر موسى وحاشيته ، وأقيمت المحطات على الطريق للعناية

---

(٣٩) ضبط اسم الحاج يونس على العبر . « (قال الحاج يونس ترجمان هذه الأمة بمصر) جاء هذا الملك منسا موسى من بلاده بثمانين حملاً من التبر كل حمل ثلاثة قناطير ... » العبر ، المجلد السادس ، الصفحة ٢٠١ . [جرت عادة سلاطين مصر على أن يستخدموا فى بلاطهم تراجمة يتولون نقل الرسائل الواردة من البلدان الأخرى ، والحاج يونس كان واحداً من هؤلاء ، إذ كان يعمل مترجماً للمراسلات التكرورية فى بلاط الناصر محمد بن قلاوون .] ويقدر إبن خلدون هذا العدد فى موضع آخر بمائة حمل : « ... وكان أعد لنفقته من بلاده فيما يقال مائة حمل من التبر فى كل منها ثلاثة قناطير .... » العبر ، المجلد الخامس ، الصفحة ٤٣٤ .

(٤٠) « وذكر (مسالك الأبصار) عن إبن أمير حاجب والى مصر أنه كان معه مائة حمل ذهبا أنفقها فى سفرته تلك على من بطريقه إلى مصر من القبائل ثم بمصر ... » صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٩٦ .

(٤١) « وحدثنى شيخنا مورِ بكر بن صالح ونكرب رحمه الله أنه كان معه حمل أربعين بغلة من الذهب» تاريخ الفتاش ، الصفحة ٣٦ . [مور : كلمة تستخدم فى السودان بمعنى مسلم ، أو تسبق اسم شخصية مسلمة جليلة ، وعندئذ يكون معناها شيخاً ؛ ونكرب : كلمة تتخذ صورة الجمع فى لغة الفلاته لكلمة ونقارة التى تشير بوجه عام إلى مجموعة أسرة الماندنغو المشتغلة بالتجارة .]

بالدواب [٤٢] . ويقول المقريزى إن سيف الدين إيتمش أمير الحج تلقى الأوامر من السلطان بالسهر على راحة موسى حتى يؤدى فريضة الحج ، وإن أمراء الحج فى الطريق تلقوا أوامر مكتوبة بأن يعاملوا الامبراطور بالاحترام والتقدير . [٤٣] وفى اليوم الثالث من أكتوبر ١٣٢٤ [٤٤] أقلعت قافلة الحج فى طريقها إلى الحجاز .

وعامل الإمبراطور الحجاج الآخرين بسخاء شديد ، واستناداً إلى مُهَنَّا بن عبد الباقى العجرمى فقد نعمت مكة والمدينة بسخائه وكرمه . وقد حصل مهنا منه على أكثر من مائة مثقال من الذهب . ويقول المسالك إن مهنا كان دائم الحديث عن كرم الإمبراطور .[٤٥] ومع ذلك يكون من الغريب ، على الرغم من أن المؤرخين العرب الذين عاصروه قد بهرهم بهاؤه وسخاؤه ، أن يقدم محمود كعت وجهة نظر مخالفة بقوله إن أهل مكة والمدينة لم يعتبروه كريما لأنه منحهم عشرين ألف قطعة من الذهب ، على حين أن الأسكيا منحهم مائه ألف قطعة . [٤٦]

---

(٤٢) « قال فى « مسالك الأبصار » : قال لى المهمندار ... ولما آن أوان الحج بعث إليه (السلطان الناصر) بمبلغ كبير من الدراهم ، وهُجُن جليلة كاملة الأكوار والعُدّة لمركبه ، وهجن أتباع لأصحابه وأزواد جمّة ، وركز له العليق فى الطرق ، وأمر أمير الركب باكرامه واحترامه » صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٩٦ .

(٤٣) ضبط إسم سيف الدين إيتمش على المقريزى : « وقدم منسا موسى هديته ، وخرج مع الركب بعدما أوصى به السلطان الأمير سيف الدين إيتمش أمير الركب فسار راكباً وحده فى ساقة الحج حتى قضى حجه » . المقريزى ، الذهب المسبوك ، المرجع السابق ، الصفحة ١١٣ .

(٤٤) منتصف ذى القعدة سنة ٧٢٤ هـ .

(٤٥) ضبط إسم مُهَنَّا بن عبد الباقى العجرمى على مسالك الأبصار : « وحدثنى مُهَنَّا بن عبد الباقى العجرمى الدليل أنه كان فى صحبة موسى لما حج ، وأنه أفاض على الحجيج وأهل الحرمين سجال الإحسان . وكان فى غاية التجمل وحسن الزى فى سفره هو ومن معه . وتصدق بمال كثير . قال : ونابنى منه نحو مائتى مثقال من الذهب ، وأعطى رفاقى حملاً . وبالغ مهنا فى وصف ما رآه منه من الكرم وسعة النفس ورفاهية الحال » مملكة مالى ، المرجع السابق ، الجزء الخاص بمسالك الأبصار ، الصفحتان ٦٤ و ٦٥ .

(٤٦) المقصود هنا هو « أسكيا الحاج محمد » سلطان السنغى كما يتضح من الاقتباس التالى : « ... ولكن ما وصفوه بالجمود والكرم لأنه ما تصدق فى الحرامين مع كثرة ملكه إلا بعشرين ألفا ذهباً بنسبة ما تصدق به أسكيا الحاج محمد فيهما وهو مائة ألفا ذهبا ... » تاريخ السودان ، الصفحة ٧ .

وهكذا يتضح أن پانيكار قد نسب هذه الرواية خطأ إلى محمود كعت ، فهى لم ترد أصلا فى تاريخ الفتاش ، وإنما ذكرها عبد الرحمن السعدى فى تاريخ السودان .

وعندما عاد الإمبراطور إلى القاهرة كان أكثر إفراطا فى عطاياه ونفقاته . فكل من كان له شأن يذكر فى بلاط سلطان مصر ، كل موظف لديه ، حصل من الامبراطور على هدية من ذهب . وكان تجار مصر سباقين إلى اغتنام تلك الفرصة الطيبة ، وكانوا يبيعون له ما يساوى دينارا بثمانية دنانير . وحمل موسى معه من بين ماحمل ثمانى جاريات فى مقتبل العمر وألبسة قطنية ومتاعا كثيرا . وتضخمت نفقاته حتى أثرت على سوق الذهب . (٤٧) ويقول العمرى إنه قبل مجئ موسى إلى القاهرة لم يحدث أن هبطت أسعار الذهب عن ٢٥ درهما للمثقال ، ولكنها بعد نفقاته الهائلة لم تكن تزيد على ٢٢ درهما (٤٨) . والمصريون الذين ترامت إلى أسماعهم قصص عن نباتات تحمل الذهب فى السودان ، أصبحوا الآن مستعدين لتصديق الحكايات الممعنة فى الخيال التى سمعها العمرى من الإمبراطور ، (٤٩) وأصبحت صورة السودان الذهبى محفورة فى عقول العالم العربى .

---

(٤٧) « فاقبل أصحابه على شراء الجوارى من الترك والحبوش والمغنيات والثياب فانحط سعر الدينار ستة دراهم » . المقريزى ، الذهب المسبوك ، المراجع السابق ، الصفة ١١٣ .

« وأمر السلطان بتجهيزه للحج ، فنزل وأخرج ذهباً كثيراً فى شراء ما يريد من الجوارى والثياب وغير ذلك حتى انحط الدينار ستة دراهم » ، المقريزى ، كتاب السلوك ،المرجع نفسه ، الجزء الثانى-القسم الأول ، الصفحة ٢٥٥ .

« وحدثنى (المهمندار) خلق من تجار مصر والقاهرة عما حصل لهم من المكاسب والربح عليهم ، فإن الرجل منهم كان يشترى القميص أو الثوب والازار وغير ذلك بخمسة دنانير ولا يساوى دينارا واحد ..... » مملكة مالى ، المرجع السابق ، الجزء الخاص بالمسالك ، الصفحة ٦٤ .

(٤٨) « ولقد كان الذهب مرتفع السعر بمصر إلى أن جاء (منسا موسى) إليها فى تلك السنة . كان المثقال لا ينزل عن خمسة وعشرين درهما ، ومازاد عليها فى الغالب . فمن يومئذ نزلت قيمته ورخص سعره ، واستمر على الرخص للآن لا يتعدى المثقال اثنين وعشرين درهما وما دونها ، وهاذا من مدة تقارب اثنى عشر سنة إلى اليوم لكثرة ماجلبوه من الذهب إلى مصر وأنفقوه فيها » المرجع نفسه ، الصفحة ٦٥ .

(٤٩) « وقد حكى فى « مسالك الأبصار » عن الأمير أبى الحسن بن أمير حاجب عن السلطان (منسا موسى) سلطان هذه المملكة : أنه سأله عند قدومه الديار المصرية حاجاً عن معادن الذهب عندهم فقال : توجد على نوعين : نوع فى زمان الربيع ينبت فى الصحراء ، له ورق شبيه بالنجيل ، أصوله التبر . والثانى يوجد فى أماكن معروفة على ضفاف مجارى النيل ، تحفر هناك حفائر فيوجد فيها الذهب كالحجارة والحصى ، فيؤخذ : قال : وكلاهما هو المسمى بالتبر » صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٨٩ .
[انظر فيما يتعلق بابن أمير حاجب الحاشية ٣ – ٥٤ أدناه .]

كانت نفقات موسى من الضخامة بحيث أتت على ما جلبه معه من ذهب كثير ، لذا تعين عليه فى رحلة العودة أن يقترض ، كما باع القصر الذى أهداه السلطان إياه ليقيم فيه . وقد اقترض أموالا من كبار تجار القاهرة بفائدة مقدارها ١٣٣ فى المائة ، (٥٠) وكان من بين هؤلاء التاجر سراج الدين الذى اقترض منه خمسين ألف دينار . ويقول كتاب المسالك إن التجار لم يستطيعوا استرداد المال الذى أقرضوه إياه لأن الشخص الذى رافق الامبراطور مات ، ولأن الرسول الذى تلاه لم يصل إلا بعد أن كان الامبراطور قد مات . ويقدم إبن بطوطة رواية مختلفة . فالوكيل الذى أرسله سراج الدين قرر الإقامة فى مالى ، أما سراج الدين فقد ذهب بصحبة إبنه إلى مالى يدفعه الفضول إلى اكتشاف بلاد الذهب . وعندما وصل إلى تمبكت أكرم وفادته عربى يدعى أبا إسحاق الساحلى ، ومات فى الليلة نفسها . وثارت شكوك حول دس السم له ، ولكنها كانت شكوكا واهية الأساس مادام إبنه الذى شاركه الطعام لم يصب بأذى . وواصل الإبن سيره إلى مالى حيث حصل على مال أبيه كاملا وعاد إلى القاهرة . (٥١)

كانت الأشياء التى انطبعت فى ذهن موسى عندما زار الشرق كثيرة ، فهو شأن كل مسلم ورع أراد أن يؤدى فريضة الحج ، وإن لم يخل الأمر من

---

(٥٠) « قال فى « مسالك الأبصار » ... وذكر عن ابن أمير حاجب والى مصر أنه كان معه مائة حمل ذهباً انفقها على سفرته تلك على من بطريقه إلى مصر من القبائل ثم بمصر ، ثم من مصر إلى الحجاز توجها وعودة ، حتى احتاج إلى القرض فاستدان على ذمته من تجار مصر بمالهم عليه فيه المكاسب الكبيرة ، بحيث يحصل لأحدهم فى كل ثلثمائة دينار سبعمائة دينار ربحاً ، وبعث إليهم بذلك بعد توجهه لبلاده ... » المرجع نفسه ، الصفحتان ٢٩٥ ٢٩٦ . [يتضح من ذلك عدم دقة نسبة الربح التى أوردها بانيكار لأنها وفقاً لهذا الاقتباس تكون ٢٣٣ فى المائة .]

(٥١) « وبهذه البلدة (تمبكت) قبر الشاعر المفلق أبى إسحاق الساحلى الغرناطى المعروف ببلده بالطويجن وبها قبر سراج الدين بن الكويك أحد كبار التجار من أهل الاسكندرية – حكاية – كان السلطان منسى موسى لما حج نزل بروض لسراج الدين هذا ببركة الحبش خارج مصر وبها ينزل السلطان واحتاج إلى مال فتسلفه من سراج الدين وتسلف منه أمراؤه أيضا وبعث معهم سراج الدين وكيل له يقتضى المال فاقام بمالى فتوجه سراج الدين بنفسه لاقتضاء ماله ومعه إبن له فلما وصل تنبكتو أضافه أبو اسحاق الساحلى فكان من القدر موته تلك الليلة فتكلم الناس فى ذلك واتهموا أنه سم فقال لهم ولده إنى أكلت معه ذلك الطعام بعينه فلو كان فيه سم لقتلنا جميعاً لكنه انقضى أجله ووصل الولد إلى مالى واقتضى ماله وانصرف إلى ديار مصر » . تحفة النظار ، طبعة بيروت ، الصفحة ٧٠١ .

اعتبارات سياسية . وقد أصبح موسى مدركا لما يمكن أن يفضى إليه الاعتماد الزائد على الشمال من إضرار بمصالحه . فأراد أن يؤثر فى حكام الشرق بورعه وثروته وقوته . وفاقت القصص الخرافية التى رواها لأبناء الشرق عن ثروته واتساع مملكته خيال مانتشوزن [٥٢] . وبسبب سخائه وإسرافه صدق القاهريون كل ذلك على الفور . كما كان موسى موفقا للغاية فى أهدافه السياسية ، فقد تواصلت علاقاته بمصر بعد زيارته لها فضلا عن دعم هذه الزيارة لروابط الإسلام .

ومع ذلك يقدم تاريخ الفتاش دافعا آخر . فموسى عن غير قصد منه كان سبباً فى موت أمه ، نانا كنكن [٥٣]. وقد أثقل عليه تأنيب الضمير ، وحاول أن

---

(٥٢) فريهر فون مانتشوزن : (١٧٢٠-١٧٩٧) ، ألمانى من هانوفر ، عمل ضابطاً بالجيش الروسى . اعتاد بعد تقاعده فى ضيعته تسلية نفسه برواية قصص خفيفة الظل ممعنة فى الخيال عن جرأته وبسالته كجندى . ونشرت هذه القصص فى مجموعة من الكتب تحمل جميعها فى جزء من عناوينها عبارة « بارون مانتشوزن » ، من أهمها « مغامرات بارون مانتشوزن » .

هذا وقد حكى منسا موسى لأهل القاهرة كثيراً من القصص الوهمية والخرافية ، منها قصة النباتات التى تحمل الذهب (انظر ، الحاشية ٣-٤٩ أعلاه) ، التى رواها لابن أمير حاجب ، ومنها أيضاً القصتان التاليتان اللتان رواهما لإبن أمير : « قال فى مسالك الأبصار : حكى إبن أمير حاجب والى مصر عنه أنه فتح بسيفه وحده أربعاً وعشرين مدينة من مدن السودان ذوات أعمال وقرى وضياع . قال فى مسالك الأبصار : قال ابن أمير حاجب : سألته عن سبب انتقال الملك إليه – فقال : إن الذى قبلى كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك ، فجهز مئين سفن ، وشحنها بالرجال والأقواد التى تكفيهم سنين ، وأمر من فيها أن لا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته أو تنفد أزوادهم ، فغابوا مدة طويلة ، ثم عادت منهم سفينة واحدة وحضر مقدمها ، فسأله عن أمرهم : فقال : سارت السفن زمانا حتى عرض لها فى البحر فى وسط اللُّجَّة جِريَةٌ عظيمة ، فابتلع تلك المراكب وكنت آخر القوم فرجعت بسفينتى ؛ فلم يصدقه : فجهز ألفى سفينة ألفا للرجال وألفا للأزواد ، واستخلفنى وسافر بنفسه ليعلم حقيقة ذلك ، فكان آخر العهد به وبمن معه » . صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحتان ٢٩٢ و ٢٩٥ .

(٥٣) نانا كنكن : معناها فى لغة الماندنغو « الجدة كنكن » ، أو « السيدة كنكن » ؛ وتعبير نانا » يستخدم للاحترام والتبجيل ويسبق عادة أسماء السيدات النبيلات أو المتقدمات فى السن ، أما « كنكن » فهو إسم منسا موسى .

« ولحجُّه سببٌ حكاه لى الطالب الحافظ لقصائص الأوائل وهو محمود قم رحمه الله ذكران ملكى كنك موسى هو الذى قتل أمه نانا كنك خطأً وأسف لذلك وندم وخاف عقوبة ذلك وتصدق بمال جسيم وعزم على صوم الدهر وسأل بعض علماء زمانه عما يفعل فى الاستغفار لهذا الذنب العظيم فقال له أرى أن تفزع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتهرب إليه وتدخل فى حرمته وتستشفع به وسيشفعه الله فيك وهذا هو الرأى وعقد العزم على ذلك فى يومه وقام بجمع المال والجهاز للسفر » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٣٣ .

يكفر عن ذنبه بتقديم العطايا الضخمة للعلماء ، بيد أن أحد فقهاء المسلمين الذين سألهم الرأى أشار عليه بأداء فريضة الحج ليكفر عن ذنبه تماما .

وحتى ذلك الوقت كانت تجارة السودان وَقْفاً على المسلمين المراكشيين ، ولكن بعد زيارة موسى أخذ التجار المصريون يهتمون بتجارة السودان . ومع ذلك فإن مسالك الأبصار يشير إلى أن جشع أهالى القاهرة قد أثار اشمئزاز السودان حتى أنهم - استنادا إلى إبن أمير حاجب (٥٤) - « لو رأوا اليوم أكبر أئمة العلم والدين ، وقيل لهم إنه مصرى أمهنوه ، وأساءوا به الظن ، لما رأوا من سوء معاملتهم » (٥٥) . وعلى الرغم من أن السودان قد احتفظوا بشكوكهم فى أساليب التجارة المصرية والأمانة المالية المصرية ، فقد اتخذ البلاط عادات السلاطين والمماليك - الچتر والأعلام والطنابير (٥٦) ، كما اتخذ أيضا عادة

---

(٥٤) ضبط إسمه على صبح الأعشى ومملكة مالى (المرجعين السابقين) نقلاً عن مسالك الأبصار . هذا وقد ورد ذكر إبن أمير حاجب كثيراً ، ومن الواضح أنه كان مصدراً هاماً لابن فضل الله العمرى فيما رواه عن منسا موسى ، ولا بأس من القاء بعض الضوء على طبيعة علاقة إبن أمير بمنسا موسى ، وهى العلاقة التى سمحت له بأن يروى كل ما رواه ، والحديث للعمرى صاحب مسالك الأبصار :

« وحكى لى الأمير أبو الحسن على بن أمير حاجب أنه كان كثير الاجتماع بالسلطان موسى ملك هذه البلاد لما قدم مصر حاجاً . وكان هو نازلا بالقرافة ، وابن أمير حاجب وإلى القرافة إذ ذاك ، واتحدت بينهما الصحبة . وأن هاذا السلطان موسى حدثه بكثير من أحوال بلاده ومن يجاوره من أمم السودان .. » مملكة مالى ، المرجع السابق ، الجزء الخاص بالمسالك ، الصفحة ٥٦ .

(٥٥) « وحدثنى خلق من تجار مصر والقاهرة عما حصل لهم من المكاسب والربح عليهم ، فإن الرجل منهم كان يشترى القميص أو الثوب والإزار وغير ذلك بخمسة دنانير وهو لا يسوى ديناراً واحداً ، وكانوا فى غاية سلامة الصدور والطمأنينة يجوز عليهم مهما حرز عليهم ، يأخذون كل قول يقال بالقبول والصدق ، ثم ساءت ظنونهم بأهل مصر غاية الاستياء لما ظهر فى غشهم لهم فى كل قول ، وفى تزاحمهم المفرط فى أثمان ما يباع عليهم من الأطعمة والسلع ، حتى أنهم لو رأوا اليوم أكبر أئمة العلم والدين ، وقيل لهم إنه مصرى أمهنوه ... » مملكة مالى ، المرجع السابق ، الجزء الخاص بالمسالك ، الصفحة ٦٤ .

(٥٦) « وأما فى الركوب فقد جرت عادة سلطان هذه المملكة أنه إذا قدم من سفر أن يحمل على رأسه الچتر راكبٌ ، وينشر على رأسه علم ، وتضرب أمامه الطبول ، والطنابير ، والبوقات بقرون فيها صناعة محكمة ، قال إبن أمير حاجب : وشعار هذا السلطان أعلام وألوية كبار جداً ورنكه أصفر فى أرض حمراء .» صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٣٠١. [يتضح من رواية صبح الأعشى أن سلاطين مالى قد اتخذوا هذه العادات قبل مجئ منسا موسى إلى مصر ، ولم يتخذوها عن البلاط المملوكى خلال زيارته لها كما يقول بانيكار ، والچتر هنا هو المظلة . انظر ، الحاشية ٢-١٢ أعلاه .]

إهداء الثياب . وربما كان الأمر البالغ التأثير هو اتباع أحكام إسلامية أكثر تشددا أدخلها في بلاد السودان علماء قدموا من القاهرة . ومنذ ذلك الحين كان على دول السودان الغربي أن تصبح إسلامية البناء ، وأن تتخذ المظاهر التي نشأت في المشرق الإسلامي . بل كانت هناك ممارسات أبلغ مفعولا هي التنجيم والأعمال السحرية ، وهي ممارسات أضيفت إلى الأعراف الوطنية وساعدت على تعزيز قبضة الوثنية .

وقد صحب السلطان في عودته من الشرق المعمر عبد الله بن خديجة الكومي وأبو إسحاق الطويجن وعبد الرحمن التميمي . ويقول ربن خلدون ، نقلا عن المعمر عبد الله ، إن السلطان أبدى رغبته في بناء قاعة استقبال مطلية بالمصيص ، لأن أبنية كهذه لم تكن معروفة في تلك البلاد . وقام أبو إسحاق الطويجن ، وكان ذا مهارة عظيمة في حرف كثيرة ، ببناء قاعة مربعة تعلوها قبة، وأودع هذا البناء كل عبقريته ، وتفنن في طلائه وزخرفته بنقوش عربية الطراز لاتعرفها هذه البلاد ففتن السلطان بالقاعة ، ومنح الطويجن إثنى عشر ألف مثقال من الذهب ، وأنزله في بلاطه منزلة عالية . (٥٧) ويقول ديلافوس إن مسجدي غاو وتمبكت قد بنيا على يد هذا الزائر ، وقد يكون ذلك أمرا محتملا وإن لم يرد له ذكر في كتابات المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة .

---

(٥٧) ورد اسم أبو اسحاق الطويجن في العبر ، ولكني ضبطته على تحفة النظار ، انظر الحاشية ٥١-٣ أعلاه : أما اسم المعمر عبد الله بن خديجة الكومي فقد تم ضبطه على العبر :

« .. فولى عليهم منسا موسى بن أبي بكر وكان رجلا صالحا وملكا عظيما له في العدل أخبار تؤثر عنه وحج سنة ... ولقيه في الموسم شاعر الأندلس أبو اسحاق إبراهيم الساحلي المعروف بالطونجق وصحبة إلى بلاده وكان له اختصاص وعناية ورثها من بعده إلى الآن ... ولقيه في منصرفه صاحبنا المعمر أبو عبد الله بن خديجة الكومي من ولد عبد المؤمن كان داعيةً بالزاب الفاطمي المنتظر ... قال (أبو خديجة) ورجعنا معه إلى حضرة ملكه فأراد أن يتخذ بيتا بمقعد سلطانه محكم البناء مجللا لغرابته بأرضهم فأطرفه أبو اسحاق الطونجق ببناء قبة مربعة الشكل استفرغ فيها إجادته وكان صناع اليدين وأضفى عليها من الكلس ووالى عليها بالأصباغ المشبعة فجاءت من أتقن المباني ووقعت من السلطان موقع الاستغراب لفقدان صنعة البناء بأرضهم ووصله باثنى عشر ألفا من مثاقيل التبر مثوبة عليها إلى ما كان له من الأثرة والميل إليه والصلات السنية » العبر ، الجزء السادس ، الصفحتان ٢٠٠ و ٢٠١ .

وتم ضبط اسم عبد الرحمن التميمي على تاريخ السودان : « يقول يا أهل سنكرى كفاكم سيدى عبد الرحمن التميمي وهو جاء من أرض الحجاز صحبة السلطان موسى صاحب ملّى حين رجع من الحج ... » الصفحة ٥١ .

ويشير العمرى وإبن خلدون إلى اتساع الإمبراطورية ، وإلى الثروات التى أسبغت عليها أهميتها . فقد امتدت من طور (السنغال) فى الغرب إلى مولى فى الشرق ، وخضعت لها قبائل نيتصر ونيتغراس ومدوسة ولمتونة [٥٨] . بيد أن قبائل أير وتدمكة وأودغست كانت مستقلة . وبين الأقاليم الإثنى عشر التى تذكر مسالك الأبصار [٥٩] أنها تابعة لمالى يرد إسم غانة التى كان حاكمها هو الوحيد الذى يحمل لقب ملك ، وإن كان مع ذلك ملكا تابعا . [٦٠] وقد خضعت تدمكة لفترة قصيرة لحكم مالى ، ولكنها أصبحت مستقلة فى أيام العمرى ، ومع ذلك قام سيكرة بغزو تكدا ، [٦١] وظلت منذ ذلك الحين تحت حكم مالى . ويذكر مسالك الأبصار أن موسى أخبر الزواوى بأنه يمتلك مناجم للنحاس هناك . [٦٢]

---

(٥٨) ضبطت هذه الأسماء على صبح الأعشى نقلا عن مسالك الأبصار ، كما يتضح من الاقتباس التالى :

« قال فى مسالك الأبصار : وفى شمال بلاد مالى قبائل من البربر بيض تحت حكم سلطانها : وهم نيتصر ونيتغراس ومدوسة ولمتونه » . صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٨٦ .

(٥٩) « وذكر فى مسالك الأبصار : أن هذه المملكة تشتمل على أربعة عشر إقليماً ، وهى غانة ... » صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٨٦ . [يختلف الرقم الذى ذكره صبح الأعشى عن ذلك الذى ذكره بانيكار.]

(٦٠) « قال فى مسالك الأبصار : ونقل عن الشيخ سعيد الدُكَّالى : أنه ليس بمملكته من يطلق عليه اسم ملك إلا صاحب غانة وهو كالنائب له ، وإن كان ملكا ، وكأنه إنما بقى اسم الملك على صاحب غانة دون غيره لعدم انتزاعه منه والاستيلاء عليه استيلاء كلياً . فقد قال فى التعريف : وأما غانة فإنه لا يملكها وكأنه مالكها ، يتركها عن قدرة عليها : لأن بها وبما وراءها جنوبا منابت الذهب » المرجع نفسه ، الصفحة ٢٩٢.

« ثم قد حكى فى مسالك الأبصار عن والى مصر عن منسا موسى المقدم ذكره : أن الذهب ببلادة حمىً له لأن بلادهم لا شئ بها . ثم قال : وكلام الدكالى أثبت وعليه ينطبق كلامه فى التعريف حيث ذكر غانة ثم قال : وله عليها إتاوة مقررة تحمل إليه كل سنة » المرجع نفسه ، الصفحتان ٢٩٠ و ٢٩١ . [المقصود بوالى مصر هنا هو إبن أمير حاجب ، أما التعريف فهو اسم كتاب هام آخر للعمرى عنوانه بالكامل . التعريف بالمصطلح الشريف ، وقد نشر بالقاهرة سنة ١٣١٢ هـ ، مطبعة السعادة .]

(٦١) يقول إبن خلدون إن الذى غزا تكرت (تكدا) هو مارى جاطة الذى حكم قبل سيكرة . (انظر الحاشية ٣ - ٢٥ أعلاه) .

(٦٢) ضبط اسم الزواوى على صبح الأعشى نقلا عن مسالك الأبصار : « ثم قد حكى فى مسالك الأبصار ... قال الشيخ عيسى الزواوى : قال لى السلطان موسى : إن عنده فى مدينة اسمها (تكوا) معدن نحاس أحمر ، يجلب منه قضبان إلى مدينة بنبى قاعدة مالى فيبعث منه إلى بلاد السودان الكفار ، فيباع وزن مثقال بثلثى وزنه من الذهب ، فيباع كل مائة مثقال من هذا النحاس بستة وستين مثقالاً وثلثى مثقال من الذهب . » صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحتان ٢٩٠ و ٢٩١ .[يبدو أن المقصود بمدينة « تكوا » هنا هو مدينة تكدا .]

كذلك تم غزو غاو في أيام سيكرة . ومع ذلك يذكر إبن خلدون أن البعض يعتقدون أن غزو كَوْكَوْ قد حدث فيما بعد ، إذ ينسب إلى الحاج يونس مترجم المراسلات التكرورية في القاهرة : « ... وقال الحاج يونس ويمال التكروري إن الذي فتح كوكو هو سقمنجة من قواد منسا موسي ... » (٦٣) .

وقد مات منسا موسى في عام ١٣٣٧ ، وخلفه إبنه مغا (٦٤) الذي اضطلع بدور نائب الملك عندما كان موسى خارج بلاده يؤدي فريضة الحج . ولم يحكم منسا مغا الأول إلا أربع سنوات ، ولكن فترة حكمه القصيرة شهدت فرار أميري السنغي ، وتخريب تمبكت ونهبها في عام ١٣٣٩ على أيدي قبائل الموسى الوثنية . (٦٥) وعند موته خلفه سليمان أحد إخوة موسى ، وحكم تسع عشرة سنة من عام ١٣٤١ حتى عام ١٣٦٠ ، وفي عهده تمزقت الإمبراطورية من جراء الخلافات الداخلية ، إذ تزوج سليمان ببنت عمه قاسا ، ويقول إبن بطوطة إنه طبقا لأعراف هذا الشعب كانت قاسا تحكم مشاركة مع سليمان . وقد طلقها سليمان ،

---

(٦٣) كَوْكَوْ عند إبن خلدون ومعظم المؤرخين والجغرافيين هي مدينة « غاو » (انظر الحاشية ٣ – ٣٦ أعلاه) . وقد ضبط اسم « سقمنجة » على العبر الذي وردت به ثلاث إشارات مختلفة : أولاها تنسب غزو كوكو إلى ماري جاطة السابق على سيكرة ، وفيها يقول إبن خلدون إن ماري جاطة تجاوز حدود كوكو (انظر الحاشية نفسها) ؛ الثانية تنسب غزوها إلى سيكرة : « ولما هلك ماري جاطة ولي من بعده مولى من مواليهم تغلب على ملكهم اسمه ساكورة ... وكانت دولته ضخمة اتسع فيها نطاق ملكهم وتغلبوا على الأمم المجاورة لهم وافتتح بلاد كوكو وأصارها في مملكة أهل مالي ... » العبر ، المجلد السادس ، الصفحة ٢٠٠ ؛ الثالثة تنسب غزو كوكو إلى سقمنجة كما يرد في المتن نقلا عن العبر ، المرجع نفسه ، الموضع نفسه .

(٦٤) « واتصلت أيام منسا موسى هذا خمساً وعشرين سنة ولما هلك ولي أمر مالي من بعده ابنه منسا مغا ومغا عندهم محمد وهلك لأربع سنين من ولايته وولي أمرهم من بعده ابنه منسا سليمان بن أبي بكر وهو أخو موسى واتصلت أيامه أربعا وعشرين سنة ثم هلك فولي من بعده ابنه منسا بن سليمان ... » المرجع نفسه ، الصفحة ٢٠١ . [يوجد فارق بين مدة حكم سليمان التي وردت في المتن ، وهي تسع عشرة سنة ميلادية وتلك التي ذكرها إبن خلدون ، وهي أربع وعشرون سنة هجرية .]

(٦٥) « ثم غزا إليها في أيام دولتهم سلطان موش في جيش عظيم فخاف منهم أهل ملّي وهربوا وتركوا البلد لهم فدخل فيها وأفسدها وحرقها وخربها وقتل من قتل وأكل ما فيها من الأموال وولى إلى أرضه ثم رجع إليها أهل ملي وملكوهامائة عام قال العلامة الفقية أحمد بابا رحمه الله تعالى خربت تنبكت ثلاث مرات الأولى على يد سلطان موش ... » تاريخ السودان ، الصفحتان ٨ و ٩ . [الأميران المشار إليهما هنا هما سَلْمَنْ نار وعلي كَلِنْ ، وكان منساموسى قد أخذهما رهينتين لضمان عدم حدوث ثورات أثناء تأديته لفريضة الحج . أنظر ، تاريخ السودان ، الصفحتان ٥و٦ .]

واتخذ إمرأة من عامة الشعب إسمها بنجو كزوجة أولى له . ولم تعترف أية أميرة من الأميرات ببنجو ملكة عليهن ، ورفضن أن يهلن التراب على رؤوسهن في قاعة الاستقبال ، وإنما هلنة على أذرعهن فقط . ومع ذلك كانت قاسا تعامل كإمبراطورة ، وكن يقدمن الولاء لها بنثر التراب على رؤوسهن . وشكت بنجو إلى الإمبراطور ، وعندما غضب الإمبراطور سعت قاسا إلى طلب الأمان في المسجد ، ومن هناك أخذت تحرض النبلاء ، وبخاصة أبناء عمومتها . وهذه الخلافات بين الملكتين التي مزقت الدولة كانت مجرد انعكاس للصراع الحزبي في أورقة البلاط . فقد كان هناك حزبان أحدهما يؤيد أبناء مغا ، والآخر يؤيد سليمان . وكانت قاسا تلقى التأييد من أبناء عمومتها ومن حزب مغا ، ولكن سليمان استطاع أن يركب العاصفة باكتساب الرؤساء العسكريين ، فقد اكتسبهم عندما أثبت أن قاسا تتآمر مع جاطل ، أحد أبناء عمومته ، الذي سبق أن طرد بسبب خيانته . (٦٦)

وفي أيام سليمان جاءت إلى مالي سفارة من مولاي أبي الحسن سلطان مراكش (٦٧) . وكانت مالي في عهد موسى الأول تقيم علاقات وثيقة مع مراكش

(٦٦) « واتفق في أيام إقامتي بمالي أن السلطان غضب على زوجته الكبرى بنت عمه المدعوة بقاسا ومعنى قاسا عندهم الملكة وهي شريكته في الملك على عادة السودان ويذكر اسمها مع اسمه على المنبر وسجنها عند بعض الفرارية وولى في مكانها زوجته الأخرى بنجو ولم تكن من بنات الملوك فأكثر الناس الكلام في ذلك وانكروا فعله ودخل بنات عمه على بنجو يهنئنها بالملكة فجعلن الرماد على أذرعهن ولم يترين رؤوسهن ثم أن السلطان سرح قاسا من ثقافها فدخل عليها بنات عمه يهنئنها بالسراح وترين على العادة فشكت بنجو إلى السلطان بذلك فغضب على بنات عمه فخفن منه واستجرن بالجامع فعفا عنهن واستدعاهن وعادتهن إذا دخلنا على السلطان أن يتجردن عن ثيابهن ويدخلن عرايا ففعلن ذلك ورضي عنهن وصرن يأتين باب السلطان غدوا وعشياً مدة سبعة أيام وكذلك يفعل كل من عفا عنه السلطان وسارت قاساً تركب كل يوم في جواريها وعبيدها وعلى رؤوسهم التراب وتقف عند المشور متنقبة لا يرى وجهها وأكثر الامراء الكلام في شأنها فجمعهم السلطان في المشور وقال لهم دوغا على لسانه إنكم قد أكثرتم الكلام في أمر قاساً وإنها اذنبت ذنباً كبيراً ثم أتى بجارية من جواريها مقيدة مغلولة فقيل لها تكلمي بما عندك فاخبرت أن قاسا بعثتها إلى جاطل إبن عم السلطان الهارب عنه إلى كنبرني واستدعته ليخلع السلطان عن ملكه وقالت له أنا وجميع العساكر طوع أمرك فلما سمع الأمراء ذلك قالوا هذا ذنب كبير وهي تستحق القتل عليه فخافت قاساً من ذلك واستجارت بدار الخطيب وعادتهم أن يستجيروا هناك بالمسجد وإن لم يتمكن فبدار الخطيب .... » تحفه النظار ، طبعة بيروت ، الصفحة ٦٩٧ ،

(٦٧) هو المستعين بالله إبراهيم بن أبي الحسن المريني (أبو سالم) الذي حكم في عام ١٣٥٩ .

وتتبادل مع سلطانها الرسائل الودية . (٦٨) وفضلا عن ذلك أصبحت بلاد السودان معروفة على نطاق أوسع . كما أن إبن بطوطة ، رحّالة الإسلام ، كان عليه بدوره زيارتها . وربما كان الغرض من وراء إيفاد السفارة المراكشية هو الرد على النفوذ المصرى الذى أخذ يتزايد فى نيامى . وقد استقبل السودان تلك السفارة بحفاوة ، وعندما عادت إلى فاس صحبتها سفارة من مالى يرافقها خدم يحملون التراب . وفى فاس كان السلطان إذا وَجَّه إليهم عبارة ما أهالوا التراب على رؤوسهم الأمر الذى كان يضحك رجال البلاط المراكشى . (٦٩) وفى عام ١٣٦٠ قرر سليمان إيفاد بعثة ثانية أكثر فخامة إلى مراكش . وبعد أن بدأت السفارة مسيرتها مات العاهلان قبل وصولها فتوقفت فى ولاته . (٧٠) ويقول بارث إن سليمان أعاد بناء تمبكت التى دمرها الموسى .

---

(٦٨) « كان السلطان أبى الحسن مذهب فى الفخر يتطاول به إلى منازعات الملوك الأعاظم واقتفاء سننهم فى مهاداة الاقتال والأمصار وإيفاد الرسل على ملوك النواحى القاصية والتخوم البعيدة وكان ملك مالى أعظم ملوك السودان لعهده ومجاورا لملكه بالمغرب .... وسما سلطان مالى منسى المتقدم ذكره فى أخبارهم إلى مخاطبته فأوفد عليه فرافقيس من أهل مملكته مع ترجمان من الملثمين المجاورين لممالكهم من صنهاجة فوفدوا على السطان فى التهنئة بالغلب والظفر فاكرم وفادتهم وأحسن مثواهم ومنقلبهم ونزع إلى طريقته فى الفخر فاتحف طرفاً من متاع المغرب وماعونه من ذخيرة داره واسناها وعين رجالاً من أهل دولته كان فيهم كاتب الديوان أبو طالب بن محمد بن أبى مدين ومولاه عنبر الخصى وأوفدهم بها على ملك مالى منسا سليمان ... » العبر ، المجلد السابع ، الصفحة ٢٦٦ .

(٦٩) ذكر إبن جزى عن أدب السودان : وأخبرنى صاحب العلامة الفقية أبو القاسم بن رضوان أعزه الله إنه لما قدم الحاج موسى الونجراتى رسولا عن منسى سليمان إلى مولانا أبى الحسن رضى الله عنه كان إذا دخل المجلس الكريم حمل بعض ناسه معه قفة تراب فيترب مهما قال له مولانا كلاما حسنا كما يفعل ببلاده » تحفه النظار ، طبعة بيروت ، الحاشية ٤٢ ، الصفحة ٦٩٤ .

(٧٠) « كان السلطان أبو الحسن لما أهدى إلى ملك السودان منسا سليمان بن منسا موسى هديته المذكورة فى خبره احتفل فى مكافاته وجمع لمهاداته من طرف أرضه وغرائب بلاده وهلك السلطان أبو الحسن خلال ذلك ووصلت الهدية إلى أقصى ثغورهم من الارس وهلك منسا موسى قبل فصولها فاختلف أهل مالى وافترق أمرهم ... حتى قام منهم منسا زاطة واستوسق له أمرهم ونظر فى أعطاف ملكه وأخبر بشأن الهدية واختزانها بوالات فأمر بانفاذها إلى ملك المغرب ...» العبر ، المجلد السابع ، الصفحة ٣١٠ . [والات هى ولاته .]

وخلـف سليمـان إبنه كاسا ، ولـكن سرعـان ما اندلـعت حرب أهلية ، وبعـد تسعـة أشهر استـولى إبن عمـه مارى جاظـة علـى السلطة ، (٧١) والآن أُمِرت السفارة باستئناف السيـر إلـى مراكـش ، فوصـلت فاس فى عام ١٣٦١ ، وكان من بين الهدايا التى تحملها « حيوان الزرافة الغريب الشكـل العظيم الهيكل المختلف الشبه بالحيوانات » ، وكانت هذه أول إشارة إلى الزرافة التى أحدث وصولها مظاهر إعجاب فى كل مدينة مراكشية شاهدتها . (٧٢)

وكان مـارى جاظة ، استـنادا إلى إبن خلدون ، أسـوأ ملوك مـالى على الإطـلاق ، فقد كان ضعيفا محبًّا للملذات ، فاستنفد الكنوز وكاد أن يـأتى على نفائس القصر . ومما أثار استغـراب إبن خلـدون من إسراف مارى جاظة وسفهه أنـه باع للتجار المـصريين كتـلة صلبـة من الـذهب تـزن عشرين قـيراطـا .

---

(٧١) « قال فى العبر .. وملك بعده أخوه (منسا سليمان) بن أبى بكر ، وهو أخو منسا موسى المقدم ذكره ... قال فى العبر : ودام ملكه أربعا وعشرين سنة ، ثم مات . وولى بعده ابنه (قنبتا بن سليمان) ومات لتسعة أشهر من ملكه . وملك بعده (مارى جاظة) ابن منسا مغا بن منسا موسى » صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٩٧ . وقد ورد بحاشية بالصفحة نفسها تعليقا على كلمة « قنبتا » مايلى : وقع فى العبر ج ٦ ص ٢٠١ و ٢٠٢ « ققتا »

« واختلف أهل مالى وافترق أمرهم وتواثب ملوكهم على الأمر وقتل بعضهم بعضاً وشغلوا بالفتنة حتى قام فيهم منسا زاطة واستوسق له أمرهم .... » العبر ، المجلد السابع ، الصفحة ٢١٠ .

والمقصود هنا بمنسا زاطة هو مارى جاظة .

(٧٢) « .. حتى قام فيهم منسا زاطة واستوسق له أمرهم ونظر فى أعطاف ملكه وأخبر بشان الهدية واختزانها بوالات وأمر بانفاذها إلى ملك المغرب وضم إليها حيوان الزرافة الغريب الشكل العظيم الهيكل المختلف الشبه بالحيوانات وفصلوا بها من بلادهم فوصلوا إلى فاس ... وكان يوم وفادتهم يوماً مشهوداً جلس لهم السلطان ببرج الذهب مجلس العرض ونودى فى الناس بالبروز إلى الصحراء فبرزوا ينسلون من كل حدب حتى غص بهم الفضاء وركب بعضهم بعضا فى الازدحام على الزرافة إعجاباً بخلقتها وأنشد الشعراء فى معرض المدح والتهنئة ووصف الحال وحضر الوفد بين يدى السلطان وأدوا رسالتهم بتأكيد الود والمخالصة والعذر على إبطاء الهدية بما كان من اختلاف أهل مالى وتواثبهم على الأمر وتعظيم سلطانهم وما صاروا إليه والترجمان يترجم عنهم وهم يصدقونه بالنزع فى أوتار قسيهم عادة معروفة لهم وحيوا السلطان يحثون التراب على رؤسهم سنة ملوك العجم ثم ركب السلطان وانفض ذلك الجمع وقد طار به الذكر ... » المرجع نفسه ، الموضع نفسه .

وكان ماري جاطة أول حاكم لدينا عنه بعض المعرفة يصاب بمرض النوم . (٧٣) « يعتاده غشي النوم عامة أزمانه حتى يكاد لايفيق ولايستيقظ إلا في القليل من أوقاته ويضر صاحبه ويتصل سقمه إلى أن يهلك (قال) ودامت هذه العلة بخلطه مدة عامين اثنين حتى هلك سنة خمس وسبعين وسبعماية » (٧٤) .

وخلف جاطة إبنه موسى الثانى (١٣٧٤ - ١٣٨٧) ، وكان موسى الثانى مجرد أمير فضلا عن ضعفه ، فانسلت السلطة من بين يديه إلى يدى الرأس المدبرة للجهاز الإدارى - مارى جاطة آخر . وكان مارى جاطة هذا رئيسا للرقيق وقائدا للجيوش ، ومن هذا الموقع الممتاز حكم الإمبراطورية باسم موسى ، وقد كان قائدا قديرا تمكن من أن يعيد مد نفوذ الإمبراطورية حتى غاو ، وخضعت تكدا مرة أخرى لحكم مالي . (٧٥)

---

(٧٣) « ٣٢٤٥ مارى جاطة بن منسا بن مغا ... ملك بعد أبيه وسار سيرة قبيحة وبالغ فى التبذير والفسق توفى سنة ٧٧٥ وولى بعده ابنه منشا موسى » إبن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، الصفحة ٣٦٢ .

« قال فى مسالك الأبصار ... وملك بعده (مارى جاطة) بن منسا مغا ... فأقام أربع وعشرين سنة أساء فيها السيرة وأفسد ملكهم ، وأتلف ذخائرهم بسرفه وتبذيره ، حتى انتهى به الحال فى السرف أنه كان بخزائنهم حجر ذهب ، زنته عشرون قنطاراً منقولاً من المعدن من غير سبك ولا علاج بالنار ، وكانوا يرونه من أنفس ذخائرهم لندور مثله فى المعدن ، فباعه على تجار مصر المترددين إليه بأبخس ثمن ، وصرف ذلك كله فى الفسوق ، وكان آخر أمره أن أصابته علة النوم وهو مرض كثيراً ما يصيب أهل تلك البلاد لا سيما الرؤساء منهم ، يأخذ أحدهم النوم حتى لا يفيق، فأقام به سنتين حتى مات سنة خمس وسبعين وسبعمائة . » صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحتان ٢٩٦و٢٩٧ .

وهكذا ينهب كل من صبح الأعشى فى هذا الاقتباس ، والعبر (المجلد السادس ، الصفحة ٢٠١) ، إلى تقدير واحد لوزن حجر الذهب هذا : هو عشرون قنطاراً ؛ أما تقدير پانيكار لهذا الوزن فهو عشرون قيراطاً ... والتقدير الأول بمعيار القنطار المعروف لدينا مبالغ فيه جداً ، فى حين أن تقدير پانيكار هزيل للغاية ، فالقيراط لا يتعدى جزءاً صغيراً من الجرام . وربما كان التقدير الأقرب إلى المنطق هو ثلاثون رطلاً الذى قال به الإدريسى وهو أنه « لبنة من ذهب وزنها ٣٠ رطلاً » (انظر الحاشية ٢ - ١٣ أعلاه .)

(٧٤) هذا الاقتباس مأخوذ من العبر ، المجلد السادس ، الصفحة ٢٠٢ .

(٧٥) « قال فى مسالك الأبصار ... وملك بعده ابنه (موسى) فنكّب عن طريق أبيه ، وأقبل على العدل وحسن السيرة ، وتغلب على دولته وزيره (مارى جاطة) فحجره وقام بتدبير الدولة ؛ وكان له فيها أحسن تدبير » صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحتان ٢٩٦ و ٢٩٧ .

« وولوا من بعده إبنه موسى فأقبل على مذاهب العدل والنظر لهم ونكب عن طريق أبيه جملة ، وهو الآن مرجو الهداية ويغلب على دولته وزيره مارى جاطة .... وهو الآن قد حجر السلطان واستبد بالأمر عليه ونظر فى تجهيز العساكر وتجهيز الكتائب ودوخ أقطار الشرق من بلادهم وتجاوز تخوم كوكو وجهز إلى منازلة تكرت بما وراءها من بلاد الملثمين .... » العبر ، المجلد السادس الصفحة ٢٠٢ . [سبقت الإشارة إلى أن كوكو هى غاو ؛ وأن تكرت هى تكدا .]

وكان مارى جاظة ، الذى حكم بوصفه وزير القصر ، آخر حاكم قوى لمالى . وظلت مالى بعده ، لمدة قرن آخر ، دولة قوية ، ولكن الاضطرابات فى سنغى زادت متاعبها . وبعد موسى الثانى وقعت الإمبراطورية تحت رحمة القادة العسكريين المتنافسين ، وسادت حالة من الحرب الأهلية . وحكم مغا الثانى بضعة أيام قبل أن تخلعه الانكشارية وتودى بحياته . واستولى صندكى ، رئيس الرقيق ، على السلطة ؛ ولكن قسما من الجيش ظل على ولائه للأسرة المالكة القديمة ، وبعد عامين من القتال تمكن مغا الثالث الذى جاء من المنطقة الوثنية ، وادعى أنه من سلالة سندياتا من خلال منساقو ، من الاستيلاء على السلطة . (٧٦)

كذلك أدى تمرد الموسى والسنغى فى منطقة بحيرة ديبو (٧٧) إلى إضعاف سلطة مالى ، وفقدت مالى مقاطعاتها الشرقية ، فى حين ظلت إمبراطورية عظيمة فى الغرب . أما دولة الموسى فى ياتنجا ، التى كانت مزيجا من نظام إقطاعى حربى وديانة قبلية وإمبراطور مقدس ، فكانت دولة حربية قوية قادرة

---

(٧٦) « ... وبقى منسا موسى حتى مات سنة تسع وثمانين وسبعمائة . وملك بعده أخوه (منسامغا) وقتل بعده بسنة أونحوها ، وملك بعده (صندكى) زوج أم منسا موسى المقدم ذكره ، ومعنى (صندكى) الوزير ؛ ووثب عليه بعد أشهر رجل من بيت مارى جاظة . ثم خرج من ورائهم من بلاد الكفرة رجل اسمه (محمود) ينسب إلى (منساقو) بن منسا ولى ، بن مارى جاظة ، ولقبه منسا مغا ، وغلب على المُلْك فى سنة .... » صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحتان ٢٩٧ و ٢٩٨ .

« ثم بلغنا لهذا العهد أن منسا موسى توفى سنة ... وولى بعده أخوه منسا مغا ثم قتل لسنة أو نحوها وولى بعده صندكى زوج أم موسى ومعنى صندكى الوزير ووثب عليه بعد أشهر من بيت مارى جاطة ثم خرج من بلاد الكفرة وراءهم وجاءهم رجل اسمه محمود ينسب إلى منسا قو بن منسا ولى بن مارى جاطة الأكبر فتغلب على الدولة وملك أمرهم سنة ثنتين وتسعين ولقبه منسا مغا » . العبر ، المجلد السادس ، الصفحة ٢٠٢ . [يتضح هنا أن اسمى صندكى وقو تم ضبطهما على كل من العبر وصبح الأعشى (الذى ينقل عن مسالك الأبصار) .]

(٧٧) ديبو : أوردها بانيكار « Dabo » ، ولكنها وردت فى الموسوعة البريطانية « Debo » كذلك وردت « Debo » فى الترجمة الفرنسية لكتابى تاريخ الفتاش وتاريخ السودان ، ووردت « دِبُ » فى النص العربى لكل منهما : الصفحة ٩٤ من تاريخ الفتاش والصفحة ١٢ من تاريخ السودان . وقد كتبتها ديبو . وهى إحدى البحيرات التى تعترض نهر النيجر فى المنطقة الرسوبية قبل وصوله إلى تمبكت .

على الصمود فى وجه الغزوات الأجنبية ، كما زودتها مواردها البشرية والاقتصادية باستقرار افتقرت إليه الدول الإسلامية الأكثر شهرة ، فسارعت إلى الاستفادة من الموقف المتقلب . وفى الفترة التى تمكَّن فيها الضعف من مالى كان الموسى قد قاموا بالفعل بتمرد عند منحنى النيجر ، وعجزت مالى عن مقاومة النهب الذى تعرضت له تمبكت . واستفاد الموسى من فترة الحرب الأهلية ، ومن حالة الفوضى التى أعقبتها ، فى القيام بسلسلة من أعمال التمرد فى منطقة بحيرة ديبو . كذلك استفاد السنغى بدورهم من الاستقلال الحديث الذى حصلوا عليه لمهاجمة مالى . فقام مادلو (٧٨) ، حاكم السنغى ، بمهاجمة مالى ونهب العاصمة ، وعاد بالغنائم والأسلاب والرقيق . وكانت لذلك آثاره على رخاء السنغى . وبحلول عام ١٤٣٠ كانت مقاطعات أروان (٧٩) وولاته وتمبكت التى تقع فى الشمال قد سقطت فى أيدى الطوارق . (٨٠)

وبسقوط تمبكت فى أيدى الطوارق انتهى وجود مالى كإمبراطورية ، بيد أنها استمرت تمارس السيادة كسلطة إمبراطورية على المناطق الغربية قرنا آخر

---

(٧٨) أوردها بانيكار Ma Daou : وأوردها تاريخ الفتاش مادعو وكذلك مادُغْ ، واكتبها مادلو .

« .. ثم بعد شى بارْدَلْ يَنْبُ ثم شى مادعو ثم شى محمد كوكيا .... » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤٢ .

« .. وكذلك هو ورثهم من شى مادُغْ وهو الذى تغلب على مِلْكُىْ وكان أصلهم تحت مِلْكُىْ .. » المرجع نفسه ، الصفحة ٥٥ .

وقد وردت فى الترجمة الفرنسية لتاريخ الفتاش Madogo ، ولكنها وردت فى الملحق الثانى من هذه الترجمة Madao .

(٧٩) أروان : مدينة مكانها اليوم معروف جيداً ، وهى تقع على بعد ٢٥٠ كيلو متراً شمالى تمبكت على الطريق ما بين تاوديني وتندوف . وردت يَرْوَنْ فى تاريخ الفتاش ، الصفحة ٢٣ ؛ ووردت اروان فى تاريخ السودان ، الصفحة ٢٠ .

(٨٠) « ... وفى آخر دولة أهل ملّى بتنبكت أخذ توارق مغشرن يغيرون عليهم ويفسدون فى الأرض من كل جهة ومكان وسلطانها أكلّ اكَمَلْوَلْ فتشوشوا من كثرة ضررهم وإذايتهم ولا يقفون لهم للمقاتلة قالوا البلد الذى لا يدفع عنها سلطانها لا يجوز له ملكها فسلَّموا فيها ورجعوا إلى ملى فملكها أكل المذكور أربعين عاماً تتمة » تاريخ السودان ، الصفحة ٩ . [المغشرن : كانوا إحدى قبائل الطوارق بالقرب من النيجر ؛ أكل اكملول Akil - Akamelluel : جاء بالحاشية ٣ بالصفحة ١٧ من الترجمة الفرنسية لتاريخ السودان أن كلمة « اك » فى الجزء الثانى من الاسم تعنى إبنا وبالتالى يكون الاسم أكل بن ملول .]

لتشهد سقوط غريمتها سنغى فى أيدى الغزاة المراكشيين . وعلى الرغم من أن إسم مالى كان يدغدغ جشع الأوروبيين ، فقد حفت عن أن تحسب ضمن مجموعة دول غرب إفريقية . بيد أنه حتى عام ١٤٨٠ كانت مالى لاتزال قوية ، وإن تكن قد فقدت سطوتها . وواصلت سنغى مهاجمة مالى ، واضطرت مالى إلى طلب العون من البرتغاليين ، ففى عام ١٤٨٠ قررت البرتغال إيفاد سفارتين الأولى من إلمينا [٨١] والأخرى من غمبيا ، واستقبلت السفارة من جانب المنسا الذى بعث برسالة إلى ملك البرتغال عن طريق بيدرو رانيال . وعلى الرغم مماطرأ على سلطة المنسا من ضعف ، فقد ظل معتزاً بنفسه ، وكان يعتقد أنه لايوجد فى العالم أجمع سوى أربع ممالك يمكن مقارنتها بمالى ، هى التكرور وبغداد والقاهرة واليمن ، [٨٢] كما أنه أى لم يحظ أىٌ من الملوك الذين سبقوه على عرش مالى باستقبال سفارة موفدة من ملك مسيحى ، وقد أعرب أيضا عن دهشته من اتساع المملكة البرتغالية . بيد أن مالى ، وإن كانت لاتزال تفخر بماضيها ، والتى استمرت قرنًا آخر ، لم تعد دولة عظيمة . وسرعان مامزقها التوكولور الفولانى وكذلك البمبرة ، واضطر المنسا مرة أخرى إلى طلب المساعدة من البرتغاليين ضد الفولانى ، فقام الفولانى بسحب مزاعمهم . وجاءت آخر محاولة من جانب مالى لاستعادة مجدها الإمبراطورى فى عام ١٥٩٩، ولكنها انتهت بدورها – كما سنرى – بالإخفاق التام .

---

(٨١) إلمينا : مازالت توجد فيما كان يعرف بساحل الذهب . كانت موقعا لأهم قلعة بناها الأوروبيون عنوة على الساحل الغربى لإفريقية ، وكانت تعرف بقلعة ساوچورج دامينا . وقد بدأ دييجو دازمبوجا البرتغالى بناءها فى عام ١٤٨٢ فوق رأس صخرية بالقرب من مصب نهر بنيا . انتقلت ملكيتها إلى الهولنديين فى عام ١٦٣٧ . كانت مركزاً للاتجار مع الإفريقيين فى تبر الذهب ، ثم أصبحت تجارة الرقيق عملها الرئيسى فى القرن الثامن عشر . مكنتها صلتها بالأشانتى من الاحتفاظ بأهميتها إلى أن انتقلت إلى بريطانيا فى عام ١٨٧٠ عندما كانت فى حالة حرب مع الأشانتى .

(٨٢) « ويد سلطان مل مبسوطة على الكل بالقهر والغلبة وكنا نسمع من أعوام عصرنا يقولون سلاطين الدنيا أربعة ماخلا السلطان الأعظم سلطان بغداد وسلطان مصر وسلطان برن وسلطان مل » . تاريخ الفتاش ، الصفحة ٣٨ . [إذا كان تاريخ الفتاش هو المصدر الذى أخذ عنه پانيكار فلابد أنه خلط بين برن (برنو) واليمن . هذا والمقصود بسلطان مل هو سلطان مالى . وتشير عبارة السلطان الأعظم إلى « الخليفة العثمانى » . على الرغم مما جاء فى تاريخ الفتاش من أنه سلطان بغداد .]


صفحة فارغة

غاو وسيادة السنغى (*)

عندما أخذت قوة غانة فى الأفول كانت هناك ممالك كثيرة فى السودان . ففى أقصى الغرب كانت هناك مملكة التكرور ثم مملكة *سلا*(١) ومملكة **بريسى** ، وهى ممالك سكانها من المسلمين وحرفتهم الرئيسية صيد الرقيق من منطقة لملم . وفى ذلك الوقت كانت مملكة التكرور ذات أهمية كبيرة ، فى حين كانت بريسى تابعة لها ، كما كانت المركز الكبير للونقارة ، وهم تجار وثنيون يحملون تبر الذهب إلى مختلف بلدان السودان ، ومع ذلك فهى مكان فقير ليست به مدينة مسوّرة .(٢)

(*) أقام السنغى من قديم الزمان على ضفاف النيجر الأوسط ، وأصبحت غاو عاصمتهم ومدينتهم الكبرى ، وامتدت حدود بلادهم حتى شملت المسافة الواقعة على منحنى النيجر ، وجاورهم الطوارق من الشمال ، وجاورتهم من الغرب والجنوب جماعات شتى من أهل السودان أهمها المندنغو . كما امتدت بلادهم شرقا حتى اتصلت ببرنو وكانم وتشاد ، وشملت مدينة تمبكت فى عهد سنّ على ، وخضعت لهم مملكة الموسى الوثنية فى عهد أسكيا الحاج محمد . وتسرب نفوذهم إلى شمال نيجيريا ، ودانت لهم كاتسنا وغوبر وكانو وزنفرا وزاريا ، وشمل نفوذ دولتهم منطقة السفانا فى امتدادها من الشرق إلى الغرب . [نقلا عن دكتور حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام ، الزهراء للإعلام العربى ، الصفحتين ٣٧٤و٣٧٥.]

(١) كتبها البكرى سلى : «وتسير من مدينة تكرور إلى مدينة سلى وهى مدينتان على شاطئ النيل وأهلها مسلمون على يد وارجابى» البكرى ، المغرب فى ذكر إفريقية والمغرب ، الصفحة ١٧٢ .

(٢) بريسى ، وتكتب بريسا أيضا ، وهى كذلك برسنى التى ذكر البكرى أنها «بغربى غيارو على النيل ... يسكنها المسلمون وما حولها مشركون ...» المرجع نفسه ، الصفحة ١٧٧.

« ومن مدينة تكرور إلى مدينة بريسى على النيل مشرقا اثنتا عشرة مرحلة مدينة بريسى مدينة صغيرة لاسور لها غير أنها كالقرية الحاضرة وأهلها متجولون تجار وهم فى طاعة التكرورى .. » الإدريسى ، نزهة المشتاق، الصفحة ١٩.

أما المملكة التى كانت ذات أهمية حتى فى أيام عظمة غانة فهى غاو[٣] . ويشير إليها اليعقوبى باعتبارها أعظم الممالك وأكثرها أهمية . وهو يقول إن كل ملوك الزنوج يدفعون الجزية لكوكو (غاو) . وكتب المهلبى حوالى ٩٩٦ يقول إن ملك غانة مسلم، وأن الملك ونبلاءه يعيشون على ضفة النهر الغربية ، على حين توجد الأحياء التجارية على الضفة الشرقية ويتردد عليها التجار من كل بلدان العالم . وحتى ذلك الوقت كانت غاو مركزاً ثقافيا عظيما ، لها مساجدها كما توجد بها مدرستان . وبينما يذكر المهلبى أن الملك ونبلاءه يلبسون القمصان والعمائم ويركبون الخيل غير المسرجة ،[٤] فإن البكرى يقول إن عامة الشعب وثنيون يعبدون الدكاكير وزيهم الملاحف والجلود وأشياء أخرى تختلف باختلاف يسارهم ، كما يقول إن المسلمين وحدهم هم الذين يمكن أن يكونوا حكاما فى غاو.[٥]

كانت غاو بالتأكيد أكثر أهمية من الصوصو[٦] أو مالى . ويقول إبن حوقل ، الذى زار أودغست فى عام ٩٦١ ، إن ملكها تابع لغاو ، وقد كانت غاو مركزا

(٣) «ثم مملكة الكوكو ، وهى أعظم ممالك السودان وأجلها قدرا وأعظمها أمرا ، وكل الممالك تعطى لملكها الطاعة ، والكوكو إسم المدينة ، ودون هذا عدة ممالك يعطونه الطاعة ويقرون له بالرئاسة على أنهم ملوك بلدانهم ، فمنهم مملكة المرو ، وهى مملكة ... ومملكة مربنة ... فهذه كلها تنتسب إلى مملكة الكوكو .» اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، المجلد الأول ، الصفحتان ١٩٣ و١٩٤ . [سبقت الإشارة إلى أن كوكو هى غاو. أنظر الحاشية ٣ – ٢٦ أعلاه.]

(٤) «١٠٨٤ – كوكو : وهو إسم أمة وبلاد من السودان ، قال المهلبى : كوكو من الإقليم الأول ، وعرضها عشر درج ، وملكهم يظاهر رعيته بالإسلام وأكثرهم يظاهر به وله مدينة على النيل من شرقيه إسمها سرناه .... وله مدينة على غربى النيل سكنها هو ورجاله وثقاته ، وبها مسجد يصلى فيه ، ومصلى الجماعة بين المدينتين وله فى مدينته قصر لا يسكنه معه أحد ... وجميعهم مسلمون وزىّ ملكهم ورؤساء أصحابه القمصان والعمائم ويركبون الخيل أعراء ....» ياقوت الحموى ، كتاب معجم البلدان ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٠ ، الجزء الرابع ، مادة كوكو، الصفحة ٥٦٢.

(٥) «وبين تادمكة ومدينة كوكو تسع مراحل ... وهى مدينتان مدينة الملك ومدينة المسلمين وملكهم يسمى قندا وزيهم كزى السودان من الملاحف وثياب الجلود وغير ذلك بقدر جدة الإنسان منهم وهم يعبدون الدكاكير كما تفعل السودان ويضرب بجلوس الملك الطبل ويرقص النساء السودانيات بالشعور الجثلة المسترسلة ... وإذا ولى منهم ملك دفع إليه خاتم وسيف ومصحف يزعمون أن أمير المؤمنين بعث بذلك إليهم وملكهم مسلم ولا يملّكون غير المسلمين .» البكرى ، المرجع السابق ، الصفحة ١٨٣.

(٦) كانتت إمارة الصوصو التى حكمتها أسرة كونتى أقوى دول المرابطين جنوبى الصحراء الكبرى ، وكان الصوصو قد قدموا إلى قوته جلّ فى القرن الثالث عشر ، ثم بدأوا الهجرة فى اتجاه ساحل الأطلسى عندما ازداد عددهم .

تجاريا هاما اعتادت القوافل من مصر وورقلة أن تفد إليه بانتظام ، على الرغم من أنه لم يكن يفد إليها من سجلماسة سوى عدد قليل من القوافل . كذلك لم تكن غاو مملكة جديدة ، ويشير تاريخ السودان إلى أن أول « زا » اعتنق الإسلام هو زاكُسَىْ[7] الذى حكم فى عام ١٠٠٩ ، وكان الملك الرابع عشر من هذه الأسرة . وإذا افترضنا أن متوسط حكم كل منهم عشرون عاما فلابد أن تكون المملكة قد تكونت من منذ عام ٧٠٠ .

فلماذا لم تصبح غاو دولة متفوقة السيادة قبل هذا التاريخ ؟ إن صلات غاو التجارية كانت مع مصرفى الشرق ؟ ومع ذلك كان من الأيسر أن تتزود بلاد السودان باحتياجاتها من الشمال . فما دامت الطرق تحتفظ بأهميتها ، فإن شعب غاو – السنغى – على الرغم من سيطرته على جيرانه ، لم يكن باستطاعته أن يُحْكِم الإمساك بالصولجان الإمبراطورى . وهو لم يستطع أن يبسط هيمنته إلا عندما ازدادت أهمية الطرق فى وسط الصحراء الكبرى . وبالمثل لا ينبغى أن نغفل أن غانة ومالى كلتيهما كانت أقرب إلى مناطق الذهب ، وبذلك كان باستطاعتهما اجتذاب التجار من الشمال ، على حين افتقرت غاو إلى تلك الميزة وتعين عليها الحصول على الذهب من الغرب ، وأصبح الرقيق ، وليس الذهب ، أهم الصادرات .

وعلى الرغم من أن غاو قد قامت منذ حوالى عام ٧٠٠ ، فإنها لم تبرز على الساحة إلا فى وقت متأخر جدا . وكما رأينا وقعت فى نزاع مع مالى ، ومنذ أيام سيكرة حتى نهاية القرن الرابع عشر كانت خاضعة لنيامى . وكلما تمزقت مالى تحت وطأة الفتن ، كان باستطاعة غاو تأكيد استقلالها ، ولكن ما إن يستعاد النظام فى نيامى حتى تسارع إلى الاعتراف بسيادتها .

(٧) « ذكر ملوك سغى ، أول من تملك فيها من الملوك زا الأيمن ثم زازكى ثم ... ثم زاكِتِكِى هؤلاء أربعة عشر ملوكا ماتوا جميعا فى جاهلية وما آمن أحد منهم بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم والذى أسلم منهم زاكُسَىْ يقال له فى كلامهم مسلم دم معناه أسلم طوعا بلا أكراه رحمه الله وذلك فى سنة أربعمائة من هجرة النبى ... »تاريخ السودان ، الصفحتان ٢ و ٣ .[يفهم من هذه الفقرة أن زاكسى هو الملك الخامس عشر وليس الرابع عشر كما ذكر باينكار .]

وقد أصبح السنغي متحدين تحت حكم «زا» . وكان السُّرْكُ[8] الذين يحترفون صيد الأسماك منتشرين على طول النهر في مقاطعتي تِلَّبرى وبِنْتيا[9] ، وهؤلاء السرك هم حراس المقدمة ، وقد بذلوا جهداً كبيراً لتوسيع رقعة مملكة سنغي الوليدة. وكان مركز الدولة الجديدة هو كوكيا[10] التي تقع على بعد ١٤٠ كيلو مترا من غاو . وقد اعتنق زاكُسُىْ الإسلام ، وتولى الحكم حوالي عام ١٠٠٠ ، وهو الملك الرابع عشر في سلسلة الحكام ، وقام بنقل العاصمة من كوكيا إلى غاو . وعرف لدى مؤرخي السودان على أنه «مسلم دم» أي أسلم طوعاً.[11] وفي أيام البكرى فرض السنغي سلطانهم على القبائل المجاورة ، بيد أنه حتى عندما فتحتها مالي لم تكن مملكة كبيرة . وفي أيام منسا موسى أُخِذَ أميران من السنغي ، هما سلْمَنْ نار وعلي كُلِنْ ، رهينتين إلى نيامي – من المحتمل عندما ذهب موسى لأداء فريضة الحج – لضمان عدم حدوث ثورات . يقول تاريخ السودان : « فلما بلغا مبلغ الاستخدام أخذهما سلطان ملي لأنهم في طاعته حينئذ للخدمة على عادتهم لأولاد الملوك الذين في طاعتهم ».[12] واحتجز الأميران لفترة طويلة ، واضطلعا بوظائف مختلفة في بلاط مالي ، وعرفا طرقاته ومسالكه ، وتمكنا بفضل مهارة علي كلن من الفرار من نيامي في عهد

---

(٨) السُّرْكُ : تم ضبط الاسم على تاريخ الفتاش وتاريخ السودان . وقد ورد في الترجمة الفرنسية لكل منهما Sorko مثلما كتبها پانيكار. «فقال الشيخ فما الذى ملكهم لى سائغ فقال الشيخ الأولى قبيلة جِنْبِكَتَ .. والثانية قبيلة جَمْ وَلِ .. والعاشرة تسمى بسُرْكُ ..» تاريخ الفتاش ، الصفحة ١٤. ووردت كذلك في تاريخ السودان ، الصفحتان ١٠٤ و ١٢٩.

(٩) تِلَّبرى وبنتيا : تقع بنتيا على مسافة ١٥٠ كيلو مترا إلى الجنوب من غاو ، أى في أول منطقة تركز فيها السنغي ، وهي تللبرى – أسَنْغُ .

(١٠) كوكيا : وردت في تاريخ الفتاش كُوكيا وكوكى وكُيُكِيَ وكوكيه : ووردت في تاريخ السودان كوكيا .

« ... وصلى العيد في كوكيا .. » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤٦ . « .. هرب من جزائر المحيط إلى كوكى...» ، المرجع نفسه ، الصفحة ٥٨ .

« .. ومكث في السلطنة تسع سنين .... في بلد كُيُكى .»الصفحة ٩٣ ؛ «...الباشا محمود لم يزل في كُوكِيَة.» الصفحة ١٦٩.

« ... حتى انتهى بهما القدر إلى كوكيا .. » تاريخ السودان ، الصفحة ٤ .

(١١) أنظر الحاشية ٤ – ٧ أعلاه .

(١٢) تاريخ السودان ، الصفحة ٦ .

منسا موسى ، واستطاع على كلن الذى أصبح «زا» أن يؤكد استقلال السنغى . ولابراز هذا الحديث قرر الإثنان أن يُعرفا مستقبلا على أنهما أسرة سنّ (١٣) . ولايعرف عن على كولن أكثر من أنه نجح فى تحرير السنغى . ولم تكن دولة السنغى حتى ذلك الوقت شديدة الاتساع ، بل إن مارى جاطة سلطان مالى قام بغزو غاو مرة أخرى .

ولم يكن باستطاعة السنغى توسيع رقعة دولتهم إلا فى أثناء فترة الفوضى التى أعقبت وفاة موسى الثانى . ويرجع إلي مادغ(١٤) الفضل فى صعود قوة السنغى ، فقد حرر مادغ أربعا وعشرين قبيلة تستعبدها مالى ، ولكن بينما أصبح أبناء بعضها أحرارا ، فإن أبناء البعض الآخر ظلّوا ملكا للدولة . وأفادت الحملة أيضاً أنه استطاع جمع أسلاب كثيرة ، وبفضل هذه الأسلاب ازدهرت إمبراطورية السنغى . ومنذ ذلك الوقت أخذت رقعة غاو تتسع فى بطء ، ولكن باطراد ، حتى أيام سنّ على .

كان سنّ على فاتحاً عظيماً ، وفيه اتحدت أعراف الإسلام والوثنية ، التى كانت تمضى متلازمة وسببت قدراً هائلاً من إراقة الدماء فى غرب إفريقية . فأمه كانت وثنية ، فى حين كان أبوه مسلما . ولذا وحّد فى داخله فكرة ملك مقدس وفكرة زعيم دينى ، واستطاع على الفور أن يصبح سلطانا وملكا ساحرا .

---

(١٣) سنّ : وتكتب أحيانا « شى» ، ومعناها خليفة السلطان .

« ثم بعد شى باردَلْ يَنْبُ ثم شى مادعو ثم شى محمد كوكيا ثم شى محمد فار .. » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤٢ .

« وأما سن الأول على كلن فكان من قصته ... » تاريخ السودان ، الصفحة ٥ .

[يقول پانيكار فى الفصل السابق « مالى وتدعيم الدولة الإسلامية إن هذين الأميرين قد فرّا فى عهد منسامغا إبن منسا موسى وليس فى عهد منسا موسى نفسه ، انظر الحاشية ٣-٦٥.]

(١٤) مادغ : وردت فى تاريخ الفتاش مادغو ومادغ ؛ ووردت فى تاريخ السودان محمد داعوا .

تاريخ الفتاش : « ... ثم شى مادعو ثم شى محمد كوكيا ... » « الصفحة ٤٢ ا « .. وكذلك هو ورثهم من شى مادغ .. » ، الصفحة ٥٥ .

تاريخ السودان : « ... وفى سنة ... توفى سن على بن سن محمد داعوا ... » ، الصفحة ٧١.

وينظر إليه مؤرخا السودان ، عبد الرحمن السعدى ومحمود كعت ، باعتباره حاكما فاجرا . يقول **تاريخ السودان** : « أما الظالم الأكبر والفاجر الأشهر سن على . . فإنه كان ذا قوة عظيمة ومتنة جسيمة ظالما فاسقا متعدّياً متسلطا سفاكا للدماء قتل من الخلق مالا يحصيه إلا الله تعالى ... ».(١٥) ويمضى **تاريخ السودان** قائلا : « ومن أخلاق هذا الظالم الفاسق التلاعب بدينه يترك خمس صلوات إلى الليل أو إلى الغد ثم يومى قاعداً مراراً متكررة ذاكرا أسماءهم ثم يسلّم تسليمة واحدة..».(١٦) ثم أنه (حتى فى يوم الجمعة) لم يكن يشاهد لا هو ولا أحد ممن حوله فى المسجد الجامع أو فى أى مسجد آخر . وخوفا منه لم يكن آلاف الرجال والنساء الذين يقيمون داخل قصره يصومون أو يصلون فى شهر رمضان ، كما أنه لم يكن يحفظ الفاتحة ، أو أية سورة أخرى من القرآن ، عن ظهر قلب . وكان عدم المبالاة يغلب عليه فى صلواته ، فلا يسجد أو يتهدج أو يظهر الخشوع . ولم تكن علاقاته مع النساء يحكمها زواج أو تنظمها رابطة أخرى يقرها الإسلام . وإذا ما راقت له امرأة أخذها إلى قصرة ضاربا عرض الحائط بزوجها أو أسرتها . وكان يسمح بنهب المسلمين وذبحهم . « فإنه كان .... سفاكا للدماء قتل من الخلق مالايحصيه إلا الله تعالى وتسلط على العلماء والصالحين بالقتل والإهانة والإذلال ...»(١٧) ومع ذلك يشير **تاريخ الفتاش** مرار إلى الأماكن التى كان سنّ على يؤدى فيه الصلاة فى رمضان والأعياد .(١٨)

---

(١٥) تاريخ السودان : الصفحة ٦٤ .

(١٦) المرجع نفسه . الصفحة ٦٧ .

(١٧) المرجع نفسه ، الصفحة ٦٤ .

(١٨) « وطلع على شى على شهر رمضان فى بنبر وصلى العيد فى كُتِّبَغْ... ومضى إلى تَمْسَعَ وطلع عليه رمضان فى تَمْسَعَ وصلى فيها العيد ... ورجع إلى تمسع وطلع عليه شهر رمضان فى تمسع وصلى العيد فيها .. ثم مضى ورجع إلى كاع .. وطلع عليه شهر رمضان وصلى العيد فيه .. وطلع عليه شهر رمضان فى منصور وصلى العيد فى كوكيا .. » تاريخ الفتاش ، الصفحتان ٤٥ و ٤٦.

وهكذا فإن ما يؤخذ على سنّ على أنه لم يكن مسلما صحيح العقيدة، وأنه لم يكن مستعدا لاضطهاد الوثنيين ومكافأة المسلمين بصرف النظر عن أهليتهم . بيد أن **تاريخ الفتاش** يذكر أيضا أنه كان يحتفظ بسجل دقيق للعلماء ، وينظر إلى درجة استحقاقهم ويمنحهم عطايا كبيرة .[١٩] كذلك لاينبغي أن نغفل أن عبد الرحمن السعدى ومحمود كعت قد مجّدا الأساكى «سلاطين السنغى» فى كتابيهما ، ولم يكن ممكنا أن يتم ذلك إلا بالحط من شأن سنّ على .

وقد اعتلى سنّ على العرش فى عام ١٤٦٥ ، وكان عهده الذى استمر سبعة وعشرين عاما حروبا متواصلة أسفرت عن توسيع الإمبراطورية فى كل اتجاه . ويقول **تاريخ الفتاش** إن النصر كان دائما حليف سنّ على ، وأنه لم يعرف الهزيمة أبدا.[٢٠] وكانت قوة السنغى أشد وطأة على الدولة القبلية الوثنية ، دولة الموسى – الذين ربما كانوا الشعب الوحيد الذى قارب أن يكون قومية فى غرب إفريقية . وقد هزم نعسر الأول ، الذى يشير إليه **تاريخ الفتاش** على أنه كُمْدا عُ[٢١] ، فى كُبِ ، وهى قرية صغيرة بالقرب من بحيرة نيبو ، وطارد الموسى حتى بَمْبَرَة ، ولكنهم أفلتوا من الدمار ، واستطاعوا أن يحافظوا على قوتهم والتقهقر فى حالة طيبة انتظاراً لفرصة أفضل . وذلك لأنه على الرغم من أن إمبرطورية السنغى كانت

---

(١٩) «وبعد رحيل الفقهاء إلى بير قلد القضاء الفقيه القاضى حبيب حفيد السيد عبد الرحمن التميمى وبالغ فى تعظيم ابن عمة المأمون والد عَمّارِدّ المأمون حتى لا يقول له إلا أبى وبعد موته حين شرع الناس فى ذكر مساويه يقول المأمون لا أقول فى سنّ على سوء إلا أنه أحسن إلى ولم يعمل فى سوءاً كما عمله فى الناس لايذكره بحسن ولا قبيح لعظم قدره عند أبى البركات الفقيه محمود بذلك لأجل عدالته ...» تاريخ السودان ، الصفحة ٦٦ .

«ومع هذه الإساءة كلها التى يفعل بالعلماء يقر بفضلهم ويقول لولا العلماء لا تحلو الدنيا ولا تطيب ويفعل الاحسان فى آخرين ويحترمهم ...» المرجع نفسه ، الصفحة ٦٧ .

(٢٠) «وكان منصورا وما قابل أرضا قصده إلا خربه وما كسر له جيش كان فيه قط غالبا غير مغلوب لم يترك بلداً ولا مدينة ولاقرية من أرض كنت إلى شبردكُ إلا وقد جرى خيله فيه وحارب أهله وغار عليهم ...» تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤٣ .

(٢١) تقول حاشية فى الصفحة ٨٥ من الترجمة الفرنسية لتاريخ الفتاش إن كلمة كمداع ربما كانت اسم العائلة لنعسر الأول أى لقبه .

قوية فإن الموسى كانوا شعبا أكثر اتحادا ويتمتع بتماسك تفتقر إليه الشعوب الأخرى فى غرب إفريقية.(٢٢) وخلال الأعوام الثلاثة التالية أخضع سنّ على الشعب الوثنى فى جبل هُنْبُرِ(٢٣) الذى كان الدوجون أبرز قبائله . وأثبت المعقل الجبلى الذى احتمت به القبائل أنه مكان يتعذر اقتحامه ، وقنع سنّ على بأن منع هذه القبائل من اكتساح السهول . وتقول بعض المصادر إنه استدار بعد ذلك ضد الفولانى لأنه شعر بتزايد خطرهم وسحقهم تماما .

وكرّس سنّ على الأعوام الثلاثة التى تلت ذلك لمحاولة غزو ولايات مثل بيدان وتِنْد وتُسكُ وغيرها. وقُتل أسكى بغن ، أحد قادته البارزين ، فى أثناء حربه مع الطوارق فى أَزَوَتْ .(٢٤) وعلى الرغم من الهزائم المتكررة التى لحقت بالموسى والطوارق فإنهم لم يكفّوا عن القتال . وقد تمكن الطوارق فى عام ١٤٣٣ من انتزاع تمبكت من مالى ، ونصبّوا عليها حاكماً تابعا لهم . واعتاد هذا الحاكم ، محمد نض، أن يدفع للطوارق جزية مقدارها ثلث موارد المدينة .(٢٥) وعندما ارتقى سنّ على العرش بعث إليه محمد نض بخطاب تهنئة . وفى عام ١٤٦٥ توفى نض وخلفه إبنه

---

(٢٢) «وسمع بخبر سلطان موشى المسمى كَمْدَاعَ وارتحل من ديرّ والتقيا فى كُبِ وهزم جيشه وتبعه إلى بَنْبَرَ ونجا بنفسه حتى دخل فى بلده فى دار مملكته المسمى ارقم ...» تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤٥ .

«وطلع عليه شهر رمضان فى بلد نعسر من بلاد موش وصلى العيد فيه ...» المرجع نفسه ، الصفحة ٤٦.

«وفى السنة الرابعة غزا غزوة نعسر وهو سلطان موش ومشى معه .. فأمره أن يجعلها جهادا فى سبيل الله .....» تاريخ السودان ، الصفحة ٧٤.

(٢٣) «وبلد أبيهما همبر ....» تاريخ الفتاش ، الصفحة ١٤٠ .

«.. وغزى إلى جبل همبر وما والاه ...» المرجع نفسه ، الصفحة ١٨٣ .

(٢٤) « ... ثم دخل فى أثر بيدان حتى انتهى إلى داع .. وقاتل أهل تِنْد .... وهزم تُسكُ جيش أسكى بغن... وخرج بجيشه إلى أَزَوَتْ وقت غزوته ومات أسكى بغن وارتحل شى عال إلى تُسكُ ... »المرجع نفسه ، الصفحتان ٤٥ و٤٦ .

(٢٥) «فأول من ابتدأ فيه الملك كما تقدم أهل ملى .. ثم طوارق مغشرن ودولتهم أربعون عاما وتاريخه من عام سبعة وثلاثين فى القران التاسع (١٤٣٣م) ... ثم سنّ على ... وفوّض أمر البلد على تنبكت كى محمد نض وهو صنهاجى ... وكل ما جاء من الغرامة فلتنبكت ثلثها عادة .. فبعث لسنّ على سرًا أن يأتى حتى يمكّن له تنبكت فتملكه .» تاريخ السودان ، الصفحات ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ .

عمر الذى أرسل إلى سنّ على خطابا حافلا بالتهديدات يقول فيه إن تحت تصرفه قوات تكفل له مواجهة أى غزو ، ولكنه سرعان ماتراجع عن تهديداته لأن الرئيس الطوارقى أكل أكملول أبدى استياءه لأنه لم يكن يحصل إلا على ثلث الموارد فقط ، وأخذ يشن غارات على تمبكت لنهب التجار واغتصاب النساء . وإزاء ذلك الشطط استغاث عمر بغاو . وكان سنّ على يتحين الفرصة فظهر على رأس جيش كبير. [٢٦] وعند ما أحس أكل باقتراب جيش غاو أخذ فى التقهقر ، وتذكر عمر خطابه ورأى أنه من الأفضل أن ينضم إلى الطوارق تاركا المدينة فى أيدى أخيه المختار الذى خضع لسنّ على . ودخل سنّ على تمبكت فى عام ١٤٦٨ .

وكانت تمبكت فى ذلك الوقت مدينة يغلب عليها الإسلام ، وآثر علماؤها المسلمون مغادرتها مع أكل . وعامل سنّ على فقهاء المسلمين باعتبارهم أصدقاء للطوراق ، وحقَّرهم بكل وسيلة ممكنة . [٢٧] وأُختطفت فى تمبكت ثلاثون عذارء مسلمة ، وأرسلن إلى كابَرّ على بعد ثمانية أميال ، وأُمرن بالعودة سيرا على الأقدام ، وعندما عجزن عن السير قتلن جميعا. [٢٨] كما قُتل المسلمون الذين حاولوا الفرار ، ونُهبت المدينة . ويرى السعدى أن ما عوملت به تمبكت أشد مما عاملها به الموسى فى عام ١٣٣٣ ، أو المراكشيون فى عام ١٥٩١ .

---

(٢٦) « ولما تولى السلطنة كتب له تنبكت كُىْ الشيخ محمد نض كتابه بالسلام والدعاء له وطلب منه أن لايخرج باله معه لأنه من جملة عياله ولما توفي وتولى ابنه عمر كتب له بعكس ما كتب أبوه وقال له ... وجميع القوة متوافرة عنده ومن تعرض معه يرا ما معه من تلك القوة ... ودخل (سنّ على) فى تنكبت فى رابع رجب الفرد أو خامسه وهى خامس سنة من دخوله فى السلطنة عمل فيها فسادا عظيما جسيما فحرقها وكسرها وقتل فيها خلقا كثيرا ...» تاريخ السودان ، الصفحتان ٦٤و٦٥. [عمر أورده بانيكار Amer .]

(٢٧) «وتسلط على العلماء والصالحين بالقتل والإهانة والإذلال ...» تاريخ السودان ، الصفحة ٦٤ .

(٢٨) «.. وأمر يوما باتيان ثلاثين من بناتهم الأبكار ليتخذهن جواريات وهو فى مرسى كبر وأمرأن لاياتين إلا على أرجلهن مابرزن من الخدور قط وخدامه معهن يسوقهن حتى وصلن موضعا عجزن عن المشى بالكلية فبعث له بخبرهن فأمر بقتلهن فقتلن جميعا والعياذ بالله ...» المرجع نفسه ، الصفحة ٦٦.[كبر هى كابَرّ ، وقد كتبها بانيكار Kabara ووردت كذلك فى الترجمة الفرنسية . وسماها إبن بطوطة كَابَرَة ، تحفه النظار ، طبعة بيروت ، الصفحة ٦٩٠.]

وبعد أن حطم سنّ على قوة الطوارق قرر أن يسحق الموسى القوة الرئيسية الأخرى فى ذلك الوقت . وقد ألحق بهم الهزيمة ، ولكنهم انسحبوا إلى بمبرة.[٢٩] وفى عام ١٤٦٩ عادوا مرة أخرى يمارسون التهديد ، فهزمهم السنغى وطاردوهم حتى عاصمة ياتنجا . ولكن الموسى لم يكونوا قد قهروا بعد . وفى العام التالى قام سنّ على بشن حملة على الطوارق فألحق بهم هزيمة سهلة إلى الشمال من تمبكت . وفى عام ١٤٧٠ سار إلى بَرْكُنَ عاصمة ياتنجا حيث كان فى انتظاره نصر حاسم . ودمر سنّ على المدينة وأخذ عددا كبيرا من الأسرى . ولكن الموسى واصلوا القتال ، وتحرك ضدهم جيش بقيادة هِيكُىْ حقق نجاحا مماثلا فى الميدان ، ولكنه أخفق مرة أخرى فى تحطيم مقاومة الموسى . وقام جيش ثالث بمهاجمة الفولانى فى ماسنة وتمكن من سحق قوتهم. [٣٠] ولم تكن لدى سنّ على أية ثقة فى الفولانى ، ولم يشغل أحد منهم فى عهده أى منصب فى الإدارة أو القضاء . وظل الفولانى منذ ذلك الحين وحتى سقوط إمبراطورية السنغى أتباعا يتعرضون للإغارة عليهم باستمرار من أجل الرقيق . وبعد ذلك تحولت الجيوش الثلاثة إلى چنى ، لؤلؤة الينچر ، التى كان الحصار مفروضاً عليها باستمرار منذ بداية حكم سنّ على . وواجه جيش سنّ على بعض المقاومة من حكام المقاطعات ، ولكنه هزمهم بسهولة ووصل إلى چنى.[٣١] وظل حاكم

(٢٩) « وسمع بخبر سلطان موشى المسمى كمدع وارتحل من دِيَر والتقيا فى كُب وهزم جيشه وتبعه إلى بَنْبَرَ ونجا بنفسه حتى دخل بلده فى دار مملكته المسى ارقم ... » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤٥ .

(٣٠) « ومضى إلى بركُنَ مدينة التى فيها دار مملكة مُوشكُىْ ودمرها وأسر أهلها وقتلهم شر قتلة ثم خرج إلى مُلِ وهربوا ولم يدركهم ورجع وجهز جيشا عظيما وجعل هيكُىْ يعَت أمير الجيش إلى قتل تَنْك يَعْمَعْ وقتلوه ورجع الجيش إليه وارتحل بهم إلى كِكِرِ ... وقاتل أهل جنّ وقاتل أهل مَلّ مرتين ثم مضى وحمل الفلاتيين إلى كوكو ...» المرجع نفسه ، الصفحتان ٤٦ و٤٧ . [بَركُنَ Barkona : موقع ياتنجا ؛ مُوشكُىْ Mossi - Koi : سلطان الموسى ؛ مُلِ Moli اسم احدى قرى الموسى ؛ هيكُىْ يعت Hikoi Yate ؛ تَنْك يَعمَعْ Tanga - niama : كلمة « تَنْك » تعنى بالموسى أرضا أو مدينة ؛ چنّ هى چنى : مَلّ هى مالى .]

(٣١) « ... ومن حين كانت المدينة (چنى) ما غلب أحد أهلها من الملوك إلا سنّ على وهو الذى طوّعهم وملكهم بعدما حاصرهم فى تلك المدينة سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام على ما قال أهلها ومحلته فى زُبْرْ يقاتلونهم كل يوم حتى يدور بهم البحر فيرتحل بجيشه إلى وضع يقال له نبكه شن سميت كذلك لأجل مكثه فيها فيمكثون هنالك ويحرثون إلى أن ييبس الماء فيرجعون إلى زُبْرُ للمقاتلة وهم كذلك إلى العدد المذكور من الأعوام ... حتى وقعت المجاعة فى أهلها ونقصت قوتهم .. ثم شاور السلطان قيادة وكبراء جيشه فى التسليم لسنّ على فوافقوه على ذلك...» تاريخ السودان ، الصفحة ١٤ .

جنى يقاتل سنّ على طيلة الشهور الستة التالية ، بيد أن المياه ارتفعت فى نهر النيجر وفرقت بين الجانبين . ومع ذلك حاصر سنّ على المدينة بأربعمائة قارب . وتحطمت معنويات جيش جنى ، ودخل سنّ على المدينة مظفرا . (٣٢)

وعوملت جنى على نقيض واضح لما عوملت به تمبكت ، فلم تكن جنى مدينة يمسك فيها العلماء وأنصارهم من أبناء القبائل الصحراوية بزمام السلطة ، وإنما كانت مدينة زنجية أبدت مقاومة جبّارة للحفاظ على استقلالها . وعومل حاكم جنى معاملة الندّ ، ودعاه سنّ على لمجالسته فوق بساطه . (٣٣) ولم تنهب جى ولاعوملت كمدينة مهزومة . وبعد تأكيد حاكم جنى كتابع للسلطان عاد هذا الأخير إلى غاو وأنعم بالهدايا على كثيرين ، وواتى جدّ عبد الرحمن السعدى حظاً إذ حصل على جارية من الفولانى . (٣٤)

وكرّس السلطان السنوات الأربع التالية (١٤٧٢ - ١٤٧٦) لتنظيم الإمبراطورية وتدعيمها . وفى الوقت الذى تم فيه إخماد القلاقل فى منطقة البحيرات ، كان الوثنيون فى جبل هنبر يتعرضون للهجوم بانتظام .

وما إن حل عام ١٤٧٧ حتى عاد الموسى يهددون من جديد ، واكتفوا فى ذلك العام بنهب ولاّته ، المركز التجارى العظيم فى الصحراء الغربية ، ثم نهبوا المنطقة

---

(٣٢) « فما أصبح حتى فاض البحر واحاط بالبلد وحال الماء بينهما وحصرهم شى بأربعمائة سفن لئلا يخرج خارج ولا يدخل داخل ثم مافارقهم إلا أن قهرهم وملكهم ودخل فى سورهم ... » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٥٠ .

(٣٣) « ... فبعث المرسول إليه بذلك فانعم وقبل ثم خرج إليه مع كبراء جيشه فلما قرب إليه نزل ومشى إليه برجله فلقيه بالترحيب والإكرام فلما رآه شابا حديث السن قبضه واجلسه إلى جبنه فوق بساطه ... هذا هو السبب فى مجالسة سلطان سغى مع سلطان جنى على بساط واحد ... فبعث سن على حصان سرجه لركوب زوجته إليه فى المحلة فلما وصلته رد الحصان لسلطان جنى عطيةً مع جميع آلاته وهى عند أهل جنى إلى الآن .. » تاريخ السودان ، الصفحتان ١٤ و ١٥ .

(٣٤) « ويفعل الإحسان فى آخرين ويحترمهم ولما غار على الفلانيين من قبيلة سنفنتير بعث كثيرا من نسائهم لكبراء تنبكت وبعض العلماء والصالحين هديًا لهم وأمرهم أن يتخذوهم جوارى فمن لا يرعى أمر دينه اتخذها كذلك ومن يرعى أمر دينه تزوج منهم جد جدتى أم والدى السيد الفاضل الخير الزاهد الإمام عبد الله البلبالى تزوج التى بعثها له واسمها عايشة الفلانية» المرجع نفسه ، الصفحة ٦٧ .

بأكملها وسقطت ولاته في أيديهم . [٣٥] وفي ذلك الوقت فكّر سنّ علي في شق قناة من رأس الماء على شاطئ بحيرة فاجيبين إلى ولاته بتحويل النيجر إلى أحد مجاريه السابقة . ومرماه من ذلك هو إيقاف غارات الموسي لأن طريق المواصلات كان يمكّن السنغي من تركيز قواتهم على وجه السرعة . ولكن ذلك لم يخرج إلى حيز التنفيذ ، لأن حركة الموسي كانت بطيئة وهم في طريق العودة بسبب ضخامة الأسلاب والرقيق ، فهاجمهم سنّ علي وأرغمهم على الفرار. [٣٦]

وفي عام ١٤٨٤ أغار سنّ علي مرة أخرى على الدوجون[٣٧] . وفيما بين عامي ١٤٨٨ و ١٤٩٢ حارب الفولاني والطوارق وكُرْمَ ، وتوفي وهو في طريق عودته من حملة كُرْمَ.[٣٨] ويعتقد دبلافوس ، استناداً إلى السعدي ، أنه غرق أثناء عودته من كُرْم ، وإن تكن الأنهر لا تفيض في نوفمبر . ولا يقول الفتاش أكثر من أن سنّ علي مات فجأة ، قضاء وقدرا.[٣٩] وربما كان لمحمد الطوري علاقة ما بهذه الميتة المفاجئة .

---

(٣٥) « ... ودخل كَبْرَ سنة اثنين وثمانين وثمانمائة . (١٤٧٧م) وهي السنة التي دخل موش في سامّ .. وخرج من كبر سنة خمس وثمانين وثمانمائة وفيها دخل موش في بير .. حاصرهم شهرا ..» المرجع نفسه ، الصفحتان ٦٨و٦٩ [بير الواردة هنا هي ولاته عند السنغي] .

(٣٦) «ثم شرع في حفر بحر رأس الماء للوصول إلى بير في البحر وهو يشتغل بذلك بالجد والاجتهاد في قوة عظيمة فإذا الخبر جاءه أن موشكُي عزم إليه في جيشه يغزو ... فرجع لملاقات موشي كي فالتقى معه ... فاقتتلوا هنالك فهزمه سنّ علي وهرب وتبعه حتى دخل في حد أرضة ...» المرجع نفسه ، الصفحة ٧٠ .

(٣٧) الدوجون : قبيلة زنجية تعيش في المنطقة الجبلية حول بانديا جارا وهمبرى على بعد ١٢٠ ميلا جنوب غرب تمبكت ، حيث كانوا يحتفظون بطابية محصنة للوثنية في مواجهة ضغوط الإمبراطوريات الإسلامية .

(٣٨) « ... ثم غزا كُرْمَ فطلبهم وخربهم وهي آخر غزوته ... وفي سنة ثمان وتسعين وثمانمائة (١٤٩٢م) توفي سن علي بن سنّ محمد داعوا راجعا من غزوة كُرْمَ بعد ما حارب الزغرانيين والفلانيين وقاتلهم ولما وصل بلاد كُرْمَ في رجوعه أطلق عليه سيل هنالك في الطريق يسمى كُنِ فهلكه ... » تاريخ السودان ، الصفحتان ٧٠و٧١ .

(٣٩) « وهي حينئذ في بلد يقال له قُنُ من بلد الحجر فمات في يومه وأهلكه موت الفجاة فلما تحقق جنده بموته دفنوه في مكانه ... وكان موته في شهر المحرم افتتاح سنة الثامن والتسعين بعد ثمانمائة من الهجرة (١٤٩٢م) انتهى وفي درر الحسان في أخبار بعض ملوك السودان أن موت شي عال كان في سنع تسع وتسعين من القرن الثامن فمكث فيها سبعا وعشرين سنة وأربعة أشهر وخمسة عشر يوما ... » تاريخ الفتاش ، الصفحتان ٥١و٥٢ .

لم يكن سنّ على حاكما عظيما فقط ، بل كان إدارياً عظيما أيضا ، ويفضل المؤرخون إظهاره كحاكم جبار ، وأن يعزوا الفضل كله إلى أسكيا محمد . وهكذا فإن الانتصارات التى حققها سنّ على تنسب إلى عبقرية محمدالطورى ، وبالمثل ينسب كل ما قام به من تنظيم إدارى للإمبراطورية إلى أسكيا محمد . (٤٠) ولكن محمد الطورى لم يمكن سوى واحد من القواد ، وربما كان دندفارِ افنْبَ أكثر امتيازا ، بل إن محمد الطورى عمل تحت إمرة دندفار أفنب . (٤١)

كانت حملات سنّ على موجهة فى المقام الأول ضد الوثنيين وفى مقدمة هؤلاء جمعيا الدوجون والفولانى والكُرْمَ أعداؤه الأساسيون ، فى حين كان العدو الذى يتعين عليه مواجهته هو الطوارق البدو الذين كانوا خطراً دائما على السكان المستقرين على الرغم من اعتناقهم الإسلام . وهكذا كان سنّ على بتحطيمه قوة الوثنيين أحد المهندسين الرئيسيين لصرح القوة الإسلامية . ومع ذلك كان من كبار المشتغلين بالسحر ، وطبقت شهرته كساحر الآفاق . وقد عرف منحنى النيچر ، لاسيما بالقرب من غاو ، ممارسة السحر . ويقال إن أحد الفراعنة حصل على ساحر من هذه المنطقة .(٤٢) وعلى أية حال فقد أصبحت مأثورات السحر المحلية مرتبطة بالإسلام، ومن الممكن أن يكون سنّ على ساحراً ومسلماً صالحاً فى آن واحد ، وهو ليس المسلم الوحيد الذى انغمس فى السحر . من ذلك أن مايات (٤٣) البرنو بدورهم

---

(٤٠) «فتولى ابنه أبو بكر داعو السلطنة فى بلد دَنْغْ وكان الأسعد الأرشد محمد بن أبى بكر الطورى وقيل السلنكى من كبار قياد سنّ على فلما بلغه ذلك اضمر فى نفسه الخلافة وتحيل فى ذلك بأمور كثيرة فلما فرغ من إبرام حبل تلك الحيل توجه إليه فيمن كان معه من خواصه فغار عليه فى البلد المذكور ... فانهزم جيشه وولى هاربا حتى وصل قرية يقال لها كافى وهى بقرب كاغ فوقف هنالك حتى جمع عليه جيشه ثم التقى معه فيها فجرى بينهما حرب شديد وقتال عظيم ومعركة هائلة حتى كادوا يتفانون ثم نصر الله تعالى الأسعد الأرشد محمد بن أبى بكر وهرب سنّ أبوبكر داعو ... إلى أن توفى فتملك الأسعد الأرشد يومئذ فكان أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ...» تاريخ السودان ، الصفحتان ٧١ و ٧٢ .

(٤١) «ثم ارتحل إلى بحر لولّ وجمع جيشا كثيفا واخرج دندفار افنب وجعله أمير ذلك الجيش ... ثم جهز جيشا وأرسل دندفار افنت إلى قتل بيدان فى بلد تُومّ ومضى فارن افنب إلى دند لأمر أرسله شى عال به ..» تاريخ الفتاش ، الصفحتان ٤٦ و٤٧. [دندفار افنب : دند مقاطعة بأقصى جنوب السنغى ؛ فارِ أوفارى بمعنى حاكم أو رئيس . وبذا فإن دندفار افنب يعنى افنب حاكم دند .]

(٤٢) «حتى انتهى بهما القدر إلى بلد كوكيا وهو قديم جدا فى ساحل البحر فى أرض سنغى كان فى زمن فرعون حتى قيل حشر منه السحرة فى مناظرته مع الكليم عليه السلام» تاريخ السودان ، الصفحة ٤ . [المقصود بالكليم سيدنا موسى عليه السلام.]

(٤٣) مايات البرنو : مايات جمع ماى ومعناه السلطان ، والمقصود هنا سلاطين البرنو [أنظر ، الفصل السادس أدناه .]

اشتهروا بالسحر . ويشير ملفانتى إلى أن أحد حكام ولاته كان يستطيع عن طريق السحر التغلب على من يغزو بلده . بل إن الحاج عمر كان يوزع التمائم على جنوده لحمايتهم من العدو .

وعقب وفاة سنّ على تولى السلطنة إبنه سنّ بارٌ . (٤٤) ويقول محمود كعت إن سنّ بار لم يكن مسلما ، فقد رفض اعتناق الإسلام على الرغم من أن العلماء طلبوا إليه ذلك ثلاث مرات . (٤٥) وقدم الوزراء جميعا الولاء لسنّ بار ماعدا وزير واحد.(٤٦) وبعد أربعة أشهر من ولايته ثار ضده محمد الطورى . وتمكن الملك بمؤازرة جميع أتباع الإمبراطورية وأمرائها من هزيمة الأسكيا ، ولكن الأسكيا انتصر فى معركة ثانية . أما دندفار أفنب الذى قاد جيوش سنّ بار فقد وجد ميتا فى النيجر ، وتقهقر سنّ بارٌ إلى أير (٤٧) ، التى تقع

(٤٤) هو نفسه أبو بكر داعو . [أنظر الحاشية ٤ - ٤٠ أعلاه .]

(٤٥) « مانزل القتال بينهما قط إلا بعد ما أرسل العالم الولى ... إلى شى بار يدعوه إلى الإسلام ... وامتنع وهم بقتله ... ورجع إلى أسكى محمد وبلغة الخبر من إباية شى بار وما فعل به وبعد ذلك أرسل اسكى محمد العالم الصالح ... ألفا صالح جور إلى شى بار أيضا ثانيا وأتاه وبلغة رسالة أمير اسكى محمد فما زاد إلا عتوًا وإباية وامتناعا وتجبرا ... ولما بلغ الأمير اسكى مارأى من شى بار جمع أهل مشورته ... وشاورهم فيما يفعل هل يقاتل شى بار أو يرسل إليه ثالثا واتفقوا على أن يرسل إليه رسولا ثالثا يداريه ويلين له الكلام .. فارسلنى إليه أى أنا الفقير المحتاج الفع كعت ... وبلغته رسالة أمير المؤمنين اسكى ... وتلطفت له رغبة فى أن يهديه الله وامتنع وتغيظ ...» تاريخ الفتاش ، الصفحتان ٥٣و٥٤ . [الفقير المحتاج الفع كعت المشار إليه فى هذه الفقرة هو محمود كعت مؤلف تاريخ الفتاش ، هذا وقد سبقت الإشارة إلى أن كلمة الفع تعنى «الفقيه» ، وقيل «الفاهم» أيضا .]

(٤٦) « وله وزراء يومئذ تنيف على عشرة وزير .. وكلهم مع شى بار إلا منس كور وحده فإنه هرب إلى أمير اسكى محمد وبايعه وأما درم كى سندى ... وغيرهم وهؤلاء المذكورن كل أمير بحدته له جيش عرمرم وكلهم مع شى بار» ، المرجع نفسه ، الصفحة ٥٤ .

(٤٧) « ثم تجهز أمير المؤمنين اسكى الحاج محمد وأمر بضرب الطبل واستجاش جيشه عليه فى ساعتئذ وكلهم بايعوه على الموت ثم ركب وتوجه بجيشه المنصور نحو شى بارٌ فالتقى الجمعان ... ودخلت بين الجيش حرب عظيمة واعانه الله على شى بار وهزم جيشه ... وكان مع شى بارٌ دندفار افنب وهو من أشجع الناس رمى بنفسه يومئذ فى البحر ومات فيه .. ولما هزم الله جيشه هرب بنفسه إلى أير فبقى هناك إلى أن توفى فتملك الأرشد الأسعد يومئذ .. » المرجع نفسه ، الصفحة ٥٥ .

بين غَنْغِية[٤٨] وتِلَّبرى – الموطن الأصلى للسنغى – وهناك أسس مملكة لم تعمِّر طويلا (١٤٩٣ – ١٥٠٠) .

وقد كان محمد الطورى قائدا من السركلى ، ولكن أساطير السنغى تؤكد أنه إبن أخت سنّ على . كما يذكر **تاريخ الفتاش** أن سنّ على ومحمد الطورى لهما أصل مشترك. [٤٩] إذ تقول الأساطير إن أخت سنّ على تزوجت بجِنّى ، وظهرت نبوءات بأن إبنها سيكون سببا فى وفاة أخيها . ولذلك كان سنّ على يقتل أبناءها واحد بعد الآخر ، ولكن من حسن طالع محمد الطورى أنه ولد فى نفس الوقت الذى ولد فيه ابن إحدى وصيفاتها ، ووافقت هذه الوصيفة على أن تضع إبنها مكانه . وعندما شبّ محمد الطورى نبح سنّ على ، ولما طالب أولاد سنّ على بالثأر طالبت أخته بدورها بالثأر لأولادها الستة . وكان لذلك ثلاثة جوانب ففى المقام الأول كان محاولة لإضفاء غطاء من الشرعية على الأسكيا بجعله إبن أخت سنّ على ؛ وكان ثانيا مسوِّغا شرعيا لاسكيا كى يقتل سيده ؛ وكان أخيراً تبريراً إضافيا لزيارة الأماكن المقدسة .

وتقول الأساطير إنه عندما وصلت أنباء اغتصاب السلطة إلى القصر صاحت أخوات سنّ قائلات أسكيا ومعناها المغتصب . ويقال إن القائد اتخذ هذه الكلمة لقبا لأسرته الحاكمة. [٥٠] وعلى الرغم من أن السعدى ينكر هذه الرواية فإن كعت يقول

---

(٤٨) غَنْغِية : وردت فى تاريخ الفتاش فى صيغ مختلفة منها : كوكيا . الصفحتان ٥٤و٤٦ ؛ كوكى ،الصفحة ٥٨؛ كيكى ، الصفحة ٩٤ . ووردت فى تاريخ السودان : كوكيا ، الصفحتان ٤ و٩٩ . وغنغية هى العاصمة القديمة للسنغى . ثم حلت غاو محلها . وكثيرا ماكانت تستخدم مقرا للملوك بعد نقل العاصمة إلى غاو (بداية القرن الحادى عشر) .

(٤٩) السركلى : ويقال أيضا السوننكى أو الواكورى .[أنظر ، الحاشية ١ – ١٢٦ أعلاه .]

«فاعلم أن شى واسكى محمد ومور هوجار جدّ أهل مُورِكُيْرَ وفقهاؤها كلهم من أصل واحد» تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤٨ . [شى هو سنّ على : محمد الطورى هو أسكيا محمد .]

«فتولى إبنه (إبن سن على) أبو بكر السلطنة فى بلد دَنْغَ وكان الأسعد الأرشد محمد بن أبى بكر الطورى وقيل السَّلَنكيّ من كبار قيأد سنّ على ...» تاريخ السودان ، الصفحة ٧١.

(٥٠) «ثم نصر الله الأسعد الأرشد محمد إبن أبى بكر وهرب سنّ أبو بكر داعوا إلى أَيَنْ فبقى هنالك إلى أن توفى فتملك الأسعد الأرشد يومئذ فكان أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ولما بلغ الخبر بنات سنّ على قالت أسكيا معناه فى كلامهم لايكون اياه فلما سمعه أمر أن لا يلقب إلا به فقالوا أسكيا محمد ...» المرجع نفسه ، الصفحة ٧٢. [بلدة «أين» الواردة فى هذا الاقتباس هى نفسها «أَيَر» الواردة فى تاريخ الفتاش ، الصفحة ٧٠ ومواضع أخرى ؛ كذلك وردت «أير» فى تاريخ السودان . «وفى السادسة غزا إلى أير» ، الصفحة ٧٥ . أما فى الترجمة الفرنسية فقد وردت فى صيغة « أين Ayan » ، الصفحة ١١٧، و «أير Ayar » ، الصفحة ١٢٤ .]

إن أسكيا كان لقبا ، كما يقول إن أسكيا بغن أرسل على رأس حملة ضد تُسكُ ولكنهم أوقعوا به الهزيمة . (٥١) وحاول الأسكيا فى البداية الاعتماد على سحر سنّ، ولكن لما كان أبناء سنّ على قد أبطلوا مفعول جميع التعاويذ ، فقد عجز عن أن يفعل شيئا .

وكانت المشكلة الأولى التى واجهت الاسكيا هى إضفاء الشرعية على اغتصابه السلطة . واستقر رأيه على أن أفضل وسيلة لذلك هى أداء فريضة الحج والحصول على اعتراف الخليفة به سلطانا . ورأى أيضا أن من الأمور الجديرة بالاهتمام العمل على استمالة المسلمين الذين يستحوذون على جميع المناصب الإدارية الهامة ويسيطرون على الحياة الاقتصادية فى البلاد . وقد حقق ذلك بالإنعام على العلماء والمرابطين بالرقيق والعطايا الكبيرة ، وبالحرص على إعلاء مكانة الإسلام فى البلاط ، وأضفى على نفسه صفة أمير ورع ، وذلك لحمل العلماء على إدراك ما عاد به التغيير من مكاسب . وخلال أربع سنوات كان قد دعم سلطته بما يكفى لأن يترك أخاه كنفار عمر كنائب له وأن يخرج إلى أداء فريضة الحج .

ولم تترتب على أداء أسكيا محمد لفريضة الحج أية اضطرابات فى البلاد . وقد صحبه فى رحلته ثمانمائة فقط من رجاله ، وحمل معه ثلاثمائة ألف مثقال ذهبا من كنوز سنّ على . (٥٢) ويزعم السعدى أنه كان أكثر سخاء فى الأماكن المقدسة من منسا موسى .(٥٣) ولكن ذلك يبدو مشكوكا فيه لأن كرم موسى أصبح من قبيل الأساطير .

---

(٥١) « ... ثم اخرج أسكى بغن وأرسله إلى تسك فانظر اسم اسكى فى وقت شى وزمنه وهو بخلاف ماعليه جل الناس بأن أسكى محمد هو أول من لقب به وتسمى بذلك حتى ذكروا سبب تسميته وتلقيبه بذلك .. وهزم تُسكُ جيش أسكى بغن ... ومات أسكى بغن ... » *تاريخ الفتاش* ، الصفحتان ٤٥و٤٦.

(٥٢) « والجندى الذى ذهب بهم معه ألف وخمسمائة رجال خمسمائة فرسانا وألف رجلى منهم .. وأما المال فثلاثمائة ألف ذهبا التى أخذه عند الخطيب عمر من مال سنّ على الذى تحت يده ... » تاريخ السودان ، الصفحة ٧٣ .

(٥٣) « فورخ أهل المشرق مجيئه ذلك وتعجبوا من قوته فى ملكه ولكن ما وصفوه بالجود والكرم لأنه ماتصدق فى الحرامين مع كثرة ملكه إلا بعشرين ألفا ذهبا بنسبة ما تصدق به أسكيا الحاج محمد فيهما وهو مائة ألفا ذهبا .. » المرجع نفسه ، الصفحة ٧.

وفى مكة ابتاع حديقة وأقام تكية لينزل بها الحجاج القادمون من بلاد السودان.(٥٤) وأمضى الأسكيا وقته بين العلماء والتقى بالسيوطى الذى تأثر كثيرا بآرائه ، واستطاع إغراء عائلة من الأشراف بمرافقته عند عودته . كما قدم الولاء للخليفة العباسى المتوكل الذى عينه من قبله واليا على بلادالسودان .(٥٥) وهكذا فإنه بالنسبة للسودان أصبح الأسكيا هو السلطان الشرعى .

وواصل أسكيا محمد تدعيم مكانته بين العلماء . فكان أول حاكم فى غرب إفريقية يرغم النساء على العزلة فى الحريم ، وأصبح على نساء الطبقة العليا ارتداء الحجاب . كذلك أخذ بوجهة النظر العربية بأن وضع الأب ، وليس الأم ، هو الذى يحددما إذا كان الطفل يولد حراً أم عبدا ، فكان الطفل الذى يولد لأب حر وأم جارية يعد حراً .(٥٦) وأنعم على العلماء بعطايا سخية من بينها أعداد كبيرة من

---

(٥٤) « فتصدق الأمير فى الحرمين من ذلك المال بمائة ألف ذهبا واشترى جنانا فى المدينة المشرفة وحبَّسها على أهل التكرور وهى معروفة هنالك واتفق بمائة ألف واشترى السلع وجميع ما يحتاج إليه بمائة ألف ... ثم لقى كثيرا من العلماء والصالحين منهم الجلال السيوطى ... » المرجع نفسه ، الصفحة ٧٣ .

« فلما ملكه الله جميع أرض سُنى وتمكن فى السلطنة عزم على الذهاب إلى بيت الله الحرام ... وتهيأ وخرج فى العام .. ومعه من العلماء ... ومن العبيد الخدام ثمانمائة عبد ورئيسهم ... وتصدق على فقراء الحرمين بمائة ألف دينار ذهبا واشترى بمثلها جنانا وبيوتا وحبَّسها على الفقراء والعلماء والمساكين .. » *تاريخ الفتاش* ، الصفحة ١٦ .

(٥٥) « ولقى فى تلك الأرض المبارك الشريف العباسى فطلب منه أن يجعله خليفته فى أرض سغى فرَضِى له بذلك وأمره أن يسلم فى أمرته التى هو فيها ثلاثة أيام ويأتيه فى اليوم الرابع ففعل وجعله خليفته وجعل على رأسه قلنسوة وعمامة من عنده فكان خليفة صحيحا فى الإسلام .. » تاريخ السودان ، الصفحة ٧٣ .

« حتى اتفق جميع علماء عصره على أنه خليفة وممن صرح له بذلك الشيخ عبد الرحمن السيوطى والشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلى والشيخ شمهروش الجنّى والشريف الحسنى مولاى العباس أمير مكة ... وأما الشريف الحسنى مولاى العباس فكان مع أمير المؤمنين وخليفة المسلمين أسكى الحاج محمد جالسا بحذاء الكعبة يتحادثان فقال له الشريف مولاى العباس ياهذا أنت الحادى عشر من الخلفاء الذين ذكر رسول الله صلى وسلمّ ... ثم خرج يوم الجمعة ونادى أسكى الحاج محمد واجلسه بمسجد البلدة الشريفة مكة وجعل على رأسه قلنسوة خضراء وعمامة بيضاء وأعطاه سيفا وأشهد الجماعة الحاضرين أنه خليفة بأرض التكرور ..» *تاريخ الفتاش* ، الصفحة ١٢ .

(٥٦) « وأمر لأهل موركُيْرَ أن يتزوجوا ماشاء فيتبعهم أولادهم وهو موجود إلى الآن لم يتبدل .. » المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

« ثم قال أسكى للشيخ المذكور فما حال من أدعى من هذه القبائل أنه ابن حرّ أو حرّة فقال الشيخ أما من ثبت أن اباه حرّ وأمه من هذه القبائل فملكه لك سائغ وأما من ثبت أن أمه حرّة وأباه من هذه القبائل فان كان قد أقام فى دار أبيه وعمل بعمله فلك أيضا ملكه وان كان قد خرج من دار الأب إلى دار الأم فليس لك ملكه .. » المرجع نفسه ، الصفحتان ١٤و١٥.

الرقيق ومساحات ضخمة من الأرض . وفى عهده حدث التدعيم الحقيقى لمجتمع الرقيق فى السودان . وتم تعيين شيخ للإسلام يقيم فى تمبكت ، وتكون له السلطة العليا فى أمور الدين جميعا . وكانت تمبكت فى ذلك الوقت مدينة تسود فيها التأثيرات البدوية الموريتانية ، وظلت كذلك لفترة طويلة . وهو بإنشائه منصب شيخ الإسلام ، الذى كان يشغله إما عالم موريتانى أو خاضع للنفوذ الموريتانى ، إنما كان يدمر إمبراطوريته . كذلك كانت له مراسلات مع **السيوطى**،(٥٧) ودعا **المغيلى**(٥٨) إلى بلاطه كضيف رفيع المقام ، وهو الرجل المسؤول عن مذبحة يهود توات وعن اعتناق ممالك الهوسا للإسلام .

وهكذا كان أسكيا محمد التجسيد الكامل للروح الإسلامية فى السودان . وبينما امتدح المؤرخون العرب منسا موسى سلطان مالى باعتباره داعية الإسلام فى غرب بلاد السودان ، وأفاضوا فى الثناء عليه ، فإن الأسكيا واتاه الحظ بأن امتدحه المؤرخون الذين عاصروه . وكان عائد تقواه ، أو ربما عائد إرضاء مطالب العلماء ، عائدا ضخما نُسيت معه تماماً جريمة قتله لسنّ على ، وقُبلت أسرته كصاحبة السيادة الشرعية . وفضلا عن ذلك كان المؤرخون والعلماء ينتمون إلى هذه الطبقة التى استبدت بها مشاعر الكراهية تجاه **على بير** (٥٩) ولطخت إسمه ، فى حين رفعت منزلة أسكيا محمد لا باعتباره قائدا عظيما فقط ، وإنما حاكما عظيما أيضا . بل إن بارث قال بعد ذلك بثلاثة قرون إنه أعظم الحكام الزنوج .

---

(٥٧) جلال الدين عبد الرحمن السيوطى : (١٤٤٥ – ١٥٠٥) ، ولد ومات بمصر . تنقل فى الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب طلبا للعلم . ونبغ فى علوم كثيرة . انقطع عن الناس فى الأربعين من عمرة ليتفرغ للتأليف ، ووضع نحو ستمائة مصنف من أهمها الاتقان فى علوم القرآن وحسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة . يعد الآن ، وبخاصة فى أسيوط ، من الأولياء الصالحين .

(٥٨) محمد بن عبد الكريم المغيلى : توفى بتوات فى عام ١٥٠٣ . فقية إسلامى ينتسب إلى قبيلة مغيلة فى تلمسان . عرف بمعاداته اليهود وبتنفيذه مذبحة لهم فى توات فى عام ١٤٩٢ ، وبعد ذلك جاء إلى غاو .

(٥٩) على بير أى على الكبير ، والمقصود هنا سنّ على .

وفى عام ١٤٩٨ بدأ أسكيا محمد الجهاد ضد الموسى لتوطيد مركزه كحاكم مسلم . فدولة الموسى كانت تواصل الازدهار دون أن يطرأ عليها أى انكماش . لذلك قرر الأسكيا مهاجمتها ، فعن طريق اعتناق الكفار للإسلام يمكن تأمين أسرته ضد الخطر الذى يمثلونه . وتلقى نعسر إمبراطور الموسى إنذاراً من الأسكيا يطلب منه فيه نبذ دينه واعتناق الدين الحق . ورد عليه نعسر بأن تلك مسألة لا يمكنه أن يتخذ قرارا بشأنها إلا بعد استشارة أرواح الأسلاف . «ثم مشى إلى بيت صمنهم مع وزرائه»[٦٠] لأداء الصلوات ، وهناك أشارت عليه أرواح الأسلاف بالقتال . وكان نعسر يجد متعة وتسلية فى نهب إمبراطورية السنغى ، فأرسل ردا ينطوى على التحدى ، وهو رد كان يترقبه الأسكيا فقام بغزو ياتنجا.[٦١] واستطاع الموسى أن يقاتلوا قتالا شديدا ، وفى النهاية حقق الأسكيا نصرا ، غير أنه كان واحداً من تلك الانتصارات الأقرب إلى الهزيمة والتى كثيرا ما حققها . ولم تكن لدى الموسى رغبة لا فى اعتناق الإسلام ولافى الاعتراف بالأسكيا سيّداً عليهم ، وإنما كانوا مستعدين لمواصلة القتال ، وتحركوا إلى مواقع فى الجنوب يسهل الدفاع عنها .

وبعد أن أخفق أسكيا محمد فى محاولاته ضد الموسى استدار إلى باغنَة[٦٢] ، وهى منطقة إلى الغرب من ماسنة ، وموقعها لا يسهل الدفاع عنه ، ويشكل السكان المستقرون فيه جزءاً من كل إمبراطورية قامت فى بلاد السودان . ولم يجد الأسكيا مشقة فى غزوها ، ثم استدار إلى أير فى الصحراء.[٦٣] ووافق سلطان أغادس على دفع جزية مقدارها خمسون ألف دوكة . وهذه هى المرة الأولى التى يتم فيها غزو أير على أيدى السودان . غير أن المملكة الصحراوية لم يكن فى مقدورها دفع هذا المبلغ الضخم ، وثار أشراف الطوارق ضد السلطان محمد بن عبد الرحمن وذبحوه . ونقل السلطان الجديد عاصمة ملكة إلى أغادس وتوقف عن دفع الجزية .

---

(٦٠) تاريخ السودان ، الصفحة ٧٤ .

(٦١) « وفى السنة الرابعة غزا غزوة نعسر وهو سلطان موش ومشى معه السد المبارك مور صالح جور فأمره أن يجعلها جهادا فى سبيل الله فلم يخالفه في ذلك .. » المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

(٦٢) وردت باغن فى تاريخ السودان ، الصفحتين ٩ و ١٠ ؛ وكذلك فى *تاريخ الفتاش* ، « وفى السنة الخامسة غزى باغن فار. » الصفحة ٧٠ .

(٦٣) « وفى السادسة غزى تلظ فى أير » المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

« وفى السادسة غزا إلى اير وأخرج تلظ فى سلطنته ..» *تاريخ السودان* ، الصفحة ٧٥ .

وفى السنوات التالية ركز الأسكيا جهوده على تحطيم إمبراطورية مالى . ففى عام ١٥٠١ أرسل أخاه عمر لغزو مقاطعة زارَ . ودافع الحاكم عن زان ، عاصمة المقاطعة ، دفاعاً قوياً وأوقع الهزيمة بعمر . عندئذ جاء الأسكيا بنفسه ، وبعد مقاومة قصيرة سقطت المدينة ، وكان من بين الأسرى الذين وقعوا فى يده إبنة المنسا الحاكم .[٦٥] وفى عام ١٥٠٦ أرسل الأسكيا قواته ضد مقاطعة أخرى فى مالى ، هى غَلَمَ،[٦٦] وخربها وضمها إلى غاو . وفى عام ١٥١٢ أرسل أخاه داوود لغزو مقاطعات مالى ، وتلقى العون من مغشرن كُىْ،[٦٧] أحد أتباعه وتزوج بإحدى بناته. فمنذ أن قام سنّ على باقضاء أكل[٦٨] رئيس الطوارق أذعن المغشرن لسيادة السنغى . ولما أحس إمبراطور مالى بأن قوته تتداعى طلب إلى تَنْيِضْ[٦٩] أن يعلن العصيان على السنغى . وفى العام نفسه قام تَنْيِضْ الذى ادعى الخلافة بتحدى إمبراطورية السنغى . وكان تنيض أميراً مقداما من الفوتا ويتمتع بطاقة عظيمة

---

(٦٥) «وفى السابعة بعث أخاه عمر كمزاغ إلى زان ليقاتل فتى قَلَىّ قائد سلطان ملىّ على المدينة فامتنع منه .. فأرسل الخبر للأمير أسكيا .. فجاء الأمير بنفسه فقاتله وغلبه وخرب البلد ورفع دار سلطان ملىّ وسبا أهله وفى هذا السبى جاءت مريم داب والدة ابنه إسماعيل .. » المرجع نفسه ، الصفحة ٧٥ .

(٦٦) غَلَمَ : فى اقليم باكل بالسنغال شرق فوته ، كتبها العرب «قلنبو» . لا يزال التكرور يطلقون على سكان منطقة غلم إسم غلمبو . وردت «كلنبوت» فى تاريخ السودان «وفى الثالثة عشرة غزا كلنبوت وهى ملى .. .» الصفحة ٧٦ . وكذلك فى *تاريخ الفتاش* ، الصفحة ٧٥ .

(٦٧) مغشرن كى : المغشرن (أو المقشرن) إحدى قبائل الطوارق بالقرب من النيجر ؛ كىْ تعنى الرئيس أو السلطان ، ومغشرن كى هو سلطان المغشرن «ذكر تنبكت ونشأتها ، فنشأت على أيدى توارق مقشرن ..» تاريخ السودان ، الصفحة ٢٠ ؛ «وهرب بإسماعيل إلى بير مغشرن كى» ، الصفحة ٨٣ . «وبنت زوجة مقشرن كى ماتت ببلدة تنبكت .. » *تاريخ الفتاش* ، الصفحة ١١٨ .

(٦٨) أكل : «وفى آخر دولة أهل ملى بتنبكت أخذ توارق مغشرن يغيرون عليهم ويفسدون فى الأرض من كل جهة وسلطانهم أكل أكملول» تاريخ السودان ، الصفحة ٩ ؛ «أما أكل سلطان توارق ... » المرجع نفسه ، الصفحة ٢٢ .

(٦٩) تَنْيِضْ : ورد فى المتن Tenguella ؛ وورد فى *تاريخ الفتاش* «تنْيِضْ» ، الصفحة ٤٠ ومواضع أخرى ؛ وورد فى ترجمته الفرنسيه Téniedda أو Tenguella ، الصفحة ٧٢ والحاشية : أما فى تاريخ السودان فقد ورد فى نصه العربى تينض ، الصفحة ٧٧ ، وفى ترجمته الفرنسية Tayenda ، الصفحة ١٢٧.

واستقر مقامة فى كِنك[٧٠] . وأشاع تنيض الدمار فى مملكة كياج[٧١] وحولها إلى صحراء . واستغاث حاكم كياج بكنفار عمر الذى قاد حملة إلى كِنك ، وهزم تنيض وفقدت مالى مقاطعاتها الشمالية.[٧٢]

وبينما كان الأسكيا يحرز الانتصار تلو الآخر على دولة مالى الإسلامية ، كانت حملاته ضد كل دولة وثنية تنتهى بكارثة . ففى عام ١٥٠٤ شن الحرب ضد الوثنيين فى بُرْكُ [٧٣]، وهُزِم جيشه ، ويقول الفتاش إنه لم يتمكن من الهرب إلا بسبب قدراته السحرية . ويبدو أنه ضحى طواعية بجيش السنغى حتى يكف شعب دندى ومؤيدو الأسرة الحاكمة الشرعية عن أن يكونوا قوة تهدد عرشه . وفى هذه الحملة فقد الأسكيا إحدى زوجاته المفضلات - أم الأسكيا المقبل إسحاق - التى وقعت أسيرة فى أيدى الوثنيين فى بُرْكُ .

وفى عام ١٥١٣ شن الحرب على كاتسنا[٧٤] التى كانت خاضعة لسيادة السنغى، ولكنها أعلنت العصيان . وتمكن خمسون فارسا من أن يستعيدوا ولاءها . ثم استدار الأسكيا إلى أير التى توقفت عن دفع الجزية ، وتمكن من غزوها بمساعدة كَنْتَ

---

(٧٠) كِنك : «وهو سلطان فوت ويقال فوط كِنك وكان قويا منصورا شجاعاً ذا بأس خرج عن ملك فوط وجاء إلى كِنك وأقام بها وتسلطن هناك ...» تاريخ الفتاش . الصفحتان ٧٦و٧٧ .

(٧١) كياج : «ولا يتولى ملك كياج إلا عبيده» ، المرجع نفسه ، الصفحة ٣٩ .

(٧٢) «وفى الثامنة عشر قتل أى تنيض الكذاب الذى ادعى النبوة والرسالة لعنة الله عليه قتله كنفار عمر كمزاغ بغير علم أسكى وأمره خرج من تندرم إليه ونصره الله عليه ... وسبب خروجه أى كنفار عمر وذلك أن كياج فرن وقع بينه وبين تنيض ملك فوت أمور جسيمة وتشاجر وحلف بأن يكسر بلده ويصيِّره صحراء وكان أقوى منه قوة وخيلاً ورجالاً فاستغاث بكنفار عمر ولذلك خرج إليه ...» المرجع نفسه ، الصفحتان ٧٦و٧٧ .

(٧٣) بُرْكُ : «وأنت منصور عادل كثير الفرح والعطاء والصدقة لا يعجزك موضع فى مملكتك إلا موضع واحد يقال له برْكُه» المرجع نفسه ، الصفحة ١٣ . [أنظر الحاشية ١ - ١٠ أعلاه .]

(٧٤) كاتسنا : أوردها پانيكار « Katsina » ؛ ووردت «كشن» فى كل من تاريخ الفتاش وتاريخ السودان ، وكذلك « Katsena » فى الترجمة الفرنسي للأول و « Kachena » فى الترجمة الفرنسية للثانى . وهى من بلاد الهوسا الهامة شرق سكُتُ وشمال غرب كانو .

« وفى التاسعة عشر غزى كشن » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٧٧ .

« وفى آخر التاسعة عشر غزا غزوة كشن » . تاريخ السودان ، الصفحة ٧٨ .

رئيس كَبْ[٧٥] دون صعوبة كبيرة . بيد أن متاعب أسكيا محمد لم تنته . ففى أثناء تقسيم الأسلاب لم يوضع كَنْتَ فى الحسبان ، وتمسك كَنْتَ بأخذ حصته بنهب قافلة السنغى . وسبّب ذلك ضيقا شديدا للأسكيا ، لأنه رأى من العار أن يتعرض للهزيمة على أيدى كَنْتَ ، وأن يحرم هو نفسه من غنيمته التى حصل عليها بشق النفس .

فمن كان كَنْتَ هذا ؟ لقد ظهر كَنْتَ لأول مرة فى أعمال البكرى الذى أعطى هذا اللقب لحكام كوغة أو السنغى . ومن الواضح أن الحكام من أسرة « زا » الوثنية الأصلية الحاكمة كانوا يحملون لقب كَنْتَ ، ولذا فإن الكَنْتَ هو المكافئ للمنسا عند السنغى . أما الكنت الذى أسس الأسرة الحاكمة الوثنية العظيمة فى كَبٍّ فكان إبن أحد ضباط جيش كاتسنا . وقد ساءت سمعة هذا الضابط بسبب ذنب صغير ارتكبه، ونتيجة له اتجه نحو الغرب حيث كانت تقيم مجموعات مشتتة من الفولانى والهوسا والسنغى . وهنا أسس فرقة مختارة من قطاع الطرق . وخلال الحملة على كاتسنا ظل على الحياد ، ولكنه فى الحرب ضد أير اشترك اشتراكا فعالا ، إذ أنها كانت تتوافق مع رغبته فى التوسع نحو الشمال .

وبعد أن نَهَبَ الأسكيا تجهز للدفاع عن نفسه . وفى الفترة ١٥١٦ – ١٥١٧ أرسل الأسكيا جيشا كبيرا ضده – وكان هذا الجش ثالث حملة له ضدو دولة وثنية . وهُزم الأسكيا وأرغم على التقهقر من المنطقة ، [٧٦] كما كان هذا الجيش هو آخر

---

(٧٥) أرجح وجود خطأ هنا ، ذلك أن كَنْتَ» كما ورد فى تاريخ السودان هو صاحب ليكِ (Liki فى الترجمة الفرنسية، الصفحة ١٢٩) . «ورجع فى الثانية والعشرين (١٥١٥ – ١٥١٦) وفى رجوعُه خالف عليه كُتَ صاحب ليكِ الملقّب بكَنْتَ وسببه أنه لما وصل بلده حين رجع معه من تلك الغزوة انتظر سهمه من تلك الغنيمة فلما انقطعت رجاؤه منه سال دند فارى عن سهمة فقال له إن طليته لتغوطت فسكت ثم جاءة أصحابه فقالوا له أين سهامنا عن هذه الغنيمة مارايناها إلى آلآن الاتسالها فقال سالتها قال لى دِنْدِ فارى إن عدت سالتها لتغوطت ولا اتغوط وحدى وإن كنتم تتغوطون معى سالت فقالوا نتغوط جميعا معك فقال بارك الله هذا الذى أريد فعاد إلى دندفارى فسأله فأبى فخالفوا وصار بينهم إلى قتال عظيم فامتنعوا وخرجوا من طاعة الأمير أسكيا الحاج محمد إلى انقراض دولة سغى فقام كُتَ بنفسه ... » تاريخ السودان ، الصفة ٧٨ .

(٧٦) « وفى الثالثة والعشرين ، (١٥١٦ – ١٥١٧) غزا إليهم فما نالوا منهم نيلا ...» المرجع نفسه، الصفحة ٧٨ .

حملاته بسبب فقده بصره في عام ١٥١٩ . وفي العام نفسه مات أخوه عمر فمنح منصبه (كرمن فارى) ليحيى ، وهو آخ له ، كما منحه لقب كانفار .[٧٧]

وعلى الرغم من أن أسكيا محمد فقد بصره فقد واصل نشاطه السياسي ، وكان يعتمد على مستشاره الأمين على كلن [٧٨] في تنفيذ سياساته ، وكذلك على أخيه كانفار يحيى في توفير السند العسكرى الضرورى . وظلت هذه «التوليفة» الغريبة طيلة أعوام عشرة تضطلع بإدارة أعظم كيان سياسى في إفريقية الزنجية ، ولكن سخط أمراء الإمبراطورية كان آخذا في الأزدياد . فالبلاط محور كل نفوذ كان خاضعا لسيطرة على كلن . وكان يحيى هو نائب كرمن واتخذ تندرمة عاصمة له . ووصلت حالات التذمر بين الأمراء إلى ذروتها ، وغادر على كلن البلاط لزيارة كرمن. وعندما ترامت أخبار السخط في صفوف الأمراء إلى أسماع يحيى قرر السفر إلى غاو ، وهناك عمل على إثناء موسى وأنصاره عن تنفيذ خطتهم المقترحة ، ولكنه لم يوفق .[٧٩] وذات يوم عندما كان يحيى في إحدى جولاته أعد له موسى وإخوته كمينا قتل فيه ، وترك موته الطريق مفتوحا أمام موسى . ودخل موسى غاو

---

(٧٧) « وفي السادسة والعشرين (١٥١٩) مات أخوه عمر كمزاغ في اليوم الثالث من الربيع الأول فاحتجب .. وجعل أخاه يحيى كرمن فارى ... » المرجع نفسه ، الصفحتان ٧٨و٧٩ .

« وفي الخامسة (والعشرين) نزل كير في شهر رمضان ثم رجع إلى كاع في تلك الرمضان ولحق الخبر يوم نزل كاع بمرض كرمن فار عمر كمزاغ وكرّ راجعا خفية إلى تندرم ودخله ليلا وتوفي عمر في تلك الليلة ... ولم يفطن أحد من أهل كاع بذهابه حتى رجع وجعل أخاه كرمن فاريحيى ... قيل إنه إبن زوجته وهو ربيبه وقيل إنه أخوه لأمه وقيل أنه ابن أخي أمه كَسَيَ ... ثم خرج إلى كاع حين سمع بخبر أسكي موسى أنه يريد عزل أبيه ويدخل حين ضعف بصره ...» تاريخ الفتاش ، الصفحتان ٧٧ و ٧٨ .

(٧٨) من المؤكد أن المقصود هنا هو «على فلن» ، ذلك أن من يعرف باسم «على كلن» هو سنّ على كلن الذى سبق على فلن بحقبة زمنية طويلة ، كما أن على فلن قد ورد اسمه مقترنا بأسكيا محمد . ونرجع إلى ما يقوله تاريخ السودان في شأن الاثنين :

«وأما سنّ على كلن فكان من قصته إنه سكن في الخدم عند سلطان ملى هو وأخوه سلمن نار ...» تاريخ السودان ، الصفحة ٥ .

«وقد عمى (أسكيا محمد) في أواخر دولته ولم يفطن به أحد لأجل قرب على فلن منه وملازمته أياه» . المرجع نفسه ، الصفحة ٨٠ .

(٧٩) «لأجل قرب على فلن منه وملازمته اياه فجعل موسى يهدد عليه ويتوعده بالقتل فخاف منه وهرب إلى تندرم عند كرمن فارى يحيى في السنة الرابعة والثلاثين ، وفي السنة الخامسة والثلاثين خالف عليه فار منذ موسى فذهب إلى كوكيا مع بعض اخوانه فأرسل الأمير لأخيه فرن يحيى في تندرم أن يجئ لتقويم اعوجاج هؤلاء الأطفال» المرجع نفسه ، الموضع نفسه .

فى عام ١٥٢٩ وأعلن نفسه إمبراطورا ، وأقصى أسكيا محمد عن العرش . وهكذا فإن عهد أسكيا محمد الذى بدأ باغتياله المرجح لسنّ على وبثورة ما ، قد انتهى بسجنه على أيدى إبن أخيه.(٨٠)

وأسكيا موسى لم يكن خليعا فقط ، بل كان متعطشا للدماء أيضا . فأول عمل أقدم عليه بعد توليه السلطنة هو قتل كل من يحتمل أن ينازعه العرش ، ولقى كثيرون من إخوته نهاية دموية ، كما استولى على حريم عمه.(٨١) وبسبب غلظة قلبه وعدم تقواه ناهضة العلماء وحكام الأقاليم ، ولم يخفوا رغبتهم فى رؤية أسكيا جديد . ولم يدم حكمه طويلا ، فقد ثار إخوته ضده بعد حكم لم يتجاوز واحداً وعشرين شهرا ، وخلفه أحد أبناء أسكيا محمد ، الذى حمل عند تولى السلطنة لقب محمد بنكن ، وحدد إقامة أسكيا محمد فى جزيرة كنكاك.(٨٢) ولكن بنكن كان عليه أن يقمع ثورة

---

(٨٠) «فجاء وأمره أن يذهب اليهم فى كوكيا ووكّد عليه أن لايبلغ معهم التعريث فوصلهم هنالك ولقوه بالقتال حتى جرح وتمكن منه فسقط على الأرض وخرّ على وجهه عريانا وجعل يتكلم بما سيكون فيهم من المحدثات .. ثم توفى فجعل الأمير ابنه عثمان يوباب كرمن فارى وارسله إلى تندرم ، ثم رجع موسى وإخوته إلى كاغ وفى آخر هذه السنة عزل الأمير والده يوم الأحد يوم عيد الأضحى قبل الصلاة والأمير فى المصلى فحلف أن لا يصلى أحد حتى يتولى الأمرة فسلم له والده فكان أميرا ساعتئذ فصلى الناس صلاة العيد وبقى هو فى داره وأسكيا الوالد فى دار السلطنة ولم يخرجه منها فى حياته ...» المرجع نفسه ، الصفحتان ٨٠و٨١ . [الذى قام بسجن أسكيا محمد ، كما سيتضح بعد ذلك ، هو ابن أخيه الذى حمل لقب محمد بنكن بعد أن خلف موسى بن أسكيا محمد فى منصب الأسكوية.]

(٨١) «ثم دخل أسكيا موسى فى قتل اخوته فهرب كثير إلى تندرم عند كرمن فارى عثمان يوباب...» المرجع نفسه ،الصفحة ٨١ .

«ولم يتول سلطنة سنغى واسكُوِيَّةْ اخف وارذل منه فسلطنة سنغى على ماقيل أكبر منه ومن سفاهته أنه لما عزل والده أسكى محمد واخرجه من دار المملكة امتنع بجواريه وسراريه أن يدخلن عليه وحبسهنّ عنه لنفسه ودعى عليه أسكى محمد وقال اللهم اكشف عورته وافضحه واستجاب الله دعوته وركب فى غده مع كافة جيشه وحرك فرسة ليجريه وسقط عن فرسه وقطع حبل سراويله وعليه أربع قمصان وانقلت القمصان إلى رأسه وبقى عريانا ولم يبق فى الجيش أحد لم يرد عورته» تاريخ الفتاش ، الصفحتان ٨٢و٨٣.

(٨٢) «وفى السادس والثلاثين (١٥٢٩ - ١٥٣٠م) قاتل هو واخوته .. وغلب اخوته هنالك فقتل من أولاد عمه كرمن فار عمر أكثر من ثلاثين ... وهرب كرمن فار عثمان إلى تمن وفى سنة سبع وثلاثين قتل فى قرية منصور.. وتولى بعده أسكى محمد بنكن ... فلما تولى أمر باجلاء عمه الأكبر أسكى محمد رحمه الله واخرجه من بلد كاغ إلى جزيرة كنكاك واسكنه فيها» المرجع نفسه ، الصفحة ٨٣.

«وقتل جماعة كثيرة معه من قومه ورحل عمه أسكيا الحاج محمد من دار السلطنة فدخل فيها وبعث به إلى جزيرة كنكاك موضع بقرب المدينة من جهة المغرب فسجنه فيها ...» تاريخ السودان ، الصفحة ٨٧ .

قام بها كانفار عثمان ، أحد أبناء كنفار عمر . وقطع بنكن رأسه ورؤوس أحد عشر من إخوته . وفى أبريل ١٥٣٧ ، بعد حكم دام ست سنوات وشهرا وحدا ، تمكن ائتلاف من إخوته من أن يحلق به الهزيمة . ونودى بإسماعيل ، أحد أبناء أسكيا محمد،إمبراطورا جديدا ، وهرب بنكن إلى تندرمة ، ولجأ هو وأخوه الكانفار لدى إمبراطور مالى.[٨٣] وفى عام ١٥٣٧ تمكن إسماعيل ، الذى خلف بنكن ، من إطلاق سراح والده وعندئذ خلع عليه الأسكيا شارات الملك وقلده منصب خليفة السودان.[٨٤] وخلال حكمه الذى استمر عامين وسبعة شهور حدثت مجاعة دمرت إمبراطورية السنغى.[٨٥]

وفيما بين خلع أول أسكيا وعام ١٥٤٠ ، الذى تولى فيه إسحاق السلطنة ، تولى السلطنة ثلاثة ملوك . وأدى هذا التغير المستمر ، وماصحبه من مؤامرات وثورات ، إلى إضعاف السلطة المركزية . ولذا واجهت إسحاق مشكلة إعاد النظام وروح الانضباط إلى الإدارة . فأجرى حركة تطهير عامة ، وأعدم قادة الجيش والحكام عقابا لهم على تصرفاتهم خلال الفوضى.[٨٦] وبعد أن استعاد إسحاق النظام قام

---

(٨٣) «وفى تلك السنة يعنى سنة ثلاث وأربعين (أبريل ١٥٣٧) قام عليه ابن عمه أسكى إسماعيل بن أسكى محمد فتولى السلطنة خارج بلد كاغ فلما اتصل الخبر بأسكى محمد بنكن خرج هاربا إلى تنبكت فتبعته الخيول ثم خرج منها ودخل تندرم وهناك كرمن فار عثمان شقيقه .. فلما رآه عثمان معزولا هاربا تبعه وهربا إلى مل ..» *تاريخ الفتاش* ، الصفحة ٨٥ .

(٨٤) «فلما تولى أسكوية أمر ساعتئذ باخراج أبيه أسكى محمد المرحوم من تلك الجزيرة يعنى كنكاك التى أجلاه محمد بنكن كرى إليه ... ولما أخرج اياه من تلك الجزيرة وأسكنه فى بعض بيوت دار المملكة اتى بشكاره له وحل ربط فمها وأخرج منها قميصا وشاشية خضراء وعمامة بيضاء ... وادخل فى عنقه سيفا وقال هذا قميص قمصنى به شريف مكة ... وقلدنى هذا السيف وقال أنت أميرى ونائبى وخليفتى فى اقليمك وأنت أمير المؤمنين وأنا خليفته وأميره ونائبه ..» المرجع نفسه ، الصفحة ٨٦ .[تولى اسكوية يعنى تولى منصب الأسكيا.]

(٨٥) « وكان فى أيام أسكى إسماعيل قحط وجوع » المرجع نفسه ، الصفحة ٩٢ .

«وتوفى أخوه الأكبر .. عام اثنين وأربعين وتسعمائة فى الطاعون المسمى كُفِ ... ومات فى هذا الطاعون خلق كثير» المرجع نفسه ، الصفحتان ٩٢ و ٩٣.

«فى العام الثانى والأربعين ... فى أول الطاعون المسمى كُفِ ..» تاريخ السودان ، الصفحة ٩٢ .

(٨٦) «وقتل من الناس أهل الجند خلقا كثيرا وكان من سيرته إذا خال من أحد أدنى شىء من التعرض السلطنة لابد أن يقتله ويخرجه من أرضه هذا دابه وعادته فيدخوله السلطنة أرسل زغرانيا واحدا إلى بير ليقتل كرمن فارى عثمان وجعل له جعلا ثلاثين بقرة ....» المرجع نفسه ، الصفحة ٩٥ .

بتدمير بنْدُكُ ونهبها.[٨٧] وفي الفترة ١٥٤٦ – ١٥٤٧ أرسل أخاه داوود الذي مقررا أن يخلفه على رأس حملة ضد مالي . وتقهقر المنسا ، وتمادى داوود في إظهار ازدرائه للمنسا بتحويل قصره إلى مبولة عامة.[٨٨] وفي عام ١٥٤٦ واجه إسحاق تهديدا مراكشيا ، فبعث رسالة ساخرة أدت في حينها إلى كبح الاندفاع المراكشي.[٨٩] ويقول تاريخ الفتاش إن إسحاق كان ملكا قوياً وقوراً صالحاً يواظب على أداء الصلاة . ولكن السنوات التي أعقبت خلع أسكيا محمد شهدت فتورا في الحمية الدينية . ففي أحد الأيام المطيرة لم يكن يوجد بالمسجد وقت صلاة العشاء الإمام المسجد وأسكيا إسحاق.[٩٠] وقد توفي أسكيا إسحاق في عام ١٥٤٩ بعد حكم دام تسع سنوات ، وخلفه أخوه داوود.[٩١]

---

(٨٧) وفي التاسعة والأربعين (١٥٤٢ – ١٥٤٣) غزا إلى تَغْبَ آخر سلاطين بِنْدُكُهُ المرجع نفسه ، الصفحة ٩٦.

(٨٨) «وفي الثاني والخمسين أرسل أخاه كرمن فاري داوود إلى ملي . فهرب منه سلطان ملي ونزل بعسكره في بلده وتأخر فيه سبعة أيام وبرّح في العسكر أن كل من يريد أن يطيّر الماء فليفعله في دار السلطنة وفي سابع اليوم امتلأت الدار كلها بالغائط» المرجع نفسه ، الصفحة ٩٨.

(٨٩) «وقد بعث إليه في أيام قوته مولاي أحمد الكبير سلطان مراكش أن يسلم له في معدن تغاز فبعث له في الجواب أن أحمد الذي سمع ليس هو اياه وأن إسحق الذي سمع ليس أنا اياه ما زال ما حملت به أمه ثم أرسل الفين ركابا من التوارق وأمرهم أن يغيروا على آخر بلد درعة إلى جهة مراكش بلا إخراج روح أحد ...» المرجع نفسه ، الصفحة ٩٩ .

(٩٠) «وكان أسكى اسحق مرضياً صالحا مباركا كثير الصدقات ملازما صلاة الجماعة عاقلا فطنا ذا دهاء قيل : اتى يوما إلى المسجد لصلاة العشاء الأخيرة ليلة ذات مطر وظلمة وطين وجلس في المسجد وحده ثم اتى المؤذن ونادى بالأذان ثم وقد المصباح وجلس ينتظر الجماعة والإمام ثم لم يجئ أحد حتى جاء الأمام وحده واحيا المسجد ثم قال له المؤذن أيها الأمام قم فنصلي ولعلك تنتظر مجئ أسكى إسحاق فانه لا يخرج من مرقده في المطر والظلمة والطين وأين هو الساعة على سريره المفروش عليه بأنواع الحرير فأجابه أسكى إسحاق في جانب المسجد قائلا إن كان أسكى إسحاق هو المنتظر فها هو قد سبقكما فقوما تصلى فقاما متعجبين في خروجه وحده إلى الصلاة ...» تاريخ الفتاش ، الصفحتان ٨٧ و٨٨ .

(٩١) «وفي أول السادس والخمسين (١٥٤٩ – ١٥٥٠م) مات أسكى إسحاق ومكث في السلطنة تسع سنين وتسعة أشهر وتسع ليالي في بلد كُيْكِي وهنالك قبره وله من الأولاد بُنْكِ سلْمَنَ وعبد الملك الذي جعله ولّ العهد ولم يرضى أهل سغى إلا أسكى داوود وولى السلطنة بعده أخوه أسكى داوود بن أسكى محمد ...» المرجع نفسه ، الصفحة ٩٣ .

وأخذ داوود على نفسه إحياء أمجاد جيوش السنغى ، فكان حكمه الذى دام أربعة وثلاثين عاما (١٥٤٩ – ١٥٨٣) سلسلة من الحملات ضد الحكام الذين ورث عداءهم لأسرته . وانتهت حملة قام بها ضد الموسى فى عام ١٥٤٩[٩٢] بالنتيجة غير الحاسمة المعتادة . وفى العام التالى تمكن من اكتساح الفولانى فى ماسنة،[٩٣] بيد أن السنغى هزموا فى عام ١٥٥٢ فى موقعة ضد كبّ ، وتخلى داوود عن كل فكرة لديه لغزو كبّ ، وأقام معهاً سلما نهائيا.[٩٤] وفى الفترة ١٥٥٨ – ١٥٥٩ وجه داوود حملة ضد مالى ، وخرّب مقاطعاتها الحدودية ، وتمكن من أسر إبنة المنسا وتزوجها.[٩٥]

وبينما كان النصر حليف أسكيا داوبد ضد مالى التى عاود الهجوم عليها مع تابعه وصهره مغشرن كى ، فقد فشل السنغى تماما ضد الموسى فى الفترة ١٥٦١ – ١٥٦٢.[٩٦] وكان لابد من الهجوم على منحدرات همبر بدورها فى عام ١٥٦٤ . كذلك أظهر الفولانى جموحا شديدا فثأر منهم داودد بنهب

---

(٩٢) «ذكر غزواته، وفى شهر شوّال من العام الذى تولى فيه غزا إلى موش ...» تاريخ السودان ، الصفحة ١٠٢

(٩٣) لم استدل على حملة قام بها أسكيا داوود فى عام ١٥٥٠ (٩٥٧ هـ) ضد ماسنة ، وإنما كانت له فى هذا العام حملة أخرى . «وفى آخر العام السابع والخمسين غزا إلى تع اسم موضع فى أرض باغن ويقال له ترْمِسى وكُمّ ...» المرجع نفسه ، الموضع نفسه .

(٩٤) كذلك الحال فى عام ١٥٥٢ (٩٥٩ هـ) هناك رواية أخرى .

«وفى التاسع والخمسين وقعت الخصومة بين أسكيا داوود وبين كنت سلطان ليك وفى الموفى ستين اصطلحا ...» المرجع نفسه ، الصفحة ١٠٣ .

(٩٥) «وفى السنة السادسة والستين (١٥٥٨ – ١٥٥٩) غزا إلى بلد سوم فى أرض ملى وتوفى سوم انْزُ عند وصوله هنالك فولى ابنه مقامه فجاز إلى ديِكَرْلا وقاتل فيها قائد سلطان ملى مع كنْتِ فَرِنْ وغلبه وفى هذا الطريق تزوج نارَ ابنة سلطان ملى ورحّلها إلى سغى فى مملكة عظيمة من حلىّ وعبيد وإماء وأثاث وامتعة ...» المرجع نفسه، الصفحتان ١٠٣ و ١٠٤ .

(٩٦) «وفى التاسعة والستين (١٥٦١ – ١٥٦٢) صعد أسكيا داوود بُرْنْ فغزا إلى موش ثانية فهرب هو وجيوشه كلهم منه ومات كيمَ كى وأبو بكر سو ابن فار محمد بنكن سنبل وكثير من الناس ورجع فى شهر رجب من هذا العام» المرجع نفسه ، الصفحة ١٠٦.

ماسنة.[97] وفى عام ١٥٨٢ ، وهو العام الأخير من حكم داوود ، اجتاحت الأوبئة والمجاعات مدينة تمبكت.[98]

وبعد داوود جاء الحاج الذى دام حكمه أربع سنوات وخمسة شهور . وقد نجح فى غزو الموسى ، وقتل حاكم وَغَدُ[99] ، وعاد برقيق كثير . وفى آخر عهده أصيب بمرض لاشفاء منه ، فعزله أخوه محمد بان ونفاه إلى تُنْدِبى.[100] وقد حكم محمد بان سنة وأربعة أشهر وخلال حكمه حدثت مجاعة أخرى وعانى الناس شظف العيش.[101] وفى عهد محمد بان اندلعت حرب أهلية . فقد اكتشف كبرفرم ، أحد موظفى الإمبراطورية ، سرقة قطعة ملابس من أحد رقيقه . وحامت الشكوك حول أحد خدم بلمع صادق ، ونقل كبر هذه الشكوك إلى بلمع الذى استجوب الخادم

---

(٩٧) «وفى سنة تسعين بعد تسعمائة ... وفيها وقع القطاعون من فلان ماسنة على قارب أسكيا الحاج من جنى ونهبوا بعض أمتعته .. فلما بلغ الخبر فرن محمد بنكن نهض ساعتئذ وتوجه لماسنة للانتقام منهم من غير مشاورة واحد ... الحاصل أغار على ماسنة وأفسدها إفساداً عظيما وقتل فيها من فضلاء الطلبة وصلحائها كثيرا فظهر لهم بعد موتهم كرامات عجيبة ... ولما بلغ الخبر اباه أسكيا داوود انكرها عليه جدا فكانت مطيارا عليه لأن أسكيا ما تأخر بعد الوقعة فى الدنيا ...» المرجع نفسه ، الصفحة ١١٣.[من الواضح أن رواية السعدى هذه تختلف عما أورده پانيكار .]

(٩٨) «وفى سنة تسعين بعد تسعماية (١٥٨٢م) وقعت فى تنبكت وباء عظيم ومات فيها خلق كثير ...» ، المرجع نفسه ، الموضع نفسه .

(٩٩) «ثم تولى الأمر بعده ابنه اسكى الحاج فى ذلك اليوم قبل دفنه وكان الحاج رجلا مليحاً لعياناً مهيباً ذا مروة ولم تطل مدته ومكث فى السلطنة أربع سنين وخمسة أشهر وعشرة أيام ... وفى شهر ولايته غزا أهل وكد وقتل فرن وكد وسبوا ذراريهم وجميع أموالهم وزناجيهم إلى كاغ ...» تاريخ الفتاش ، الصفحة ١١٩ . [وكد هى وَغَدُ ؛ كاغ هى غاو]

(١٠٠) «ثم قام أسكى محمد بان بن أسكى داوود على أخيه الحاج فعزله وتولى السلطنة فى المحرم عام خمسة وتسعين وتسعمائة [١٥٨٦ - ١٥٨٧] ونفى الحاج إلى تُنْدبى بعد ضعفه بعلة لازمة فمالبث بعد عزله فمات ...» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٢٥ و ١٢٦.

(١٠١) «ومكث محمد بان فى السلطنة سنة وأربعة أشهر وثمانية أيام وكانت فى ايامه غلاء وقحط ...» المرجع نفسه ، الصفحة ١٢٦ .

فأنكر التهمة . وقام بإبلاغ كبر بنتيجة التحقيق . ونشب بسبب ذلك شجـار ، وقبض فرم على الخادم وأنزل به العقاب . وغضب بلمع وقام بذبح فرم.(١٠٢) وبعد فترة تأمل أحس بلمع أن تصرفه يمكن أن يُشَوَّه ، واستقر رأيه على الثورة . وعملا على تحقيق هذا الهدف أوفد رسولا إلى الأسكيا يبلغه بما حدث ويؤكد له ولاءه . وفي الوقت نفسه كان على الرسول أن يواصل السير إلى كرمن ، وأن يطلع كرمن فاري صالح على الأحداث.(١٠٣) واقتراح بلمع ، وكان أخاً لكرمن فاري ، أن يؤازره هذا الأخير في ثورته ، على أن يصبح هو الأسكيا وأن يصبح بلمع هو كرمن فاري.(١٠٤) ووافق صالح ، وتحرك على رأس قواته إلى كبر . ولكن سرعان مانشب الخلاف بين الأخوين ، وقرر صالح أن يقتل بلمع،(١٠٥) وفاجأ بلمع وكاد أن ينجح في مهمته ،

---

(١٠٢) «وأما سبب الشر الواقع بين محمد بان بن اسكى داوود وبين أخيه بلمع صادق وذلك سبب فناء سنغى وفتح باب الشر بينهم وسبب فساد ملكهم ... وقصة ذلك .. أن كَبَر فَرمْ كان غلاما لاسكى على كَبَرّ على عادتهم ومسكن بَلَمَعْ ودار سلطنته هى كَبَرَ وكَبَر فَرْم موكلا بالمرسى وسفن المسافرين يأخذ من كلّ سفنية غرامة من الداخل والخارج وبلمع يكون سلطانا على الجنديين ... وكان كبر فرم علوا هذا ظلوما غشوما ... سرق ملحفة بعض جواريه اسمها ... واتهم خديم بلمع بسرقتها وسمع كبرفرم بذلك وبعث مرسوله إلى بلمع صادق يذكر له بان غلامه سرق ملحفة جاريته إما أن يأخذها منه أو يرسله إليه ليتولى سؤالها منه ... وامتنع .. ويمشى بينهما الرسل بالشتم والكلام القبيح إلى أن ظفر كبرفرم بذلك الغلام المتهم علي غفلة ... وطعنه بحريشه الكبير تحت ابطه وقطع قلبه وسقطه ميتا وأمر بغلامه المسجون فانحل من قيوده ..» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٢٦ و ١٢٧ .[الحريش هو الحربة.]

(١٠٣) «وخاف عقوبة اسكى بذلك وبعث رسوله إلى أخيه كنفار صالح بن اسكيابن داوود وهو بتندرم وأخبره بما فعل وأنه خرج فى طاعة أسكى محمد بان وخلع عن بيعته ..» المرجع نفسه ، الصفحة ١٢٧ .

(١٠٤) «وأمره أخاه كنفار صالح بالمجئ إليه مع جيشه وأهل جنده ليتفق معه ويذهبان إلى اسكى داوود ويعزلانه ويتولى كنفار صالح سلطنة أسكى ويكون سلطانا ويوليه كنفرويته .. » المرجع نفسه ، الموضع نفسه .

(١٠٥) «وأتاه رسوله واخبره وحضهُ وحثه على الخروج معه وأجابه فرحا مسروراً ... وخرج بجيش عظيم ... وتوجهوا إلى بلمع صادق فى كبر ... وخرج بلمع للقائه وتلقوا هنالك ... وبعد نزولهم رجع بلمع إلى كبر لتجهيز ضيافتهم ونزولهم ... فلما رجع بلمع إلى داره لاخراج تلك الضيافة إليهم عقّبه بعض الوشاة إلى أخيه كنفار صالح ونمّ له بقوله إنه يغدره ويريد قتله وحذره ... وصدقه كنفار صالح وكان رجلا خرفا فأمر بربط سرجه .. وخرج عازما حازما ...» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٢٧ و ١٢٨ .

وفى اللحظة الأخيرة تمكن أحد أنصار بلمع من قتل كرمن فارى.(١٠٦)

عندئذ تحقق النصر لصادق على رؤساء القبائل الذين أيدوا كرمن فارى وسار نحو غاو . وبعد مسيرة يوم منها خرج عليه الأسكيا بجيش قوامه ثلاثون ألفا لمنازلته، ولكن قبل أن تنشب المعركة توفى محمد بان فى فراشه حيث عثر عليه غلمانه فى صباح اليوم التالى.(١٠٧)

وأثار موته مشكلة أمام كبار ضباط الجيش . وبعد المداولة المناسبة استقر رأيهم على أن يحفظوا موت الأسكيا سراً إلى حين تنصيب محمود بن أسكيا إسماعيل فى منصب الأسكيا . وقبل محمود على الفور،(١٠٨) وأشير عليه بأن يتجنب أى نزاع بين الورثة حرصا على مصلحة الدولة ، ولضمان ذلك لابد أن يبقى موت الأسكيا طى الكتمان ، وأن يدعى الأمراء إلى المضرب الملكى الواحد تلو الآخر حيث

---

(١٠٦) «وحرك بلمع فرسه كأنه يهرب ثم رجع إليه ورماه بحريش وركزه بين كتفيه حتى خرج من صدره وقيل أن الرامى هو غلام كان مع بلمع .. والأول أصح بأن بلمع هو الرامى بيده .. واسقطه هنالك ميتا ونزل عليه ورفع رأسه ووضعه على حجره وهوفى سكرات الموت حتى خرج روحه على رجله ..» المرجع نفسه ، الصفحة ١٢٩ .

(١٠٧) «فلما دفن بلمع أخاه كنفار صالح قام بفتنته ورجع إليه أصحاب كنفار المقتول وجيشه اجمعون واطاعوه .. وجعلوه سلطان وسموّه أسكى ووافقهم على ذلك عامة تنبكت وتجارهم وبعض علمائها ... وتوجه إلى كاغ لمضاربة أسكى وعزله وقتله .. فلما دنا (من كاغ) .. خرج إليه اسكى محمد بان بجيش يضاعف جيشه خمس مرات مجموع ذلك ثلاثون ألفا ... ثم أتى مضجعه .. ونام إلى قرب وقت الظهر فجاء غلمانه الخصيان الذين كانوا يوقظونه .. فلم يتحرك فتأملوه فإذا هو ميت ...» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٣١ و ١٣٢ .

(١٠٨) «وكتموا موته على أولاد أسكى داوود فجلسوا متحيرين متفكرين .. إلى أن اتفقوا على تولية كنفار محمود بن أسكى اسماعيل بن أسكى محمد .. وأرسلو إليه بأن أسكى يناديه وقام مسرعا مجيبا إلى أن أتى إليهم ووجدهم فى خباء أسكى وادخلوه واخبروه بموته .. فانا كلنا لا نرضى إلا عليك ولانتفق على أحد سواك .. فنرى نحن أن تولى السلطنة الساعة قبل أن يفطنوا بموته وتنادى جميع المعاندين منهم ... وترسل لكل واحد منهم رسولا ويقول أسكى هو الذى يناديه وكل من جاء منهم تأمرنا بقبضه ونثقفه بالحديد ومن يستحق القتل منهم فنقتله الآن بأمرك حتى يتموا ثم نضرب عليك طبل السلطنة .. وسكت محمود مليا ثم أجاب وقبل راضيا ...» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٣٢ و ١٣٣ .

ينبحون . وأبدى محمود استعداده ،(١٠٩)وأرسل أحد رجال البلاط ليستدعي إسحاق أكبر أبناء أسكيا داوود . ولكن رجل البلاط اطلع إسحاق على المؤامرة . وحاصر إسحاق وأنصاره المضرب الملكى ، وقبله رجال البلاط أسكياً جديداً .

وعندئذ استدار إسحاق ضد بلمع وأحرز نصرا ملحوظا . وأعدم كبار قادة الثورة ، وطورد بلمع إلى أن أطبق عليه ولم يعد أمامه مهرب.(١١٠) ولكن إسحاق الثانى كان عليه الآن أن يواجه خطرا أشد – الغزو الذى يتهدد السنغى من الشمال.

---

(١٠٩) «واتفقوا على هذا الرأى وأرسلوا واحدا من الخصى المسمى تَبْكَلِ إلى إسحاق أولا وأمروا المرسول أن يقول له ان أسكى محمد بان يناديه فأتاه تبكل ... وخلى به ونمّ له وخبره تبكل المذكور بموت أسكى محمد بان وأعلمه بما كان عليه القوم وبما ينادونه بسببه وكشف له أسرارهم ووصاه بأن يحذرهم ... ثم أمر اسحاق باخوانه واحبابه .. وأخبرهم بما جرى .. ثم ركب وركب أهاليه معه .. فما راع القوم إلا وهج خيولهم فداروا بخباء أسكى الذى فيه القوم .. فخرجوا إليهم خاضعين طائعين خائفين .. وقال لهم اسحاق قد علمنا ماجرى وسمعنا ماعقدتم عليه ... إما أن تسلموا لنا أو أن يكون هذا اليوم آخر أيامكم فى الدنيا .. ورموا أنفسهم على الأرض ورجعوا ناكصين يحملون التراب على رءوسهم ومحمود معهم فى ذلك قالوا كلهم أمر الله ثم أمرك السمع والطاعة لله ثم لك وأنت أميرنا وسلطاننا» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٣٣ و١٣٤. [الخباء هو الخيمة أو المضرب.]

(١١٠) « وسار إلى بلمع صادق .. ولا علم عند صادق بموت محمد بان ولا بطلوع اسحاق .. فما فاجاه إلا بأربعماية فارس .. فلما أبصر بلمع صادق وقومه فرحوا بهم وظنّوا بهم أنهّم جاءوا إليه مطيعين خارجين على محمد بان حتى إذا دنوا منهم نزلوا كلهم ووقفوا على الأرض وحيوه .. فأمر بلمع صادق رجلا من قومه أن يسألهم أحق ما تقولون فحلفوا له بذلك فدخل الروعة والخوف والخشية فى قلوب جيشه وضرب بلمع صادق الطبل وأمر تلك الساعة بالرحلة والركوب إلى ملاقاة إسحق ومحاربته .. وركب بلمع صادق ومن معه منكسرين قلوبهم ... ورأوا شجعان أسكى ... ووثب بهم اصحاب أسكى وثبة الذئب الضرى على الخروف ... وما منهم من وقف ليعلم ما الخبر بل كسروا وفروا عن بلمع وكثير منهم من نزل عن فرسه ونزل فى البحر وعام وقطع البحر عريانا إلى كُرْمَ...» المرجع نفسه ، الصحتان ١٣٥ و ١٣٦ .


صفحة فارغة

الغزو المراكشي(*)

كان لشمال إفريقية منذ أقدم العصور علاقات وثيقة بالسودان الذى اشتهر بذهبه . وقد غالب مراكش اعتقاد بأن ضم السودان أمر جدير بالاهتمام ، إذ عرف عنه فى تلك الأيام أنه أكثر مناطق العالم ثراء . ولم يكن ذهب سمرقند أو الهند يثير من الخيال قدر مايثيره ذهب السودان الذى ساد اعتقاد بأنه ينمو كالنبات.(١)

أما كيفية غزو هذه المنطقة فكانت منذ وقت طويل موضع تفكير حكام مراكش . فهناك أولا مشكلة عبور الصحراء ، وهو مغامرة يحف بها من الأخطار قدر ما يحف بعبور المحيط الأطلسى . كتب توماس بيرنهير يقول : « إن جهاز الانحراف المغنطيسى يمكن أن يكون ذا جدوى لرحلة سنوية إلى غاو عبر بحر من الرمال (حيث يتوجب عليهم استخدام الابره المغنطيسية والبوصلة) » .(٢) ثانيا ، كانت التقديرات لقوة إمبراطور السودان أنها كبيرة بدرجة تكفى للتغلب على أية حملة قد تتمكن من عبور الصحراء . واذا أخفقت الحملة فى مهمتها فمعنى ذلك أن تقطع العلاقات التجارية مع السودان ، وأن يتدفق الذهب عبر مسالك أخرى .

(*) آثرت استخدام كلمة مراكش للدلالة على المغرب الأقصى ، حتى لا تختلط بكلمة المغرب المستخدمة للدلالة على دول الشمال الإفريقى .

(١) أنظر الحاشية ٣ – ٤٩ أعلاه ، ومن بين ماجاء بها : «رسالة عند قدومه (منسا موسى) الديار المصرية حاجا من معادن الذهب عندهم ... فقال توجد على نوعين : نوع فى زمان الربيع ينبت فى الصحراء ...» صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٨٩ .

(٢) توماس بيرنهير : أقام فى مراكش فى أيام السلطان أحمد المنصور الذهبى ، وكان يعمل مراسلا لصهره إدوارد رايت عالم الرياضيات والهيدروغرافيا الانجليزى البارز المقيم فى انجلترا . وقد جاءت تلك الفقرة ضمن رسالة بعث بها إلى ادوارد رايت فى عام ١٦٠٠ . وللاطلاع على رسائله إلى صهره ، إنظر ، أ.ج . تايلور Mathematical Practioners of Stuart and Tudor England ، كمبردج ، ١٩٥٤ .

وإذ كان المراكشيون يضعون ذلك موضع الاعتبار فقد كانوا يفضلون استخدام الأساليب الدبلوماسية . يقول مارمول[٣] إن محمداً ملك السوس ، مدفوعا بالرغبة فى اقتفاء أثر اللمتونه ، وضع خطة لشن حملة على تمبكت وبقية بلاد الزنوج ، وقام بغزو الساقية الحمراء بجيش قوامه ألف وثمانمائة من الجياد وأعداد كبيرة من الإبل المحملة بالذخيرة والمؤن . ولما سمع أن ملك الزنوج يتحرك لملاقاته بجيش من ثلاثمائة ألف استدار نحو ودان التى لم تكن ضمن إمبراطورية السنغى واستولى عليها . ومحمد[٤] الذى يشير إليه مارمول على أنه ملك السوس فقط لابد أنه قاد هذه الحملة قبل فتح مراكش ، لأنه بعد ذلك اتخذ لقب سلطان مراكش . ولذلك يوجد ما يحمل على الاعتقاد بأن هذه الحملة قد تمت فى عام ١٥٤٢ أو ١٥٤٣ .

---

(٣) مارمول كرفجال : لايعرف عنه إلا ماذكره هو فى كتابه إفريقيا . ولد فى أوائل القرن السادس عشر ، سار فى حداثة سنه فى جيش الامبراطور شارلكان الذى غزا تونس فى عام ١٥٣٥، وشاهدما قام به المرتزقة الصليبيون فى هذه المدينة من أعمال السلب والنهب وهتك الأعراض . وبعد مغادرة شارلكان لتونس بقى هو فيها لمهمة كلفه بها ، وطال مقامه بها لنحو اثنتين وعشرين سنة إلى أن وقع فى أيدى الأشراف السعديين ، وظل عندهم أكثر من سبعة أعوام يسير فى ركابهم أينما ساروا ، وعاصر ثلاثة من ملوكهم : أحمد الأعرج ومحمد الشيخ وعبد الله الغالب . له مؤلفات كثير أهمها كتاب إفريقيا الذى نسج فيه على منوال كتاب وصف إفريقيا الحسن الوزان ، بل نقل أجزاء كثيرة منه ، ولا يفصل كتابه عن وصف إفريقيا سوى أربعين سنة ، ورغم المآخذ الكثيرة على كتابه فإنه يظل مفيدا الباحثين فى جغرافية إفريقية وتاريخها فى القرن السادس عشر ، ويعتبر ذيلا مكملا لكتاب الوزان .

وبعد أن قامت «الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر» بترجمة كتاب الوزان ونشره ، ارتأت أن تعززه بترجمة ونشر كتاب مارمول لاتحاد موضوعهما ، وتمت الترجمة عن النص الفرنسى الذى ترجم بدوره عن الأصل الأسبانى ، وقد صدرت الترجمة فى عام ١٩٨٤ فى ثلاثة مجلدات .

(٤) محمد المشار إليه هنا هو محمد الشيخ الذى لقب فيما بعد بمحمد المهدى، وهو إبن محمد القائم بأمر الله السعدى . فقد هاجر أسلاف السعديين فى القرن السابع الهجرى واستقروا فى درعة من بلاد السوس جنوب مراكش . وفى عام ١٥٠٩ طلب أهل السوس إلى محمد القائم بأمر الله تولى قيادتهم فى حركة الجهاد لتخليص البلاد من الحاميات البرتغالية . وبعد وفاة محمد القائم بأمر الله حوالى عام ١٥١٧ انتقل حكم السوس إلى ولديه محمد الشيخ وأحمد الأعرج ، وكان محمد الشيخ يطمح فى توحيد مراكش تحت سلطته ، فدخل فى نزاع مع أخيه ومع الوطاسيين ، وتمكن من دخول فاس وإعلان نفسه سلطانا فى عام ١٥٤٩ . وبذا يعد محمد المهدى (محمد الشيخ) هو المؤسس الحقيقى للأسرة السعدية .

«أصبح سلطان تمبوكتو يسمى اليوم امبراطور مالى ... سعى الشريف محمد ، عندما بلغ أوج مجده ، إلى امبراطورية مالى وغيرها من بلاد السودان ، استجابة لدأب الأسلاف اللمتونيين ، لذلك جهز جيشا من ألف وثمانمائة من الفرسان وعدد لايحصى من الجمالة وكميات هائلة من المؤن والذخائر ، لكنه لما علم أن امبراطور مالى خرج لمحاربته فى الطريق ولى عائدا إلى تورودانت ....» مارمول ، إفريقيا ، الترجمة العربية، المجلد الثالث، الصفحة ٢٠٢ .

وكان الغرض من الحملة ، استنادا إلى مارمول الذى رافق جيش السلطان بصفته رقيقا ، هو غزو تمبكت ، ولكن غرض السلطان المعلن كان مجرد الوصول إلى مناجم تغازة . وكتب إلى إسحاق يطلب إليه التنازل عن هذه المناجم لمراكش . وجاء رد إسحاق واضحا لالبس فيه ، وهو أن الأسكيا عاقد العزم على الدفاع عن المناجم، «إن أحمد الذى سمع ليس هو إياه وأن إسحق الذى سمع ليس أنا إياه مازال ما حملت به أمه».[5] وفضلا عن هذه الإجابة اللاذعة فقد أرسل إسحاق قوة قوامها عشرة آلاف من الطوارق عبرت الصحراء إلى مراكش ونهبت درعة .

وكانت ودان هى البداية . ولم تكن العقبة أمام أهداف المراكشيين ومطامعهم هى قوة غاو ، وإنما الأحوال الجوية . وقد تعلم المراكشيون أن الجياد لايمكن أن تستخدم كوسيلة للنقل ، وأن ندرة المياه هى التي يمكن أن تحول دون نقل القوات بأعداد كبيرة ، وأن ما يتطلبه غزو إمبراطورية الزنوج هو جيش عالى التدريب يجرى اختيار أفراده بعناية ، وقادر على تحمل مشاق عبور الصحراء . وفى الوقت نفسه كان يراودهم شئ من الأمل فى أن تنجح المفاوضات الدبلوماسية فيما فشلت فيه الحرب .

كانت الدبلوماسية إذن هى الخطوة التالية . فالتجار المراكشيون كان لهم دوما دور بارز على ضفاف النيجر ، وطريقتهم فى التعامل كانت معروفة جيدا . كما أن أهمية الملح فى تمبكت - كانت قيمة الملح تكاد تعادل قيمة الذهب نفسه - جعلت

---

(٥) هذه الفقرة مأخوذة عن تاريخ السودان : «وقد بعث إليه فى أيام قوته مولاى أحمد الكبير سلطان مراكش أن يسلم له فى معدن تغاز فبعث له فى الجواب أن أحمد الذى سمع ليس هو إياه وأن اسحق الذى سمع ليس أنا إياه مازال ما حملت به أمه ثم أرسل ألفين ركابا من التوارق وأمرهم أن يغيروا على أخر بلد درعة إلى جهة مراكش بلا إخراج روح أحد فيرجعون على أثرهم فغاروا على سوق بنى أصبح كيفما قام وثبت فأكلوا جميع ماوجدوا فى ذلك من الأموال فرجعوا كما أمرهم وما قتلوا أحدا وما ذلك الاليرى أحمد المذكور قوته .» تاريخ السودان ، الصفحتان ٩٩ و١٠٠ .

هذا ومن المعروف أن الغزو المراكشي لدولة السنغى قد حدث خلال عهد إسحاق الثانى أسكيا السنغى الذى حكم فى الفترة ١٥٨٨ - ١٥٩١.

من تغازه محور الصراع من أجل ممارسة الضغط على إمبراطورية الزنوج . وكان الرأى الراجح لدى المراكشيين أنه إذا أمكن التحكم فى تغازه أمكن إرغام السودان على التزام جانب التعقل. لذلك استقر الأمر على أنه بدلا من شن حملة عسكرية ضد تمبكت ، فإن السيطرة الاقتصادية الخانقة ستكون لها فعالية أقوى ، وهو ما يمكن تحقيقه بالاستيلاء على تغازة .

وكانت سياسة المراكشيين هى الإبقاء على الصحراء فى حالة اضطراب . وكان باستطاعة الملك دائما توجيه البربر مثيرى الفتن إلى الإغارة على الصحراء وقتل أعدائه ونهبهم . وفى عام ١٥٥٧ قتل حاكم تغازة فى واحدة من هذه الغارات وذُبِح الطوارق المشتغلون بتجارة الملح . وعلى الرغم من أن المراكشيين استطاعوا خلق شعور بعدم الأمن فإنهم لم يوفقوا فى الاستيلاء على تغازة ، وذلك لأن الطوارق الجشعين الكثيرى الترحال وأصحاب المصالح الحيوية فى تجارة الملح كانوا يتخذون جانب السنغى ، وباستطاعتهم منع الاستيلاء على المكان . وكانت النتيجة الوحيدة التى أسفر عنها العدوان المراكشى هى أن المراكشيين أصبحوا مهتمين باكتشاف مدر جديد للملح ، وفى عام ١٦٥٢ شرعوا فى استغلال مناجم تاودينى . وقد تقدم اكشيون فى عام ١٥٦٥ بادعاءاتهم فى تغازة ، وطالبوا بدفع جزية لهم ، بيد أنهم هدأوا حين قدم لهم أسكيا داوود هدية من الذهب مقدارها عشرة آلاف مثقال ، مما حمل على الاعتقاد بأن مراكش قد أخفقت مرة أخرى فى تحقيق هدفها .

وفى السنوات القليلة التالية انصرفت مراكش عن التفكير فى العدوان بسبب انهماكها الشديد فى صد غزو أجنبى . فالنزاع المستمر بين مراكش وشبه جزيرة أيبريا انتهى باخراج المسلمين من أسبانيا والبرتغال . وكان الأيبريون بدورهم يفكرون فى غزو شمال إفريقية . وقد اشتهر هنرى الملاح بغزو سبته ، وأثار هذا النجاح شهية البرتغاليين إلى فتح طرق التجارة مما دفعهم إلى التفكير فى غزو مراكش نفسها .

ولم تتأخر الفرصة كثيرا . فقد ثار مطالب بالعرش المراكشى[٦]، وطلب العون من الحاكم البرتغالى . وقاد ملك البرتغال ، بعد أن حصل على البركة البابوية ، جيشا متعدد الأجناس خدم فيه المغامرون من كل بلد أوروبى تقريبا قوامه خمسة عشر ألف راجل وألف وخمسمائة فارس ، وبلغ مرافقو الحملة تسعة آلاف ، وتطلب الأمر خمسمائة سفينة لنقل القوات . وفى يونيه ١٥٨٨ أوقع المراكشيون بالملك البرتغالى هزيمة منكرة فى موقعة القصر الكبير[٧]بالقرب من فاس بعد معركة لم تستمر أكثر من ست ساعات قتل فيه ثمانية آلاف من الأوروبيين ووقع فى الأسر خمسة عشر ألفا منهم . وسقط فى ميدان القتال ملك البرتغال علاوة على عدد كبير من أشراف البرتغال ، وكان المطالب بالعرش المراكشى ، وكذلك حاكم مراكش ، من بين من ماتوا فى المعركة .

وكتبت موقعة القصر الكبير مصير البرتغال ، إذ غدت خلال نصف القرن التالى جزءا من أسبانيا . ذلك أن فتح إفريقية على أيدى المستكشفين الأوروبيين ، الذى قامت فيه البرتغال بالدور الأكبر ، قد أدى فى النهاية إلى ضياع الاستقلال البرتغالى . ولم تكن آثار هزيمة البرتغال ملموسة فى شبة جزيرة أيبريا وحدها ، بل على ضفاف النيجر أيضا ، إذ أصبح من المحتوم أن يؤدى النصر المراكشى العظيم إلى سقوط أسرة الأساكى .

---

(٦) هو محمد المتوكل بن عبد الله الغالب ، وقد تولى عبد الله الغالب السلطة فى مراكش بعد وفاة والده محمد المهدى فى سنة ١٥٥٧ ، وظل فى السلطة إلى حين وفاته فى سنة ١٥٧٤. وتولى السلطة من بعده ابنه محمد المتوكل . وبسبب المنازعات والمصاعب الداخلية ووجود أكثر من مرشح السلطة تمكن عمه عبد المالك بن أحمد الأعرج من طرده فى سنة ١٥٧٦ بمؤازرة العثمانيين وتولى عرش مراكش . فالتجأ محمد المتوكل إلى سباستيان ملك البرتغال الذى رحب به وأعد الحملة لإرجاعه إلى السلطة ومد النفوذ البرتغالى على الإقليم . وقد حارب المتوكل فى صفوف سباستيان ولقى حتفه معه عند وادى المخازن قرب القصر الكبير ، وذلك فى أغسطس ١٥٧٨ .

(٧) نزلت القوة البرتغالية فى منطقة أصيلا ، ودارت المعركة عند وادى المخازن قرب القصر الكبير فى الشمال الغربى لمراكش . وقد حقق عبد الملك انتصارا مدويا فى هذه المعركة ، ولكنه كان مريضا ومات يوم انتصاره فصار الفخر كله لأخيه أحمد المنصور الذى أعلن سلطانا على مراكش فى اليوم نفسه . وبذلك يكون قد سقط فى هذه المعركة ثلاثة ملوك هم سباسيان ، والمتوكل ، وعبد الملك ، واشتهرت باسم معركة الملوك الثلاثة .

ويحتفل المغاربة فى ٤ أغسطس من كل عام بهذا النصر الساحق . وفى هذه المعركة لم تفقد البرتغال جيشها وملكها فقط ، بل فقدت استقلالها أيضا . إذا لم يكن هناك وريث للعرش البرتغالى . فمد فيليب الثانى ملك أسبانيا نفوذه إلى البرتغال وممتلكاتها .

وأصبح لمراكش ، لفترة قصيرة ، مكان تحت الشمس . وقد حضر تتويج السلطان الجديد أحمد دبلوماسيون من انجلترا وفرنسا ، وراودت إليزابيث آمال بأن تُتْبِع مراكش انتصارها على البرتغال بحرب ضد أسبانيا . وكان أحمد المنصور – الذى عرف بالذهبى – شابا واسع الاطماع شديد الطموح ، وتوّاقا إلى أن يدخل التاريخ كفاتح عظيم ، لكن لم تكن لديه رغبة فى أن يعرض حياته وعرشه للخطر ببدء حرب مع أسبانيا لمجرد تخفيف الضغط على انجلترا ، وإنما كان يبحث عن فريسة أيسر منالا .

ومرة ثانية أصبح لمناجم الملح دور بارز فى العلاقات ما بين مراكش وغاو . ففى عام ١٥٥٧ أعرب السلطان أحمد عن رغبته فى استئجار مناجم تعازة ، فأرسل بعثة محملة بالهدايا إلى أسكيا داوود لإتمام تلك الصفقة . ولم يكن داوود فى ذلك الوقت شديد الاهتمام بمناجم تغازة ، ووافق على أن يؤجرها للسلطان أحمد مقابل عشرة آلاف قطعة من الذهب.[8] وفى عام ١٥٨١ جاءت الحملة المراكشية على توات ، وهى الحملة التى مكنت السلطان من تقدير الصعاب التى تكتنف إرسال جيش كبير عبر الصحراء ، وأرسل جيش قوامه عشرون ألفا ، ولكنه دفع ضريبة الصحراء القاسية . وكانت نتيجة ذلك أن أرسل السلطان أحمد فى عام ١٥٨٤ بعثة دبلوماسية كبيرة إلى غاو للتعرف على حالة البلاد واستكشاف الطرق ومدى توفر إمدادات المياه . واستقبلت البعثة بحفاوة من جانب أسكيا داوود[9] الذى ظن أن الأخ العظيم فى شمال إفريقية قد أصبح مرة أخرى مَعْنِيًا بالتجارة والثقافة .

---

(٨) «وفى سنة خمس وثمانين وتسعماية ... ليلة الجمعة خمسا وعشرين من شعبان (٧ نوفمبر ١٥٧٧) وفيها تــوفى السلطان مولاى عبد المالك فى مراكش ، وتولى أخوه مولاى أحمد الذهبى فبعث لاسكيا داوود أن يسلم فى خراج معدن تعاز عاما واحدا . وبعث له هو عشرة آلاف ذهبا هدية وعطية خير ، فكان سبب المحبة والوصلة بينه وبينه» تاريخ السودان ، الصفحتان ١١٠ و١١١ . [يلاحظ فى هذا الاقتباس والاقتباسات الأخرى التالية من تاريخ السودان شيئ من الاختلاف فى التواريخ عن المصادر التاريخية الأخرى ، فالمعروف أن السلطان عبد المالك توفى فى سنة ١٥٧٨.]

(٩) المقصود هنا هو أسكيا الحاج الذى تولى سلطنة السنغى بعد وفاة أبيه أسكيا داوود فى أغسطس ١٥٨٢ (رجب٩٩٠) وخلع منها فى ديسمبر ١٥٨٦ (ذى الحجة٩٩٤) . «ثم ارسل السلطان مولاى أحمد الشريف الهاشمى رسوله إلى أسكيا الحاج بهدايا عجيبات وقصده فى ذلك الاطلاع على حاله بلاد التكرور لأنه عزم على بعث رسوله إلى كاغ فتلقّا أسكيا بالاكرام وأرسل له عند رجوع مرسوله أضعاف ما أرسل هو من الهدايا.» تاريخ السودان ، الصفحة ١٢٠ .

وطوال هذه الفترة كان لمراكش مزية تتفوق بها على غاو . فالتجار فى المدن السودانية هم أساسا من العرب ، وكما كانت الحال فى المنطقة الساحلية ، فإن طبقة كومبرادورية كانت تسيطر على الحياة الاقتصادية فى البلاد . وكان الكومبرادور يعملون فى تعاون وثيق للغاية مع رؤسائهم من التجار العرب المسيطرين على المدن ، وفى البلاط كانت لهم مزية كبيرة . فهم يعرفون اللغة العربية ، لغة النبى، وينتمون أو يدعون الانتماء إلى عائلات الصحابة . ولما كان الملوك وأبناء الطبقات العليا من المسلمين ، فقد رحبوا بإخوانهم فى الدين الأوسع علما القادمين من الشمال . ومع ذلك فإن العرب لم يكونوا ينظرون إلى الزنجى ، حتى وإن كان مسلما، كند لهم ، ومن ثم فقد كانوا يعملون لصالح سلاطين مراكش ، تساندهم فى ذلك طبقة معينة من التجار الزنوج المسلمين وأبناء الطبقات المتعلمة المسلمة ، إذ كانوا يؤمنون بأن الشمال بإسلامه الأكثر نقاء قد يكون من الناحية الفعلية أقدر على جلب الخير للسودان . والتجارة كالعادة سبقت العَلَم ، وكانت مصحوبة بالدين ، والآن كان على العَلَم أن يتبعها .

واستنادا إلى السعدى ، فإن السلطان أحمد أرسل بعد عودة البعثة جيشا قوامه عشرون ألفا ولكنه هلك فى الصحراء.[10] وعندئذ قدم إنذاراً إلى السنغى يطالبهم فيه بالتنازل عن تغازة والاعتراف بالسيادة المراكشية ودفع جزية مقدارها مثقال من الذهب لقاء كل حمل من الملح إسهاما منهم فى جيش الإسلام . فبعث إليه إسحاق الثانى ، الذى يتولى السلطنة ، برد ملئ بالسخرية قوامه حزمة من الأقواس والحراب على سبيل الهدية ، وراح أحمد يتحين الفرصة.[11]

---

(١٠) «.. وبعد ذلك وردت الأخبار أنه بعث جيشا فيها عشرون ألفا رجالا إلى جهة ودان وأمرهم بأخذ ما هنالك من البلدان على شاطيء البحر وغيرها حتى يصلوا إلى بلاد تنبكت فتخوف الناس من ذلك غاية الخوف ثم شتت الله ذلك الجيش بالجوع والعطش ، فتفرقوا شذر مذر ورجع من بقى منهم إليه وما قضوا شيئا من مراده بقدرة البارئ تعالى ....» ، تاريخ السودان ، الصفحة ١٢٠.

(١١) «... ومن جملة ماخاطبه فيه مولاى أحمد أن يسلم له فى خراج معدن تغاز ... فلم يساعفه الأمير أسكيا إسحاق بما طلب من التسليم فى ذلك المعدن بل قبّح له الكلام فى الجواب وبعث له صحبة جوابه حرشانا ونعلين من حديد ، فلما وصله ذلك عزم على صرف المحلة إليه بالغزو ....» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٣٧و١٣٨ .

[الحرشان هى الحراب : أسكيا إسحاق المشار إليه فى هذا الاقتباس هو أسكيا إسحاق الثانى الذى تولى سلطنه السنغى فى الفترة من ١٥٨٨ إلى ١٥٩١ بعد وفاة أسكيا محمد بان .]

حانت هذه الفرصة فى عام ١٥٨٩ . ففى ذلك العام قدم إلى مراكش ولد كرنفل ، وهو زنجى من السنغى استنادا إلى بعض الرواة ، وبربرى استنادا إلى بعض أخر . وزعم أنه أخ أكبر للأسكيا وأنه هرب من مناجم تغازة ، حيث كان أخوه قد أودعه السجن ، وطالب بتاج غاو ودعا السلطان إلى تأييد مطلبه .(١٢) فاغتنم أحمد الفرصة ، ودعا مجلسا من مستشاريه ، وعارض المجلس إرسال حملة إلى السودان ، وقال الأعضاء إن خطر عبور الصحراء يشكل حاجزاً لايمكن التغلب عليه، وإن أرباح التجارة مع السودان رغم كل شيئ تتدفق على خزائنهم ، وإنه ليس هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن الغزو سيزيد من حجم تدفق الذهب . ولكن السلطان مع ذلك لم يتزحزح عن موقفه ، اعتقادا منه أن الغزو سيؤدى إلى مزيد من الاستثمار لمناجم الذهب وإلى زيادة ثراء الجميع . كما أن حاكم غاو لا ينتمى إلى قبيلة قريش ، وما دام قد رفض الاعتراف بالشريف سيدا له يكون من الضرورى غزو السودان . وقال لسلطان أحمد إن الطريق إلى السودان ليس حاجزا منيعا : «ألا يعبر التجار العزل عديمو الحيلة الصحراء بانتظام؟» ثم إن أحمد يملك ناصية التفوق العظيم الذى حققه المراكشيون على أهل السودان – فلديهم البارود والأسلحة النارية – ولذا فلا بد أن يكون الغزو سهلا .

واختار أحمد لقيادة قوات الحملة خصيًا أندلسيًا قصير القامة أزرق العينين يدعى جودار(١٣) ، وأنعم عليه بالباشوية . وكان جودار قبل ذلك يعمل جابياً للضرائب، وكان وقت توليه هذا المنصب لايزال فى مرحلة الشباب ويفتقر إلى أية خبرة حربية . ويعد هذا الاختيار ضربة من ضربات الحظ ، إذ كان أكثر رفاق سنه

---

(١٢) «ذلك أن ولد كرنفل ، وهو رجل من خدام أمراء سنغى غضب عليه الأمير أسكيا اسحق بن داوود بن لأمير أسكيا الحاج محمد فبعثه إلى تغاز برسم السجن هنالك وهو من بلادهم الذى فى ملكهم وحكمهم فكان من قدر الله انطلاقه من ذلك السجن وهرب إلى مدينة حمراء مراكش عند أميرها الشريف مولاى أحمد الذهبى ولم يدركه فيها ... فكتب ولد كرنفل كتابا وبعثه له فأخبره بمجيئه وبأخبار أهل سنغى وبما كانوا عليه من الأحوال الذميمة والطبائع الرذيلة مع ضعف القوة وحضه على أخذ الأرض من أيديهم فكتب الكتاب إلى الأمير أسكيا إسحاق بعد مابلغه كتاب ولد كرنفل وأخبره بمجيئه إليهم .» تاريخ السودان ، الصفحة ١٣٧ .

(١٣) «مجئ الباشا جودار لبلاد السودان ، وهو فتى قصير أزرق ...» تاريخ السودان ، الصفحة ١٣٧ .

من الأسبان شهرة ، والأسباني الوحيد ، من بين الأسبان الكثيرين الذين عملوا في خدمة الدولة المراكشية ، الذي يمكن مقارنته بالكونكويستادورات[14] العظام . فعصبة الأسبان التي فتحت السودان لصالح مراكش يمكن مقارنتها من حيث البسالة والشجاعة والإقدام ، أو من حيث حبها للمغامرة ، بالجماعات التي صحبت كورتيز[15] إلى المكسيك أو بيزارو[16] إلى بيرو . وهذه المقارنة ليست بالتأكيد في صالح جودار ورفاقه . فقد صحبت جودار نخبة قوامها ألفان من المشاة المسلحين بالبنادق ، وخمسمائة من الخيالة بأسلحة مماثلة ، وألف وخمسمائة من حملة الرماح، وستمائة من رجال المقدمة ، وألف من راكبي الجمال . كما زودت الحملة بستة مدافع كبيرة وأسلحة صغيرة كثيرة أقل حجما . وتكونت وسائل النقل من ثمانية آلاف جمل وألف من خيول الحمل.[17] وكان معظم حملة البنادق وكل رجال المدفعية تقريبا من الأسرى المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام . واستخدمت الحملة اللغة الأسبانية لغة رسمية لها .

---

(١٤) الكونكويستادور بالأسبانية معناه الفاتح ، وهو مصطلح يطلق على المحاربين الأسبان الذين ارتادوا أجزاء من العالم الجديد في القرن السادس عشر وفتحوها عنوة عن طريق الحروب . وقد استطاعوا بعزيمتهم وشجاعتهم أن يخضعوا غالبية مناطق أمريكا الجنوبية وجميع أمريكا الوسطى لأسبانيا ، وكذلك أجزاء كبيرة من جنوب أمريكا الشمالية وغربها . ومن مشاهير هؤلاء الفاتحين الماجرو وبيدراريان وبيزارو وكيسادا وفالديفيا وكورتيز .

(١٥) إيرنان (أو إرنناندو) كورتيز : (١٤٨٥-١٥٤٧) ، من أوائل الفاتحين الأسبان ، خدم في أمريكا اللاتينية وكوبا ، ثم ذهب إلى المكسيك في عام ١٥١٩ لفتحها ، وقاد حملة إلى هندوراس (٢٤-١٥٢٤) .

(١٦) فرانسيسكو بيزارو : (١٤٧٦-١٥٤١) ، فاتح أسباني مشهور ، صحب أوهيدا إلى كولومبيا في عام ١٥١٠ ، وبالبورا في استكشاف المحيط الهندي . تسلق جبال الأنديز إلى كاهاماركا ، وبعد أن ضمن فتح بيرو شرع في إقامة مستوطنات جديدة (من بينها ليما) ، وأنفذ شريكه الماجرو لفتح شيلي .

(١٧) «فلما وصله ذلك عزم على صرف المحلة إليه بالغزو وفي القابل (أي السنة التالية) في شهر المحرم فاتح عام التاسع والتسعين بعد تسعماية بعث المحلة الكبيرة إلى سقي لقتالهم فيها ثلاثة آلف راميا ما بين أصحاب الخيل والرجل ومعهم من الأتباع ضعفها كل صنف وأجناس من الصناع والأطباء وغيرهما جعل عليها الباشا جودار ومعه نحو عشرة من القياد القائد المصطفى التركي والقائد ...» تاريخ السودان ، الصفحة ١٣٨ . [أول محرم ٩٩٩ يقابل ٣٠ أكتوبر ١٥٩٠.]

وفى ١٦ أكتوبر ١٥٩٠ بدأت الحملة مسيرتها ، وشقت طريقها مارة بتندوف وتغازة وتاوديني . وبعد مسيرة ١٣٥ يوما ، فى ٢٨ فبراير ١٥٩١ ، وصلت إلى مدينة كاربارا إحدى مدن النيجر ، بالقرب من مدينة بمبا الحالية . وكانت الرحلة طويلة وشاقة ، ولابد أن الخسائر كانت فادحة . واستنادا إلى تاجر إنجليزى مقيم فى مراكش فإن الحملة فقدت ثلث قوتها الضاربة قبل وصولها إلى النيجر .

ولم يخل عبور الصحراء من الأحداث . فالسنغى لم يكونوا يتوقعون الغزو ، وقد أقاموا شأنهم شأن الدول الأخرى التى عاشت فى ظروف مماثلة سلسلة من الاستحكامات ، وغامرهم إحساس بأن الصحراء الكبرى يمكن أن تحمى ظهورهم ، مما أعطاهم شعورا زائفاً بالأمن فلم يتخذوا الاحتياطات اللازمة من قبيل تسميم آبار الطريق . وعندما ترامت أنباء الغزو إلى أسماع الأسكيا كان المراكشيون قد دخلوا أرضيه فأمر بتسميم الآبار ، بيد أن ذلك جاء متأخراً للغاية ، فالمراكشيون على الأبواب والصحراء الكبرى تم عبورها ، وأصبح على سهام إسحاق وحرابه أن تواجه حملة البنادق الأسبان والمراكشيين .

أخذ إسحاق يستعد للحرب بجد واهتمام . ولما كان المراكشيون قد تغلغلوا فى أراضية وأصبحوا بين غاو وتمبكت ، فإ المبادرة كانت فى يد جودار . وقرر جودار السير نحو غاو ، لذلك قرر الأسكيا ، بكل مالدية من قوات ، أن يقطع عليه الطريق . وناشد جودار السنغى التسليم ، ولكن الأسكيا بجيشه المكون من إثنين وأربعين ألفا كان عاقد العزم على المقاومة . والتقى الجيشان فى تنتبى على النيجر.[18] ولم تكن لدى غاو أية قوات مدربة ، بل مجرد حشد إقطاعى فى مواجهة جيش صغير ولكنه عالى التدريب . وسيّر السنغى فى أول الأمر أعدادا كبيرة من الماشية فى اتجاه المراكشيين ، ولكن هؤلاء فتحوا خطوطهم وتركوا الماشية تمر خلالها . وبدا جيش غاو عاجزاً عن إبداء أية مقاومة فعالة إزاء مدفعية جودار . وهزم السنغى

(١٨) « فتوجهوا إلى بلد كاغ فتلقاهم الأمير أسكيا إسحاق فى موضع يقال له تَنْكُنْدِيبُعُ وهو فى قرب تنتبى فى اثنى عشر ألفا وخمسمائة مٍن الخيل وثلاثين ألفا من أرباب الرجل ولم يلتئم عليه العسكر لأن أهل سغى ماصدقوا بخبرهم حتى نزلوا على البحر فاقتتلوا هنالك يوم الثلاثاء السابع عشر من الشهر المذكور (١٧ جمادى الآخرة ٩٩٩ - ٢ أبريل ١٥٩١) فكسروا جيش أسكيا طرفة عين .» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٣٩ و ١٤٠ .

بسهولة ماعدا نخبة منهم ركع أفرادها وقيد كل منهم ساقيه بساقى من بجانبه كيلا يتراجع أحد منهم ، وظلوا يطلقون السهام حتى فنوا عن آخرهم.(١٩)

وفى غضون ذلك قام إسحاق بتكوين جيش آخر ، ولكن الفع بكر لنبار ، وهو الشيخ الذى رافق الأسكيا ، أقنعه بألا يحارب . وكان هذا الشيخ ، كما يقول محمود كعت ، هو عبقرية السنغى الشريرة ، وقد نصح الأسكيا بألا يكون سببا فى قتل إخوته فى الدين ، وبأن يخشى الله ، فلابد أن يتحمل وزر جميع من قتلوا فى ذلك اليوم . وأشار على الأسكيا بأن يرجع ليتامل ويتعبد ، وإذا مادعت الضرورة فليحارب فى اليوم التالى . وفى النهاية حسم الأمر وأمسك بعنان فرس الأسكيا وقاده بعيدا عن أرض المعركة ، وعاد الأسكيا بجيشه سليما إلى غاو ، ولكن دون أية رغبة فى القتال.(٢٠)

---

(١٩) «ومات كثير من كبراء أهل الرجل يومئذ لما انكسر العسكر طرحوا دروقهم على الأرض وقعدوا عليه متربعين حتى وصلهم جيش جودار وقتلوهم صبرا على تلك الحال لأن من شأنهم عدم الفرار عند الانكسار» المرجع نفسه . الصفحة ١٤٠ .

«فقال إن أسكى لقيهم بثمانية عشر ألف فارس مقاتل ... وتسعة آلاف راجل وسبعماية منهم اثنى عشر سُوتَة بعصيهم فلما دنى منهم رجلية الرماة جثوا على ركبتهم يرمون بالرصاص وقد ساق ألف بقرات معه حين صف قتالهم وجعلها بينه وبين القوم وينزل عليهم الرصاص ويتبع رجاله البقرات حتى تخالطوا بهم فلما أحس البقرات بأصوات مدافعهم ولّوا على أصحاب أسكى حازمين متحيرين وصدم منه كيثرا ومات أكثرهم» تاريخ الفتاش الصفحة ١٤٧. [تقول حاشية بالترجمة الفرنسية ، الصفحة ٢٦٤ ، «إننا لا نعرف معنى كلم سوته» .]

(٢٠) «وعند ذلك نزل أسكى الفع بكر لنبار وأخذ بلجام أسكى .. ثم قال أسكى الفع المذكور اتق الله ولا تقتل نفسك وتقتل إخوانك وتهلك سنغى كلها مرة واحدة فى موضع واحد ... ولا نأمرك بالهروب وإنما نقول لك أن تخرج بهم من مقابلة هذه النار اليوم ثم تنظر فى الرأى ما نفعل ونرجع إليهم غدا بعزم وحزم ... وهو ومن معه من شجعانه ورؤساء قومه يأبون إلا القتال ... ثم لم يزل أسكى الفع به حتى غلبه وبيده عنان فرس أسكى يقوده ويهربه فلما رأى أصحاب أسكى أنه أدبر وتولى لم يقف بعده أحد منهم بل اتبعوه سوى الذين يقال لهم سونه وهم تسعة وتسعون لم يتحرك أحد منهم وبقوا جالسين تحت تروسهم وأدركهم أصحاب جوذر قاعدين فقتلوهم أجمعين .» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٤٧ و ١٤٨ .

وكان هدفه عندئذ هو عبور النهر ، وطلب إلى أهالى غاو وتمبكت أن يعبروا ، ولكن رئيس الميناء ولى هاربا ومعه القوارب.[٢١] وبعد أن تخلى إسحاق عن كل فكرة فى القتال ، بدأ فى نهاية الأمر المفاوضات مع جودار الذى كان قد دخل غاو . وكانت لدى جودار بدوره رغبة فى التفاوض . فلقد شاهد غاو على الطبيعة ، وكان ذلك كافيا كى يطرح جانبا أية أفكار عن ثراء السودان . ووجد لدى إسحاق استعدادا للاعتراف بسيادة مراكش ، ولأن يدفع مائة ألف مثقال من الذهب وألفا من الرقيق ، ولأن يسمح بتصدير الملح والأصداف ، مقابل الانسحاب العاجل من السودان . ولكن جودار لم يكن مخوّلا أية سلطات للتفاوض ، ولذلك عرض المقترحات على البلاط المراكشى.[٢٢] غير أن أحمد لم يدرك ماناله من حظ طيب ، وأعلن تبرمه من نتائج الحملة الهزيلة ، ورأى أن إحداث تغيير فى قيادتها يمكن أن يحقق نتائج أفضل . وهكذا بينما أعلن لرعاياه أن نصرا كبيرا قد تحقق فى السودان ، قرر المضى فى الحرب بحمية أكبر . ووقع اختياره على محمود بن زرقون ، وهو أسبانى آخر اعتنق الإسلام ، ليحل محل جودار على ضفاف النيجر.[٢٣] وأقلع محمود باشا إلى السودان

(٢١) «فولى الأمير إسحاق وعسكره مدبرين منهزمين فبعث لأهل كاغ أن يخرجوا منه فرارا إلى جهة البحر ... فكان بكاء ونوحا فيها وارتفعت الأصوات بذلك ارتفاعا عظيما وشرعوا فى الخروج واقتطاع البحر فى القوارب بالمشقة والازدحام ... وأما أهل تنبكت فلم يمكن لهم الخروج والفرار إلى وراء البحر لأجل المشقة وثقل الحال» تاريخ السودان ، الصفحتان ٤٠ و ١٤١.

« ... لأن صاحب المرسى منذ الفع ولد زرك هرب بجميع القوارب إلى ناحية بنك لما بعث إسحاق لأهل تنبكت بالارتحال ...» المرجع نفسه ، الصفحة ١٤٥ .

(٢٢) «ثم أنه رام الدخول فى دار الأمير أسكيا إسحاق فأمر باحضار الشهود فحضروا ودخل معهم فيها فلما طالعها وعاينها وعلم ما فيها حقّرها وبعث له الأمير إسحاق إنه يصالح معه على ماية ألف ذهب وألف خديم يعطيها للأمير مولاى أحمد على يده ويرجع الجيش إلى مراكش ويسلم له فى أرضه فبعث له أنه عبد مأمور لاتصرف له إلا بما أمره مولاه السلطان مكتب له بذلك ... فرجع إلى تنبكت مع أولئك الجيش لينتظر الجواب .» المرجع نفسه، الصفحة ١٤١.

(٢٣) « ولنرجع إلى الكلام فى تمام ذلك الصلح فلما بلغ المرسول بشوط على العجمى عند السلطان مولاى أحمد وهو أول من أتاه بخبر فتح أرض السودان وقرأ ذلك الخطاب غضب غضبا شديدا عزل جوار ساعتئذ وبعث محمود بن زرقون باشا بثمانين راميا ... وأمره بطرد إسحاق من أرض السودان وقتل القائد أحمد ابن الحداد العمرى حيث اتفق مع جودار على ذلك الصلح ...» المرجع نفسه ، الصفحة ١٤٤ .

بصحبة حرس قوامه أربعون أسبانيا ممن اعتنقوا الإسلام ، بعد أن حصل على إذن بتكوين جيوش غير نظامية فى السوس ، وقرر أن يستخدم النيچر كوسيلة للمواصلات وأن يبنى قوارب من أجزاء فى درعة يمكن نقلها إلى النيچر.(٢٤)

وهكذا بينما كان أحمد يستعد لمواصلة الحرب بحمية أكبر كان إسحاق عاكفا على إرضاء جودار بكل وسيلة ممكنة . وكانت حالة الجيش المراكشى يرثى لها ، فالمناخ شديد الوطأة عليه ، والموت يعصف بأفراده حتى لقد مات أربعمائة منهم فى أربعة عشر يوما ، بل إن دواب النقل بدورها كانت تنفق تباعا ، لذلك أشار إسحاق على جودار بالتحرك نحو تمبكت ، لأنها ليست أفضل حالا فقط ، ولكن أطيب مناخا أيضا . وتملكت إسحاق الرغبة فى استمالة جودار حتى لقد زوده بوسائل النقل . وانتقل جودار إلى تمبكت وراح ينتظر قدوم الرسل من مولاه .

ولم يؤد وصول محمود باشا إلى إفساد خطط السنغى وحدهم ، بل خطط جودار أيضا . وفقد جودار منصبه . وكان هدف محمود أن يحصل على أكبر قدر من الذهب ، ولهذا رأى ضرورة إخضاع البلاد كلها لسيطرته ، وشرع فى حماسة شديدة فى بناء القوارب بقطع كل ما تيسر له من أشجار ، بل إنه استخدم أخشاب الأبواب والنوافذ.(٢٥) بيد أن الأسكيا لم يكن غافلا عما يحدث ؛ فقد أرسل قائد أسطوله هيكُىْ على رأس ألف من خيرة قواته للقضاء على نشاط المراكشيين،(٢٦) ولكن

---

(٢٤) «فعزل (محمود بن زرقون) جودار ساعتئذ وتحول الجيش معه وبالغ له فى الملامة والإنكار عليه حتى قال له أى شيئ منعك من اللحوق إلى إسحاق فاعتل له بعدم القوارب ولذلك شرع فى صنع القوارب .... ثم إن محمودا عزم على الحركة إلى أسكيا أسحاق فاشتغل بإصلاح القوارب لأن صاحب المرسى منذ الفع ولد زِرْكَ هرب بجميع القوارب إلى ناحية بِنْكَ ....» المرجع نفسه ، الصفحة ١٤٥ .

(٢٥) خلط پانيكار بين الأحداث ، فالذى صنع القوارب من الأشجار وأخشاب الأبواب والنوافذ ليس محمود زرقون ، بل أهالى تمبكت ، كما يتضح من الاقتباس التالى : « لما بعث إسحاق أسكيا لأهل تنبكت بالارتحال فقطعوا جميع الأشجار الكبار الذين كانوا فى داخل مدينة تنبكت ونجروا منها الألواح وغصبوا الدفوف الغلاظ الكبار الذين كانوا فى أبواب الديار وركبوا منهن قاربين أنزلوا الأول فى البحر يوم ... ثم انزلو الثانى ... فبرز الباشا محمود مع الجيش كلها يوم الإثنين العشرين من الشهر المذكور (٢٠ ذى القعدة ٩٩٩ - ٩ سبتمبر ١٥٩١) ومعه الباشا جودار المعزول ....» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٤٥ و ١٤٦ .

(٢٦) «بعث الأمير آسكيا إسحاق الفا ومايتين فرسانا من خيار عسكره الذين لا يولون الادبار وجعل عليهم هيكى لَه سركيا وهو قد بلغ الغاية والنهاية فى النجدة والشجاعة ....» المرجع نفسه ، الصفحة ١٤٨.

الانقسامات بين الأمراء أدت إلى كارثة . وما إن انتهى محمود من بناء القوارب حتى شرع فى مطاردة الأسكيا ، وصحب معه جودار كى يأمن جانبه . وفى بَنْب تعرض إسحاق لهزيمة ثانية كانت نتيجتها ثورة فى القصر ، وحل محمد كاغ (غاو) محل إسحاق . وفر إسحاق إلى كُرْمَ وأخذ معه «جميع ماعنده من عدد السلطنة وآلاتها».[٢٧] وفى كُرْم قام الوثنيون بقتل آخر حاكم مستقل لغاو .

وكان محمد كاغ شديد الاهتمام بتحقيق السلم شأنه شأن أسكيا إسحاق ، فبدأ محادثات مع المراكشيين . وكانت تمبكت تعانى المجاعة ، فسارع الأسكيا بارسال المواد الغذائية إلى المراكشيين الذين أو شكت مواردهم على النفاد.[٢٨] وبعث بسفيرين -أسكيا الفع [٢٩] وهيكىْ- إلى الباشا [٣٠] الذى طلب أن يقسم الأسكيا

---

(٢٧) «فعن قليل بايع أولئك الجماعة محمد كاغ وجعلوه أسكيا فتجهز إسحاق للذهاب إلى ناحية كَبِ فلما عزم قبض كبراء الجند الذين اتبعوه جميع ماعنده من عدد السلطنة وآلاتها وشيعوه إلى موضع يقال به تارْ فتفارقوا معه هنالك يستغفر منهم ويستغفرون منه فبكى هو ويبكون فهذا آخر العهد بينهم ثم توجه إلى تُنْفَنى عند كفار كُرْمَ بقدرة البارئ تعالى الذى لا راد لأمره ولا معقب لحكمه وقد قاتلهم العام الماضى ... فقتلوه وابنه وجميع من معه..... وكان موته والله أعلم فى جماد الآخر فى العام المكمل للألف» المرجع نفسه ، الصفحة ١٤٩ .

(٢٨) «ثم إن المجاعة دخلت فى محلته (محمود بن زرقون) حتى أكلوا دوابهم فبعث لأسكيا محمد كاغ أن يغيثهم بالطعام أينما كان فأمر بحصاد ما صلح هنالك من الزرع فى جهة حَوْصْ وهو الذرة الأبيض فبعثه لهم .» المرجع نفسه ، الصفحة ١٥٠ .

(٢٩) هو أسكيا الفع بكر لَنْبارْ (أنظر الحاشية ٥-٢٠ أعلاه) ، كما ورد فى تاريخ الفتاش أيضا تحت اسم أسكيا الفع بكر الأنبارى . وقد عمل اسكيا الفع بكر لنبار سكرتيرا لأسكيا داوود وخلفائه ، وعبارة «أسكيا الفع» تعنى لدى السنغى «أسكيا الفقيه» ، ويقال إن كلمة الفع تحريف الكلمة العربية الفاهم .

(٣٠) «ثم أن الباشا محمود بعث له أن يأتى لأخذ البيعة فعزم على ذلك ونهاه عنه أصحاب الرأى من قومه منهم هيكىْ لَهْ ..... فلم يصوِّب الرأى الكاتب بكر لنبار المذكور فساروا إليهم جميعا فلما قربوهم بعث أسكيا محمد كاغ من يستأذن لهم فبعث الباشا محمود نحو أربعين رجلا من أعيان الجيش وكبرائهم للقائهم بلا عدة ولا سلاح فاشار إليه هيكى بقتلهم .... فلما رءاه الكاتب المذكور حلف لأسكيا إنه ليس عند الباشا محمود إلا الأمان التام بعهد الله وميثاقه فسمع له ذلك وعمل عليه فلما دنوا منه سلموا عليه وبلغوا له سلام الباشا محمود وأنه يرحب به فتقدموا قدام أسكيا وأصحابه وقد احضر لهم شباك الخداع والغدرة ... أما أسكيا محمد كاغ فقيِّد فى الحديد وقيدّ معه ثمانية عشر رجلا من رؤسائه منهم هيكى لَهْ ....» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٥٠ و ١٥١ .

«وتحدث الناس أن الكاتب بكر لبنار هو الذى غدر محمد كاغ وأصحابه وباعهم للباشا محمود حتى تمكن منهم فقال لبعض أصحابه فى تنبكت لما سكن فيه بعد جميع الوقائع هذا الذى نسب إلى من الغدرة فوالله العظيم ما كان وما أخبرت محمد كاغ إلا بما يعلم الله فىَّ من النصح اتكالا وثقة على ما حلف لى محمود فى ذلك وما غدر إلا هو فغدرنى وما غدر محمد كاغ ....» المرجع نفسه ، الصفحة ١٥٢ .

يمين الولاء للسلطان فى حضرته ، وعارض هيكىْ فى ذلك ، ولكن أسكيا الفع أقنع أسكيا محمد كاغ بأن ذلك هو الحل الأفضل فى ظروف كهذه . واستقر رأى الأسكيا على القيام بزيارة الباشا . وتقدم المراكشيون لمقابلة السنغى ، ومرة أخرى توسّل هيكى إلى الأسكيا أن يغتنم الفرصة بكلتا يديه وأن يقتل المراكشيين . ولكن مصير محمد كاغ كان قد تقرر بالفعل ، ذلك أنه وقع من جديد تحت تأثير أسكيا الفع ووثق بالمراكشين تماما . ودعا محمود باشا ضيفه الملكى إلى الغداء ، وعندئذ وُضع أسكيا محمد كاغ وكل رجال حاشيته البارزين ، فيما عدا أسكيا الفع ، فى الأغلال .

وسيق الأسرى إلى غاو فى الأغلال . وأشار عليهم هيكى الذى يفضل النضال دائما بأن يستخدموا أغلالهم ضد آسريهم ، وأن يقتلوا على الأقل بعضا من المراكشيين ، غير أن الأسكيا كان لا يزال يؤمن بفضائل الصبر . وفى غاو أودعوا السجن حتى تصل الأوامر من السلطان بقطع رؤوسهم.(٣١)

ويشير موت أسكيا محمد كاغ إلى مرحلة فى تاريخ السودان ، وأصبح على أمجاد غانة ومالى والسنغى أن تتحول إلى مجرد ذكريات ماض بعيد ، ذكريات ظلت مترسبة فى وجدان الشعب . وأصبحت السنين الثلاثمائة التالية فترة ممالك سريعة الزوال ، وحروب مستمرة ، وغارات من جانب المراكشيين والطوارق . ولم يعرف السودان عند منحنى النيجر طعم السلم مرة أخرى إلا مع مجئ الفرنسيين.(٣٢)

ومع ذلك لم تتوقف المقاومة على الإطلاق . والحقيقة أن السنغى أبدوا مقاومة أفضل من كل مقاومة أبدوها من قبل ، ونصّب المرّاكشيون فى غاو أسكيا عميلا ، هو الأسكيا سليمن(٣٣) ، ولكن السنغى الذين تراجعوا إلى موطنهم الأصلى فى دندى

---

(٣١) «فبعثهم (محمود باشا) إلى كاغ عند القائد حم بركة وقد خلفه على ذلك وأمره بسجنهم فى بيت دار سلطنتهم ثم بعد ذلك أمره بقتلهم وطيّح عليهم ذلك البيت فكان قبرهم الاهيكُىْ لَهُ وحده فلما دخلوا المدينة امتنع لهم من الذهاب استعجالا للموت فقتل هناك وصلب ....» المرجع نفسه ، الصفحة ١٥١ .

«وقيل إن أسكيا محمد كاغ ما استأخر فى الدنيا بعد وفاة اسحاق إلا أربعين يوما ....» المرجع نفسه ، الصفحة ١٥٢ .

(٣٢) وهل عرفوا طعمه حقا مع مجى الفرنسيين !!!!

(٣٣) «وأما سليمن بن الأمير أسكيا داوود فقيدوه مع المقبوضين ثم كلمه أهل الرأى فسرّحه وبقى عندهم مع أناس قلال منهم ... » المرجع نفسه ، الصفحة ١٥٢ .

«فجعل الباشا محمود سليمن أسكيا على من بقى من أهل سغى ....» المرجع نفسه ، الصفحة ١٥٣ .

استطاعوا أن يحتفظوا بالجنوب كله . وكان الأسكيا الموجود في دندى هو نوح إبن أسكيا داوود.(٣٤) وأثبت نوح أنه قائد فُطِر على حرب العصابات . فقد نظم مقاومته على هذا الأساس. وعلى الرغم من أن النصر لم يكن حليفه في معظم معاركه، فإنه لم يكن يتيح للمراكشيين فرصة لتدعيم قوتهم . وقد طارد محمود باشا السنفي حتى كبّ وأوقع بهم الهزيمة في موقعة وام في عام ١٥٩١ (١٠٠٠ –١٠٠١هـ) ، غير أن الهزيمة زادت من تصميمهم على القتال ، وفي عام ١٥٩٣ أوقع السنفي الهزيمة بالمراكشيين في بُرّني.(٣٥)

---

(٣٤) «وحين بعث محمد كاغ في إطلاق أخويه المسجونين فار منذ المصطفى ويُقْتَل فرم نوح وهو أصغرهما سنا ونوح أصغر من المصطفى سنا فرحا فرحاً شديدا وعزما متى وصلا إليه يكرمان شأنه حتى يمشيا قدامه متى ركب في نعليهما فتلقيا في الطريق بخبر هذه المصيبة وهي قبضته مع جماعته فوليا راجعين إلى أرض دند واجتمع عليهما جميع من كان من أهل سغي واتفقوا مع نوح أن يولوا أمرهم فاري منذ المصطفى ليكون أسكيا ولم يقبل فقال لهم نوح أفضل وأبرك والبركة حيثما جعلها الله تكون لاتختص بالكبر ولا بالصغر فبايعوه ...» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٣٥) «ثم أن الباشا محمود جهز جيشه فتبع أسكيا نوح إلى أرض دند فوصل معه موصلا في ذلك حتى أن أهل الأرض كُنْتَ يسمع أصوات مدافعهم للمقاتلة بينهم في يوم واحد ... ولم يزل الباشا محمود يتبعه بالغزو حتى بني قصبة في بلد كُنّ ... وجرت بينهما هنالك وقائع كثير شداد وكان يتبع نوحا في يوم حتى وصل مع جيشه بطحاء واسعة كبيرة جدا ... وكانت بينهما في ذلك الأرض معارك هائلة كثيرة ونال منهم أسكيا نوح مع قلة أتباعه مالم ينل منهم إسحاق أسكيا مع كثرة اتباعه ولو بعشر العشر ومات من أصحاب الباشا محمود يوم بُرّني ثمانون رجلا من خيار أرباب الرجل ...» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٥٣ و ١٥٤ . [يتضح من هذا الاقتباس أن محمود باشا طارد السنفي إلى كُنْتَ وليس إلى كبّ.]

«ومتى قدم وجد نوحا قد ذهب وهرب إلى دند فلما تبعه الباشا محمود وجوذر وجيشهما يقتفون اثاره وهم لايشعرون بأنهم على آثارهم نزلوا بمكان يسمى وام ومعه جم غفير من أهل سنغي والرجال والأطفال والعبيد والأماء ينتجعون معه من أهالي كاغ ونواحيها وأدركهم محمود بن زرقون هنالك نازلين وقت القيلولة فما نبههم إلا رهج الخيول ... وماكان إلا كلمح البصر ونوح جالس فأمره أصحابه بالركوب والهروب إلى أين قد هربنا إلى أن عجزنا ونصبر اليوم حتى نموت على دين الإسلام ونستريح فحملوه اخوانه وأركبوه وفروا به ... ويسمى هذا اليوم الذي لحقهم فيه الباشا محمود يوم وام يوم سفكوا دماءهم وسبوا ذراريهم ...» تاريخ الفتاش ، الصفحة ١٦٨.

«ولنرجع إلى ذكر رجوع الباشا محمود إلى تنبكت وقد تقدم أنه استاخر في أرض دند عامين في المحاربة مع أسكيا نوح ولم يظفر بمراده فيه ...» تاريخ السودان ، الصفحة ١٦٨

وكان للمراكشيين متاعبهم أيضا فى الأراضى التى سيطروا عليها . فانهيار أسرة الأساكى أسفر عن عدم وجود حكومة منظمة هناك . كما أن قبائل الطوارق والبمبرة وغيرهم ، سواء فى الصحراء أو فى السودان ، اجتاحتها رغبة فى الانغماس فى الملذات التى يوفرها نهب المدن . فما إن غادر محمود باشا مدينة تمبكت حتى هاجمها الطوارق ، وعلى الرغم من أنهم هزموا فى ميدان القتال فقد تمكنوا من دخول المدينة ، وعجز الحاكم مصطفى عن مواجهتهم،[٣٦] فأرسل القائد مامى بن برّون على رأس ثلاثمائة من الرماة لقمع الثورة فى تمبكت ، وهى الثورة التى مكّنت الطوارق من اقتحام المدينة . وتغلب إبن برّون على الشعب برفق وأناة ظهرت نتيجتهما ليس فى تمبكت فقط ، بل فى چنى أيضا ، وذلك لأن چنى عندما تعرضت لتهديد البمبرة آثرت أن تقسم يمين الولاء للسطان،[٣٧] وبعد تغلبه على سكان المدينة استدار نحو الطوارق ، وكان هجومه عليهم عنيفا بدرجة انخفض معها ثمن الرقيق فى السوق.[٣٨]

وخضعت تمبكت لنفوذ أحد أعضاء الأسرة المالكة ، وهو بكُر الذى نظم ثورة أخرى ، غير أن القائد استطاع قمعها ، ولكن ما إن غادر القائد المدينة حتى ظهر الطوارق خلف الأسوار وتمكنوا من طرد المصطفى الذى لم يقهر من قبل . ورفض

---

(٣٦) «وقد تضرروا من طول ذلك المكث فى الأرض تضررا فادحا عظيما من كثرة التعب وامتداد الجوع والتعرى والمرض من وخم الأرض .. ولما طالت المشقة على الباشا محمود فى تلك الناحية كتب للأمير مولاى أحمد مشتكيا بمالهم من مقاسات الشدائد .... وبعد ذلك رجع محمود لتنبكت وما ظفر بالمراد فى نوح ، ولنرجع إلى تمام الكلام فى الفتنة التى قامت بين أهل تنبكت وبين القائد مصطفى التركى ...» المرجع نفسه ، الصفحة ١٥٥ .

(٣٧) «وبلغ الباشا محمود ماجرى بين أهل تنبكت وبين القائد المصطفى من القتال وأنهم حاصروه فى القصبة ... فبعث القائد مامى بن برّون فى ثلاثمائة وأربعة وعشرين راميا .... وهو رجل عاقل لبيب قسيس ... فكان خوفا عظيما فى البلد وخرج الناس رامين أنفسهم فى الصحارى والقفار فأصلح القائد مامى ما بين القائد المصطفى وبين أهل تنبكت وكان فرحا عظيما للناس ورجع للبلد كل من خرج منها هاربا ... ودخلوا فى بيعة السلطان مولاى أحمد بسبب هذا الصلح وفتح الطريق إلى الآفاق ودخل الناس فى قضاء حوائجهم ومن أراد السفر إلى چنى وإلى غيره مشى إليه ...» المرجع نفسه ، الصفحة ١٥٧ .

«فلما تكلم مامى لدى القاضى بكلامه اللين وتلطفه وتملقه أرسل الفقيه محمد بغيع ليناديهم واتاهم ووجد كلا منهم كميًا فى سلاحه نادى كبراءهم فقال لهم هل تعرفونى قالوا بلى فقال انزلوا كلكم فاتونا فنزلوا فاتوا مسرعين ... وخرج مامى وركب وتوجه إلى القصبة ولما وصل إلى بَعَجنْدٍ التقى مع رماة يسلبون ثوب رجل هنالك خطَف خيله إليهم وسل سيفه وضرب منهم رجلا على عاتقه حتى شق كتفه وسقط ومات وأمر برأسه فعلق وسار ذلك فى البلد وسرى فيه وفرح الناس به واعتقدوا أنه سيوفى ما وعد ووثقوا بقوله وظنوًا فيه خيرا فبكر عراب أهل القضية خارجين إلى السوق ببضاعتهم ...» تاريخ الفتاش ، الصفحة ١٧٢.

(٣٨) « ثم إن القائد مامى تحرك إلى الزغرانيين اهل بِرُّو فغار عليهم وقتل رجالهم وأتى بنسائهم وصبيانهم إلى تنبكت وباعوهم بمايتين ودعًا إلى اربعماية ودع ... » تاريخ السودان ، الصفحتان ١٥٧ و ١٥٨ .

هارن ، مغشرن كُیْ ، قبول سيادة مراكش ، واعترف المراكشيون بدورهم بشخص آخر هو أوسنْب باعتباره مغشرون كیْ ، وعندئذ قدم اوسنب المساعدة إلى أسياده المراكشيين ، وبمساعدته انتصر المراكشيون مرة ثانية ، ويؤكد السعدى أهمية هذه المساعدة بمهاجمته أوسنب هجوما مريرا فى كتابه.(٣٩)

وعندما وصلت الأمور إلى هذا المدى ساء وضع محمود باشا كثيرا ، فهو لم يعثر على قصور فى السودان ، كما لم ير ذهبا قط . وأدت هزيمته فى برنى وقسوة المناخ إلى استثارة غضبه ، وكانت المتاعب المستمرة فى تمبكت كافية لحمله على اتخاذ إجراءات بالغة القسوة ، وأمر بتنفيذ أحكام إعدام سريعة بعد الثورة ، وفكر فى تجريد أهالى المدينة من ثرواتهم عقابا لهم .

وأصدر الباشا إعلانا بأنه عازم على تفتيش كل بيت فى تمبكت فيما عدا بيوت من هم من سلالة الشريف سيدى محمود . واعتقد أعيان تمبكت وتجارها الأثرياء أن بيوت أولاد الشريف هى أكثر الأمكنة أمانا لإخفاء ثرواتهم ، فأخفوا فيها كل ماهو ثمين لديهم ، ومن ثم أعفوا المراكشيين من عناء تفتيش البيوت المختلفة . وطلب إلى الأشراف أن يجتمعوا فى مسجد سنكرى . وعندما التأم شملهم هناك فى أمان ألقى القبض عليهم واستولى على ثرواتهم ، وقام الجنود باغتصاب النساء وقتل الأعيان.(٤٠)

---

(٣٩) «فجاء أوسنب التاركى مغشرن كُیْ لمعاونة المصطفى مع أصحابه فحرقوا جميع البلد بالنار ... ثم عاد بذلك غدا فكان يوماً شديدا على تنبكت وقاربوا ديار القاضى عمر بالحريق فجاءت واحدة من بناتهم تعدو ، فقالت له أوسنب وصل بغزوه إلى باب دار الفع عبدٌ وهو أخو الفقيه عبد الله بن الفقية القاضى محمود فقال لها الله تعالى يعطيه غزوا فى باب داره ويسلط عليه أدنى الناس يفتضح به كما افتضح بنا فاستجاب الله دعاءه فجاءت غزوة توارق كلمينى إلى باب خيمته فدخل عليه واحد منهم فقتله فى داخل الخيمة وهو انائم ....» المرجع نفسه ، الصفحة ١٥٦ .

(٤٠) «فلما وصل تنبكت فى قفوله من رأس الماء فى قتال الصنهاجيين شرع فى تدبير قبض الفقهاء أولاد سيِّد محمود رحمه الله ... فاول ما بدوا به من رأيهم أنهم برّحوا فى البلد أن الباشا يدخل فى ديار الناس غدا فاىّ دار وجد فيها السلاح فلا يلوم ربّها إلا نفسه إلا ديار الفقهاء أولاد سيِّد محمود فقط فهرب الناس بأموالهم إلى عندهم فى ديارهم على وجه الوديعة ظنا منهم متى رأى المال فى أى دار ساعة التفتيش يأكلها ظلما وعدوانا ... ، فدخلوا ديار البلد غدا وفتشوها جميعا ثم برّح بان يجتمع الناس كلهم غدا فى جامع سنكرى للحلوف على بيعة السلطان مولاى أحمد فحلف التواتيون ... فى اليوم الأول – ثم حلف الولاتيون ، فقال لم يبق إلا الفقهاء وأصحابهم وأتباعهم فقبضهم جميعا الباشا محمود بن زرقون يومئذ ... وأسرهم وأمر بهم إلى القصبة فريقين فريق ذهب بهم فى وسط البلد وفريق ذهب بهم خارج البلد من جهة القبلة ومنهم الشهداء الذين قتلوا يومئذ ... ثم دخل الباشا محمود فى ديارهم فرفع جميع ما فيهن من الأموال والمتاع والاثاث اللاتى لا يحصيها إلا الله ما بين املاكهم وأملاك سائر الناس من الودايع ونهب اتباعه ما اتصلوا بها وكشفواعوراتهم وجردوا حرائرهم وفعلوا بهن الفواحش وذهبوا إلى القصبة مع الرجال ....» المرجع نفسه ، الصفحات ١٦٨ إلى ١٧١ . [سيِّد محمود المذكور هنا هو محمود بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن على بن يحيى بن كدالة ، وكان يشغل منصب قاضى تمبكت .]

ولم تكن تمبكت قد تجرعت بعد كأس المهانة حتى الثمالة ، وكان عليها أن تعانى المزيد . فقد تقدم قاضى تمبكت أبو حفص عمر[41] بالشكوى من فظائع الحاكم المصطفى إلى سلطان مراكش اعتقاداً منه أن أى قاض لابد أن يجد لديه آذانا صاغية بوصفه من قريش . واستقبل السلطان الرسل بالترحاب وأعادهم مع القائد بواختيار على رأس جيش من ألف ومائتى مقاتل ... وفى الوقت نفسه زوّد القائد بتعليمات سرية تقضى باحضار العلماء إلى مراكش بوصفهم فى رأية سبب المتاعب. وما إن وصل القائد بواختيار إلى تمبكت حتى وضع العلماء ، ومن بينهم القاضى عمر وأحمد بابا ، فى الأغلال ،[42 و43] وكانت الأغلال ثقيلة للغاية حتى أن أحمد بابا سقط وكسرت ساقه . وسيقوا جميعا فى أغلالهم إلى الشمال ، ولكن القاضى عمر وأحمد بابا استطاعا تجاوز المحنة . وهكذا قضى على النخبة المستنيرة التى كان أحمد بابا من أبرز ممثليها .

---

(٤١) القاضى أبو حفص عمر بن محمود بن عمر بن محمد أقيت .

(٤٢) «وفى القابل من مشى مراسيل القاضى عمر إلى مراكش بعث الأمير السلطان مولاى أحمد القائد بواختيار إلى تنبكت ... بعد قبض الفقهاء بقليل ... الحاصل كتب كتاب أمن للقاضى عمر وجعل المراسيل صحبة القائد بواختيار وامره أن يكلم الباشا محمود أن لا يتعرض لهم بسوء وهو قد كتب قبل له أن يقبضهم ويصرفهم إليه فى القيود ولا علم عند أحد بذلك من خدامه فلما وصلوا بلد تفاز سمع القائد بواختيار جميع ما جرى عليهم على يد محمود بن زرقون فنادى شمس الدين بالليل وقال له مولاى أحمد غدرنى وغدركم ... ثم شرع الباشا فى تسفيط الفقهاء إلى مراكش بعد تاخرهم فى السجن نحو خمس أشهر ومشوا جماعة كثيرة آباءً وأولادا وحفائد ونساء ورجالا ....» تاريخ السودان ، الصفحات ١٧١ إلى ١٧٣.

(٤٣) أحمد بابا : أبو العباس أحمد بابا أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن على يحيى التكرورى الصنهاجي المسوفى التمبكتى . من كتاب السِّير العرب . ينتسب إلى أسرة جلها من العلماء ، وولى معظم أفرادها القضاء . ولد بقرية اروان فى نوفمبر ١٥٥٣ (أكتوبر ١٥٥٦ فى مصدر آخر) . كان يعتبر بين اخوانه من كبار فقهاء المالكية . رفض الاعتراف بالاحتلال المراكشى لتمبكت فقبض عليه وعلى أفراد أسرته واقتيدوا إلى مراكش . وفى هذا الحادث فقد كتبه ، كما سقط عن ظهر جمل إبان رحلته فكسرت ساقه . وبعد عامين أطلق سراحه على ألا يغادر قصبة مراكش ، فانقطع التعليم فى جامع الشرفاء حيث كان يستمع لدروسه خلق كثير . ولما تولى مولاى زيدان السلطنة فى سنة ١٦٠٥ أذن له هو ومن بقى من أسرته بالعودة إلى موطنه تمبكت . وقد توفى سنة ١٦٢٧ . له مصنفات تربو على الأربعين نعرف منها : نيل الابتهاج بتطريز الديباج ؛ كفاية المحتاج لمعرفة من ليس فى الديباج ؛ شرحان موجزان لمختصر الخليل بن إسحاق . [أنظر. الموسوعة الإسلامية ، الطبعة العربية ، مادة أحمد باب.]

كان الباشا محمود يتميز غيظاً لعدم حصوله على أسلاب كافية فى تمبكت ، بل كان السلطان أكثر غضباً عندما لم يحصل إلا على مقدار ضئيل من الذهب قدمه الأسكيا مقابل انسحاب الجيش المراكشى ، هو مائة ألف مثقال ، وكان يرغب فى المزيد.[٤٤] واعتقد أن الباشا لم يرسل له نصيبه ، فبعث بمنصور بن عبد الرحمن مزوّدًا بأوامر سرية بأن يقتله ويحل محله.[٤٥] وكان لمحمود أصدقاء فى البلاط ، وجاءه تحذير بأن عبد الرحمن قادم ومعه أوامر بقتله . وآثر محمود أن يموت وهو يقاتل السنغى . وتحرك أسكيا نوح إلى هنبر ، وهناك نشد الباشا الموت بمهاجمته، وصرعه سهم مسموم صوّبه إليه وثنى من رجال القبائل . وفصل رأسه عن جسده وأرسل هدية إلى كَنْتَ كَبِ.[٤٦]

---

(٤٤) «وافسد الباشا محمود جميع المال اشتتها شذر مذر وتكرم بها الرماة ولم يبعث السطان مولاى أحمد إلا ماية ألف ذهبا ... وسمع ما رفع فى يارهم من الأموال التى لانهاية لها ولم يبعث له منها إلا ماية ألف مثقال ذهبا ازداد غضبا على غضب ....» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٧١و١٧٤. [يتضح هنا وجود خلاف بين بانيكار وتاريخ السودان حول مقدار الذهب الذى جمعه الباشا محمود ، إذ يبدو مما ورد فى هذا الاقتباس أن ما أرسله إلى السلطان أقل كثيراً مما جمعه .]

(٤٥) «وفى سنة ثالث وألف جاء القائد المنصور بن بك من مراكش بمحلة كبيرة فيها ثلاثة الاف مقاتل وألف خيل ... وعاش القائد منصور بعد قدومه سنتين ونفى الظلم من بلد تنبكت وبلغ سعر صرف المثقال ثلاث الاف ودعا ....» تاريخ الفتاش ، الصفحتان ١٨٢ و١٨٣. [منصور بن بك الذى ورد فى هذا الاقتباس هو منصور بن بكر المعروف أيضا بمنصور بن عبد الرحمن ، وقد تولى الباشوية فى تمبكت فى ١٢ مارس ١٥٩٥ وظل بها حتى ٩ نوفمبر ١٥٩٦، وخلف فيها الباشا محمود بن على بن زرقون ، وهو ثالث باشا يصل من مراكش (نقلا عن تذكرة النسيان فى أخبار ملوك السودان ، الترجمة الفرنسية ، الصفحة ٣٦٤.)]

(٤٦) «ثم أن الباشا محمود تجهز ورجع لمحاربة أسكيا نوح ثانيا ... وقبض من القائد بو اختيار جميع مامعه من الرماة وذهب بهم معه وتلقى مع الباشا جودار فى كُنْكُرِيُو جائيا من مدينة كاغ وعرض عليه الذهاب معه ... فبلغ أرض الحجر وفتح هنبر ودعكا وما فى أحوازهما ، ثم أن السلطان مولاى أحمد بعث القائد منصور بن عبد الرحمن إلى أرض السودان برسم قبض محمود بن زرقون وقتله وإهانته فبعث له ولده مولاى بوفارس مرسولا بعجلة وسرعة أن يخبر بما يأتى به القائد منصور بن عبد الرحمن وأمره أن يحتال لنفسه قبل أن يصل إليه فلما بلغة الخبر وعلم بحقيقته لأنه خديم مولاى بوفارس خاصة دون أولاد مولاى أحمد توجه بجيشه إلى المنَ والٌ وفيهم أسكيا سليمن فنزلوا تحت الحجر فلما جنّ الليل عزم على الطلوع إلى الكفار فامتنع أسكيا سليمن من ذلك وقال الحجرلا يطلع عليه فى ليل المقاتلة ولا يعلم أنه يريد الهلاك لنفسه ولهم أجمعين فلما كان آخر الليل ذهب إلى الكفار ... فتلقوا من نجا من أصحابة وأخبروهم أنه مات... فلما رموه بالنشاب وطاح على الأرض احتمله أولاد تنبكت على أعناقهم ليأتوا به إلى الجيش ضايق عليهم الكفار فرموه وقطعوا رأسه وبعثوه لأسكيا نوح وبعثه أسكيا نوح لكنت سلطان كَبِ ....» تاريخ السودان ، الصفحتان ١٧٥ و ١٧٦. [مولاى بوفارس المشار إليه فى هذا الاقتباس هو ابن السلطان أحمد المنصور ، وقد ولى السلطنة بعد وفاة أبيه.]

وعندئذ توالت الأحداث سراعاً . فجودار الذى لم يقم بأى دور فعال بعد عزله ، سواء فى المؤامرات السياسية أو فى الحرب ضد السنغى ، برهن الآن على براعته فى التآمر . وكان عازفا عن الاعتراف بعبد الرحمن كباشا . ورفع الخلاف إلى السلطان فى مراكش الذى قسم السلطة بينهما : فجودار يشرف على السلطة المدنية وعبد الرحمن على الجيش . ولم يكن هذا التقسيم للسلطة فعّالا ، إذا لم تكد تمضى عشرون شهرا حتى وافت عبد الرحمن المنية . والارجح أنه مات مسموما على يد جودار،[٤٧] وحل محله محمد طابع ، وهو موظف مدنى أقدم عهدا وصل على رأس مدد قوامه ألف جندى . وكان محمد طابع من الحمق بحيث أعفى جودار من القيادة العسكرية التى تسلمها ، وكانت النتيجة أن مات بدوره . عندئذ تحدى مصطفى حاكم تمبكت جودار ، وكان جودار رغب فى أن يكون الجيش حكَماً بينهما. واختير جودار لتولى الباشوية.[٤٨] وكان لذلك أثره فى المنصور الذى طلب إلى جودار عندئذ العودة إلى مراكش لتولى قمع الاضطرابات الداخلية فيها . ولكن جودار لم يكن راغبا فى تسليم السلطة إلى قائد مدنى ، وأعلن أن الأوضاع تتطلب يدا عسكرية قوية ، وهو رأى كانت له وجاهته ، لأنه حتى مالى كانت راغبة فى الاستفادة من انهيار قوة السنغى ، وساد اعتقاد لدى محمود الثالث منسا مالى أن باستطاعته الاستفادة من الفوضى التى أعقبت الغزو المراكشى لتدعيم مملكته . وتلقى سلطان

---

(٤٧) « ثم وقع بينه وبين الباشا جوادر اختلاف ... حتى انتهى اختلافهما إلى المكاتبة للسلطان مولاى أحمد فكتب لهما وفرق بينهما فقال حكم الأرض لجوادر حيث هو فتحها وحكم الجيش القائد منصور .... ومكث هناك شهورا وهو مريض .... فتوفى يوم .... وقيل ان جوادر اطعمه السم فقتله ....» المرجع نفسه ، الصفحة ١٧٧ .

(٤٨) « ثم بعث السلطان مولاى أحمد الباشا محمد طابع بمحلة فيها ألف رماة بين أرباب الخيل وأرباب الرجل فوصل تنبكت يوم .... ثم تجهز من منزله ذلك إلى الغزو فى الحجر فانتزع من جوادر الجيش الذى معه وذهب معه القائد المصطفى التركى ، ولما وصل أنكَنْدَ مات فيه يوم ... وقيل إن جوادر هو الذى اطعمه السم على يد نانا تركية وبقى هو فى بِنْكَ فى الحراسة فرجع القائد المصطفى بالعسكر ... وقيل أطعمه السم أيضا فلما وصل إلى جوادر فى مكان الحراسة استرد منه الجيش فابى بذلك المصطفى فتحاكما عند كبراء الجيش غلبه جوادر ... لأن الجيش بيده يومئذ ....» المرجع نفسه الصفحتان ١٧٧ و ١٧٨ . [محمد طابع هو الباشا الرابع ، مكث فى تمبكت فى الفترة من ٢٨ ديسمبر ١٩٥٧ حتى ١١ مايو ١٩٥٨ ، أى أقل من خمسة أشهر . (نقلا عن تذكرة النسيان ، الترجمة الفرنسية ، الصفحة ٣٦٤ .)]

مالي وعودا بالتأييد من رئيس قبيلة كَلّ ، حمد أمنة ، وهو زعيم فولاني لماسنة ،(٤٩) وكذلك من رئيسي قبيلتين أخريين . كما راودته آمال في أن تهب مدينة جني للثورة ضد المراكشيين عندما يظهر جيشه على أبوابها ، وفي أن يتقهقر المراكشيون عندما يواجهون تلك الثورة . وبهذه الخطط ظهر المنسا أمام أسوار جني في عام ١٥٩٩ ، ولكن حاكم كَلّ عجز عن مساندته ، كما رفض أهالي جني القيام بالثورة . واستطاع جودار إرسال مدد إلى جني ، وأرغم محمود على التقهقر.(٥٠) وفي النهاية نجح عمار باشا(٥١) ، وهو خصيٌّ من أصل برتغالي ، في أن يخلف جودار في المنصب الذي تركه ، وعاد الكونكويستادور جودار إلى مراكش .

وقبل أن نتابع تاريخ باشوات تمبكت يجدربنا أن نرى ما إذا كانت مراكش قد أفادت من غزو السودان . يرى السعدي أن مراكش لم تفد ماديا من هذا الغزو ، ومع ذلك فإن الوفراني يقول إن السودان مكّن أحمد من أن يدفع رواتب

---

(٤٩) « ثم أمر السلطان مولاي أحمد الباشا جوادر في المجئ إليه في حدود العام السابع بعد الألف فكتب إليه أن يبعث من يقوم على الأرض ويكون وكيله على الجيش فبعث القائد المصطفى الفيل والقائد عبد المالك البرتغالي ثم رد إليه الجواب ثانيا بعجلة انهما لا يمسكان هذه الأرض لان سلطان مليّ قد تحرك وأراد المجئ إلى هذه الأرض وكذلك صاحب ماسنة حمد أمنة عزم علي الرجوع فيها .... فبعث الفتى عمار باشا وحده على راحلة دون الجيش ... فامر جوادر بالمجئ حينئذ عزما مؤكدا ولو كانت تلك الأرض كلها تتحرق بالنار ... » المرجع نفسه الصفحتان ١٨١ و ١٨٢.

(٥٠) « وأما الباشا جوادر فتجهز للرجوع إلى مراكش ... ثم أن السلطان محمود صاحب ملي تجهز لغزو أهل مدينة جني فبعث مرسوله ... وما أجاب دعوته من سلاطين كل ويندك إلا فدككي وامكي وحمد امنه صاحب ماسنة وقد بعث بخبره الحاكم سيّد منصور الذى علي جني للباشا عمار وطلب منه الإغاثة فوجه إليهم محلة فيها القائد مصطفى الفيل ... فهزموا ملى كُي وعسكره في طرفة عين ....» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٨٢ ، ١٨٣.

(٥١) هو الباشا الخامس عمار الفتى العلجي ، أحد القواد الذين صحبوا الباشا جودار في الحملة على دولة السنغي . ويبدو أنه رجع إلى مراكش ثم عاد إلى السنغي وتولى الباشوية في تمبكت ، كما سيتضح بيانه .[أنظر ، الحاشية ٥-٥٦ أدناه .]

« جعل عليها (الحملة) الباشا جوادر ومعه عشرة من القياد القائد المصطفى التركي والقائد المصطفى ابن عسكر والقائد أحمد الحروسيّ الأندلسي ... والقائد عمار الفتى العلجيّ » المرجع نفسه ، الصفحة ١٣٨ .

موظفيه ذهبا.[٥٢] كما أن الروايات المعاصرة يمكن أن تحمل على الاعتقاد بأن الكسب كان عظيما . كتب لورانس مادوك فى عام ١٩٥٤ يقول : «منذ عشرة أيام قدم من غاو كاهية[٥٣] أندلسى المولد ومعه موظف مغربى كبير كان الملك قد أرسله من قبل مع القائد حمود[٥٤] ، وقد جلبوا معهم ثلاثين بغله محملة بالذهب . وقد رأيت بعينى رأسى هذين الشخصين قادمين إلى القصبة (قصر الشريف فى مراكش) ، وهماليسا فقيرين ، بل على جانب كبير من الثراء ، بحيث قدما دون الحصول على أمر من الملك ... وقد استشف الملك من رسائل الاطراء عليهما من جانب القائد حمود مقدار الثروات التى جلباها معهما ، وكان ذلك سبب امتعاضه منهما ...» وعند نهاية الشهر كتب لورانس مادوك مرة أخرى يقول :«إن جزية تمبكت ستون كنتالا (قنطارا) من الذهب كل سنة ، وهى مبلغ طيب كما تعرفون . وجزية كاغ ستظهر وستعرفونها فى الربيع». [٥٥]كذلك أفادت مراكش من العدد الكبير من الجنود الزنوج الذين شكلوا منذ ذلك الوقت جزءا هاما من جيشها .

---

(٥٢) الوفرانى المراكشى : هو العلامة عبيد الله محمد الصغير ، من علماء أوائل القرن الثانى عشر الهجرى، مؤرخ الأسرة السعدية فى مراكش وصاحب كتاب نزهة الحادى فى أخبار ملوك القرن الحادى الذى ضمنه أخبار الدولة السعدية ، وما حدث أيام ملوكها من المنازعات والحروب ، وقد ابتدأه بالملك محمد المهدى بن الملك القائم بأمر الله ، الذى بويع فى سنة ٩١٦ هـ وانتهى فيه إلى أخبار السلطان مولانا المظفر بالله اسماعيل بن الشريف (أبو النصر) الذى بويع فى سنة ١٠٨٢ هـ . وتاريخ ميلاد الوفرانى غير معروف ، ولكنه توفى حوالى عام ١١٥٠هـ (١٧٣٨م). يقال إنه صدرت لكتابه طبعة فى باريس مزودة بالفهارس ، وذلك فى عام ١٨٨٨ . وتوجد الكتاب نسخة فى مكتبة جامعة القاهرة ، وهى بخط مغربى قديم تعذر على قراءته . وتوجد اقتباسات من هذا الكتاب (لعلها مأخوذة من طبعة باريس) فى كتاب نقولا زيادة ، إفريقيات ، رياض الريس الكتب والنشر ، لندن ، ١٩٩١ ؛ ومن بينها اقتباس بشأن هذا الكسب العظيم الذى يقول الوفرانى إن أحمد المنصور قد حققه :

« ولما فتح عليه ممالك البلاد الإسلامية حمل له من التبر ما يغير الحاسدين ويحيّر الناظرين حتى كان المنصور لا يعطى فى الرواتب إلا النضار الصافى والدينار الوافى وكانت ببابه كل يوم أربعة عشر ماية مطرقة تضرب الدينارغير ما هو معد لغير ذلك من صوغ الأقراط والحلى وشبه ذلك . ولأجل ذلك لقب بالذهبى لفيضان الذهب فى زمانه .» الصفحة ٣٨٤ .

(٥٣) الكاهية : ضابط فى الجيش المراكشى برتبة رفيعة « وكان مع طراد الأيمن .. خمسمائة صباحية مع كاهيتهم » تاريخ الفتاش ، الصفحة ١٤٦.

(٥٤) القائد حمود : هو الباشا الثانى محمود بن على بن زرقون الذى تسلم قيادة القوات المراكشية فى سنغى من الباشا جوادر ، فى الفترة من ١٧ أغسطس ١٥٩١ حتى مارس ١٥٩٥ .

(٥٥) لورانس مادوك : تاجر انجليزى كان يقيم فى مراكش ، ويتراسل مع رئيسه انطونى داسل فى الشركة البربرية فى لندن ، وقد بعث إليه بالرسالة الأولى فى أغسطس ١٥٩٤ ، ثم اتبعها برسالة ثانية فى نهاية هذا الشهر .

فضلا عن ذلك فاننا عندما نرسم صورة نجد تماثلا مع أمريكا الأسبانية . فه هناك أيضا تدفق المعدن النفيس بكميات كبيرة أدت إلى إبطاء إيقاع الحيـ الاقتصادية وإضعاف النسيج المعنوى للشعب . وفى النهاية ربما تكون مراكش ق خسرت من الغزو أكثر مما لوكانت التجارة قد استمرت تتدفق عبر المسالك المعتادة .

ولم يكن باستطاعه مراكش أن تحتفظ فى السودان بقوات تكفى لإقرار السا فى منطقة السنغى ، فبين عودة جودار فى عام ١٥٩٩ ووصول عمار [٥٦] - أرسـ آخر باشا من مراكش فى عام ١٦١٨[٥٧] - كان المراكشيون يجلسون فوق برميل مو البارود . فالقائد الذى تولى الباشوية بعد عودة جوادر حل محله سليمن[٥٨] الذى استطاع المحافظة على السلم حتى عام ١٦٠٤ . وفى هذه السنة نشبت مرة أخرى معارك عسكرية ذات طابع عام . فقد قام هيكُىْ صاحب دند بمهاجمة وادى النيجر كما بدأ الفولانى فى شن الغارات . وفى عام ١٦٠٩ هاجم دِنْدِ فارى مدينـا جنى،[٥٩] غير أن المدد الذى وصل فى الوقت المناسب كان عونا للحامية المراكشية .

---

(٥٦) « وأما الباشا عمار فوصل فى شهر رجب فى السنة المذكورة وأما الباشا جوادر فتجهز للرجوع إلى مراكش فى يوم الخميس السابع والعشرين من شعبان فى العام المذكور .» تاريخ السودان الصفحة ١٨٢ . [السنة المشار إليهما ما هنا هى ١٠٠٧ هـ ، وهذه السنة بدأت فى ٤ أغسطس ١٥٩٨ ، وبذلك يقع شهرا رجب وشعبان ١٠٠٧ فى العام الميلادى ١٥٩٩ ، وقد تولى عمار الباشوية فى تمبكت فى فبراير ١٥٩٩ ومكث فيها حتى ١٩ مايو ١٦٠٠.]

(٥٧) القائد الذى تولى الباشوية فى تمبكت فى عام ١٦١٨ هو الباشا العاشر حَدّ بن يوسف الاجناسى ، فقد تولاها فى الفترة من يوليه ١٦١٨ ، وظل بها حتى بها حتى يناير ١٦١٩ .

« وفى هذا الشهر تولى الباشا حد بن يوسف باتفاق أولئك الجيش .. » المرجع نفسه ، الصفحة ٢٢٣ . [التاريخ المشار إليه فى هذا الاقتباس هو ربيع الأول ١٠٢٧ ، ومن المعروف أن العام الهجرى ١٠٢٧ يبدأ فى ٢٩ ديسمبر ١٦١٧ ، وبذلك يقع هذا التاريخ فى عام ١٦١٨ .]

(٥٨) القائد الذى تولى الباشوية بعد عودة جوادر إلى مراكش هو الباشا عمار الفتى ، وقد خلفه فيها الباشا السادس سليمن وظل بها فى الفترة من ١٩ مايو ١٦٠٠ حتى يوليه ١٦٠٤ [« ولنرجع إلى إتمام ذكر الباشا عمار فمكث فى الولاية سنة وشهرين وأياما وغلب عليه فيها القائد المصطفى الفيل حتى صار كأنه صاحب الأمر ... فعزله السلطان من عنده وبعث الباشا سليمن ليكون صاحب الأمر .» المرجع نفسه ، الصفحة ١٨٩ .]

(٥٩) « وفى هذا العام جاء هيكى سيد كرى اجى بالغزو من عند اسكيا هارون تَنْكَتيا بن الأمير اسكيا داوود صاحب دند أراد غزو طاعة اهل المخزن فى البحر .... وفى القابل فى العام الثامن عشر بعد الف جاء دندفارى بالمحلة الكبيرة من عند اسكيا فى دند قاصدا أرض مدينة جنى فقطع البحر الكبير ....» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٩٤ و ١٩٥ . [العامان الهجريان المشار إليهما هنا هما ١٠١٧ و ١٠١٨ ، وهما يقابلان العامين الميلاديين ١٦٠٨ و ١٦٠٩ ، والمقصود بالمخزن فى هذا الاقتباس هو الجهاز الإدارى للحكومة فى مراكش .]

وفي عام ١٦١١ زحف جيش من السنغي نحو الغرب وأخذ المراكشيين على غرة وأوقع بهم الهزيمة في موقعة استعد لها الطرفان من قبل . وقطع الاتصال بين غاو وتمبكت ، ولكن على باشا استطاع رشوة قائد السنغي كي يكف عن القتال.(٦٠) وبحلول عام ١٦٢٠ كان المراكشيون قد طفح بهم الكيل تماما من السودان ، وعلى الرغم من أن الباشوات قد استمروا في تمبكت فإن نفوذ السلطان صار موضع هزء وسخرية ، وأصبح الجيش هو السلطة الفعلية . وكان الباشوات يتغيرون بسرعة تدعو إلى الدهشة حقًا . فقد حكم بعضهم أياما ، وحكم آخرون لبضعة أشهر ، وقليلون جدا امتدت ولايتهم لأكثر من عام.(٦١) وعمد الفولاني والطوارق والبمبرة إلى تخريب القرى ونهبها بل المدينة نفسها في بعض الأحيان . وبعد عام ١٦٢٠ أصبح نفوذ الباشوات محصورا في المدينة وحدها .

---

(٦٠) « وقيل إن القائد على بعث لبند فاري سيد ذهبا على يد اسكيا بكر لكي يرجع من غير قتال ... فرجع وسمع بذلك ... فرجع القائد على بالمحلة إلى تمبكت فعزل الباشا محمود لنْكُ وتولى ضحوة الأربعاء الخامس عشر من شعبان المنير في العام المذكور ... » المرجع نفسه ، الصفحة ٢٠١ [القائد على باشا المذكور في المتن وفي هذا الاقتباس هو الباشا الثامن على بن عبد الله التلمساني الذي تولى الباشوية في تمبكت في الفترة من ١١ أكتوبر ١٦١٢ إلى ١٣ مارس ١٦١٧ خلفا للباشا السابع محمود لُنْكُ الذي تولى الباشوية في الفترة من يولية ١٦٠٤ إلى ١١ أكتوبر ١٦١٢ . والتاريخ المذكور هنا هو ١٥ شعبان ١٠٢١ الذي يقابل ١١ أكتوبر ١٦١٢ .]

(٦١) ونسوق هنا بعض الأمثلة :

١ - الباشا الثامن والعشرون علال بن سعيد الحروسي : تولى الباشوية ليوم واحد في أغسطس ١٦٦٠.

٢ - الباشا الخمسون القابنكانو الشرقي بن محمد الموابيسني: تولى الباشوية ثلاثة أيام في نوفمبر ١٦٨٣ .

٣ - الباشا الخامس والأربعون محمد بن بارضوان العلجي : ثلاثة أيام من ١٩ إلى ٢٢ أغسطس ١٦٨٠ .

٤ - الباشا الأربعون عبد الرحمن بن محمد كيراي الشرقي : شهر واحد وتسعة أيام ، من ٣ سبتمبر إلى ١٢ أكتوبر ١٦٧٣ .

٥ - الباشا الخامس عشر على بن المبارك الماسي : شهران وستة وعشرون يوما من ٢٠ يوليه إلى ١٧ أكتوبر ١٦٣٢ .

٦ - الباشا الحادي والعشرون أحمد بن على بن عبد الله التلمساني : ثلاثة أشهر وأربعة أيام من ١٠ نوفمبر ١٦٤٦ إلى ١٤ فبراير ١٦٤٧ .

[أنظر ، تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان ، الترجمة الفرنسية ، الصفحات ٣٦٤ إلى ٣٧٣ ، وكذلك دكتور محمود الغريبي ، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي ، رسالة دكتوراة تحت إشراف دكتور نقولا زيادة، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر ، الكويت .]

ولم يحاول المراكشيون التغلغل إلى دند مرة أخرى حتى عام ١٦٣٥ عندما هزموا السنغى ثانية ، ومع ذلك فقد فشلوا فى إخضاعهم لسيطرتهم . وفى عام ١٦٤٠ استطاع السنغى اكتساح المراكشيين بمساعدة الزرمة . وعلى الرغم من أن السنغى ظلوا يحتفظون بوجود مستقل فى دنِد ، فإنهم لم يعد لهم شأن يذكر فى سياسات السودان . ولكن بحلول عام ١٦٦٠ كان الحكم المراكشى قد انتهى أيضا حتى من الناحية الإسمية ، ففى ذلك العام لم تعد الخطبة تلقى باسم السلطان . ومع مجئ عام ١٦٨٠ كان الباشوات يحكمون فى تمبكت كأتباع للبمبرة .

لقد كان انتصار المراكشيين هو المقدمة لانهيار القانون والنظام فى بلاد السودان . وعلى الرغم من أن المراكشيين أحرزوا نصرا مرموقا ، فقد أخفقوا كما رأينا فى تأسيس إمبراطورية . وبقدوم عام ١٦٢٠ كانت طموحاتهم بهذا الشأن قد تبخرت . وكما يقول رايموند لَلْ فى شئ من المبالغة : «ومن ثم فإن السودان ، الذين سبق أن رأيناهم يزخرون بكل هذا النشاط ، فقدوا روح المبادرة فى ظل القبضة العسكرية الاستبدادية والتهديد المستمر لحياتهم وأسرهم وممتلكاتهم ... وتضاءلت التجمعات الهائلة من البشر إلى قرى لاشأن لها . كما أن تمبكت التى كان سكانها يربون على المائتى ألف انحطت إلى قرية لا يتجاوز سكانها خمسة عشر ألفا . وحتى القيم الروحية تحللت فى زحام ذلك الكرب الشامل . لقد كان ذلك الغزو بالنسبة لدول النيجر بمثابة بداية النهاية.» .

كان الأثر الرئيسى للحملة المراكشية هو اندثار نظام الدولة فى بلاد السودان الذى ظل قائما منذ تأسيس دولة غانة ، وكانت الفترة ما بين موقعة تندبى وبداية القرن التاسع عشر هى فترة الفراغ الكبير فى تاريخ هذه البلاد . لقد كانت فترة حاول فيها كل من الموسى والبمبرة والفولانى والطوارق والبربر الاستيلاء على غاو وتمبكت ، مدينتى السنغى الهامتين . بيد أن ظهور عصابات المأجورين التى أخذت فى تخريب القرى ونهبها ربما كان أشد بلاء لعامة الشعب من محاربة هذه الدول لبعضها بعضها .

إمبراطورية البرنوكانم (*) وممالك الهوسا

لم تحظ كانم باهتمام المؤرخين المسلمين إلا حوالى القرن العاشر الميلادى . يقول البكرى إن عقبة بن نافع الفهرى فتح فزان عام ٦٦٦ (٤٦ هـ) ، كما يذكر أنه على مسيرة خمسة عشر يوما صوب الجنوب كانت تقع قلعة كوّار[1] ،

(*) دولة البرنو التاريخية لم يعد لها وجود فى العصر الحاضر ، فقد تم تقسيمها فى عام ١٨٩٤ بين انجلترا وفرنسا وألمانيا فى غمرة الاستعمار الأوروبى . وكان مهد هذه الأمبراطورية هو منطقة بحيرة تشاد شرق ممالك الهوسا . ومن الدول التى تقوم الآن على أنقاضها أو تضم أجزاء منها :

١ - جمهورية تشاد التى كانت مستعمرة فرنسية واستقلت فى يونيه ١٩٦٠ . وقد شملت أغلب الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية وإقليم كانم بأكمله . كانت عاصمتها فورت لامى نسبة إلى المستعمر الفرنسى لامى الذى هزم رابح فى عام ١٩٠٠ ، ثم تغير إسمها إلى نجامينا . أغلب سكانها مسلمون . توجد بها أطلال نجيمى عاصمة البرنو الأولى فى كانم .

٢ - جمهورية إفريقية الوسطى : كانت ضمن المستعمرات الفرنسية . تقع جنوب تشاد ، وتضم الأطراف الجنوبية من إمبراطورية البرنو .

٣ - جمهورية النيجر : كانت مستعمرة فرنسية . تضم أغلب الأجزاء الشمالية والشمالية الغربية من إمبراطورية البرنو . وفيها مدينة بلما عاصمة حكومة الصو (العماليق) الأولى ، كما تضم واحة كُوَّار وزندر ومملكة أهير (أغادس) . عاصمتها نيامى على نهر النيجر .

٤ - جمهورية نيجيريا : كانت مستعمرة انجليزية . تضم برنو الأصلية غرب تشاد ، كما تضم جميع ممالك الهوسا . ينتشر أغلب المسلمين فى الشمال . وتضم كثيرا من المدن التاريخية القديمة ، وكذلك من مدن الهوسا التاريخية . عاصمتها أبوجا .

٥ - جمهورية الكمرون : كانت مستعمرة فرنسية . تضم بعض الأجزاء الجنوبية والجنوبية الغربية من برنو ، عاصمتها ياوندى .

(١) «خرج عقبة بن نافع الفهرى إلى المغرب بعد موية بن حديج وذلك سنة ست وأربعين ومعه بسر بن ارطاة وشريك بن سحيم المرادى فاقبل حتى نزل بغدامس من سرت فخلف عقبة جيشه هنالك واستخلف عليهم زهير بن قيس البلوى ثم سار بنفسة فى أربع ماية فارس وأربع ماية بعير وثمانماية قربة ماء حتى قدم ودان فافتتحها وأخذ ملوكهم ... ثم سألهم هل وراءكم من أحد قالوا نعم أهل جاوان وهو قصر عظيم على رأس المفازة على رأس جبل وعر وهو قصبة كوّار فسار إليهم خمس عشرة ليلة فحاصرهم شهراً فلم يستطيع لهم بشئ فمضى أمامه على قصور كوّار فافتتحها» البكرى ، الصفحتان ١٢ و ١٣ .

وإلى الجنوب من كوّار كان يوجد بلد غير معروف . صحيح أن المملكة التي كانت تحكمها أسرة سيفي قد قامت بعد غانة أو غاو ، إلا أنها ربما كانت أكثر الممالك شهرة في كل من غرب إفريقية ووسطها . وقد يكون لدولة أخرى وجود خاطف وسريع ، ولكن منذ أن قامت الأسرة التي تنسبها الأساطير إلى **سيف بن ذي يزن** بتأسيس كانم كان لهذه الدولة حتى يومنا هذا تاريخ مستمر . ليس ذلك فقط ، بل إن سلالة **آل سيفي**(٢) ظلوا يحكمون حتى القرن التاسع عشر ، كما ظلوا حتى اليوم أسرة بالغة الأهمية ، حتى وإن لم يعودوا يمسكون بزمام السلطة السياسية .

وكان شعب **الصَوْ** (٣) الأسطوري هم السكان الأصليون لحوض تشاد . وبين هذا الشعب القوي استقرت جماعة رعوية مهاجرة كان يزعم بوجه عام أنها من البربر . وفي مجرى الزمن دخلت هاتان الجماعتان في نزاع ، وذلك لأن شباب الصو الأقوى بنية كانوا يفوزون دائما في ألعاب القدرة البدنية . وكان الرعاه الذين عاشوا بعض الوقت في المنطقة تواقين إلى السلطة السياسية ، ولكنهم كانوا يخشون الصو ، لذلك قرروا تحقيق النصر بالخديعة . كان رجال الصو شغوفين بمعرفة سر الحناء ، واستطاع البربر إقناعهم بأنه لابد قبل استعمال الحناء من إقامة مراسم تطهر بربط الأيدي والأقدام بجلود مبللة .

---

(٢) تقول سجلات البرنو وأساطيرهم إن ملوكهم الأول أحد عشر ملكاً ، وإن أولهم هو سيف بن ذي يزن وآخرهم جبل أو عبد الجليل بن شو (عرف باسم سلما) . وتقدر الفترة التي حكم فيها هؤلاء الملوك بنحو خمسة قرون ، وذلك على الرغم من أنه من الثابت علميا أن سيف بن ذي يزن وابنه إبراهيم (الذي يزعم أنه ثاني هؤلاء الملوك) قد ماتا في اليمن . وتقول الأساطير إن ثالث الملوك هو دوقو بن إبراهيم ، ومنحته لقب الماي ، كما تقول عنه إنه مؤسس أسرة باعتباره أول من لُقب بالماي . «جيمي ... (قال ابن سعيد) هي قاعدة بلاد الكانم وفيها سلطان الكانم المشهور بالجهاد وهو من ولد سيف بن ذي يزن ...» المقريزي ، الإلمام بالأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ، مطبعة التأليف بمصر ، ١٨٩٥ ، الصفحة ٢٧ .

(٣) – قبائل الصَوْ : من سكان منطقة تشاد . يقول بارث إن الصو أحد أقسام الفولاني ، كما يقول بالمر إنهم أول سكان كوّار . وقد كونوا لهم دولة في القرن التاسع الميلادي مركزها بلما في واحة كوّار . يرد البعض أصولهم إلى الهكسوس على أساس التشابه في الخلقة وتشابه دورهم في إفريقية مع دور الهكسوس في مصر . كانوا يمثلون قوة لها خطرها على إمبراطورية البرنو في كانم برغم خضوعهم لها .

ووافق الصّوّ دون أن يساورهم شك ، وعندما جفت الجلود أصبحوا لاحيلة لهم فى أيدى ضيوفهم الذين ذبحوهم دون رحمة .

ورفض البدو الذين وصلوا إلى السلطة على هذا النحو أن يستكينوا لحياة الاستقرار . ويذكر المقريزى على سبيل المثال أن كانم مملكة عظيمة ، وأن غالبية شعبها يدين بالإسلام[٤] ، وأن ملكها "بدوى رحال" ، ولكنه «إذا جلس سجد أهل دولته وانبطحوا على وجوههم» .[٥] وكانت عاصمة المملكة قرية صغيرة تسمى نجيمى[٦] ، ولكن أعمال الدولة كانت تدار من معسكر الرئيس أينما وجد . واستمرت الحال كذلك حتى أيام دونمه بن أوم[٧] الذى جعل من كانم مملكة عظيمة . وقد يكون من الأفضل أن يعالج تاريخ كانم على أساس الفترات السبع المنفصلة التى يقع فيها ، وهى : ١ - البداية كدولة إمبراطورية تحت حكم دونمه بن أوم ؛ ٢ - القرنان الثانى عشر والثالث عشر ، وهما عصر عظمة كانم ؛ ٣ - فترة الحروب الأهلية والفتن الداخلية ؛ ٤ - حروب البولالا ؛ ٥ - الفترة

---

(٤) «يليهم الكانم ، وهم خلق عظيم ، والإسلام غالب عليهم ....» ورد هذا الاقتباس ضمن نص للمقريزى عنوانه الخبر عن أجناس السودان . وقد نشر هذا النص بالصفحات ١٩١ إلى ١٩٥ من المجلد الخامس عشر من الدورية الهامة التى يصدرها «المركز العلمى الفرنسى للآثار الشرقية» بالقاهرة : Annales Islamologiques (حوليات إسلامية) .

(٥) ورد هذان الاقتباسان بالمرجع نفسه ، الموضع نفسه .

(٦) نجيمى لاتزال أطلالها قائمة ، وهى على بعد ٣٥ ميلا إلى الشرق من بلدة ماو . ترد فى الكتب العربية أيضا انجمى وجيمى . « ومدينتهم انجمى ... » حوليات إسلامية ، المجلد الخامس عشر ، الصفحة ١٩٢ .

« جيمى ، وهى على النيل ... حسبما وجدناه فى خط ابن سعيد قاعدة بلاد الكانم » الإلمام ، الصفحة ٢٧ .

« الثالث ... ملك الكانم . قال فى « مسالك الأبصار » : وقاعدة الملك منها بلدة اسمها جيمى .» صبح الأعشى ، الجزء الثامن ، الصفحة ٢٨ .

« وفى شرقيها وجنوبيها قاعدة الكانم جيمى » إبن سعيد ، حوليات إسلامية ، المجلد السادس عشر ، الصفحة ١٦٣ .

(٧) دونمه بن أوم الماى الثالث عشر فى سلسلة مايات برنو . حكم حوالى الفترة ١٠٩٨ - ١١٥١ . وقد خرج الحج ثلاث مرات مارا بالقاهرة ، إلا أنه غرق فى المرة الثالثة عند عيذاب فى البحر ، وقيل إن الفاطميين خشوا بطشه إذا ما عاد من حجه ، فخرقوا سفينته . وفى عهده بنيت مدرسة إبن رشيق فى فسطاط مصر . وقد بنى فى عهده أول مسجد معروف فى برنو . ودونمه لقب فى لغة الكانورى بمعنى إبن الملك . وقد أورد المقريزى إسمه على النحو التالى : « .. وأول من أسلم من ملوكهم محمد بن جيل بن عبد الله بن عثمان بن محمد بن امىّ» حوليات إسلامية ، المجلد الخامس عشر ، الصفحة ١٩٢ .

العظيمة لبرنو ؛ ٦ - التدهور في القرن الثامن عشر ؛ ٧ - ظهور الفولاني ، وإحياء سلطة كانم - برنو .

كانت كانم لأكثر من سبب أعظم الدول الزنجية بنظامها الإداري المحكم ، وجيشها المدرب الذي يستخدم الأسلحة النارية ، وبعلاقاتها الدبلوماسية ليس مع الدول الواقعة إلى الشرق فقط ، وإنما إلى الشمال أيضا . فضلا عن ذلك استطاع حكام البرنو أن يدّعوا الخلافة ، وهو مالم يفعله حاكم آخر من حكام السودان ، مما زاد من هيبتهم .(٨)

وقد اعتاد سلاطن البرنو أن يشيروا إلى أنفسهم - في محارمهم (٩) وفي كل مجال آخر - باعتبارهم خلفاء ، وكانوا في ذلك يحذون حذو أسرة الحفصيين في تونس التي كانوا يقيمون معها علاقات دبلوماسية وثيقة . (١٠) وقد انفردوا

---

(٨) المعروف أن السلطات الحفصي في تونس المنتصر أبا عبد الله محمد (١٢٤٩ - ١٢٧٧) تلقب بأمير المؤمنين ، وتأثر به مايات البرنو الذين كانوا على علاقات طيبة بأسرة الحفصيين واتخذوا هذا اللقب ، وتقول قوائم أنساب البرنو ، تبريرا لاتخاذ ألقاب الخلافة ، إن الخلافة انتقلت بعد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز إلى برنو .

(٩) المحرم : (وجمعها محارم) هو خطاب امتياز وراثي كان الملوك يعطونه بعض أفراد الرعية وسلالتهم مقابل خدمات أدوها ، يعفون بموجبه من الضرائب أو الخدمة العسكرية أو واجبات الضيافة للحكام أو نحو ذلك . وفي تاريخ القتاش نماذج من هذه المحارم . وقد عرفت برنو بكثرة ما أصدره ماياتها من محارم ، إذا كانوا يمنحونها لكبار العلماء وأسرهم إظهارا لعنايتهم بالعلم والعلماء . وقد أورد الدكتور إبراهيم طرخان ، (إمبراطورية البرنو الإسلامية ، الصفحات ١٩٥ إلى ٢٠٠) نص المحرم الذي أصدره الماي دونمه إدريس في عام ١٧٠٤ ، بشأن تجديد الامتيازات التي حصلت عليها جماعة من الفولانيين زمن الماي علي جاجي بن زينب لقاء مساعدتهم لبرنو في صراعها ضد إمارة كبٍّ . ولكنه ذكر خطأً أن نص هذا المحرم ورد في صبح الأعشى ، الجزء الثامن ، الصفحات ١١٦ إلى ١١٨ ، ذلك أن ماورد بهذه الصفحات من صبح الأعشى إنما هو نص رسالة الماي عثمان بن إدريس إلى السلطان المملوكي أبي سعيد الظاهر برقوق في عام ١٣٩٢ .

(١٠) «قال ابن سعيد ... ويليهم الكانم وهم خلق عظيم والإسلام غالب عليهم ومدينتهم جيمي ولهم التغلب على بلاد الصحراء إلى فزان وكانت لهم مهادنة مع الدولة الحفصية منذ أولها ....» العبر ، طبعة بولاق ، المجلد السادس ، الصفحة ١٩٩ .

« وبها سلطان الكانم المشهور له بالجهاد وأفعال الخير وهو محمد بن جبل من ولد سيف ذي يزن ... والثياب تحمل له من الحضرة التونسية» إبن سعيد ، حوليات إسلامية ، المجلد السادس عشر ، المرجع السابق ، الصفحتان ١٦٤ و ١٦٥ .

بهذا الوضع ، إذ لم تكن هناك أسرة حاكمة أخرى فى غرب إفريقية لديها مثل هذه المزاعم . إن أسكيا محمد ادعى لنفسه لقب الخلافة ، ولكن ذلك كان بالنسبة للسودان فقط ، على حين كان يعترف بخلافة السلطان العثمانى . وتزعم الروايات أن الخلافة انتقلت إلى برنو خلال حكم عثمان بن زينب[11] (١٢٧٩ - ١٣٠٠) . وأساس هذا الادعاء هو الزعم بأنهم من سلالة بنى أمية . ويؤكد حكام البرنو - الذين اتخذوا لقب ماى - أنه خلال إحدى فترات الفراغ التى أعقبت بعض الاضطرابات فى الشرق الأوسط قدم إلى وسط إفريقية أمير أموى بصحبة بعض أتباعه وتزوج بإمرأة بربرية . ويزعم آل سيفى أنهم من سلالة هذا الأمير الأموى من ناحية النساء ، ومهما تكن حقيقة ذلك فقد أصبح آل سيفى عنصرا سائدا فى العصور المبكرة بسبب انتسابهم إلى بنى أمية ، ولكن هذا الانتساب أُعْطِى بمرور الوقت اعتبارا أكبر بعد أن أصبحت العلاقات مع الدول الإسلامية أكثر أهمية . ومما يدعو إلى مزيد من الدهشة أن كل المؤرخين العرب تقريبا ، الذين كتبوا عن آل سيفى ، قد أخذوا على محمل الجد أصلهم البربرى ، وكذلك مزاعمهم بشأن الخلافة . وهكذا يشير البكرى إلى أن أمير كانم من سلالة بنى أمية .[12]

ونحن لم نحصل على تاريخ متصل لبرنو إلا بعد أن اعتنق مايات برنو الإسلام . وكان دونمه بن أوم (١٠٨٦ - ١٠٩٧)[13] أول حاكم يعتنق الإسلام . وتحت حكم خلفائه انتهجت برنو سياسة توسعية . وعلى الرغم من أن الحكام

---

(١١) عثمان بن زينب: الماى التاسع عشر من سلسلة مايات برنو . حكم خلال الفترة ١٢٧٩ - ١٣٠٠ . اقترن عهده بنشاط الدعوة الإسلامية حتى قيل إنه المقصود بالشخصية المعروفة فى الكتب العربية باسم الهادى العثمانى ، إشارة إلى ادعائه أنه من ولد عثمان بن عفان .

« قال فى « مسالك الأبصار » : وأول من بث الإسلام فيهم الهادى العثمانى ، ادعى أنه من ولد « عثمان بن عفان » رضى الله عنه وملكها ، ثم صارت بعده لليَزَنيين . » صبح الأعشى . الجزء الخامس ، الصفحة ٢٨١ .

(١٢) « وبلد كانم أربعون مرحلة وهم وراء صحراء بلاد زويلة ... وهم سودان مشركون ويزعمون أن هناك قوما من بنى أمية صاروا إليهم عند محنتهم بالعباسيين ، وهم على زى العرب وأحوالهم . » البكرى ، الصفحة ١١ .

(١٣) الماى الذى تولى الحكم فى الفترة ١٠٨٦ - ١٠٩٧ هو الماى الثانى عشر أوم بن جبيل ، أما دونمه بن أوم فهو إبنه الماى الثالث عشر . أنظر الحاشية ٦ - ٧ أعلاه .

اعتنقوا الإسلام فإن الشعب ظل على وثنيته . وفى بداية القرن الثالث عشر حدث اختلاط فى الأجناس . ومهما يكن أصل آل سيفى ، فإن حاكم كانم فى الوقت الذى أرّخ فيه الإدريسى كان أسود البشرة . وكان سالما الذى حكم فى الفترة ١١٩٠ - ١٢٢٠ أميراً أسود[١٤] . وهكذا أصبحت الأسرة الحاكمة مع بداية القرن الثالث عشر زنجية خالصة ، حتى وإن كانت من أصل ليبى .

وكان دونمه دباليمى[١٥] هو الشخصية العظيمة فى تاريخ البرنو المبكر . فقد قاد حملة إلى الجنوب ، وغزا القبائل الوثنية ، وفى الشمال امتد نفوذه إلى الصحراء الجنوبية بأسرها . ويذكر العبر أن هذا الحاكم أهدى زرافا إلى الملك الحفصى فى تونس ، أبى عبد الله المنتصر[١٦] ، وأنه كان سببا فى موت مغامر عربى حاول تنصيب نفسه فى ودان .

وحتى بداية القرن الثالث عشر كانت دولة كانم هى السائدة ، وبرنو مجرد إقليم فى الأطراف . وكان مركز الإمبراطورية هو حوض تشاد ، بيد أن حكام البرنو أدركوا فى وقت مبكر أهمية تأمين طرق التجارة . وكانت بِلْما هى مركز تجارتهم فى الملح ، وقد ضمنوا تأييد قبيلة التدا التى تعيش فى الصحراء وذلك بالزواج ببنات رؤسائها ، وهو تأييد له أهميته ، لأنه من غير التحكم فى فزان

---

(١٤) سالما : (اسمه الإسلامى عبد الجليل بن بكر) ، وهو الماى السادس عشر ، وصحة الفترة التى تولى الحكم خلالها ١١٩٤ - ١٢٢١ . وكلمة سالمأ معناها أسود ، وقد اشتهر بهذه التسمية لسواد لونه على خلاف أسلافه . وفى عهده ازداد بناء المساجد .

(١٥) دونمه دباليمى : أحمد دونمه أو دونمه بن دابالا بن سالما (دابالا إسم أمه وسلما إسم أبيه) . الماى السابع عشر (١٢٢١ - ١٢٥٩) ، وهو الذى حطم المعبد الوثنى المعروف باسم «مبون» الذى كانت عبادته ما زالت قائمة والذى لم يكن أحد من مايات البرنو السابقين يجرؤ على الاقتراب منه .

(١٦) «وفى سنة خمس وخمسين وصلت هدية ملك كانم من ملوك السودان ، وهو صاحب برنو مواطنة قبلة طرابلس ، وكان فيها الزرافة ، وهو الحيوان الغريب الخلق المنافر الحلى والشيات ، فكان لها بتونس مشهد عظيم برز إليه الجلفى من أهل البلد حتى غَصّ بها الفضاء .» العبر ، طبعة دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، الجزء السادس ، القسم الثانى ، الصفحتان ٦٥١ و ٦٥٢ .

يستفاد من هذا النص أن الهدية وصلت فى سنة ٦٥٥ هـ ، أى ١٢٥٧ م ؛ ومن المعروف أن أبا عبد الله المنتصر حكم تونس فى الفترة ١٢٤٩ - ١٢٧٧ ، وأن دونمه حكم فى الفترة ١٢٢١ - ١٢٥٩ .

لايكون باستطاعة كانم أن تحتفظ بعلاقات تجارية ودبلوماسية مع تونس ، وهى علاقات ذات أهمية كبيرة لها .

وقد أدى نمو الكانورى[١٧] إلى تدعيم القبائل الوثنية . وشكلت قبائل الكُتُكُو والُمسُغو والموسا اتحادا عرف بالكوارارافا . وبحلول عام ١٣٠٠ كان الكوارارافا من القوة بحيث يستطيع الصمود أمام غارات الكانورى . وقد قدّر أن يكون لهذا الاتحاد دور هام فى سياسة المنطقة طيلة الأعوام الأربعمائة التالية ، وكانت هناك دول أخرى إلى الشمال والشرق . وكان الطوارق وغيرهم من قبائل الصحراء على استعداد دائما للفتك بالسكان المستقرين . ولذلك فإن أى ضعف يطرأ على قوة كانم كان يُغرى البدو بالإغارة على قوافل التجارة . والصعوبة التى واجهت كانم هى وضعها الجغرافى ، فلم تكن هناك حدود واضحة ؛ فهى تقع بين دول منحنى النيجر ودارفور . وفى الشمال أرغمت بحكم وضعها الجغرافى على غزو فزان لأن العجز عن السيطرة على الصحراء كان يؤخذ كعلامة على الضعف ، وكدعوة لقبائل الصحراء للقيام بأعمال النهب . ولذلك فإن الحدود المفتوحة فى كل الجهات هى التى أدت إلى ظهور كانم كقوة حربية كبيرة ، وكان عليها لكى تعيش فى أمان أن تخضع الآخرين ، أو أن يتمكنوا هم من إخضاعها . ولقد بذلت ما فى وسعها لغزو الآخرين .

كان دونمه هو الحاكم العظيم فى المرحلة المبكرة من إمبراطورية كانم – برنو . فقد قاد حملة ضد قَرَمان زويلة أيده فيها الحفصيون . وعلى الرغم من أن المقريزى يقول إن دونمه هو أول حاكم مسلم لكانم[١٨] ، فإن ذلك يبدو غير صحيح ،

---

(١٧) قبائل الكانورى : يجمعها شبه كبير بقبائل الكانمبو من حيث كونها خليطا من عناصر مختلفة من العرب والبربر والزنوج ، كما اختلطت بالكانمبو . يكونون أغلب سكان كانم وبرنو ، وسادت لغتهم فى المنطقة بحيث كانت كانورى تطلق على جميع العناصر المتكلمة بهذه اللغة بصرف النظر عن أصولها . يرجع إليهم الفضل فى الإكثار من استخدام الخيول ، وعرفوا بأنهم من أمهر الفرسان .

(١٨) «قال ابن سعيد وكوكو صاحب تلك البلاد وهو كافر يقابل من غربيه مسلمى غانة ومن شرقيه مسلمى الكانم ... وهم مسلمون» «جيمى . وهى على النيل ... قاعدة بلاد الكانم (قال ابن سعيد) وهى قاعدة بلاد الكانم وفيها سلطان الكانم المشهور وهو من ولد سيف بن ذى يزن» المقريزى ، الإلمام ، المرجع السابق ، الصفحتان ٢٢ و ٢٧ .

لأن كلا من اليعقوبى والإدريسى يذكر أن حكام كانم كانوا مسلمين منذ فترة طويلة .[19] وتعود أهمية دونمه إلى إدراكه أنه لكى توجد كانم كدولة ، ولكى يحتفظ آل بسيفى بموقعهم ، فإنه ينبغى دعم تنظيم الدولة بأسره . وقد أصر على إدخال قدر كبير من التناسق ، وكان سلاحه المفضل فى ذلك هو الجيش . وهكذا استطاع إخضاع مختلف القبائل المجاورة لسيطرة كانم . ويجمع الرواة على وصف دونمه بالحزم فى إقامة حدود الدين ، وعلى أنه كان يحكم بالعدل .

وشهد القرنان التاليان توسعاً سريعاً لدولة كانم ، إذ دعمت قبضتها على حوض تشاد والصحراء الجنوبية . وكان جنود الكانمبو يدعمون إمبراطورية بنى سيف فى الصحراء الجنوبية . وكتب الإدريسى فى عام ١١٥٢ (٥٤٧ هـ) يقول إنه كانت هناك أربع مجموعات فى حوض تشاد : ففى الشمال كان يوجد أهل كُوّار الذين امتد نفوذهم حتى تبستى ؛ والزازاج الذين امتد نفوذهم إلى شمال تشاد ومركزهم فى تشاد ؛ والباغرمى وكانوا من البدو ؛ والكانمبو (أهل كانم) وكانوا أقوى هذه المجموعات .

وفى القرن الثالث عشر أدت سياسة التوسع والتكامل التى بدأها خلفاء دونمة الأول إلى ظهور كانم كدولة عظيمة . وخضعت دنقلة ، الدولة المسيحية الكبيرة فى إفريقية الوسطى ، لسيطرتها . ومازال السور الحجرى فى ليجيا بوادى الغاب يذكرنا بالأيام العظيمة لدولة كانم ، ويقع هذا السور على بعد قرابة عشرين ميلا إلى الغرب من دنقلة ، وقد بنى على طراز الكانمبو التقليدى وله بوابة رئيسية كبيرة ومدخل جانبى صغير . وقد امتدت دولة كانم فى القرن الرابع عشر من الجندل الأول شرقا إلى النيجر غربا ، ومن ودان فى إقليم طرابلس شمالا إلى يولا جنوبا . وقد تحرك الكانمبو بمحاذاة الواحات إلى فزان مؤسسين مستعمراتهم على طول الطريق . وعند نهاية القرن الثالث عشر كانت

---

(١٩) « ووراء زويلة على خمس عشرة مرحلة مدينة يقال لها كُوّار ، بها قوم من المسلمين من سائر الأحياء أكثرهم بربر ، وهم يأتون بالسودان» اليعقوبى ، كتاب البلدان ، دار إحياء التراث العربى ، الصفحة ١٠٢ .

دولة البرنو بدورها تزحف نحو السيادة . ويشير إليها إبن سعيد[٢٠] فى عام ١٢٨٠ . كما أن إبن خلدون فى حديثه عن تلك الأيام يدعو الحاكم ملك كانم وسيّد برنو .

كان اتساع الإمبراطورية يحمل فى طياته بذور التفتت والانقسام . فمن الشرق تدفق البدو والتجار العرب . وفى عام ١٣٨٦ وصل البدو بأعداد تكفى لأن يحاولوا التأثير فى السياسة ، وترتب على غاراتهم أن أخذ الضعف العام يدب فى أركان دولة كانم .

وكانت غارات العرب على درجة كبيرة من الأهمية . ذلك أن عثمان بن إدريس[٢١] ، ماى برنو ، كتب إلى أحد سلاطين المماليك فى مصر[٢٢] يشكو تجار الرقيق من العرب «وبعد ذاك ، فقد أرسلنا إليكم رسولنا ، وهو إبن عمى ، إسمه إدريس بن محمد . من أجل الجائحة التى وجدناها ، وملوكنا ، فإن الأعراب الذى يسمون جُذاما وغيرهم قد سبوا أحرارنا : من النساء والصبيان ، وضعفاء الرجال ، وقرابتنا ، وغيرهم من المسلمين . ومنهم من يشركون بالله ، يمارقون للدين ، فغاروا على المسلمين فقتلوهم قتلا شديدا ؛ لفتنة وقعت بيننا وبين أعدائنا ،

---

(٢٠) على بن موسى بن محمد عبد الملك ، المعروف بابن سعيد العنسى الغرناطى : (١٢١٤ - ١٢٨٦) ، ولد بغرناطة . أقام فى الإسكندرية (١٢٤٣) ، ثم رحل إلى بغداد (١٢٥٠) ، ومنها إلى حلب فدمشق ، ثم عودة إلى الموصل فبغداد والبصرة ومكة . ذهب بعد ذلك إلى تونس ، والتحق بخدمة أبي عبد الله المستنصر ، وعاد إلى المشرق (١٢٦٨) ، وبلغ أرمينيا عن طريق الإسكندرية وحلب ، ثم عاد إلى تونس . صنَّف كتاب المغرب فى حلى المغرب ، وتوجد طبعة منه فى المكتبات تحقيق الدكتور شوقى ضيف ، كما صنف كتاب بسط الأرض فى الطول والعرض ، وقد أصدر معهد مولاى الحسن فى تطوان طبعة منه عام ١٩٥٨ ، حققها الدكتور خوان قرنيط جينيش ، الأستاذ بجامعة برشلونة . كما يوجد له كتاب الجغرافيا الذى أصدرته «منشورات المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع» ، بيروت . وقد تم تحقيق ونشر قطعة لابن سعيد عنوانها إقليم تشاد فى المجلد السادس عشر من مجلة حوليات إسلامية التى يصدرها المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة .

(٢١) عثمان أوبيرى بن إدريس : الماى الثالث والثلاثون ، ولى الحكم فى الفترة ١٣٩٢ - ١٤٢٥ . تعرض لحرب ضارية ضد حاكم الجنوب ، محمد بن دالاتو ، كما تعرض لاعتداءات قبائل جذام العربية المستقرة فى برنو ، وهى قبائل عرف عنها كذلك مساعدتها البولالا .

(٢٢) هو سلطان الظاهر «أبو سعيد برقوق» . وقد وصلته هذه الرسالة فى عام ١٣٩٢ .

فبسبب تلك الفتنة قد قتلوا ملكنا عمر بن إدريس الشهيد[٢٣] ، وهو أخونا إبن أبينا إدريس الحاج ، بن إبراهيم الحاج[٢٤] ، ونحن بنو سيف بن ذى يزن ، والد قبيلتنا ، العربي القرشى ، كذا ضبطناه عن شيوخنا ، وهؤلاء الأعراب قد أفسدوا أرضنا كلها ، فى بلد برنو كافة حتى الآن ، وسبوا أحرارنا وقرابتنا من المسلمين ، يبيعونهم لجُلاَّب مصر والشام وغيرهم ، ويختدمون ببعضهم ؛ فإن حكم مصر قد جعله الله فى أيديكم من البحر إلى أسوان ، فإنهم قد اتخذوا متجراً ، فتبعثوا الرسل إلى جميع أرضكم ، وأمرائكم ، ووزرائكم ، وقضاتكم ، وحكامكم ، وعلمائكم ، وصواحب أسواقكم ، وينظرون ويبحثون ويكشفون ؛ فإذا وجدوهم فلينزعوهم من أيديهم ، وليبتلوهم ، فإن قالوا نحن أحرار ونحن مسلمون فصدقوهم ولا تكذبوهم ، فإن تبين لكم ذلك فاطلقوهم وردوهم إلى حريتهم وإسلامهم .. والسلام على من اتبع الهدى . »[٢٥] .

ومع ذلك فإن سلطان مصر كان ذا مصلحة حيوية فى تحطيم إمبراطورية الكانورى . فإمبراطورية كبيرة تمتد من الجندل الأول إلى النيجر لابد أن تشكل تهديدا سياسيا ، والأسوأ من ذلك أنها كانت تتدخل بشكل خطير فى الغارات التى تشن من أجل الرقيق . فقد كانت هذه البلاد ظهيرا لمصر ، كما كانت منذ أقدم العصور مقسمة بين أصحاب الالتزام المختلفين . ولذلك لم تجد توسلات الماى آذانا صاغية .

---

(٢٣) عمر بن إدريس : الماى الثلاثون من الأسرة السيفية ، وأول من انتقل من ماياتها من كانم إلى برنو . تولى الحكم فى الفترة ١٣٨٧ - ١٣٩١ .

(٢٤) إدريس بن حفصة بنت نيجال بن إبراهيم : (أمه حفصة بنت نيجال ، وأبوه إبراهيم) ، الماى السادس والعشرون . تولى الحكم فى الفترة ١٣٥٢ - ١٣٧٦ . « وكان ملكهم فى حدود سنة سبعماية (١٣٠٠ م) الحاج إبراهيم . » المقريزى ، حوليات إسلامية ، المرجع السابق . [الحاج إبراهيم المشار إليه فى المتن وفى هذا الاقتباس هو الماى العشرون الحاج إبراهيم نيجال بن كاجودى الذى حكم فى الفترة ١٣٠٠ - ١٣٢١ .]

(٢٥) ورد نص هذه الرسالة فى صبح الأعشى ، الجزء الثامن ، الصفحتين ١١٧ و ١١٨ .

بيد أن حروب البولالا[٢٦] هى التى بددت ثروات الكانمبو . وكان البولالا فرعاً تابعاً من الأسرة السيفية . وكان چيل سيكومامى[٢٧] إبن إحدى أميرات البرنو ، وسمى بولالا بسبب ضراوته وشراسته . وقد ارتكب سيكومامى جريمة قتل ، وفر إلى النجيزام الوثنيين ، حيث أقام لنفسه مملكة فى فترى بمساعدة العرب وغيرهم من البدو . وخشى الماى دونمه أن تعمل أسرة البولالا الحاكمة على تفتيت إمبراطورية الكانورى فبدأ بتوجيه الضربة وألحق بهم الهزيمة . وكان الماى قد ترك ولىّ العهد داوود نجيلمى[٢٨] فى فترى لتولى شؤون الحكم . وسرعان مانشب الخلاف بينه وبين ولىّ العهد ، وبذلك استطاع أبو طحل حاكم البولالا غزو فترى . وعندما خلف داوود الماى دونمه استطاع البولالا طرده من نجيمى . يقول المقريزى : "وكان قبيل سنة ثمان ماية . وانتقض عليهم أهل كانم وارتدوا وبقيت برنوا فى مملكتهم . وهم مسلمون مجاهدون لأهل كانم ، ولهم اثنا عشر مملكة" [٢٩] .

---

(٢٦) تفيد المخطوطات التى عثر عليها فى بلاد البرنو أن أصل البولالا من العرب اليمنيين ، وأن أول سلاطينهم شخص يدعى محمداً قيل إنه جاء من الغرب ، ومن سلالته زعماء البولالا الذين سيطروا على جزء من بلاد الكانم ، وهم فرع من الأسرة المقول بأنها سيفية . وكلمة البولالا تعنى الأحرار أو النبلاء بلغة الطوارق . وأصولهم البربرية المتأثرة بالدماء العربية تفسر مساعدتهم للعرب فى صراعهم مع مايات البرنو .

(٢٧) چيل سيكومامى (أو عبد الجليل سيكوما) : زعيم البولالا القوى الذى حكم فى الفترة ١٣٦٥ – ١٤١١ ، وعاصر تسعة من مايات البرنو ، أولهم الماى إدريس بن حفصة (١٣٥٣ – ١٣٧٦) ، وآخرهم الماى عثمان بن إدريس (١٣٩٢ – ١٤٢٥) صاحب الرسالة إلى برقوق سلطان المماليك فى مصر ، وقتل منهم أربعة هم : داوود بن فاطمة ؛ عثمان بن إدريس ؛ عثمان بن داوود ؛ وأبو بكر بن داوود . كما أنه الحاكم الرابع فى سلسلة حكام البولالا .

(٢٨) داوود بن فاطمة بنت نيجال بن إبراهيم : (أمه فاطمة بنت نيجال وأبوه إبراهيم) ، الماى السابع والعشرون (١٣٧٦ – ١٣٨٦) .

(٢٩) داوود لم يخلف الماى دونمه ، وإنما خلف إدريس بن حفصة بنت نيجال بن إبراهيم ، الماى السادس والعشرين (١٣٥٣ – ١٣٧٦) . « وملك بعده ابنه الحاج إدريس ثم أخوه داوود بن إبراهيم بن عمر بن أخيه الحاج إدريس ثم أخوه عثمان بن إدريس . وكان قبيل سنة ثمان ماية . وانتقض عليهم أهل كانم ... » المقريزى ، حوليات إسلامية ، المجلد الخامس عشر ، الصفحة ١٩٥ .

وقد ارتبط ظهور قوة البولالا بثورة مجموعتين من الشعب ضد كانم . وكانت قوة الكانورى تستند إلى حلف بين قبائل البدو ، مثل قبيلة التدا ، والسكان الزنوج المستقرين فى منطقة تشاد . وكان التدا عنصرا قويا فى الدولة ؛ فأم دونمه بن أوم على سبيل المثال هى بنت أحد رؤساء التدا . ويذكر المؤرخون أن حروب البولالا قد بدأت لأن دونمه حطّم إحدى التعاويذ . ويعتقد بارث أن ذلك يشير إلى حرب السنوات السبع التى شنها دونمه ضد التدا . والحلف مع التدا هو الذى مكّن الكانم من السيطرة على الصحراء . وهكذا أمسك دونمه بجذور قوة الكانورى . ومن هنا كانت رغبة التدا فى الانضمام إلى جيل سيكومامى فى محاولة لتحطيم إمبراطورية الكانورى . وثمة شبه كبير بين حروب الكانورى – البولالا والحروب الإنجليزية – الفرنسية ، من حيث كونها حروبا طويلة الأمد ، وليست مجرد حروب بين جيوش نظامية وإنما حروب بين عصابات من قطاع الطرق اكتسحت المنطقة بأكملها . إن الأسر الحاكمة كانت مترابطة ، ولكن خلف هذا الترابط كان هناك صراع الفرع التابع من أجل إزاحة الأسرة الحاكمة من حوض بحيرة تشاد .

ومع ظهور قوة البولالا فى فترى أرغم مايات كانم على ترك عاصمتهم القديمة والانتقال إلى برنو[٣٠] التى ازدادت أهميتها نتيجة لذلك فى المقاطعات الخاضعة للمايات . وأصبحت كل جهود المايات خلال السنوات المائة والعشرين التالية مكرسة لاستعادة أرض أجدادهم .

---

(٣٠) عندما وضحت استحالة التغلب على البولالا وزعيمهم عبد الجليل ، الذين كانوا يلقون المساعدة من قبيلة جذامة العربية من ناحية الشمال والشرق ، لم تستطع الأسرة السيفية البقاء فى العاصمة نجيمى ، وتوجه الماى عمر بن إدريس إلى إقليم برنو غربى بحيرة تشاد . ومنذ عهد عمر بدأ حكم البولالا فى كانم ، واستقر المايات السيفيون فى برنو ، واتخذوا كاغا أو كاكا عاصمة لهم ، وفى برنو أخذوا يكافحون العودة إلى كانم والقضاء على البولالا . وبذا ينتهى عصر سيادة كانم ويبدأ عصر سيادة البرنو .

« وقاعدتهم مدينة كاكا ... فيما ذكر لى رسول سلطانهم الواصل إلى الديار المصرية صحبة الحجيج فى الدولة الظاهرية (برقوق).» صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٧٩ .

ومع استفحال الخطر اتجه مايات البرنو نحو الشمال . وقد أدى انهيار قوة الكانورى إلى ظهور قوة الطوارق فى أسبن ، واشتداد فتكهم بالقوافل بحيث استحالت التجارة مع الشمال . وكان على جاجى[٣١] ، الذى خلع الماى الحاكم فى عام ١٤٦٦ ، هو الذى قاد مقاومة الكانورى . وقد كتب إلى الشيخ مختار حاكم توات طالباً استئناف تجّار توات لزياراتهم التقليدية : " أقسم بالله بأنى لن ألحق بكم أذى من أى نوع ، وبأنى لن أسمح لأحد أن يفعل ذلك . احضروا إلينا كما هى عادتكم . وأى شخص يحضر من توات حاملا منكم رسالة لن يطلب منه دفع أى شئ ، أرضنا هى أرضكم مثلما كانت أرض أجدادكم . »[٣٢] وتلك حركة سياسية بارعة لأن السلطان كان يأمل فى الحصول على تأييد دول شمال إفريقية فى محاولة للإبقاء على طرق التجارة مفتوحة . ولكن الأمر الأكثر أهمية هو أن قوة الكانورى قد استعيدت فى فزان بما يكفى لأن يقدم السلطان تعهدا إلى تجار إفريقية الشمالية بحمايتهم من قطاع الطريق .

---

(٣١) على جاجى بن دونمه بن زيتب : الماى السابع والأربعون ، تولى الحكم فى الفترة ١٤٧٢ - ١٥٠٣ ، وهو إبن الماى التاسع والثلاثين دونمه بن عثمان . يعد من أعظم مايات إمبراطورية البرنو . فقد أعاد إليها الهيبة ، وقضى على الحروب الأهلية ، واستعاد النظام . خاض حروبا توسعية كثيرة حتى لقب «بالغازى» . بنى عاصمة جديدة هى مدينة بيرنى أى المدينة الحصينة التى ظلت عاصمة لبرنو إلى حين استيلاء الفولانى عليها . عاصر إثنين من أعظم سلاطين السنغى . سنّ على وأسكيا الحاج محمد . قام بدور « صانع الملوك » . فقد تمكن من عزل الماى الرابع والأربعون عثمان بن كادى فى عام ١٤٦٦ ، وولّى مكانه ماياً آخر متقدما فى السن هو الماى الخامس والأربعون الذى لم يمكث فى الحكم سوى عام واحد ، وجاء بعده الماى السادس والأربعون محمد بن محمد كادى ، الذى اضطره على الغازى إلى الهرب . وحينئذ سنحت له الفرصة لتولى حكم البرنو . ويقال إن «جاجى» تقابله بالعربية كلمة « الصغير » . أنظر ، بالمر ، The Bornu Sahara and Sudan ، الصفحة ٢٢٤ .

(٣٢) نورد فقرة أخرى سبقت هذه العبارة : « بعد ذلك يالها من غرابة ! لماذا تخليتم عن عادة آبائكم ، وتوقفتم عن زيارة بلدنا ؟ فمنذ أيام المعاهدة مع سيدنا الصغير لم تجيئوا إلينا قط » بالمر ، المرجع نفسه ، الصفحة نفسها . [المقصود بسيدنا الصغير هنا هو جاجى بن إبمالا ، الماى الثالث والأربعون ، الذى عقد معاهدة مع عرب توات ، وقتله البولالا .] وقد كتبت هذه الرسالة فى شعبان ٨٤٣ (يناير ١٤٤٠) . من المرجع نفسه ، الموضع نفسه .

وقد حاول على جاچى تدعيم نفوذ برنو على جنوبى الصحراء الكبرى ، وحالفه النجاح فى فزان ، وأعيد فتح طريق التجارة إلى الشمال . وفى وسط الصحراء الكبرى واتته الفرصة فى أخريات أيام حكمه ، وذلك عندما استغاث به حاكم أير الذى كان قد ضاق ذرعا بسيطره كِبٍّ . وقاد على جاچى حملة ضد كبّ ، ولكن على الرغم من أنه هزم كَنْتَ كبّ[٣٣] ، فإن مدينة سوريم[٣٤] الحصينة استعصت عليه ، وأرغم على التقهقر ، فطارده الكَنْتَ وألحق به الهزيمة ، وقام بغزو برنو ، وهزم سلطانها فى سبع معارك استعد لها الطرفان من قبل ، ولكن الكَنْتَ أرغم فى النهاية على التراجع ، وأصبحت حدود كبٍّ تقتصر على السنغى غربا والبرنو شرقا .

عامل آخر تسبب فى إضعاف البولالا وأعوانهم من العرب ، هو ظهور قوة الأتراك العسكرية فى المشرق ، فقد طرق العثمانيون أبواب مصر ، وشُغلت مصر تماما بهم بحيث لم يعد بإمكانها أن تفكر فى مساعدة البولالا . واغتنم المايات الفرصة بمهارة ، وسارعوا إلى جلب المدربين الأتراك لإعادة تدريب الجيش ، وتشكلت سرية من حملة البنادق أصبحت خير وحداته .

ومع ذلك كانت كانم تواجه أعداءً آخرين أيضاً ، فى مقدمتهم وثنيو الجنوب الأقوياء ، إذ كان على كل الحكام تقريبا أن يشنوا الحرب ضدهم . وقد شكلت الشعوب الوثنية مثل الكوتوكو والماسا والموسُغو ، كما رأينا ، اتحادا اكتسب درجة من القوة أدركها المؤرخون العرب فى بداية القرن الرابع عشر . وهذا الاتحاد هو الكوارارافا . وسنحت لهذا الاتحاد فرصته الحقيقية خلال تصاعد

---

(٣٣) كَنْتَ : وردت بهذه الصيغة فى تاريخ السودان ، الصفحة ٨٨ ومواضع أخرى ؛ وكذلك فى تاريخ الفتاش، الصفحة ٤٣ ومواضع أخرى . وكبٌّ إحدى ممالك الهوسا ، وكان حاكمها كوتال ، المشهور بلقب كَنْتَ ، أى ملك ، أحد قواد السنغى العسكريين ، ولكنه خرج عليهم واستقل بمقاطعة كبٍّ ، ثم اتسع ملكه باستيلائه على كاتسنا وغوبير وزازو ، ثم امتد نفوذه إلى أير . وكَنْتَ اسم دولة ، وكذلك اسم حاكم تلك الدولة التى يوجد مركزها فى مقاطعة كِبٍّ ، فى لند .

(٣٤) سوريم : مدينة بالقرب من سكتو ، وتعرف كذلك باسم سورماى . وهى مدينة محصنة يربو محيط أسوارها على عشرة أميال ، كما تشمل حصونا كثيرة وأحياء مسوّرة . وكانت تستخدم فى مبانيها الحجارة والطوب الأحمر .

قوة البولالا ، وذلك عندما شغلت كانم فى الشمال والشرق ، فمد سلطته فى النصف الأخير من القرن الرابع عشر إلى الجزء الجنوبى من أراضى الهوسا ، وقاد ساركن كانو[٣٥] حملة ضد الاتحاد فى عام ١٣٨٥ . وظل تهديد الكوارارافا ماثلا قرابة ثلاثة قرون . يقول مؤرخ برنو[٣٦] ، « لقد قام الماى الغازى على بن زينب ، وهو من أصحاب المدن ذات الأسوار العالية والحراب الطويلة والجياد القوية ، بشن الحرب ضد وثنيى كونا حتى تشتتت قواته أمام الهجوم الذى شنّه الكونا ، ولكن العناد تسلط عليه هو والسلطان سعيد مونين باچو ، واستأنف رجاله المعركة مرة ثانية حتى أحرزوا النصر» . وهكذا على الرغم من أن النصر ظل فى المقام الأول إلى جانب برنو ، فإنه ظل نصرا مزعزعا . واستمر الاتحاد بمثابة شوكة أخرى فى جسد كانم - برنو .

من ناحية ثانية كانت قوة البولالا هى التهديد الأشد خطورة . فعلى الرغم من أن تأييد العرب قد توقف ، فإن قوة البولالا ظلت ماثلة . وكانت دولة البولالا منظمة وفق نفس المبادئ التى أخذت بها دولة الكانم . فالطبقتان الحاكمتان فيهما على غرار واحد ، والأسرتان الحاكمتان متزاوجتان . فالغازى على بن زينب ، على سبيل المثال ، تزوج بابنة سلطان البولالا[٣٧] ، غير أنه بعد عشرين عاما من حكمه لم يعد راغبا فى أن تشكل قوة البولالا مصدر معاناة وضيق له ، فهاجم حماه وتغلب عليه ، ولكن سرعان ما قهره الموت . وكان لعلى الغازى إبن من أميرة بولالية إسمه إدريس كان عند وفاة أبيه لم يزل فى الخامسة ، فأرسلته أمه إلى بلاط البولالا . وبعد وفاة أبيه أصبحت أخته - عائشة كيلى - وصياً

---

(٣٥) ساركن : فى لغة الهوسا بمعنى الملك أو الرئيس وجمعها سراكوما . وكان حكام بعض ممالك الهوسا يحملون هذا اللقب ، وبخاصه حكام كانو . وربما يكون الساركن المشار إليه هنا هو ياجى بن تساميا ، الساركن الثانى عشر فى سلسلة سراكوما كانو ، والذى حكم فى الفترة ١٣٤٩ - ١٣٨٥ ، أنظر الحاشية ١٤ - ٤٤ أدناه . أنظر كذلك ، بالمر ، Sudanese Memoirs ، المجلد الثالث ، الصفحة ١٠٧ .

(٣٦) هو المؤرخ المعروف أحمد بن فرتوا ، أنظر الحاشية ٦ - ٤٤ أدناه .

(٣٧) هو محمد عُمَر ، الذى يسميه أحمد بن فرتوا دونمه بن سالما . الحاكم العاشر للبولالا الذى تولى الحكم فى الفترة ١٤٧٩ - ١٥٠٨ . أنزل به الماى إدريس بن على هزيمة كبرى حوالى عام ١٥٠٤ ، ودخل العاصمة التى لم يتمكن أبوه من دخولها .

على العرش . وعند بلوغه الثانية عشرة كتب إلى أمه وأخته يبلغهما بوجوده ، فسألتاه العودة ، وتوّج ملكا .

وشهد عهد **إدريس بن على**[٣٨] بداية جولة أخرى من حروب البولالا كان سبب اشتعالها بسيطاً للغاية . فبينما كانت أم إدريس تجوب ربوع البولالا نهبت قافلتها وقطعت قدماها . واقتفى الكانمبو أثر الجناة حتى لانجا إحدى مدن البولالا . وطالب إدريس بتسليمهم إليه ، ولكن البولالا رفضوا طلبه . عندئذ قاد إدريس بن على جيشا ضد البولالا قوامه سبعون ألفا ، وألحق بهم الهزيمة فى معركة دموية ، ثم قاد بعد ذلك جيشا إلى كانم وحررها .[٣٩] لقد انقضى من الأعوام مائة وعشرون منذ أن غادر داوود بلاد كانم ، ومن ذلك الحين كان إدريس أول ماى يعود إلى دخولها . وشن إدريس حملة ثانية ضد البولالا أنهكت قواهم ، ثم استدار لمواجهة التهديد الذى تشكله حملات السنغى فى بلاد الهوسا على حدوده الغربية ، ولذلك اتخذ جانب كبٍّ فى الحرب التى تخوضها ضد السنغى . واتبع خلفه محمد[٤٠] السياسة نفسها وحقق بدوره نجاحا ضد البولالا فاق كل ما كان متوقعا ، ووقع ملك البولالا أسيرا . وفى عهد محمد بن إدريس استعادت الامبراطورية مجدها القديم . وربما يكون محمدٌ هذا هو الذى قضى على مملكة التونجور فى دارفور وأسس مملكة سيفية حاكمة هناك .

---

(٣٨) الماى إدريس بن على دونمه أو إدريس بن عائشة : الماى الثامن والأربعون ، حكم خلال الفترة ١٥٠٣ – ١٥٢٦ . حقق حلم مايات برنو بدخول عاصمة الحاكم البولالى ، وإن لم ينقل عاصمته إليها بسبب أهمية عاصمته بيرنى من الناحيتين العسكرية والتجارية . كان الماجيرا (الملكة الأم) الفضل فى توجيهه وإرشاده كما كان لأحمد بن فرتوا الفضل فى تخليد أعماله وتسجيلها . اشتهر عهده بالرخاء والازدهار والإكثار من بناء المساجد فى العاصمة بيرنى .

(٣٩) «بعد أن أصبح إدريس بن على خليفة فى أرض البرنو ، حشد جيشا من الحمر (البيض ، أى عرب البرنو) والسود وتوجه إلي أرض كانم ، وحارب السلطان دونمه بن سالما وانتصر عليه ، فهرب دونمه مع فلول جيشه ، ودخل إدريس شيما – وهى جيمى الشهيرة عند الملوك السيفيين ، وأقام فيها فترة .» وردت هذه الفقرة فى ريتشموند بالمر The Bornu Sahara and Sudan ، الصفحة ٢٢٦ ، مترجمة عن أحمد بن فرتوا .

(٤٠) محمد بن إدريس : الماى التاسع والأربعون ، إبن ادريس بن على بن عائشة ، تولى الحكم فى الفترة ١٥٢٧ – ١٥٤٥ .

ومع ذلك كان الزمن يدخر لإدريس أكثر شهرة (**إدريس ألوما**)[٤١] مهمة الإجهاز التام على قوة البولالا . فقد شن البولالا ، في عهد حاكمهم دونمه بن محمد ، غارة على برنو . وكانت هناك حتى ذلك الوقت مسألة معلقة هي مسألة المدن الثلاث التي يحتلها البولالا بصورة غير شرعية . فكتب إدريس إلى سلطان البولالا طالبا إياه إعادة هذه المدن ، ولكنه رفض الخضوع ، عندئذ تحرك إدريس نحو كانم . وكان البولالا منقسمين إلى مجموعتين ، إحداهما تتبع السلطان **عبد الجليل**[٤٢] الذي هيمنت عليه رغبة القتال حتى نهايته المرة . وبعد أن أوقع به إدريس ألوما سلسلة من الهزائم شكل **محمد بن عبد اللاه**[٤٣] حزبا آخر يؤثر السلم .. وعلى الرغم من أنه كان يوجد في بلاط البولالا حزب نشط يعمل لصالح إدريس ، فإن الأمر تطلب حملات طويلة كثيرة قبل هزيمة عبدالجليل وتأمين مواقع محمد بن عبد الله . وبينما لم يكن البولالا أقوياء بدرجة تكفي لمواجهة إدريس ، فقد كان باستطاعتهم إرغام محمد بن عبد اللاه على النكوص عن شروط أية معاهدة . وعلى الرغم من أن إدريس أوقع بعبد الجليل هزائم متعددة فإنه ما إن انسحب جيش برنو حتى تمكن عبد الجليل من أن يوقع الهزيمة بمحمد بن عبد اللاه . وفي هذه الأثناء قام الماى إدريس بإخلاء كانم من سكانها . وعند نهاية الحملة السادسة كانت قوة البولالا قد أنهكت بسبب كثرة ماخاضوه من حروب ، مما أدى إلى تعاظم نفوذ حزب السلم . واستطاع محمد بن عبد اللاه ضمان السلم بأن ضحى بأجزاء هامة من أراضيه .

---

(٤١) إدريس بن علي أو الحاج إدريس ألوما : الماى الثالث والخمسون ، أعظم سلاطين البرنو ، خضع لوصاية أمه الماجيرا عائشة في الفترة ١٥٦٣ ١٥٧٠ ، وتولى الحكم في الفترة ١٥٧٠ - ١٦٠٣ . عرف بإدريس بن عائشة ألوما نسبةً إلى أمه التي تحلت بالعقل والحكمة وحسن التدبير ، وغرست في إبنها الشجاعة وحب الجهاد والتمسك بالعدل . سجل الإمام أحمد بن فرتوا حروبه في شتى الميادين . كانت تربطه علاقة مصاهرة بأسرة البولالا الحاكمة في كانم . فقد كان خاله هو محمد بن عبد اللاه حاكم البولالا في ذلك الوقت والذي كان يؤثر الصلح مع إدريس ، ويناوئ السلطان عبد الجليل المولع بالحرب . وقد وقع اتفاقا مع إدريس لرسم الحدود يوضح معالم كانو وبرنو .

(٤٢) محمد سووى معبد الجليل : الحاكم السادس عشر للبولالا ، تولى السلطنة في الفترة ١٥٧٢ - ١٥٩٢ .

(٤٣) محمد بن عبد الجليل الكبير بن عبد اللاه : الحاكم السابع عشر للبولالا (١٥٩٢ - ١٦٣٢) ، كان إدريس ألوما يرتبط معه بعلاقة مصاهرة ووقع معه اتفاق سلم . وكان قد تولى السلطنة في عام ١٥٧١ بعد وفاة السلطان عبداللاه بن كادي ، ولكن محمد سووى عزله في عام ١٥٧٢ ، وتولى مكانه . ثم عاد محمد بن عبد اللاه إلى السلطنة بعد وفاة محمد سووى في عام ١٥٩٢ . أنظر ، بالمر ، المرجع السابق ، الصفحة ٥٤ .

وكان على إدريس ألوما أن يواجه أعداءً آخرين أيضاً . فلم يكن البدو هم وحدهم الذين أكدوا استقلالهم . فقد أكده أيضا أتباع تقليديون مثل ممالك الهوسا . وما كان أكثر أهمية هو القبائل الوثنية الناشئة ، النجيزيم والنجافاتا والتبالا وغيرها . يقول أحمد بن فرتوا[٤٤] إن الوثنيين عندما ارتقى إدريس العرش كانوا يستعبدون المسلمين . وكانت سياسته المتعلقة بالنجيزيم ذات ثلاثة جوانب . فقد أقام الحصون ، ومن هناك كان جنوده يقتلعون الغابات في الصيف ويتلفون محاصيل العدو في موسم الأمطار ، ويغيرون عليه في الشتاء . واستمات الوثنيون في الحرب . "لقد احتشد الكفار بقلوب تفيض بالغضب ، واشتبكوا مع المسلمين في معركة ضارية ، ونجحوا في حملهم على الكف عن القتال" . بيد أنه كان نجاحا لبعض الوقت . فحملة البنادق من الأتراك ورجال الحرس المدربون على الأسلحة النارية الصغيرة كانوا يشكلون قوة على درجة من الانضباط استحال معها على النجيزيم الصمود طويلا ، وحالف النصر الماى إدريس . وخضع التابالا والنجافاتا بدورهم .

وخلال هذه الفترة حققت كانو درجة من القوة ، وجرت عادتها على أن تغير على مملكة البرنو كلما تعرضت للمتاعب . فقاد إدريس جيشا إلى كانو ، وبعد سلسلة من المواقع أرغمت كانو على الاعتراف بسيادة برنو . ومع ذلك كان الفولاني هم مصدر القدر الأكبر من متاعب إدريس ، وذلك بسبب ضعفهم وتعرضهم للفتك المستمر على أيدي الطوارق والقبائل الوثنية ، مثل النجاميزان والنجيزيم . وكان الفولاني عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم ، واعتاد الطوارق الإغارة عليهم . وهكذا كان على السلطان أن يشن في عام واحد ثلاث حملات

---

(٤٤) الإمام أحمد بن فرتوا : رئيس العلماء ومؤرخ بلاط برنو زمن الماى إدريس ألوما ، وله الفضل في تخليد أعمال إدريس وتسجيل حروبه في شتى الميادين . مؤلفاته مكتوبة بالعربية ، وقد عثر عليها بارث خلال رحلته ، ونشرها أمير كانو في عام ١٩٣٠ ، وترجمها بالمر في كتابيه . ومما يؤسف له أن النص العربي لمؤلفاته مفتقد . والإمام أحمد سليل أسرة دينية لها أثرها الكبير في نشر الإسلام والعلوم الإسلامية في برنو ، وجده البعيد هو داعية الإسلام المعروف محمد بن ماني الذي عاش في القرن الحادي عشر . له مؤلفان رئيسيان يحملان الاسمين : ١) تاريخ السنوات الاثنتي عشرة الأولى من حكم إدريس ؛ ٢) حروب البولالا .

ضد الطوارق ، ولكنه عجز عن سحقهم . وتعرض الفولانى للإغارة مرة ثانية ، وأرغم السلطان على إرسال وزيره لمحاربتهم . وفى الاشتباك الذى حدث عند أجالاوا لم تلحق الهزيمة فقط بقطاع الطريق من أبناء الصحراء ، بل لقد طوردوا وسحقوا وأرغموا على قبول سيادة برنو . وفى عهد إدريس ألوما ظلت دارفور خاضعة لسلطان برنو . وقد عثر أركل فى دارفور ، على سبيل المثال ، على آثار كثيرة لسلطان ألوما ، فقد كان أول ماى يبنى مسجدا بالطوب الأحمر ، وأدخل ألوما نفس الطراز فى دارفور .

وعلى الرغم من أن النصر كان دوماً حليف إدريس ألوما ، فقد عجز عن وقف نمو الكواررافا . ولم يتعرض اتحاد القبائل الوثنية لأى قمع من جيوش إدريس القوية ، بل ظلت قوته سليمة . وعلى خلاف الطوارق والهوسا لم يتم إخضاع الاتحاد ، وظل مصدرا للمتاعب لمايات كانم ، ووقف إدريس عاجزا عن كشر شوكته .

وكان القرن السادس عشر هو فترة عظمة برنو . ففى خلاله أعاد ثلاثة حكام عظام ، هم الإدريسان[٤٥] ومحمد بن إدريس[٤٦] ، بناء قوة الدولة . واحتفظت برنو بسيادتها من دارفور إلى الحدود الغربية لبلاد الهوسا ، وخضعت فزان مرة أخرى لسيطرتها .

وفى عهد إدريس ألوما بلغت برنو أوج قوتها ، فقد أقام ألوما دولته الجديدة كقوة حربية خالصة ، وأدى الإصلاح الذى أدخله على الجيش إلى بلوغه مكانة لاتباريها مكانة أى جيش آخر فى بلاد السودان . كما استقدم فصيلة من حملة

---

(٤٥) هما إدريس بن عائشة وإدريس ألوما .

(٤٦) المقصود هنا على الأرجح هو الماى الخامس والأربعون محمد بن إدريس الذى حكم خلال الفترة ١٥٢٧ - ١٥٤٥ ، علما بأن هناك مايا آخر يحمل نفس الاسم هو الماى الرابع والخمسون الذى خلف إدريس ألوما ، وتولى الحكم فى الفترة ١٦٠٣ - ١٦١٨ ، والذى قتل فى حرب القبائل الوثنية وقالت الوثائق إنه استشهد فى حرب مقدسة ، ويعتبر عهده بداية مرحلة ضعف إمبراطورية البرنو وتدهورها ، وهى المرحلة التى شهدت خمس مجاعات قاسية .

البنادق الأتراك تولت تدريب حرسه المكون من الرقيق على استعمال الأسلحة النارية . وبفضل هذه الترتيبات أصبح جيش برنو فريدا فى إفريقية الزنجية . ثم أحدث تغييرا شاملا فى نظام النقل بالجيش بإحلال الإبل والجياد محل البغال والثيران . كما طوّر الملاحة النهرية ، فحلت القوارب الكبيرة محل الأشجار المجوّفة . وبذلك اكتسب جيشه قدرة على الحركة كان يفتقر إليها ، وأصبح لدى برنو جيش لايضارعه جيش آخر فى إفريقية كلها ، وظل هذا الجيش محتفظا بشهرته حتى حروب الفولانى .

ولم تكن حمية إدريس الدينية بأقل من حميته العسكرية . كان يتمسك بالشريعة ، ويلتزم أحكام القرآن ، وأقام المساجد من الطين والطوب الأحمر ، بعد أن كانت تقام من الغاب . وفى عهده حل القضاة محل زعماء القبائل فى إقرار العدل ، وكانت جريمة الزنا وغيرها تعامل بالشدة ، وتوقع بمرتكبيها عقوبات قاسية .

بعد إدريس لم يطرأ وهن على دولة البرنو ، بيد أن خلفاء الماى إدريس كانوا ضعافا . وقد استطاعت برنو دعم نفوذها حتى على الرغم من أن ملوكها الأخيرين لم يكونوا محاربين عظاما . يقول بارث إن الشيخوخة أخذت رويدا تنخر فى عظام المملكة ، ومع ذلك كانت البيروقراطية قوية بما يكفى لتسيير الإدارة . وإلى ماقبل إدريس ألوما كانت المناصب الرفيعة فى أيدى النبلاء ، ولكن الرقيق أصبح فى إمكانهم الآن الوصول إلى أرفع المناصب . ولم يكن العلماء بغير نفوذ ، كما أن الإشارة المعتادة إلى الحكام على أنهم " إخوان فى الدين " ، " شديدو الورع والتقوى " ، شديدو الحدب على العلماء ، كانت تعنى طبقا لتفسير إرفوى أن الحكام ضعفاء . قد يكون صحيحا أن البيروقراطية الدينية والإدارية زادت قوتها بعد عهد ألوما ، ولكنه صحيح أيضا أن الملوك ظلّوا هم الحكام أصحاب النفوذ . فخليفة ألوما ، على سبيل المثال ، تدخل فى معركة داخلية بين المطالبين الذى يتنافسون على سلطنة الطوارق . واستطاع عمر[٤٧] أن يفرض على الطوارق الشخص الذى اختاره ، ولكن الطوارق تمكنوا من إبعاد هذا

(٤٧) الحاج عمر بن إدريس : الماى السادس والخمسون ، تولى الحكم خلال الفترة ١٦٢٥ -- ١٦٤٤ .

الشخص الألعوبة عندما انسحب جيش البرنو . ومع ذلك كان هدف برنو هو السيطرة على طريق التجارة المؤدى إلى فزان ، وكانت مدينة بِلما ذات أهمية خاصة لها فى هذه التجارة . ولهذا سمح عمر للطوارق بالاستقلال شريطة ترك القوافل وشأنها . وكان خليفته على بن عمر[٤٨] الذى حكم خلال الفترة ١٦٤٥ – ١٦٨٠، رجلا من طراز مختلف . ففى عهده تمسكت برنو بالسيطرة على الصحراء ، لذلك أغار عمر على أغدس واستولى عليها بعد محاصرتها ، وطرد سلطانها إلى التلال ، وسيطرت برنو على كل المواقع الهامة فى السلطنة . غير أن الطوارق شنوا حربا غير نظامية ، وعجز على طيلة أعوام ثلاثة عن إخضاع المحاربين فى التلال . وفى النهاية حدثت مجاعة أرغمت برنو على الانسحاب .

كان فشل الحملة يعنى أن أغدس أصبحت منافساً لبلما كمركز لتجارة الملح . وتشير هذه الحملة إلى محاولة باسلة لتمسك برنو بسيطرة كاملة غير منقوصة على التجارة مع الشمال ، فالرخاء التجارى يعتمد عليها . وعلى الرغم من أن برنو استمرت لبعض الوقت ، فإن ظهور أغدس بجيش ذى قدرة هائلة ، ووقوعها على طريق التجارة المتجه إلى الشمال ، يعنيان أنه كان عليها إما أن تخوض حرباً طويلة الأمد أو أن تتلاشى على مهل .

وهذا هو ماحدث . فمع ذبول قوة برنو أصبح لاتحاد الكوارارافا السيطرة فى الجنوب ، فقد ساد معظم بلاد الهوسا ، بل أطبقت قواته الحصار على ملك البرنو فى عاصمته ، ومع ذلك ظلت برنو دولة قوية ، وإن تكن فى مرحلة أفول .

بلاد الهوسا

كانت بلاد الهوسا تقع فيما بين النيجر الأعلى وإمبراطورية كانم – برنو . وعندما بلغت قوة الكانورى ذروتها كانت هذه المناطق تخضع للنفوذ الإمبراطورى ،

---

(٤٨) الحاج على طاير بن الحاج عمر : الماى السابع والخمسون ، تولى الحكم فى الفترة ١٦٤٤ – ١٦٨٠ . وقعت فى عهده ثانى المجاعات الخمس ، وقد استمرت هذه المجاعة أربع سنوات ، وعرفت باسم «دالاداما» . فى عهده أيضا اجتاحت قبائل الكوارارافا المناطق الغربية من برنو .

وتعترف دائما بسيادة حكام كانم – برنو . وقد اعتمدت سلطة برنو الفعالة فى هذه المنطقة على قوتها السياسية ، وواصلت ممالك الهوسا معاركها الداخلية الطاحنة دون تدخل خارجي يذكر . فضلا عن ذلك فإن موقع بلاد الهوسا أعطاها امتيازا خاصا – فإمبراطوريات السودان تحمى مشارفها الشمالية ، على حين تقف برنو حائلا من ناحية الشرق . ولم يكن باستطاعة جودار باشا أو رابح[٤٩] التغلغل في بلاد الهوسا دون الإطاحة بالممالك البالغة القوة فى بلاد السودان الغربية .

كان هذا الموقع الجغرافى عوضا لممالك الهوسا عن افتقارها إلى قوة سياسية فعالة ، مثلما كان الرخاء التجارى والصناعة عوضا كبيرا لها عن المجد الحربي . فالرخاء التجارى الذى بدا واضحا منذ أيام ليو الإفريقى[٥٠] أصبح أشد وضوحا فى القرون التى أعقبت القضاء على دولة السنغى فى تندبى[٥١] . وقد حلت كاتسنا ، ثم كانو فيما بعد ، محل تمبكت ليس فقط كمركز تجارى هام للجزء الغربي من بلاد السودان ، وإنما كمركز ثقافى أيضا . فتمبكت فى عصر

---

(٤٩) رابح فضل الله أو رابح الزبير : (١٨٤٥ – ١٩٠٠) ، زعيم سودانى ، ولد بالخرطوم ، تلقى تعليما دينيا ، واشتغل بتجارة الرقيق ، ثم التحق بخدمة الزبير ود رحمة منصور وابنه سليمان . لما هزم جيسى باشا رجاله فى عام ١٨٧٩، فر مع بعض أتباع سليمان إلى بلاد قبيلة الأزندى ، وأسس سلطنة هناك (١٨٨٠ – ١٨٨٤) ، ثم قادهم إلى داريندا حيث اصطدم ببعثة فرنسية ، فذهب إلى وداى وهزم سلطانها . رحل إلى تشاد ، ثم إلى برنو فى عام ١٨٩٤ ، حيث كان يحلم بإنشاء دولة كبرى . هزمه الفرنسيون قرب بحيرة تشاد ، وقتل فى المعركة فى عام ١٩٠٠ .

(٥٠) «ورغم ذلك فإن الملك يتباهى بثروته وبالخزينة العظيمة التى يملكها ، وقد رأيت كل مايجهز به خيله من ركابات ومهاميز وأعنة وشكيمات كلها من الذهب ، وكذلك القصع والأوانى التى يستعملها للأكل والشرب معظمها كذلك من الذهب . والسلاسل ، حتى سلاسل كلاب الملك ، كلها من الذهب الخالص» . وصف إفريقيا ، طبعة المغرب ، الجزء الثانى ، الصفحة ١٧٧

(٥١) تندبى : هى المعركة التى أوقع فيها المراكشيون بقيادة الباشا جودار هزيمة حاسمة بجيش أسكيا اسحاق الثانى ، وكانت إيذانا بالنهاية الفعلية لدولة السنغى . وقد اختلفت التواريخ التى ذكرها السعدى وكعت والوفرانى لوقوعها . ونكتفى هنا برواية تاريخ الفتاش ، الصفحة ١٤٦ ، التى تذكر أن الملاقاة وقعت فى يوم الثلاثاء التاسع من جمادى الأولى ٩٩٩ (٥ مارس ١٥٩١) .

الباشوات ، مع ماكانت تموج به من ثورات القصر الدائمة ، ومع تعرضها لغزوات البمبرة والطوارق ، لم تكن بالمكان الذى يمكن أن تزدهر فيه المساعى الثقافية ، وإنما كانت مكانا للمغامرات الحربية ، لذلك سرعان ما وصلت كاتسنا وكانو إلى مكان الصدارة . ويبدو أن بلاد الهوسا كان بها طبقة مزدهرة من العلماء ، لأن من بين اتهامات الشيخ الكانمى التى لم ينكرها سلطان بِلّ أن الحرائق التى أشعلها الفولانى قد دمرت عدداً كبيرا من الكتب(٥٢) . كما أن ملاحظات دنهام(٥٣) وكلابرتون(٥٤) ، وكذلك بارث ، انصبت لاعلى نشاط المدن الصناعية وضوضائها فقط ، وإنما على المناخ الثقافى أيضا .

وبرغم أن المرء لايجد مشقة فى ملاحظة أن الهوسا لم يمارسوا قط سيطرة سياسية على جيرانهم ، وأنهم كانوا دائما خاضعين لهم ، فإن لهم تاريخا ممتعا يفسر حالة الحضارة فى غرب إفريقية .

وتقول الأساطير إن ممالك الهوسا كانت أربع عشرة مملكة قامت عن طريق غزوة من برنو قادها شخص يدعى بايزيد . وكان بايزيد هذا ، استنادا إلى بلٍّ،

---

(٥٢) «ثم إنه لم يرعنا (سلطان بِلُّ) إلا وثيقة الحاج أمين (الكانمى) ، ونصها ... ثم رأينا ما ينكره كل موفق ، وذلك إهانتكم للكتب برميها فى الطرق وفى المواضع المستقذرة ...» إنفاق الميسور ، الصفحات ١٥٧ إلى ١٥٩ .

(٥٣) ديكسون دنهام : (١٧٨٦ – ١٨٢٨) ، رحالة إنجليزى شارك فى حملات البرتغال وأسبانيا وفرنسا وبلجيكا . فى عام ١٨٢١ انضم إلى كلابرتون وأودنى فى حملة نظمتها الحكومة الإنجليزية وصلت إلى برنو فى عام ١٨٢٣ عن طريق فزان . كتب الجزء الأكبر من كتاب Narrative of Travels and Discoveries in Northern and Central Africa in The Years 1822-1824 الذى صدر فى عام ١٨٢٦ .

(٥٤) هوغ كلابرتون : (١٧٨٨ – ١٨٢٧) رحالة اسكتلندى صحب دنهام وأودنى فى الرحلة إلى برنو . ومن برنو قام باستكشاف بلاد النيجر . بعد وفاة أودنى فى يناير ١٨٢٤ سار إلى كانو وسكتو حيث التقى بسلطان بلّ . نشرت قصة رحلته فى كتاب دنهام Narrative of Travels . عاد إلى انجلترا ، ثم أوفد فى حملة أخرى إلى إفريقية حيث نزل بمنحنى النيجر وبلاد اليوربا فى يناير ١٨٢٦ . مات بالدوسنتاريا فى سكتو فى أبريل ١٨٢٧ . كان أول أوروبى يقدم وصف شاهد عيان لممالك الهوسا التى زارها فور إقامة الفولانى لإمبراطوريتهم فى سكتو ، وضمّن هذا الوصف Journal of Second Expedition into the Intcterior of Africa ، وقد عاد خادمه لاندر ، الذى رافقه فى رحلته ، بهذا الوصف إلى إنجلترا .

رقيقا لدى سلاطين برنو[٥٥] . وعلى أية حال فإن الأساطير تذكر أن بايزيد قد قدم من برنو بصحبة إبنة السلطان وإحدى المحظيات ، وعندما وصل إلى بلاد الهوسا نبح الجنى الذى يقوم على حراسة الماء وحرر البلاد . وقد خلفه أبناؤه السبعة وكونوا الممالك السبع التى شكلت النواة الأساسية لبلاد الهوسا . وإلى جوار هذه الممالك السبع كانت توجد سبع ممالك أخرى سكانها ليسوا جميعا من الهوسا . وتعرف هذه الممالك الأخيرة بأنها أشباه الهوسا[٥٦] . وكلمة الهوسا لاتعنى عنصرا معينا ؛ فالهوسا مجموعة لغوية أكثر منها مجموعة قبلية . ولقد أقاموا أول الأمر فى أسبن ، ثم طردهم الطوارق منها . والمناطق الشمالية هى مناطق الهوسا الحقيقية ، ولذا تحملت ضغطا أكبر . وفى الجنوب انحسرت الموجة مؤدية إلى قدر أكبر من الامتزاج .

وثمة سمة مميزة لبلاد الهوسا يتعين التأكيد عليها مرارا ، هى أنها مناطق حدود . فهى ليست فقط المنطقة التى التقى فيها السودان بثقافة بنين الخصبة ، وإنما هى أيضا نقطة التقاء للتأثيرات الشرقية والشمالية . وبرنو كما رأينا كانت على اتصال مستمر بمصر والسودان الشرقى (السودان المصرى الإنجليزى فيما بعد) ، وكاد تأثيرها أن تكون له الهيمنة على ممالك الهوسا . وإلى جانب أنها كانت منطقة حدود سياسية ، فقد كانت من نواح كثيرة حدودا عرقية . فالقبائل الشمالية تختلف كثيرا عن القبائل الجنوبية والشرقية . وكانت كل هزيمة تدفع بأعداد كبيرة من الناس إلى بلاد الهوسا . وكان عامل التوحيد الرئيسى هو لغة الشعب وثقافته اللتان مكنتاه من امتصاص القادمين الجدد .

---

(٥٥) ويزعموا أن عبداً لسلطان برنو يقال له بلو هو الذى ولد السودانيين من أهل هذا البلد ، ولذلك قلنا : إنهم من مماليك البربر من أهل برنوا ... وحدثنى الأخ أمير المؤمنين محمد الباقرى .. أن كاشنة وكنوا وزكزك ودوروته وبريم ، كلهم من ولد بلو الذى هو مملوك سلطان برنوا» إنفاق الميسور ، الصفحة ٤٤ . (بلو المشار إليه هنا هو بايزيد الذى ذكره بانيكار) .

(٥٦) يقول الدكتور عيسى عبد الظاهر إنه قامت فى هذه البلاد سلسلة من الإمارات أو الدول أو الممالك الصغيرة ، وتقسم هذه الممالك إلى مجموعتين : المجموعة الأصلية ، وعرفت باسم هوسا باكواى ، أى ممالك الهوسا السبع ، وهى : غوبر ؛ زكزك (زاريا الآن) ؛ دورا ؛ كانوا ؛ كاتسنا ؛ جاران جابا ؛ ورانو . ثم المجموعة الفرعية ، وتعرف باسم بانزا باكواى أى السبع الفرعية ، وهى زنفرا ؛ كبٌ ؛ ياور ؛ نوبى ؛ يرب (أو إيلورين) ؛ برغ ؛ وغرم . الدعوة الإسلامية فى غرب إفريقية وقيام دولة الفولانى ، الصفحات ١٦٢ إلى ١٦٤ .

وقد كانت ثقافة الهوسا ، جنبا إلى جنب مع ثقافة اليوربا والبرنو ، من الثقافات التي تواصلت على الرغم من الهزائم والفتوحات الحربية . ولم تكن الدول الكبيرة في المناطق الغربية من بلاد السودان ، إذا ماقورنت بها ، ذات مأثورات عظيمة ، كما أن تاريخها يفتقد نبض الحياة ، في حين ظل لممالك الهوسا مأثورات حية ، واستمرت طريقتها في الحياة دون تغيير ، وإن لم يخل الأمر من تعديلات فرضتها ضرورة مسايرة الاقتصاد الحديث . وذلك فارق جوهري يجدر بنا أن نتوقف عنده ، فالدول التي قامت في بلاد السودان لم تحاول قط تطوير صناعة ما ، في الوقت الذي حققت فيه الفنون والحرف لدى اليوربا والنوبي والهوسا شهرة عالمية ، وأرست فيه أركان الذاتية المستقلة للثقافة الإفريقية .

ولدينا فيما يتعلق بممالك الهوسا تآريخ كانو[٥٧] وكاتسنا وأبوجا ، وهي التآريخ التي سمحت لنا بتكوين فكرة عن تطورها السياسي . فملوك الهوسا ، شأن الملوك في كل مكان ، كانوا ملوكا كهنة . وقد سلب السلطة منهم عن طريق التحايل مستوطنون قدموا من الشمال . ففي كانو كان مغامراً يدعى باغودا ، وفي كاتسنا كان بربرياً يدعى كومايو . والأمر المثير في أحداث السيطرة هذه هو أن البربر لم يحققوا ولو لمرة واحدة سيطرة سياسية عن طريق قوة عسكرية متفوقة ، وإنما كانوا يجيئون إلى السلطة عن طريق الحيل والمناورات . وقد تكون لذلك أسباب كثيرة لعل أيسرها أنهم منذ كانوا يتبعون النظام الأمومي اكتسب رجل منهم عن طريق الزواج سندا شرعيا للرئاسة ، لأنه يبدو غريبا أن يذعن الشعب المحلي للغزو . فقد ظل الشعب على دينه الوثني على الرغم من أن الملوك

---

(٥٧) تآريخ كانو : لم يكن يعرف عنها شيئ حتى عام ١٩٠٣ ، حين اكتشف بارث مخطوطة لها في برنو أشارت إليها ليدي لوجارد في كتابها Tropical Dependency ، الصفحة ٣٢٦ . غير أن النسخة التي عثر عليها ليست كاملة ، إذ لم يرد فيها غير ٤٢ ملكا . وقد اكتشفت فيما بعد نسخة كاملة بالقرب من كاتسنا قام رتشموند بالمر بترجمتها إلى الإنجليزية ونشرها في كتابه Sudanese Memoirs . وقد أُلفت التآريخ حوالي عام ١٨٩٠ ، ولكنها تعتمد نصوصا سابقة على الجهاد ، وهي تعدد ٤٨ ملكا من ملوك الهوسا (الفولاني بعد عام ١٨٠٧) ، بداية من باغودا الذي وصل إلى كانو عام ٩٩٩ ، وانتهاء بمحمد بِلُّ . [أنظر ، بالمر ، المجلد الثالث ، الصفحات ٩ إلى ١٣٢ ، وكذلك اليونسكو تاريخ إفريقيا العام ، المجلد الرابع ، الطبعة العربية ، الحاشيه ٢٠ بالصفحة ٢٧٨.]

والطبقات العليا كانوا قد اعتنقوا الإسلام عند حلول القرن الثانى عشر . وقد كان يوسا الساركن الخامس لكانو ، الذى حكم فى الفترة ١١٣٦ - ١١٩٤ ، ملكا قويا ، ومن أجل أن يقيم سلطته على أساس سليم فقد قام ببناء السور حول كانو . وأنشأ إبنه ناغوشى (١١٩٤ - ١٢٤٧)[٥٨] نظاما لإيرادات الأرض بالاستيلاء على ثُمن المحصول . ويبين هذا التدبير مدى تقدم نظام الزراعة فى بلاد الهوسا وإمكانية زيادة إيرادات الأرض بحيث تواجه نفقات ملك إقطاعى .

وقد ازدهرت الوثنية طوال هذه الفترة . وترسم تاريخ كانو خطاً فاصلاً بين الوثنيين والمسلمين ، ولكنها لاتتذكر متى دخل الإسلام إلى كانو ، وإن كان الراجح أن ملوك كانو اعتنقوا الإسلام فى وقت مبكر ، كما أن الساركن السابع[٥٩] كان قلقا بسبب تفشى الوثنية . وعمل على استئصالها ولكنه فقد بصره . وقام الساركن التاسع[٦٠] بتدمير أماكن العبادة الوثنية . ولم تكن الأحوال أفضل فى كاتسنا . ففى عام ١٣٨٠ اعتنق ساركن كاتسنا الإسلام ، ولكنه ما لبث أن ارتد إلى الوثنية . وفى الوقت نفسه على وجه التقريب شرع تجار الونقارة فى الوفود على كانو بأعداد كبيرة حاملين معهم إسلاماً نقيًا . ولما كان التجار قد جاءوا إلى أراضى الهوسا بأعداد أكبر ، فقد ساعد جوارهم للسكان المحليين وصلتهم الوثيقة بهم على انتشار الإسلام، ومع ذلك ظل حكام كاتسنا على ولائهم لدينهم. وبسبب اليقظة الفكرية التى أحدثها الإسلام وألفه الهوسا الطويلة به ، كان من اليسير على المغيلى هداية الشعب إليه .

والمغيلى هو أحد الشخصيات العظيمة التى ارتبطت بالإسلام فى إفريقية السوداء . وقد ولد فى المنطقة الخلفية من الجزائر ، وسرعان مابرع فى علوم الدين ، وتاق إلى هداية الوثنيين والكفار إلى الإسلام . واشتعلت حماسته الدينية عندما قتل اليهود إبنه ، فقام باستئصال شأفة الجالية اليهودية فى توات .

---

(٥٨) يوسا أو تساراكى بن جيجيماسو : الساركن الخامس (١١٣٦ - ١١٩٤) : ناغوشى بن تساراكى : الساركن السادس (١١٩٤ - ١٢٤٧) .

(٥٩) جوجو بن جيجيماسو : الساركن السابع (١٢٤٧ - ١٢٩٠) .

(٦٠) تساميا بن شكارلو : الساركن التاسع (١٣٠٧ - ١١٤٣) .

وقد عاش بعض الوقت فى مملكة السنغى حيث لقى قدرا كبيرا من الاحترام ، وسرعان ما نشبت خلافات مرجعها تشدده فى الدين ؛ فرحل عن السنغى إلى المناطق الجنوبية ، حيث قابلته الجالية الإسلامية بالترحاب ، واستطاع بفضل تفقهه وحكمته إدخال هذه الممالك فى الإسلام . ولكن الوثنية لم تمت ، والحقيقة أنها ظلت تشكل قوة طوال تاريخ بلاد الهوسا .

وفى هذه الأثناء واصلت ممالك الهوسا حروبها المدمرة ، وكانت كاتسنا أكثرها ولعاً بالقتال ، لذا انهمكت فى حروب دائمة ، والحقيقة أنها حاولت منذ البداية أن تقيم لنفسها موقعا سائدا . فشنت حربا ضد سَوَتا ، وهى مملكة زنجية بالقرب من أسبن ؛ ودخلت فى حرب طويلة ضد غوبر ونوبى ويورا . وعندما اتسعت رقعة مالى كثيرا فيما بين عامى ١٣١١ و ١٣٨٧ خضعت لها ممالك الهوسا الشمالية ، بيد أن كاتسنا استفادت حتى من تبعيتها . فبحلول عام ١٣٦٠ كانت مملكة أسبن القديمة المستقرة قد فقدت قوتها البدائية ، وأخذت كاتسنا تتوسع جنوبا أيضا . وهكذا كانت كاتسنا برغم تبعيتها دولة قوية ، كما كانت أحد المستودعات الثانوية للتجارة عبر الصحراء . ولكن كانو كانت أقل حظًا ، فبسبب قربها الشديد من برنو لم تصبح مستقلة حقيقة إلا عندما ضعفت تلك الإمبراطورية .

ومع صعود دولة السنغى تحت حكم سنٍّ على أصبحت بلاد الهوسا همزة الوصل بين برنو والسنغى . وكانت كاتسنا هى المكان الذى اصطدمت فيه هاتان الإمبراطوريتان القويتان . فقد حاولت كل منهما ، الواحدة بعد الأخرى ، السيطرة على أير بمساعدة كَنْتَ كبٍّ ، ولكنهما كانتا تضطران إلى الانسحاب بسبب امتداد خطوط المواصلات وقوة الكَنْتَ وعناده . وكان مرجع رغبتهما فى الاستيلاء على أسبن وأير مفهوما ، فذلك يمكنهما من الاقتراب من الحدود الشمالية لبلاد الهوسا ، ويدعم سيطرتهما الاقتصادية على المنطقة .

وبينما كانت هذه الأحداث تقع فى الشمال كانت سلطة اتحاد الكوارارافا تهيمن فى الجنوب . وسرعان ماشعرت كانو بقوته وأقامت معه علاقات تجارية ، فكانت ترسل الجياد إلى الجنوب وتحصل فى مقابلها على الرقيق . بيد أن قوة

أخرى نشأت فى بلاد الهوسا هى زاريا . فتحت حكم امرأة ذاعت شهرتها تدعى أمنة ، حكمت فى نهاية القرن الخامس عشر ، أصبحت زاريا أقوى مملكة فى بلاد الهوسا . وتتحدث تاريخ كانو عن أمنة بتوقير شديد . "فى ذلك الوقت قامت زاريا تحت حكم أمنة بغزو جميع المدن حتى كوارارافا ونوبى . ودفعت لها كل مدينة الجزية . وأرسل لها ساركن نوبى أربعين خصيًا وعشرة آلاف من ثمار الكولا . وكانت أول من يحصل على الخصيان والكولا فى بلاد الهوسا . واستمرت غزواتها أكثر من أربع وثلاثين سنة . »[61] فمن كانت أمنة هذه ؟ يدلل بالمر على أن أمنة هى إبنة تورونكو باكوا التى أسست مدينة زاريا فى عام ١٥٣٦ . وكانت تورونكو إمرأة مهاجرة ، وفسر بالمر إسمها على إنه يعنى إمرأة أجنبية تنتمى إلى التورونكاوا ، أى ببساطة من التكرور . وهو يربط بينها وبين حركة الفولانى فى منطقة النيجر الشرقى ، وبخاصة ماسنة ، ومن هنا يقول إنها ربما كانت من الفولانى . وهكذا فإن كلاً من ميك[62] وبالمر يضعها فى القرن السادس عشر ، فى حين تقطع تاريخ كانو بأنها حكمت فى القرن الخامس عشر . ومع ذلك يرى ميك أنها لابد قد جاءت من الجنوب ، وأن تفوقها قد يكون مرجعه حصولها على البنادق من التجار على الساحل . فضلا عن ذلك يبدو أن أمنة كانت من قبيلة أمومية ، فقد خلفت أمها ، بيد أنها لم تتزوج . ولاتذكر التاريخ سوى أنها اعتادت أن تتخذ عشيقا جديدا كل ليلة . والسيادة التى حققتها أمنة لايمكن تفسيرها إلا بأنها كانت على اتصال بالساحل ، وهو تفسير يدعمه أنها كانت أول من أدخل الكولا فى بلاد الهوسا وأول من طلب الجزية عينا من الكولا التى كان يصعب الحصول عليها فى بلاد الهوسا . وكان بلّ واضحا تماما حين قال إن أملاكها كانت تمتد حتى البحر[63] . ولابد أيضا أنها استخدمت بعض الجنود

---

(٦١) وردت هذه الفقرة فى بالمر ، The bornu Sahara and Sudan ، الصفحة ٢١٩ ، وذلك نقلا ن تاريخ كانو .

(٦٢) س. ك . ميك : مؤلف كتاب Northern Tribes of Nigeria ، فى مجلدين ، لندن ١٩٢٥ .

(٦٣) «وهذه الأقاليم السبعة قد كان فيها من العجائب والغرائب أمور كثيرة . وأول من استقرت له الدولة فيها – على ما زعموا – أمنة بنت أمير زكزك – غزت هذه البلاد واستولت عليها قهرا ، حتى أدى إليها الخراج من كاشنة وكنوا ، وغزت فى بلاد باوش حتى وصلت البحر المحيط ... » إنفاق الميسور ، الصفحة ٤٤ . [زكزك هى زاريا ؛ كاشنا هى كاتسنا ؛ كنوا هى كانو .]

المرتزقة لفتح بلاد الهوسا . ولكن لماذا اضمحلت زاريا بعد آمنة ؟ يمكن إرجاع ذلك إلى أن إمبراطورية البرنو استطاعت بجيشها الأفضل تدريبا أن تستولى على بلاد الهوسا بأسرها . وتقول تاريخ كانو إنه بينما كانت آمنة تحكم زاريا جاء إلى كانو أمير عظيم من برنو . يتضح ذلك من أن دغاتشى[٦٤] ، وهو أمير من برنو ، كان يمارس نفوذا فعالا فى كانو ، وأن الجزية كانت تدفع لبرنو . وتاريخ برنو قاطعة فى هاتين النقطتين ، إذ تقول إن كل ممالك الهوسا كانت تدفع الجزية لبرنو .

كذلك كان اتحاد الكوارارافا يهاجم الهوسا مما ساعد على تدعيم سيطرة برنو . ولم تكن أسوار كانو ولا أسوار كاتسنا من المنعة بحيث تحول دون مهاجمة الكوارارافا للقرى . ولم يكن باستطاعة الهوسا وحدهم مواجهة الكوارارافا ، وكانت المساعدة من برنو هى العون الوحيد الذى يمكن أن يتوقعوه ، إذ كان للبرنو حساب قديم مع الكوارارافا عليهم أن يصفّوه .

وهكذا لم يكن بوسع ممالك الهوسا إلا أن تظل تابعة لبرنو . فكانو على سبيل المثال كان يحكمها دغاتشى حتى عهد الساركن الحادى والعشرين . كما شن عبد اللاه[٦٥] ساركن كانو الحرب على كاتسنا وزاريا وأوقع بهما الهزيمة . وعندما عاد إلى وطنه تبين له أن دغاتشى يستعد لخلعه بالخديعة . وحاول عبد اللاه أن يطيح بدغاتشى ، ولكن سلطان برنو جاء على رأس جيش كبير لمؤازرة دغاتشى . " لقد خرج ساركن كانو ومعه العلماء للقائه وأرغمه على

---

(٦٤) دغاتشى : فى أيام ساركن كانو الخامس عشر داوود باكون داميزا أو داوود بن كاناچيچى (الذى حكم خلال الفترة ١٤٢١ – ١٤٣٨) جاء إلى كانو أمير عظيم من برنو هو دغاتشى بصحبة حشد من الرجال والمعلمين . وقد أعجب به الساركن ، وأعد له مع رجاله مقاما فى دوراى . وعندما خرج للحرب مع زاريا عهد إليه بشؤون الملك . وكلمة دغاتشى فى لغة الكانورى معناها نبيل صغير أو رئيس صغير .

(٦٥) عبد اللاه بن محمد رمفا : ساركن كانو الحادى والعشرون الذى حكم خلال الفترة ١٤٩٩ – ١٥٠٩ . قام باعتداءات كثيرة على قبائل الونقارة التابعة لبرنو ، فاضطر ماى برنو إلى محاربته وطرده من كانو ، وولى مكانه عبدا من عبيده هو محمد كيسوكى بن عبد اللاه الساركن الثانى والعشرون الذى حكم خلال الفترة ١٥٠٩ – ١٥٦٥ .

الركوع تحت قدميه ". [٦٦] وبعد ذلك انسحب السلطان وتحايل عبد اللاه على خلع دغاتشي من منصبه وولى مكانه أحد خصيانه . وعاد العصر الذى سادت فيه برنو على ممالك الهوسا بفوائد كثيرة . فبعد أن تحررت هذه الممالك من مخاوفها من وقوع عدوان خارجى استطاعت تركيز جهودها على الإغارة من أجل الرقيق . وقد حققت فى ذلك نجاحا هائلا انخفض معه ثمن الرقيق فى أسواقه . ولم تسفر صلتها مع الشمال عن مجئ الفقهاء المسلمين فقط ، وإنما الكتب الإسلامية أيضا . ففى عهد الساركن العشرين محمد رمفا عبد الرحمن[٦٧] وصل إلى كانو شريف من المدينة[٦٨] ، وعمل هذا الشريف على تطهير الإسلام من البدع التى أقحمت عليه ، بعد أن أصبح يوجد فى بلاد الهوسا مزيج غريب من الطقوس الوثنية ، وطلب إلى رمفا أن يقيم مسجدا للصلاة الجامعة ، كما أمره باقتلاع الأشجار التى يقدسها الوثنيون . وهكذا فعلى الرغم من أن الإسلام قد توطدت أركانه فى بلاد الهوسا ، فإن الأعراف الوثنية ظلت مزدهرة فى كانو حتى القرن السابع عشر . وخلال هذه الفترة عرفت بلاد الهوسا الملح الذى يجلب من أسبن وكذلك ثمار الكولا التى ازدهرت التجارة فيها مع الساحل . وسرعان ما أصبحت كانو وكاتسنا المستودعين الكبيرين لهذه التجارة ، كما تخصصتا فى السروج الجلدية والدروع الخاصة بالجياد .

وقام رمفا (١٤٦٣ – ١٤٩٩) بكثير من الإصلاحات ، إذ مد أسوار المدينة وعزّز تحصيناتها ، وقيّد سلطة النبلاء الإقطاعيين ، وبدأ فى استخدام الرقيق والخصيان فى حكم البلاد . ومن ذلك تعيين رقيق مكان دغاتشى ، واستخدم

---

(٦٦) ورد هذا الاقتباس ، وكذلك الفقرة التى تليه ، فى بالمر ، Sudanese Memoirs ، المجلد الثالث، الصفحة ١١٢ .

(٦٧) محمد رمفا عبد الرحمن بن يعقوب : ساركن كانو العشرون الذى حكم خلال الفترة ١٤٦٣ – ١٤٩٩ . وهو أعظم سراكونا كانو ، وعصره من أزهى عصورها . فى أيامه حضر من المدينة إلى كانو الإمام المغيلى ومعه أتباعه وكتبه ، كما حضر إليها من مصر الإمام جلال الدين السيوطى . وقد ألف المغيلى الرسالة المسماة «واجبات الأمراء» والتى تتضمن نصائح للساركن فى أدائه مهام الحكم .

(٦٨) هو بطبيعة الحال الإمام محمد بن عبد الرحمن المغيلى .

العلماء لأول مرة فى شؤون الإدارة . وأصبح للحكومة جهاز إدارى فعال ، مما ترتب عليه ازدهار كانو وكاتسنا .

كانت هذه فترة رخاء عظيم لبلاد الهوسا . فقد أدى انهيار دولة السنغى إلى تدهور تمبكت باعتبارها الطرف الجنوبى للطريق الممتد عبر الصحراء ، وأصبح كل تجار الشمال يجيئون إلى كانو وكاتسنا . وقد تميزت بلاد الهوسا على مدن منحنى النيجر بوقوعها فى قلب أكثر مناطق السودان إنتاجية ، وبقربها الشديد من المناطق الاستوائية . وهكذا أصبح الحصول على الكولا والعاج ، وكذلك الرقيق ، أيسر فى كانو وكاتسنا .

وفى الصراع مع كاتسنا كان لكانو اليد العليا . فمحمد كيسوكى (١٥٠٩-١٥٦٥) الذى خلف عبد اللاه[٦٩] كان مولعا بالحرب ، حتى أنه قام بمهاجمة برنو . ووسع كيسوكى الحدود وترك كانو فى حالة تأهب واستعداد . غير أن وفاته أعقبتها حرب أهلية . فقد تنازع الغلديمة[٧٠] - قائد قوات كانو - وچولى - خال كيسوكى . وساند الغلديمة إبن الملك الراحل ، ولكنه رفض العرش فانتقل عندئذ إلى إبنه . ولكى تزيد كاتسنا الأمور سوءا فرضت الحصار على كانو ، وأوقعت الهزيمة بقواتها فى الميدان ، ولكنها أخفقت فى الاستيلاء على المدينة . وفى العام التالى جاء دور كانو للقيام بالهجوم ، ولكنها هزمت وسرعان ماقابلت كاتسنا هذا العمل بمثله . وبينما كانت قواتها تشدد النكير على كانو هاجمها أيضا ساركن كوارارافا . وقد سجل المؤرخون ذلك فى عبارات بليغة : "لقد ترك شعب كانو المدينة وذهب إلى دورا ، مما ترتب عليه أن أتى الكوارارافا على البلاد بأسرها وأصبحت كانو غاية فى الضعف . وواصل رجال كاتسنا تخريب كانو ونهبها ، ولو أنهم لم يرعوا مقام العلماء فى كانو لتمكنوا من دخول المدينة

---

(٦٩) فيما يتعلق بعبد اللاه بن رمفا ، الساركن الحادى والعشرين ، ومحمد كيسوكى ، الساركن الثانى والعشرين ، أنظر الحاشية ٦ ٦٥ أعلاه .

(٧٠) الغلديمة هو حاكم المناطق الغربية من برنو ؛ فى حين أن الكيغامة هو حاكم المناطق الجنوبية منها ؛ واليريمة هو حاكم الأجزاء الشمالية ، أما المسطرامة فهو حاكم الأجزاء الشرقية ، ويشغل فى الوقت نفسه منصب رئيس الخصيان فى قسم الحريم ، أى كبير الخدم بالقصر .

وتخريبها تماما . ولقد حدثت مجاعة استمرت أحد عشر عاما" . ولكن كانو استعادت قوتها ، ولم يقم محمد زاكى[٧١] فيما بعد بمهاجمة كاتسنا فقط ، بل أوقع بها الهزيمة واستولى على أربعمائة من جيادها وستين من دروعها . وقدّم خليفته محمد نازاكى[٧٢] شروطا رفضت كاتسنا قبولها ، واستؤنفت الحرب . وهزمت كاتسنا ثانية ، غير أن محمد نازاكى مات فى الطريق تاركاً النزاع دون حسم .

وبينما كان حكام كانو منهمكين على هذا النحو فى شؤون الحرب انسلّت السلطة بالتدريج إلى أيدى البيروقراطيين . فهؤلاء ، ومنهم وومبى چيوا ، كانوا من القوة بحيث استطاعوا كبح جماح النبلاء ، وأصبحوا الحكام الحقيقيين للمملكة . وهكذا عندما مات كاتوبى أثناء عودته من كاتسنا ظل المنصب شاغرا فترة من الوقت قدم خلالها كل مسؤول كبير فى الدولة مرشحه للمنصب . وذلك أمر طبيعى فى بيرقراطية إقطاعية حيث الأرض والسلطة والجنود يتبعون المنصب . وقام الكوارارافا مرة أخرى بغزو كانو ونهبها ، وكانت قوتهم من الضخامة بحيث اضطر ساركن كانو[٧٣] إلى الفرار . وفى عام ١٦٧١ ، عندما عاد الكوارارافا ثانية ، انسحب الحاكم إلى دورا ونهب الوثنيون المدينة ، وذبحوا كثيرين من سكانها .

ووصل الأمر بالحكام أنهم استغاثوا بماى برنو . والتقى الماى على بن عمر[٧٤] بالوثنيين ، الذين حاولوا محاصرته فى عاصمته ، ولكنه أحرز عليهم نصرا مؤزَّرًا . وقد أتاح له استنجاد كانو به الفرصة ليس فقط ليهزم الوثنيين ، وإنما أيضا لحمل كانو على الإقرار بسيادته . وفى موقعة كبيرة أوقع بهم الهزيمة . ويمكن أن نلمس تحرر الهوسا فى أنشودة نظمها معلم من كاتسنا يدعى دان مارينا :

" لقد ضاقت بنا الأرض من فرط ما ضيق علينا العدو الخناق ،

---

(٧١) محمد زاكى بن كيسوكى : الساركن السابع والعشرون ، حكم كانو فى الفترة ١٥٨٢ – ١٦١٨ .

(٧٢) محمد نازاكى بن زاكى : الساركن الثامن والعشرون ، حكم كانو فى الفترة ١٦١٨ – ١٦٢٣ .

(٧٣) هو دادى بن بلوا ، الساركن السادس والثلاثون الذى حكم فى الفترة ١٦٧٠ – ١٧٠٣ .

(٧٤) هو الحاج على طاير بن الحاج عمر ، الماى السابع والخمسون . أنظر ، الحاشية ٦ – ٤٨ أعلاه .

حتى جاء عليٌ وكان على يديه خلاص أطفالنا وأولادهم الذين لم يولدوا بعد ."

ومرت كانو بفترة انحلال لم تتماثل للشفاء منها إلا تحت حكم الفولانى . فقد قامت زمفرا وغوبر بمهاجمة كانو ، وكذلك لم تكن كاتسنا بغير نور . بيد أنه فى عام ١٦٧١ وصل الكواراراقا إلى كاتسنا ، ولم يقف فى طريق كاتسنا إلى كانو سوى وفاة قائدهم العام .

وترتب على سنوات الحرب الطويلة أن أصبح البحث عن موارد جديدة أمراً ضرورياً . فتقررت جباية الجانجالى[٧٥] – وهى فى الأصل جزية – من الفولانى لأول مرة . وفى أيام كوبارى (١٧٣١ – ١٧٤٣) دارت معارك طاحنة مع غوبر ، ولكنها لم تكن حاسمة . وكان لابد من شراء البنادق لهذه الحروب ، وشراؤها يحتاج إلى موارد . فزيدت الضرائب على التجار وجمعت الضرائب بقسوة تسببت فى انسحاب تجار كثيرين إلى كاتسنا . وحاول كوبارى الحد من نفوذ الموظفين بإرغامهم على أن يقدموا إليه الهدايا ، مما تسبب فى خرابهم . ولكن هذه الإجراءات جميعا لم تجد نفعا ، إذ عجزت كانو عن الصمود أمام أعدائها الكثيرين .

وبينما كانت كانو تئن تحت وطأة هذه المحن ، وصلت منافستها كاتسنا إلى ذروة رخائها . فمع تدهور كانو أصبحت كاتسنا المركز التجارى الذى لاينازع لبلاد الهوسا . فإلى كاتسنا كانت القوافل القادمة من الصحراء تمضى فى سبيلها ، ومع ازدياد رخائها كانت قوتها تنمو باطراد . فامتد سلطانها إلى مارادى وتاراوا فى الشمال ، وإلى زمفرا فى الغرب ، كما امتد نحو الجنوب حتى برنين جوارى . وتراوح محيط أسوارها بين سبعة وثمانية أميال ، وأصبحت من جميع النواحى فى مقدمة مدن الهوسا . غير أن قوة جديدة أخذت تظهر فى الشمال ، هى قوة غوبر التى يزعم رجالها أنهم من الأقباط ، وقد استقروا منذ وقت مبكر فى أسبن التى قام الطوارق بطردهم منها . فى هذه الأثناء بدأت قوة الفولانى تنمو على مهل فى بلاد الهوسا . وقد قدمت لهم

---

(٧٥) الجانجالى : ضريبة كانت تجبى من مختلف رعاة الماشية ، ومن بينهم عرب الشوا والفولانى ، بواقع رأس واحدة عن كل عشر رؤوس . [نقلا عن ، دكتور مصطفى على بسيونى ، برنو فى عهد الأسرة الكانمية ، دار العلوم للطباعة والنشر ، ١٩٨٤ ، الصفحة ١١٣ .]

المنافسات وحروب الهوسا الضروس الفرصة التى عضّوا عليها بالنواجذ ، فاتجهوا جنوباً واستقروا فى غوبر . وفى الفترة ما بين عامى ١٧٠٣ و١٧٣١ اشتبكت غوبر فى صراع مع كانو كسرت فيه شوكتها . بعد ذلك قام باباری ملك غوبر ، بالتحالف مع زمفرا ، بمهاجمة كاتسنا ، ولكن دون نجاح يذكر . وعقب فشل باباری فى هزيمة كاتسنا استدار على حليفته الأخيرة زمفرا . وفى عام ١٧٦٤ اندفعت قوات غوبر إلى زمفرا ، ولكن ساركن زمفرا نجا بحياته . عندئذ تحولت زمفره إلى كاتسنا طلبا للعون ، وكانت كاتسنا تحركها رغبة شديدة فى كسر شوكة غوبر وإخضاع زمفرة . وحاصرت القوات المتحالفة ملك غوبر فى قلعته لمدة سبعة أعوام أوقعت فى نهايتها الهزيمة بقواته ، ولكنها كانت هزيمة بدون نتيجة حاسمة . وتلت ذلك فترة من الحروب تعرضت قوات غوبر فى مرحلتها الأولى لسلسلة من الهزائم . غير أن غوبر تحت حكم يعقوب استعادت موقعها فى زمفرا فيما بين عامى ١٧٩٤ و١٨٠٠ .

كانت ممالك الهوسا أشبه بالمدن - الدولة فى إيطاليا خلال عصر النهضة . فهدفها الرئيسى هو الرخاء التجارى ، والحروب لا تعدو كونها وسيلة لمنع ظهور أية قوة منافسة . وفى ذلك قامت كاتسنا وكانو بدور هام ، فأسوار المدن وفرت الحماية لأصحاب الحرف ، ومكنت الزراع من مواصلة حياتهم العادية . ذلك أن الحياة خارج الأسوار كانت تحفها الأخطار دائما . وما يصفه باب كورُ[٧٦] بأنه خبرته الخاصة خلال إقامته بين الفولانى ، ربما يكون صحيحا بالمثل بالنسبة للأيام الأولى . ولكن برغم مخاطر الحياة فى القرية ، وبخاصة غزوات الكوارارافا ، فإن كاتسنا سرعان ماتمكنت بفضل موقعها الجغرافى من أن تحصل على حصة الأسد فى تجارة الشمال .

---

(٧٦) باب كورُ : ورد فى المتن بابُ كَرُ Babo of Karo ، ولكن صحته باب كورُ . وهو إبن الحاج محمد بن الحاج الأمين كانوا ، مؤلف كتاب درر الحسان فى أخبار بعض ملوك السودان . وقد أخذ عنه كل من السعدى ومحمود كعت . وقد ألفت باب كورُ بمعجزة من مذبحة العلماء التى دبرها القائد المراكشى محمود فى غاو . والدليل على ذلك أنه أورد فى كتابه أحداثا وقعت بعد هذه المذبحة . انظر ، تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤٤ ومواضع أخرى . وقد ورد باباكُرى فى الصفحة ٢٤٠ من تاريخ السودان : «وفى أواسط ربيع النبوى من هذا العام توفى صاحب والدى وملاطفه فى چنيّ باباكرى بن محمد كرى» .

الأوروبيون فى غرب إفريقية

أولا

عرفت أوروبا شمال إفريقية منذ وقت طويل . فالمدن الإيطالية كان لها قناصلها فى غالبية دول شمال إفريقية لحماية مصالحها . وكان الأوروبيون حريصين فى المقام الأول على أن تصل منتجات أواسط إفريقية فى حرية إلى موانى البحر المتوسط . وما دام ذلك كان مكفولا ، فلم يكن يهمهم كثيرا كيف تتم التجارة ، كما أنهم لم يكونوا فى وضع يسمح لهم بتحدى الدول العربية والبربرية المستقرة التى كانت تتحكم فى طرق التجارة . ومع ذلك كان لديهم إلمام طيب بجغرافية الصحراء . فكاتدرائية هيرفورد (القرن الثالث عشر) كانت تحتوى على خريطة للعالم سميت إفريقية فيها خطأ « أوروبا Europa »[1] .

وكانت الأسباب التى جعلت الإيطاليين شديدى الاهتمام بالتجارة الإفريقية ذات وجهين . فالحروب الطويلة الأمد بين فرنسا وإنجلترا زعزعت الاستقرار السياسى ، وأسفرت عن عدم استقرار نقدى وانخفاض مستمر فى قيمة العملات . وكان چاك كير ، الخبير المالى فى فرنسا ، يشير على البلاط الفرنسى بضرورة وجود نقد مستقر . وفى هذه الظروف اجتمعت لجنة من الخبراء فى چنوا ، فى عام ١٤٤٧ ، وكانت چنوا شديدة الاهتمام بالعملة والتجارة الفرنسيتين . وقد تمكن بيت سنتريونى[2] المصرفى من إقناع اللجنة بضرورة وجود عملة صعبة ، وكانت حجته فى ذلك أن المزية التى تتفوق به البندقية على

(١) وتعرف بخريطة هيرفورد (حوالى ١٢٨٠) ، وهى من عمل ريتشارد هالدنجهام .

(٢) بيت مصرفى كبير كان مقره فى چنوا .

جنوا هى أن لديها عملة (الدوكات) ذات قيمة ذهبية ثابتة ، ومن ثم كان العالمان الإفريقى والإسلامى يستخدمانها كمقياس للقيمة . وأعلن سنتريونى أنه إذا سكَّت جنوا عملتها من الذهب ، فإنه يمكن التغلب على إحدى العقبات الرئيسية التى تعانيها فى المنافسة مع البندقية . وقد نجح سنتريونى فى إقناع رجال الأعمال ذوى الرأى المتحجر بأن تَسُك جنوا عملتها من الذهب .

وعمل سنتريونى على استخلاص المزايا الكاملة لهذا القرار بالاهتمام بتجارة الذهب . واتجهت الأنظار إلى إفريقية الغربية باعتبارها أغنى مناطق العالم بهذا المعدن ، وذلك رأى لم يكن يستند إلى خبرة عملية . ففى ذلك الحين كانت تروج فى أوروبا والعالم الإسلامى روايات كثيرة لاصلة لها بالواقع ، من بينها تلك التى تقول إن الذهب ينمو فوق الأشجار .[٣] وكان سنتريونى مهتما بمعرفة من أين يجئ الذهب ؛ ولهذا الغرض نظمت بعثة استكشافية . وكانت أولى البعثات ذات الطابع التجارى الخالص التى أرسلتها أوروبا إلى إفريقية تحت إشراف رحالة تجارى يدعى **أنطونيو ملفانتى**[٤] . ولم يستطيع ملفانتى الذى بدأ رحلته بزيارة توات أن يحقق نجاحا فى مشروعه ، فهو لم يكتشف مصادر الذهب ، وعجز عن اكتشاف آلية هذه التجارة . وركز اهتمامه على توات التى كانت فى ذلك الوقت أحد المراكز التجارية العظيمة فى الصحراء – وظلت كذلك إلى حين قيام المغيلى في نوبة غضب بتدمير المستعمرة اليهودية . واعتقد ملفانتى أن توات يمكن أن تكون مكانا نموذجيا لفتح فرع لتجارته . فهنا يجئ التجار من مصر ومعهم الماشية والإبل ، وتجئ القوافل العربيــة من الساحل محملة بالقمح والعملة الذهبية ، ويجئ التجار من تمبكت ومعهم التبر والزيـوت النباتية . ومن بين

---

(٣) أنظر فى الفصل الثالث إشارات بهذا الصدد ، وبخاصة الحاشية ٣ – ٤٩ .

(٤) يقول بوفل إنه ساد لفترة طويلة اعتقاد بأن ملفانتى كان ممثلا لبيت سنتريونى الشهير فى جنوا ، ولكن الأبحاث أوضحت أن ذلك ليس صحيحا . كما يقول إن انطونيو ملفانتى كان تاجراً من جنوا وصل إلى إفريقية وتوغل حتى قلب الصحراء الكبرى بحثا عن الذهب ، وإنه أرسل من توات تقريراً يحوى معلومات جغرافية مفيدة عن الداخل ، ولكنه لايقول شيئا عن الغرض من الرحلة . بوفل ، The Golden Trade of the Moors ، الصفحة ١١٦ والحاشية .

ما قاله أن التجار المصريين يجيئون ومعهم نصف مليون رأس من الإبل والماشية ، وهو رقم ليس غريبا على تلك المناطق . بل إن الأمر الأكثر غرابة أن ملفانتى يذكر أن التجار الهنود كانوا يجوبون تلك المناطق بصحبة المترجمين ، وأنهم مسيحيون يقدسون الصليب . ولكن على الرغم من أن توات تتمتع بكل هذه المزايا ، فقد كان هناك وضع غير مواتٍ لها ، هو أن التجارة مع إفريقية الاستوائية تتحكم فيها جالية تجارية تمارس احتكارا فعليا عن طريق فرض عمولة مقدارها مائة فى المائة على كل صفقة . وموقف ملفانتى هذا شديد الشبه بموقف تاجر مقيم على الساحل غير مسموح له بالتوغل فى الداخل خشية أن يخترق احتكارا تجاريا ، وذلك وضع تعين على أنصار التجارة المشروعة مواجهته فى القرن التاسع عشر .

ومع ذلك لم تترك جنوا وحدها فى المحاولة الرامية إلى تأمين التجارة فى الذهب ، فقد صحب ملفانتى رجل من البندقية يدعى كاداموستو وآخر من فلورنسا يدعى بنيديتّو داى . [٥] وحقق كاداموستو قدرا من النجاح استطاع معه اكتشاف آلية التجارة ، ولكن ذلك هو كل ما فى الأمر . كتب يقول : «إن الذهب الذى يأتى إلى ملّى يقسم إلى ثلاثة أجزاء : أولها تحمله قافلة إلى مكان يسمى كوتشيا على الطريق المؤدى إلى القاهرة ودمشق . والثانى والثالث تحملهما قافلة من ملّى إلى تمبكت ، ومنها يؤخذ جزء إلى توكت ، ومن هذه الأخيرة إلى تونس وبربرى ، والباقى إلى هودن ، ومنها إلى وهران وفاس ومراكش وأماكن أخرى ، حيث يتسلمه التجار الإيطاليون». [٦] أما المغامر الفلورنسى بنيديتّو داى فقد وصل إلى تمبكت . «لقد وصلت إلى تمبكت» وهى مكان إلى

---

(٥) ذهب بنيديتو إلى إفريقية ممثلا لبيت بورتينارى المصرفى فى فلورنسا الذى كانت له مصالح تجارية واسعة فى الخارج ، كما وسع أنشطته بصفة خاصة على طول ساحل البربر ، حيث كانت فلورنسا قد حصلت على امتيازات تجارية استثنائية لتجارها . وقد سمحت تونس لبنيديتو بالتوغل فى الداخل ، وهو ما أسفر عن استقراره فى تمبكت . فقد سمع عنه فى عام ١٤٧٠ يمارس نشاطا تجاريا فى مختلف أنواع الأقمشة والمنسوجات . بوفل ، المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

(٦) ملّى : مالى ؛ بربرى : بلاد البربر ؛ هودن : بلاد الهوسا .

الجنوب من مملكة بربرى أشد بلدان العالم جدبا . وهناك تجرى تجارة واسعة فى بيع الملابس والأقمشة الصوفية الخشنة ، إلى جانب سلع أخرى تصنع فى لمبارديا . » ومع ذلك عجز بنيديتّو عن أن يفعل شيئا لمساعدة تجارة فلورنسا ، ولم تستطيع مؤسسة پورتينارى الكبيرة التى تحملت نفقات رحلته أن تجنى محصولا ذهبيا . لذلك كان من الضرورى إيجاد طرق أخرى للتغلغل فى إفريقية الاستوائية . وثمة عوامل أخرى زادت من الاهتمام بالذهب الإفريقى . فمنتجات الشرق فادحة الثمن ، ومرجع ذلك تكاليف النقل البرى الباهظة ، وكذلك تكاليف النقل بالسفن ، فضلا عن وجود خطر دائم بأن تؤدى التطورات فى داخل آسيا إلى عرقلة التجارة وزيادة أثمان البضائع الشرقية . ذلك أن سداد ثمن البضائع لابد أن يتم بالذهب ، كما أن تدفق الذهب إلى الشرق كان يلحق أضراراً شديدة باقتصاديات الدول الأوروبية . فإذا ما اكتشف طريق بحرى إلى جزر الهند فلا بد أن يقل هذا التدفق كثيرا ، وإلا تعين أن تصبح أوروبا أوثق اتصالا بمصادر الذهب الإفريقى . وهكذا فإن الأسباب الاقتصادية – تخفيض تكلفة نقل البضائع ، وبالتالى الحد من تدفق الذهب ، وثانيا الحصول على الذهب بطريقة أيسر – كانت هى البواعث الرئيسية للمغامرة الأوروبية فى إفريقية .

كانت الدول – المدينة الإيطالية مهتمه بإيجاد طريق جديد إلى الشرق ، فتجارتها مع الشرق عانت متاعب مستمرة بسبب الاضطرابات فى الشرق الأوسط . وقد تبينت هذه الدول التى تسيطر على تجارة الشرق أن تعاظم النفوذ الإسلامى يعرض مراكزها للخطر ، إذ كانت على علاقات تجارية مستمرة لا مع شمال إفريقية فقط ، وإنما مع الشرق ومصر أيضاً . وكانت البندقية تسيطر على التجارة الشرقية ، لذلك كانت منافستها الرئيسية جنوا فى مقدمة البحث عن طريق جديد . وقد برز الإيطاليون

واليهود[٧] فى رسم الخرائط الجغرافية . وكانوا على معرفة بالمراكز التجارية العظيمة فى إفريقية .

وإذ عقد الإيطاليون العزم على تحقيق رغبتهم فى اكتشاف طريق جديد ، فقد قرروا التغلغل داخل إفريقية ، وكان أبناء جنوا وفلورنسا والبندقية فى طليعة من أقدم على هذه المحاولة ، وعلى الرغم من فشلهم فإنهم لم يغفلوا عن أهمية هذا الطريق . وقد أدى فشل هذه المدن فى الوصول إلى المناطق الاستوائية إلى استعانتها بأسبانيا والبرتغال لتحقيق أهدافها عن طريق الرحلات البحرية .

ثانيا

كانت الصحراء الكبرى فى ذلك الوقت معروفة جيدا للجغرافيين وراسمى الخرائط الأوروبيين . وكان أغلب راسمى الخرائط من اليهود ، فقد عرفوا كل طرق التجارة إلى داخل إفريقية . ولم تكن الممالك هى ما يحرصون على إبرازه فى خرائطهم ، وإنما طرق القوافل . ويمكن الوقوف على تفاصيل طرق القوافل فى خرائط إبراهام براسول ، وهو يهودى من مدينة أفينيون الفرنسية . وكان إبراهام كريسك ، أشهر راسمى الخرائط الأوائل ، أبرز أفراد مدرسة ميورقة . فقد رسم خريطة كاتالان فى عام ١٣٧٥ بناء على طلب شارل الخامس ملك فرنسا ، وهى الخريطة التى توضح بشكل صائب موقع تمبكت . وهكذا كان الأوروبيون ، بسبب وجود اليهود وصلتهم الوثيقة بالجاليات اليهودية فى شمال إفريقية ، على معرفة طيبة بطرق التجارة عبر الصحراء الكبرى .

---

(٧) كان اليهود يشكلون منذ العصور المبكرة عنصرا هاما فى سكان مراكش ، وبرغم أنهم كانوا يعاملون باحتقار شأن كل الأجانب ، فقد كان هناك قدر من التسامح تجاههم مكنهم من القيام بدور بارز فى تجارة مراكش ومن شغل مناصب هامة فيها . ومن مراكش انتشروا إلى واحات الصحراء الكبرى ، بل وإلى السودان . وعندما شرعت ميورقة فى إعداد خرائط لإفريقية استعانت بهؤلاء اليهود ، كما كانت معلومات هذه الخرائط مستمدة منهم . وبذلك كان من السهل على راسمى الخرائط اليهود فى ميورقة الحصول على معلومات عن طرق التجارة المؤدية إلى السودان . ورغم عدم دقة هذه الخرائط وضآلة قيمتها الجغرافية فقد بددت شيئاً من الظلام وحددت مواقع أماكن مثل تمبكت وغاو ومالى . وكان أهم هذه الخرائط أطلس كاتالان الذى أعده إبراهام كريسك . [بوفل ، المرجع السابق ، الصفحات ١١٢ إلى ١١٤ .]

ولم تكن التجارة هى وحدها التى جعلت الأوروبيين على معرفة بإفريقية ، فهم من حين لآخر كانوا يؤخذون أيضا كرقيق . ولنتناول على سبيل المثال تاريخ النبيل التولوزى **أنسيلمى ديسالجير**[8] . فقد غادر ديسالجير مدينة تولوز فى سنة ١٤٠٢ ، وهى السنة نفسها التى تمت فيها رحلة **بتنكورت**[9] إلى جزر كناريا . وربما يكون ديسالجير قد شارك فى تلك المغامرة وأخذ أسيرا وبيع للمغاربة . ويذكر **تاريخ الفتاش** أن رفيقًا مسيحيا وصل إلى غاو قادما من سكة الحمراء . وهناك واتاه الحظ ، فبعد بضع سنوات وقعت فى حبه أميرة من السنغى ، وتزوجته ومنحته بائنة كبيرة . وفى سنة ١٤١٣ رغب فى العودة إلى وطنه ، وحصل على إذن بمغادرة الإمبراطورية ، وعاد أنسيلمى إلى وطنه بصحبة زوجته وبناته الثلاث وستة من الخدم بينهم خصىٌ يدعى إبن على حقق بعض الشهرة كطبيب . وأحدث قدوم هذه الأسرة الغريبة إلى تولوز هرجا كثيرا . وهناك وطد الخصىٌ أقدامه كطبيب . ففى سنة ١٤٢٠ استطاع إبن على شفاء شارل ولى العهد من مرض ألم به .

وكان لبنات ديسالجير بدورهن مآسيهن وغرامياتهن . فكبراهن مارتا ، ذات الجمال المولّد الغريب ، تزوجت بدى فودوا ، من أبناء إحدى الأسر المشهورة ، وأنجبت منه إبناً أسمته إيزاتاتشى . بيد أن البنتين الأخريين انتهى غرام كل منهما بمأساة . فبينما كانتا عائدتين ذات يوم من نزهة مع إثنين من

---

(٨) أنسيلمى ديسالجير : (١٣٨٠ – ١٤٢٠) ، رحالة فرنسى من تولوز يعتبر فى بعض الأحيان أول من شاهد نهر النيجر من الأوروبيين . وتقول الموسوعة البريطانية إنه وصل إلى غاو فى سنة ١٤٠٥ حيث تزوج من أميرة مسلمة من أهالى المنطقة أنجب منها بنتا وولدين (على خلاف پانيكار) ، ثم عاد إلى تولوز بصحبة أسرته وبعض الخدم ، ومن بينهم طبيب استطاع شفاء شارل السابع من مرض ألم به . وترد لايسالجير قصة كاملة فى بريجز ، Titles of the Seclora ، الصفحة ٤٣ . هذا وقد وردت الفقرة التالية بالصفحتين ٥٧ و٥٨ من تاريخ الفتاش «هؤلاء القبائل الخمس كلهم أبوهم واحد وهو عبد للنصارى حداد هرب من جزائر المحيط إلى كوكى مدينة السيين زمن شى محمد فار ..» [كوكى مدينة السيين هى غاو عاصمة أسرة سنّ ؛ شى محمد فار هو سنّ محمد فار .] وأنا لست على يقين من أن هذه الفقرة تنطبق على أنسيلمى ديسالجير، وعلى أية حالة فإن محاولة هذا الربط قد وردت فى أكثر من مصدر أجنبى ، ومن بينها بوفل ، المرجع السابق ، الصفحة ١١٥ .

(٩) أنظر الحاشية ٧ – ١٢ أدناه .

الفرسان سقط الفارسان صريعين عند أبواب المدينة ، وهى حادثة انتهت بهما إلى أحد الأديرة .

ثالثا

وثمة محاولة أخرى لاختراق الغموض الإفريقي جاءت من الغرب . وهذه المحاولة بدورها تدين بالفضل لراسمي الخرائط الميورقيين ولأصحاب المصالح الإيطاليين . وبينما يبرز معظم المؤرخين دور الملاحين البرتغاليين ، فإن البيوت الإيطالية الكبيرة التى نظمت الحملات كثيرا ما يُغفل أمرها . ويُزعم أن **إخوان ڤيڤالدو**[10] قاموا فى عام ١٢٩٢ بحملة بمحاذاة ساحل إفريقية ووصلوا إلى غمبيا ، ولكنهم لم يعودوا ، وتبعهم مغامر آخر من جنوا يدعى **بنزاوتّو مالوشيلّو**[11] الذى اكتشف جزر كناريا . بيد أن المسعودى يرجح أن الذى اكتشفها شاب من قرطبة يدعى **خشخاش** يظن أنه أبحر قاصدا جزر كناريا .[12]

---

(١٠) أوجولينو ڤيڤالدو وجيدو ڤيڤالدو وسورليونى دى ڤيڤالدو : فى مايو ١٢٩١ أبحر أوجولينو وجيدو ڤيڤالدو من جنوا على رأس حملة مكونة من سفينتين بغرض الوصول إلى الهند بحرا والعودة بأشياء مفيدة للتجارة ، إلى جانب التبشير . ووصلت الحملة إلى رأس نُنْ على ساحل إفريقية الغربية ، ثم لم يسمع عنها شيئ . وفى مطلع القرن التالى قام سورليونى – إبن أوجولينو – برحلة بحثا عن والده ، ويقال إنه تغلغل حتى مغادوكسو على الساحل الصومالى . [يحتمل أن تكون مغادوكسو هذه هى مقديشيو عاصمة الصومال الحالية .]

(١١) الإشارة التى وردت بالموسوعة البريطانية بهذا الشأن هى إلى لانشيلوتو مالوشيلّو الذى قاد حملة أعدتها جنوا فى عام ١٢٧٠ يبدو أنها أبحرت إلى المحيط الأطلسى وأعادت اكتشاف جزر كناريا ، وأقامت مستوطنة فوق جزيرة فى شمالها هى لانزاروت . ويقال إنه قتل على أيدى أهالى هذه الجزر . وتقول الموسوعة أيضا إن حملته ليست منبتة الصلة بمغامرات جنوا فى عام ١٢٩١ بقيادة إخوان ڤيڤالدو . وبذلك تكون رحلة لانشيلوتو مالوشيلّو سابقة على رحلة إخوان ڤيڤالدو وليست لاحقة لها .

(١٢) «وقد ذهب قوم إلى هذا البحر أصل ماء سائر البحار ، وله أخبار عجيبة أتينا على ذكرها فى كتابنا «أخبار الزمان» فى أخبار من غرر وخاطر بنفسه فى ركوبه ، ومن نجا منهم ، ومن تَلِفَ ، وما شاهدوا ، وما رأوا ، [وأن منهم رجلا من أهل الأندلس يقال له خشخاش ، وكان من فتيان قرطبة وأحداثها فجمع جماعة من أحداثها ، وركب بهم مراكب استعدها فى هذا البحر المحيط ، فغاب فيه مدة ثم انثنى بغنائم واسعة ، وخبره مشهور عند أهل الأندلس]» المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الجزء الأول ، الصفحة ١١٩ .

ويمكن القول بأن المرحلة الحديثة فى اكتشاف إفريقية تبدأ من حملة **چين دى بتنكورت وجاليفى دى لاسال**[١٣] إلى جزر كناريا فى عام ١٤٠٢ ، وهى الحملة التى أسفرت عن غزو أربع من الجزر الصغيرة . وبينما كان جاليفى دى لاسال يغزو الجزر ، قام بتنكورت بزيادة بلاط **كاستيل**[١٤] حيث حصل على اعتراف بادعاءاته . وكان ذلك بداية الإدعاءات الأسبانية بجزر كناريا . وفى عام ١٤١٨ قام ماسيو دى بتنكورت – إبن أخ چين – ببيع حقوقه فى جزر كناريا إلى الكونت أنريك دى جوزمان ، وأصبح النزاع علانية بين الإدعاءات الكاستيلية والبرتغالية على هذه الجزر . وقد حسم هذا النزاع فى مؤتمر بازل ، حيث اتخذ قرار لصالح أسبانيا على أساس : ١) أن چين قد أقسم يمين الولاء لملك كاستيل ؛ ٢) أن جزر كناريا كانت تابعة لموريتانيا ، وهى من الممتلكات القديمة لملوك القوط . وهكذا كسب الأسبان الجولة الأولى على الطريق إلى إفريقية .

ومع ذلك كان للبرتغال دور الريادة فى اكتشاف الطرق البحرية إلى غرب إفريقية ، ويحملنا ذلك علي تقصى الأسباب التى أدت بهذه الأمة الصغيرة الواقعة على ساحل الأطلسى إلى أن يكون لها هذا الدور الهام فى تطور أوروبا الحديثة . إن الصراع الطويل الذى خاضته الدولتان الأيبريتان ضد الدول الإسلامية فى شبه الجزيرة انتهى بهما إلى اعتبار المسلمين فى كل مكان أعداءً لهما ، ولم يكن من المستغرب أن تتجها إلى محاربة الإسلام . وهكذا ما كاد

---

(١٣) **چين بتنكورت وجاليفى دى لاسال** : مستكشفان فرنسيان أبحرا من لاروشيل فى مايو ١٤٠٢ على ظهر سفينتين لغزو جزر كناريا . وقد نشا بينهما خلاف بسبب استيلاء دى لاسال على لانزاروت وجزء من فورت فنتورا من جزر كناريا ، وإثر فشل محاولة بتنكورت الأولى ذهب إلى هنرى الثالث ملك كاستيل ، حيث حصل على دعمه وعلى لقب ملك ، ثم توجه إلى قادس فى جنوب أسبانيا للحصول على تعزيزات ، وبذلك أصبح دى لاسال فى مرتبة أدنى . وفى عام ١٤٠٦ غادر بتنكورت الجزر ، وعهد بحكومته إلى ابن أخيه ماسيو . وعندما تدخلت كاترين ملكة كاستيل فى عام ١٤١٤ بسبب سوء إدارته ، قام كاسيو ببيع منصبه لمبعوث الملكة ، ثم أبحر إلى لشبونة حيث أعاد بيعه لهنرى الملاح ، أمير البرتغال وراعى الاكتشافات الجغرافية ، ثم باعه من جديد لأنريك دى جوزمان أمير نيبلا .

(١٤) **كاستيل** : مملكة قديمة فى أسبانيا يحدها من الشمال خليج بسكاى ، ومن الشمال الشرقى مقاطعتا الباسك ونافارى ، كما تحدها أسبانيا جنوبا ، ويقال إن الكلمة مأخوذة من القلاع الحصينة الكثيرة (كاستيلو Castillos) التى أقيمت لصد هجمات المسلمين . كانت تعرف عند المسلمين فى الأندلس بقشتالة .

البرتغاليون يحصولن على استقلالهم حتى واصلوا نضالهم ضد الإسلام على ساحل شمال إفريقية . وفى سبته حصل هنرى الملاح على معمودية النار . ولكن تبين أن محاولة غزو شمال إفريقية تفوق كثيرا قدرات البرتغال ، وعلى الرغم من رغبتها فى الحرب ، فقد آثرت أن تكون حربا غير مباشرة .

لقد عرفت إفريقية الغربية على نطاق أوروبا كلها بأنها أرض الذهب . ولو أن البرتغال تمكنت من الوصول مباشرة إلى مناجم الذهب ، لقضى ذلك على رخاء الدول الإسلامية فى شمال إفريقية ، وساعد البرتغال على الإبلال من الصراع الطويل ضد الإسلام . فضلا عن ذلك لو أن البرتغال تمكنت من وضع يدها على منتجات المناطق الاستوائية لوفر عليها ذلك دفع أثمان باهظة للتوابل ، ومكنها من الانضمام إلى محتكرى الاتجار فيها .

وأخير كانت هناك أسطورة بريستر چون[١٥] ، وهو أمير مسيحى حكم فى قلب إفريقية ، وقطع الإسلام أواصره بأمراء أوروبا المسيحيين . وكما يقول أزورارا[١٦] «كان (الأمير هنرى) يرغب فى معرفة ما إذا كان يوجد فى تلك المناطق أمراء مسيحيون لديهم من الحب للمسيح ما يدفعهم إلى تقديم العون له فى صراعه ضد أعداء العقيدة » .

وهذه التوليفة من الجشع التجارى والتعصب الدينى والمغامرة الحربية أعطت البرتغاليين حمية معنوية كفيلة بتنفيذ سياسة تتسم بالجرأة . ومع ذلك

---

(١٥) Prester John : ملك خرافى من العصور الوسطى فى آسيا ، ولكن تاريخه تجمعت حوله فى الأصل نواة من الحقيقة . وقبل أن يظهر بريستر چون على المسرح مهدت لظهوره خرافة شبيهة فى أوروبا حوالى عام ١١٢٢ . وبعد ذلك تجلى بريستر چون على المسرح فى شخصية فاتح مسيحى يجمع بين كاهن وملك . عندئذ تختفى القصة الآسيوية لتظهر فى إفريقية .

(١٦) جوميز إينز دى أزورارا (؟ ١٤٧٤) ، ثانى مؤرخ برتغالى مشهور يسجل الأحداث مرتبة وفق تواريخ وقوعها . له كتاب عن حوليات حصار سبتة والاستيلاء عليها يعد تكملة لكتاب لوب «حولية الملك چون الأول» . وبعد إعداده بثلاث سنوات انتهى من مسودة كتابه «حولية اكتشاف غينيا وغزوها» الذى هو مرجعنا الرئيسى فى الوقوف على الرحلات البرتغالية المبكرة على طول الساحل الإفريقى وفى المحيط ، وبخاصة تلك التى تمت تحت رعاية هنرى الملاح .

فإن عبقرية هنرى المنظمة هى التى سمحت برسم وتنفيذ سلسلة من التحركات قدر لها أن تأخذهم إلى الهند وإلى «ما بعدها» . وكان أكبر خطر واجهته البرتغال هو الخوف الوهمى من أن هؤلاء الذين تجاوزوا **رأس نَنْ**(١٧) لم يعودوا قط ، وكذلك مما عرف عن الأطلسى من أنه بحر الظلمات . وكانت أساليب الأمير هنرى تقوم على العلم ، وكان أول قرار اتخذه هو جمع أكبر قدر من المعلومات عن إفريقية . وفى مركز قيادته فى ساجرس ، وهى نتوء جبلى صخرى يطل على البحر تجاه إفريقية . قام بجمع راسمى الخرائط وصناع الآلات البحرية والمتخصصين فى بناء السفن . وهناك اضطلعت هيئة عامة بتنسيق ما يتجمع من معلومات عن إفريقية . وفى عام ١٤١٥ أبحرت سفينتان مسافة مائتى ميل إلى الجنوب من **رأس نَنْ** . وفى عام ١٤٣٤ نجح **چيل إينس** فى الالتفاف حول **رأس بوچادير**(١٨) . وفى عام ١٤٤٢ وصل جونزاليس إلى أبعد من ذلك فى اتجاه الجنوب ، وأقام البرتغاليون فى عام ١٤٦١ مركزا فى **أرجوين**(١٩) ، كما وصل چوان دى سنتريم فى عام ١٤٧١ إلى **إلمينا**(٢٠) ، حيث أقيمت قلعة فى عام ١٤٨١ . وهذه القائمة الموجزة بالمنجزات البرتغالية تبين أنه بمقدم عام ١٤٧٠ كان البرتغاليون قد دخلوا تجارة إفريقية الغربية .

ومع ذلك ينبغى عدم المبالغة فى منجزات البرتغاليين . وكما يقول أحد النقاد ، «إن الرحلات التى بدأها الأمير هنرى لم تكن اقتحاما للمجهول ، وإنما جزء من محاولة مستمرة لانتزاع السيطرة على شريان اقتصادى هام كان حتى ذلك الوقت فى أيدٍ أجنبية كثيرا ما كانت معادية» . وربما يكون ذلك تفسيرا لماذا لم يكن العرب الذين يتحكمون فى الطرق البرية المؤدية إلى منحنى النيچر يشغلون أنفسهم بالبحث عن طريق بديل . وكانت ضرورة التغلب على الموقع الاحتكارى

---

(١٧) Cap Nun : تجاه جزر كناريا أمام ساحل غرب إفريقية .

(١٨) Cap Bojadir : جنوب رأس نن . وكان چيل إينس أحد أتباع هنرى الملاح ، وقد عاد إلى سيده حاملا معه غصنا من نبات إكليل الجبل حصل عليه من أرض رأس بوچادير .

(١٩) Arguin : أي أغادير الواقعة على الساحل المغربى المطل على المحيط .

(٢٠) Elmina : مازالت تحتفظ بهذا الاسم فى غانة الحالية .

لعرب شمال إفريقية هى التى دفعت جنوا وغيرها من المدن الإيطالية إلى الاشتراك فى حملات الكشف . ولم يكن لدى العرب دافع من هذا القبيل ، وعلى الجانب الآخر كان من صالحهم وقف كل محاولة لاكتشاف طرق بديلة . فضلا عن ذلك أخفق العرب فى استخدام الابتكارات التقنية التى تحققت عند نهاية العصور الوسيطة .

رابعا

ترتب على اكتشاف ساحل غرب إفريقية وصول الدول الأوروبية الأخرى ، وفى مقدمتها كاستيل والأندلس ، ولكن سرعان ما أصبحت فرنسا هى المتحدى البارز . وحاولت البرتغال أن تحمى مصالحها بحصولها على امتياز من البابا مارتن الخامس ومراسيم عامى ١٤٥٥ و١٤٥٦ ، لكن أسبانيا زعمت أن أجداد إيزابيلا[٢١] «كانوا دائما يمتلكون أجزاء من إفريقية وغينيا» . وقد اعترف بهذاالزعم فى المرسوم البابوى دوديوم كُمْ[٢٢] الصادر فى ٣١ يولية ١٤٣٦ . بيد أن مسألة ما إذا كان غزو إفريقية يعزى إلى أسبانيا أو البرتغال قد حسمت بعد اكتشاف أمريكا . فقد قسم البابا العالم بمقتضى المرسوم البابوى إنتر كاكتيا[٢٣] الذى أصدره فى الرابع من مايو ١٤٩٣ ، فمنحت أسبانيا حكم جميع الجزر والأراضى القارية فى اتجاه الغرب والجنوب من «خط وهمى يبدأ من القطب الشمالى .. إلى القطب الجنوبى – على مسافة مائة فرسخ فى اتجاه الغرب والجنوب من جزر أزورس والرأس الأخضر» . ومع ذلك رفضت البرتغال خط التقسيم هذا وأرادته أبعد فى اتجاه الغرب : ودارت المفاوضات بين الدولتين ، وانتهت بعقد معاهدة ترودیسلاًس في السابع من يونيه ١٤٩٤ . وبموجب هذه

---

(٢١) إيزابيلا : (١٤٥١ – ١٥٠٤) ملكة كاستيل ، إبنة چون الثانى ملك كاستيل ، وحفيدة چون الأول ملك البرتغال ، وشقيقة هنرى الرابع الذى تربع على عرش كاستيل فى عام ١٤٥٤ ، وزوجة فرديناند ملك أراجون . جامعا إلهام باعتماد مخطط كولومبوس وتمويل مشروعه .

(٢٢) Bull Dudium Cum

(٢٣) Bull Inter Cactia

المعاهدة نقل خط التقسيم ٣٧٠ فرسخا إلى الغرب من جزر الرأس الأخضر . وقد أكد البابا يوليوس الثاني المعاهدة بمقتضى المرسوم البابوى **كاكوك**[٢٤] الصادر فى الرابع والعشرين من يناير ١٥٠٦ ، وكان باستطاعة البرتغال الارتياح لأن ادعاءاتها استقرت على أساس سليم .

ورغبت البرتغال فى فرض سيطرة كاملة على المنطقة بسبب طموحاتها فى احتكار التجارة مع إفريقية . وكان ذلك إيذانا ببداية نظام من الاحتكار ظل قائما حتى العصور الحديثة . وأسباب ذلك يسهل فهمها . فإفريقية الغربية لم تكن تنتج الذهب فقط ، وإنما الفلفل ومسك الزباد والعاج أيضا . واستنادا إلى باتشيو فإن البرتغال كانت تحصل علي مائة وسبعين ألف ريال من الذهب سنويا ، وإن تجارة غرب إفريقية كانت منذ البداية احتكاراً ملكياً ، إذ لم يكن باستطاعة أى شخص ممارسة التجارة فى هذه المنطقة قبل الحصول على إذن من الأمير هنرى . وكان أول من حصل على امتياز كهذا هو فرانسوا جوميز ، الذى حصل عليه فى عام ١٤٦٩ لمدة خمس سنوات مقابل مائتى ألف رى[٢٥] . كما حصل جوميز على احتكار أرجوين (أغادير) مقابل مائة ألف رى فى السنة . وقد اكتشف الفلفل عندما قام أفييرو بزيارة بنين فى عام ١٤٨٦ . ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه السلعة احتكارا ملكيا ، وظلت كذلك حتى عام ١٥٠٦ ، عندما منع استيراد فلفل **ملقا**[٢٦] بسبب منافسته للفلفل الهندى الذى كان البرتغاليون يسيطرون علي تجارته . وفيما بين عامى ١٤٩٠ و١٥٠٦ كانت تخصص مائتا كنتال للوكيل التجارى البرتغالى الرئيسى فى أنتيورب ، وقد عاد هذا المبلغ بأرباح طائلة . وكانت هناك سلع أخرى عالية الربحية ، ولكن هذه السلع جميعا سرعان ما تضاءلت أمام الاتجار فى البشر .

---

(٢٤) Bull Ca Ququc

(٢٥) المارافيدى أو الرى عملة فضية صغيرة استخدمت فى كاستيل والبرتغال باعتبارها وحدة للحساب ، وكانت قيمة العملات المسكوكة من الذهب أو الفضة الثقيلة تقدر بعدد معين من المارافيدى أو الرى ، وكان هذا العدد يزداد دوريا مع التدهور فى قيمتها .

(٢٦) تقع مقاطعة ملقا على الساحل الجنوبى الغربى لشبه جزيرة الملايو ، استولى عليها البرتغاليون فى عام ١٥١١ .

ولا عجب أن كان الفرنسيون والإنجليز عازفين عن قبول أوامر أحد بابوات بورچيا التى لم تقبلها البرتغال نفسها ، ولم يكن فرنسوا الأول مستعدا لأن يرى الفرنسيين وقد استبعدوا من تجارة العصر الأكثر ربحا ، وعلق على ذلك قائلا : «إن الشمس تضيئ من أجلى ومن أجل الآخرين ، وإنى أود أن أرى تلك الفقرة من وصية آدم التى تستبعدنى من القسمة» ، وكان الدخلاء الفرنسيون على استعداد تام للمخاطرة بسفنهم وأرواحهم التماسا للأرباح العائدة من تجارة غينيا .

وقد تبينت البرتغال أن الشراسة غير مجدية فى إبقاء المتطفلين الفرنسيين بعيداً عن التجارة الذهبية ، إذ لم تكن هناك حجج بشأن بحار مغلقة يمكن أن تقنع فرانسوا الأول بأن من مصلحته الإبقاء على الاحتكار البرتغالى فى وقت يستطيع فيه رعاياه ، عن طريق الاتجار مع الساحل الإفريقى الغربى ، الحصول على الذهب والفلفل بثمن يقل عن ذلك الذى يعرضه تجار الفلاندرز . وكان چان أنجو وغيره من تجار دييب ولاروشيل يجهزون حملات كبيرة ليس فقط للتجارة مع غرب إفريقية ، وإنما كذلك للاستيلاء على السفن البرتغالية القريبة من جزر الرأس الأخضر . وقد تمكنوا فيما بين عامى ١٥٠٦ و١٥٣١ من الاستيلاء على ثلاثمائة سفينة برتغالية ، كما تمكنوا عن طريق عرض أثمان أعلى للمنتجات على الساحل الإفريقى من تدمير التجارة البرتغالية تماما . وبذا تحطمت أول محاولة لإقامة احتكار ، كما أن الفرنسيين بعد أن تحدوا احتكار البرتغاليين للتجارة سرعان ما تحدوا حتى أسبقيتهم فى الكشف .

فهل كان البرتغاليون حقا هم أول من وصل إلى ساحل إفريقية الغربى ؟ لقد قدم الفرنسيون فى القرن السابع عشر ادعاءً بأن التجار من أبناء دييپ كانوا يمارسون التجارة على الساحل الإفريقى . يقول ڤيان دى بلفون الذى قدّم هذا الادعاء تأييدا لسياسة كولبير[٢٧] التجارية إن الوثائق الموجودة فى دييپ تثبت

(٢٧) چان بابتست كولبير : (١٦١٩ - ١٦٨٣) ، رجل دولة فرنسى كان فى مقدمة المدافعين عن المذهب التجارى . وبرز فى تنظيم الإدارة المالية ، ثم وجه اهتمامه إلى زيادة ثروة الأمة عن طريق تشجيع الصناعة والتجارة . وكان من أعظم منجزاته إنشاء البحرية التجارية ، وأصبح وزيرا لها فى عام ١٦٦٩ ، وبعد ذلك تولى وزارة المستعمرات ثم وزارة القصر الملكى .

أن الفرنسيين قد سبقوا البرتغاليين في ممارسة التجارة في هذه المنطقة . وأكد قيام رحلات فرنسية في الأعوام ١٣٦٤ و١٣٨٠ و١٣٨١ و١٣٨٣ . واستنادا إلى دى بلفون فإن الفرنسيين أقاموا مستعمرات على الساحل عند «بيتى دييپ» و «بيتى پاريس» . ولكن مبنى بلدية دييپ دمر في عام ١٦٩٤ ، فلم تعد هناك من وسيلة للتثبت من الادعاءات الفرنسية ، ومع ذلك ففى حوالى عام ١٨٦٠ حاول پيير مارينى أن يثبت صحة الرواية بوساطة نسخة من إيصال ملاحى ادعى وجود أصله في المتحف البريطانى . وقد حصل مارينى علي هذه النسخة من لوكان دى روزنى الذى حصل عليها بدوره من مستر كارتر الذى قام بنسخها من الإيصال الأصلى . وقد أوضحت التحقيقات أنه لا يوجد مخطوط كهذا في المتحف البريطانى . كما أن لغة الكتابة وأسلوبها يمتان إلى القرن السادس عشر أكثر مما يمتان إلى القرن الرابع عشر . كذلك كانت هناك اختلافات أخرى . وكان بلفون يعزو الفضل إلى تجار دييپ ، في حين تؤكد وثائق مارينى دور مدينة روان .

ويقول الفرنسيون إن فرنسا بعد عام ١٤١٠ كانت بسبب الحرب الأهلية عاجزة عن الاحتفاظ بارتباطاتها مع غرب إفريقية . ويستند الإدعاء الفرنسى إلى افتراض مؤداه أنه لما كان النورمنديون يعرفون الساحل المراكشى وجزر كناريا فلم يكن من الصعب عليهم أن يندفعوا نحو الجنوب . فضلا عن ذلك فقد قامت صناعة للعاج في دييپ في القرن الخامس عشر ، ويزعم أن هذه الصناعة كانت تعتمد على العاج المستورد من غرب إفريقية . وهناك ثلاثة شهود لا تجمعهم رابطة يتحدثون عن وجود فرنسى في غرب إفريقية . فپيتر دى مارى في عام ١٦٠٢ يشير إلى هذا الوجود ؛ كما أن صمويل براون ، وهو جراح أقام في قلعة فورناشو من عام ١٦١٧ حتى عام ١٦٢١ ، يعلن أن الفرنسيين هم الذين بنوا قلعة إلمينا . ودكتور دابرّ أيضا يتحدث عن حصن فرنسى مجهز بمدفعية ثقيلة لها أرقام تبدأ برقم ١٣ ، أمّا رقماها الأخيران فمطموسان . كذلك يتحدث الرحالة الفرنسى پير لابا عن الاكتشاف الفرنسى لإفريقية . وفوق

الخرائط التى أعدها راسمو الخرائط الفرنسيون ظهرت «بيتى باريس» ابتداء من عام ١٦٠٢ و«بيتى دييپ» ابتداء من عام ١٦٣١ . بيد أنه لسوء الحظ لم يقدم أى دليل مدعم بالوثائق .

وفى الآونة الأخيرة وقفت مسز إيڤا ميروڤيتز إلى جانب الادعاءات الفرنسية ، وذلك على أساس الروايات المحلية . فقد أقام الفرنسيون ، استنادا إليها ، مبنى مزودا بمصطبة للمدافع رسمت فوقها بعض النقوش . وقد حطم البرتغاليون هذا النصب التذكارى ، ولكنهم لم يزيلوا هذه النقوش . وتذكر مسز ميروڤيتز أن هناك صورة للقديس أنطونى تعود إلى ذلك الوقت مازالت تستخدم على الساحل كتعويذة دينية ، وذلك على الرغم من أنها لم تستطع رؤيتها .

وفى مقابل ذلك توجد حجج لها وزنها . فلو كان للفرنسيين أسبقية فى الكشف فمن المؤكد أن فرنسوا الأول لم يكن ليترك تقسيم العالم دون تحدٍّ ، وكان لابد أن يتمسك بحقوقه . وفى القرن الرابع عشر لم تكن الأرقام العربية قد شاع استعمالها ، على الرغم من أن الإنجليز والفرنسيين كانوا على دراية بها . ويصعب التسليم بأن الفرنسيين قد وضعوا هذه الأرقام فى نُصب تذكارى فى إلمينا ، ومع ذلك فإن فرنسا قد احتلت إلمينا فى عام ١٥٨٢ ، ومن المحتمل أن يكون الحصن قد شُيِّد فى ذلك الوقت . أما بيازلى وپرستيج ، اللذان بحثا تلك القضية ، فقد خلصا إلى أنه بينما كان فى مقدور الفرنسيين الوصول إلى الساحل ، فليس هناك دليل على أنهم فعلوا ذلك ، ويبدو أن الرأى حول هذه القضية لم يحسم حتى الآن .

خامسا

فأى نوع من إفريقية واجهه الأوروبيون الأوائل ؟ لقد كان اهتمامهم مقصورا على المناطق الساحلية ، ولم يتوغلوا فى الداخل عدا فى حالة أو حالتين –

وبخاصة البعثة البرتغالية إلى مالى .[٢٨] ولأن هدفهم كان التجارة ، فقد اكتفوا بالمناطق الساحلية ، واعتمدوا على الحكام ورؤساء القبائل المحليين لتزويدهم بمنتجات المناطق الداخلية . وكانت سياسة الأوروبيين على الساحل هى أن يبنوا قلعة ويقيموا علاقات ودية مع الأهالى لصالح التجارة . وقد أدرك الإفريقيون منذ اللحظة الأولى أخطار السماح للأجانب بامتلاك مكان محصّن . وأجرى الرئيس كوامى أنسا تحليلا لأخطار ترك البرتغاليين يبنون قلعة ، وأعلن رداً على الطلب البرتغالى :

« لست غير مبال بالشرف الكبير الذى أسبغه على اليوم سيدكم العظيم رئيس البرتغال . قد كنت أسعى دوما إلى أن أكون جديرا بصداقته ، وذلك بتحرى الدقة فى تعاملى مع البرتغاليين ، وبجهودى الدؤوبة لتدبير شحنة عاجلة للسفن . ولكن حتى ذلك اليوم لم ألاحظ قط فارقا كهذا فى مظهر رعاياه . فهم حتى الآن يكتفون بارتداء الملابس المتواضعة ، ويقنعون فى سهولة بما يحصلون عليه من بضائع ، دون أية رغبة حتى الآن فى الاستمرار فى هذا البلد ، ولا تغمرهم السعادة أبدا إلا عندما تكتمل شحنتهم ويتخذون عدتهم للعودة إلى الوطن ، والآن ألحظ فارقا غريبا . ذلك أن كثيرين ممن يرتدون الثياب الغالية يتوقون إلى السماح لهم ببناء البيوت ومواصلة الحياة بيننا . فرجال لهم مثل هذه المنزلة ، وعلى رأسهم قائد يبدو من مظهره أنه من عبيد الله خالق الليل والنهار ، لا يمكن أن يكْرِهوا أنفسهم على تحمل مشاق هذا المناخ ؛ ولن يكون باستطاعتهم تدبير أىٍّ من وسائل الترف المتوفرة فى بلدهم . إن تباين

---

(٢٨) عندما شعر محمد الأول منسا مالى بوطأة السنغى لم يجد بُدّاً من الاستعانة بقوة خارجية لمساندته ، فاستغاث فى عام ١٤٨١ بالعثمانيين ، ثم عاد فطلب مساعدة البرتغال ، وبسبب خشية ملك البرتغال من امتداد نفوذ العثمانيين إلى قلب إفريقية ، فقد أسرع بالاستجابة لاستغاثة المنسا . وبعث إليه بسفارتين لا يعرف شيئ عن أخبار الأولى منهما ، أما السفارة الثانية فتوجهت عن طريق إلمينا ، ووصلت إلى عاصمة مالى ، ولم يعد من أعضائها الثمانية إلا شخص واحد هو بطرس رنيل الذى قدم وصفا لأحوال مالى فى ذلك الوقت . وفى عام ١٥٣٤ استنجد المنسا محمود الثانى بالبرتغاليين ، فجاءت بعثة لم يكن هدفها مساعدة المنسا ضد أعدائه ، وإنما لبحث مسائل تجارية .

الأهواء المألوف لدينا جميعا سيؤدى حتما إلى الشقاق والخصام ؛ وإنه لمن الأفضل كثيرا أن تمضى كل أمة منا فى السياسة نفسها التى انتهجتها حتى الآن ، فيسمح لسفنكم بالمجئ والذهاب كما هى العادة ، ثم أن الرغبة فى أن يرى كل منا الآخر بين الفينة والأخرى هى التى ستصون السلم فيما بيننا . ولكون الأرض والبحر متجاورين دائما ، فإنهما على خلاف باستمرار ويتشاحنان حول أيهما سيذعن للآخر ، فالبحر يحاول فى عنف شديد إخضاع اليابسة ، واليابسة بدورها مصممة فى عناد مماثل على أن تناوئ البحر . »

وكان هدف البرتغاليين هو إقامة منطقة يستطيعون منها السيطرة على المناطق الريفية ، فالقلعة تمكّنهم من أن تكون لديهم «... جالية مدنية مجاورة نعتمد عليها بوصفها جزيرة للنفوذ البرتغالى . » وهكذا فإن القلاع التى كان من المقرر نشرها على طول الساحل كانت بمثابة تحدٍّ مباشر للحكام الإفريقيين ، وهم قد اعتبروها كذلك . وقد بذل كوامي أنسا قصارى جهده لتفادى اتخاذ قرار بشأن هذه القضية ، ولكن البرتغاليين استطاعوا إرغامه على أن يعطيهم الأرض . أما فى وايداح(٢٩) فقد أصر الملك على عدم إقامة بيوت على الطراز الأوروبى ، بل إن الأوروبيين لم يكن باستطاعتهم أن يقيموا بيوتا حتى على الطراز الوطنى . وهكذا فى عام ١٧١٥ ، على سبيل المثال ، عندما سرق وكيل هولندى فى وايداح أربعين زوجا من الأحذية من الوكيل الإنجليزى ، قرر الأخير أن يتولى بنفسه تنفيذ القانون للقصاص منه ، فقام الملك بتجريد الوكيل الإنجليزى ، ووضعه فى الأغلال وشحنه على أول سفينة توفرت له .

---

(٢٩) وايداح : مدينة قديمة مكتظة بالسكان فى داهومى ، بالقرب من كوتونو ، وتعرف بحديقة داهومى لكثرة مابها من أشجار الموالح . كان للبرتغاليين قلعة بها ، وكانت من «الدول - المدينة» على ساحل الرقيق (ساحل غينيا) الذى أصبح داهومى فيما بعد ، كما كانت من أهم المراكز التجارية وكبرى المحطات التى تقوم بدور الوسيط فى تجارة الرقيق . وقعت معارك شرسة بين قوات داهومى وفرنسا ، ونزلت حملة فرنسية فى كوتونو (ميناء داهومى الرئيسى) وقُعت على إثرها معاهدة «وايداح» فى أكتوبر ١٨٩٠ ، التى منحت فرنسا حق حماية بورتونوفو (عاصمة داهومى الآن) واحتلال كوتونو لفترة غير محدودة . تعرف كذلك باسم «ويداه» .

ولم يكتف الرؤساء الإفريقيون بعدم السماح للتجار ببناء القلاع ، بل إنهم حتى عندما سمحوا بها ، كما فى حالة إلمينا وغيرها ، ادعوا السيادة عليها ، كما طالبوا بأن تكون الموانى مفتوحة ، وبأن يكون باستطاعة أى شخص زيارتها . كذلك لم يشجعوا الأوروبيين على القيام بعمل مباشر ، ولم يكن يسمح لهم بالقيام بغارات من أجل الحصول على الرقيق ، وإنما كانوا يستطيعون شراءهم فقط . ففى عام ١٧٥٤ ، عندما قبض القبطان الإنجليزى لإحدى سفن نقل الرقيق على ثلاثة من الرعايا الأحرار ، قبض على قبطان السفينة الإنجليزية التى جاءت فى إثرها ، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن ترك ثلاث رهائن .

ولقد ترتب على العلاقة مع التجار الأوروبيين اضطرابات سياسية واجتماعية . فحتى ذلك الوقت كانت السلطة السياسية فى أيدى الدول المنظمة فى الداخل ؛ ومع إدخال الأسلحة الأوروبية ، وكذلك مع ما جاء فى أعقاب التجارة من رخاء مادى – متجسدة فى بضائع فى أول الأمر ثم فى البشر بعد ذلك – نمت قوة الدول الساحلية . إذ أن هذه الدول كانت تعتمد على التجارة ، وكان هدفها توريد الرقيق والحصول على البنادق التى تستطيع بها مد سلطانها .

ولم يكن الزنوج الذين واجههم الأوروبيون على الساحل همجا أو يعيشون فى أحوال بدائية ، بل كانوا حتى فى ذلك الوقت تجارا ممتازين ولديهم دول حسنة التنظيم ومدن مسوّرة . وكان بعض حكامهم ملوكا أقوياء ، بيد أنه حتى صغار رؤساء القبائل كانت لديهم رغبة كاملة فى استخدام القوة ضد الأوروبيين . ولذلك فليس هناك أساس فى التاريخ للفكرة القائلة بأنه قبل القرن التاسع عشر كان الأوروبيون فى غرب إفريقية يعتبرون سادة ، وبأن الإفريقيين كانوا يرهبونهم . والحقيقة أن الأوروبيين أنفقوا أموالا كثيرة لإغراء الإفريقيين بالذهاب إلى أوروبا ولإيهامهم بأبهة بلدانهم وعظمتها .

وثمة حقيقة أخرى لصالح الإفريقيين لم يتوانوا عن استغلالها ، وهى إنه على الرغم من أن كل دولة أوروبية حاولت إقامة احتكار يقصر التجارة على شركة واحدة ، فإن تنافس الدول الأوروبية على الفلفل والذهب والعاج كان بمثابة

ميزة كبيرة للإفريقيين . فضلا عند ذلك لم تكن لدى هؤلاء المتطفلين ممانعة فى دفع أثمان أعلى ماداموا لا يتحملون تكاليف محددة ، من قبيل الإنفاق على وكالة تجارية أو على الوكلاء التجاريين اللازمين لتسييرها . وأدرك الإفريقيون ذلك ، فدأبوا على رفع أثمانهم .

وكان لدى الإفريقيين ، استنادا إلى مارمول ، استعداد للنظر إلى الأوروبيين على أنهم مخلوقات جبّارة ، من ذلك أن الزنوج ، عندما رأوا الحملة المراكشية ، التى رافقها مارمول ، ظنّوا أن سلطان مراكش يستخدم فى الحملة مخلوقات جبارة يمكن أن تدمر الزنوج . فالبشرة البيضاء كانت تعتبر فى بعض المناطق خاصة بأناس نهضوا من القبور ،[٣٠] وكذلك كان الزنوج يخشون أن يكون سبب تجارة الرقيق هو أن الأوروبيين مغرمون بأكل اللحم الأسود .

سادسا

ربما كان الإتجار فى الرقيق القادم من إفريقية قديما قدم التاريخ ، فقد انغمس العرب وأبناء شمال إفريقية فى تجارة الرقيق قبل أن يكتشف البرتغاليون ساحل إفريقية الغربى ، وحتى بعد اكتشاف أمريكا لم تكن تجارة العرب فى الرقيق مما يستهان به . ولكن التجارة عبر الأطلسى كانت أعظم أهمية بكثير بسبب اعتماد مزارع القطن وقصب السكر على عمل الرقيق . بيد أن دلالة الأطلسى فى تجارة الرقيق دلالة كمية ، ففى خلال عشرين عاما نقل ملايين الإفريقيين إلى الأمريكتين ، وكان هذا الكم الضخم ، مقترنا بعجز العالم الجديد عن امتصاص السكان الزنوج فى نسيجه الاجتماعى ، هو مبعث مشكلاته الاجتماعية والمعنوية .

---

(٣٠) «وكان عدد من الأسرى النصارى يقومون بخدمات فى بلاط الشريف (السعدى) ، ورافقوه فى رحلته ، وكان صغار الزنوج وكبارهم يتهافتون على رؤيتهم والتحدث معهم ، معتقدين أنهم أعجوبة الخلائق البشرية ، وعلمنا أن بعض رجال حاشية الشريف أذاعوا فى وسط القوم ، وبغية بث الخوف فى قلوب الأسرى المسيحيين ، أن هؤلاء النصارى يأكلون اللحم البشرى ويمزقون أجساد ضحاياهم بمخالبهم وأسنانهم . » مارمول ، إفريقيا ، الترجمة العربية ، المجلد الثالث ، الصفحة ٢٠٢ .

والرق كمؤسسة لم يكن جديدا على أوروبا . فالتجار الأثرياء فى شمال إيطاليا كانوا يستوردون فتيات فى الثالثة عشرة والرابعة عشرة من مناطق التتار البعيدة ليتخذوهن خادمات أو محظيات . وقد أسر أحد القباطنة البرتغاليين الأوائل ٢٣٣ فرداً من إفريقية ، كان بعضهم أسود البشرة مثل الإثيوبيين ، والبعض الآخر أبيض البشرة كالأوروبيين . ومع ذلك فإنه حتى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر لم تكن هناك تجارة منظمة فى الرقيق . فأزورارا ، على سبيل المثال ، يذكر أنه فى خلال حياة الأمير هنرى لم يجلب إلى البرتغال إلا قرابة تسعمائة من الرقيق . وبسبب ما قام به المبشرون اليسوعيون من منع استخدام الهنود الأمريكيين كعمال فى المزارع التجارية ، عمد الاستعماريون إلى جلب الرقيق الزنوج إلى جزر الهند الغربية وأمريكا ، بيد أنه طوال هذه الفترة كان الرقيق يجلبون فى أعداد صغيرة إلى أسبانيا والبرتغال . وكما يقول أزورارا فإنهم «كانوا يقومون بتعليم الحرف الميكانيكية لمن يجلبونهم فى سن الشباب ، كما كانوا يمنحون الحرية لمن يرون فيهم استعداداً لكسب عيشهم ، ويزوجونهم بنساء البلد ويعطونهم أملاكا» . وكان الغرض من ذلك هو استخدام أسراهم من الإفريقيين كعمال زراعيين ، إذ أن شبه جزيرة أيبريا قد أقفرت من سكانها فى أثناء صراعها ضد المغاربة . وأكثر هؤلاء الرقيق مهارة أصبحوا أصحاب حرف . وهكذا فإن الطبقات الدنيا من سكان شبه الجزيرة ، فى الفترة ما بين اكتشاف غرب إفريقية وبداية شحن الرقيق إلى أمريكا ، كانت تحقن باستمرار بالدم المغربى والزنجى .

فهل اللوم فى ذلك يقع بأكمله على الأوروبيين وحدهم ؟ لقد قام الإفريقيون بدور نشط فى هذه التجارة ، بل يمكن القول إنه دور بارز . كما كان لظهور داهومى وأشانتى كدولتين استبداديتين ، والصراع فيما بين ممالك اليوربا المختلفة ، علاقة بأرباح التجارة . فأشانتى وداهومى كانتا تواقتين إلى إقامة اتصال مباشر مع الأوروبيين بحيث تستطيعان الاستئثار بأرباح الوسطاء . إن ليفربول وبرستول ليستا وحدهما اللتين تعاظم ثراؤهما من دم الرقيق ، وإنما

تعاظم ثراؤها منه أيضا الدول الإفريقية التى تقتنص رعاياها وتأسرهم وتبيعهم رقيقا يكدحون بعيدا عن أوطانهم .

وجدير بنا أن نتذكر أن العرب ربما كانوا حتى أكثر أهمية فى تجارة الرقيق من الأوروبيين . فالدول الإسلامية فى السودان كانت ترى فى اقتناص الوثنيين ممارسة عادية ، وربما تجد مشاعر المسلمين أفضل تعبير عنها فى كلمة أمير كونتاجورا[٣١] «كيف يمكن لقط أن يكف عن صيد الفئران» . غير أن الرق فى الدول الإسلامية كان مختلفا ، ذلك أن إبن الجارية من رجل حر يصبح حرا ، ومن ثم فإن الجوارى اللاتى كن يشكلن العنصر الرئيسى فى تجارة الرقيق إلى الشرق الأدنى كان يتم امتصاصهن بسهولة فى النسيج الاجتماعى . ويقول أحد المصادر إن السبب الذى كان العرب من أجله يفضلون الفتيات الزنجيات فى حريمهم كمحظيات وخادمات هو أن البشرة السوداء تحتفظ فى أشهر الصيف بطراوتها وبرودتها ، وتلك ميزة تفتقدها النساء العربيات . كذلك لم يصبح الرقيق أبدا مشكلة اجتماعية فى الشرق الأدنى أو فى شمال إفريقية ، ومرجع ذلك أنهم كانوا يستخدمون أساسا إما خدما فى المنازل أو جنودا فى الجيوش ، مثل الفصائل الزنجية فى جيش مولاى أحمد سلطان مراكش ، أو كانوا من الخصيان والموظفين المدنيين ، كما فى جميع بلدان الشرق الأدنى . وقد اختلط هؤلاء الرقيق بالرقيق القادمين من البلقان والقوقاز ، كذلك لم يظهر أبدا فى أى من هذه البلدان شعور بأن الإسلام يستحل استرقاق الزنوج . فمن كان يمكن أن يباع كرقيق هو غير المؤمن ، أبيض البشرة كان أو أسودها .

ومن السمات المميزة الأخرى للرق فى الشرق الأدنى هو أنه كان أساسا أحد مظاهر البذخ ، بيد أنه فى الأمريكتين كان له أساس اقتصادى وطيد : فالرقيق كانوا يجلبون أساسا للعمل فى المزارع التجارية . ولذلك فإن الزنوج فى الشرق قد امتصوا فى السكان المحليين ، إذ لم يكونوا يشكلون مجموعة عرقية ، كما أن اعتناقهم للإسلام كان يحل أية مشكلة اجتماعية .

---

(٣١) كونتاجورا : إحدى إمارات الفولانى فى شمال نيجيريا .

كذلك لم يكن الرقيق سلعة تباع فقط للأجانب ، ففى إفريقية بدورها كانت توجد سوق كبيرة للرقيق . وقد ترتب على عدم وجود حيوانات الجر ، سواء كوسيلة للانتقال أو للأعمال الشاقة ، أن أصبح استخدام البشر من ضروريات الحياة ، فى حين أن الحيوانات لم تكن تستخدم إلا فى البلدان التى تتوفر بها . وقد قام الاقتصاد الزراعى كله على الرق ، حيث لم يكن يوجد عمال أجراء ولا فلاحون يربطهم بالأسياد نظام للمزارعة . ومن أجل الحصول على العمال اللازمين لحقل شخص ما ، أو لمنطقة أدخل فيها نظام الطوائف المهنية ، كان لابد من اقتناص الرقيق ، فينقض القناصة فى المساء على قرية آمنة ، يأسرون شبابها ويقتلون شيوخها . وكانت الدول الكبيرة ، بل الصغيرة أيضا ، تنظم حملات فى المناطق المجاورة للحصول على الرقيق ، وعندما اشتد الطلب على الرقيق كان المجرمون المدانون بالزنا والشعوذة والقتل يباعون كرقيق . وشاع فى الأيام الأخيرة أسلوب آخر هو القبض على أى مدين عجز عن سداد دينه ، وإذا تعذر القبض عليه فإنه يمكن القبض على أقاربه ، بل حتى على رجال قريته .

ومع ذلك ارتبط التطور الحقيقى لتجارة الرقيق بنمو المزارع التجارية فى جزر الهند الغربية . وهكذا ففى عام ١٥١١ قام برلمان بوردو بتحرير الزنوج الذين نزلوا هناك ، مع إشارة إلى أن فرنسا ، أم الحرية ، لاتسمح بأى رقيق . وكان مرجع هذه المشاعر «المهذبة» أنه لم يكن لفرنسا حتى ذلك الوقت مصلحة راسخة فى تجارة الرقيق . ولكنها سرعان ما أذعنت لقانون الضرورة الاقتصادية . فلم يكد يمضى قرن واحد حتى طالب مجلس الدولة فيها بفرض رسم مقداره خمسة فى المائة على كل رقيق . وهكذا أدت الضرورة الاقتصادية بفرنسا ، مثلما أدت بغيرها ، إلى الانغماس فى تجارة الرقيق .

فما المزايا التى كان بلد ما يستخلصها من تجارة الرقيق ؟ فى عام ١٧٨٨ أعلنت لجنة التجار الذين يمارسون التجارة مع إفريقية ما يلى : «ولكن آثار التجارة على بريطانيا العظمى مجزية للغاية فهى من حيث آثارها المباشرة. تستخدم قرابة ١٥٠ سفينة تنقل سنويا فى هذا البلد شحنات تزيد قيمتها على

مليون جنيه ، وتشكل مصنوعاتنا الجانب الأكبر من هذه الشحنات ؛ أما من حيث آثارها البعيدة فلا يكاد يوجد فرع من فروع التجارة ذو أهمية لهذه الأمة لا يستخلص منها المزايا» . وكان هذا بطبيعة الحال خلاف الأرباح من المزارع التى هى ثمرة عمل الرقيق الإفريقيين . كما أن إيريك وليامز ، وهو كاتب من أبناء جزر الهند الغربية يشغل الآن[٣٢] منصب رئيس الوزراء فى ترينيداد ، يقول عن حق إن نشأة الرأسمالية فى أوروبا الغربية ترتبط ارتباطا وثيقا بأرباح تجارة الرقيق .

وقد نشأ نظام توريد الرقيق على نطاق واسع عندما أقدم فيليب الرابع ، ملك أسبانيا ، فى عام ١٦٤٠ على منع كل تجارة مع البرتغال . فحتى ذلك الوقت كان التاج الأسبانى ، الذى كان يسيطر على كل من الأمريكتين وساحل إفريقية الغربى ، قادرا على تزويد الأسواق بحاجتها دون تدخل خارجي . ومع استقلال البرتغال أصبح توريد العمال مشكلة حادة ، ومنح الملك الأشيينتو[٣٣] لإثنين من أبناء جنوا لم يكن باستطاعتهما الوفاء به إلا عن طريق تعاقدات واسعة النطاق من الباطن . وأصبح الأشيينتو موضوع نزاع بين الدول وأحد منجزات بريطانيا الرئيسية ، إذ أن معاهدة أوتريخت كانت الضمان للأشيينتو .

وكانت تجارة الرقيق تنمو بسرعة مع ارتفاع قيمة جُزُر السكر فى أعين الأوروبيين ، ووصلت الأرقام إلى متوسط سنوى يتجاوز مائة ألف . وحتى بعد

---

(٣٢) وقت صدور الكتاب بطبيعة الحال .

(٣٣) الأشيينتو : كلمة أسبانية معناها التزام بالضرائب أو عقد ، وقد أصبح لها رنين سيئ بسبب معاهدة الأشيينتو فى عام ١٧١٣ . فبعد قيام أسرة بوربون الملكية الأسبانية فى عام ١٧٠٠ تأسست شركة فرنسية حصلت على الامتياز المطلق لتجارة الرقيق الأسبانية – الأمريكية . وفى معاهدة «أوتريخت» للسلم طالبت الحكومة البريطانية بالاحتكار . وتبعا لذلك خولت معاهدة «أشيينتو» الرعايا البريطانيين إدخال ١٤٤ ألفا من الرقيق إلى سوقى بورتو بيللو ولافيراكروز ، وهو حق أسيئ استخدامه . وبحجة تجديد أحكام هذه المعاهدة بدأت تجارة تهريب واسعة النطاق ، ونشأت خلافات كثيرة أعلنت الحرب بسببها فى عام ١٧٣٩ . وبموجب معاهدة أخرى وافقت الحكومة البريطانية على تجميد معاهدة «أشيينتو» كلية مقابل أن تدفع أسبانيا مائة ألف جنيه .

انسحاب البريطانيين والفرنسيين من تجارة الرقيق ، لم يتناقص كثيرا عدد الإفريقيين الذى يباعون فى أسواق الرقيق ، كما يتبين من الأرقام التالية :

١٧٨٨	١٠٠٠٠٠	
١٧٩٨ - ١٨١٠	٨٥٠٠٠	متوسط سنوى
١٨١٠ - ١٨١٥	٩٣٠٠٠	شرحه
١٨١٥ - ١٨١٩	١٠٦٠٠٠	شرحه
١٨١٩ - ١٨٢٥	١٠٣٠٠٠	شرحه
١٨٢٥ - ١٨٣٠	١٢٥٠٠٠	شرحه
١٨٣٠ - ١٨٣٥	٧٨٥٠٠	شرحه
١٨٣٥ - ١٨٤٠	١٣٥٠٠٠	شرحه
١٨٤٠	٦٤٠٠٠	
١٨٤١	٦٥٠٩٧	
١٨٤٢	٢٨٤٠٠	
١٨٤٣	٥٥٠٦٢	
١٨٤٤	٥٤١٠٢	
١٨٤٥	٣٦٧٨٥	
١٨٤٦	٧٦١١٧	
١٨٤٧	٨٤٥٣٦	

ويرجع الانخفاض أساسا إلى أن جزءا من الأسطول البريطانى كان يتجول فى القرن التاسع عشر على طول ساحل إفريقية الغربى بهدف منع التجارة . فضلا عن ذلك فإن هذه الأرقام لا يمكن مقارنتها بأرقام التجارة فيما بين عامى ١٧٠٠ و١٧٨٠ ، لأن هذه هى الفترة التى وصلت فيها قوة أصحاب المزارع التجارية إلى ذروتها . وكما أعلن بت[٣٤] فإن الدخل السنوى الذى حصلت عليه بريطانيا من جزر الهند الغربية فى عام ١٧٩٨ وصل إلى أربعة ملايين من الجنيهات ، مقابل مليون واحد من التجارة مع بقية العالم . وتفيد تقديرات سيرچوسيا تشايلدز أن كل بريطانى يقيم فى جزر الهند الغربية «يوفر مع السود العشرة الذين يعملون معه ، بعد استبعاد مأكلهم واستخداماتهم واستهلاكهم ، وظائف لأربعة رجال فى إنجلترا» .

(٣٤) وليم بت · رئيس وزراء بريطانيا فى ذلك الوقت .

وإلى جانب الأرباح من جزر الهند الغربية فقد أفاد الأوروبيون من التجارة مع غربي إفريقية أيضا . فما نوع البضائع التى كانوا يبيعونها للإفريقيين ؟ لقد كان هناك نظام معقد للتجارة ؛ وأحصى بوزمان[٣٥] فى كتاباته فى نهاية القرن السابع عشر مائة وخمسين سلعة مختلفة تبادلتها التجارة مع منطقة ساحل الذهب وحدها . وتنوعت الأصناف من المنسوجات القطنية والصوفية إلى الحلى والرصاص والسيوف والبنادق والبارود . وكان ربع الشحنات المرسلة إلى غمبيا يتكون من قضبان حديدية . وفيما بين أنجولا وساحل الذهب كانت المنسوجات الهندية تشكل الجزء الأكبر من التجارة . ويشير آدمز وباربوت[٣٦] إلى مختلف أنواع المنسوجات المرغوب فيها . كما أن المنسوجات الهندية كانت هى الأصناف السائدة حتى بداية القرن التاسع عشر ، بيد أنه بعد الثورة الصناعية فى انجلترا أصبحت المنسوجات تُصنَّع فى لانكشير ، وإن احتفظت بالأسماء والنقوش الهندية . وربما كان أعظم شاهد على مهارة العمال الهنود هو الأسماء والتشكيلات الواردة فى هذه القوائم – البيبوتابوليس ، الرومالس ، اللينجيس ، الكاستوز ، التشيللوز ، وكثير غيرها ، وقد حُرِّف بعض هذه الأسماء بحيث لايكاد يبدو أنها هندية .

ويؤكد رينتشون ذلك ، كما يعدّد على النحو التالى الأصناف التى كان الإفريقيون يطلبونها من الفرنسيين : (١) الحرير الهندى ؛ (٢) الأسلحة والبنادق والمدافع والبارود ؛ (٣) وفى مقدمة كل ذلك الخمور ، «ماء الحياة» ؛ (٤) المرايا والسكاكين ؛ (٥) الأوانى الزجاجية ؛ (٦) المنتجات المرجانية . وقد وصف كاتب إفريقى أسلوب التجارة بقوله « إن المحطات أو الوكالات التجارية هى قواعد

---

(٣٥) وليم بوزمان : توفرت لديه خبرات ومشاهدات خاصة بوصفه الوكيل التجارى الرئيسى لشركة هولندية مقرها فى إلمينا . أرسل عشرين خطابا إلى صديق له فى هولندا تضمنها كتاب بعنوان New and Accurate Description of Guinea ، نشر فى لندن فى عام ١٧٠٥ .

(٣٦) چون باربوت : ينتمى إلى القرن السابع عشر . عمل وكيلا للشركة الفرنسية الإفريقية . قام برحلتين على الأقل فى غرب إفريقية فى الفترة ١٦٧٨ – ١٦٨٢ . له كتاب بعنوان A Description of the Coasts of North and South Guinea ، نشر فى لندن لأول مرة فى عام ١٧٣٢ .

لاغنى عنهـا للعمليـات التجارية . وهى مـا إن تقـام ، ثم يزداد عددهـا ، حتى تنتشر التجارة على نحو أفضل كثيرا . فالسفن المحملة بالبضائع الأوروبية كانت إما تحمل معها التجار اللازمين أو تزود التجار الموجودين ببضائع يتجرون فيهـا . وكانـت الأصنـاف التى ينبغى مبادلتها بالرقيـق مختلفة ومتعـددة ، ومن بينها الأوانى المصنـوعة من النحـاس أو القصـدير ، صناديق الخرز العاجية المختلفة الأحجام ، البنادق والبارود ، والمشتريات الروحية والويسكى والبراندى والروم » .

فماذا كانت آثار هذا التغلغل الأوروبى على ساحل إفريقية الغربى ؟ لقد نشأت فى المقام الأول طبقة من المولدين والمسيحيين الوطنيين ادعت لنفسها حق التمتع بمزايا خاصـة . وقد أُعترف بطبقة كـهذه فى دول مـثل داهومى . وقد انتمى إلى هذه الطبقة فالنتين مندريس ، أحد قباطنة السفن ، كما انتمت إليها أسرة دى سوزا صـاحبة الدور الهام فى تاريخ داهومى الحديث . فضلا عن ذلك خلقت التجارة طبقة من أمراء التجـارة الوطنيين ، مثل چاچا ونانا ، ودُوَلاً – مدينة مثل براس وبونى اللتين لم تكونا قادرتين فقط على الوقوف فى مواجهة الأوروبيين ، بل على مـزاحمـتهم فى ميدانهم أيضـا . وفى دلتـا النيچر أدى الاتصـال بالأوروبيين إلى نمو نظام البيوت التجارية ، وهو مزيج من التجارة والسياسـة جعل من هذه المدن الإفريقية صورة مصغّرة للدولة – المدينة فى إيطاليا . بيد أنه أدى قبل كل شيئ إلى ظهور الدول الاستبدادية التى كانت داهومى خير مثال لها . والغرض هنا كان التجارة أيضا ، ولكن لما كانت هذه الدول غير واقعة على الساحل فقد أقامت حكما استبداديا يمكنها من التحرك فى اتجاه السـاحل لإقامة علاقات تجارية مباشرة مع الأوروبيين . وثمة نتيجة أخرى هى أن قوة الدولة بأكملها أصبحت موجهة للحصول على الرقيق . ولم تكن هذه قوة سيـاسية واقتصـادية فقط ، وإنما قوة روحية أيضـا – مـثل أرو تشوكو لونـج چوچو – استخدمت لصالح تجارة الرقيق . وكانت محصلة كل ذلك هى الانهيار التام لمعنويات المجتمع .

وكان الاعتبار الثانى – ولعله أكثر الاعتبارات أهمية – هو أنه مادامت التجارة فى البشر هى المصدر الرئيسى لرخاء غرب إفريقية ، فقد انعدم الحافز على تنمية أى مجال من مجالات الإنتاج . وهكذا أسفرت تجارة الرقيق عن قتل الحوافز ، وإعاقة التنمية الصناعية والزراعية . فمن حيث الزراعة يمكن أن نلمس ذلك جيدا من السياسة التى انتهجها البرتغاليون تجاه شجرة زيد الشيئة[٣٧] الذى كان أحد العناصر الهامة فى تجارة داهومى الداخلية . وبسبب خشية البرتغاليين من أن يكتسب أهمية فى تنمية التجارة المشروعة ، ومن ثم يحدث تأثيراً ضاراً على تجارة الرقيق ، فقد حملوا الملك على فرض رسوم باهظة على أشجاره ، وعندما فشلت الرسوم فى تحقيق الغرض اقنعوا الملك ، وهو صاحب مصلحة مماثلة فى تجارة الرقيق ، باقتلاع الأشجار .

وكانت النتيجة الثالثة للاتصال بالأوروبيين هى الإحساس العام بعدم الأمن . ذلك أن المرء إذا عاش فى ذعر من أن يقبض عليه جاره ويبيعه فى سوق الرقيق فإنه يفتقد الشعور بالأمن ، وهو الأساس الذى لا يقوم بدونه أى مجتمع . ولذلك أصبح الإفريقيون شديدى الإيمان بأن يعيشوا حاضرهم وبأن يتركوا غدهم وشأنه . وهذه العادة التى تعنى فى الواقع أن الإفريقى يأكل جيدا وقت جمع المحصول ويتضور جوعا قرب نهاية السنة الزراعية كانت هى النتيجة المباشرة للغارات من أجل الرقيق ، وأن إفريقيى ذلك العصر لم يكن باستطاعتهم أن يفكروا فى المستقبل .

---

(٣٧) أو شجرة أم القرن ، لها بزر يؤخذ منه دهن وزيد ، وربما يكون هو الغرتى الذى أشار إليه إبن بطوطة فى تحفة النظار : «والغرتى هو ثمر كالأجاص شديد الحلاوة ... ويدق عظمه فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع فمنها أنهم يطبخون به ويسرجون السرج ويقلون به هذا الأسفنج ويدهنون به ... » المرجع السابق ، الصفحة ٦٨٩ .


صفحة فارغة

أويو وظهور الدول الساحلية على المحيط الأطلسى

ربما كانت أويو ، دولة اليوربا ، بتاريخها الطويل الحافل الذى ظل دون تسجيل على خلاف تاريخ برنو والسودان الغربى ، أكثر دول غرب إفريقية شهرة . فمجتمع اليوربا ، بفنونه ودينه ، يقف على قدم المساواة مع أكثر المجتمعات والفنون والأديان مدعاة للإعجاب فى الجزء الغربى من بلاد السودان . كما أن الأشغال البرونزية وأعمال الحفر على الخشب لدى اليوربا والبينى[1] تعد من أروع أعمال الإبداع الفنى فى غرب إفريقية . ومع ذلك فنحن لا نعرف سوى النزر اليسير عن حضارة اليوربا أو تنظيمهم الاجتماعى ، ولذا فإن ما نقدمه يمكن أن يكون شديد الإيجاز .

وقد تناولنا الأبحاث الخاصة بأصول اليوربا فى فصل سابق بشىء من الإسهاب . واليوربا كانوا فى بداية تاريخهم إما أتباعاً للنوبى أو لإحدى القبائل الخاضعة لتلك الإمبراطورية . وفى القرن الثانى عشر قام أمير من البوورجو[2] إسمه أودوداوا بغزو المنطقة ، وبنى دولة مستقلة ، وكان ذلك بداية أويو .

---

(١) البينى : مجموعة قبلية إفريقية ، ذات روابط لغوية وثقافية وثيقة تقطن غرب النيجر الأدنى . كان لهم وقت وصول البرتغاليين إلى الساحل النيجيرى إمبراطورية ذات مستوى ثقافى وتنظيمى عال .

(٢) البوورجو : (أو الباريا) منطقة داخلية فى غرب أفريقية . ربما يكون اسمها مشتقا من الحشائش المائية المسماة « بورجو » والمعروفة بقيمتها الغذائية العالية للماشية . مع مجىء الاستعمار تنازع عليها الفرنسيون والبريطانيون فقسمت بينهم ، ولذا نرى الجزء الغربى منها يقع فى داهومى ، والشرقى فى إيلورين بنيجيريا . تحيط بها أراضى اليوربا من الجنوب .

ولما كانت أسرة بورجو الحاكمة وثيقة الارتباط بالنوبى ، فإن التزاوج فيما بينهم كان أمراً شائعاً ، وقد تزوج أورانيان إبن أودوداوا بأميرة من النوبى . وفى ذلك الوقت كانت البلاد مكونة من غابات كثيفة ، وكان حكامها الأوائل خبراء في الصيد واقتفاء الأثر . وبسبب كثافة الغابات كان اليوربا يتجمعون فى قرى صغيرة سرعان ما أصبحت مدناً . وخلّفَ أودوداوا إبنه أورانيان الذى حقق شهرة أكبر . وكان أورانيان أصغر أبناء أودوداوا السبعة ، وقد تُوِّج الستة الآخرون رؤساء أيضا ، ولكن الافين (حاكم) أويو أعترف به كرئيس لدولة اليوربا . وخلف أورانيان إبنه أجاكا الذى عمل بالفعل كنائب للملك عندما ذهب أورانيان إلى بنين . وكان أجاكا أميراً هادئاً ، وأرغمة عمه أولوا على أن يدفع الجزية ، واعتزل بعد حكم دام سبعة أعوام ، وارتقى شانجو العرش ووجد أن أويو يسيطر عليها الأولويو – كورو الذين لن يسمحوا له بدخول عاصمته ، ولكنه تمكن من دخولها عن طريق الاحتيال . وشن طوال الأعوام السبعة التالية ، بمساعدة أصهاره من النوبى ، حربا ضد رؤساء اليوربا المتوجين الآخرين حتى اعترفوا لأويو بالزعامة . وبعد هذه الأعوام السبعة انسحب إلى الغابة وشنق نفسه . وعاد أجاكا إلى العرش وكرس كل اهتمامه لطرد النوبى ، وحالفه التوفيق فى ذلك .

ولفترتى حكم أجاكا وشانجو أهمية كبيرة فى فهم تاريخ اليوربا المبكر . وقد كان لحكام اليوربا ، على غرار الشعوب البدائية فى أماكن أخرى ، مدة حكم محددة – سبعة أعوام . وكان أجاكا مصلحاً ينشد أن يجعل من الملكية قوة مركزية فى بلاد اليوربا . لذلك كان من الضرورى إلغاء فترة الأعوام السبعة . وعلى الرغم من أنه كان يحظى بتأييد قوى بين النوبى ، فإن العناصر المختلفة ، فى ارتباط بالنوبى ، لم تسمح بتحطيم الأعراف . فاعتزل أجاكا ، ولكنه لم يقدم على الانتحار . وخلفه شانجو الذى حاول بمساعدة النوبى إخضاع الرؤساء الذين ساندوا أجاكا . وكان حكمه الذى استمر سبعة أعوام فترة حروب متواصلة ضد رعاياه . وبعد انقضاء الأعوام السبعة احتفل بذهابه إلى الغابة وشنق نفسه هناك . وشانجو هو آخر حاكم حافظ على فترة الأعوام السبعة ، ولذلك رفع إلى

مصاف الآلهة . أما أجاكا الذى كان يعيش فى هدوء بعد فترة الأعوام السبعة الأولى ، فقد أصبح ملكا للمرة الثانية ، وطرد أتباع شانجو وشن الحرب ضد النوبى ، وأخيراً أكد استقلال اليوربا .

غير أن أتباع شانجو استقروا فى مكان يدعى أوچو ، وأخذوا بعد فترة يفدون إلى إيفه ، مدينة اليوربا المقدسة ، من أجل التجارة ، حيث استقبلوا بحفاوة شديدة ، وحملوا معهم عبادة شانجو ورغبوا فى الاحتفال بعيده . ولكن أونى (حاكم) إيفه طردهم تحاشياً لوقوع حرب أهلية ، وإن كان ذلك قد أدى بالفعل إلى الحرب الكبيرة فى تاريخ اليوربا المبكر - حرب الموديكى . وفى البداية كان النصر حليف أونى إيفه ، ولكن أوچو انتصرت فى النهاية ، وقبل شعب اليوربا بأسره عبادة شانجو .

وبوفاة شانجو انكسرت عادة ارتقاء العرش لمدة سبعة أعوام . وطوال الفترة بين القرنين الحادى عشر والثامن عشر واصل اليوربا توسيع سلطتهم ، وإن يكن مع تقلبات كبيرة . غير أن أويو لم تكن مملكة مركزية . فبنين مثلا أسسها أناس من أويو ، وأسرتها الحاكمة فرع من أسرة أويو . واستمدت سلطتها الملكية من الهيئة التى أرسلها حاكم أويو ، ولكنها كانت مستقلة سياسياً . وبالمثل كانت دولة داهومى تابعة لأويو ، وما دامت الجزية تدفع والتجارة مستمرة ، فإن أويو تدع الأمراء المحليين وشأنهم .

ولم يكن اليوربا مجموعة عرقية واحدة ، بل كانوا تنوعًا من قبائل توحد بينها الأعراف الحضارية للمجموعة الحاكمة . وكانت معابدهم ومراتبهم الاجتماعية شبيهة بمثيلاتها عند الهنود ، وتعتبر المجموعات القبلية المختلفة أعضاء فى مجتمع اليوربا شريطة اعترافها بسلطة أونى إيفه الروحية وسلطة الألافين (الحاكم) السياسية . والنتيجة أن اليوربا كانوا على غرار الهوسا نظاما للحكم أكثر منهم دولة واحدة . ولكن بينما كانوا يفتقرون إلى سلطة مفردة ، فإن سلطة الأونى الروحية وسلطة الألافين السياسية لم تكونا محل نزاع . كذلك لم يكن من أمور السياسة أن تتعرض الدول البعيدة عن المركز للغزو . فأى قائد ساخط يعلم

أن ثمن الفشل هو فقدان حياته كان يفضل أن يقيم لنفسه دولة جديدة على أن يتراجع . وبالمثل يستطيع الأمير غيرالمدرج في تسلسل وراثة العرش أن يؤسس دولة جديدة ، ولا يطلب منه أكثر من أن يخطر الألافين ، وبمرور الوقت يرسل حاكم أويو هيئة السلطة ويتم الاعتراف به كحاكم شرعي لتلك المنطقة .

والحكام لم يكونوا مستبدين ، فسلطتهم تخضع لرقابة كبار موظفي الدولة الذين يتولى بعضهم مناصبهم بالوراثة ، وكذلك لرقابة رؤساء العشائر ، وقبل كل شيء **الجمعيات السرية**[٢] والكهنة . وكان كهنة شانجو مجموعة قوية شأنهم شأن جمعية أوجبوني أقوى الجمعيات السرية لدى اليوربا . وإذا لم يكن الحاكم سهل الانقياد ، فإن الجمعية تستطيع دائماً إرغامه على الانتحار بأن ترسل له ببض الببغاء . ونظراً لقدسية شخص الحاكم ، فإن إراقة دمه تعتبر عملا مقدساً ، وإذا لم يذعن الملك لاقتراح الجمعية بالانتحار ، فإن الخنق يكون الحل الأخير . ولكن لما كان الملك مهيئا بالمثل لهذه الظروف ، فإن هذا الإجراء كان نادراً ما يحدث .

وتنظيم الدولة عند اليوربا بسيط للغاية . فالألافين يحظى بالاحترام على غرار الامبراطور الروماني المقدس ، ولكن الشعب لا يرغب في طاعته إلا عندما تكون لديه القوة الكافية لإملاء إرادته . وللألافين حرسه الخاص ، الإيشو ، ووكلاؤه ، الإيلارى ، الذين يجمعون له القبيلة بناء على أوامره . وفي أويو فإن سلطته تحدها الأويوميسي ، وهي هيئة الرؤساء الذين يتوارثون رئاسة عشائر الأويو ؛ وفي المقاطعات يحكم البال أو الأوبا كأمير إقطاعي .

---

(٢) جمعيات ذات طابع ديني أساساً وتعتبر بمثابة الأرستقراطية الحاكمة ، وتكون في بعض الحالات - مثل جمعية النندا في إفريقية الاستوائية - الوسيلة الوحيدة للحكم . وهي تعمل على دعم القانون وتكون في الوقت نفسه ضابطاً يحول دون قيام استبدادية كاملة . وفي إفريقية يوجد بوضوح ترابط بين الجمعيات السرية والهيكل السياسي للقبيلة . ومع تطور السلطة من المجالس المحلية إلى الأوتوقراطية القبلية كان هناك تطور مواز للجمعيات السرية في إفريقية . وهي تتكون لدى البمبرة من جميع المراهقين المختونين ، ويتولى رئيسها حراسة المعبد وإدارة شئون التراث القبلي . أما على ساحل غينيا فهي عبارة عن أندية خاصة لا تقبل في صفوفها إلا من يصلح من الأفراد ، وتتمتع بنفوذ سياسي واجتماعي خطير . ووجدت في داهومي جمعية شهيرة عُرفت «بميثاق الدم» . وتعتبر الجمعيات الدينية في إفريقية الاستوائية عشاً للجمعيات السرية .

ولكن الحاكم الحقيقى لمدن اليوربا لم يكن البال أو الأوبا ، وإنما أعضاء جمعية « أوجبونى » الذين يتكونون من أكثر النبلاء نفوذاً فى المدن ، كما يشكلون البلاط ، وجعلوا من أنفسهم السلطة الحقيقية وأصحاب القرار فى المدن ، أما الأوبا فهو من الناحية النظرية الموظف التنفيذى الذى يعطى تلك السياسة قوتها . وقد تدعمت سلطة أعضاء الجمعية بسبب ما يشكلونه من هيئة انتخابية تقوم بانتخاب الأوبا من بين العشيرة الحاكمة .

وكان مما شجع الطبيعة الأوليجاركية لسلطة اليوربا أنهم كانوا أساساً سكان مدن ، إذ كانوا أكثر المجموعات التى تسكن الحضر فى إفريقية ، ومنظمين وفق نظام طوائف حقيقى . وكانت الصناعة ، حيث وجدت ، تقوم على الطائفة . وقد توفرت لهم حماية فعالة بفضل أسوار المدن وتركز السكان ، وكان معنى ذلك توفر الوقت لدى الطبقات العليا ليكرس أفرادها أنفسهم فى تفانٍ لشؤون الحرب والسياسة .

وقد اعتمدت قوة الامبراطورية على الحكام ، وتدعَّم بناء الدولة بفضل سلسلة من الحكام الأقوياء فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وفى القرن السادس عشر قاد إيبچى ، حاكم نوبى ، جيشاً إلى بلاد اليوربا ، وفى الجزء الأخير من هذا القرن كانت غزوات نوبى من العنف والتوفيق بحيث دمرت مدينة أويو القديمة . وفى الفترة نفسها أُدخل الحصان إلى بلاد اليوربا ، ربما من بلاد النوبى ، مما عزز قوتهم . وقد احتل النوبى أجزاء من بلادهم ، وشن أورومبوتو الحرب ضد بوسّا ، ولكنه لم يوفق ضد النوبى . كذلك أخفق أچيبوييدى فى زحزحة النوبى من أويو ، ولم يتمكن من ذلك إلا بمساعدة أبيپا ، وفى نهاية الأمر تغلبت أويو على التهديد القادم من الشمال .

وكان البرتغاليون من أوائل الأوروبيين الذين عرفوا شيئا عن حكام اليوربا ، ولكن معلوماتهم عن اليوربا لم تكن جديدة ، وقد حصلوا عليها عن طريق اتصالهم بالمناطق الساحلية . مثال ذلك أن باروّس وباتشيو يشيران إلى ملك عظيم وقوى يدعى أوجانى حكم فى الداخل ، وكان يعتبر بين الزنوج « كالبابا بيننا » .

وقالا إن الوثنيين كانوا يحتفظون بالأوجانى فى احترام وتوقير كبيرين . وكان حكام بنين يفعلون الشيئ نفسه ، ويرسلون إلى أويو القضيب النحاسى الذى يعنى السلطة الملكية . وكان طبيعياً أن يعتقد البرتغاليون أن الأوجانى كشخص لا يقل أهمية عن « بريسترچون » الأسطورى(٤) .

وبمقدم نهاية القرن السابع عشر استعادت أويو قوتها بعد فترة من التدهور ، واستطاعت بمساعدة الحصان هزيمة قوة الفون(٥) الصاعدة . ويذكر بوزمان أن جيوش أويو وصلت إلى پورتونوفو(٦) فى عام ١٦٩٨ ، وتم إخضاع بلاد الفون . أما القائد الذى أخفق فى العودة بملك الفون سجينا فقد شنق . بعد ذلك أرسل ملك أويو جيشاً إلى بلاد البوسّا(٧) . وهكذا كانت أويو ، عند موت أوچيچى ، قد امتدت كثيرا فى اتجاه الشمال والغرب . ومع ذلك ضعفت سلطة الألافين مع نمو سلطة الباسورون (رئيس الوزاراء) والكافانكا (قائد الجيش) . وفى حوالى عام ١٧٢٥ استولى الباسورون جاها على السلطة الفعلية ، ومنذ ذلك الوقت أصبح المسؤولان الكبيران فى الدولة ، الباسورون والكافانكا ، الحاكمين الفعليين للبلاد . وبذلك قبض الباسورون جاها على السلطة الفعلية فى إمبراطورية يحدها النيچر شمالاً والبحر جنوباً وغرباً ، وتضم مملكة داهومى . وكان جاها فى الحقيقة أول رجل من العامة يستولى على السلطة السياسية ، وظل يحتفظ بسلطته عن طريق تدبير اغتيال أسياده الملكيين . وقرب نهاية حياته استطاع

---

(٤) چون القسيس (بريسترچون) : انظر ، الحاشية ٧ – ١٥ أعلاه .

(٥) فى داهومى الحالية عندما أعلن تاكودونو ملكا فى أوائل القرن السابع عشر قام بتأسيس الأسرة التى حكمت داهومى حتى نهاية القرن التاسع عشر . وجرت العادة عند موت الملك أن يحنط جسمانه ويذبح عدد من الناس للقيام بخدمته فى الدار الأخرى . والصلة وثيقة عند الفون بين الإنسان والحيوان ؛ إذ يزعمون أن لكل إنسان شبيها وصنوا من الحيوان .

(٦) پورتونوفو : عاصمة داهومى ، ومركز تجارى رئيسى بها ، تقع بالقرب من كوتونو ميناء داهومى الرئيسى . كانت لها أسماء كثيرة ، وهذا الأسم هو الذى عرفت به لدى الفرنسيين . بها العديد من المساجد والكنائس .

(٧) بوسّا : تقع على النيچر . أصبحت فى عام ١٨٩٤ موضع منافسة بين انجلترا وفرنسا ، وقام الفرنسيون بغزوها .

الحاكم أبرودون أن يحرز نصراً على الكافانكا وأن يهزم الباسورون . وأبقى أبرودون على السلطة الملكية ، ولكنها سلطة ظاهرية أكثر منها سلطة حقيقية . فالسلطة كانت بالفعل فى أيدى كبار موظفى الدولة . وكان تهديد الفولانى يلوح فى الأفق ، وأنيط بالكافانكا دور شرير فى تقويض قوة اليوربا .

بنين

كان البرتغاليون أول من وصل من الأوروبيين إلى ميناء جواتو العظيم ، حيث وجدوا مملكة مستقرة تمارس السلطة هناك . وكانت بنين فى عصورها الأولى دولة أوليجاركية يقسم زعماؤها إلى ثلاث فئات ، يحتل المرتبة العليا بينها الأوزاما الذين يتوارثون مناصبهم ويتقدمون على الأسرة الحاكمة . وقد كانوا أمراء شبه مستقلين وظيفتهم الرئيسية تنصيب أوبا[٨] جديد ، وكانوا هم النبلاء الذين دعوا أوبو إلى إرسال أمير ليحكمهم ، كما يشغلون غالبية المناصب الرفيعة فى الدولة . وكان رؤساء المدن ، برغم كونهم أقل مرتبة ، أكثر فعالية وتأثيراً لأن مناصبهم لم تكن وراثية . وكان العسكريون والرؤساء الدينيون ينتمون إلى هذه الفئة . ويلى هؤلاء رؤساء القصر الذين كانوا رؤساء فى البلاط .

وكان الأوزاما أقويا دائما ، ويستطيعون فى جميع الأحوال تحدى السلطة الملكية . ومع ذلك فإن أى حاكم قوى باستطاعته دائما أن يضرب مجموعة من الرؤساء بالمجموعة الأخرى ، ولكن الأوزاما والأمراء الملكيين الذين يملكون إقطاعات من الأرض باستطاعتهم إثارة المتاعب لأى حاكم ضعيف .

يقول مؤرخ بنين إن المملكة تأسست على أيدى الأوبا جوبو ، أحد أبناء أوبوداوا ، الذى أصبح حاكما تحت اسم أوچيسو ، أى أن بنين تأسست على وجه التقريب فى نفس الوقت الذى تأسست فيه أويو . وقد قام أچيسو ، بسبب مؤامرات زوجته

---

(٨) الأوبا : الاسم الذى كان يحمله ملوك بنين .

ذات الحظوة لديه ، بنفى إبنه الوحيد كالدِرْهان ، وهو عمل ندم عليه فيما بعد ، ولكن الأمير رفض العودة إلى بنين . وبعد وفاة أوچيسو سادت فترة من الفوضى ، وأوفدت سفارة إلى إيفه لطلب أمير آخر ، فأرسل أوداودا إبنا آخر من أبنائه هو أورنايان . وتزوج أورنايان بأميرة محلية وأنجب منها ولداً أسماه إيواكى ، وعندما شب إيواكى عاد أبوه إلى إيفه تاركاً إياه كاول أوبا لبنين . وفى عهده هو وخلفاؤه من بعده زاد النبلاء سلطتهم وكوّنوا إمبراطورية أوليجاركية ، فتصدى لهم إيويدو ، خامس حاكم لبنين ، وتمكن من تقليص سلطتهم . وعندما تبين له أن النبلاء المحليين بقيادة أوچياموِى يعارضون الأسرة الحاكمة فى إيفه ، قام بنقل العاصمة ، وأوقع الهزيمة بالنبلاء الساخطين ، ومنع النبلاء من حمل سيوف الدولة ، وأرغمهم على الوقوف عندما يكونون فى حضرته . وقد خلفه إبنه أوجووتا الذى كادت بنين تحت حكمه أن تكون فى حالة حرب دائمة . وفى عهده قَدِم صناع البرونز من إيفه إلى بنين .

كانت بنين حتى ذلك الوقت دولة مستقلة ، وكانت قوة النبلاء المحليين قد تحطمت . وقد نظمت المملكة على أساس سليم مكّنها من التوسع . حدث هذا فى عهد أوداجبيدو ، ففى أيامه وصل أهالى بنين حتى أكرا ليقيموا لهم مستعمرات . ودام حكمه أكثر من خمسة وعشرين عاماً ، وامتد نفوذ الأوباوات فوق مناطق واسعة من نيچيريا الحالية . بيد أنه أصيب بالعرج ، وهى عادة تفقده أهليته للحكم ، فحاول إخفاء عاهته ، واعتاد أن يحمل إلى قاعة الاستقبال ، وكان دائما أول من يصل إليها . وذات يوم اكتشف رئيس الوزراء عاهته ، فأرغم على الاعتزال . وبعد أوداجبيدو جاءت سلسلة من الحكام الضعاف ، حتى تولى السلطة إيوبارى – الذى سمى عن جدارة بالكبير – وذلك بقتل أخية الأصغر الذى اغتصب العرش . وشُغِل إيوبارى دائما بالحرب . فلم يكن له هناك فقط أعداء أقوياء فى الخارج يتعين قمعهم ، بل كانت هناك أيضا ثورات داخلية . وتم أيضا إخضاع النبلاء الذين زادت سلطتهم فى عهد الملوك الضعاف . وتحت حكم إيوبارى وصلت مملكة بنين إلى ذروة قوتها . ويشير البرتغاليون الذى زاروا بنين فى هذا الوقت إلى حاكم بنين على أنه السيد الأعلى لسبعة ملوك .

ولم يكن أيوبارى فاتحا حربيا عظيما فقط ، وإنما كان أيضا مصلحا أدخل الحفر على الخشب وأشغال العاج إلى بنين ، كما أحضر إليها إيجبو غومياغن الذى اشتهر بحق بمهارته فى الحفر على الخشب ، وأدخل الإيزيكين ، وهى آله هوائية . وفى عهده أقام الأوروبيون أول اتصال لهم مع بنين ذات الأهمية لهم بسبب إنتاجها من الفلفل . وكان من شأن النفوذ الأوروبى أن يحدث ثورة فى مجتمع المناطق الساحلية ، ولكن تأثيره فى بنين لم يكن بنفس درجته فى داهومى وأشانتى .

وبعد وفاة إيوبارى دبَّ الضعف فى أوصال المملكة ، فالاوتوقراطية التى أقامها تحتاج إلى حاكم قوى ، ولم يكن أحد ممن خلفوه حاكماً من ذلك الطراز . فقد حكم خليفته إيزوتى أربعة عشر يوماً فقط . وبعد وفاته قام الأمير أوكبامى بقتل إبن ايزوتى وزوجته ذات الحظوة كي يستولى على العرش . ولكن قسوته أرغمت الشعب على طرده ، ورفض أولووا ، الابن الثانى لإيزوتى ، العرش خوفا منه . عندئذ عرض الصولجان على إبنة إيزوتى الكبرى ، بيد أن شكوى نسائية وقفت فى طريقها . وأرسى شعب البينى فى ذلك قاعدة تقضى باستبعاد النساء من الحكم . وهكذا راح العرش يستجدى من يجلس عليه . وكان أوكبامى غير محبوب بالمرة بين النبلاء الذين آثروا بقاءه بعيداً عن السلطة العليا . وأخيراً تمكن النبلاء من إقناع أولووا بقبول التاج ، غير أن حكمه لم يدم طويلا ، وعند وفاته قرر النبلاء ، حرصاً على إبعاد أوكبامى عن العرش ، إلغاء الملكية ، وأقاموا نظاماً أوليجاركيا .

وأدى ضعف بنين إلى تعرضها للغزو ، وقام العامة الذين لم يكونوا يحبون النبلاء الكبار بدعوة أوكبامى للعودة ، وتوّجوه ملكا ، واتخذ لنفسه اسم أوزولووا . وواجهته فى حكمه مهمتان : أولاهما ، قمع النبلاء الذى زادت سلطتهم بدرجة هائلة : ثانيتهما التصدى للغزو الأجنبى . واستقر رأيه على ضرورة سحق هذه الغزو ، وبعد أن ترك عاصمته للنبلاء الثائرين خرج لمحاربة إيوو . وطال أمد الحرب دون نتيجة ، فطلب مدداً من بنين ، ولكن النبلاء لم يكونوا حريصين على

مساعدته ، ورفضوا نجدته ، فوقع أسيراً فى أيدى إيوو ، بيد أنه تمكن من الهرب ، وفى نهاية الأمر ألحق الهزيمة بمعارضيه . وكان لأوزلووا عدو خـارجى آخر ، هو زعيم الإديجا . وهنا أيضا كان النصر حليفه ، وخلال فترة حكمه اتسعت رقعة بنين بدرجة هائلة ، ولكنها حرمت من الهدوء الداخلى مثلما حرمت من السلم الخارجى ، إذ استمر يحارب جيرانه حتى مات بسهم مسموم فى موقعة إيشان .

وكان لأوزولووا ثلاثة أبناء يحقد كل منهم على الآخرين ، بيد أن أكبرهم مات قضاءً وقدراً . أما الآخران فقد ولدا فى يوم واحد من أمّين مختلفتين . وعلى الرغم من أن أروانران كان يكبر أخاه ببضع ساعات فإنه لم يكن الوريث الشرعى لأن أمه لم تخبر الأوبا بمولده قبل أم أوساوى . وهكذا أصبح أوساوى هو الوريث الشرعى . وكان أروانران شديد التأثر لأنه برغم كونه الأكبر سنا لم يكن الوريث الشرعى ، لذلك حاول أن يغتال أوساوى .

وعندما مات أوزولووا خلفه أوساوى ، وتوّج تحت اسم إيسيچى . غير أنه واجه تحدى أروانران الذى أصبح رئيساً للأودو . وكان الأودو تواقين إلى تقليص سلطة المملكة ، فناصروا ادعاءات أروانران . وفى إحدى المواقع قتل إبن أروانران الوحيد ، فانتحر أبوه غرقا من فرط حزنه عليه . واستتب السلم بضعة أشهر . بيد أن هدف الأودو كان تدمير سلطة بنين ، لذلك استمر القتال حتى تجرعوا هم مرارة الهزيمة كاملة على أيدى إيسيچى . ومع ذلك فقد تمكن حاكم الأودو من الفرار ، ولكنه طورد إلى أن أرغم على الاعتراف بسيادة الأوبا .

وإيسيچى هو المسؤول عن حرب الإيدا (١٥١٥ - ١٥١٨) ذات الدوافع الغريبة . فقد اعتاد أوليبا ، وهو رئيس قبيلة مجاورة ، أن يزهو بأن زوجته ليست جميلة فقط ، وإنما عفيفة أيضا . وعلى الفور شرع إيسيچى بهمة زائدة فى إثبات أن السيدة ، ولو أنها جميلة ، ليس لديها كل هذا القدر من الفضيلة الذى يزعمه زوجها . وأرسل واحداً من أكثر حُجّابه وسامة كى يوقع بها ، ووفق الحاجب فى مهمته بعد أن قدم لها هدايا ثمينة . ولم يقنع الأوبا بذلك ، بل أبلغ

الأمير منافسه بأنه زوج إمرأة فاسقة . وأسر أوليبا الأمر فى نفسه ، وأخذ يحيك المؤامرات مع الإيدا الذين قاموا بمهاجمة بنين . ولكنهم أخفقوا فى تحقيق أى نصر .

وخلال هذه الفترة تعرضت بنين لتغيرات كثيرة . فقد أسفرت غزوات حكامها منذ أيام إيويارى عن إخضاع عدد كبير من القبائل الخارجية التى امتصت بالتدريج . كما جلبت الغزوات عدداً كبيراً من الرقيق إلى بنين التى أصبحت مركزاً تجارياً كبيراً احتشد فيه التجار الأجانب . وكان إيويارى أول حاكم يقيم اتصالاً مع الأوروبيين . فقد قام روى دى سيكوير بزيارة بنين فى عام ١٤٧٢ ، ومنذ ذلك الوقت حتى منتصف القرن الثامن عشر كان الأوروبيون على اتصال مستمر بها . وكانت بنين أكبر مورِّد للرقيق الذين يؤسرون من قبائل الإيبو ، وقد رحب إيويارى بالأوروبيين لا إيمانا بدينهم ، وإنما بسبب البنادق التى يستطيع الحصول عليها منهم .

وفى أيام إيسيچى أصبح نفوذ البرتغاليين سائدا فى بنين . وقد أوفد إيسيچى مبعوثاً إلى لشبونة ، وعند عودته صحبه عدد من المبشرين . وفى عام ١٥٤٠ أرسل إيسيچى إلى ملك البرتغال صليباً من النحاس . وقد كتب دوارت بايرز إلى الملك ميشيل فى ٢٠ أكتوبر ١٥١٦ يقول « إنه صحيح تماماً أنى صديق لملك بنين ، وذلك لأن ملك بنين يصادق كل من يبلغه شيئا طيباً عن سموكم . ونحن نتناول الطعام مع إبنه . وقد ابتهج ملك بنين كثيراً بوصول المبشرين ، وخرج المبشرون مع الملك إلى الحرب ورافقوه عاماً بأكمله ، ولم يكن باستطاعة الملك أن يفعل شيئا حتى وضعت الحرب أوزارها ، إذ كانت لديه رغبة فى سِلْم « السر العظيم » . وقرب نهاية العام ، فى شهر أغسطس ، أمر الملك إبنه وإثنين من نبلائه العظام أن يتعمدوا ، كما بنى كنيسة فى بنين . وقد تعلموا القراءة ، وفعلوا ذلك جيداً .»[٩] . ووجد الزوّار الإنجليز بدورهم أن الملك يتحدث البرتغالية بطلاقة .

---

(٩) للاطلاع على النص الكامل (بالإنجليزية) لخطاب دوارت بايرز إلى ملك البرتغال فى ٢٠ أكتوبر ١٥١٦ ، انظر ، بازيل دافيدسون ، The African Past ، مكتبة بنجوين الإفريقية ، الصفحتين ١٩٠ و ١٩١ .

إن الفائدة الرئيسية التى عادت على بنين من اتصالها بالأوروبيين هى حصول حكامها على البنادق التى تيسر لهم غزو القبائل الداخلية . وفى عهد أورغوجبوا ، خليفة إيسيچى ، جردت حملة لغزو لاجوس إحدى مدن اليوربا . بيد أن الرؤساء ذوى الأغطية البيضاء على رؤوسهم - حكام لاجوس التقليديين - ظلوا على قوتهم ، إذ أن التغيير فى السلطة العليا لم يكن له أثر مادى على مركز لاجوس .

وعندما كان أورغوجبوا يغزو لاجوس ، تآمر عليه النبلاء وحاولوا أن يستبدلوا به ولى العهد . وتبين أورغوجبوا من التحقيق الذى أجراه أن ولى العهد ليس ملاماً ، ومع ذلك ألغى لقبه . وشن خليفته اهنجبوندا حربا مظفرة ضد الأويو . وتم تثبيت الحدود بين بنين وأويو على أنها بلاد إيكيتى . وكان خلفاؤه ضعافا ، لذلك حدثت ثورات مستمرة بقيادة الأمراء الذين تجرى فى عروقهم الدماء الملكية . وظل لبنين مظهر الدولة العظيمة ، وكانت فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر على درجة من القوة تكفى لإرغام إباداان على الجلاء عن إيكيتى .

أشانتى[١٠]

كانت أشانتى وداهومى ، من نواح كثيرة ، مختلفتين عن بنين . فبينما كانت بنين من الناحية السياسية ، على غرار أويو ، أوليجاركية لا يكف النبلاء بداخلها عن التآمر ضد الملك ، كانت أشانتى وداهومى دولتين استبداديتين ، كما كانتا منظمتين من أجل الحرب وليس من أجل التجارة . لقد كانتا دولتين داخليتين شاغلهما الأساسى هو الوصول إلى الساحل لإقامة علاقات مباشرة مع التجار الأوروبيين بحيث تستطيعان الحصول على البنادق والبارود بثمن رخيص ، وبيع الرقيق دون وسطاء . ذلك أن الوسطاء يمتصون غالبية الأرباح التى تحققها التجارة .

---

(١٠) الأشانتى : ينتمون إلى أسرة الأكان (انظر الحاشية التالية) . شكلوا آخر وأكبر مملكة من ممالك الأكان . يتكون منهم أحد الأقسام الإدارية الثلاثة الرئيسية فى ساحل العاج (كوت دى ديڤوار حاليا) . اتخذ ملكهم اسم « أشانتيهين » وعاصمتهم كوماسى .

واتبعت داهومي وأشانتي هذه السياسة بإصرار شديد ، واستطاعتا في غضون القرن الثامن عشر بناء دولتين بمقدورهما الصمود في وجه الغارات .

ويزعم الأشانتي ، على غرار القبائل الأخرى المنتمية إلى مجموعة الأكان(١١) ، أن لهم أصلاً شمالياً . وتقول أساطيرهم إنهم قدموا من الصحراء ، بل إن الأكان حتى في الوقت الحاضر يزعمون نوعاً ما من القربى لشعب جنى . وقد انتشرت قبائل الأكان المختلفة على امتداد منطقة تشكل اليوم دولتى غانة وساحل العاج .

وكان النمو في أشانتي بطيئاً مقارنة بالدول القبلية المحبة للحرب ، وكانت دولة داخلية ليس لديها شريط ساحلي ، على حين أن الدول الواقعة على الساحل هي التي دخلت في اتصال مع التجار الأوروبيين ، وتستخلص مزايا التجارة ، كما تقوم بدور الوسيط وتتمتع باحتكار فعلي لتوريد الرقيق . ومعنى هذا أن ما كان الأوروبيون يبيعونه من بنادق وبارود من أجل الحصول على الرقيق إنما يدعم تلك الدول التي هي على اتصال مباشر بهم . وهكذا أدى التدخل الأوروبي إلى الإخلال بتوازن القوى على الساحل . فقد زاد رؤساء المناطق الساحلية من قوتهم ، ومن ثم قدرتهم على المساومة ، على حساب رؤساء الداخل . وإذا كان ذلك لم يسفر عن سيطرة سياسية ، فمرجعه حقيقة أن اهتمام هؤلاء الرؤساء كان ينصب على التجارة في المقام الأول ، وأنهم كانوا يسيطرون سيطرة فعالة على تجار المناطق الداخلية التي تنقل بحراً . وقد سيطرت كالابار(١٢) وبراس(١٣) وغيرهما من الإمارات الأوليجاركية الساحلية على تجارة المناطق الداخلية .

---

(١١) الأكان : أهم مجموعة عرقية في غرب إفريقية وموطنها ساحل العاج . كانت هجرتهم من الشمال عملية طويلة الأمد بدأت حوالي القرن الثاني عشر واكتملت حوالي عام ١٦٠٠ .

(١٢) كالابار : مدينة وميناء بالقرب من خليج غينيا . وهي الاسم الذي أعطاه المستكشفون البرتغاليون وقت وصولهم في القرن الخامس عشر للقبائل التي تقطن ساحل غينيا . كان أهل كالابار يعملون كوسطاء بين التجار البيض على الساحل وقبائل الداخل ، واشتهرت بينهم جمعية الإيجبو السرية .

(١٣) براس : ميناء وموطن أوروبي على نهر براس أحد أفرع دلتا نهر النيجر . أهالية يعملون وسطاء بين الميناء والداخل ، ولكن التجار الأوروبين قيدوا نشاطهم خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر . كانت البضائع تصل إلى الميناء على قوارب نهرية لتنقلها السفن بحراً . قد يكون أسمها Brass مأخوذاً من الأدوات والقضبان النحاسية التي كان التجار الأوروبيون يبادلونها مقابل الرقيق وزيت النخيل .

ولم تكن أشانتى فى موقع يمكنها من منازعة هذه الهيمنة المتفوقة . فقبل أن يستقر الأوروبيون كانت قبيلتا مامبروسّى[14] وداجومبا[15] هما القبيلتان الأكثر قربى لدول السودان ، ولديهما خيالة ودروع تهيمن على المنطقة . وبعد وصول الأوروبيين أصبحت الدولتان السائدتان هما الدنكيرا[16] التى تتحكم فى مناجم الذهب ، والأكامبو التى توفرت لها هيمنة كبيرة بفضل موقعها الجغرافى على امتداد طريق التجارة من الشمال إلى الجنوب . ويقدرٍ من تنظيم القبائل المجاورة فى دولة واحدة ، ونتيجة لإقامة المراكز التجارية على الساحل ، تمكنت أشانتى من أن تحتل المكانة التى تمتعت بها مامبروسّى وداجومبا ذات يوم ، والتى تسربت فيما بعد إلى الأكامبو والدنكيرا .

ومن حسن طالع كوماسى أن ظهر بها فى أكثر الفترات حرجا فى تاريخ أشانتى زعيمان بارزان حقاً هما أوزاى توتو وأوكورفو أروكويى (الكاهن أروكويى)[17] . وكان النجاح الذى حققه أوزاى توتو هو الذى أرسى أسس دولة أشانتى ، بل إن أوكوروفو أروكويى الكاهن الكبير ورئيس وزراء كوماسى ، كان حتى أكثر أهمية من أوزاى توتو . فدهاؤه السياسى هو الذى بنى فى الحقيقة دولة قوية على أساس فتوحات أوزاى توتو .

---

(١٤) مامبروسّى : قبيلة فى غرب توجو .

(١٥) داجومبا : اسم أطلقه الهوسا على الداجباميا فى شمال ساحل العاج ، الذين قد يكونون من الأصل العرقى للموسى ، إذ يشتركون معاً فى نفس الملامح الجسدية واللغوية والاجتماعية . كانت لهم ذات يوم مملكة قوية حاربت ضد الأشانتى فى القرن الثامن عشر . وهم قوم محاربون ومزارعون ، ويشتغلون برعى الماشية والتجارة . بينهم نسبة ضئيلة من المسلمين .

(١٦) الدنكيرا : كانوا من دول الأكان القوية فى الجنوب الغربى من أشانتى ، وكانت ولايات الأشانتى الصغيرة تدين لهم بالولاء .

(١٧) حوالى منتصف القرن السابع عشر أقام حكام بعض ولايات الأشانتى تعاونا بقيادة رؤساء كوماسى فى محاولة لقمع انتهاكات الدوما . وعندما أصبح أوزاى توتو ملكا (كوماسيهين) فى عام ١٦٩٧ تمكن هو وكاهنه أروكويى من توسيع هذا التحالف ، مما ترتب عليه إيقاع هزيمة حاسمة بالدوما . ثم عقدا العزم على تحرير الأشانتى من التبعية للدنكيرا ، وذلك بتحويل التحالف إلى اتحاد عسكرى بإمكانه إقامة جماعة روحية للأشانتى بأكملهم يستعاض بها عن الوحدة الروحية الخاصة بكل ولاية . (الدوما عشيرة أخرى من الأكان) .

وفى نهاية القرن السابع عشر كان الساحل مقسماً إلى إمارات صغيرة تشن الحروب باستمرار ضد بعضها بعضا . وفى هذا الصدد لم تكن أشانتى تختلف عن غيرها . فالغرض من هذه الحروب لم يكن إقامة مملكة قوية عن طريق تدمير الممالك الأخرى ، وإنما حمل الملوك المنافسين على الاعتراف بسيادة الفاتح . وفى كل مرة تعرضت فيها القوة السائدة للتقهقر ، كانت الدولة التابعة تشهر السلاح فى وجهها وتمتنع عن دفع الجزية ، ومن ثم لابد أن تُشَنَّ حملة جديدة . وقد رأى أروكويى أنه ما دام الأشانتى شعبا واحدا ، فإن الحروب بين الأشقاء ينبغى تجنبها ، ولذا فقد عقد العزم على توحيد قبائل الأشانتى حول العرش الذهبى[١٨] الذى تتجسد فيه روح الأشانتى ، فهذا العرش هو الذى صعد عليه مؤسس شعب الأشانتى إلى السماء . ولم يجلس عليه أحد قط ، بل يستعمل فقط فى المناسبات الشعائرية . كان العرش فى تصور أروكويى هو الحاكم الحقيقى لشعب الأشانتى ، وكان باستطاعة كل رئيس وعشيرة تقديم فروض الطاعة للعرش دون أى شعور بأن كرامته قد مُسَّت . وهكذا يكون أروكويى هو الشخص الذى أعطى الأشانتى إحساسا بالوحدة ، ومن هنا يمكن القول إنه كان بمثابة « الأب » لشعبه .

وبفضل النظام الذى أدخله أروكويى أمكن صَهْر الأشانتى فى أمة واحدة . وتقول الأساطير المحلية إن أوزاى توتو قد أصدر مرسوما عالياً بأنه يتعين على أى عضو جديد ينضم إلى الاتحاد ألا يبوح بتاريخه القبلى السابق حتى وإن تعرض للموت . فتاريخه ينبغى أن يبدأ منذ يوم انضمامه إلى الاتحاد . وكانت الأعراف المحلية لمجموعات الأشانتى المختلفة موضع احترام ، وقد أبقى على سلطة الرؤساء ، وأصبحو أعضاء فى مجلس رؤساء الأشانتى . ولم يكن من

---

(١٨) العرش الذهبى : تقول الأساطير إن أروكويى قد أحضر من السماء عرشاً خشبياً مزيناً بالذهب ، وذلك قبل انعقاد اجتماع كبير الرؤساء والشعب ، وإن هذا العرش هبط برفق على ركبتى أوزاى توتو . وأعلن أروكويى أن العرش يحتوى على روح شعب الأشانتى بأسره ، وأن قوة الأمة تتوقف على صونه . وقد أصبح لكل فرد من الأشانتى ولاءان . أحدهما للعرش دولته ورئيسه ، والآخر للعرش الذهبى وحارسه الذى هو الآن الأشانتيهين وكذلك الكوماسيهين . وكان العرش الذهبى قداسة دائمة خاصة به ، كما كانت له أسبقية على الأشانتيهين نفسه .

اليسير أن تنجح هذه السياسة فى الهيمنة على الدنكيرا أو الجيامن أو الاكوابيم[١٩]، فهؤلاء لهم ثقافاتهم الخاصة المميزة ، كما كانوا يتطورون بدورهم إلى مرحلة الأمة على غرار الأشانتى . وربما كان من الأيسر لو أن الأشانتى طوّروا نظاماً لإدارة المقاطعات به حكام مسؤولون أمام كوماسى ، وذلك بدلا من الإبقاء على الرؤساء المحليين فى السلطة . فقد احتفظ هؤلاء الرؤساء بسلطتهم على قبائلهم كاملة غير منقوصة ، وكان من شأن أى ضعف يطرأ على سلطة كوماسى وقوع ثورات هناك وهناك . كما أن أشانتى كانت محاطة بدول تم غزوها ، ولا تُكِنُّ أية محبة لكوماسى ، وتتحين الفرصة للإطاحة بالدولة الغازية . وسنرى فيما سيأتى أنه مع نمو سلطة الإنجليز كانت هذه الدول أول من تخلى عن أشانتى .

وبينما كان أروكويى هو مؤسس وحدة الأشانتى ، فإن دور أوزاى توتو ، الفاتح العظيم ، لا ينبغى التهوين من قيمته ؛ فلولا فتوحات أوزاى توتو لظلت خطة أروكويى مجرد أحلام . كما أن أوزاى توتو قد أرسى الأساس الذى بنى أروكويى فوقه . وقد وجهت أولى حملات توتو الرئيسية ضد الجومبا . وفى أول هجوم له رُدَّ على أعقابه بعنف . عندئذ تبين له أنه ما لم تتوحد قوة شعب الأشانتى ضد الجومبا ، فلن يتيسر سحقهم . وصنع أروكويى مزيجا سحريا حمل الأشانتى على أن يهبوا حياتهم للصراع من أجل النصر . ودحر الجومبا . عند هذا المنعطف أظهر أروكويى حنكته السياسية ، فقد أوجد « العرش الذهبى » الذى أصبح منذ هذه اللحظة الرمز لوصول الأشانتى إلى مرحلة الأمة .

وقد كرس أروكويى وأوزاى توتو جل وقتهما لتدعيم الحلف عندما تعين على الاتحاد مواجهة التهديد الأكبر الموجّه من الدنكيرا المتحكمين فى مناجم الذهب ، والذين يتحتم أن تمر تجارة أشانتى عبر أراضيهم . وقد أرغمت المصالح الاقتصادية أشانتى على أن تبحث لها عن طريق إلى الساحل ، مما أدى إلى اصطدامها بالدنكيرا . وأخفق الدنكيرا فى اتخاذ الحيطة اللازمة . ولابد أنهم

(١٩) الأكوابيم : من مجموعة أمم الأكان التى تعيش فى شمال ساحل العاج . وتتحدث هذه المجموعة لغة التوى التى يتحدث بها الأشانتى أيضا .

أدركوا أن الأشانتي يجدون من الصعب الاعتماد عليهم في الحصول على معدات الحرب ، وأنهم يحاولون حل هذه المشكلة بالقوة . كما كان عليهم تقليص قوة الأشانتي بمنع بيع الأسلحة لهم ، ولكنهم بدلا من ذلك سمحوا للأشانتي بتكديس كميات كافية من السلاح . وما إن فعلوا ذلك حتى قام أوزاي توتو بإرسال الملكة الأم[٢٠] ، وهي امرأة ذات جمال باهر ، إلى أراضي العدو . ورآها ملك الدنكيرا في مكان السوق ، وغرق إلى أذنيه في حبها ، فاختطفها واستثير أوزاي توتو ، بل شعب الأشانتي كله ، غضبا للمهانة التي لحقت بهم . ومات حاكم الدنكيرا ، وعامل خليفته نتون جيكاري شعب الأشانتي بازدراء شديد ، حتى لقد طالبهم بإتاوات متزايدة ، وكذلك بالزوجة المفضلة لدى كل رئيس من رؤسائهم .

وأرغم الأشانتي على أن يعلنوا الحرب قبل أن تكتمل استعداداتهم ، وسار جيش الدنكيرا إلى أشانتي ، وأصبح على مسيرة عشرة أميال من كوماسي. وفي أدنكو أبدى الرئيس مقاومة شديدة بجيشه الصغير ، وأوقف زحف الدنكيرا سبعة أيام ، وهي فترة سمحت للأشانتي بتعبئة قواتهم ، وفي فايازي أوقعوا بالدنكيرا هزيمة ساحقة . وسقط حاكم الدنكيرا في ميدان القتال . عندئذ صمم أوزاي توتو على سحق الدنكيرا وأخذ يتقدم داخل أراضيهم . ولحقت بالدنكيرا هزيمة ثانية على ضفاف نهر أوفين ، وضمت الأرضي الواقعة على ضفته اليسرى إلى أشانتي ، وطرح أتباع الدنكيرا ولاءهم ، واكتمل النصر للأشانتي . ومن بين الغنائم التي وقعت في أيديهم المذكرة التي وافق الهولنديون بمقتضاها على أن يدفعوا إيجار قلعة المينا للكومنْدا (إحدى قبائل المنطقة) . ومن الكومندا انتقلت المذكرة إلى الدنكيرا ، ومنهم إلى الأشانتي .

وعلى الرغم من هزيمة الدنكيرا ، فإن أوزاي توتو كان عليه أن يحارب آخر حلفائهم ، ومن بينهم الأكيم . فقد أصبح الأكيم ولايات تابعة ، ولكن سرعان ما

---

(٢٠) الملكة الأم : تسمى الماجيرا لدى البرنو بلغة الكانوري ، كما تسمى كانديس في مروي ، حيث كانديس كلمة زغاوية تعني الأم . وليس من الضروري أن تكون الملكة الأم هي الأم الحقيقية للملك . وكانت تتمتع بامتيازات كثيرة وسلطات واسعة في الحكومة .

نشأت صعوبات بخصوص دفع الجزية . لذلك قرر أوزاى توتو فى عام ١٧٣١ غزو مملكتهم ، وسمح الأكيم للأشانتى بعبور نهر برا[٢١] ، وعندئذ نصبوا له كمينا . وأصيب أوزاى توتو بسهم وهو فى سريره ، واختفى جسده فى النهر ، وقتل الرؤساء الذين صحبوه عن آخرهم . عندئذ واجه الأشانتى أزمة ، ولكنهم خرجوا منها منتصرين بفضل الأساس المتين الذى أرساه أروكويى .

وأدت الحملة الفاشلة ضد الأكيم إلى انتفاضة القوى التى أخضعها الأشانتى لتوهم . ومع ذلك تمكن **أوكوبو وارى**[٢٢] ، الذى خلف أوزاى توتو كحاكم للأشانتى ، من إخضاع الأكيم والاستيلاء على مذكرات إيجار ثلاث قلاع فى أكرا . وفى عهده امتدت سلطة الأشانتى إلى بونى ، وهزم **البونيتشين** ، وأرغم على الاعتراف بسيادة **الأشانتيهين**[٢٣] . وعند موت أوكوبو وارى ثار الأكيم مرة أخرى بعد أن وُعِدوا بتأييد من داهومى ، ولكن الأشانتى أخضعوهم قبل أن يتمكنوا من الاستفادة الفعالة من هذا التأييد . وانتهج **أوزاى كوچو**[٢٤] ، الذى خلفه على العرش فى عام ١٧٥٢ ، سياسة توسعية . وحدث أن قُتل بعض التجار من الأشانتى فى أراضى الباندا ، وعندما أعلنت أشانتى الحرب على الباندا ، انضمت جيامن ووسّاو ودنكيرا وكونج إلى الباندا . واستطاع الحلفاء مقاومة الأشانتى لبعض الوقت ، ولكن أشانتى انتصرت فى النهاية . وسرعان ما تمكنت أشانتى ، مستغلة الخلاف الذى نشب حول عرش داجومبا ، من إخضاع تلك الدولة لسيطرتها . بيدأن أوزاى كوچو ، على غرار من سبقوه ، كان فى متاعب

---

(٢١) برا : أحد أنهار ثلاثة فى ساحل العاج تخترق الخط الساحلى الرملى المنخفض لتصب فى البحر . والنهران الآخران هما الفولتا وأنكوبرا .

(٢٢) أوكوبو وارى : حكم حوالى الفترة ١٧٣١ - ١٧٤٢ ، أدخل ولايات الأكيم الشمالية والسيفوى فى اتحاد الأشانتى .

(٢٣) البونيتشين : ملك البونى ؛ الأشانتيهين : ملك الأشانتى .

(٢٤) أوزاى كوچو : حكم فى الفترة ١٧٥٢ - ١٧٨١ ، ولذلك فلا يمكن أن يكون قد خلف أوكوبو وارى ، ولابد أن يكون قد خلفه حاكم آخر أو أكثر .

مستمرة مع الدول المجاورة . وكان الأكيم مرة أخرى هم العدو الرئيسى ، ولكنهم فى هذه المرة تحالفوا مع أسّين ذات الاتصال الوثيق بالفانتى[٢٥] . وطلب أوزاى كوچو من الفانتى أن يقفوا على الحياد ، مغرياً إياهم بقدر لا يستهان به من الذهب . وأخذ الفانتى النقود ، ولكنهم لم يتعففوا عن الإخلال بالوعد ، وأقسم أوزاى كوچو أن يلقن الفانتى درساً . وقد أوفى بقسمه فى عام ١٧٦٥ ، إلا أنه لم يكن باستطاعته شن حملة ضد الفانتى ، ومات فى عام ١٧٨١ . ومنذ أن مات أوزاى كوچو إلى أن أصبح أوزاى توتو كوامينا أسيب[٢٦] حاكماً لأشانتى فى عام ١٨٠٠ تولى السلطة فى أشانتى حكام صغار تمتعت أشانتى فى عهدهم بفترة من السلم . وفى عهد أوزاى كوامينا بدأت فترة جديدة فى تاريخ أشانتى ، إذ اشتد الاندفاع نحو الساحل ، وسرعان ما دخل الأشانتى فى نزاع مع الفانتى ومؤيديهم الإنجليز .

داهومى

كانت داهومى المملكة التى جذبت أعظم قدر من الاهتمام فى القرن التاسع عشر . فنساؤها المحاربات ، وبسالة الفون[٢٧] الحربية ، والتنظيم الإدارى للمملكة ،

---

(٢٥) الفانتى : شعب يعيش فى كوت ديفوار على ساحل الرأس – منطقة إلمينا – سيكوندى ، ويتحدث لغة قريبة من لغة الأشانتى ، ولديه تنظيم مماثل لتنظيمهم ، وإن كان أقل ولعاً بالحرب ، وربما يكون من نفس أصلهم العرقى .

(٢٦) تقول الموسوعة البريطانية إن إوزاى بونسو تولى حكم الأشانتى فى الفترة ١٨٠٠ – ١٨٢٤ . ولذلك قد يكون أوزاى بونسو تسمية أخرى لأوزاى توتو كوامينا أسيب . قاد حملة فى الفترة ١٨٠٦ – ١٨٠٧ لغزو الفانتى وصلت إلى الساحل ، وأرغمت قادة القلاع الإنجليزية والهولندية على الاعتراف بسلطة الأشانتى على الفانتى ، وقبول الأشانتى كأصحاب لهذه القلاع . كما قام بغزوات أخرى للدول الساحلية فيما بين عامى ١٨٠٨ و ١٨١٦ .

(٢٧) قسمت مملكة ألاّدا بعد وفاة أحد ملوكها بين أبنائه الثلاثة ، وأسس ثالثهم ، وهو تاكودونو أو داكو ، مملكة داهومى فى الشمال . وتقول الأساطير إن تاكودونو ذهب إلى «دان» ملك شعب «الفون» وأرهقه بمطالب كثيرة ضاق بها ، فتساءل عما إذا كان لدى تاكودونو « معدة لا تشبع أبداً» فهاجمه تاكودونو وقطع رأسه وألقى بجثته فى أساس القصر الذى كان يبنيه . ومن هنا جاء اسم دان هومى Dan-homey (أو داهومى) ، أى معدة دان . وقد أعلن تاكودونو ملكاً «للفون» ، وأسس الأسرة المالكة التى حكمت داهومى حتى نهاية القرن التاسع عشر .

ورقىّ أعرافها ، كل ذلك أثار فضول الرحالة الأوروبيين . وتعد داهومى من نواح كثيرة المثال الكلاسيكى للدولة الحربية الإفريقية . وقد أسس آخرون ، مثل شاكا[٢٨] (مؤسس دولة الزولو[٢٩]) ممالك حربية ، ولكنها كانت ممالك سريعة الزوال ، فى حين أن داهومى ظلت طيلة قرون ثلاثة ، تحت حكم ملوكها من الفون ، تنتهج سياسة قوامها التوسع . ويندر أن يوجد فى أى مكان فى العالم شعب أخضع كل شئ فيه لصناعة الحرب ، حتى إسبرطة القديمة أو بروسيا فى العصور الوسطى ، بمثل ما فعلت داهومى . فقد كان كل شيئ فيها ينظم على أساس الحرب ، فالحرب هى منظِّمة الخَطْو . وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حذت حذو داهومى كل دولة كبيرة على الساحل تقريباً ؛ مثل إبادان وأشانتى وغيرهما .

وعواقب هذه السياسة يمكن تصورها جيداً . فهى تعنى الإهمال التام للزراعة ، وتناقص السكان بسبب ماترتب على غزو داهومى من دمار واسع النطاق وغارات من أجل الرقيق ، وبسبب استدعاء النساء للخدمة فى الجيش فى أكثر سنوات عمرهن خصوبة . وكان جيش داهومى قوة حسنة الانضباط والتنظيم ، وعلى الرغم من أنه لا يمكن مقارنة أفراده بجنود أوروبا المدربين ، فإنه كان القوة الأكثر تسليحا والأفضل تدريبا فى غرب إفريقية . ومع ذلك لم يكن النجاح حليف سياسة داهومى ، فسياستها الحربية لم تكن مرتبطة بأى مقصد سياسى . لقد كان الفون قوة يخشى بأسها ، ولكنهم أخفقوا فى خلق الامبراطورية التى تؤهلها لهم بسالتهم الحربية . وربما أمكن أن نلمس ذلك على أفضل وجه لدى مقارنتهم بالأشانتى .

---

(٢٨) شاكا : فر «شاكا» من موطن والده سنزانجاكونا (١٧٥٧-١٨١٦) ، وفى موطنه الجديد نال إعجاب ديجيسوايو ، وهو زعيم لثلاثين رئيساً ، وقيل إنه دبر لموت سنزانجاكونا ولولاية شاكا عرش الزولو برغم أنه لم يكن الوريث الشرعى . وقد بدأ فى عام ١٨٢١ غزو ناتال ، وأفرغها من جانب كبير من سكانها ، وتمكن بقسوة بالغة من بناء إمبراطورية ، حتى لقب بأتّيلا إفريقية نسبة إلى أتّيلا ملك الهون العظيم . كان شاكا أول من دخل فى اتصال مع الأوروبيين فى عام ١٨٢٤ .

(٢٩) الزولو : يقطنون جنوب شرق إفريقية ، ويكوِّنون القسم الشمالى الشرقى من مقاطعة ناتال فى جنوب إفريقية . وهم إحدى قبائل مجموعة النجونى من شعب البانتو . وتقول اسطورة الزولو ، التى تعززها روايات الرحالة ، إنهم قبيلة مستقلة استقرت فى وادى نهر ميلاوسى الأبيض عند نهاية القرن السابع عشر . يشكلون الآن عصب حركة إنكاثا فى جنوب إفريقية ، التى تتخذ موقف العداء من المؤتمر الوطنى الأفريقى .

وربما كان أساچا الكبير أكثر توفيقاً من أوزاى توتو فى هزيمة أعدائه . ولكن بينما كان يقف إلى جانب أوزاى توتو واحد من أكثر رجال الدولة الإفريقيين حنكة ومقدرة ، فإن أساچا كان عليه أن يعتمد على القوة الحربية وحدها . وقد كانت محاولة أروكويى لصهر وحدة عشائر الأشانتى ودمجها فى أمة واحدة عن طريق « العرش الذهبى » حركة رائعة جديرة برجل دولة فى إفريقية القرن الثامن عشر . فضلا عن ذلك لم يؤد تفوق الأشانتى فى السلاح ، ولا براعتهم الحربية ، إلى إغفال أن إلهة الأرض هى أكثر مصادر الثروة خصوبة . فعندما تدور رحى الحرب لم يكن ممكنا حدوث مخالطة جنسية أو زراعة . لذلك لم يكن الأشانتى يخوضون حرباً إلا بعد التروى اللازم ، وكانت الحرب لديهم وسيلة لغاية أكثر منها غاية فى ذاتها .

ولكن على الرغم من أن الفون أخضعوا كل شيئ للحرب ، فإنهم وُهِبو أيضا فن إدارة شؤون الدولة . والحقيقة أنهم بنوا أمة عن طريق الحرب ، غير أنهم دعموا فتوحاتهم بسياسة حكيمة ، وأدخلوا آلهة الشعوب المقهورة فى معبدهم الخاص الذى يضم آلهتهم ، وبذلك أمكنهم امتصاص هذه الشعوب . غير أنه مورست رقابة حازمة على الكهنة الذين يعدون بعد الملك أقوى هيئة فى المملكة . فهؤلاء يجرى تدريبهم فى الأديرة[٣٠] ، وأعطاهم ذلك شعوراً بالتضامن والوحدة جعل منهم قوة كبيرة . وعلى أية حال فهم يخضعون لسلطة الحاكم ، وذلك لأن الدين فى نظر ملوك الفون هو آلية إدارية ينبغى استخدامها لصالح الدولة . والوجه الأكثر أهمية لدين داهومى هو عبادة السلف . ويحتل توواكيو ، الجد الأعلى للقبيلة ، مكانة خاصة . والملك هو نفسه الكاهن الأكبر ، وقد استخدم الداهوميون عبادة السلف كوسيلة لدعم النسيج الاجتماعى ، ويعزز الاسلاف المؤلّهون سلطة الحاكم الذى يكتسب الأولوهية عند وفاته .

---

(٣٠) تستمر عملية التدريب على الكهانة فى الأديرة فترة سنتين أو ثلاث سنوات يفرض فيها على المتدرب مراعاة العفة التامة والامتناع عن شرب الخمر والشره فى الطعام أو الاشتباك فى شجار . ويعيش المتدرب تحت رعاية كاهن ، وفى السنة الأولى يلقَّن شعائر التطهر وينام فى أحراج معمورة بالأشباح والأطياف ؛ وفى الثانية يتعلم الطلاسم والتمائم والمحرمات الدينية ؛ وفى الثالثة العرافة والكهانة .

وكانت « الشعائر » كبيرة الدلالة في سياسة داهومى ، فهى الوسيلة التى يستشار بها الأسلاف . وفى كل قضية يعتقد فيها أن رأى الأسلاف جدير بأن يؤخذ فى الاعتبار يوفد رسول إلى السماء . وفى فترات ثابتة خلال السنة تقام « شعائر مهيبة » تقطع فيها رقاب آلاف الناس[٣١] ، وهكذا فإن هذه الشعائر التى استرعت كثيراً أنظار الرحالة الأوروبيين إنما هى جزء من نظام للإبقاء على السلطات الملكية ، وذلك بأن يعلن للشعب أن الأسلاف استشيروا وأنهم وافقوا على السياسة .

والملك هو أب العالم أو سيده ، وبناته يتزوجن بكبار الضباط فى الدولة ، ولكن الأميرات سواء كن متزوجات أو غير متزوجات - ما لم تكن متزوجات برجال من طبقتهن - لديهن الحرية فى اختيار العشيق الذى تهواه قلوبهن . والملك يحتفظ بحريم كثير ، ولكن هؤلاء مجرد نساء البيت ، أما الزوجات الملكيات فيعرفن بزوجات « البانثر »[٣٢] ، ويعتبر النظر إليهن انتهاكا للحرمات ، وعندما يتجولن يقرع جرس حتى يبتعد المارة عن طريقهن .

وكانت الإدارة المركزية فى داهومى أمراً جديراً بالملاحظة . فقد نظمت كدولة حربية استبدادية . ولكن هذه الاستبدادية كانت نظاماً مقبولاً بسبب اشتباك الفون فى صراع ضد الشعوب المجاورة . وفى البلاط كان أمراء الأسرة الملكية يستطيعون التحدث دون قيود ، والملك ينصت إلى آراء موظفيه المتمرسين ، وقد قسمت المملكة إلى مقاطعات يخضع كل منها لحاكم من قبله يطلق عليه الكابوسير . والكابوسيرات هم القضاة الرئيسيون ويتمتعون بسلطات كبيرة . أما البعض الآخر ، مثل يوجن وزير الملك فى وايداح ، فهم أعين الملك وآذانه ، ويفرضون رقابة حازمة على التجار الأوروبيين ، ولكنهم لم يكونوا مستبدين صغاراً ، فأى شخص يمكنه الاستغاثة بالملك من تجاوزاتهم . فضلا عن ذلك يحتفظ الملك باتصالات مستديمه مع الحكام عن طريق رسل يقيمون على مسافات منتظمة .

---

(٣١) كان من المتبع بين قبائل الأشانتى والفون عند موت الملك أن يحنط جثمانه ، وأن يذبح عدد من الناس ليقوموا بخدمته فى الدار الأخرى ، فالسلف من ملوكهم يأخذون فى أعينهم صفة الآلهة العظام الحماة لمصالحهم .

(٣٢) النمر أو الكوجر (الأسد الأمريكى) .

كان الفون الذين أقاموا هذه المملكة الشهيرة محصورين أول الأمر فى هضبة أبومى ، تحدهم من الشمال جبال سافالو ، أما من الجنوب فمملكة لم تدخل فى اتحاد أدچا أو پورتو نوڤو . ولكن فيما عدا الناجو ، إلى الغرب منهم ، وهم شعب من اليوربا ، فإنهم ينتمون جميعاً إلى الإيوى ، ومَهْد المملكة هو اللادّاح ، أو أرداح . فقد كانت أرداح بالفعل مملكة مستقرة فى القرن الخامس عشر ، وقد أشار إليها ليو الإفريقى . وأشار ميركاريتور فى عام ١٥٦٠ وبلفارتيت فى عام ١٥١٥ إلى مملكة دامى حول أرداح . وكانت أرداح تعتبر مملكة هامة ، فقد أوفدت فى عام ١٦٥٨ مبعوثاً إلى فيليب الرابع ملك أسبانيا ، وآخر إلى فرنسا فى عام ١٦٧٠ . وتقول الروايات إن شعب أرداح قدم من أجاسون ، وحوالى عام ١٦٢٠ مات ملكها داج – باسرى غينو تاركاً المملكة لأبنائه الثلاثة الذين توصلوا إلى اتفاق بأن يحكم أكبرهم مكان أبيهم ، وبأن يحاول كلا الأخوين الآخرين إقامة دولة خاصة به . واتجه داكو ، الأخ الأصغر ، نحو الشمال واستقر بين كينا وأجبونى ، فى مكان يتبع رئيساً محلياً يدعى أوِيسو سمح للأمير الأجنبى بأن يقيم فيه . ولكن داكو أخذ على مهل يزداد قوة ، وسرعان ما بدأ القلق يساور أوِيسو من تزايد أتباع داكو ، فسأله عما إذا كان سيظل يبنى على قدر ما تسع معدته . وأخذ داكو الأمر على محمل الجد وقام بذبح الأمير ، وفوق جسدة بنى قصره . وهكذا بدأ البيت الملكى الداهومى سيرته فى الغزو .

وحوّل داكو انتباهه إلى صغار الأمراء والرؤساء الذين يهيمنون على المنطقة ، والذين كان داكو بدوره من قبل واحداً منهم ، وسرعان ما تمكن من إخضاع بعضهم لسيطرته ، وبخاصة رئيسا پاخى وأغبون ، كما خاض حرباً ضد الماهى . وعند موته لم يكن هناك ما يميز أبومى عن غيرها من الولايات التابعة . وخلفه إبنه أخو الذى قاد ثورة من قبل ، وكان يحيا حياة قنّاص فى الغابة . ولدى سماعة بموت أبيه أسرع إلى العاصمة ، وارتقى العرش بعد أن قتل مغتصباً للعرش أعلن نفسه ملكاً . وواصل آخو سياسه أبيه فى إخضاع الرؤساء المجاورين

لسيطرة داهومى . ودام حكمه ثلاثين عاماً تدعمت الدولة خلالها كثيراً ، وتحول رؤساء القبائل فى بطء إلى أتباع للمملكة . وعند موته فى عام ١٦٠٠ كان هناك مطالبان يتنافسان على العرش : أبوساسا إبن الحاكم الراحل ، وأخوه أكبا . وكان النصر حليف أكبا . ولكن أبوساسا لجأ إلى أويو . وتحرك جيش من أويو فى اتجاه داهومى التى أرغمت على الاعتراف بسيادة أويو . وظلت داهومى طيلة الأعوام الثلاثين التالية تابعة لأويو ، ولكنها تبعية تعين على أويو أن تفرضها بحملات حربية مستمرة . وعلى الرغم من تبعية أكبا لأويو فإنه لم يتخل عن حياة الغزو ، واستطاع أن يخضع شعب الچغبى الذى يعيش بالقرب من مستنقعات نوهوا ، كما قام بغزو الولايات التابعة الصغيرة التى تضمها الهضبة .

وفيما بين موت أكبا وعهد أغاچا الذى ارتقى العرش فى عام ١٧٠٨ ، وكان أول حاكم تاريخى لداهومى ، أحكم الفون فى أبومى قبضتهم على الهضبة ، وكان تفوقهم عليها لا شك فيه . ومع ذلك فقد استمروا فى حالة تبعية لأويو ، ولم يكن الماهى يعترفون بسلطتهم . وساير الملك الجديد أغاچا الزمن ، وكان يعلم أن تجارة الرقيق هى الطريق الرئيسى إلى الرخاء . وقد أشار دابرّ[٣٣] إلى أن داهومى « ... بلد يقع بين أرْدِرا وبنين تجاه الشمال الشرقى ، وهكذا فهى لا تصل إلى الساحل . وتُجْلَب أعداد كبيرة من الرقيق من المملكة إلى أرداح الصغيرة ، بعضهم أسرى حرب ، وبعض آخر حكم عليهم بهذه العقوبة عن جرائم ارتكبوها . وهؤلاء الرقيق يباعون للهولنديين والبرتغاليين الذين يقومون بنقلهم إلى أمريكا » . ولم تكن أرْدِرا وحدها فى هذا المضمار ، إذ كانت تجارة داهومى فى الرقيق أكبر حجما . وانصرف اهتمام أغاچا إلى الاستئثار بمزايا التجارة كاملة باستبعاد الوسطاء وإقامة اتصال مباشر مع الجالية الأجنبية التى تمارس التجارة . وقد عادت عليه فتوحاته فى الشمال الغربى بأعداد كبيرة من الرقيق ، ولكى يدعم

---

(٣٣) أولفيرت دابرّ : جغرافى هولندى عرف بالكفاءة وحسن الاطلاع . أصدر فى عام ١٦٦٨ كتابا تحت عنوان وصف إفريقية Description of Africa ، نشر فيه عدداً من التقارير العالية القيمة عن أحوال بنين وبعض الدول والمدن الإفريقية الأخرى ، وقد جمع معلوماته من مصادر معاصرة كثيرة . يأخذ عنه كثيرون ممن يكتبون عن إفريقية .

مركزه تعين عليه أن يجد له منفذاً إلى البحر حيث يمكنه أن يقيم جالية تجارية أجنبية ، وأن يبيع الرقيق ، وأن يحصل على الأسلحة والذخيرة دون وسطاء . لذلك قرر أن يحوِّل اهتمامه إلى الولايات التابعة الساحلية . وكانت أرداح ، وهى الدولة التى هاجر منها سلفه ، تحتفظ بعلاقات طيبة مع أبومى حتى عهد أغاجا ، ولكنها دخلت فى حلف دموى مع ملك الهويدا ، وحذرته مراراً من الاستعدادات التى تجرى للحرب فى أبومى . وبعد أن قامت داهومى بغزو الهويدا هاجم أغاجا أرداح ، وتمكن من فتحها بعد مذبحة كبيرة . وأعقب هذا الفتح خضوع جاكين ، وهى بلد إلى الغرب من وإيداح . ولكن أغاجا كان عليه أن يزحف نحو الشمال قبل أن يستطيع إتمام فتوحاته ، وذلك لمواجهة الغزو القادم من أويو . وتمكن الأويو من صد الجيش الداهومى ، ولكنهم أنهكوا ، ومن ثم لجأ الملك إلى الحيلة . وكانت معه مقادير كبيرة من شراب مسكر ، فتركها وانسحب مسافة ما . وعندما وجد جيش الأويو أن الجيش الداهومى قد انسحب بدأ أعمال النهب . ولم يكن الداهوميون يعرفون هذا النوع من الشراب ، وأفرطوا فى تعاطيه ، وسرعان ما فقدوا وعيهم ، فانقض عليهم الداهوميون وهم على هذه الحالة ، وثأروا منهم بعنف .

ومع ذلك رأى أغاجا أن من الحكمة العمل على تهدئة الأويو بإرسال هدايا كثيرة تصحبها واحدة من أجمل بناته . وبعد أن تمكن من تأمين حدوده الغربية على هذا النحو عن طريق القوة الحربية الممزوجة بالخنوع ، عاد إلى مهمته التى لا تتوقف على الساحل . فقد أرسلت له وإيداح ، أكثر المدن الساحلية أهمية ، رداً ينطوى على التحدى ، وعقد أغاجا العزم على سحقها . ولم تكن وايداح تدرك أن أغاجا يمكن أن يعود بهذه السرعة ، ولذلك لم تتخذ أية إجراءات دفاعية ، وسقطت المدينة دون مقاومة . وعندئذ فتح أغاجا كلا من سارى وتوفيز . وعلى الرغم من الهزيمة التى لحقت بداهومى ، فإنها لم تقهر وكان مازال لها جيش فى الميدان .

وأدت غارة أغاجا على الساحل إلى دخوله فى اتصال مع الأوروبيين . وكان نفوذ الانجليز فى ذلك الوقت سائدا فى وايداح ، لذلك كانوا يؤيدون تلك الدولة .

ولكن الفرنسيين كانت لهم بدورهم وكالة تجارية في وايداح ، فساندوا أبومى . وقد تعرضت وايداح لهزيمة أخرى ، ومنذ ذلك الوقت أصبح نفوذ الفرنسيين هو السائد فيها . ومع ذلك ظل شعب وايداح يراوده الأمل ، فطلب العون من أويو التى أرسلت جيشاً أَعْمَل التخريب فى داهومى ، ولكن أغاجا رفض فى تعقل سحب قواته من وايداح . وقد أدت حروب أغاجا المستمرة إلى تقلص جيشه ، ولما لم تكن التعزيزات الكافية متاحة له فقد كوّن فى عام ١٧٢٩ كتيبة من النساء المحاربات ، اللاتى كن هن **الأمازونات** ،[٣٤] وبهن استطاع أغاجا غزو وايداح ، ولم تكن سلطته على الساحل قد استقرت بعد . وبينما كان أغاجا مشغولا فى بلاد الماهى ، ثارت الولايات الساحلية فى عام ١٧٣١ بتشجيع من الهولنديين والإنجليز ، فأرسل أغاجا أفضل قائد لديه وجزءاً كبيراً من جيشه إلى الساحل ، وسحقت الثورة ونهبت الوكالات التجارية الهولندية والإنجليزية . وفى النهاية خضعت وايداح وجميع الولايات الساحلية لداهومى .

وأصبحت كتيبة « الأمازونات » التى كوّنها أغاجا أوسع الكتائب شهرة فى جيش داهومى . وفى الأصل لم تكن هذه الكتيبة من كتائب الصفوة ، إذ كانت تتكون من نساء قبض عليهن بتهمة الزنا أو سبقت إدانتهن بجرائم أخرى . وكن يعطين الخيار بين الالتحاق بالجيش أو القتل . وقد تأثر أغاجا بشجاعتهن ، وجعل منهن وحدة نظامية فى الجيش .

وكان غيزو هو الذى جعل من « الأمازونات » الفيلق المختار فى الجيش ، واستبعد منه الرقيق والعناصر الإجرامية ، وسن قانونا يلزم كل شخصية معروفة

---

(٣٤) الأمازونات : تقول الأساطير اليونانية إنهن شعب خرافى من النساء اللاتى يحترفن الصيد والقتال ويقطعن الثدى الأيمن ليسهل عليهن استخدام القوس . وليس هناك تعليل مؤكد لأصل اللفظة وتاريخها . والتفسير الوحيد المقبول هو القصة المألوفة لأرض بعيدة كل شئ فيها يسير فى الطريق الخاطئ ، وهكذا تحارب النساء ، فى حين أن الحرب هى وظيفة الرجال . وفى القرن السادس عشر أكد المستكشف الأسبانى فرانسسكودى اوريينانا أنه دخل فى نزاع مع نساء محاربات فى أمريكا الجنوبية على ضفاف نهر المارانون الذى سمى فيما بعد « بالأمازون » . ومن المؤكد وجود « الأمازونات » فى جيش داهومى فى العصور الحديثة . ويقال إن وجودهن اختفى خلال الحماية الفرنسية .

تقديم إحدى بناته للملك . وجندت أولئك البنات فى الأمازونات ، وكن يعرفن بأنهن زوجات الملك . وكان يحكم بالإعدام على من يزنى بهن .

وقسمت «الأمازونات» إلى خمس سرايا : ١) حاملات البنادق ؛ ٢) قانصات الأفيال ؛ ٣) حاملات السيوف ، ٤) راميات السهام ؛ ٥) المشاة . وكن يخضعن لتدريب مكثف . وقد شاهد دنكان تمريناتهن ، ويقدم إلينا وصفا لهجوم صورى على سياج من الخوازيق ، وكانت الأرض والأسوار مغطاة بالأشواك ، ولكن الأمازونات اندفعن فوقها وعدنا للملك بالأسرى . وبفضل هذا النوع من التدريب تكونت لديهن مناعة ضد الألم والمشاق ، وأصبحن القوة الأشد رهبة فى غرب إفريقية .

وبينما كان أغاجا مشغولاً فى الجنوب ، كانت ماهى تخلق المتاعب فى الشمال الشرقى . وماهى بلد جبلى يتعين على قوافل التجارة التابعة لداهومى أن تمر عبر أراضيه وهى فى طريقها إلى بلاد السودان . ولم تكن تضاريس ماهى ملائمة لعمليات المشاة فى جيش داهومى ، وعلى الرغم من أن الملوك كانوا يرسلون الجيوش بانتظام لغزو ماهى ، فإن فتوحاتهم لم يكن لها طابع الدوام . فحملة أغاجا فى عام ١٧٣٠ أقرت سلطته فى القرى المحصنة ، وحافظت على طرق التجارة مفتوحة ، ولكن ماهى لم تقهر . وتلك مشكلة واجهت الملوك الذين خلفوه ، وظلت ماهى حتى الغزو الفرنسى شوكة فى جنب داهومى .

وقد ترك أغاجا عند موته مملكة كبيرة لابنه وخليفته تغبوصون .[٣٥] بيد أن سلطة داهومى لم تكن مدعمة تماماً إلا فوق الهضبة . وظلت ماهى ، شأنها شأن غيرها من الدول المجاورة ، تعكر صفو السلم. وعلى الرغم من أن الدول الساحلية قد تعرضت للهزيمة أمام تنظيم أغاجا المتفوق ، فإنها لم تكن قد قهرت بعد ،

---

(٣٥) تغبوصون : ورد اسمه فى المتن هكذا Tegboesun ، ولكنه ورد تغبيزو Tegbesu فى حاشية بالصفحة ٢٣٥ من كتاب داڤيدسون ، The African Past (نقلاً عن كتاب روبرت نوريس ، مذكرات عهد بوسا أهادى ، ملك داهومى Memoirs of the Reign of Bossa Ahadee . King of Dahomy ، الصفحة ١١) وجاء فى هذه الحاشية أن بوسا أهادى هو نفسه الملك تغبيزو الذى حكم داهومى فى الفترة ١٧٢٧-١٧٧٥ .

وظلت على استعداد لخلق المتاعب . وكانت لدى الأويو فى الغرب رغبة مستمرة فى تخريب الدولة التابعة لها التى تزداد قوة ، وفى إخضاعها لسيطرتها . وهكذا لم يكن تِغبوصون يواجه مشكلة سهلة . بل إن الأمر الأكثر أهمية هو أنه واجه فى الفترة الأولى من حكمة ثورة قام بها وزيرة الثانى ميو ، وقد تمكن وزيره الأول غو من سحق هذه الثورة فى عام ١٧٣٥ . وفى عام ١٧٣٧ قام جيش الأويو بغزو داهومى . وتقهقر الملك ، فى حين أبدت العاصمة أجبونى مقاومة شديدة . بيد أن الأويو عادوا أدراجهم بعد أن أعملوا النهب ، وأسروا أعداداً كبيرة من الرقيق . وقد أصبحت غزوات الأويو سمة سنوية بارزة . ففى كل عام ينقضون على داهومى كالجراد ، ينهبونها ويخربونها ويعودون بالرقيق . كذلك لم تكن تلك هى النهاية . فالماهى ، الذين لم يتوقعوا أن يكون خليفة أغاجا فاتحا فى عظمة أبيه ، قاموا بالثورة . وأرسل تغبوصون جيشاً لمواجهة الموقف . بيد أن الماهى اعتصموا بالجبال ، ومنها أخذوا يسببون المتاعب لجيوش داهومى . ومع وجود هدنة من حين لآخر ، استمرت حرب العصابات هذه حتى عام ١٧٧٢ عندما شعر الماهى بحاجتهم إلى بضع سنوات من السلم . كذلك لم يكن هناك هدوء على الساحل . فقد كان للبرتغاليين قلعة قوية فى بلاد وايداح ، وأحسوا أن الإدارة المركزية لدى داهومى يمكن أن تؤدى إلى تقليص أرباحهم من تجارة الرقيق ، ومن ثم قدموا التأييد للوايداح والبوبو ، وكانوا يجدون الحماية فى القلعة ، ولكن غو أخضعها فى عام ١٧٤١ . وفى عام ١٧٤٣ ، بينما كانت داهومى مشغولة مع الماهى والأويو ، شهر الوايداح والبوبو السلاح مرة أخرى ، وحاصروا الحامية الداهومية فى المدينة ، ولكن غو تمكن من طردهم بجيش قوامه خمسون ألفا .

وكان تغبوصون بدوره يرغب فى توسيع الإمبراطورية ، وسنحت له الفرصة فى عام ١٧٤٢ عندما مات أوزاى توتو ، حاكم أشانتى . وقد ثار النبلاء الساخطون والدول التى فتحت حديثا ضد أوكويى وارى ، وأرسلت فرقة من الجنود الداهوميين لمساعدته . وسحقت الثورة فى يسر ، ولم تسفر المغامرة عن شئ . وفى عام ١٧٥٠ راودت الأشانتى فكرة أن يلقنوا الداهوميين درساً ، وقاموا بغزو البلاد ، ولكنهم ردّوا على أعقابهم .

ومع ذلك لم تقهر المنطقة الساحلية . فقد رفض الوايداح والبوبو الذين تعرضوا لهزائم متكررة الاستسلام لقدرهم . كذلك لم يكن الإخلاص طابع الداهوميين الذين تسند إليهم المناصب فى هذه المنطقة ؛ من ذلك أن نائب الملك أعلن العصيان فى عام ١٧٤٥ ، وأعدم شنقاً . ولكن أشد المتاعب التى واجهها تِغبوصون جاءته من صهره شامبو . فقد ازدادت قوة شامبو كثيراً ، ولخشيته من غضب الملك فر هارباً إلى البوبو ، وسرعان ما أصبح قائداً عاماً لجيشهم . وفى عام ١٧٥٣ أرسل الملك جيشاً كبيراً ليحسم القضية تماماً ، فانسحب البوبو إلى المستنقعات ، وطاردهم الداهوميون وأوقعوا بهم هزيمة ساحقة . وبحلول عام ١٧٦٣ كانت قوتهم قد نمت بدرجة تكفى لمحاصرة الداهوميين فى وايداح نفسها ، ولكنهم أخفقوا فى الاستيلاء على القلعة . وظل تِغبوصون ، حتى وفاته فى عام ١٧٧٣[٣٦] ، يقاتل من أجل اخضاع البوبو ، ولكن دون جدوى .

وواجه الملك الجديد كانجلا (١٧٧٥ – ١٧٨٩) المشكلات المعهودة لملوك داهومى ، وهى تدعيم السيطرة على الساحل واخضاع الماهى ودرء خطر الأويو وتوسيع المملكة . وقد حالفه الحظ بوجود خلاف على وراثه العرش فى وايداح . واغتنم كانجلا هذه الفرصة ونصّب مرشحه على العرش . وكانت تُرْسَل جيوش نظامية كل عام لتخريب ماهى ، ولكن شعب الجبال ظلّ على عناده . وقام الأويو بهجوم فى عام ١٧٨١ ، ولكنه كان مجرد غارة أخرى ، فقد كانت قوة الأويو تتقوض بالفعل ، وعلى الرغم من أنهم ظلوا على درجة كافية من القوة عشر سنوات أخرى ، فقد ازدادت داهومى ثقة بنفسها . وفى عام ١٧٧٨ قام كانجلا بمهاجمة أبّى بالتعاون مع الأدا[٣٧] التى يجيد أهلها القتال فى المستنقعات . ولم يستطع الأبّى الصمود فى وجه الجيوش المتحالفة ، وأُخضعوا بعد قتال وحشى . وكل هذا القتال المتواصل كانت له آثاره . وفى عام ١٧٨٢ قاست داهومى كثيراً بسبب مجاعة حلت بها .

---

(٣٦) كما يتضح من الحاشية السابقة فإن تِغبوصون ظل يتولى الحكم حتى عام ١٧٧٥ ، وذلك يؤكد أن الملك الجديد كانجلا تولى الحكم فى ذلك العام .

(٣٧) الأدا : هى نفسها « أرداح » ، انظر الصفحات السابقة .

وكان النقل مشكلة كبرى واجهت داهومى فى حروبها على الساحل بسبب كثرة الأخاديد والأنهار الصغيرة التى تعوق حركة الجيوش . ولكى يدعم الداهوميون سيطرتهم على البلاد قاموا ببناء الجسور والطرق وردم الخنادق . وقد أوضحت الثورات التى يقوم بها الشعب الساحلى بين الحين والآخر أن سيطرة داهومى تفتقر إلى الاستقرار ، وأن الشعب الساحلى يرفع راية العصيان كلما سنحت الفرصة .

وفى عام ١٧٨٣ عادت داهومى إلى انتهاج سياسة توسعية ، فهاجمت باداجرى ،[٣٨] بيد أن هذا الهجوم كان مجرد مناوشة أولية . وفى العام التالى قام الداهوميون ، بالتحالف مع ملك لاجوس ، بمهاجمة باداجرى للمرة الثانية وأحرزوا نصراً مرموقاً . وكان ذلك بداية حلف مع لاجوس استمر حتى خضعت لاجوس للحماية الإنجليزية . وكان الغرض من الحلف مهاجمة مدن اليوربا المختلفة فى الداخل والاستيلاء على تجارتها . ولكن داهومى لم تكن على درجة من القوة تكفى لمهاجمة الأويو . وكانت الصعوبة تكمن فى أن الدول الأخرى تستطيع بدورها طلب حماية الأويو . ففى عام ١٧٨١ طلبت ألادا ، على سبيل المثال ، حماية الأويو، وهو ما يعنى أن داهومى لم يكن باستطاعتها أن تهاجمهم.

وفى عام ١٧٨٩ خلف أغونويو كانجلا ، وكان حاكماً ضعيفاً ، ولكن كان عليه التصدى لمشكلة ماهى . فسيَّر إليها ثلاثة جيوش ، ولكنه أخفق فى إخضاع أهل الجبال ذوى المراس الصعب . ولقد كان ملك ألادا يتوق علنا إلى موت الملك الراحل ، ولكن أغونويو آثر الهدوء خشية من الأويو . وعلى الرغم من أن أغونويو لم يكن موفقاً فى حملاته الحربية ، فإنه كان حاكماً عادلاً . فقد خفض الضرائب وحارب جشع الجباة . وخلال حكمه الذى استمر ثمانى سنوات ازداد رخاء داهومى ، وكانت هذه الفترة من الهدوء هى التى هيأتها للنجاح الذى حققته فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

---

(٣٨) باداجرى : مقاطعة تابعة كانت تدفع الجزية لدولة بنين .

غرب إفريقية فى القرن التاسع عشر
ازدهار الإسلام

أولا

قامت الدولة فى غرب إفريقية ، مثلما قام اقتصادها ، على تجارة الرقيق . وقد حظرت بريطانيا تجارة الرقيق فى عام ١٨٠٧ ، كما ألغت الرق على نطاق الامبراطورية البريطانية فى عام ١٨٣٣ . وفى عضون بضع سنوات حذت فرنسا حذوها . وكانت معارضة الدولتين الكبيرتين لتجارة الرقيق بمثابة نذير الموت لها .

وطرح موقف الدول الأوروبية الجديد تجاه تجارة الرقيق مشكلتين أمام الدول الإفريقية : أولاهما أن الرقيق يشكلون عصب صادرات غرب إفريقية ، وأن حصيلة بيعهم تكفى لسداد أثمان جميع الواردات تقريباً . فبماذا يستعاض عن هذه التجارة ؟ ثانيتهما أنه كان هناك حتى إلغاء هذه التجارة التقاء فى المصالح بين الأوروبيين والدول الإفريقية الساحلية .

والآن أصبحت مصالح كل من الجانبين على طرفى نقيض . فقد ظلت للدول الساحلية مصالحها فى تجارة الرقيق ، على حين انصرفت فرنسا وانجلترا بنشاط إلى القضاء عليها ، وإلى التوغل فى الداخل التماساً للتجارة المشروعة . وكان هناك إدراك بأنه ما لم يمارس ضغط أوروبى على الدول الداخلية ، فلن تتوقف الإغارة من أجل الحصول على الرقيق « رذيله السودان الكبرى » . وهكذا ارتبطت الدوافع التجارية « والإنسانية » ارتباطاً وثيقاً بالتوغل فى الداخل .

كانت الدول الإفريقية فى مأزق . فالتحول المفاجئ فى موقف أوروبا تجاه تجارة الرقيق قوّض الأساس الذى تقوم عليه القوة السياسية فى المناطق الداخلية . ولقد اكتسبت الدول الساحلية قوتها على أساس مقايضة البشر بالبنادق والبارود ، والآن أدركت فجأة أن سوق الرقيق قد تدهورت إلى أدنى مستوى . والحقيقة أن البرتغاليين والأمريكيين كانوا مازالوا يمارسون تجارة واسعة فى الرقيق ، بيد أن هذه التجارة أصبحت محفوفة بأخطار متزايدة ، حتى أنها توقفت من الناحية الفعلية فى الستينات من القرن التاسع عشر . وأصبحت الأسواق المتاحة الوحيدة هى أسواق شمال إفريقية وغرب آسيا . وعلى ضوء هذا التغير فى توازن القوى يمكن أن نرى قيام دولة الفولانى فى سكُتو وماسنة ، وكذلك قوة التوكولور فى بلاد السودان . وعلى الساحل واصلت أشانتى وداهومى ازدهارهما بسبب قوة المشاعر القومية وما يكمن لديهما من مقدرة حربية . ولكن دلتا نهر النيجر كانت هى المنطقة التى استفادت حقا من هذا التغير فى السياسة .

وكانت قد أقيمت فى دلتا النيجر « سلطة قضائية قنصلية » - وهى نوع من « الحكم الثنائى » بين الضباط البريطانيين المشرفين على شحنات السفن والدول - المدينة التى نشأت على الساحل . وفى القرن التاسع عشر ازداد طلب البريطانيين على الصابون بسبب اهتمامهم بالنظافة . وقد اكتشف أن زيت النخيل أكثر ملاءمة لصناعة الصابون من الشحوم الحيوانية ، وأنه يمكن استخدامه أيضا فى تشحيم الآلات . وهكذا كان باستطاعة دلتا النيجر أن تتحول إلى تجارة مشروعة دون أن يهتز اقتصادها . وكان لدى الدول - المدينة أساطيل نهرية قوية - قوارب مسلحة بالمدافع - وأسوار محصنة للسيطرة على تجارة الزيت وتأديب القبائل الداخلية المناوئة . بيد أن **الرقابة الثنائية**[1] أخذت تتداعى فى دلتا النيجر مع مقدم السبعينات ؛ ودخل الضباط البريطانيون المشرفون على شحنات السفن فى

---

(١) بمقتضى اتفاقات وقعت بين بريطانيا وزعماء الساحل أقيم اختصاص قنصلى يقضى بتعاون الفريقين فى مراقبة تجارة الزيت ، ومنح التجار البريطانيون حق التقاضى أمام قناصلهم وفقا لقوانينهم .

نزاع متزايد مع أمراء التجارة المحليين . واستخدمت الحلقات والكارتلات والمقاطعة في محاولة لتحطيم قوة الخصوم . وكان أفراد الجالية التجارية الأجنبية تواقين إلى التوغل في الداخل لكسر احتكار رؤساء القبائل ، أما هؤلاء الرؤساء فلم يكونوا فقط مشغولين بالحيلولة دون ذلك ، وإنما كانوا يهدفون أيضا إلى تصدير الزيت رأسا إلى أوروبا .

وفي بلاد السودان كان الموقف مختلفاً ، فليست بها ثروة مادية تنتظر من يقوم بجمعها . وحتى في أشانتي لم تزدهر تجارة الزيت ، ولم يكن الكاكاو قد أدخل بعد في غرب إفريقية ، كما لم تكن للكولا سوق في أوروبا . وواجهت أشانتي ، شأن غيرها من دول غرب افريقية ، مشكلة الصادرات التي تدفع من حصيلتها ثمن وارداتها من البنادق والبارود ، وإن وجدت بعض العون في الذهب والتبر ، على حين أصبحت تجارة بلاد السودان مع شمال إفريقية والشرق أعظم أهمية بكثير ، وكان ذلك بطبيعة الحال هو المنفذ الرئيسي لتجارة هذه البلاد ؛ ولم يعد يصل إلى الساحل الغربي سوى القليل من الرقيق الذين يؤسرون فيها .

وثمة سمة مميزة أخرى للقرن التاسع عشر ، ربما تسترعي الانتباه أكثر من غيرها ، هي ظهور الروح القومية . فدول مثل أشانتي وداهومي وبرنو والبمبرة كان رد فعلها واحداً عندما واجهت الغزوات الأجنبية . كما أن إحياء دولة البرنو تحت حكم الكانمي[٢] في مواجهة جهاد الفولاني لا يمكن تفسيره إلا من زاوية القومية . فالفولاني كانوا إخوة في الدين ، ولم ينكر الكانمي أن الهوسا لديهم آراء هرطقية للغاية . ولكن عندما طلب حكام الهوسا العون من السلطان[٣] هبّ لنجدتهم عن طيب خاطر .

وكانت المسألة الأساسية التي واجهت مسلمي السفانا[٤] هي الخلاف حول تفسير قواعد الإسلام . فبلّو والكانمي ، مثلا ، اختلفا حول هذه المسألة ؛ كذلك

---

(٢) الشيخ محمد الأمين الكانمي : يتناول الفرع « سابعا » من هذا الفصل حياة الشيخ الكانمي بالتفصيل ، كما ترد تفاصيل أخرى في الفرع « ثالثا » .

(٣) الإشارة هنا إلى سلطان البرنو .

(٤) السفانا : المناطق التي تحد الغابات الاستوائية وتقع بينها وبين الصحارى الحارة .

فعل عمر[٥] وأحمدو[٦] . ويدلل أحمدو على أن ولايات البمبرة التى قبلت حمادو[٧] سلطانا عليها لا يمكن شرعاً أن تعتبر ولايات يتعين الخروج للجهاد ضدها . وفى كلتا هاتين الحالتين كان الجانب الدينى هو العباءة التى يختفى تحتها الصراع من أجل السلطة ؛ فالفولانى فى سكتو ، وكذلك التوكولور ، كانوا يتوسعون ، وبرنو وماسنة كانتا تقفان فى وجه هذا التوسع . كما أن ماسنة التى قامت نتيجة للجهاد ضد الوثنيين كانت تمارس أعمال القتل ضد التوكولور متحالفة مع البمبرة . وهكذا أصبح الإسلام يستخدم من كلا الجانبين لدعم مركزه .

كذلك أدى ظهور مجموعات جديدة مثل التوكولور والفولانى إلى بزوغ الروح القومية . ففى برنو قام الكانمى ، بعد فقدانها أقاليمها الغربية ، بتنظيم مقاومة على أساس قومى واستطاع صد زحف الفولانى وطردهم . كما أن ممالك الهوسا لم تتوقف أبداً عن القتال ، كما سنرى ، وظلت حتى قيام الحكم البريطانى تقاتل من أجل الاستقلال . وكان الخوف من قيام الهوسا بثورة داخلية شديداً للغاية ، حتى أنه عندما هدد رابح الامبراطورية كان الفولانى عاجزين ، بل عازفين ، عن

---

(٥) الحاج عمر : (١٧٩٧ - ١٨٦٤) ، من التكرور ، نشأ فى فوتا جالون (السنغال) . يعرف أيضا باسم عمر سيدوتل . تربى تربية دينية ، ودخل فى الطريقة التيجانية . لقى عثمان دان فوديو فى سكتو وحمادو الشيخ فى حمدآلاى ، وزوّجه محمد بلّ بابنته . له فتوحات كثيرة ، وضم تمبكت إلى مملكته الواسعة التى شملت ماسنة والفوتاتورو . قضى الفرنسيون على دولته عندما شرع أولاده يمدون سلطانهم إلى شمال وادى النيجر .

(٦) الشيخ أحمدو : إبن الحاج عمر . حمل لواء الجهاد الإسلامى بعد وفاة أبيه . عهد إليه أبوه ، أثناء حملته على ماسنة ، بالنظر فى شئون المملكة ، وجعله خليفة له على أتباع الطريقة التيجانية . خاض نضالا مستمرا ضد الخارجين عليه . وقد ثار ضده بعض أفراد التيجانية غير معترفين بسلطته الدينية حينما اتخذ لقب أمير المؤمنين . توفى فى عام ١٨٩٨ .

(٧) حمادو الشيخ (حمادو سيكو) : ظهر بين الفولانى حوالى عام ١٨١٥ داعية ومجاهد إسلامى فى منطقة ماسنة يدعى حمادو بارى . اشترك فى حملات عثمان دان فوديو لفتح بلاد الهوسا . ومكافأة له على أعماله منحه عثمان لقب الشيخ وجعله أميراً على ماسنة ، فاستولى على جنى وتمبكت ، ومد سلطانه على جزء من بلاد البمبرة . وبدلا من حمادو وردت فى المتن كلمة حمد ألاى (أى الحمد لله) ، وهذا خطأ وقع فيه المؤلف ، ذلك أن « حمد ألاى » هو الاسم الذى أطلقه حمادو الشيخ على مدينة أنشأها فى بلاد البمبرة . واتخذها عاصمة له . هذا وقد توفى حمادو الشيخ فى عام ١٨٤٨ .

الدفاع عن الحدود . وقد أدرك الفولانى فى سكتو قوة الروح القومية ، وكانوا يخشون أنه ما لم تتم تهدئة الهوسا ، فإنهم يمكن أن يطيحوا بهم عن طريق الانضمام إلى الأجانب . لذلك حاولوا التوصل إلى اتفاق معهم . وقد منع استخدام الفولفيد[8] كلغة ، واستخدمت لغة الهوسا فى كل من الأغراض الرسمية والاجتماعية ، كما أخذ استخدام لغتهم يتزايد فى الأعمال الإدارية . وهكذا كان الفولانى يندمجون ببطء فى الهوسا ، حتى قبل أن تصبح نيچيريا الشمالية جزءاً من الإمبراطورية البريطانية .

وكان نمو الروح القومية لدى البمبرة حتى أكثر إثارة فعلى الرغم من أن البمبرة قد تعرضوا لهزائم متكررة على أيدى الحاج عمر ، الذى كان لجيشه تفوق هائل بفضل حملة البنادق والمدافع من الوولوف ، فإنهم لم يلقوا السلاح قط . فبعد أن هزمهم الحاج عمر عادوا إلى محاربته بالتحالف مع الفولانى ، وعندما تبين لهم أن الفولانى ضعاف للغاية انضموا إلى الفرنسيين . ولكن مسعى البمبرة لم يكن إحلال السيادة الفرنسية محل سيادة التوكولور ، ولذلك فإنه عندما استقر النفوذ الفرنسى فى البلاد حاربوا مرة ثانية من أجل استقلالهم . وكان التفوق الهائل للفرنسيين ، وكذلك ما أصاب البمبرة من تعب وإرهاق بسبب الحرب ، هما اللذان أدّيا إلى وضع حد للحرب .

وفى بلاد اليوربا بدورها ظهر إطار مماثل . فإقامة إمارة للفولانى فى إيلورين ، وانهيار إمبراطورية الأويو ، يمكن أن يحملا المرء على توقع سقوط اليوربا ، مثلما حدث للهوسا ، تحت السيطرة الأجنبية . ولكن الروح الحربية لدى اليوربا أكدت نفسها من جديد بعد أن واجهت الغزو الأجنبى ، وأصبحت إبادان وأبيكوتا مركزى المقاومة عند اليوربا . وكانت أشانتى وداهومى فى طريقهما بالفعل إلى أن تصبحا دولتين قوميتين ، ولقد أدت حروب القرن التاسع عشر إلى تقوية هذه المشاعر . وهكذا أصبحت القومية الصاعدة هى السمة المميزة الأكثر وضوحاً لغرب إفريقية فى القرن التاسع عشر .

---

(٨) الفولفيد : هى لغة الفولانى .

ثـانيا

يعد الغزو المراكشي ، وما أعقبه من فوضى دامت قرنين ، على جانب كبير من الأهمية لفهم تاريخ القرن التاسع عشر . وقد أدى انهيار السلطة المركزية فى منحنى النيجر إلى نمو قوة بعض قبائل الصحراء ، التى كانت قبيلتا الكيل أوى[(٩)] والأوليمندن[(١٠)] أكثرها أهمية . وسنحت للقبائل الصحراوية عندئذ فرص غير محدودة لمهاجمة جميع القوافل ، وعاد عليها ذلك بمنافع كثيرة . وطوال القرن التاسع عشر توغل الطوارق ببطء فى وادى النيجر ، واستقروا فى مقاطعات مختلفة . وكان عليهم لأول مرة أن يقوموا بدور نشط فى الحياة السياسية للمنطقة . ولذلك فمن الضرورى أن نلم بفكرة ما عن قبائل الصحراء الرئيسية التى قُدِّر لها أن تحدث تأثيراً على بلاد السودان .

فالكيل أوى قبيلة تنتمى إلى قبيلة أوراغن القوية ، وقد استقرت فى وادى أُول . وقد أصبحت هذه القبيلة على درجة كبيرة من القوة فى موطنها الجديد . وفى عام ١٧٦٠ قام الكيل أوى بطرد حكام الهابى من أسبن ووضعوا أيديهم على البلاد ، وفى الوقت نفسه توصلوا إلى اتفاق مع الزنوج وافق حاكم أسبن بمقتضاه على أن يتزوج بامرأة سوداء . وكانت نتيجة ذلك أن أصبحت الكيل أوى قبيلة مختلطة ، واتخذ أفرادها لأنفسهم العادات المستقرة الخاصة بالزنوج ،

---

(٩) الكيل أوى : كيل معناها قبيلة . وهم أحد فروع الطوارق . تمكنوا بمعاونة سيدهم إدريس ألوما سلطان البرنو من طرد الكيل جيريس من أير والسيطرة على طريق القوافل الذى يربط بلاد الهوسا بفات ، وهو طريق كان ذا أهمية حيوية لبرنو . ينسبهم إبن خلدون إلى قبيلة قتامة الذين قدموا من اليمن وعاشوا وتكاثروا فى كردفان ومنطقة النيل الأزرق . وقد عرفوا بتعاونهم مع قوات الاحتلال الفرنسى .

(١٠) الأوليمندن : يرتبطون بمجموعة صنهاجة (زناتة) الغربية من الطوارق . استوطنوا النيجر الأعلى واستولوا على المراعى الخصبة حول غاو متحدين حامية الأرما ، وتغلبوا عليها . وقد استرد الأرما عاصمة السنغى القديمة ، ومع ذلك سقطت مرة أخرى فى أيدى الأوليمندن . ورد إسمهم «العلوميديون» « وعلم الدين » فى ترجمتين مختلفتين لكتاب بوفل (The Golden Trade of the Moors) ، الأولى قام بها دكتور زاهر رياض تحت عنوان الممالك الإسلامية ، ١٩٦٨ ، الصفحة ٢٢٩ ؛ والثانية قام بها دكتور الهادى أبو لقمة ودكتور محمد عزيز تحت عنوان : تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير ، بنغازى ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٨ ، الصفحة ٣١٨ .

وعاشوا فى أكواخ من القش بدلا من الخيام . وكانت لغة الهوسا معروفة لديهم كلغة الطوارق تماماً ، ولذلك كان الطوارق الحقيقيون يعاملونهم بازدراء . وكان الأبوچيليت الذين سادوا المنطقة الواقعة إلى الجنوب من أسبن مماثلين للكيل أوى إلى حد كبير ، فهم ثمرة لتزاوج نساء الطوارق بالجنود الزنوج ، وبخاصة السنغى والهوسا .

وقد تحالفت الكيل أوى مع قبائل كثيرة أصغر حجماً ، أهمها قبيلتا الكيل فادايى **والكيل فيروان**(١١) ، وهما قبيلتان مشاغبتان كانتا تشنان غارات مستمرة على قبيلة الأوليمندن . وبينما كان اتحاد الكيل أوى قوياً فى أسبن ، كانت هناك مجموعة لا تقل قوة هى اتحاد **الإيتيسان**(١٢) **والكيل چيريس**(١٣) الخاضع لسيطرة حاكم أغادس ، وتمكن الكيل أوى من طرد أفرادها من هذه المنطقة . ومنذ ذلك الحين كان هناك عداء مستمر بين الاتحادين .

وقد استقر الكيل چيريس ، بعد أن طردهم الكيل أوى ، فى بلاد الأوليمندن ، حيث وحدت بينهم الكراهية المشتركة للكيل أوى . وكان لدى الكيل چيريس والايتيسان عدد كبير من الخيول ، ولكونهما قبيلتين إثنتين فقط فقد كان التماسك بينهما شديداً ، على حين كان اتحاد الكيل أوى مكوناً من قبائل لا تتحد فيما بينها إلا بين الحين والآخر ، كما حدث فى حالة الهجوم على **أولاد سليمان**(١٤) .

---

(١١) **الكيل فيروان :** قبيلة شديدة الارتباط بطوارق الجزء الشرقى من الصحراء الكبرى الذين يسمون بردوا . وهى إحدى العشائر المهاجرة الأولى من الكيل أوى .

(١٢) **الإيتيسان :** فرع من الصنهاجة .

(١٣) **الكيل چيريس :** تربطهم قرابة شديدة بالايتيسان . وهم من الهوارة فى فزان ، ولذلك فهم بالمثل من الطوارق . وقد استوطنوا منذ عام ١٠٦٧ بين توات وغاو على النيجر .

(١٤) **أولاد سليمان :** قبائل مركزها منطقة هوارة على خليج سرت . وقد انتشرت فى غرب بحيرة تشاد وفى منطقة البرابيش بصحراء تاوديني شمال تمبكت . وأثناء مقاومة الاحتلال الفرنسى أدى التنازع بين الطوارق والعرب إلى قبول إحدى عشائر أولاد سليمان للحماية الفرنسية ، وكان ذلك طعنة لحركة المقاومة .

وعند بداية القرن التاسع عشر دخلت مجموعات أخرى غرب إفريقية ، ومن بينها عرب الشوا الذين استقروا بالقرب من بحيرة تشاد ، وهم شعب مسالم يهتم برعى الماشية أكثر من اهتمامه بفلاحة الأرض ، بيد أن الشيخ الكانمى استفاد منهم فى حملاته على الفولانى . وكان الشعب الأكثر قوة هو أولاد سليمان ، وهم قبيلة عربية نزحت إلى الصحراء واستقرت على الحدود الشمالية لبرنو ، وانضم إليهم كل مغامر فى المنطقة المحصورة بين الريف وفزان ، حتى لقد استطاعوا أن يقدموا للميدان ألفا من الخيالة ، كما كانت قوتهم من الضخامة بحيث خشى سلطان البرنو لقاءهم . وكان الهدف الذى وضعه أولاد سليمان نصب أعينهم هو طرد الكيل أوِى من بلما والسيطرة على تجارة الملح ، ورأوا أن أفضل طريقة لتحقيق ذلك هى حرمان الكيل أوِى من جمالهم ، ومن ثم بدأوا غاراتهم على الكيل أوِى ، ويقول بارث إنهم نجحوا فى الاستيلاء على ثلاثين ألف جمل . ولم يكن استمرار ذلك ممكنا . وكان أمام الكيل أوى أحد حلين : إما تدمير أولاد سليمان أو الانتقال إلى مراع جديدة . واستقر رأيهم على الحل الأول ، وقاموا فى هذا الصدد بجهد هائل لقوا فيه تحريضا من برنو التى رأت فى وجود عصابة قوية من قطاع الطرق على حدودها الشمالية مصدر قلق دائم لها . واستطاع الكيل أوى حشد سبعة آلاف من الخيالة وراكبى الجياد ، وفى عام ١٨٥٠ أخذوا أولاد سليمان على غرة ، وأوقعوا بهم هزيمة قاسية . والآن بعد أن لم يعودوا يشكلون تهديداً وضعهم سلطان البرنو تحت حمايته ، واستخدمهم فى حراسة حدوده الشمالية .

وفى الغرب كان الأوليمندن ، بعد غزوهم لتمبكت فى عام ١٧٧٠ ، هم المجموعة السائدة . وعلى الرغم من أن ظهور الفولانى فى ماسنة كان يعنى أنهم لم يعودوا يسيطرون على تمبكت ، فقد كان لهم أصدقاؤهم هناك ، ومن ذلك أن الشيخ البكاى[١٥] ومعظم رجال الدين تحالفوا معهم ضد الفولانى .

---

(١٥) أحمد البكارى شيخ الكونتا (انظر الحاشية ٩ - ٩٨ أثناه) .

ثالثا

كان القرن التاسع عشر عصر ازدهار للإسلام . فبعد سقوط السنغى كانت سطوة المسلمين من جوانب كثيرة آخذة فى الأفول . وكان البمبرة والموسى ، وهما القوتان الأساسيتان فى غرب بلاد السودان ، من الوثنيين ، على حين كان هناك تسامح إزاء الممارسات الوثنية فى بلاد الهوسا والبرنو برغم اعتناقهم الإسلام . كما أن اعتناق الفولانى للإسلام ، سواء فى ماسنة أو فى بلاد الهوسا ، كان يسير ببطء . وهكذا لم يكن هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن الإسلام يمكن أن يصبح عاملاً حيوياً فى هذه المناطق .

ويمكن أن نرجع التحول الملحوظ فى هذا الوضع إلى ظهور الطوائف المتشددة فى الدين فى الصحراء . وكان السنوسيون(١٦) هم أكثر هذه الطوائف أهمية . فقد بنى محمد المدنى زاوية بالقرب من مصراته ، وقام بتنقية شعائر الدين من البدع ومحاربة التضرع للأولياء والتبرك بالقبور . ودعم إبنه محمد بن عبد الله السنوسى سلطة طريقته على أهل الصحراء الشرقية التى تعنى السيطرة عليها أن السنوسيين يستطيعون ضمان طريق مأمون إلى بلاد السودان . وقد تغلغلت الأفكار الإصلاحية تغلغلا ظاهرا فى بلاد السودان على طول هذا الطريق . فضلا عن ذلك كان معظم رجال الدين فى كانو وتمبكت من بين من تلقوا العلم على أيدى رجال الزوايا بالصحراء ، ومن ثم اعتنقوا أفكار المصلحين .

---

(١٦) الحركة السنوسية : مؤسس هذه الحركة هو السيد محمد بن على السنوسى الخطابى الحسنى الإدريسى ، (١٧٨٧ – ١٨٥٩) ، فهو من سلالة الأدارسة ، وهو جزائرى الأصل ، ولد فى مستغانم بالجزائر فى ديسمبر ١٧٨٧ . انتقلت السنوسية من نطاق الصوفية العادية إلى الصوفية المجاهدة شأن معظم الحركات الصوفية المغربية . فقد حلت محل العصبية القبلية ، وتولت أمر الكفاح ضد الغزاة . أنشأ مؤسسها قاعدة للسنوسية فى واحة الجغبوب بصحراء مصر الغربية ثم فى الكفرة بصحراء ليبيا . قضى الفترة الأخيرة من حياته فى الجغبوب . خلفه ابنه الأكبر السيد محمد المهدى السنوسى الذى تولى السلطة فى الفترة ١٨٥٩ – ١٩٠٢ . وكانت الحركة قد أصبحت إمارة سياسية لها أرض وشعب ، وامتدت فى عهده إلى برنو والنيجر وإلى وسط الصحراء وإفريقية المدارية الغربية وشمال تشاد وغدامس

وشرع الإفريقيون بدورهم ، وبأعداد كبيرة ، فى زيارة شمال إفريقية وشرقها ، وكذلك الأماكن الإسلامية المقدسة . ويشير دنهام إلى كثرة عدد الحجاج فى برنو ، وإلى عدد من كانوا يمرون بأراضى البرنو فى طريقهم إلى مكة . ومن بين الزعماء الثلاثة الكبار الكانمى وعمر والشيخ عثمان ، فإن الأخير هو وحده الذى لم يؤد فريضة الحج . أما الكانمى فقد تعلم فى فاس وزار مكة ، وأمضى عمر سبع سنوات فى المشرق وعاد خليفة **للطريقة التيجانية**(١٧) . وذلك ليس كل ما فى الأمر . فالفاتحون الجدد كانوا جميعاً رجالاً متعلمين . من ذلك أن الكانمى وعثمان دان فوديو وعمر لم يكونوا ضليعين فى المناظرات فقط ، وإنما فى قرض الشعر أيضاً ، وذلك على نقيض صارخ لمن سبقوهم من حكام ، إذ لم يكن بين حكام غرب إفريقية العظام من عرف عنه نبوغ فى العلم ، وإنما كان يعتمدون على من لديهم من متفقهين .

ويحتل الفولانى فى سُكُتو مكان الصدارة بين الدول الإسلامية فى القرن التاسع عشر ، ليس فقط لأنهم أول من بدأ الحركة الإصلاحية ، بل كذلك لأن دولتهم هى الوحيدة التى عاشت إلى يومنا هذا . فالحاج عمر أخذ أكثر مما يستطع استيعابه ، وفشل فى تدعيم فتوحاته ، كما أن أسرة الكانمى الحاكمة سقطت قبل أن يقضى عمر على هجوم رابح وعلى ماسنة . بيد أن الأمر الأكثر أهمية هو أن كلا من أحمدو وعمر كان متأثراً من بعض النواحى بسُكُتو . وقد أنفق عمر وقتا لا يستهان به فى كل من برنو وسكتو ، بل إن أحمدو طلب نصيحة الشيخ عثمان فيما إذا كان على حق فى خروجه للجهاد .

---

(١٧) الطريقة التيجانية : تنسب إلى أبى العباس أحمد بن محمد بن المختار ، وهو فقيه مغربى ولد بالجزائر فى عام ١٧٣٧ . خرج لأداء فريضة الحج ، وأمضى فترة بالقاهرة عند عودته إلى بلاده . غلب عليه الاتجاه الصوفى فانضم إلى الطريقة الخلوتيه ، ولكن سرعان ما اتخذ لنفسه اتجاهاً جديداً ضمن هذه الطريقة . وعند وفاته فى عام ١٨١٨ كانت الطريقة التيجانية قد علا شأنها فى المغرب . وكانت الحركة التى قادها الحاج عمر من أهم الحركات الحربية التى قام بها أفراد التيجانية . وكثيراً ما كان أفراد مثل هذه الطرق الصوفية يفرضون أنفسهم على الناس باسم الدين ، ويزاولون السحر وينافسون الكهنة المتطببين من الوثنيين فى صناعتهم ، فحل المرابط محل الكاهن والساحر ، كما حلت جماعات الطرق الصوفية محل الجمعيات السرية الوثنية .

بيد أنه على الرغم من أن النصر كان حليف الإسلام ، بمعنى اعتناق عدد كبير من القبائل للإسلام ، وامتداد الحدود الجنوبية للإسلام حتى الغابات المطيرة فى بلاد اليوربا وجبال أداماوا فى وسط إفريقية ، فإن الأمر المثير هو أن الاندفاع الإسلامى قد تم احتواؤه . ذلك أن اليوربا كان باستطاعتهم أن يضعوا قيداً حاسماً على الفولانى فى سكتو ؛ كما أن الموسى أوقعوا هزيمة حاسمة بماسنة ، ولم يتعرض البمبرة للقهر على الرغم من الهزائم المتكررة . وفى الغرب كان باستطاعة كونج[١٨] تحدى ساموري[١٩] ، وحتى فى بلاد الهوسا لم يكفّ حكام الهابى أبداً عن القتال . ولم يكن أمراء الفولانى يسيطرون إلا على المدن ، وكانوا يخشون أن يهب رعاياهم ثائرين ، ونظروا بذعر شديد إلى تنصيب فخر الدين بن رابح على الحدود الشرقية لبلادهم . وبمقدم منتصف القرن التاسع عشر كانت الحركة الإسلامية العظيمة قد فقدت حيويتها وعنفوانها .

فضلا عن ذلك لم يكن اعتناق الإسلام عامل توحيد ، إذ لم ينجح فى التغلب على النزاعات الانعزالية والقبلية . فالتوكولور لم يحاربوا ضد سامورى فقط ، وإنما ضد الفولانى أيضاً ، وحروب الفولانى مع البرنو هى حروب بين دولتين إسلاميتين يتزعم كل منهما رجل دين . وكان كل من المسلمين والوثنيين يخشون بأس رابح . كذلك لم تكن جيوش المجاهدين مكوّنة من مسلمين فقط – بل إن الفولانى الوثنيين هم أول من أيد الشيخ عثمان . وقد حارب مسلمو البمبرة من أجل قبيلتهم أكثر مما حاربوا من أجل دينهم ، وذلك برغم أن كثيرين منهم حاربوا فى جيوش عمر ضد الفولانى . لقد كانت النزعة القومية الوليدة ، وليس الدين ، هى العامل السائد فى القرن التاسع عشر .

---

(١٨) كونج : مستوطنة أنشأها السينوفو فى أراضى السفانا شمال كوت ديفوار . اشتهرت بإنتاج الكولا . استولى عليها فى عام ١٧٣٠ مهاجرون حولوها إلى مركز تجارى هام . فى عام ١٨٨٩ قبل رئيسها اتفاقية وضعت بمقتضاها تحت الحماية الفرنسية ، فاجتاحها سامورى ودمرها وطرد الفرنسيين منها .

(١٩) سامورى : المجاهد أحمد سامورى تورى ، جد زعيم غينيا السابق أحمد سيكوتورى ، وزعيم الحركة الإصلاحية التى نهضت فى جنوب سنغامبيا ، وأخذت طريقاً مماثلاً لحركة الحاج عمر . بلغت حركته ذروتها فى عام ١٨٨١ ، وتمكن الاستعمار الفرنسى من القضاء عليها بعد أن خاض سامورى ضده نضالاً طويلاً ومريراً . اشتهر بالقدرة العسكرية والتقوى والحماسة الدينية . قضى على الشعوذة والسحر والمعتقدات الوثنية ، وأمر بإنشاء الزوايا ، وشجع الإقبال على المدارس .

رابعا

كان الفولانى أصحاب الدور الكبير فى النهضة الإسلامية يتحركون طيلة القرون الماضية نحو الشرق . ويقول ديلافوس إن إبراهيم سعدو أسس أسرة ملكية فى عام ١٦٩٠ ، وإن الفولانى ظلوا لفترة طويلة يمارسون الترحال مع ماشيتهم ، ولكن إذا استثنيا جالية كبيرة فى ماسنة تابعة للمندنغو ، ومن بعدهم للسنغى ، فإن الفولانى لم يكن لهم حتى ذلك الوقت دور سائد فى الحياة السياسية .

وبعد سقوط إمبراطورية السنغى اعترف الفولانى فى أول الأمر بسيادة المراكشيين ، ثم بسيادة البمبرة فى سيكو ، غير أنه تَكَشَّف أمام الفولانى مع نهاية القرن الثامن عشر عصر جديد . وقد حوّلهم أحمدو فى ماسنة وعثمان دان فوديو فى بلاد الهوسا ، إلى عنصر تمزيق .

وعثمان دان فوديو أعظم أهمية بكثير من الشيخ أحمدو ، ليس فقط لأنه زعيمه الروحى ، بل كذلك لأن ما أنجزه عن طريق سلسلة متوالية من الأحداث الموفقة كان أقوى تأثيراً . وقد ولد عثمان فى مَرَتْ[٢٠] بأرض غوبر فى ديسمبر ١٧٥٤ . وأبوه محمد – المعروف « بالفودى » أى الفقية – فولانى هاجر من فوتا تورو . وقد درس فى أغدس ، وبعد أن أكمل دراساته جاء إلى غوبر وبدأ دعوته ، وسرعان ما اكتسب مركزاً موقوقاً ، وأصبح معلماً لأطفال الأسرة المالكة . وقد شغل هذا المنصب فى أيام ياكب ونفاتا . غير أن المتاعب بدأت عندما ارتقى العرش

---

(٢٠) تقول بعض المصادر إن عثمان دان فوديو ولد ببلدة طَقَلْ (وترد أيضاً فى صورة طَفَلْ أو دَغَلْ) بأرض غوبر . وقد وردت مَرَتُ فى مقطع شعرى للشيخ عبد الله بن محمد ، فى كتابة تزيين الورقات ، الصفحة ٣٢ : « وإذا مَرَرْتَ مَرَتُ حَيِّى حَيَّهُمْ » . وجاء بحاشية بالجزء الانجليزى من هذا الكتاب أن مَرت هى البلدة التى ولد بها الشيخ عثمان (الصفحة ٩١) . كذلك جاءت العبارة التالية فى تزيين الورقات الصفحة ٢٧ : « ويدخلون فى جماعته ونحن فى بلده الذى اشتهر به ونسب إليه ، وهو طَقَلْ » .

« ولد الشيخ عثمان فى قرية « طَغَلْ بأرض جوبر » ، عبد الله آدم الالورى ، الإسلام فى نيجيريا وعثمان بن فودى ، الصفحة ٣٥ . وقد وردت كلمة دَغَلّ فى إنفاق الميسور ، الصفحة ٩٨ .

تلميذه يُنْفَ[٢١] الذى كان ينبغى أن يكون مسلماً تقياً . وعلى الرغم من أن ينف قد تعلم على أيدى عثمان ، فإن إسلامه لم يكن صحيحاً ، وكانت لديه رغبة فى تشجيع الوثنية لا لشيئ إلا لمضايقة أستاذه . لذلك رأى عثمان أنه من الحكمة أن ينسحب إلى قرية طَقّل ، وأن يتفرغ للدين . بيد أن أتباعة تزايدوا فى طقل مع تدفق أعداد كبيرة من فوتاتورو وماسنة تحت رايته . لذلك ساورت ساركن (سلطان) غوبر الشكوك ، فقد أصبح المسلمون بمثابة تهديد له ، إذ كانوا يشكلون مجموعة شديدة التماسك تتملكها رغبة دائمة فى تحدى سلطة الدولة . ومن ثم كان يُنْفَ تواقا إلى إخضاع المسلمين ، وقام بمهاجمة معقلهم الرئيسى فى طقل .

وكان بعض أتباع شيهو (الشيخ عثمان) نوى صلابة شديدة فى الرأى ، وكان تلهفهم على اغتنام فرصة للصدام مع الحاكم أقوى من تمسكهم بأحكام دينهم . وكان أشهر أفراد هذه العصبة التى تموج بالاضطراب هو عبد السلام[٢٢] الذى استثار السلطان بامتناعه عن منح البركة لجنوده . وبناء عليه أرسل يُنْفَ جنوداً ليجيئوا بعبد السلام إلى القضاوا[٢٣] ، عاصمة غوبر . وقبض على عبد السلام وأتباعه ، ولكن عثمان تمكن من إطلاق سراحهم . وجاءت الإثارة من

---

(٢١) ياكب : سلطان غوبر ، وقد حكم فى الفترة ١٧٩٥ – ١٨٠١ ؛ وخلفه إبنه نافاتا فى الفترة ١٨٠١ – ١٨٠٢ ؛ وبعد وفاة نافاتا خلفه إبنه يُنْفَ الذى حكم فى الفترة ١٨٠٢ – ١٨٠٨ ، وقد كان ينف تلميذاً للشيخ عثمان فى عهد أبيه نافاتا . وقد ضبطت غالبية الأسماء على إنفاق الميسور وتزيين الورقات وكذلك الحركات الإسلامية فى غرب إفريقية وقيام دولة الفولانى .

(٢٢) عبد السلام المشار إليه هنا لا ينتمى إلى قبيلة الشيخ عثمان ، وإنما إلى قبيلة عريو . نزل مكاناً قريباً من دار الشيخ وسماه « دار السلام » . كان من تلاميذ الشيخ وأحد محاكيه فى الوعظ والدعوة .

« فخاف بعض الجماعة من وعيدهم وهو قوم أخينا عبد السلام فهاجروا قبلنا » تزيين الورقات ، الصفحة ٥٤ .

« ثم رجعنا إلى بلدنا فخرج جيشاً بعد ذلك إلى جماعة عبد السلام فغزاهم ... فتهيئنا للهجرة . فهاجرنا إلى مكان فى أطراف بلاده فى البوادى يسمى قُدُ » . المرجع نفسه ، الصفحة ٥٥ .

(٢٣) القضاوا : يقال القالاوا أيضاً . أسسها بابارى ساركن غوبر لتكون عاصمة له ، وذلك فى أرض زنفرا بعد أن فتحها فى عام ١٨٠٧ .

الفولانى : ذلك أن ينف اعتبر ما أقدم عليه الشيخ تحدياً لسلطته ، فهاجم طقل وفر عثمان إلى قُدُ . وكانت هذه هى هجرة الفولانى .[٢٤]

وعندما فر عثمان إلى قُدُ هبَّ لنجدته الفولانى من مختلف ممالك الهوسا ومن ماسنة – الوثنيون منهم والمسلمون على السواء . وأُعلن الشيخ أميراً للمؤمنين ، ولكن هذه لم تكن انتفاضة للمؤمنين ، ولا حتى للفولانى ؛ فقد كانت زنفرا ، إحدى ممالك الهوسا ، هى أول من هب لمساعدته ، لا لشيئ إلا لوضع حد لسيطرة غوبر . فالغوبراوا (شعب غوبر) كانوا يقيمون أصلا فى أغدس ، ولكن الطوارق طردوهم منها ، ومن ثم جاءوا الى زنفرا واستقروا فى شماليها ، وسرعان ما تحدوا سلطة ساركن زنفرا ، وأصبحت هناك حالة حرب مستمرة بين زنفرا وغوبر . وكانت غوبر أكثر قوة ، وتمكنت من تدمير برنين عاصمة زنفرا . ومع ذلك استمرت زنفرا دولة مستقلة ، وإن ظلت محصورة فى المقاطعات الشمالية ، ولذلك كانت حليفاً طبيعياً للشيخ عثمان . وبسبب تحالف الفولانى مع زنفرا أرغم ساركن غوبر على التفكير فى السلم ، وكتب إلى الشيخ عثمان يطلب إليه العودة إلى طقل . وقدم الشيخ شروطه ، وهى « أن يتوب الأمير ، ويخلّص دينه كما ينبغى ، ويتفق هو والمسلمون على دين واحد ، ويبسط القسط والعدل ، ويرد جميع ما سلبوه من الجماعة وما أسروا منهم »[٢٥] ، وأوفد الساركن مبعوثاً ، ولكن الشيخ أصر على أن يحضر الحاكم بنفسه ، ولم تقبل غوبر المهانة ، واستمرت الحرب .[٢٦]

---

(٢٤) يحدد بوفل يوم ٢١ فبراير ١٨٠٤ تاريخاً لهذه الهجرة . انظر ، بوفل ، المرجع السابق ، الصفحة ٢٣٦ .

(٢٥) إنفاق الميسور ، الصفحة ٩٨ .

(٢٦) « ثم أنه كان أمير » غم « أرسل إلى الشيخ وطلب أن يصلح بينهُ وبين أمير غوبر .... وأخبر الشيخ أن أمير غوبر ندم وعزم أن يقبل على الشيخ كل خلة طلبها منه ... واتفق رأينا أن يجتهد الأمير ويسير إلى الشيخ بنفسه ، ويأخذ من الشيخ كل ما يريد ، .. فذهب ذلك الوزير حتى وافى الأمير وأخبره بجميع الأمور ، فكاد أن يقبل منه ، فجمع أهل مشورته ، واتفق رأيهم على عدم مسيره وإنفاذ البرداء ، فأنفذوا الشيخ الشريف .. فأخبره بإباء الأمير عن المسير .. » المرجع نفسه ، الصفحتان ١١٥ و ١١٦ .

عندئذ كانت غوبر حريصة على كسب حلفاء لها ضد الفولانى . وكتب ينف إلى حكام الهابى(٢٧) الآخرين لممالك الهوسا – كاتسنا ، كانو ، زازاو (زاريا الآن) ، دورا ، أسبن – يقول لهم إنه ترك جذوة نار صغيرة تنمو دون أن ينتبه إليها ، وإن نارها قد أحرقته ، وطلب إليهم أن يعيروا انتباهاً لخبرته وأن يقوموا بعمل ضد الفولانى المحليين فى ممالكهم ، حتى لا يتكرر عندهم ما حدث فى مملكته . وعقد هؤلاء الحكام العزم على التصدى بعنف للفولانى الذين رأوهم بالفعل يتقاطرون نحو غوبر .(٢٨) ولكن الفولانى كانوا متأهبين لذلك ، وتمكنوا من الإفلات .

وقرر ساركن غوبر تسيير حملة ضخمة ضد الشيخ ، ولكن بعض خيالته من الفولانى انحازوا إلى جانب الشيخ . وبعد مناوشات محدودة عجز فيها فرسان الهوسا عن الانتشار السليم فى المستنقعات التقت القوتان فى تابكين كُتُّ(٢٩) (عام ١٨٠٤) . ولم يكن لدى الشيخ سوى عشرين من الخيالة ، لذلك اعتمد على رماة السهام . أما الهوسا فقد اعتمدوا على الخيالة الذين يرتدون الدروع والذين عجزوا عن الصمود أمام رماة السهام من الفولانى ، وانعقد لواء النصر لقوات الشيخ عثمان بقيادة أخيه عبد الله . ولم يكن هذا النصر حاسماً ، ولكنه دعم قوة الشيخ ، إذ تجمعت تحت رايته أعداد متزايدة من الفولانى ومن الهوسا الساخطين .

---

(٢٧) الهابى : هم قبائل الدوجون الزنجية السودانية التى عاشت فى باندياجارا وهمبرى جنوب غرب تمبكت ، والتى ظلت متشبثة بوثنيتها قروناً كثيرة ضد ضغوط الامبراطوريات الإسلامية الكبيرة والامبراطوريات التى ازدهرت فيما حولها . تنظيمهم دينى وهرمى يحكمه مجمع شديد التكامل من الأفكار الفلسفية والكونية تحت حكم رؤساء كهنة مقدسين « الهوجون » . يقوم دينهم على عبادة الأسلاف التى تمثلها أعمال الحفر الشهيرة لديهم .

(٢٨) « وكان من حديثها أنه لما خرج بريدنا من عند أمير غوبر أخذ الأمير فى التأهب والجهاز .. ، وكاتب إخوانه : أمير كاشنة وأمير كنو وأمير زكزك وأمير دورا وأمير أزبن فأجابوه كلهم بما التمس منهم من مساعدته ومعاونته على كل من انتسب إلى الشيخ وأذنوا له فى الغزو » إنفاق الميسور ، الصفحة ١٠٣ .

(٢٩) ويقال كُتُّ فقط : « فأخرج لنا أمير المؤمنين جيشاً إليه وأمرنى عليه والتقينا معه فى مكان يسمى قَرْنَمَ قريباً من حوض هناك يسمى كُتُّ » تزيين الورقات ، الصفحتان ٥٥ و ٥٦ . ووردت كُتو فى إنفاق الميسور ، الصفحة ١١٠ : « تمام الخبر عن واقعة كتو .... » .

غير أنه لم تكد تمضى بضعة أيام حتى تعرض بِلٌّ لكارثة فى مكَّدَ ، مرجعها أن خيالة الفولانى تحت قيادة ثُنْبُ كابشو لم تكن لديهم دراية بالحرب ، فلاذوا بالفرار فجأة .[٣٠] وانسحب بِلٌّ ، ثم عاود الهجوم وأحرز النصر إثر تلقيه دعماً من قوات ساركن دَنْكَ وساركن برنو وساركن مَفَرَ ، بعد أن طرح هؤلاء الحكام ولاءهم لساركن غوبر . وهكذا مرة أخرى كانت العناصر غير الفولانية - زعماء الهوسا غير الراضين عن غوبر - هى التى قدمت لنجدة الشيخ[٣١] . غير أن الشيخ كان يرغب فى إقامة تحالف مع كبٍّ ضد غوبر ، كما رغب فى أن تقف ممالك الهوسا الأخرى على الحياد . وإذ وضع هذا الهدف نصب عينيه ، فقد كتب فى يوليه ١٨٠٤ إلى حكام كاتسنا وكانو وزازا قائلا لهم إن هدفه هو « نصر الحق على الباطل وإحياء السنة وإخماد البدعة »[٣٢] . ولم تكن لدى كاتسنا وكانو اللتين تزهوان بتاريخهما الإسلامى - وبخاصة كاتسنا التى اعتنقت الإسلام على أيدى المغيلى - رغبة فى الانصات إليه ، ولكن ساركن زازا أصبح من أتباع الشيخ . غير أن الشيخ لم يكن عازماً على انتهاج السلم ، بل كان عاقد العزم على غزو غوبر ، وربما ممالك الهوسا جميعاً .

وانتشرت الحرب عندئذ فى بلاد الهوسا بأسرها . وقام أنصار الشيخ فى كاتسنا وكانو بثورة ضد حكام الهابى ، وانضموا إلى الشيخ بأعداد كبيرة . ولم يكن الشيخ فى ذلك الوقت متحالفا مع زنفرا فقط ، وإنما مع زازا أيضاً ، كما

---

(٣٠) « فنزل جيشنا بمَكَّدَ ونزلوا بكرار وقد جرى بيننا وبينهم محاورات ... فتبعهم الخيل وبعض الرجال ... فاقتتلوا ساعة ، فانحاز المنافق ثنب كابشو فى خيل له ... فكانت الهزيمة فاستشهد جماعة من القراء والصلحاء حتى انتهى الفل إلى الجيش » . المرجع نفسه ، الصفحة ١١١ .

(٣١) « ثم أنه لما سار الجيش إلى منى فى مدة قليلة ورد علينا بريد غد ولغ وأمير دنك وأمير برم وأمير مفر كلهم بالتهنئة ، وكان أمير برم ومفر ودنك قبل هذا الجهاد بغاة على أمير غوبر ولما وصل إليهم الخبر بما صنع الله للمسلمين فرحوا بذلك جداً ، ورغبوا فينا لعداواتهم له ، لا رغبة فى الإسلام ، فداريناهم على ذلك لشدة احتياجنا إلى الميرة فأطلقوا إلينا عيرهم وتجارهم ، وانتفعنا بذلك » المرجع نفسه ، الصفحة ١١٢ .

(٣٢) المرجع نفسه ، الصفحة ١١٤ .

وقف إلى جانبه عدد من نبلاء الهابى فى غوبر، وفى كبٍّ بدورها كان له أنصاره . وكان عثمان مَسًّ ، وهو إبن كَنْتَ سابق ، يأمل فى أن يظفر بعرش كبٍّ بتأييد من الفولانى . وفى عام ١٨٠٥ تحرك المطالب بعرش كبٍّ نحوبرنين كبٍّ بمساعدة جيش من الفولانى بقيادة عبد الله شقيق الشيخ عثمان وعلى جيدُ قائد قوات الفولانى ، وتمكن من اكتساح فودِ حاكم كبٍّ بعد قتال ضارٍ استمر ثلاثة أيام . وأصبح عثمان مسّى عندئذ حاكماً ،[٣٣] ولكنه انضم بقواته فى نهاية العام إلى فودِ (ساركن كبٍّ) والكيل چيريس وحاكمى غوبر ومارادى ضد الفولانى . وهكذا واجه الفولانى تحدياً خطيراً ، لأن ذلك كان ائتلافاً من أضخم ثلاث قوى فى شمال بلاد الهوسا يؤازره الطوارق . ورأى بِلُّ وعبد الله انتظار ما تجئ به الأحداث ، ولكن على جيدُ ، القائد العام لقوات الفولانى ، رأى مهاجمة القوات المتحالفة ، وانتصر رأيه ، وقام جيش الفولانى بمهاجمة قلعة كولد الموالية ونهبها ، ومنها تحرك جيش الفولانى نحو ألْوَس الواقعة على بعد عشرين ميلا غرب غواند . وفى ألوس قام جيش الفولانى بمهاجمة القوات المتحالفة ، ولكنه تعرض للهزيمة بعد قتال ضارٍ منى فيه بخسائر فادحة (نوفمبر ١٨٠٥) .[٣٤]

---

(٣٣) « نكر غزوة كبٍّ . وكان من حديثها أنه لما نزلنا سانبغره ومعنا جموع أهل كب ممن أعانونا على جهاد غوبر وفيهم عثمان مسّى ، وكان الشيخ ولاه على من سمع له من أهل كب وكان له جهة من بلد كب قبل هذا باغيا على سلطان كب ، فاجتمعنا وشاورنا فى أمرنا ، فاجتمع رأينا فى غزو كب فخرج بالراية قائد الجيش على جيد مع الوزير الأكبر ... ثم نهض إلى الحصن ففتحه الله عليهم فقتلوا وغنموا غنيمة عظيمة لم يغنم بمثلها وأسكنواعثمان مسّى فيه » . المرجع نفسه ، الصفحة ١٢٣ . [برنين كب تعنى مدينة كب الرئيسية الحصينة] ؛ وربما كان الوزير الأكبر المشار إليه هنا هو عبد الله شقيق الشيخ عثمان .

(٣٤) « ذكر وقعة ألْوسَ ... وأخبرنا بتحزب التوارك والغوابر وسائر أهل أحوس إلينا – فاتفق رأى سادتنا على الخروج إلى لقائهم ، ورأى البعض على انتظارهم حتى يصلوا إلى رجالنا فصدر الكل على الخروج إلى لقائهم بعد ذلك ، فخرج بالراية قائد الجيوش ... فسرنا حتى نزلنا بكولد ، وهو حصن فيه أهل الذمة وبعض الجماعة ، فاكله الجيش ونهبوا ما فيه ... فمضينا حتى انتهينا إلى جميع التوارك ... ولما سمعنا بحسهم رأينا آثارهم وعبانا القتال ... فرموا ورمينا ، فحملت ميمنتهم على ميسرتنا ، فكانت الهزيمة .. » المرجع السابق ، الصفحتان ١٢٣ و ١٣٤ .

وبعد هذه الهزيمة تراجع الفولانى إلى زنفرا وأعادوا تنظيم قواتهم ، على حين قام الشيخ عثمان بتسوية الخلاف حول وراثة عرش زنفرا . وفى الوقت نفسه فشلت القوات المتحالفة فى الاستيلاء على غواند . وهذا الفشل لم يؤد إلى إضعاف القوات المتحالفة فقط وإنما قدم أيضا سنداً معنوياً للفولانى . وبعد بضعة أشهر أحرز الفولانى نصراً مؤزراً على الطوارق (مارس ١٨٠٦) عند غولين فَافَر بالقرب من زُرْمَ .(٣٥) وترتب على ذلك تمزيق الائتلاف ، لأن الطوارق لم تعد لهم مصلحة فى محاربة الفولانى ، كما أن سلطان أغادس أصبح حليفا . وأدى هذا الخروج على الحلف إلى تدعيم صفوف الفولانى . ومع ذلك فكما يقول بِلُّ ، « ولما انفصلنا من أمر الوس اشتد فى بلادنا الجوع لانتشارها فخرجت بالعير إلى الإطراف الغربية»(٣٦) . واستمرت الحرب المتقطعة فى الشمال ، وذلك لأن فودِ لم يكن راغباً فى الخضوع . وسقطت مدن كبُّ واحدة تلو الأخرى ، وربما كان بِلُّ صادقاً عندما قال « فهاجت نار من فوق ، كرامة للشيخ ، فانتشرت فى ديارهم فكانت سبباً للفتح ، ففتحه الله علينا ومالت الخيل على جندهم حتى أفنوهم ، وقتل من قتل بالحصن من رجالهم ، وسبى ذراريهم ونساؤهم وجمع أموالهم»(٣٧) .

وفى أثناء ذلك ركب الفولانى الموج فى ممالك الهوسا الأخرى . فقد سقطت كانو ونَوَّرا فى أيديهم ، ثم استداروا نحو حليفتهم السابقة زنفرا ، واستولوا عليها أيضا . وفى عام ١٨٠٦ لم يعد يقف فى وجههم غير كاتسنا وأرغنغ . وقام بِلُّ فى ذلك العام بهجوم غير موفق على القضاوا(٣٨) ، عاصمة أرغنغ . ولدى

---

(٣٥) « هذه قصيدة ميمية فى وقعة فَافَر واد بزُرْمَ » تزيين الورقات ، الصفحة ٧٤ .

« غزوة فَافَرَ وكان من حديثها أنه لما هزم الله التوارك .. ولما رجعوا لبلادهم أخذوا بالتأهب إلى غزو زُرْمَ فمكثوا طويلا ... ولما نحوا نحو زُرْمَ رجعنا لبلادنا » إنفاق الميسور ، الصفحة ١٤٠ .

(٣٦) المرجع السابق ، الصفحة ١٢٧ .

(٣٧) المرجع نفسه ، الصفحة ١٤٧ .

(٣٨) « ذكر غزوة القضاو الأولى ... اجتمعنا وشاورنا فى أمرنا فاتفق رأينا على قتاله والمسير إليه .. وقاتلناهم أشد قتال ، حتى كاد يفتح لنا ، واستشهد من جماعتنا الكثير ... » المرجع نفسه ، الصفحتان ١١٧ و ١١٨.

عودته وجد أن والده مصاب بمرض خطير . وفى العام التالى وقعت أرغنغ معاهدة سلم ، ولكن الشيخ رفض قبولها ، وأصر على أن يحضر زعماء أرغنغ ويعلنوا الخضوع أمامه . وعندما فعلوا ذلك ذبحهم الفولانى واستثيرت أرغنغ وواصلت الحرب .[٣٩] وقام بلٌ بمحاولة أخرى ضد القضاوا فى عام ١٨٠٧ ، ولكنه أخفق للمرة الثانية .[٤٠] ووصل الفولانى فى عام ١٨٠٨ إلى ذروة نجاحهم ، فقد تغلبوا على مقاومة أرغنغ ، وخضعت لهم جميع مدن كبّ ، وغزوا قلعة القضاوا بدورها .[٤١]

فضلا عن ذلك فإنه بينما كان الفولانى فى أوج انتصاراتهم ، كان باستطاعة كاتسنا التصدى لهم . كما أن حكام الدول الأخرى من الهابى بدورهم لم يتخلوا كلية عن آمالهم . وفى شططهم استداروا نحو إمبراطور البرنو الذى كان سيدا عليهم . ولكن وا أسفاه ! فامبراطورية البرنو التى كانت يوماً ما ذات قوة وبأس ، والتى حكمها مايات (ملوك) بنى سيف دون منازع لأكثر من ألف سنة ، أصبحت الآن مجرد صورة باهتة لأمجادها السابقة . ومع ذلك فقد أوفد السلطان وزيره لمساعدة حكام الهابى . وبحر الوزير ، ورفع الفولانى فى برنو رايه العصيان .

!

---

(٣٩) « ذكر غزوات أرغنغ ، وكان من حديثها أن أهل أرغنغ سالمونا ، ثم رأينا أخلافا . فنبذ إليهم الشيخ عهدهم ، ولما سمعوا بذلك وجهوا من أشرافهم ليطلبوا لهم الأمان ، فقتلهم أغيلمات ، فثار الحرب ومضى الجند ، وفيهم الوزير الأكبر عبد الله وقائدُ الجيش على جيد وعبد السلام ، فقاتلوا أرغنغ أشد قتال ، وحاصروه ولم يفتح عليهم فرجعوا » المرجع نفسه ؛ الصفحة ١٤٨ .

(٤٠) « غزوة القضاو الثانية ... فاتفق رأينا فى غزو القضاوا وعلينا قائد الجيش .... فاجتمعنا وشاورنا ، فاتفق رأينا فى غزو التوارك فسرنا إلى معسكرنا لنعبر إليهم ، فلقينا أشرافهم وافوا يلتمسون الصلح ، فصالحناهم على عهود ومواثيق » . المرجع نفسه ، الصفحتان ١٤٥ و ١٤٦ .

(٤١) « غزوة فتح القضاو الثالثة .... وأمرته بالتهيؤ إلى غزو أطراف القضاو ... فقاتلنا هناك ... ففتح الله علينا الحصن طرفة عين ، فمال المسلمون عليهم بالقتل والأسر ، وقتل أميرهم ينف ... وكان المسلمون أينما كانوا يتوقعون وقعة القضاو ... فلما كانت الوقعة وسارت بها الركبان سقط فى أيديهم ، وانكسر ظهورهم ، فتاب بعضهم ، وتابع آخرون ، فاستقام أمر البلاد ، واطمأن جوانبها ، والحمد لله رب العالمين » . المرجع نفسه الصفحة ١٤٩ .

لذلك أوفد ماى برنو[٤٢] رسولا إلى الشيخ التماسا للسلم . وبناء عليه كتب بِلّ إلى الماى يشرح له أسباب الحرب ومنشأها ، كما أوفد بلّ رسولا إلى رؤساء الفولانى يحظر عليهم شن الحرب ضد برنو . بيد أنه وقت وصول الرسول إلى برنو ، كان جيش برنو قد بدأ حملة أخرى . وتصدى له **إبراهيم زاكِ**[٤٣] ، وهو رئيس فولانى فى تلك المنطقة ، وأوقع به الهزيمة ووصل إلى مشارف عاصمة برنو ، ولكنه أخفق فى الاستيلاء عليها . وكان ذلك بداية للحرب التى استمرت حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

ولهذا النزاع الطويل الأمد جانبه المثير والممتع ، ليس فقط بسبب ما فيه من إثارة تاريخية بوصفه حرباً بين زعيمين بارزين مثل الشيخ الكانمى وسلطان بِلّ ، وإنما أيضاً بسبب الرسائل المتبادلة[٤٤] بينهما والتى كتبت بلغة دينية ساحرة ، والتى يمكن مقارنتها من حيث السفسطة والسباب واستخدام المعتقدات الدينية من أجل أغراض دنيوية بالرسائل التى تبودلت بين **إيفان الرهيب والأمير كوربسكى**[٤٥] .

واستولى الفولانى على السلطة فى المناطق الغربية من برنو ابتداء من عام ١٨٠٧ ، ودمروا غسريميغو عاصمة برنو القديمة ؛ وقد تبين ماى أحمد أنه ليس قوياً بدرجة تكفى لإبداء مقاومة فعالة ضد الفولانى ، فاشتط فى عام ١٨١١

---

(٤٢) هو أحمد بن على الماى الرابع والستون الذى حكم برنو فى الفترة ١٨٠٨ – ١٩٧١

(٤٣) « ثم أنه توفى ابن عبدور ، فقام الفقيه الأستاذ ، المحب المتفنن إبراهيم زاكِ ، وجاهد فخرب برنوا حتى وصل قريبا من الحصن ، وكاد أن يسالمهم . » إنفاق الميسور ، الصفحة ١٥٦ .

(٤٤) يتضمن كتاب إنفاق الميسور عدداً كبيراً من الرسائل المتبادلة بين محمد بِلّ والشيخ الكانمى ، وهى رسائل مطولة للغاية بحيث لا يفيد هنا فى شئ نقل مقتطفات موجزة منها ، وكذلك فإن المجال لا يسمح بالنقل منها فى توسع . ومن ثم فلا مناص من الاكتفاء بالإشارة إلى أنها ترد فى الصفحات ١٥٧ إلى ١٩٢ لمن أراد دراستها بعمق .

(٤٥) إيفان الرابع : (١٥٣٠ – ١٥٨٤) : تُوّج قيصراً لروسيا فى عام ١٥٤٧ ؛ أندريه كوربسكى : كان خصماً عنيداً لايفان الرهيب ، من سلالة أمراء كييف ، دافع عن حقوق النبلاء المقهورين بمهارة أدبية كبيرة .

واستدار نحو الشيخ محمد الكانمى زوج إبنة حاكم نجالا . وأثبت الشيخ المتفقه فى الشريعة أنه جندى ممتاز ، وتلقى فى حربه ضد الفولانى مساعدة من عرب الشوا الذين استقروا بمحاذاة ساحل تشاد . وحشد الشيخ جيشاً قوامه ٤٥٠ من الخيالة وثلاثة آلاف من المشاه ، وبهذه القوة الصغيرة استطاع أن يوقع الهزيمة بإبراهيم زاك .[٤٦]

خامسا

لقد اعترف ببرنو لفترة طويلة باعتبارها القوة الإسلامية الرئيسية فى إفريقية الوسطى ؛ ولذلك كان الشيخ توّاقاً إلى أن يعرف على أى أساس يشن الفولانى الجهاد . وكان هدفه أن يثبت أن الفولانى ليسوا معنيين بإصلاح الدين ورفعة شأنه ، وأن مقصدهم الحقيقى هو الاستيلاء على السلطة . وفى سلسلة من الرسائل تجادل الزعيمان الدينيان حول ما هى أركان الإسلام وما يشكل كفراً . وهذه الرسائل – التى يمكن بالمصطلحات الحديثة أن ندعوها دعاية إيديولوجية – تلقى ضوءاً هاماً لا على الدبلوماسية الإفريقية فقط ، وإنما أيضاً على معرفتهما العميقة بالإسلام .

كان الخلاف الفقهى بين الفولانى والبرنو ، كما سبق أن أوضحنا ، يدور حول ما هى أركان الإسلام . من ذلك قول بلّ عن أهل برنو : « أنا نجاهد أهل برنو وغيرهم بالكفر ، واستمسك فى تفكيرهم بركوب الأمراء لبعض المواطن ، قصداً للصدقة بها ، وانكشاف الحرائر ، وأخذ الرشوة وأكل مال اليتيم ،

(٤٦) « فقام الفقية الأستاذ المحب المتفان إبراهيم زاك ، وجاهد وخرب برنو حتى وصل قريباً من الحصن ، وكاد أن يسالمهم ثم رجع وقام الأخوان الفلاتيون ... وجاهدوا أرض برنوا من جهة اليمين ، فوجه إليهم أمير برنوا جنوداً والله تعالى يردها عنهم ، حتى أفنوا أكثر جنود برنوا ... ولما رجع أمير برنوا هناك واستغاث بمن تخلف عنه ، وفيهم الحاج الأمين ابن محمد الكانمى ، فهجموا على الطائفة ، فاستشهدوا فانتشر باقى الناس إلى ممتنع البلاد . » إنفاق الميسور ، الصفحتان ١٥٦ و ١٥٧ . [وبذلك يتضح أن المقصود هنا ليس الشيخ محمد الكانمى وإنما إبنه الحاج الأمين .]

والجور فى الحكم – كما ثبت عندنا من كفرهم ، بجهل الأصول ، والنبح للأحجار والأشجار»(٤٧). ويتهمهم فضلا عن ذلك بممارسة طقوس دينية معينة فى النهر شبيهة بتلك التى كان المصريون يمارسونها على ضفاف النيل ، وبأن لديهم بيوتاً معظمة يمارسون فيها طقوسهم الرئيسية وعليها حراس معينون .(٤٨) ولا يؤمن سلطان بلّ برواية الكانمى بأن شعب برنو من المسلمين وبأن زعماءه يؤمنون بمحمد ، « لأننا لا نعرف ما إذا كانوا يتبعون وصايا فقهائهم أم حادوا عنها » . ويمضى بلّ فى اتهامه للكانمى بأنه كاذب يدرك جيداً أن سلطان برنو وأهلها كفار ، ويزعمون بأنهم يقرون بالإسلام . فضلاً عن بعض نقاط أخرى تناولها الشيخ عثمان ، إذ يقول إن برنو وممالك الهوسا تفرض ضرائب لا تقضى بها الشريعة ؛ وإن موظفيها فاسدون ويتخذون لأنفسهم ألقابا لا يقرها الإسلام ؛ وإن أهلها يرفضون التخلى عن أعراف أسلافهم ، ثم أن العقوبات التى توقع على مرتكبى الجرائم لا تتمشى مع الشريعة ؛ فهم لا يرجمون الزانى أو الزانية ، ولا يقطعون يد السارق ، ولا يتبعون أحكام الشريعة ، وإنما يستعيضون عنها بعقوبات ذات أساس اقتصادى .

فضلاً عن ذلك فإن حكام الهوسا يعيشون فى قصور مزينة ، ويحتفظون حريم كثير ، وتلك أمور يحرمها الإسلام . ولا ينكر الكانمى اتهامات بلّ ، وتزخر رسائله إليه بمستوى من السفسطة يفتقر بلّ إليه ، ويقول إن اتهاماته الخمسة لا تجعل من الحرب عملاً مشروعاً .(٤٩) «وإن قلتم : فعلنا ذلك بكم لكفركم فإنا براء

(٤٧) من رسالة وجهها بلّ إلى الكانمى ، المرجع نفسه ، الصفحتان ١٦٤ و ١٦٥ . وكلمة « تفكيرهم » فى هذا الاقتباس وردت هكذا بالنص ، وربما كانت صحتها « تكفيرهم » .

(٤٨) « أنهم يتبعون للأحجار وللأشجار ، ويعملون للبحر ، كما كانت القبط تفعل للنيل أيام الجاهلية ، وأن لهم بيوتاً معظمة فيها أصنامهم ، ولها سدنة . » من رسالة أخرى من بلّ إلى الكانمى ، المرجع نفسه ، الصفحة ١٧٢ .

(٤٩) « ومن أعظم حججكم على تكفير عامة المؤمنين ، ركوب الأمراء لبعض المواطن ، قصداً للصدقة بها ، وكشف رؤوس الحرائر ، وأخذ الرشوة ، وأكل مال اليتيم ، والجور فى الحكم . وهذه الخمسة لا تبيح لكم هذا الفعل ... » المرجع نفسه ، الصفحة ١٥٨ .

من الكفر ، بعيدون عن ساحته ، فإذا كان إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ومعرفة الله ، وصوم رمضان ، وعمارة المساجد ، كفراً – فما الإسلام ؟ .. أما ركوب الأمراء فبدعة شنيعة مذمومة ، وجب النهى عنها والإنكار على فاعلها ، ... وأما كشف الرأس فحرام أيضاً ، ورد القرآن بالنهى عنه ، لكن لا تكفر فاعلته ... وكذا أخذ الرشوة وأخذ مال اليتيم والجور فى الحكم ، وكل ذلك من الكبائر التى نهى الله عنها ، لكن لا يكفّر أحد بعد أن استقر إيمانه بذنب ، فلو أمرتم بالمعروف ، ونهيتم عن المنكر ، واعتزلتم الناس حين لم ينتهوا ، لكان أحسن من هذا القتل ، إذ الأمر والنهى متوقف على شروط : منها ألا يؤدى إلى ما هو أعظم منه ، وهذا نهيكم قد ورطكم ، وأدخل عليكم وعلى المسلمين ضرراً دنيوياً وأخروياً ... »[٥٠]

والكانمى فضلاً عن ذلك يتهم الفولانى بأنهم : (١) يطئون الكتب التى يرد فيها إسم الله ؛ (٢) ويحنثون باليمين ؛ (٣) ويقتلون الرجال ويأسرون النساء والأطفال[٥١] ؛ ويخلص من ذلك إلى ما يلى : « فيا عجباً منكم بعد أن كانت لكم التقدمة فى العلم والدين ، أحببتم الملك ورغبتم فيه وسولت لكم نفوسكم ، وتخيلتم ما تخيلتم ، واستدللتم بظواهر لا تنهض لكم دليلاً ... »[٥٢]

ورد بِلُّ على الكانمى لا يقل أهمية . فهو يرفض ما يقوله الكانمى عن الشيخ عثمان ، ويتهمه بالتخبط والجنون[٥٣] . وحجته فى ذلك أنه ما دام الشيخ يقول

---

(٥٠) من رسالة أخرى من الكانمى إلى بلُّ ، المرجع نفسه ، الصفحتان ١٥٨ و ١٥٩ .

(٥١) « نعم رأينا منكم ما ينكره كل موفق ، وذلك إهانتكم للكتب برميها فى الطرق وفى المواضع المستقذرة – وفيها اسم الله تعالى . وتعلمون أن من ألقى آية من القرآن فى موضع مستقذر كفر ، والعياذ بالله ! وكذلك رأينا من بعضكم من يعاهدون ويؤكدون الإيمان ، ثم ينقضونها بعد توكيدها ، بقتل الرجال واسترقاق النساء والأبناء ... » المرجع نفسه ، الصفحتان ١٥٩ و ١٦٠ .

(٥٢) المرجع نفسه ، الصفحة ١٦٠ .

(٥٣) « وأما قولك : يا عجباً – إلى فعلكم ، فكلام مختلط ، أو كلام من تخبطه الشيطان من المس ، تشهد لنا بالخير ، ثم تشهد لنا بالشر ، كفى بهذا خبالاً وخبطاً ... وهكذا قولك فى الشيخ عثمان بن فودى : شهدت له بالخير ، ثم الممت إليه بالشر ، خبطاً منك وخبالاً فى قلبك ، كفى بهذا منك نقيصة » . المرجع نفسه الصفحة ١٦٩ .

بأنهم جلبوا المتاعب للمسلمين بسبب الحرب ، فإن ذلك لا يعني إلا أنه يتخذ جانب الهوسا . وفي هذه الحالة يوضح بلّ أن الكانمي لا يعنيه ما يقوله الشيخ . وربما يكون بلّ قد أدرك أنه بمقتضى الشريعة لا يمكن تبرير الحرب ضد ممالك الهوسا برفض الكانمي للعرض الذي قدمه الشيخ بأن يدع فقهاء الشرق يقررون ما إذا كانت هذه الحرب جهاداً أم لا .(٥٤)

لقد أوضح بلّ سبب حروبه مع برنو ، وهو لا يرجعها إلى كفرهم الذي لا يملك بشأنه دليلاً يكفي لأن يكون حكماً قائماً بذاته ، « لأنه ما بعث أمير برنو – على ما بلغنا – على إذاية المجاورين لكم من الجماعة المنتسبين إلى الشيخ ، حتى ألجأهم إلى الهجرة ، وبدأهم بالمقاتلة ، إلا التعصب لملوك حوس ونصرتهم ، ... فهؤلاء كفار مرتدون مثلهم بإجماع ،... أما أموالهم ففي ردها لهم وجعلها في الفيئ خلاف تقرر في علم الفقه ... فإذا كان الأمر كما ذكرت من أنهم تابوا وأقلعوا ، فوضع القتال إذ ذاك عما بيننا وبينهم واجب » .(٥٥)

وكتب عثمان دان فوديو بدوره إلى الكانمي يقول : « وقد بين لنا الشيخ الحق ورأيناه واتبعناه »(٥٦) . وجاء في رد الكانمي على الشيخ : « وكذلك رأينا من بعضكم من يعاهدون ويؤكدون الأيمان ، ثم ينقضونها بعد توكيدها ، بقتل الرجال واسترقاق النساء والأبناء ، فيا عجباً منكم بعد أن كانت لكم التقدمة في العلم والدين ، أحببتهم المُلك ورغبتم فيه وسوّلت لكم نفوسكم ، [illegible] ـيلتم ،

---

(٥٤) « أعلم أن سبب قتالنا لكم فلأنكم واليتم كفار حوس (الهوسا) دوننا بغير تقية منهم ... ولقيامكم أيضاً على إذاية المجاورين من الجماعة حتى ألجأتموهم إلى الهجرة ، وبدأتموهم بالمقاتلة ، تعصباً لملوك حوس ونصرة لهم ... » المرجع نفسه ، الصفحة ١٦٧ .

« فإذا كان الأمر كما قيل فسنوجه بريدنا (مخداد بن ليم) ويحضر معه سادات المشرق من الجماعة ، فتوجهون أنتم من ترضونه لأموركم وتأمنونهم وراء ظهوركم ، فيكون الموعد بسيكو فيتعاقدون على عهود ومواثيق يتوافقون عليها ويتراضون فيوضع القتال ، ويثبت السلم ... فإذا كان الأمر كما ذكرت من أنهم تابوا وأقلعوا فوضع القتال إذا ذاك عما بيننا وبينهم واجب » . المرجع نفسه ، الصفحتان ١٧٤ و ١٧٥ .

(٥٥) المرجع نفسه ، الصفحات ١٧٣ إلى ١٧٥ .

(٥٦) من رسالة لمحمد بلّ رداً على الشيخ الكانمي ، المرجع نفسه ، الصفحة ١٦٢ .

واستدللتم بظواهر لا تنهض لكم دليلاً ، لا سيما وقد سمعنا من سير الشيخ عثمان بن فودى ورأينا فى تآليفه ما يخالف فعلكم »[٥٧] . وما يريده الكانمى هو أن يأمر الشيخ أتباعه بعدم الإغارة على برنو . وهكذا يتضح أن عثمان دان فوديو لم تكن لديه حجة لشن الحرب ، فضلاً عن أن الجهاد لا يمكن الخروج له إلا بشروط ، ومن المشكوك فيه ما إذا الشيخ قد تقيد بهذه الشروط ، فرسالته إلى أحمدو حاكم ماسنة تبين أنه لم يكن يولى الشروط الموضوعة للخروج للجهاد أهمية كبيرة .

وكانت هناك أسباب أخرى لثورة الفولانى لا تقل أهمية عن الأسباب الدينية ، فى مقدمتها انزعاج حكام الهابى المتزايد من النفوذ الذى تكتسبه طبقة الفقهاء التى تتعارض أعرافها الاجتماعية مع أعراف الهوسا . وقد أصدر نفاتا ، أمير غوبر ، الذى شغل الشيخ عثمان فى عهده منصب معلم الأسرة المالكة ، قوانين لتقليص قوة تلك الطبقة ، يقول عنها محمد بلّو : « فلم يرعنا إلا إنذار أمير غوبر نافاتا بثلاثة أمور : أنه لم يرض لأحد أن يعظ الناس إلا الشيخ وحده ، ولم يرض لأحد بالإسلام إلا وارثه من آبائه ، ومن لم يرث الإسلام فليعد إلى ما وجد عليه آباءه وأجداده ، وألا يتعمم أحد بعد اليوم ، ولاتضرب امرأة بخمارها على جيبها – وهذا إنذاره فى الأسواق ، كل ذلك سعى منه فى مكيدتنا ... »[٥٨] .

ويعتبر ذلك بطبيعة الحال تعدّياً على حقوق المسلمين . وكان أمن الدولة هو الذى دفع نفاتا إلى اتخاذ هذه الإجراءات . فالإسلام كان يقتصر على طبقات معينة فى بلاد الهوسا : وكان من الضرورى المحافظة على النسبة بين الوثنيين والمسلمين ، فزيادة عدد المسلمين تعنى أن تكون السلطة فى أيدى الفقهاء . وكانت قوة المسلمين كأقلية تكمن فى تماسكهم الاجتماعى ؛ وكان نفاتا يأمل فى القضاء على هذا التماسك عن طريق منع لبس العمامة وارتداء الخمار . بيد أن

---

(٥٧) المرجع نفسه ، الصفحة ١٦٠ .

(٥٨) هذا الاقتباس لم يرد بنصه فى المتن ، إنما صاغ بانيكار معانيه بأسلوبه . ولما كان الأمر لا يعدو اختلافاً فى الصياغة ، فقد آثرت أن أورده طبقاً لنصه فى إنفاق الميسور ، الصفحتين ٩٦ و ٩٧ .

هذه الإجراءات لم تسفر عن ثورة ، على الرغم من أنها كانت تعنى أن الفقهاء قد انقلبوا على حكام الهابى ، وبدأوا تحريض السكان .

وقد تفشى السخط فى بلاد الهوسا . إذ أن الحروب المستمرة منذ نهاية القرن السادس عشر ، وكذا غزوات الكوارارافا ، أدت إلى تدمير الاقتصاد . ولجأ الحكام من أجل الحصول على البنادق والبارود والخيول إلى زيادة الضرائب .

وقد ترتب على الضرائب إبعاد التجار الأجانب من كانو منذ بداية القرن الثامن عشر ، وفرضت ممالك الهوسا الأخرى بدورها الضرائب والمكوس على قوافل التجارة . بل إن العامل الأكثر أهمية فى زيادة السخط العام كان نظام إيرادات الأراضى ، وكذلك الچانجالى التى فرضت على أغنام القبائل الرعوية . فهذه الضرائب قد فاقمت السخط كثيراً بين الفلاحين . وكان تجنيد الهوسا للمسلمين إجبارياً فى جيوشهم بمثابة إضافة الوقود إلى النيران المضطرمة . وكانت الحادثة التى أشعلت ثورة الفولانى متصلة بهذه القضية الأخيرة ، فقد رفض عبد السلام ، أحد أتباع الشيخ عثمان ، أن يبارك الجنود الذين جندتهم غوبر من بين رعاياها المسلمين . وهكذا لم تكن الأسباب الاقتصادية أقل أهمية من الأسباب الدينية .

ويزداد ذلك وضوحاً إذا أجرينا تحليلاً للطبقات التى أيدت الجهاد . أولاً ، كان هناك نبلاء الهابى غير الراضين عن غوبر ؛ ويلى هؤلاء أهميةً الزنفرا الذين كانوا يعتبرون غوبر عدوة لهم ؛ وكان هناك أيضاً المطالب بعرش كبّ ؛ وكان لابد لنبلاء الهابى والزنفرا أن يتخذوا جانب أى متحدٍ لسلطة غوبر . وبصرف النظر عن هؤلاء النبلاء ، فقد حصل الشيخ على تأييد الفولانى الفقراء ، المسلمين والوثنيين على السواء، الذين أثقلت الچانجالى كاهلهم . كذلك أيده أهل القضاوا ، مسلموهم ووثنيوهم ، فى المراحل الأولى ؛ كما كان الفولانى من سكان المدن يتخذون حتى وقت نجاح الثورة موقفاً معتدلاً من الشيخ عثمان . فخيالة غوبر من الفولانى ، على سبيل المثال ، حاربوا فى البداية ضد الشيخ ، ولكنهم ما إن

أدركوا قوة الشيخ حتى تخلوا عن يُنْفَ ، أمير غوبر . وربما لقى الشيخ التأييد أيضاً من التجار ، وكذلك الحرفيين ، بسبب الضرائب الفادحة والطابع التعسفى للإدارة ، وقد استفاد الشيخ كثيراً من هذه النقطة الأخيرة ، ومن حقيقة أن حكام الهابى قد استبدلوا بالعقوبات التى نصت عليها الشريعة عقوبات اقتصادية .

ولم تتضح الجوانب الدينية والعرقية للجهاد إلا بعد نجاح الشيخ عثمان ، فكل حملة الرايات تقريباً كانوا من الفولانى ، بل إن حكام الهابى الذى اتخذوا جانبه ، مثل حاكمى زنفرا وزَوْرُ ، قد حل محلهم الفولانى . وهكذا أفاد الشيخ كثيراً من السخط الاقتصادى والسياسى المتفشى فى بلاد الهوسا كى يفرض سيطرة المسلمين من الفولانى .

لقد كانت ثورة الفولانى رد فعل للتجديدات التى أدخلها الهوسا على الإدارة ، ولم يكن مرجعها حقيقة أن يُنْفَ قد فاق نفاتا فى اضطهاده للمسلمين . أو أن الوثنيين قد أصبحوا خلال أيامه أكثر مجاهرة بتقيدهم باعرافهم التقليدية ، وإنما مرجعها أن عهدى يُنْفَ ونافاتا قد شهدا تزايد سلطة طبقة الفقهاء . وقد أخفقت إجراءات نفاتا لتقييد نموهم ؛ وكان باستطاعة هؤلاء الفقهاء استغلال السخط السائد بإبلاغ التالاكاوا أن حكام الهابى غير مسلمين . وإلى جانب الفساد فى الإدارة والضرائب الباهظة – التى ركز عليها المجاهدون لكسب تأييد شعبى – ركز الشيخ كثيراً على إدارة القضاء . فقد شكا من أن حكام الهابى لا يتبعون الشريعة ؛ فهم لا يجلدون أو يرجمون الزانى أو الزانية ، ولا يقطعون يد السارق ، ولا رقبة القاتل ، ولا أطراف من يحدث أذىً بدنياً بشخص آخر . والحقيقة أنهم تخلوا عن القانون العبرى القديم ، قانون العين بالعين والسن بالسن ، واستعاضوا عنه بالمفهوم الحديث للعقوبات الاقتصادية . وفى هذا النظام مساس بالفقهاء من الناحية الشخصية ، فكانوا فى مقدمة من عارضه . وفى بلاد الهوسا اقتصر دورهم على تأدية الواجبات الدينية ، ولم يكن يسمح لهم بالتدخل فى الشؤون السياسية . أما الحكام الأكثر اهتماماً بأمور الاقتصاد والإدارة فلا يطلبون مشورة العلماء .

والواقع أن بلّ قد سلّم بذلك ضمناً عندما كتب إلى الكانمى يقول بأن الفولانى لا يعرفون ما إذا كانت برنو تتبع وصايا علمائها .[٥٩]

ويمكن ملاحظة أن ثورة الفولانى كانت فى أساسها حركة محافظة ذات نغمات عرقية خافتة من حقيقة أن الفلاحين الفقراء الذين ساندوها بحماسة فى مراحلها الأولى سرعان ما خبت حميتهم وانقلبوا على الفولانى . الأمر الثانى أن زعماء الحركة كانوا أن يكونوا جميعاً من الفولانى . وليس مرجع ذلك أنه كانت لديهم معرفة أكبر بالإسلام ؛ فبعضهم كان جاهلاً ، مثال ذلك زعماء البرنو من الفولانى الذين أحالوا الكانمى - عندما سألهم عن أسباب الحرب - إلى الكتب الدينية . بل إن الشيخ أحمدو لم تكن لديه الكتب الكافية لتسيير الإدارة وفقاً لأحكام القرآن . فضلاً عن أن الفولانى ما إن يصلوا إلى السلطة حتى يصبح لديهم من الحريم أكثر مما لدى حكام الهابى ، كما كانوا يعيشون فى قصور مزينة ؛ واستمرت الضرائب على نفس فداحتها فى عهد الطبقة الحاكمة القديمة . ومع ذلك فقد طبقوا إجراءات تنطوى على تمييز ضد الوثنيين والهوسا ، وأصبح القضاء بأسره موجهاً ضد الوثنيين ، وكان هناك قانون لهم وآخر للمسلمين . فطبقاً للشريعة يدفع من يقتل شخصاً من غير عمد ديّة لأهل القتيل ، ولكن أعراف الوثنيين تمنعهم من قبول تعويض نقدى عن وفاة قريب لهم ، ولذلك يفلت المسلم من أى عقاب . وثمة مثال أكثر أهمية هو أنه عندما ألغيت الچانچالى ، كانت الماشية واللحوم التى تباع فى الأسواق معفاة من الضريبة ، على حين لم تكن الحال كذلك بالنسبة للخضروات . وكان المستفيدون من ذلك هم الفولانى بطبيعة الحال . كذلك جُرِّد الوثنيون من حق حمل السلاح ، لأن واجب حماية السلطنة يقع على عاتق المسلم . وبذلك تكون الدولة فى ظل الفولانى قد تخلت عن

(٥٩) « فاعلم أنا ذكرنا فى كتابنا الأول أنه ليس عندنا حقيقة أئمتها وسلاطينها ، ولكن يبلغنا الأخبار بما هو أكثر مما ذكرت فيهم ، وهل هم باقون عن ما يؤثر عن أوائلهم أم غيّروا » . المرجع نفسه ، الصفحة ١٧١ .

المبادئ الثلاثة : المساواة أمام القانون ؛ واجب كل فرد فى الدفاع عن الدولة ؛ تساوى الفرص أمام الجميع . وهكذا تكون سياسة العصور الوسطى التى انتهجها الفولانى قد سحقت سياسة الهوسا العصرية الصاعدة .

سادسا

بمقدم عام ١٨٠٨ كان قد تم دحر كبّ وأرغنغ(٦٠) ، وكانت كاتسنا(٦١) هى الوحيدة التى استطاعت الصمود فى وجه الفولانى خلف أسوار مدينتها العظيمة طيلة سنوات سبع ، بل إن بداية المجاعة لم تستطع أن تخضع المدينة . ولم يغادر حاكم كاتسنا مدينته ويلجأ إلى مارادى إلا عندما ارتفع ثمن النسر غير النظيف ووصل إلى ٥٠٠ كوردى . وأصبحت مارادى وكب وأرغُنْغُ ودندى مراكز تقف فى وجه الإسلام . فالمارادوا (شعب مارادى) واصلوا مهاجمة الفولانى فى كاتسنا ، بل وحاصروا المدينة ، ولم تتمكن كاتسنا من طرد الهوسا إلا بمساعدة سكتو . وقد أقدم دَنْكَمَ ، حاكم مارادى(٦٢) ، على الانتحار بعد فشله ، وخضعت مارادى للفولانى بعض الوقت .

وبعد عام ١٨٠٧ ترك الشيخ الشؤون الدنيوية للدولة فى أيدى أخيه عبد الله وإبنه محمد بِلّ ، وقسم المناطق التى فتحها فيما بينهما: بِلّ على المناطق الشرقية

---

(٦٠) « ذكر غزوات ارغنغ .. ثم اجتمعنا وشاورنا ، فاتفق رأينا على غزوهم وغزو أرغ فسار الجيش وعليه قائد الجيش ، فشننا الغارة على أهل أرغنغ فأصبنا غنائم ... ثم أنه لم تزل السرايا منا غادية عليهم ورائحة ، حتى استلانو ، فاجتمعنا وشاورنا فى أمرنا فاتفق رأينا على غزو أرغنغ فمضينا بالجند ، حتى نزلنا عليهم ، فطلبوا منّا الصلح ، فصالحناهم ، فحينئذ استقام لنا بلد كبّ . » المرجع نفسه ، الصفحتان ١٤٨ و ١٤٩ .

(٦١) « تلخيص ما وقع فى كاشنة .. فسار أمير كاشنة الكافر الذى ولى بعد المقتول إلى دَنْكَمَ ونزل بها فسار إليه عمر دلاج فى نفر يسير ، فكانت الهزيمة ورجع عمر دلاج إلى حصن كاشنة ، ثم أنهم نهضوا إلى حصن كاشنة ، فأخرجوا عمر دلاج منه ، وأكلوا جميع ما وجدوه .» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٢٨، و ١٢٩ . [كاشنة هى كاتسنا] .

(٦٢) ربما تكون كلمة « دنكم » اسم مكان أيضاً ، فقد أشار إليها إنفاق الميسور (الصفحة ١٣٠) على أنها كذلك « فساروا وعليهم الأخ المظفر إلى دنكم » . أما مارادى فهى إحدى مقاطعات غوير ، وأغلب سكانها من الهوسا ، وأكثر من نصفهم مسلمون . انظر أيضاً الحاشية ٩-٦٨ أدناه .

ويتخذ سكتو عاصمة له ؛ وعبد الله على المناطق الغربية ويتخذ غواند عاصمة له .[٦٣] وفى عام ١٨١٧ مات عثمان المجاهد الذى ألهم الفولانى الحمية والتشدد ، وحثهم على أن يخوضوا حرباً لا رحمة فيها ضد الوثنيين ، وكذلك ضد المسلمين الذين لا يتقيدون بأصول الإسلام . وعلى الفور نشأ نزاع بين بلّ وعمه عبد الله ، فقد كان عبد الله يتوقع أن يخلف الشيخ باعتباره أكبر أفراد العائلة سنًا ، وعندما ركب إلى سكتو وجد أن أبواب المدينة قد أغلقت فى وجهه ، فقفل عائداً إلى غواند . بيد أنه فى طريق عودته وجد أن عبد السلام ، الذي أدى عدم استعداده لمنح البركة لقوات غوبر إلى قيام الغوبراوا (أهل غوبر) بمهاجمة الشيخ ، قد أعلن راية العصيان واستولى على كلنبنته ؛ ففرض عبد الله الحصار على المدينة ، وهب بلّ لمساعدته . وعندما رأى عبد الله إبن أخيه ترجل عن جواده واعترف به قائداً للمؤمنين .[٦٤] وسحقت ثورة عبد السلام بسهولة على أيدى جيشى سكتو وغواند اللذين اندمجا فى جيش واحد .

وقد نظم الشيخ عثمان إمبراطوريته بطريقة خاصة . فقد منح الرايات لمختلف رؤساء الفولانى ، وقام هؤلاء بطرد الهابى من مناطقهم وأصبحوا أمراء عليها . واستمرت هذه العملية فى عهد خلفائه ، وفى إيلورين وأدماوا قام إثنان من حملة رايات أمير المؤمنين بتأسيس إمارتين للفولانى .

---

(٦٣) « ولما فتح الله له ولّى أخاه الوزير سائر بلاد الغرب .... وولانى سائر بلاد الشرق » المرجع نفسه ، الصفحة ٢١٣ .

(٦٤) جاء فى الجزء الانجليزى من تزيين الورقات ، الصفحات ١٨ إلى ٢١ ، أن الثوار قد أقاموا فى نهاية الأمر فى كلنبنته ، بالقرب من غواند ، عندئذ هبّ بلّ لمساعدة عمه بعد مناشدة من إحدى زوجات عبد الله ، وأن النزاع بينه وبين عمه ، وإن كان يرجع فى الأساس إلى الطريقة التى عولجت بها وراثة الإمارة ، إنما يعزى أيضاً إلى خلاف مذهبى بين الاثنين حول الموقف الذى ينبغى اتخاذه من ثوار من قبيل عبد السلام . فعندما ظهر بلّ أمام كلنبنته ، وقابل عمه هناك ، ثار بينهما جدل حول ما إذا كان أتباع عبد السلام وثنيين أم لا . وقد سقطت كلنبنته فى العام الثامن عشر من الجهاد (١٨٢٠-١٨٢١) . ويقال إن عبد الله كان متسامحاً حليماً ، مع قدر كبير من العزم والتصميم ، بل عدم الرحمة إذا ما تطلبه تحقيق الهدف الأخير ، كما يقال إن موقفه من عبد السلام قد خلا من الحقد والكراهية والمشاعر المتطرفة .

وأوقعت زنفرا الهزيمة بسلطان بِلّ في أول عام من حكمه ،ولكن الفولاني ثأروا لهزيمتهم . وكان موت الشيخ بمثابة حياة جديدة تزوّد بها كل من لديه رغبة في التصدي للفولاني والإسلام . فتحالف ساركن كاتسنا وساركن غوبر مع الطوارق . ولكن الفولاني أنزلوا هزيمة قاسية بالحلفاء في موقعة دِعِ عام ١٨٢٠ ؛ ووقع ساركن غوبر في الأسر ،(٦٥) وقتل ساركن كاتسنا ،(٦٦) ولاذ الكيل چيريس بالفرار . لذلك طلب بِلّ إلى شعب غوبر أن يختار حاكماً جديداً ، فاختاروا إبنه فوديو .

وأمضى بِلّ الجانب الأكبر من حياته يحارب الهوسا ؛ وظل كَنْتَ كِبّ(٦٧) بوجه خاص شوكة في جنبه . وفي عام ١٨٢٣ سيّر عبد الله قوة كبيرة بقيادة محمد البخاري بن الشيخ عثمان ضد فودِ ، حاكم كِبّ ، الذي كان عندئذ في كُمْبَ . وانضمت قوة من سكتو إلى قوات غواند ، واستطاع فودِ طرد جيوش الفولاني المتحالفة ؛ ومع ذلك فإن الحروب المستمرة أنهكت قوى شعب كُمْبَ ، وأرغم فود على الاعتزال . وفي عام ١٨٢٦ تعقبته قوة من الفولاني ، وتمكنت من قتله .(٦٨) لقد أبقى فودِ بلاد الهوسا الشمالية بأسرها في غليان مستمر ؛ ولذلك

---

(٦٥) « فلما كانت الواقعة وسارت بها الركبان سقط في أيديهم ، وانكسر ظهورهم ... » إنفاق الميسور ، الصفحة ١٤٩ .

(٦٦) « وخرج إليه أمير كاشنة ، وسار حتى وصل بمحله فعبأ للقتال ، فتلاقاهم الجماعة ، ولم ينجعوا فيهم شيئاً ، فرجعوا إلى حصنهم وتحصنوا ، فسار إليهم أمير كاشنه بالجيش ، حتى وصلوا إلى الحصن وقاتلوه ، فرجعت إليهم خيل الإسلام من ناحية فهزموهم ، وقتل أمير كاشنه ... » المرجع نفسه ، الصفحة ١٢٩.

(٦٧) انظر الحاشية ٦ – ٣٣ أعلاه .

(٦٨) « فسار أمير كاشنة الكافر (فود) الذي ولي بعد المقتول إلى دنكم ونزل بها فسار إليه عمر دلاج في نفر يسير ، فكانت الهزيمة ورجع عمر دلاج إلى حصن كاشنة ، فلخرجوا عمر دلاج منه ، وأكلوا جميع ما وجدوه ، ورجعوا إلى دنكم وكان الأخ المظفر محمد محمود من أهل الحفاظ ، ممن أعان جماعة كاشنة على جهادها ... ولما أخرجوا عمر دلاج ، خرج بالراية وقد اتفق خروجه بخروج جماعة كنور لنصرة عمر دلاج ، حتى اجتمعوا قريباً من حصن كاشنة فساروا وعليهم الأخ المظفر إلى دنكم فقاتلوها أشد قتال ، ففتحوها بإذن الله ، وقتلوا أمير كاشنة الكافر، وصناديد قومه...» إنفاق الميسور،الصفحتان ١٢٩و ١٣٠ .

فإن موته ، وحلول ساركن هزيل محله فى كِبٌ ، أنعشا أمل الفولانى فى وضع حد للمقاومة ، ولكن دون جدوى . فقد قامت أسرة حاكمة جديدة فى أرغنغ . وكان كرّان أول ساركن من كِبٌ لأرغنغ . وحافظ كرّان على أعراف حكام كبٌ الموروثة ، وقاد المقاومة الوطنية . وهكذا كان لأرغنغ دور حيوى فى حركة المقاومة ضد الفولانى لا يقل عن دورها أيام الغزو المراكشى . ففى عام ١٨٣١ شن سلطانا سكتو وغواند هجوماً على الكنت ، واستوليا على عدد كبير من المدن ، وأضرما النار فى غنغ ، وهزم كرّان ومات أثناء المعركة . بعد ذلك ظلت أرغنغ طيلة ثمانية عشر عاماً (١٨٣١ - ١٨٤٩) تعترف بسيادة الفولانى ، لكنها عادت فأكدت استقلالها . وفى عام ١٨٣٥ واجه بِلٌ من جديد جيشى مارادى وغوبر ، ولكن القوتين المتحالفتين دحرتا فى موقعة داكوراوا . وخضعت مارادى للفولانى ثمانية أعوام استعادت بعدها استقلالها .

وأمضى العم وإبن أخيه سنوات حكمهما يشنان الحملات على الوثنيين والهوسا ، ولكنهما أخفقا فى تحقيق الاستقرار فى مملكتهما . وكانت مارادى ، عند وفاة بلّ ، خاضعة لسيطرة الفولانى ؛ وتعرضت أرغنغ للافول بموت كرّان ، وقبلت ممالك الهوسا الأخرى سلطة الفولانى . وكان ذلك ذروة ما حققه الفولانى من نجاح ، وبعد وفاة بلّ حدث أفول سريع .

كان بلٌ أكثر حكام الفولانى ثقافة وكفاءة ، كما كان تقيًا ورعاً على غرار أبيه وعمه من قبله . ويقول المؤرخ عن حق « إنه كان عادلاً لا ينفق من بيت المال » . وفى مظهره الشخصى كانت له هيئة نبيلة ، ويبلغ طوله خمسة أقدام وست بوصات ، وله لحية قصيرة مجعدة سوداء ، وفم دقيق وجبهه رقيقة وأنف إغريقى وعيناوان سوداوان . وكان عالماً واسع الإلمام ليس فقط بتاريخ الإمبراطوريات الإسلامية ، بما فيها الإمبراطورية التى قامت فى أسبانيا ، وإنما بالمذاهب المسيحية المبكرة أيضاً . ويعرف جميع صور البروج وبعض المجموعات النجمية وكثيراً من النجوم ، ويلم باستيلاء بريطانيا على الهند . وكان قبل كل شئ ولوعاً بتقصى المعرفة ، فقد وجه إلى كلابرتون أسئلة كثيرة عن أوروبا ليقف على أحوالها .

وركّز بلّ كثيراً على المعرفة : « إن المعرفة لا يمكن بلوغها إلا بالعلم ، والمتعلمون هم أقرب الناس إليها » . ومع ذلك فقد سار ذكره فى التاريخ على أن يحرق الكتب ، والكانمى من بين من اتهموه بذلك .[٦٩] وعلى الرغم من أنه كان مغرماً من الناحية الشخصية بالكتب ، فلم يفلح فى السيطرة على رجال القبائل ذوى المراس الصعب .

ولم يعيّن بلّ عند وفاته خلفاً له ، ولم يترك سوى بعض النصائح للوزير .[٧٠] « حذار من الشقاق ، ولتكن أول من يتبعه بشأن ما تتفق عليه الرايات الثلاث . » وكان هناك حزبان فى البلاط ، الحزب الذى يؤيده القائد العام للجيش ، ويرغب فى تنصيب البخارى ، خال بلّ ، أميراً للمؤمنين ، ولكن أسرة بلّ أوضحت أن عبد الله سلطان غَنْدُ لن يؤيد أى شخص ليس من سلالة الشيخ عثمان . وانتخب عتيق على[٧١] ، إبن الشيخ عثمان ، تحت إسم ساركن المسلمين . وقد بدأ عتيق ، الذى وصفه كلابرتون بأنه « أمير تُعْوِزُه الكفاءة » ، عهده بغارة على دامارى ، وهى مدينة مسوّرة فى زنفرا ، ولكنه لم يوفق فى محاولته . وفى العام التالى (١٨٤٠) حاول أن يستولى على مدينة مسوّرة أخرى ، وأخفق للمرة الثانية ، وهذا الفشل المتكرر شجّع أعداءه . فقام ساركن غوبر ومارادى ، بالتحالف مع الطوارق ، بمهاجمة أمير غوبر صنيعة الفولانى . وهذا الأمير هو على فوديو ، إبن بلّ وإبن أخ ساركن غوبر ، ويقول عنه المؤرخ « إنه كان شائن السلوك ، يبتز الأموال ، ويفرط فى القهر والملذات ، وإنه كان يفسق ويعربد حتى أن أمه كانت تجئ وتشاهد المجون وتجالس المعربدين » . وكان شديد الفجور حتى لم تكن أية امرأة جميلة فى إمارته تأمن على نفسها . ويؤكد المؤرخ عن حق أنه « اعتاد أن

---

(٦٩) من رسالة من الكانمى إلى بلّ « نعم رأينا منكم ما ينكره كل موفق ، وذلك إهانتكم الكتب برميها فى الطريق وفى المواضع المستقذرة – وفيها اسم الله تعالى . وتعلمون أن من ألقى آية من القرآن فى موضع مستقذر كفر .. » المرجع نفسه ، الصفحتان ١٥٩ و ١٦٠ .

(٧٠) وزيره الأكبر غطاطو بن ليما .

(٧١) ويقال أبو بكر عتيق . حكم فى الفترة ١٨٣٧–١٨٤٢ ، حاول إدخال بعض الإصلاحات فى وقت كانت فيه الحمية الدينية لدى الفولانى آخذه فى الانحسار .

يسلك سلوكاً لم يُعرف عن أحد من سلاطين غوبر على الرغم من أنهم كانوا وثنيين » . ولم يكن سلوك النبلاء الآخرين خيراً من سلوكه . ولذلك فلا عجب أن بلغ استياء الشيخ أحمدو ، الحاكم الفولانى لماسنة ، من سلوكهم حداً أعلن معه أنه إذا احتفظ أهل سكتو بأكثر من زوجتين فسيجئ لتخليص الدين من البدع .

وفى عام ١٨٤١ قام عتيق بمهاجمة غوبر التى أصبحت تشكل مع مارادى مركزاً للمقاومة . ولم يكن المارادوا ، الذين عزز الهوسا من كاتسنا قواتهم ، قد فقدوا كل أمل فى استعادة أراضيهم القديمة - بل إن السعدى ظل يطلق على حاكم مارادى إسم ساركن كاتسنا - بل كانوا دائماً فى طليعة المقاومة . واصطدم عتيق بجيشى غوبر ومارادى اللذين اضطرا الفولانى إلى الفرار . غير أن الفولانى عادوا واكتسحوا الحلفاء من ميدان المعركة . وفى العام الخامس من حكمه هاجم عتيق غوبر للمرة الثانية ، وعلى الرغم من الهزيمة التى ألحقها بجيش غوبر وكاتسنا ، فإنه أخفق فى الاستيلاء على حصونهما . وفى طريق عودته اشتد عليه المرض ، وأراد جنوده التخلى عنه فى الطريق ، ولكن عندما أعيد إلى وطنه كان قد فارق الحياة .

وأعاد موت عتيق طرح مسألة وراثة الحكم . وكان الإمام ، وكذلك جزء من الجيش ، إلى جانب أحمد الريافى[٧٢] . أما الوزير فكان يؤيد عليّاً[٧٣] كما أيده أبناء چت القائد العام للجيش . وعلى الرغم من أن على چت نفسه كان أكثر ميلاً إلى الريافى ، فقد أقنعه أبناؤه بتأييد على . وفى المجلس حاول الإمام حث المجتمعين على اختيار أحمد الريافى بإعلانه أن معارضة اختياره إنما هى من عمل الشيطان . غير أن النتيجة كانت غير متوقعة : إذ شعر على چت بأنه أهين وغادر الاجتماع . وفى الاجتماع التالى جاء أحمد الريافى بصحبة أنصاره ، وكذلك فعل أحمد عتيق[٧٤] ، إبن السلطان الراحل . أما على چت ، أهم نصير لعلى ،

---

(٧٢) أحمد الريافى : إبن الشيخ عثمان ، تولى الإمارة فى الفترة ١٨٦٧ - ١٨٧٣ .

(٧٣) على : إبن محمد بِلُّ ، تولى الإمارة فى الفترة ١٨٤٢ - ١٨٥٩ .

(٧٤) أحمد عتيق : إبن عتيق على ، تولى الإمارة فى الفترة ١٨٥٩ - ١٨٦٦ .

فقد التمس مشورة الوزير ؛ وكان الوزير يعلم جيداً أن القائد قد ارتبط بتأييد على ، وترك له الخيار قائلاً : « أما عنى فسأكون خادماً لمن تضعونه فى السلطة » . عندئذ طلب على چت أن يحضر على بن محمد بلّ الاجتماع ؛ وعندما حضر أقسم له القائد العام يمين الولاء .

وحكم على حتى عام ١٨٥٩ ، وفى عهده انهارت إمبراطورية سكُتو المتداعية . وقد هاجم غوبر فى العام الأول من حكمه ودحر جيشها ، غير أنه عندما انسحب الفولانى تقدم الغوبراوا وألحقوا دماراً واسعاً بمناطق الحدود ، وأصبح الغوبراوا الآن أكثر جرأة وإقداماً ، وكما يقول المؤرخ ، « كان الوثنيون يغيرون فى كل اتجاه » . ولم يكن الوثنيون هم وحدهم الذين أثاروا المتاعب لعلى ، بل كان عليه أن يواجه المتاعب من إبن عمه أحمد عتيق . فبعد أن خاب أمل عتيق فى أن يصبح أميراً للمؤمنين أخذ يصارع أخاه عمر الذى رفض أن يستقبله فى حصنه ، وأطاح عتيق بعمر الذى سلم القلعة إلى أخ آخر ، هو سامبا . وأخذ سلطان غوبر يتحين الفرصة ، وبحيلة بارعة أرغم سامبا والجزء الأكبر من قواته على مغادرة القلعة ، ثم دمرها . عندئذ طلب عتيق المساعدة من الأمير موسّولومى . وأرسل جيش من سكتو ، غير أنه بالقرب من قلعة غوص « انقض عليهم سلطان غوبر ، ودارت بين الجانبين معركة عنيفة استشهد فيها أرِتْ ساه ساهاب القائد العام المسلم للجيش وكبار القادة فى جيشه . ولاذ جيش المسلمين بالفرار وتشتت بطريقة مشينة » . وكان انتصار غوبر كاملاً . واستقبلت زنفراً المنتصرين بالأحضان ، وتم إخلاء كل حدود سكتو الشمالية .

ولم تكن غوبر هى المنطقة الوحيدة التى تتعرض فيها سلطة الفولانى للانهيار : فقد أصبح حكام كانو الفولانيون معروفين بالجبن على نطاق بلاد الزنوج ، وفى عام ١٨٤٤ حاولت أسرة الهابى الحاكمة القديمة أن تستعيد المدينة ، ولكنها دحرت بعد قتال استمر عاماً . كذلك أمكن عزل كانو عن إمارات الفولانى الأخرى ، على الرغم من تمتعها بالأمان بسبب أسوارها العالية . ولم تكن الطرق آمنة ، فالننچى الوثنيون يسيطرون على القرى بعيداً عن الطرق الرئيسية ، وباستطاعتهم قطع المواصلات كلما شاءوا .

وكان البخارى مصدر المتاعب الكبرى التى واجهها على . فهذا الزعيم الفولانى ، الذى كان شيخاً لقبيلة خديجة ، قد سبب – بالتحالف مع برنو – قدراً هائلاً من المتاعب لسكتو . وعندما تولى البخارى الإمارة كان عليه أن يواجه تحدى أحمدو ، أخيه الأصغر ، فقد تآمر أحمدو مع سكتو ، وحمل أمير المؤمنين على خلع البخارى . ولم يكن البخارى ، الأمير المحارب المقدام ، بالشخص الذى يقبل ذلك فى استسلام ، فبعد أن طُرد من خديجة ، ألقى بنفسه بين ذراعى برنو . ولم يكن يحرك الشيخ غير رغبته الشديدة فى خلق المتاعب لإخوانه المسلمين ، فزودّ البخارى بالرجال والسلاح . وبمساعدة هذا الجيش تمكن البخارى من غزو خديجة وقتل أخيه . وفى عام ١٨٤٧ قام وزير سكتو باستدعاء البخارى باسم أمير المؤمينين . ورفض البخارى فى أول الأمر ، ولكنه تحرك فيما بعد على رأس جيش . غير أنه لم يكن توّاقاً إلى الحرب ، وأرسل الهدايا إلى الوزير . وكان الوزير قد قبل بالفعل رشوة كبرة من كانو لأن البخارى « نشر الرعب والدمار حتى أبواب كانو نفسها » ، ولأن من مصلحتها أن تسحقه . وفى موقعة تلت ذلك كان النصر للبخارى . وفى عام ١٨٤٩ أُرْسِل « جيش ضخم » بقيادة عبدو چيدادو ، رئيس وزراء سكتو لمحاربة البخارى . ولم تشترك فى هذا الجيش سكتو وحدها ، ولكن كانو وزارياً وزنفراً أيضاً ، غير أن الجيش لحقت به هزيمة نكراء . وأعطت هذه الانتصارات أملاً لوزير البرنو الذى فكر فى تكوين حلف كبير ضد الفولانى يضم غوبر ومارادى وأسبن ، وكذلك القبائل الغربية . وكان أعظم ما يطمع فيه الوزير هو غزو كانو . غير أن المتاعب مع وداى فى الشرق ، ثم اندلاع حرب أهلية فى برنو نفسها ، أنقذت الفولانى .

ولم يكن ذلك هو نهاية متاعب على . فقد قام بخلع الأمير صادقو بتحريض من ساركن ياكى – قائد عام قوات كاتسنا – المتطلع إلى الإمارة ، ولكن كايرا ساركن ياكى لم يُنصَّب أميراً . ونتيجة لذلك أصيبت كاتسنا بضعف شديد ، واستطاعت قوات ماراداوا وغوبر قطع الطريق بين كاتسنا وسكتو بحيث لا يمكن دفع الجزية . وفى عام ١٨٤٩ رفع كَنْتَ كبّ راية العصيان ، وكان قد قبل سيادة

الفولانى فى عام ١٨٣١ . وأصبح على أرغنغ تحت حكم يعقوب ، إبن القرآنى ، أن تكون من جديد مركزاً هاماً للمقاومة التى يبديها الهوسا .

وفى عام ١٨٥٠ دحر هجوم على زنفرا شنته مارادى وغوبر بالتحالف مع الطوارق . وفى العام التالى أحرزت مارادى نصراً مرموقاً على كاتسنا . وهذه الهزائم المستمرة أدت بالفولانى إلى شن حملة كبيرة لإخضاع غوبر ومارادى . ودعا أبو بكر عتيق ، حاكم رابًا ، جميع الأمراء الشرقيين إلى الانضمام إليه فى حملة ضد غوبر ومارادى . وتمكنت جيوش الفولانى المتحالفة من أن تلحق الهزيمة بقوة كبيرة للعدو ، وأضرمت النار فى چيدان غَرِيرى ، عاصمة غوبر ، ولكنها هزمت أمام مارادى . وفضلا عن ذلك أخفقت فى إخماد روح القتال لدى الهوسا والوثنيين .

وبينما فشل الفولانى فى الشمال فى إخضاع الهوسا والوثنيين ، كانت مملكة غواند فى الغرب فى محنة أشد سوءاً . فقد كانت غواند تطالب بالنيچر الأوسط بأسره . ووضع الفولانى فى ليبتاكو وصاى أنفسهم تحت حمايتها . وفى غورما على الضفة الغربية للنهر كان الفولانى قد غزوا الأماكن الرئيسية ، ولكن بعد أفول الاندفاع الأول للحركة الدينية تزعزع الاستقرار بدرجة ألحقت اضطرابا بالمواصلات على طول هذا الطريق الهام . وعند زيارة بارث لهذه المناطق كان عدم الاستقرار قد أجبر قوافل الكولا التى تبدأ من غونچا فى ساحل العاج على التخلى عن الطريق المباشر من بِندى إلى كيمبا . فضلاً عن عدم وجود إدارة لدى غواند فى كفاءة إدارة سكتو . وقد كانت غواند تتكون من أجزاء من دولة كبٍّ القديمة ، هى ليبتاكو وصاى وغواند ، ثم مزقت إلى جزأين هما كبّ وچيرما . وكانت كبّ قد قبلت سيادة الفولانى فيما بين عامى ١٨٣١ و ١٨٤٩ ، ولكنها عادت فأكدت استقلالها فى عام ١٨٤٩ . وفى چيرما استمرت المقاومة بقيادة زعيم يدعى داوود تمكن ، بمساعدة كب فى أرغنغ ، من تحرير چيرما بعد حروب استمرت أكثر من عشرين عاماً (١٨٤٦-١٨٦٦) .

ويعطينا بارث ، الذى زار سكتو ، وصفا للحالة التى كانت عليها البلاد فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . ولم يبد تفاؤلا بشأن قوة الفولانى ؛ ففى الشمال والشمال الغربى لم يكن للفولانى أية سيطرة . يقول بارث : « ومع ذلك فكما يتبين من الأمور فإنه ما لم ينجح الفولبى فى أن يسحقوا تماماً الأقاليم المستقلة فى الشمال والشمال الغربى (وهو أمر مستبعد كثيراً على ضوء الضعف الحالى لإمبراطورية سكتو) ، أو يقم الغوبراوا والماراداوا الذين ما زال ملكهم يحمل لقب ساركن كاتسنا بغزو هذه المدينة من جديد ، فستواصل هذه البلاد تدهورها ، وتزداد كل عام خراباً » . ومرة أخرى يقول : « إن فزع هؤلاء الغزاة المخنثين من رئيس الغوبراوا المولع بالحرب ، ابن يعقوب ، هو أمر يكاد لا يصدق . فقد حكم منذ عام ١٨٣٦ ، وكان فى العام السابق (١٨٣٥) قد حرّض جميع السكان المحليين فى مختلف المناطق ضد القبيلة الحاكمة . ولقد تمادوا كثيراً فى فزعهم حتى أنهم أزالوا تماماً إسمه الحقيقى ، ولم يكونوا ينادونه بغير الماياكى أى المحارب » .

وهكذا ففى عام ١٨٥٤ ، بعد خمسين عاماً من الحروب المستمرة ، كان الموقف غريباً حقاً . ففى دِنْدِ تمكن داوود ، أمير چيرما ، على الرغم من هزيمته فى الميدان ، من الهرب إلى يِلو حيث واصل المقاومة . أما على ، أمير المؤمنين ، الذى قاد الحملة بنفسه ، فقد ترك المنطقة لأنه لم يستطع مسايرة إبن عمه خليل الذى كان يطالب بهذا الجزء من كبِّ . وبسبب الحرب فى دِنْـدِ وما ترتب عليها من انهيار الاتصالات أصبح موقف الفولانى فى صاى لا يمكن الدفاع عنه ؛ وكانت غواند عاجزة عن عمل شئ ينقذ الموقف . فقد أصبحت القبائل الوثنية أكثر جرأة بحيث تعين على أهل غواند القيام بحملات منتظمة يومى الثلاثاء والخميس لجمع الخشب . وفى سكتو لم يكن الموقف أقل سوءاً ، إذ كان الوثنيون يَسْبون الناس من أماكن لا تبعد عن سكتو أكثر من عشرة أميال . كما أن الطريق المباشر إلى كانو ، الذى لم يكن مأموناً فى يوم ما ، قد قطع الآن تماماً . وفى عام ١٨٥٢ دمَّر الهوسا مدينة مونويا ، وفى عام ١٨٥٤ لم يعد فى الإمكان جمع

الجزية من كاتسنا . كذلك قطعت غوبر منذ عام ١٨٥٣ الصلة بين سكتو وغواند . ويحكى بارث رواية خمسين عاماً من حكم الفولانى فى بلاد الهوسا . « واضعين فى الاعتبار الافتقار الشديد إلى الشجاعة والإقدام بين الأهالى ، وضعف على وروحه غير الولوعة بالحرب ، وضحالة خليل التامة ، وحيوية الشاب المحارب المقدام ماديمى ، رئيس كبِّ التائر ، الذى بدأ من موطنه فى أرغنغ ، على مسافة لا تتجاوز مسيرة ساعتين من موطن خليل ، حاملاً معه لهيب الدمار فى كل اتجاه– مقاطعة زامرما الثائرة وعلى رأسها حاكم على نفس القدر من الفتوة والنشاط ، هو داوود بن حمّان جيمآنه – مقاطعة دندينا فى ثورة علنية ، وممزقاً كل سبل الوصول إلى النهر . »

ويبدو أن الفولانى لم يكونوا يمارسون سلطة الحكم فى بلاد الهوسا الشمالية إلا فى مدنهم المسوّرة ، ولا يسع بارث إلا الشعور بالأسى « للحالة الباعثة على الرثاء التى أجد عليها هذه المملكة المتسعة » . ويبدو من رواية بارث أن الفولانى كانوا يعيشون فى خوف دائم من أن يقوم الوثنيون يوماً ما بغزوهم فى عقر دارهم . ولم ينقذ غواند من غزو دندٍ لها سوى افتقار الأخيرة إلى الخيالة . ومع ذلك ظل الفولانى يثبتون وجودهم كقوة أربعين سنة أخرى . واعترف الأمراء بسكتو كزعيمة روحية لهم ، لكنهم أخذوا يزدادون استقلالا . وظلت الإمبراطورية « عظيمة من حيث اتساعها ، ولكن على درجة من الضعف لا يمكن وصفها بسبب مقاطعاتها التى لا تجمع بينها سوى صلات واهية » .

وبمقدم عام ١٨٦٦ كانت غواند راغبة فى إحلال السلم بينها وبين ساركن كبِّ . وبمقتضى معاهدة توغا تخلت غواند عن كل ادعاءاتها بالسيادة على أرغنغ ، وأصبح من حق أرغنغ أن تحتفظ بجميع المدن التى تضع يدها عليها ، شريطة أن يظل الرقيق الذين أسروا فى أيدى آسريهم . وبعد أن أصبحت دندٍ وكبِّ مستقلتين ، لم يعد لغواند صلة مع صاى وليبتاكو . وعقب ذلك لم تعد غواند من ولايات الفولانى . وفى عام ١٨٧٣ عندما تولى حنفى إمارة غواند ، بدأ ساركن

كبّ الحرب مرة أخرى ، واستمرت هذه الحرب بصورة متقطعة حتى عام ١٩٠٢ عندما استولى عليها البريطانيون ، ولم تتخل مارادى أو دندِ قط عن الصراع ، وظلّتا حتى عام ١٨٩٨ تشنان الهجمات على كاتسنا ؛ وعندما فر أمادو إمبراطور التوكولور ، بعد هزيمته ، إلى دندِ قطع الوثنيون رأسه . ولم يكن الموقف أفضل فى كانو . فقد واصل ننْچى الوثنى تهديد العاصمة ، وفى عام ١٨٩٨ تقدم سلطان ديما غَرَم إلى أسوار المدينة قبل أن تلحق به الهزيمة . وهكذا لم يتوقف الهوسا قط عن المقاومة . وبعد بلّوُ كاد الفولانى أن يكونوا فى حالة دفاع دائماً . فممالك الهوسا الشمالية كانت تغير على الفولانى باستمرار ، وكانت المدن المحصنة هى التى مكنت الفولانى فى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر من الصمود فى وجه الهوسا .

سابعا

كانت الأحوال صعبة للغاية فى برنو عندما بدأ الغزو الفولانى ، فقد نجح هذا الغزو فى إرسال الماى أحمد[٧٥] إلى المنفى ، وإخضاع عاصمته والأقاليم الغربية لسيطرة الفولانى . وفى خضم المحنة قام ماى البرنو باستدعاء الكانمى .

ويعد محمد بن أمين الكانمى أحد زعماء الإسلام البارزين فى غرب إفريقية . وقد ولد فى فزان ، وعلى الرغم من أن أبويه كانا من الكانورى ، فإن الكانمى كان مبرزاً فى علوم القرآن . كما أدى فريضة الحج ، وأقام فترة طويلة فى المدينة ومصر . وكانت زوجته إبنة حاكم إحدى المقاطعات – نجالا –، « وبسبب الاعتدال البالغ فى حياته وحسن طباعه » كان الشيخ يحظى بحب وتقدير عظيمين . وقد أثبت الكانمى ، إلى جانب مواهبه كشاعر وفقيه ودبلوماسى ، أنه جندى لامع يتمتع بعبقرية جسورة ورأى صائب ، حتى أنه استطاع بأربعمائة جندى أن يهزم حامية للفولانى قوامها ثمانية آلاف ، وذلك بتسلق الأسوار ليلاً ومباغتة العدو .

---

(٧٥) انظر الحاشية ٩–٤٢ أعلاه . (هو أحمد بن على آخر ماى لبرنو قبل أن تظهر أسرة الشيخ الكانمى وتصبح صاحبة السلطة الفعلية .)

وقد استثير الكانورى حين روى لهم الكانمى رؤيا مفادها أن الله عهد إليه بمهمة تحرير برنو . وخلال الشهور العشرة الأولى كسب أربعين موقعة .

والقوة الرئيسية التى اعتمد عليها هى الخيالة الذين بلغوا ثلاثين ألفا ، إلى جانب عشرة آلاف راجل . ولم تكن قوة الخيالة مكونة من الكانورى فقط ، بل أيضاً من عرب الشوا الذين جُنِّدوا بأعداد كبيرة . وكان رجال الحرس الذين يشكلون صفوة هذا الجيش يرتدون « سترات من السلاسل تصنع فى برنو وبلاد السودان » . ويقول دنهام إن هذا الحرس لا يمكن مقارنته إلا بجيش الفولانى الذى كوّنه السلطان بلّ .

وبمقدم عام ١٨١٤ كان الشيخ قد تمكن من صد الفولانى ، على الرغم من إخفاقه فى إعادة فتح المقاطعتين الشماليتين الشرقيتين – كتاغوم وخديجة – اللتين كانتا قد ضمتا إلى إمبراطورية الفولانى .

وبمضى الوقت كان الكانمى قد وطّد أقدامه ، وكانت برنو قد تقلصت مساحتها كثيراً . يقول دنهام : « كان يحدها من الشمال جزء من كانم والصحراء ؛ ومن الشرق بحيرة تشاد التى تُغطِّى عدة آلاف من الأميال المربعة وتضم كثيراً من الجزر المأهولة ؛ ومن الجنوب الشرقى مملكة لوغون ونهر شارى الذى يفصل برنو عن مملكة باجرمى وتختفى معالمه فى مياه بحيرة تشاد ؛ وفى الجنوب مملكة مندرا ، وهى مملكة مستقلة عند سفح سلسلة جبال ممتدة قديمة ؛ وفى الغرب بلاد السودان » .

وحوّل الكانمى اهتمامه إلى إعادة المناطق التى كانت تابعة لبرنو إلى سيطرة الماى . فبيغرمى التى كانت تابعة لبرنو أكدت استقلالها خلال فترة غارات الفولانى . وقد كرّس الشيخ الفترة بين عامى ١٨١٦ و ١٨٢٤ لغزو بيغرمى ، التى عرف أهلها بالقوة والولع بالحرب ، وقد أوقعوا الهزيمة مرتين بالكانمى – ولم يستطع الشيخ التغلب عليهم إلا بمساعدة قوات من فزان . وعن طريق الاستفادة من نزاع نشأ تمكن الكانمى ، بمساعدة يوسف باشا حاكم فزان ، من أن ينصِّب

مرشحه عثمان على العرش . غير أن عثمان كان عازفاً عن الاعتراف بسيادة برنو بصرف النظر عما قدمه من وعود عندما كان حريصاً على ضمان مساعدة الشيخ . وأجبر الكانمى على أن يسيّر إليه سلسلة من الحملات ، وفى النهاية تمكن من إقناعه بالاعتراف بسيادة برنو ، وتعيين مندوب عنه يقيم فى بلاطه .

وعلى الرغم من أن الشيخ خرج منتصراً ، فإن برنو عانت كثيراً . فقد قتل السلطان دونمه[٧٦] فى موقعة نجالا فى عام ١٨١٧ ، كما فقد الشيخ أيضاً إبنه الأكبر فى الحملة . وكان موت السلطان بطريقة غريبة للغاية . « لم يكن سلطان برنو يحمل أية أسلحة ، فمما يحط من كرامته أن يدافع عن نفسه » ، ولذلك كان يجلس ووجهه مغطى بشال ، « واخترقت جسمه مائة حربة » . وحدث كل هذا على بعد ٥٠٠ ياردة من قلعة أنغالا . وقد شهد دنهام انتصار برنو الحاسم فى عام ١٨٢٤ ، ووصف هذا الانتصار بكثير من التفصيل . كان الشيخ يتحرك مع بعض قواته فى مارس ١٨٢٤ نحو أنغالا عندما هاجمه البيغرميون فى السهول الواقعة إلى الشمال الشرقى من أنغالا . ولم تكن لدى الشيخ رغبة فى القتال ، الأمر الذى زاد من جرأة البيغرميين . ولذلك اتخذ تدابير وقائية . فوضع رقيقه من الموسغو[٧٧] ، المدربين على استخدام البنادق الحديثة ، فى الجناح الأيسر ، كما وضع المدفعين اللذين كانا لديه فى المقدمة مع العرب ، وحاملى الغدارات على يمينهم ويسارهم . واتخذ الشيخ مقر قيادته فى القلب يحيط به حاملو الرماح من الكانمبو . وقام البيغرميون ، وعددهم خمسة آلاف من الجنود الأشداء بقيادة

---

(٧٦) هو دونمه بن أحمد الماى الخامس والستون الذى تولى السلطنة فى عام ١٨٠٧ ، ثم تركها فى عام ١٨١١ ، ولكن الشيخ الكانمى – صاحب السلطة الفعلية – أعاده إليها فى عام ١٨١٤ ، وظل بها حتى عام ١٨١٧ .

(٧٧) الموسغو : مجموعة تشادية تنتمى لغوياً إلى المجموعة التشادية – الحامية ، كما أنها إحدى مجموعات « الصو » المكونة إلى جانب الموسغو من الكوتوكو والبودوما والبوليو وغيرها . وهذه المجموعات لم تنشئ دولاً مستقلة ، وإنما كانت على هيئة مدن صغيرة ولذلك كان من السهل على حكام البرنو التعامل معها كل على حدة . وقد تمكن هؤلاء الحكام من امتصاص بعضها ، على حين واصلت مجموعات أخرى البقاء ، ومنها الموسغو .

مائتى رئيس ، بمهاجمة القلب ، غير أن المدفعين مزقا شملهم . عندئذ هاجمهم خيالة الكانورى وأوقعوا بالبيغرميين هزيمة منكرة . وترجل الرؤساء كى يعبروا النهر ، فقتلوا عن آخرهم ، وكان انتصار الكانمى حاسماً .

وقد سببت إقامة السلطة العثمانية فى طرابلس قلقاً كبيراً للكانمى ، إذ بعث باشا طرابلس قائده محمد المُقْنى لاحتلال القواعد فى فزان . وفى عام ١٨١٧ أغار المُقْنى على حدود برنو . وانزعج الشيخ بطبيعة الحال . ولما كان يواجه دولا معادية فى الشرق والغرب ، فلم يكن يرغب فى أن يهدد باشا عثمانى حدوده الشمالية . وكان يخشى أن يقتدى بلٌ بالمثل الذى سبق أن ضربه ، فيتحالف مع طرابلس ضد برنو . والحقيقة أنه كان هناك ما يدعو إلى القلق ؛ فقد دخل بلٌ فى مراسلات وديّة مع الباشا ، ولم يأت عام ١٨٢٦ حتى كان الكانمى قد نجح فى زعزعة النفوذ العثمانى ، إذ تمكن رئيس محلى يدعى عبد الجلال ، بتأييد من العدد الكبير من السكان الذين ينتمون إلى برنو ، من طرد العثمانيين من فزان . ويمكن أن نلمس قلق الشيخ الهائل ، الذى سببته له علاقة برنو بطرابلس ، من رغبته فى شق طريق إلى مكة عبر وسط إفريقية لتجنب المناطق التى يسيطر عليها الباشا . ولكن حالت دون تحقيق هذه الرغبة الأحوال المضطربة فى وسط إفريقية ، وعمليات النهب التى يتعرض لها الحجاج بالقرب من بحيرة فترى . وسبب آخر لعداء برنو هو أنه خلال الاضطرابات مع بيغرمى بعث الشيخ بأسرته إلى فزان معتمداً على الحلف الذى وقعه ، فاحتجز الباشا أفرادها هناك .

كذلك كانت للشيخ متاعبة مع وادى . فقد نمت قوتها بدورها ، وقامت بالتعاون مع الطوارق وأهالى فزان بنهب كانم . ويصف دنهام كانم بأنها « أسوأ بلاد الزنوج حظاً وأكثرها تعرضاً للاضطهاد ، وهى طلباً للحماية تتأرجح بين وداى وبرنو » . وكان الطريق من برنو إلى كانم وعراً ، وعلى الرغم من أن الشيخ كان يُسيِّر جيشاً كل عام ، فإنه لم يستطيع أبداً تحقيق شئ جدى .

وبعد نجاح الشيخ فى بيغرمى أَوْلى المشكلات الداخلية جلّ اهتمامه . فجعل ممارسة شعائر الدين أكثر صرامة ، وأقام الحد على من يرتكب الفحشاء . وكان فى مقدمة ما اتخذه من إجراءات تشجيع التجارة مع شمال إفريقية ، وإقامة علاقات طيبة مع جيرانه ، ولكن الخوف من غارات الفولانى كان قوياً ، بحيث لم يكن يسمح لأى غرباء بدخول العاصمة فى غياب الشيخ . وقد مات الشيخ الكانمى فى عام ١٨٣٥ .

ولم تكن لدى الشيخ أية مطامع فى الحلول محل الأسرة المالكة القديمة ، وكان فخوراً بأن يُعرف على أنه محرّر شعبه . ومع ذلك فقد ركز كل السلطة بين يديه ، وحكم البلاد كحاكم دنيوى مطلق . وبالتالى كانت له مع الماى متاعب ليست باليسيرة . ورغب خليفة أحمد فى التخلص منه ، ولكن الهزائم العسكرية أرغمت الماى على استدعاء الشيخ . وحاول الشيخ أن يستبدل بالماى أخاه ، بيد أن هذا الأخ بدوره أعرب عن عدم استعداده لقبول الشيخ كسيّد له . وبعد ثلاث سنوات أعاد دونَمه إلى العرش ، ولكنه جرده من كل سلطة . وعندما مات السلطان العجوز أجلس أخاه محمد على العرش ، وأقام له قصراً فى بيرناى الجديدة ، واستقر هو فى أنغورو ، على بعد ثلاثة أميال . وبرغم أن ثلاثة[78] مايات تولوا العرش خلال فترة وجوده فى السلطة ، فإن قبضة الكانمى المحكمة على البلاد هى التى أرغمت المايات على قبول وضع أقل شأناً .

وخلف الكانمى إبنه الشيخ عمر (١٨٣٥–١٨٨٠) ، وكان قد أعرب عن رغبة صريحة فى أن يخلف إبنه الأصغر عبد الرحمن أخاه عمر . وحاول عمر أن يبنى

(٧٨) هؤلاء المايات الثلاثة هم : دونمه بن أحمد ، الماى الخامس والستون (١٨٠٧–١٨١١) ، وفى عهده أصبح الكانمى صاحب السلطة الفعلية فى برنو فى عام ١٨٠٩ ؛ محمد نجلروما ، الماى السادس والستون (١٨١١–١٨١٤) ، وقد عزله الشيخ الكانمى وأعاد دونمه بن أحمد الذى استمر فى الحكم حتى عام ١٨١٧ ؛ إبراهيم أخو دونمه ، الماى السابع والستون (١٨١٧–١٨٤٧) . أما آخر المايات ، وهو على بن دولاتو ، الماى الثامن والستون ، فقد حكم أربعين يوماً فقط إذ ذبحه الشيخ عمر محمد الكانمى ، بعد أن لحقت الهزيمة بهذا الأخير فى موقعة قوصيرى .

إمبراطوريته بأساليب سلمية ، ونجح فى ذلك مع بيغرمى ، كما نجح مع الفولانى بعد حملة غير موفقة . ولكن تعذر عليه كبح جماح الولايات التابعة الكبيرة المسيطرة على الحدود الغربية ، وواصلت هذه الولايات غاراتها داخل إمبراطورية الفولانى . وعندما تعرض حاكم زندر للتهديد قام بثورة ، فسيّر عمر جيشاً بقيادة عبد الرحمن لسحقها .

وهيأ ذلك الفرصة لإنصار الأسرة المالكة القديمة . إذ خلت العاصمة من القوات ، وسلّح آل سيفى أنفسهم ، ودعوا ملك وداى إلى المجئ للإطاحة بعمر وإعادة أسرتهم إلى السلطة ؛ وتحرك جيش وداى نحو قوصيرى فى مارس ١٨٤٦ ؛ ولم يدرك عمر أن غزواً أجنبياً قد وقع إلا عند وصول هذا الجيش إلى قوصيرى ، فاتخذ الإجراءات على الفور ، فقيد الماى إبراهيم بالأغلال ، وبعد أن جمع قوة تقرب من الخمسمائة تحرك نحو قوصيرى . وضرب معسكره على نهر لوجونى ، فى حين كان الوداى على الضفاف الشرقية لنهر شارى . وأغلقت قوصيرى أبوابها فى وجه الجانبين ، ولكن عواطفها كانت مع الأسرة المالكة القديمة . وبفضل المدفعين اللذين يمتلكهما عمر لم يتمكن الوداى من عبور النهر . عندئذ قدمت قوصيرى المساعدة لقواتها بأن دلتها على مخاضة فى النهر لا يقوم على حراستها إلا عرب الشوا الذين انضموا إلى الوداى ، فأخذ عمر على غرة . وفى موقعة قوصيرى فى ٨ مارس ١٨٤٦ لحقت الهزيمة بعمر ، وسقط أخوه الأصغر فى أيدى الوداى ، وكذلك المدفعان . ومع ذلك اتخذ عمر إجراءً سريعاً ، ففى ١٠ مارس قطع رأس الماى .

والآن ترك عمر قوصيرى ، وتراجع نحو الغرب فى حالة أقرب إلى الفرار ، فطارده الوداى حتى نجورنو ، ونهبت العاصمة ، وفى بيرناى أعلن سلطان وداى رسمياً تنصيب على ، إبن الماى إبراهيم ، حاكماً لبرنو . بيد أن جيش برنو كان لا يزال سليماً ، وكان عبد الرحمن يتحرك شرقاً لملاقاة غزو الوداى ، ولم يكن سلطان محمد تواقا إلى مواجهة جيش برنو الرئيسى ، واستقر رأيه على السلم ،

وخان حلفاءه فى برنو ، وأبلغ عمر أن النبلاء الكبار قد دعوه للمجئ والإطاحة بمغتصب السلطة ، وقدّم دليلاً على ذلك مراسلات أنصار آل سيفى . وقبل محمد هدية من المال وانسحب إلى مملكته .

ومع ذلك فإن الماى على والشخصيات البارزة فى برنو فضلوا الموت وهم يقاتلون على أن يعيشوا بقية حياتهم فى المنفى . وسحق الماى فى موقعة حامية ، وسقط على ، آخر مايات آل سيفى فى الميدان ، وتلك نهاية ملائمة لأسرة حكمت فى حوض تشاد لأكثر من ألف عام . وهكذا وقع بأنصار الأسرة المالكة القديمة انتقام رهيب .

وأصبح عمر الآن آمنا على عرشه . وقاد حملة على زندر ، واستسلم الحاكم ، ولكن أعيد إلى منصبه . كما قاد حملات على القبائل الأخرى التى أعلنت العصيان ، ونجح فى إعادتها إلى نفوذ برنو . ولكن عمر ، على الرغم من نجاحه البارز فى إعادة إقرار سلطة برنو ، سرعان ما باعد بينه وبين كثيرين من مؤيديه ، ومرجع ذلك اتخاذه الحاج بشير وزيراً ومستشاراً خاصاً له ، وهو إبن تيراب مستشار والده وصديقه القديم . وظل تيراب مستشاره الخاص حتى سقط فى موقعة قوصيرى .

وكان الحاج بشير رجلاً متعلماً كثير الأسفار ، ويتمتع بنظرة إلى الأمور أعمق مما هو مألوف لدى الإفريقيين ، كما أدى فريضة الحج ، ولكنه شابته رذيلتان : ولع بالنساء إلى درجة الجنون ، وتقتير شديد . فقد جمع حريماً بلغ خمسة آلاف إمرأة قال عنه بارث إنه كان متحفاً بشرياً لجمال المرأة . ولكن بينما أظهر موهبة ملحوظة فى جمع النساء والثروة ، لم تكن لديه مقدرة إدارية ولا حربية لتسيير شؤون إمبراطورية عظيمة من إمبراطوريات العصور الوسطى . ويذكر بارث على سبيل المثال أن الوزير كان حريصاً على إبقاء طريق التجارة مع الشمال مفتوحاً لدرجة أنه كان على استعداد لأن يدع العثمانيين يحتلون بلما وكوّار . وكان ذلك هو مدى قدرة الوزير كرجل دولة . ونتيجة لذلك أخذ السخط يطفو على السطح ، ووجد الساخطون قائداً لهم فى شخص الأمير عبد الرحمن .

غير أن عبد الرحمن لم يكن بعد مستعداً للثورة ، وكان على علاقات ودية مع حاكم مَنْدَرا الذى أقنعه بالثورة . وقاد الوزير حملة إلى مندرا ، ولكن لما لم تكن لدى أىٍ من الطرفين رغبة فى القتال ، فقد قنع الوزير بهدية من عشر جوارى . ووضح الآن مقصده الحقيقى من قيادة هذه الحملة ، إذ أراد بها أن تكون حملة إغارة من أجل الرقيق داخل بلاد الموسغو الوثنيين . وقد كانت قبيلة الموسغو جزءاً من اتحاد الكواراراڤا ، ولكن عندما تحطمت قوة هذا الاتحاد نجحت الموسغو بدرجة ما فى الاحتفاظ باستقلالها . غير أنه كان استقلالاً مزعزعاً ، إذ أن الفولانى والبيغرميين والبرنو كانوا يشنون غارات مستمرة على الموسغو . فقد كان من صالح برنو الإبقاء على القوة الحربية للقبائل الوثنية لتكون بمثابة قيد على الفولانى . وهكذا فعلى الرغم من حرصه الشديد على أسر الرقيق ، فإنه لم يكن راغباً فى تحطيم قوتها .

وفى النصف الثانى من عام ١٨٥٣ رفع عبد الرحمن راية العصيان ، وأعلن نفسه حاكماً لغوچيبا . وتعقبه عمر والوزير هناك ، ولكنهما هزما فى المعركة التى ترتبت على ذلك . وحاول الوزير الفرار بثروته إلى وداى ، ولكنه وقع فى أسر عرب الشوا الذين بعثوا به إلى كوكاوا حيث تبين لعبد الرحمن أنه مدان بالخيانة وأعدمه شنقاً . وسمح لعمر بأن يعيش فى بيت الوزير السابق ، ولكنه نفى فى عام ١٨٥٤ إلى ديكوا . وكان شعبه لا يزال يكنّ له حباً هائلاً ، فاستعاد مكانته . وفوق سهول « أرض الكبير » استطاع عمر إحراز نصر حاسم واستعادة مملكته ، وأعدم مغتصب السلطة عبد الرحمن .

وسمحت الأحوال المضطربة فى إمبراطورية برنو للطوارق بتدعيم قبضتهم فى الشمال . ولم يلق التيبو ، القائمون منذ زمن بعيد على حراسة الطريق إلى بلما وفزان ، تأييداً من برنو فى حربهم ضد الطوارق ، وشيئاً فشيئاً استولى الطوارق على تجارة الملح ، كما كانوا يغيرون على كانم التى تحولت إلى أرض جرداء بعد أن كانت قلب الإمبراطورية .

ورواتى عمر الحظ فكان له إبن ولوع بالحرب . فمنذ عام ١٨٦١ أخذ إبنه بوكار يشن الحملات على الموسغو الذين تمكن من إخضاعهم فى عام ١٨٦٥ ، وفى العام نفسه هاجم أداماوا ، من إمارات الفولانى ، ولكن دون أن يحقق نجاحاً . وفيما بين عامى ١٨٦٩ و ١٨٧١ وجه حملاته نحو البيديت الذين اعتادوا نهب كانم . بل إن بوكار تمكن من أن يعيد قوصيرى إلى طاعته .

وخلف بوكار والده فى عام ١٨٨٠ ، وكانت فترة حكمه (١٨٨٠-١٨٨٤) أقصر بكثير من أن تحقق شيئاً ملموساً . فقد أمضاها بأكملها فى حملات حربية على مختلف القبائل التى كانت دائمة الثورة . وتعين على خليفته التصدى لأعظم تهديد واجهته برنو فى تاريخها الطويل – وهو الغزو الذى قام به رابح .

وتاريخ رابح الشخصى على قدر كبير من الأهمية والإثارة . فقد نمّى مطامحه وصقل قدراته فى ظل القوة المتصاعدة لأسرة محمد على فى مصر . فتحت حكم محمد على وإسماعيل كانت مصر تسعى إلى التحول إلى دولة عصرية . وكان محمد على قائداً عسكرياً لامعاً . وفى عهده قامت مصر بفتح السودان . وعلى الرغم من أن إسماعيل كان أكثر طموحاً ، فإنه كان يفتقر إلى ألمعيّة أبيه ،[٧٩] وإنما كانت لديه الفطنة السياسية ليدرك أنه إذا كان لمصر أن تصبح قوة حقيقية فلابد لها أن تحظى بتأييد دولة أوروبية ما . ورفع إسماعيل راية مكافحة الرقيق ، فضمن له ذلك عطف بريطانيا ، ومن ثم خدمات بعض الضباط البريطانيين من أمثال غوردون وصمويل بيكر .[٨٠]

---

(٧٩) هكذا وردت فى النص الإنجليزى ، ولكن إسماعيل هو إبن إبراهيم باشا وحفيد محمد على .

(٨٠) جاوز بانيكار الحقيقة كثيراً . فلم يكن شرطاً أبداً أن تحظى مصر بتأييد دولة أوروبية لكى تصبح قوة حقيقية ، وإنما كان يكفى لكى يتحقق ذلك أن تتوقف الدولة الأوروبية عن التدخل فى شؤون مصر وأن تكف أذاها عنها . ومن المؤكد أن بريطانيا لم تتحرك يوماً بدوافع عطف نحو مصر ، سواء عندما رفع إسماعيل راية مكافحة تجارة الرقيق ، أو عندما أقدم هو أو أى حاكم غيره على القيام بعمل ما . وإنما عملت بريطانيا حثيثاً ودائماً على خدمة أهدافها الاستعمارية ، وعلى أن تتخذ من مصر بعد أن استعمرتها نقطة وثوب لاستعمار السودان الشقيق . ولم يكن الضباط البريطانيون من أمثال غوردون وبيكر ممن يمكن أن يقدموا خدماتهم لمصر ، ولكنهم كانوا خدم البلد الذى ينتمون إليه .

وعلى الرغم من أن السودان وإفريقية الاستوائية كانتا اسمياً تحت إمرة حاكم عام يقيم فى الخرطوم ، فإن الحكام الحقيقيين للمنطقة كانوا مجموعة من تجار الرقيق وحلفائهم من رجال الإدارة . وكان من بين هؤلاء الحلفاء **الزبير**(٨١) الذى عين حاكماً لبحر الغزال فى عام ١٨٧٠ . ولم يقنع الزبير ببحر الغزال فاستولى على باشوية دارفور عنوة . وكان لذلك رد فعل عنيف لدى حكومة القاهرة ، فاستدعت الزبير الذى كان على درجة من السذاجة بحيث ذهب ليسجن هناك . عندئذ أعلن إبنه سليمان راية العصيان ، ولكنه هزم على أيدى المصريين ، وتشتت شمل جيشه .(٨٢)

أما رابح الذى كان جندياً فى الجيش المصرى فى السودان ، فقد وجد أن من الأجدى له أن ينضم إلى الزبير فى غاراته من أجل الرقيق . وكان تشتت جيش الزبير هو الفرصة التى ينتظرها رابح ، فتحرك نحو الغرب بجيش صغير قوامه تسعمائة وستين من حملة البنادق . وكان يطمح فى أن يؤسس لنفسه مملكة ، وهى غاية نذر لها طاقاته الهائلة ، ومن أجل تحقيقها كان عليه أن يحصل على أكبر قدر من الأسلحة الحديثة ، وسبيله الوحيد إلى ذلك هو أسر الرقيق وبيعهم للتجار . وكان جيشه صغيراً ، ولكنه مزود بالبنادق الحديثة ، وفضلاً عن ذلك كان مقسماً إلى ألوية ويتولى تدريبه وقيادته جنود محترفون . وفى عام ١٨٨٣ كان تحت إمرته ١٥٠٠ من الجنود المسلحين بالبنادق ، واستطاع

---

(٨١) الزبير ود رحمت منصور : (١٨٣١-١٩١٣) ، قائد وإدارى سودانى ، اشتغل بالتجارة فى بداية حياته واشتد نفوذه بمنطقة بحر الغزال . تمكنت الحكومة المصرية من استمالته فقام بفتح دار فور . استدعى للقاهرة وعاش بها مدة طويلة ، ثم نزح السودان حيث مات . وتختلف المصادر مع ما جاء فى المتن من أنه سجن فى القاهرة ، ولكنه منع من العودة إلى السودان بتأثير من غوردون . فقد عاش فى القاهرة مكرماً ، وتخلى له الخديوى إسماعيل عن أحد قصوره فى حلوان ، كما كان مقرباً من توفيق نجل الخديوى .

(٨٢) تقول المصادر أيضاً إن سليمان بن الزبير لم يقم بثورة ، وإنما افتعل غوردون هذه الثورة ليتمكن من قتله ، وقد علم الزبير ، بعد عودته من الحرب التركية الروسية التى اشترك فيها (عام ١٨٧٧) ، بمقتل إبنه فى بحر الغزال فى عام ١٨٧٩ ، وقد ظل حتى آخر لحظة فى حياته يعتقد أن إبنه قد قتل برغم ولائه للحكومة المصرية .

بهذه القوة أن يهزم جيشاً كبيراً سيّره إليه سلطان وداى . وأصبح الطريق إلى بحيرة تشاد ممهداً أمامه ، كما أصبح باستطاعته شن غاراته من أجل الرقيق فى منطقة واسعة للغاية .

وبمقدم عام ١٨٨٩ كان رابح قد أقام فى المنطقة حكومة على درجة عالية من الاستقرار ، وامتد نفوذه إلى نهر شارى . وبتشجيع منه نفض حاكم داركومبى ولاءه لملك وداى . كما أن حاكم وداى الذى فكر فى أن يعيد تأكيد سيادته قد تعرض لهزيمة حاسمة . والآن قرر رابح سحق بيغرمى ، وتلك مهمة أنجزها بسهولة كبيرة .

ودخل رابح بالفعل فى صراع مع الفرنسيين الذين كانوا يحاولون ربط ممتلكاتهم فى شمال إفريقية بممتلكاتهم فى غرب إفريقية ووسطها . وقاد كرامبل حملة من الشمال إلى وسط إفريقية ، ولكن سلطان داركومبى قام بمهاجمة اللواء ونبح أفراده فى وداى . واستولى رابح على مائة بندقية وكمية كبيرة من الذخيرة .

وواجهت برنو الآن قراراً صعباً . فقد استقر رأى الشيخ حكيم على أن الفطنة تقتضى التصدى لرابح قبل أن يستفحل أمره . وكان لديه جيش من ثلاثة آلاف مقاتل مسلحين جميعاً بالبنادق ، كما كان باستطاعة برنو أن ترسل إلى الميدان جيشاً يزيد على ذلك بعشر مرات . لذلك قرر الشيخ حكيم مهاجمة رابح ، ولكن بينما كان حكيم بصدد اتخاذ قراره هاجمه رابح . وبغباء شديد وجد جيش برنو نفسه يخوض مستنقعات شاسعة ، كما لم يكن نداً لجيش نظامى يسوده الانضباط ، ووقعت به هزيمة حاسمة على أيدى رابح .

وشرع رابح الآن فى فتح مناطق برنو المختلفة . وفى عام ١٨٩٣ قام بتخريب نغوليوا ونهبها ، وفى عام ١٨٩٤ فتح إمارة داييانى ، وفى عام ١٨٩٦ انطفأت الومضة الأخيرة فى مقاومة برنو عندما فُتحت مقاطعة بيدى الوثنية .

وكرّس رابح جلَّ وقته لتنظيم إمبراطوريته ، فسمح للرئيس المحلى بالاستمرار فى ممارسة سلطاته، ولكنه منح الضباط الذين يعينهم سلطة الرقابة على أعماله .

وأعاد تنظيم تحصيل الضرائب ، وحدّد المبالغ التى يتعين على كل مقاطعة أن تدفعها . وزاد قوة الجيش إلى خمسة آلاف ، ونظمه فى وحدات من ١٥٠ جندياً إلى ٢٠٠ جندى . ووضع خططاً للحملات المقبلة عن طريق تخزين مؤونة كافية . ولو أن رابح أتيح له الوقت الكافى لتمكن من تحطيم قوة أمراء البرنو ، وتأسيس ملكية عسكرية تعتمد على إدارات محلية ، ولأمكنه أيضاً إخضاع الفولانى الذين سادهم الذعر بالفعل من قوته .

غير أن الوقت كان يمضى سريعاً . ففرنسا كانت تكتسب على مهل مزيداً من الأراضى . وفى عام ١٨٩٨ قبل البيغرى بعثة فرنسية لخشيتهم من رابح . وفى عام ١٨٩٩ أرسلت فرنسا حملة صغيرة بقيادة بريتونيه . ولكن بريتونيه هزم فى تاغبو . كذلك وصل البريطانيون والألمان من الجنوب إلى حدود برنو ؛ ونشطت بريطانيا فى بلاد الهوسا ، وألمانيا فى أداماوا . وفى عام ١٩٠٠ أرسلت فرنسا ثلاثة ألوية ضد رابح ، وفى موقعة قوصيرى هزم رابح وقتل .

ثامنا

يعد سقوط السنغى ، كما رأينا ، بداية فترة من الفوضى . إذ قامت القبائل الصحراوية والإمارات الوثنية بتخريب المنطقة ونهبها . وكان البمبرة أكثر القبائل الوثنية أهمية . والبمبرة – وهم تعبير شامل لكل القبائل الوثنية فى المقاطعات الغربية من بلاد السودان(٨٢) – ينتمون إلى مجموعة المندى اللغوية ، وبرز وجودهم مع بداية القرن السابع عشر . وكانوا أصلا خاضعين لأباطرة مالى ، وسنحت لهم فرصة للتوسع مع انهيار تلك الإمبراطورية ، فشرعوا على مهل يبسطون نفوذهم على بلاد السودان بأسرها ، وذلك بفضل شخصية الحكام الذين تولوا مقاليد أمورهم منذ منتصف القرن السابع عشر ، ومن هؤلاء الحاكم المقتدر كالدِيان الذى حكَم فى سيجو فى الفترة ١٦٥٢ – ١٦٨٢ ، وقام فى عام ١٦٧٠ بالهجوم على تمبكت ، وأرغم الباشا على التبعية له ودفع الجزية . وفى أثناء ذلك

---

(٨٢) يرد تعبير البمبرة فى تاريخ الفتاش كمقابل للوثنيين « ... أربعا وعشرين قبيلة أرقاء .. ثلاثة منه من كفار قبائل بنبر .. » الصفحة ٥٥ . (قبائل بنبر هى قبائل البمبرة .)

استولى الحسنيون[٨٤] على السلطة فى مراكش . وطارد الرشيد أحد أعضاء أسرته إلى ضواحى تمبكت ، ولكن إمبراطور البمبرة التقى به على رأس جيش كبير ، وأرغم الجيش المراكشى على التراجع . وأعقبت موت كالديان فى عام ١٦٨٢ فترة من الفوضى دامت إلى أن ارتقى **بيتون كوليبالى**[٨٥] العرش .

كان بيتون كوليبالى أعظم حكام البمبرة ، بيد أن حتى فى عهده لم يكن البمبرة شعباً متحداً ، بسبب كثرة ماليهم – على غرار الموسى – من زعماء منغمسين فى حروب مهلكة مستمرة . ولم تفلح محاولات بيتون فى جمع شملهم فى مملكة واحدة . وفى عام ١٧٢٥ ، بعد بضع سنوات من توليه الحكم ، حاصره فى سيجو حاكم آخر تذكر إحدى الروايات أنه أحد أباطرة مالى ، وتقول رواية أخرى إنه أحد حكام كونج الأوَل . ولكنه تغلب على منافسه ، ثم أخذ يوسع حدود مملكته . وكان السلاحان اللذان اختارهما لتحقيق هدفه جيشاً عاملاً وأسطولاً نهرياً . كما شكل حرساً بريتوريا عرف **بالتونديون**[٨٦] قوامه شبان طموحون ورقيق محررون ومجرمون يؤثرون الموت على الرق ، وأنشأ من هذه المجموعات

---

(٨٤) الحسنيون : يعرفون بالأشراف العلويين . استقرت أحوالهم فى عام ١٦٦٦ على أيدى مولاى الرشيد الذى اغتصب الحكم من أخيه أحمد الشريف . ويعد الرشيد بحق مؤسس الأسرة العلوية التى مازالت تحكم مراكش حتى الآن . وقد نشأت هذه الأسرة فى الجنوب موطن الأشراف الذى خرجت منه الأسرة العلوية أيضاً . وتنتمى كلتا الأسرتين إلى فرع شهير من الأشراف يعرف بالأشراف الحسنيين تمييزاً لهم عن الأشراف الحسينيين الذين يقطنون الشمال . [انظر ، الدكتور صلاح العقاد ، المغرب العربى ، الصفحة ٦٨ وما بعدها .]

(٨٥) كالدِيان : ورد اسمه هكذا فى المتن وورد اسمه بالكامل فى تريمنجهام (A History of Islam in West Africa ، الصفحة ١٤٨) على النحو التالى : كالدِيان كولوبالى ، ويقول تريمنجهام إن كالديان يستمد شهرته من شهرة حاكم من سلالته هو بيتون ماماري كولوبالى الذى حكم فى الفترة ١٧١٢–١٧٥٥ ، كما يقول إن بيتون هو الذى أسس دولة سيجو ، وإنه كان رئيساً لرابطة عمرية تحولت إلى جيش وكسبت شهرة كبيرة وغنيمة هائلة من الرقيق .

(٨٦) تونديون : التونديون الوثنيون من الوولوف . ويقول تريمنجهام (المرجع السابق ، الصفحتان ٤٦ و ٢٢٤) إن التونديين أطاحوا حوالى عام ١٢٠٠ بأسرة منّا الحاكمة ، وإنه بعد ذلك بمائة عام حلّت محل التونديين أسرة من الفولبى جاءت من منطقة تيرمى شمال شرق فوتا ، حيث سُمّى الحكام الجدد « لام تيرمى » ، أى رؤساء التيرمى . وربما يكون إسم التونديون الوارد فى المتن مشتقاً من هذا السياق .

جيشاً نظامياً ، وشرع فى توسيع أسطوله واختار له عشيرة من الصيادين - السومونو[٨٧] الذين زودهم بعدد كبير من الرقيق . ومُنح السومونو احتكاراً على النقل النهرى ؛ فكان لهم الحق فى تحصيل المكوس من الركاب . وفى مقابل ذلك كان عليهم وضع عدد من السفن تحت تصرف الملك .

ومضى **بيتون كوليبالى** فى استخدام جيشه وأسطوله اللذين شكلهما وفق طراز جديد . ففتح مقاطعات مالى ومد سلطة البمبرة إلى ماسنة ، وأرغم باشاوات تمبكت مرة أخرى على الاعتراف بالبمبرة أسياداً لهم . أما البمبرة غير المستعدين لقبول حكمه ، وبخاصة **كوليبالى مسّاسى**[٨٨] ، فقد أرغمهم على مغادرة مملكته ، فتحوكوا إلى الجانب الآخر من النهر حيث أسسوا مملكة كارّته .

ومرة أخرى كان موت بيتون كوليبالى بداية فترة من الفوضى ، إذ لم يكن إبنه الأكبر حازماً فذبحه الحراس أصحاب السلطة الفعلية واعتنق إبنه الثانى الإسلام ، فاستثار ذلك مشاعر الشعب ، وقد قتل بدوره بعد حكم قصير . وخلفه رقيق يدعى كفاديوغو دام حكمه ثلاث سنوات ، ثم تولى السلطة رقيق آخر يدعى نغولا ديارا .

وكان نغولا ديارا ثالث حاكم عظيم لمملكة البمبرة ، وكان عند ارتقائه العرش قد تجاوز الأربعين ، بيد أنه فى فترة حكمه التى استمرت أربعة وعشرين عاماً (١٧٦٣ إلى ١٧٨٧)[٨٩] أعاد النظام وقيد سلطة الحرس وضباطه ، ووسع امبراطورية

---

(٨٧) السومونو: إحدى عشائر البمبرة الوثنية فى منطقة ماسنة ، أفلتت فى بداية القرن التاسع عشر من قبضة البمبرة الوثنيين وانضمت إلى مملكة حمادو الشيخ فى ماسنة .

(٨٨) يورد تريمنجهام (المرجع السابق ، الصفحتان ١٤٨ و ١٤٩) أسماء وتواريخ وأحداثاً مختلفة لا أرى بأساً من الإشارة إليها . فيقول إن مســاسى Masa-Si هو اسم العشـيرة المنافسة لبيتون ، وإن مسا تولى الحكم فى الفترة ١٦٥٠-١٧١٠ ، وإن فوليكورو (الذى حكم فى الفترة ١٧٤٥-١٧٥٤) هو الذى دخل فى نزاع مع بيتون فى عاصمته سيجو ، وإن سى باماما (١٧٥٤-١٧٥٨) هو الذى فر واستوطن فى كارّته بين السوننكى .

(٨٩) يقول تريمنجهام ، الصفحة ١٤٩ ، إن ديارا حكم خلال الفترة ١٧٦٦-١٧٩٠ ، وإنه انتصر على الفولانى فى كالارى وماسنة ، وإنه سيطر على جنى وسكتو وتمبكت ، وإنه تعرض لنكسات عندما هاجم الموسى فى ياتنغا .

البمبرة التى كاد الصراع بين الجماعات المتنازعة فيها أن يقضى عليها . وأعاد فتح تمبكت : وكان الباشوات خلال فترة ضعف البمبرة قد خضعوا للأوليمندن . وقد ذاع صيته حتى أن چاكسون ، القنصل البريطانى فى مراكش ، سمع عنه فى عام ١٨٠٠ ، أى بعد موته بثلاثة عشر عاماً . ويقول چاكسون إن ملك البمبرة كانت لديه ثلاثة قصور فى تمبكت ، وقصر فى چنى . وفى تمبكت كانت السلطة موزعة بين الأرما[٩٠] والبمبرة ، فاختص الأرما بالشؤون الداخلية ، والبمبرة بالشؤون الحربية .

وتمكن نغولا ديارا من استعادة ولاء الفولانى فى ماسنة بعد أن رفعوا راية العصيان . وشن حملة على حاكم ياتنغا ، وهو من الموسى ، تأييداً لمطالب بالعرش . وقد ذكر مونغو بارك[٩١] أن حاكم ياتنغا قاد حملة مفاجئة على چنى ، ولم يستطع البمبرة الذين أخذوا على غرة أن يحولوا دون تخريب المدينة ونهبها . وبعد نغولا ديارا جاء منسونغ[٩٢] الذى واصل أعراف حكام البمبرة .

وكان موت منسونغ فى عام ١٨٠٨ بداية فترة جديدة فى تاريخ بلاد السودان . إذ بدأ جهاد الفولانى فى بلاد الهوسا ؛ وأصبح ازدهار الإسلام ملموساً فى بلاد السودان أيضاً ، وواجه البمبرة الوطأة الشديدة لهذا الازدهار .

---

(٩٠) الأرما : سلالة الغزاة المركشيين ونساء أرستقراطية السودان . اكتسبوا بمرور الوقت مميزات خاصة وأصبحوا أصحاب السلطة الفعلية ، وانفصلوا عن مراكش . وهم أشبه «بالمولدين» فى الأندلس من أب عربى أو بربرى وأم مسيحية ، أو «البركبول» فى الحروب الصليبية من أب سورى وأم يونانية .

(٩١) مونغوبارك : (١٧٧١-١٨٠٦ م) مستكشف اسكتلندى أوفد لاستكشاف النيچر . وصل غمبيا فى يونيه ١٧٩٥ ، وصعد فى النهر ، ثم شرع فى استكشاف المناطق الداخلية ، وعبر حوض السنغال الأعلى ومنطقة كارتة . امتلأت رحلته بالمشاق والصعاب ، وقد سجنه رئيس مراكش بضعة أشهر . سار فى اتجاه المصب حتى سيلا ، ثم سيجو ، لكنه اضطر للعودة بسبب المشاق وانعدام الوسائل . ضمّن أحداث رحلته كتابه Travels in the Interior of Africa (توجد نسخة منه بدار الكتب بكورنيش النيل) وفى عام ١٨٠٣ قاد رحلة أخرى لاكتشاف النيچر انتهت بغرقه فى النهر عندما هاجمه بعض الأهالى .

(٩٢) منسونغ : حكم فى الفترة ١٧٩٠-١٨٠٨ ، وقد خلف نغولا ديارا الذى حكم فى الفترة ١٧٦٦-١٧٩٠ ، وجاء بعده دا ديارا فى الفترة ١٨٠٨-١٨٢٧ ، زاره مونغوبارك .

وكان أحمدو ، من الفولانى ، أول المنادين بالجهاد فى بلاد السودان . وهو شخصية أقل أهمية من الكانمى وعثمان دان فوديو ، وقد شارك فى الأحداث المثيرة التى وقعت فى غوبر ، غير أن علماء چنى ، وكانوا إما من الطوارق أو الأرما ، لم يسمحوا له بالوعظ فى مسجد چنى . وكان أحمدو مرابطاً هاماً عرف بالورع والتقوى ، وسرعان ما اجتمع له مريدون . ودخل مريدوه فى نزاع مع الأربو[٩٣] الذين حكموا ماسنة كأتباع للبمبرة . وقُمِع الأربو بسهولة ، ولكن ملك البمبرة أرسل جيشاً لتأييد تابعه . وفى ٢١ مارس ١٨١٨ أوقع أحمدو الهزيمة بجيش البمبرة ؛ كما لحقت بالبمبرة هزيمة ثانية فى ١٢ مايو من العام نفسه .

وكان محمد غاليچو من بين من قبلوا زعامة الشيخ أحمدو الروحية . وقد أقام غاليچو إمارة صغيرة للفولانى فى ماسنة . وبعد هزيمة الأربو توقع الشيخ أحمدو أن يقسم غاليچو يمين الولاء له . ولكن غاليچو بينما كان راغباً فى الاعتراف بزعامته الروحية ، لم يكن مستعداً لقبوله حاكماً دنيويًا . وطرد غاليچو بعد صراع لم يدم طويلاً ، فذهب إلى غواند حيث أعطاه عبد الله بقعة واسعة فى ليپتاكو .

وأصبح مركز أحمدو الآن وطيداً فى ماسنة ؛ وأنشأ عاصمة له فى حمدألاى . وتميزت حمدألاى على سكتو بكون ماسنة دولة دينية . وكان يدير السلطة مجلس من أربعين عالماً يبتّون فى كل أمور السياسة ويعملون كمحكمة عليا ؛ وفى كل مقاطعة يوجد قائد عسكرى ولجنة تشريعية وأخرى دينية ، وباستطاعة هاتين اللجنتين دعوة المجلس الأعلى فى حالة اختلافهما مع القائد العسكرى . وعند وفاة أحد أعضاء المجلس الأعلى تقوم هيئة من ستين عالماً يسمون المحكمين بتعيين عضو آخر بدلاً منه .

---

(٩٣) الأربو : اللقب الذى اتخذه حكام ماسنة ، ومعناه « قائد الهجرة » . وقد رفض حمادو الشيخ هذا اللقب باعتباره غير مناسب لوضعه ، واتخذ مثل الشيخ عثمان لقب « أمير المؤمنين » ، وزعم أنه آخر الأئمة الاثنى عشر . (انظر تريمنجهام ، المرجع السابق ، الصفحات ١٥٠ و ١٧٧ و ١٧٩ .)

وقد حاول المجلس الأعلى أن يحكم طبقاً للشريعة الإسلامية ، ولكن أعضاءه لم يكن لديهم أى كتب فى الفقه ، وأمضوا فى المجلس سبع سنوات قبل أن يحصلوا من عثمان دان فوديو على بعض الكتب التى مكنتهم من إسناد أحكامهم . وكان حكام حمدألاى أكثر المجاهدين تشدداً : يمعنون فى اضطهاد الوثنيين ، ويحرِّمون التدخين ، وينزلون أقصى أنواع العقاب بمن ينتهكون الشريعة .

وعلى الرغم من أن أحمدو قد أقام دولة دينية ، فقد عجز عن استمالة المسلمين من الأعراق الأخرى . ففى موبتى ، على سبيل المثال ، كان الفولانى يخشون حتمية قيام علاقات ودية بين التجار المولدين ، الذين كانت صلاتهم مع تجار تمبكت وجنى ، وهؤلاء التجار وحلفائهم من الطوارق . ولذلك اضطهدهم الفولانى بغرض تدمير تجارتهم .

واعتبر البمبرة معركتى عام ١٨١٨ ثورة مقاطعة نائية ، وعقدوا العزم على سحق الفولانى بمهاجمتهم فى أضعف نقطة لديهم – ما شيتهم . وكان الفولانى على استعداد للتضحية بكل شئ دفاعاً عن ماشيتهم . وقد جرت عادتهم على الانتقال بماشيتهم من مكان لآخر بحثاً عن المرعى ، لذلك كان من السهل على البمبرة الإغارة عليهم . وبعد بضع مفاجآت اتخذ الفولانى تدابير لحماية الماشية بإرسال قوات لحراستها ، ولما تبين للبمبرة أن الغارات أكثر تكلفة أخذوا يرسلون حملات منتظمة .

واستطاع البمبرة ترويض أنفسهم على ضياع ماسنة التى لم تكن سوى إمارة تابعة تدفع الجزية ، وليس لضياعها تأثير جدى على قوتهم . ولكن الموقف كان مختلفاً تماماً فيما يتعلق بحكام ماسنة من الأربو . فظهور حمدألاى هدد نفس مصدر قوتهم . لذلك حاربوا الفولانى بعزم شديد آملين أن تؤدى مقاومتهم إلى تدخل فعال من جانب البمبرة . وذلك هو ما حدث على وجه التحديد . فقد أرسل دا[٩٤] ، حاكم سيجو ، حملة للاستيلاء على ماشية الفولانى ، ولكنه هزم .

---

(٩٤) هو دا ديارا الذى خلف منسونغ ، انظر الحاشية ٩ – ٩٢ أعلاه .

وبعد هزيمته استدار نحو فيل تنْغارا ، المحارب العظيم من البمبرة ورئيس سارو . ومنذ ذلك الحين أصبحت الإغارة على الفولانى الشغل الشاغل لمحاربى سارو من البمبرة .

وحروب الحدود هذه لم تكن أبداً حروباً حاسمة . وقد فقد الفولانى ماشية كثيرة ، على الرغم من إحراز بضعة انتصارات ملحوظة ، واستمرت الحرب مع البمبرة ، وإن كان قد اعترف بالفولانى كقوة مستقلة . وفى الوقت نفسه فإن أحمدو لم تغب عن باله الطريقة التى عاملته بها چنى ، لذلك عقد العزم على الحط من شأنها بقوة السلاح . وبعد حصار استمر تسعة أشهر استسلمت چنى . وخضعت لؤلؤة وادى النيچر لحكم واحد من الأتقياء . وعلى الرغم من أن السنغى كانوا مسلمين ، فقد كانوا مولعين بشراب العسل المخمّر ، وليست لديهم أية حماسة لأداء الصلاة . وقد تبين لهم أن الحاكم الفولانى متشدد ، لذلك عزموا أمرهم على طلب المساعدة من سارو وسيجو ليطرحوا عنهم حكم الفولانى المكروهين . ولسوء الحظ اكتشفت مكاتباتهم مع البمبرة . وفى هذه الأثناء قتل القاضى ، وألقى بالفولانى الذين تركوا فى المدينة إلى خارجها . وأرسلت حمدألاى جيشاً نظامياً تحت إمرة القائد العام ، وأعلن أن چنى فى حالة ثورة ، وهو ما سمح للفولانى بتحويل أهلها إلى رقيق والاستيلاء على ممتلكاتهم . وعجزت چنى عن الصمود وسقطت فى أيدى الفولانى .

ولم يكن الأردو ، أى البمبرة فى سيجو وسارو ، هم وحدهم الذين يتعين على حمدألاى الدخول فى نزاع معهم . فالفولانى الوثنيون فى الجنوب كانوا يعارضونهم أيضاً . واشتدت حماسة الفولانى فى بوبو بوجه خاص للإغارة على قوافل المسلمين ، لذلك أرسلت حملة ضدهم . وهزم الفولانى الوثنيون فى موقعة نغونكورو ، ووقع فى أيدى المسلمين المنتصرين عدد كبير من الأسرى ، وخيّروهم بين الموت أو اعتناق الإسلام . بيد أن مقاومة الوثنيين لم تتوقف ، ففى هجوم ليلى مباغت قتل الفولانى الوثنيون قائد المسلمين ، وعجز الجنود المسلمون عن الاستيلاء على قرية دوما المحصنة .

وفى بلاد ديلغودى ، التى حاول الفولانى فتحها ، كانت توجد ثلاث قبائل أعلن رؤساؤها الأربو خضوعهم لحمدألاى ، ولكن الفولانى كانوا يأملون إدماج أراضيها فى مملكتهم . وحدث نزاع على رئاسة هذه القبائل أتاح لهم فرصة للتدخل .

وبسبب غزو ديلغودى دخل الفولانى فى نزاع مع الموسى . فقد خشى ياتنغا نابا[٩٥] أن يكون غزو الفولانى نذير شر له ، فعبأ جيشه . وعندما هزمت ديلغودى استغاثت بياتنغا . وأرسل النابا جيشاً أوقع هزيمة ساحقة بالفولانى . ومع ذلك كان سلوك الموسى سيئا ، واستطاع الفولانى إعادة فتح البلاد بمساعدة الرؤساء المحليين .

وقد حدث فزع شديد فى كاّرته نتيجة لهزيمة سيجو على أيدى الفولانى فى موقعة نوكوما . وكان موديان موريبا ، الذى حكم كاّرته حتى عام ١٨٣٤ ، يحتفظ بعلاقات سلمية مع الفولانى ، ولكن إبنه غاران كان ذا طبيعة مختلفة ، وكان خليله والأثير لديه فولانياً مسلماً ويكثر من الحديث إلى الملك عن حمدألاى ، وسئم الملك هذا الحديث وطرد خليله الذى لم يسعه إلا اللجوء إلى حمدألاى . عندئذ قام جيش بقيادة الشيخ أحمدو بغزو كاّرته ، ولكن غاران أوقع به الهزيمة ، وأرغمت الوحدات المهزومة على التراجع ، وتعقبها البمبرة وأحاطوا بها ، ولكنهم قبل أن يجهزوا على جيش الفولانى وصلت تعزيزات من ماسنة أنقذت الشيخ أحمدو .

وقد أحدث ظهور الفولانى كقوة إسلامية تأثيراً سيئاً على قبيلة ولد مبارك المغربية . فالمسلمون كانوا حتى الآن أتباعاً لها ، ولكنهم أخذوا يتحولون إلى ماسنة ، وهو ما أغضب سيدى مختار[٩٦] رئيس قبيلة ولد مبارك ، فعزم على

---

(٩٥) ياتنغا نابا : حاكم ياتنغا .

(٩٦) الشيخ سيدى المختار الكبير : (١٧٢٩-١٨١١) ولد فى أروان . وأقام دعوته على الجهاد الأكبر ، أى جهاد النفس ، باعتباره خير وسيلة للإصلاح ونشر الإسلام . حقق نجاحات كثيرة ، واجتذب دارسين كثيرين مما أثار حسد وغيرة عدد من المتفقهين فى العلوم الإسلامية . دخل فى مجالات كثيرة كان فارسها الذى لا ينازع . ألف أكثر من ثلاثمائة كتاب ورسالة ركز فيها على أهمية الجهاد الأكبر .

تدمير قوة الفولاني ، فجهز جيشاً مغربياً كبيراً غزا به ماسنة ، وبرغم ما لاقاه المغاربة من نجاح ملحوظ في بداية حملتهم ، فقد دحروا في النهاية وأرغموا على الانسحاب .

وكان هناك عدو أكثر خطورة هو جيش الطوارق . فبنو الصحراء كانوا يعتدون على منطقة السفانا ، ويدخلون في نزاعات مع الفولاني . وكان التفوق بوجه عام من نصيب الفولاني ، ولكن الطوارق ظلوا يشكلون خطراً .

وفي عام ١٨٢٦ فتح الفولاني تمبكت ، ولم يكن هذا العمل مقبولاً لدى سيدي محمد[٩٧] ، رئيس البكاي ، فهو لكونه من سلالة أسرة قديمة من الأولياء البارزين لم يكن مستعداً لقبول سلطة الشيخ أحمدو ، وطلب إلى أنصاره الامتناع عن إيتاء الزكاة . وعندما واجه الفولاني هذه الثورة قرروا قمعها بالقوة . وتحطمت مقاومة الأرما والطوارق تماماً ، وانسحب سيدي محمد من أزواد ، وخلفه رئيس أكثر ولعاً بالحرب هو أحمد البكاي[٩٨] الذي عاد إلى أزواد . أما الطوارق الذين أثار حماستهم وجود زعيمهم بين ظهرانيهم ، فقد بدأوا في نهب القرى ، وركزوا في سلسلة من الحملات على إبادة ماشية الفولاني . وفي هذه المرة كان الطوارق أكثر توفيقاً . فمع مقدم عام ١٨٤٣ كانت الحروب وأعمال السلب والنهب المستمرة التي يمارسها الطوارق قد أرغمت الفولاني على توجيه حملة كبيرة لسحقهم ،

---

(٩٧) سيدي محمد : عالم بارز ومرشد ديني ، وكان من الكونتا الذين هاجروا من توات في القرن الخامس عشر إلى غرب الصحراء الكبرى ، حيث اكتسب احترام بني حسن في مراكش . ورغم أنه رجل علم ودين فقد أبدى استعداده لمساندة الإجراء العسكري الذي اتخذه بنو حسن ضد فرع من الصنهاجة يرتبط به عن طريق المصاهرة ، ونشأ بسبب ذلك نزاع بينه وبين أقاربه .

(٩٨) سيدي أحمد البكاي : من زعماء الكونتا البارزين في الصحراء الكبرى الغربية . وهو إبن سيدي محمد ، واستقر في ولاته . أدخل الطريقة القادرية في غرب إفريقية . عاصر وصول المستكشف الألماني بارث إلى بلاده ، فكتب رسالة إلى زعماء المنطقة للسماح له بالمرور بصفته صديقاً لبلاده وضيفاً عليها . التف حوله سكان الصحراء لمقاومة الحاج عمر الذي بدأ يبطش بهم ويرغمهم على اتباع الطريقة التيجانية . [الحواشي ٩٦ و ٩٧ و ٩٨ مأخوذة في الأساس عن كتابين هما: دكتور محمد سعيد القشاط ، التوارق ، مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء ، ليبيا ؛ بيتر ب. كلارك ، West Africa and Islam ، لندن ، ١٩٨٢ .]

ولكنهم تعرضوا لعقاب صارم . ففي موقعة تويا على ضفاف النيجر حاقت بهم هزيمة مشؤومة ، وقتل كثيرون منهم أو غرقوا في النهر ، وسقطت تمبكت في أيدي الطوارق بقيادة زعيمهم الروحي أحمد البكاي . ولكنه نصر لم يفد شيئاً . فتمبكت تعتمد على ماسنة في الحصول على الملح ، وباستطاعة الفولاني ، حتى وإن انسحبوا من المدينة ، العودة إلى إخضاعها ، فاضطر سيدي البكاي إلى المساومة : الفولاني يحرسون المدينة ؛ والسلطة المدنية تترك في أيدي إثنين من القضاة ، أحدهما من السنغي والآخر من الفولا .

وعلى الرغم من العداء بين أحمد البكاي وحمدألاي ، فقد احتفظ البكاي بعلاقات ممتازة مع سكتو التي قام بزيارتها حيث استقبله بِلّ باحترام كبير . ولكنه بسبب انصرافه إلى العلم كان عديم الفعالية ، وليست لديه دراية حقيقية بالشؤون السياسية .

وفي عام ١٨٤٥ مات الشيخ أحمدو ، وخلفه ابنه أحمدو الذي عرف بأحمدو شيخو . ولم يكن أحمدو الثاني محارباً ، بيد أن إبن عمه بالبّو ، قائد جيوش الفولاني ، كان باستطاعته قمع البمبرة والطوارق . وكان لابد أن يواجه أحمدو بدوره مشكلات الفولاني الدائمة في ماسنة – وفي مقدمتها كيفية التغلب على الطوارق الذين لا يصرون فقط على رعي ماشيتهم في منطقة الدلتا ، وإنما على نهب القرى أيضاً . وفي عام ١٨٤٦ ، بعد أن خلف أحمدو شيخو أباه في حكم حمدألاي بعام واحد ، دُحر الطوارق في معركة كبيرة . لكن هذه الانتصارات ، سواء أكانت لصالح الفولاني أم الطوارق ، لم تغير الموقف عسكرياً ؛ وواصل الطوارق الإغارة على مناطق منحنى النهر ونهبها .

وكان عهد أحمدو الثاني عهد حروب مستمرة . فالبمبرة والفولاني لا يكفون عن الإغارة على أراضي بعضهم بعضاً . وكان التفوق إلى جانب البمبرة الذين استولوا على أعداد كبيرة من ماشية الفولاني . كذلك لم يذق أحمدو الثاني طعم السلم في تمبكت بسبب مضايقات سيدي البكاي المستمرة له . لكن الأسرة لم تكن مخلصة في قبول سلطته ، وإن استطاع أحمدو أن يرغمهم على احترام النظام .

ومع ذلك احتفظ البكاى بهيمنته الروحية عن طريق صداقته لسكتو ، وبهيمنته السياسية عن طريق التحالف مع الأوليمندن . ومات أحمدو شيخو فى عام ١٨٥٣ ، وخلفه إبنه أحمدو الثالث .

وفى عام ١٨٥٤ قرر الفولانى تسيير حملة إلى الطوارق ، ولكن غزوا قام به الموسى فى الجنوب أرغمهم على تغيير خططهم . وواصل البكاى معارضته للفولانى . بيد أن السنغى ، على الرغم من كراهيتهم للفولانى ، كانوا أشد كراهية للطوارق ، ولذلك لم يكونوا يريدون محاربة الفولانى . وهكذا استطاع الفولانى البقاء فى تمبكت .

وكان عهد أحمدو الثالث مضطربا . فعمر وطّد بالفعل أقدامه فى الغرب ، وسرعان ما استطاع تحطيم قوة البمبرة . ولذا واجه أحمدو الثالث طوال عهده مهمة تحطيم عمر . وسنتناول فى الفرع التالى من هذا الفصل محاولاته المتعددة وأسباب فشله فى نهاية الأمر .

وقد أسدى الفولانى فى سكتو وماسنة خدمة كبيرة للسودان ، إذ كانوا سداً منيعاً فى وجه بدو الصحراء الذين أخذو يستقرون فى بطء ببلاد السودان . وقد شاهدهم بارث فى ليبتاكو وفى بلاد الهوسا . كما يرجع إلى الفولانى الفضل الأكبر فى إحباط محاولة الطوارق .

تاسعا

ولد عمر ، آخر المجاهدين العظام فى القرن التاسع عشر ، فى فوتاتورو فى عام ١٧٩٤ ، وهو الإبن العاشر لسيدى عثمان . وفى عام ١٨٢٧ ، وبعد أن أمضى بضعة أشهر فى فوتاجالون ، قرر أن يصحب سيده عبد الكريم(٩٩) إلى

---

(٩٩) الشيخ عبد الكريم أحمد بن الناقل : من علماء فوتاجالون البارزين ، أخذ عن الشيخ محمد الغالى . وقد تخلف عن القيام برحلة الحج مع الحاج عمر لمرض ألم به .

مكة ، ولكن عبد الكريم لم يستطع القيام بالرحلة ، فقام بها عمر بمفرده . وهناك التقى بالشيخ محمد الغالى[١٠٠] ، فأصبح من مريديه ومقدما[١٠١] للطريقة التيجانية . وأقام فى الحجاز حتى أثَّر فى الشيخ بورعه وتقواه فمنحه بركته . وفى الوقت نفسه أصبح شيخاً وخليفة لإفريقية السوداء كلها .

وبعد أن أقام سبع سنوات فى المشرق بدأ رحلة العودة . وفى طريق عودته أقام علاقات وثيقة مع مشايخ جامعة الأزهر الذين ينتمون إلى طريقته ، كما زار برنو وسكتو ، وظل فى سكتو حتى وفاة بِلُّ فى عام ١٨٥٢ ، عندما انتقل إلى حمدألاى حيث أكرم الشيخ أحمدو وفادته . وقد رأى أحمدو فى عمر منافساً له ، ولكنه سمح له بالإقامة فى حمدألاى حيث رزق ولداً هناك . ثم انتقل إلى تيرو ، ولكن فى سيكورو أودعه حاكم تايفولو السجن . ويقول البعض إن ذلك قد حدث بناء على مشورة أحمدو . ولكن عمر لم يمض وقتاً طويلاً فى السجن ، وسرعان ما وصل إلى الفوتا .

وخير ما يوصف به الوضع السياسى فى الفوتا فى ذلك الوقت هو أنه فوضى منظمة . فالعلمانى ، كما كان الحكام يُعرفون ، ليس لهم دور فعال ؛ إذ يحكمون لفترة قصيرة ليستبدل بهم غيرهم . أما السلطة الفعلية فهى فى أيدى رؤساء العشائر . وعندما عاد عمر إلى الفوتا فى عام ١٨٤٦ لقى ترحيباً حاراً من العلمانى . وسرعان ما أدرك أن الحالة غير المنظمة بين الفوتا والسنغال لابد أن تعطى الفرصة للفرنسيين الذين بدأوا يوطدون أقدامهم فى البلاد .

كان عمر فى وضع موات بوجه خاص ، ويقيم علاقات شخصية مع كبار العلماء فى الحجاز وسوريا ومصر. كما التقى بشيخ برنو وسلطان سكتو وأمضى

---

(١٠٠) سيدى محمد الغالى : كان فى مكة مجاورا ، فاجتمع به الحاج عمر هناك ، ومكث معه حتى أتم مناسك الحج ، وظل يخدمه ثلاث سنوات ، وتلقى عنه الأذكار . وقد نظم عمر فى سلك الطريقة التيجانية ، وتعهده حتى بلغ مبلغ الفطام ، وجعله من خلفائه .

(١٠١) مقدم الطريقة : نائب شيخها ، وهو من أمره الشيخ ، أو من أذن له بالإذن ، بتلقين الأذكار والأوراد اللازمة ، بعد أن يكون قد تدرب على يديه ، وهو الذى يأخذ عليه الناس العهد .

معهما بعض الوقت ، وكذلك مع الشيخ أحمدو فى حمدألاى . وهكذا كان لديه فهم أفضل مما لدى أى شخص آخر لما يفكر فيه المصلحون والحكام فى غرب إفريقية . وكان لعمر ميزة أخرى . فهو لأنه عاش بالقرب من الساحل كان باستطاعته أن يلحظ على الطبيعة مدى نمو قوة الأوروبيين ، وقادراً بدرجة كافية على أن يدرك أنه من غير قدر من المشاركة والتعاون معهم ، فلن يكون ممكناً بناء وحدة سياسية مستقرة . وهكذا حاول استمالة الفرنسيين . وفى عام ١٨٤٦ تمت مقابلة بينه وبين كاى فى دوناى ، كذلك رحّب به قائد قلعة بايل .

وكان هدف عمر مزدوجاً : فهو من ناحية يرغب فى تدعيم منطقة التكرور عن طريق جعلها مركزاً لقوة التيجانية ؛ كما يعمل من ناحية أخرى على توسيع سلطته بادخال الوثنيين فى الإسلام . فأخذ فى جمع الأتباع عن طريق الوعظ والدعوة فى المدن المحيطة بالطرق . وفى الفوتا كسب بعض الأتباع ، ولم يلبث الرؤساء أن ضاقوا ذرعاً بقوته الآخذة فى النمو . وأوفد يِمبا سكّلو ، رئيس الديالوكادوغو(١٠٢) ، ثلاثة رسل لتهديد الشيخ . بيد أن عمر كان يتمتع بقدرة على الإقناع مكنته من إدخال هؤلاء الرسل فى الإسلام . والآن بعد أن أصبح الخطر ماثلاً تماماً أمام يمبا قرر التصدى لعمر ، فهاجمه بجيش كبير ، ولكن عصبة عمر الصغيرة من المتحمسين أوقعت به الهزيمة على الرغم من تفوقه العددى . وسقطت إمارة يمبا فى يد عمر الذى أدخل أهلها فى الإسلام بحد السيف . وتمكن يمبا بمساعدة رئيس الباندبوغو من مقاومة عمر فى القرية الحصينة تابيا التى تحدّت عمر قرابة خمسة شهور ، ولكنه استولى عليها فى النهاية بهجوم شنه عليها . واعتنق يمبا الإسلام ، ودعا عمر إلى دنغوراى . وبعد هذا النجاح الأول جنّد عمر المزيد والمزيد من الرجال ، وسرعان ما خضعت فوتا تورو بأكملها لسيطرته . واستدار عمر الآن نحو هدفه الرئيسى – إخضاع البمبرة الوثنيين .

---

(١٠٢) فى ترمينجهام ، المرجع السابق ، الصفحة ١٨١ ورد جيمبا ساخو حاكم جالونكه بدلا من يمبا سكّلو رئيس الديالوكادوغو ، وكذلك دنچيراى بدلا من دنغوراى ، وهى التى استقر فيها الحاج عمر بعد عودته من الحج وجولاته فى مصر وبرنو تحت حكم الكانمى وسكتو تحت حكم محمد بلّ وماسنة (١٨٢٨) تحت حكم حمادو شيخو .

كان البمبرة فى ذلك الوقت ، كما رأينا ، أعظم قوة حربية فى السودان . فلو أن عمر أسس مملكة مستقرة ، إذن لأمكن سحق ممالك البمبرة . فضلاً عن ذلك فإن البمبرة وثنيون ، ولذا فإن شن الحرب عليهم لابد أن يكون إنجازاً للشيخ جديراً بالتقدير . ولذلك عقد عمر العزم على الخروج للجهاد .

وتحرك عمر من دنفوراى بجيشه المجند حديثاً . واتجه تفكيره إلى اتخاذ دنفوراى قاعدة للعمليات ، ومنها يخضع صغار الرؤساء على حدود بلاد البمبرة . فخرب بمبوك ، واتجه إلى فاريّنًا التى كان أحد قواده ، عثمان بوبو ، يهاجمها من اتجاه آخر .

وكانت فرنسا قد وطّدت أقدامها بالفعل فى السنغال ، ولها حامية فى باكل ومحطة تجارية فى سينودولو ، وكان على قوات فوتا تورو أن تمر بهذين الموقعين لتصل إلى بلاد البمبرة . فإذا ما اعترض الفرنسيون طريق عمر فلابد أن تنتهى الحملة كلها بكارثة ، ولذا كان من الضرورى ضمان حيادهم ، فأودع عمر أبناءه رهائن فى أيدى الفرنسيين .

وفى باكل قرر عمر تخريب بلاد البمبرة بعد أن تلقى مدداً من فوتا ، فركز قواته على الضفة اليسرى للنيجر ، ولكن ملك كارّته اعترض طريقه بجيش كبير . وأسقط فى يد عمر ، إذ أن خطته كانت تقوم على مفاجأة البمبرة ، ولذا أرسل فصيلة كبيرة من جيشه لعبور النيجر عند نقطة بالقرب من قايس ، ومهاجمة البمبرة من الخلف . ودحر البمبرة ولاذوا بالفرار . وأعاد مامادى كانديان تجميع قواته ، ودارت رحى معركة ثانية يوم الخامس عشر من فبراير ١٨٥٥ . ودُحر كانديان للمرة الثانية ، واعتنق الإسلام . وأرسل عمر ثلاثة من طلبته يحملون الأنباء الطيبة إلى الفوتا من أجل تجنيد المزيد من القوات . بيد أن البمبرة كانوا لا يزالون بعيدين كثيراً عن الهزيمة . كذلك لم يكن الفولانى فى ماسنة سعداء بإنتصار عمر ، لخشيتهم من أن يجئ دورهم بمجرد أن ينتهى عمر من البمبرة . وأصبح على البمبرة فى كارّته الدخول فى صراع مع التوكولور ، وهو صراع لم

يكن هناك ما يدعمه سوى القومية والدين ، وطوال فترة سيطرتهم لم يكن باستطاعة التكرور المسلمين إخضاع البمبرة الوثنيين .

وهكذا فإن اعتناق مامادى للإسلام لم يكن بأية حال إيذانا بنهاية البمبرة ، بل كان بالأحرى بداية المقاومة القومية . واستطاع عمر أن يوقع الهزيمة بقوة البمبرة التى حاولت قطع اتصالاته عن طريق فرض الحصار على نيويورو ، ولكن البمبرة سرعان ما أرسلوا جيشين آخرين للميدان أخفق التوكولور فى هزيمتهما . وكان هناك موقع عسكرى آخر للبمبرة تحت إمرة كانديان ، وقد وصفه رافينال[١٠٣] بأنه من أفضل القرى المحصنة فى غرب إفريقية . وعانى جيش التوكولور الذى يحاصر كانديان خسائر كبيرة بلغت خمسمائة رجل دون تحقيق أية نتيجة ؛ كذلك دحر البمبرة فصيلة أخرى للتوكولور ، وبلغ الموقف درجة من الدقة حملت عمر على طلب مدد جديد من فوتا ، وجاء بنفسه ليشرف على حصار جيوشه لكانديان .

ووصل جيش من البمبرة لإنقاذ الحامية ؛ وعندما رأى البمبرة الشيخ تراجع جيشهم ، فتعقبه الشيخ ، ولكنه لم يستطيع الالتحام به إلا عندما قسم جيشه إلى فصائل . وهكذا بعد أن نجح البمبرة فى خديعتهم ، شنوا هجوماً على عبد الفقيه ، أحد ضباط عمر . ودحر عبد الفقيه ، ولكن عمر وصل فى الوقت المناسب لإعادة الأمور إلى نصابها . ووجه عمر اهتمامه الآن إلى ديوارا[١٠٤] التى أعلن ملكها خضوعه فى نفس الوقت الذى خضع فيه مامادى ، بيد أنه بعد أن فشلت الانتفاضة العامة التى قام بها البمبرة أعلن ملك ديوارا العصيان . وأرسل عمر أحد ضباطه لمعاقبة ديوارا ، ولكنه لم يوفق ، فذهب عمر بنفسه ، وتحقق له النصر فى القتال الذى دار هناك .

---

(١٠٣) أ. رافينال (Raffenal) : ورد اسمه رافينل (Raffenel) فى تريمنجهام ، الصفحة ١٧٢ ؛ وكذلك فى بوفل ، الصفحة ٢٣٦ . وهو رحالة فرنسى زار هذه المناطق فى منتصف القرن الماضى ، ووضع كتاباً عن رحلته عنوانه Nouveau Voyage au Pays des Négres .

(١٠٤) ديوارا (Dywara) : ورد اسمها ديارا Dyara فى تريمنجهام ، الصفحة ٤٥ . حصلت على استقلالها عندما قام المرابطون بغزو غانة ، وفى عام ١٧٥٤ خضعت للبمبرة فى عهد مسا ، ولكنها احتفظت بقدر من الاستقلال . ظلت تناوئ الإسلام إلى أن سقطت فى أيدى الحاج عمر فى عام ١٨٥٤ .

غير أن عمر لم يكن قد صفى حسابه مع البمبرة ، وكان يعلم أنهم يمكن أن يثوروا مرة أخرى . ولذا كان هدفه هو القضاء التام على كل مقاومة فى بلاد البمبرة ، وعملاً على تحقيق هذا الهدف أوفد مبعوثاً إلى أحمدو الثالث يقترح عليه تقسيم البلاد بينهما . وكانت ماسنة مرتابة فى الزيادة الهائلة فى قوة التوكولور ، ولذلك رد عليه أحمدو بأنه مرتاح لما هو قائم . وكى يؤمن أحمدو ممتلكاته أرسل جيشاً لمساعدة كاَرته ،غير أن هذه القوة لقيت الهزيمة على أيدى عمر . كذلك اتخذ عمر خطوات دبلوماسية ، ولم يكن يرغب في أن تتدخل سيجو فى حملته على كاَرته وديوارا ، فبعث برسول إلى سيجو يبلغها أن خلافه إنما هو مع ديوارا وحدها ، وأنه راغب فى أن يظل على علاقات طيبة معها . وبادله حاكم سيجو نفس المشاعر ، وبعث إليه بمرابط من التوكولور ، ولكن نبلاء دولته لم يشاطروه وجهة نظره بحجة أنه يريد تسليم سيجو إلى الفاتح التوكولورى ، وتمكنت مؤامرة فى البلاط من عزله وقطع رأسه . وهكذا أخفقت المحاولات لإقامة علاقات ودية مع البمبرة في سيجو والفولانى فى ماسنة فى وقت يصفى فيه حسابه مع كاَرته وديوارا .

كذلك عجز عمر عن إقامة علاقات ودية مع الفرنسيين أيضاً ، فقد لجأت بقايا جيش كاَرته بعد هزيمتها إلى **خاصّونكى** ، وصمم عمر على معاقبة **الخاصّو** ، وسيّر جيشاً إلى بلادهم ، وسقطت إثنتان من قلاعهم الهامة ، ولكن **ميدين**(١٠٥) العاصمة ، حيث يقيم الملك ، أبدت مقاومة عنيفة . وكانت تحمى ميدين قلعة بناها الفرنسيون ، على حين قبل الخاصّو الحماية الفرنسية . وهكذا دخل عمر ، بسبب هجومه على خاصّونكى ، فى نزاع مع الفرنسيين . وصمدت ميدين ، ودحر جيش التوكولور ، وأرغم على التراجع . وعاد عمر إلى كونديان فى فولوبوغو ، عن طريق بمبوك ، على رأس سبعة آلاف رجل ، حيث بنى قلعة هناك .

وظل عمر فى هذا المكان حتى ديسمبر ١٨٥٧ ، ثم احتل بوندو ، حيث دخل مرة أخرى فى نزاع مع الفرنسيين. وفى الشهر نفسه أوقع هزيمة بجيش فرنسى

---

(١٠٥) الخاصّو فى فوتاجالون : ميدين عاصمة فوتاجالون .

فى نديوم ، واستولى على مدفعين . ومن بوبو انتقل إلى فوتاتورو . وفى غضون عام قام بتنظيم هجرة هائلة للتوكولور فى اتجاه الشرق ، إذ أدرك عمر بالفعل أنه إذا كان لابد من الاحتفاظ بالأراضى التى فتحها فإنه يتعين عليه توطين أتباعه فيها ، ولما كان البمبرة فى كآرته فى حالة ثورة دائمة ، وكانت علاقته بالفرنسيين قد ساءت ، فقد تركزت آماله على تدعيم سلطته فى كآرته وفولوبوغو عن طريق التوكولور هناك . بيد أنه أثناء زحفه نحو فولوبوغو حاول الاستيلاء على حصن ماتان الفرنسى ، ولكنه لم يوفق . وفى مِركيا نجح فى هزيمة البمبرة والديوارا بمساعدة المدفعين . ولكن فى غضون ذلك أوقع الفرنسيون هزيمة قاسية بجيش آخر للتوكولور انتهت بسقوط حصنين لهم فى فوتاتورو فى أيديهم . وهكذا قرر عمر التخلى عن الفوتا تماماً ، وكى يدعم مركزه على ضفاف النيجر قرر إخضاع سيجو لسيطرته .

ولم تكن علاقات سيجو مع عمر ودية . فقد ساعدت الديوارا ، وجعلت من أراضيها ملجأ للفارين من البمبرة . وأدرك عمر أنه ما لم يسوّ حساباته مع سيجو ، فسيظل مركزه غير مأمون . فضلاً عن أن الطعام فى مِركيا أخذ فى النقصان ، فترك النساء وتحرك نحو نيامينا . وبفضل المدفعين اللذين كانا لديه لم يجد صعوبة فى هزيمة البمبرة فى سيجو .

وسنحت لعمر فرصة جديدة للفتح . ذلك أن رئيس السانساندينغ الذى كان خاضعاً لسيجو ، ثم خضع فيما بعد للفولانى ، رأى من الأفضل له أن يعيش تحت حكم التوكولور ، لذلك دعا عمر إلى القدوم لتحريره ، ولبّى عمر دعوته بحماسة شديدة ، ولكن لم تكد تمضى خمسة شهور حتى تبين للسانساندينغ أن مظالم عمر أشد جوراً من مظالم الفولانى . وبعد أن أحيط أحمدو الثالث علماً بالوضع كتب إلى عمر عارضاً عليه أولوية مطلبه بسانساندينغ ، إذ أنه أدخل شعب سيجو فى الإسلام . ورد عليه عمر مقترحاً إقامة حلف ضد سيجو ، واعتبر أحمدو هذا الرد إهانة له ، فسيّر جيشاً بقيادة عمه قوامه ثمانية آلاف من الخيالة وخمسة آلاف راجل مسلحين بالرماح وألف بندقية ، تأييداً لمطلبه ولحمل عمر على الانسحاب من سانساندينغ .

واستطاع جيش الفولانى الانضمام إلى البمبرة دون أن يلقى مقاومة من التوكولور ، وحدثت مواجهة بين الجيشين عَبْر النهر استمرت شهرين ، عندئذ قسم عمر جيشه إلى جزأين أحدهما بقيادة ألفا عمر بويْلا عَبَر النيجر عند سانساندينغ ، والآخر بقيادة ألفا عثمان عبَرَ النيجر عند مكان أدنى . وفى يناير ١٨٦١ لحقت هزيمة ساحقة بجيشى البمبرة والفولانى المشتركين ، وتراجع جيش الفولانى نحو ماسنة . وبعد أسبوع من انتصار تيو تحرك عمر نحو سيجو التى لم تبد أية مقاومة .

ونتيجة لفتح التوكولور لأقوى دولة فى بلاد السودان انقلب التوازن فى هذه البلاد . ولو أن عمر استطاع إحكام قبضته على سيجو وكارّته لدان له وادى النيجر بأكمله . وكان الفولانى فى ماسنة هم القوة الوحيدة التى تستطيع إبداء مقاومة ما ، فضلاً عن أن المسلمين فى منحنى النيجر كانوا فى غالبيتهم من أتباع **الطريقة القادرية**[١٠٦] ، فى حين كان عمر الداعية البارز للطريقة التيجانية . وربما كان ذلك هو ما دعا الشيخ البكاى ، أحد الشخصيات البارزة فى تمبكت ، إلى الاستنجاد بالملكة ڤيكتوريا . ومع ذلك فإن سفراءه لم يذهبوا أبعد من طرابلس ، حيث أعادهم الحاكم العثمانى محملين بالهدايا .

والتمس رؤساء قبائل البمبرة إحلال السلم ، ولكن عمر أصر على أن يعتنقوا الإسلام ، وأرغموا على ترك أبنائهم وإخوتهم كرهائن . واتخذ عمر من سيجو عاصمة لإمبراطوريته . ومع ذلك فإن عليًّا ملك سيجو لم يستسلم ، وكان يتوقع المساعدة من أحمدو . وسيَّر حاكم الفولانى جيشاً كبيراً ، ولكن عمر أوقع به الهزيمة . وفكر أحمدو فى إجراء مفاوضات ، ولكن عمر لم يكن مستعداً لقبول

---

(١٠٦) **الطريقة القادرية** : طريقة صوفية تنتسب إلى مؤسسها عبد القادر الچيلانى أحد الأقطاب الأربعة : الرفاعى والچيلانى والبدوى والدسوقى . انتشرت فى العراق واليمن والصومال والهند وتركيا ومصر والمغرب وغرب إفريقية ووسطها ، وبخاصة بين قبيلة الكونتا العربية وفى منطقة نفوذ عثمان دان فوديو وأحمدو لوبو . ومن أشهر قادتها سيدى أحمد البكاى .

السلم دون تسوية خلافاتهما حول سيجو عن طريق تحكيم أحمد المرابطين . وفضل أحمدو الحرب على التخلى عن إدعاءاته الوهمية فى سيجو . وسارع عمر باغتنام هذه الفرصة ، فترك إبنه أحمدو فى سيجو نائباً عنه وقام بغزو ماسنة .

كان لدى عمر جيش قوامة ثلاثون ألفا ، وفى موقعة كوينهو أوقع هزيمة بجيش الفولانى الذى تراجع إلى چنى . وتولى أحمدو الثالث قيادة هذه القوة وأحاط بعمر فى سيوال بين سفارا وحمدألاى . وواجه عمر أزمة حرجة ، ولكن الفولانى فشلوا فى الاستفادة من الموقف . فبدلا من مهاجمة عمر ، انتظروا أن أن تكون المبادأة من جانبه . واستفاد عمر من الوقت كثيراً فى إعداد قذائف لمدفعيه ، وبعد أن استكمل ما كان لديه من نقص من الذخيرة هاجم الفولانى الذين عجزوا ، مثلما عجز البمبرة من قبل ، عن الصمود أمام القذف المتواصل من جانب رجال مدفعية عمر من الوُلوف . وعلى الرغم مما أبداه أحمدو الثالث من بطولة فى الحرب ، فقد هزم جيشه ودخل عمر إلى حمدألاى مظفَّراً . وهكذا فتح عمر كل الأجزاء الغربية من بلاد السودان . ووقع أحمدو الثالث أسيراً وقطعت رأسه ؛ وأودع على ملك سيجو السجن . بيد أنه برغم هذا النصر الذى يبدو حاسماً ، فإن الفولانى لم يكونوا قد هزموا تماماً ، وكانوا على درجة كبيرة من العناد ، وراحوا يتحيَّنون الفرصة التى سرعان ما سنحت . فعمر كان توّاقاً إلى فتح تمبكت ، العاصمة التجارية لبلاد السودان ، كما كانت أيضاً معقلاً للطريقة القادرية . ولكنه قبل أن يتمكن من مهاجمة تمبكت هبَّ الفولانى ثائرين . ووجد عمر أن اتصالاته مع سيجو قد قطعت ، وأن الخناق قد ضُيِّق عليه فى حمدألاى ، ولكن الثعلب العجوز كان على درجة هائلة من التمرس بحيث لا يوقع به فى عرينه ، فأسرع بالهرب محاولاً الانضمام إلى جيش التوكولور الرئيسى ، بيد أن الفولانى كانوا فى أعقابه ، وفى بندياغاره أرغم عمر على القتال وانعقد لواء النصر للفولانى فى ١٢ فبراير ١٨٦٤ ، ولاقى عمر حتفه . وهكذا فإن عمر على الرغم من أنه دمَّر مملكتى البمبرة والفولانى ، فإنه أخفق فى تدعيم فتوحاته .

وبينما كان عمريفتح بلاد الفولانى ، كان أحمدو يحكم فى سيجو ، وقام بزيارة لأبيه فى حمدآلاى فى عام ١٨٦٢ ، ولكن عمر أعاده خشية قيام البمبرة بالثورة . وعقد أحمدو العزم على أن يقضى تماماً على رؤساء البمبرة العسكريين ، حتى إذا ما ركب الحمق رؤوس البمبرة فلا يجدون لهم قادة . لذا أخذ يوليهم اعتباراً كبيراً بغية كسب ثقتهم . وفى ٢٣ مارس ١٨٦٣ دعا أحمدو رؤساء البمبرة إلى اجتماع يستمعون فيه إلى محتويات رسالة وردت من عمر . وعندما جاءوا ألقى القبض عليهم وأرسلهم إلى حمدآلاى حيث قطع عمر رؤوسهم .

وهكذا نجح أحمدو فى كسب الجولة الأولى . ولكن ذلك لم يكن يعنى أن الثورة لن تحدث ، إذ سرعان ما نشبت الثورة فى سانساندينغ وفى كل منطقة الشمال والشمال الشرقى . وأخذ أحمدو الآن يعمل بصورة مستقلة ، فلم يعد باستطاعته الاعتماد على أبيه الذى يصارع الموت فى ماسنة ، ولم يلبث أن مات .

وقد سببت الثورة العامة شمال النهر مصاعب كثيرة لأحمدو . لذلك عزم على ألا يذيع نبأ موت أبيه . وقام البمبرة الثائرون بذبح أفراد حاميات التوكولور . وأرسل مصطفى ، حاكم نيورو ، مدداً إلى أحمدو قوامه ألفا رجل . وبعد أن أضاف تييرنو ألسانى هذا المدد إلى جيشه قام بالهجوم على سانساندينغ ، ولكنه هزم وأرغم على التراجع . وأثبت بوبوسيس ، الذى قاد مقاومة البمبرة فى سانساندينغ ، أنه قائد مقتدر . وفى عام ١٨٦٤ ظهر مركز جديد للمقاومة التى يبديها البمبرة هو سيجو نفسها . فقد بدأ كيفى مارى ، أخو حاكم سيجو الأخير ، الإغارة على المدينة . وتعرض أحمدو لهزيمة ثانية فى عام ١٨٦٥ ، ولكنه أحرز فى وقت لاحق من هذا العام نصراً مرموقاً على كيفى فى توغو ، ومع ذلك لم تنكسر روح القتال لدى البمبرة .

وبينما أحمدو يواجه هذه المتاعب استطاع التوكولور فى ماسنة تحت قيادة تيديانى إخضاع الفولانى بصورة فعالة . وبحلول عام ١٨٦٦ كان قد نجح فى إخضاع ماسنة ، ولكنه لم يظفر بالنجاح نفسه ضد البمبرة ، فقد أخفق أمام سانساندينغ .

فى هذه الأثناء كانت إمبراطورية عمر قد تمزقت من الناحية الفعلية . فتيديانى يحكم فى ماسنة ، وحبيبو فى دنغوراى ، ومختار فى كونياكرى ، والرقيق مصطفى فى نيورو . وتعين على أحمدو الانتظار بضع سنوات قبل أن يتمكن من إخضاع الإمبراطورية لسيطرته ؛ وفى عام ١٨٧٠ انتزع نيورو من مصطفى[١٠٧] ، وفى عام ١٨٧٢ باغت حبيبو ومختار وأودعهما السجن . وهكذا كان أحمدو بمقدم عام ١٨٧٢ قد أعاد توحيد مختلف أقسام إمبراطورية عمر ، فيما عدا ماسنة التى ظلت تحت حكم تيديانى .

ومع ذلك لم تكن سيطرته فعالة . فالبمبرة كانوا يشكلون تهديداً مستمراً ، وظلوا يقاتلون على الرغم من هزائمهم المتكررة . فضلاً عن ذلك كان تغلغل الفرنسيين فى بلاد السودان يمضى سريعاً فى طريقه ، فقد وصلوا إلى بماكو فى عام ١٨٨٣ . ورأى أحمدو من الحكمة أن ينتقل من سيجو إلى نيورو ، وانتقل بالفعل فى عام ١٨٨٤ .

ولم يكن التغلغل الفرنسى ممكناً إلا لأن قوة أحمدو لم تكن وطيدة الأركان . وعندما فتح الفرنسيون سيجو فى عام ١٨٩٠ رحب بهم البمبرة كمخلِّصين ، بيد أنهم لم يكونوا أقل من التوكولور عزوفاً عن قبول سيادة الفرنسيين ، وسرعان ما ثاروا ، ولكنهم سحقوا . وواصل الفرنسيون تقدمهم وبلغوا كونياكَرى فى ديسمبر من هذا العام ، وفى يناير ١٨٩١ هزموا التوكولور فى معركة حاسمة ،

---

(١٠٧) يقول دكتور عبد الرحمن زكى إن إخوة أحمدو الثلاثة قاموا فى ثلاثة مراكز عسكرية للدفاع عنها ، فى نيورو وكونياكرى وديالا ، بالإضافة إلى حاميات كونديان ومورجولا ودنغوارى وماسنة ، وإنه مما يؤسف له أن شقيقه عجيبو حاكم دنغوراى تحالف مع الفرنسين ضده ، فأدرك أن بقاءه فى سيجو أكثر خطراً عليه ، فقرر فى عام ١٨٨٤ الذهاب إلى نيورو ، وخلع شقيقه «المنتقى» عن الحكم ، ثم تخلى عنها فيما بعد . حركة الإصلاح الدينى فى غرب إفريقية (صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، المجلد الثالث عشر ، ١٥٦) . ومن الواضح أن دكتور عبد الرحمن قد قصد بعجيبو شقيقه حبيبو ، وإنه قصد بالمنتقى شقيقه مختار .

ويقول تريمنجهام ، الصفحة ١٨٥، إن إخوة أحمدو كانوا يحكمون بصورة مستقلة من الناحية الفعلية . فحبيب الذى ثار فى عام ١٤٨ كان حاكما لدنغوراى ، ومختار كانت عاصمته فى كونياكرى ، ومصطفى رقيق والده كان يحكم كارتة من نيورو .

وتراجع أحمدو إلى بندياغارا ، ومن هناك أعلن الجهاد ضد الفرنسيين وعرض حلفا على ساموري وملك سيكاسّو بهدف طرد الفرنسيين ، ولكن هذا الحلف لم يتحقق . وفي عام ١٨٩٣ عزم الفرنسيون على الإجهاز على سلطة أحمدو ، وشرعوا يغيرون على بقايا الإمبراطورية . وفي هذا العام سقطت سان وجنى في أيدى الفرنسيين ؛ وفي العام التالي سقطت كآرته وماسنة . وفي عام ١٨٩٥ هزم أحمدو بصفة نهائية وأرغم على الفرار ، ووقع في أيدى الوثنيين .

عاشرا

كان ساموري زعيماً أكثر ثورية من عثمان دان فوديو أو الحاج عمر . وهو على غرار معظم زعماء السودان في القرن التاسع عشر كان زعيماً دينياً وسياسياً في آن واحد . والحقيقة أنه وجد في بلاد السودان خلال هذا القرن زعماء كثيرون يحملون القرآن بيسارهم والسيف بيمينهم . ومن المؤكد أن ساموري قد تحلى بهذا التقليد العظيم . وبينما كان الحاج عمر شاعراً وفيلسوفاً أثرى لغة التوكولور ، كما كتب أيضاً بالعربية ؛ وبينما أُعْتِرف بعثمان دان فوديو عالماً ورعاً وتقياً ترك السياسة لأخية وإبنه ؛ فإن ساموري كان جندياً بسيطاً ، وإنما على جانب كبير من المهارة ، وظل يشن حرب عصابات على الفرنسيين لأكثر من عشرين عاماً .

كانت خططه غاية في البساطة . وقد مارس نشاطه على حدود سيراليون وساحل العاج وغينيا وليبريا . وهكذا إذا ما ركز البريطانيون قواتهم ضده انتقل إلى أراضى الفرنسيين والعكس . لم يكن له معسكر ثابت ، بل كان ينتقل بحريمه وجيشه ورقيقه من مكان لآخر . وهذه القدرة على الحركة لم يكن لها نظير . ففي وقت ما ، على سبيل المثال ، يكون لديه جيش قوامه عشرون ألفاً مع من يتبعهم من نساء وأطفال وخدم ، ومع ذلك تكون لديه القدرة على التحرك بسرعة ، وهي قدرة وفرت له بضع مزايا من بينها أنه كانت تمكّنه من أن يجند لجيشه من كل المناطق .

وكان الأسلوب المستخدم هو كتيبة التجنيد[١٠٨] ، ولما كان البديل هو الموت أو الرق ، فإن الخدمة في جيش ساموري كانت تعتبر امتيازاً كبيراً . ثانياً لم تكن لدى ساموري قاعدة للعمليات ، ولم يكن غزو الأرضي يؤثر فيه ، فالأمر لا يعدو الانتقال إلى منطقة أخرى . وقد قام الفرنسيون مراراً بغزو مناطقه ، ولكنه سرعان ما يحشد جيوشاً جديدة ويغزو مناطق جديدة . وهكذا كان الأمر بمثابة لعبة « الغُمّضيّة »[١٠٩] التي برع فيها ساموري .

والموقف السياسي بدوره كان في صالح ساموري . فالسلطة السياسية تحطمت تماماً في بلاد السودان ، وأعلن ساموري نفسه « إماما » ليدعم مكانته . ولكن ينبغي عدم المبالغة في قيمة الكسب الذي حققه ساموري من هذا اللقب . فزعماء الفولاني والتوكولور كانوا من أعلام الجهاد ، وحافظين للقرآن متفقهين فيه . ولا يعزو أحد إلى ساموري أنه فقيه إسلامي . وأقرب من يقارن به هو رابح ؛ فكلاهما قاطع طريق هدفه إقامة إمبراطورية . وعلاقة الإسلام بهدف كهذا لا تعدو أن تكون علاقة واهية .

وكان القرن التاسع عشر هو فترة أمراء الحرب في بلاد السودان . من ذلك سلسلة أمراء الحرب التي دفعت بلاد اليوربا إلى مواجهة داهومي والفولاني . وكان أمراء الحرب من الفولاني يعرفون كنموذج لمن يحمل لقب شيخ ويقيم لنفسه إمارة . كما أن الشيخ الكانمي ، الذي أبلى بلاء حسناً في الفقه والحرب على السواء ، استولى على مملكة برنو القديمة . وكان ساموري خير مثال لأمراء الحرب .

ولم يكن فشل ساموري النسبي مرجعه افتقاره إلى المهارة الحربية أو الفطنة السياسية ، وإنما كان وجود الأوروبيين هو مصدر سوء حظه . إذ كانت فرنسا

---

(١٠٨) كتيبه التجنيد Press gang : كتيبة يقودها ضابط مكلف بإكراه الناس على الالتحاق بالجيش .

(١٠٩) الغُمّضيّة : لعبة أطفال يغمض فيه أحدهم عينيه ، وبعد إعطاء الباقين وقتاً كافياً للاختباء يمضى للبحث عنهم .

تبسط نفوذها ، ببطء ولكن فى اطراد ، على الأجزاء الغربية من بلاد السودان . وقد برزت أسماء سلسلة من الحكام الفرنسيين باعتبارهم ممن أخضعوا مناطق واسعة من بلاد السودان للعلم الثلاثى الألوان[١١٠] . وقد شن ساموری فی بداية السبعينات حملة على إمبراطور التوكولور الفسيحة ، ولكن هذه الغارات على ما كان يعتبر مناطق للتوكولور أدخلته فى نزاع مع الفرنسيين . لذلك قرر ساموری أن يطرح جانباً هذا الجزء من بلاد السودان . وكان الفرنسيون بدورهم سعداء بالتخلص منه ، لانشغالهم فى ذلك الوقت فى حملة على المرابطين فى السنغال الذين كانوا يشكلون خطراً مباشراً للغاية .

واستخدم ساموری هذه الفسحة من الوقت بمهارة ، فجنوده الذين عرفوا بالصوفا[١١١] كانوا يغيرون على مناطق واسعة وبعيدة وينشرون الرعب فى الجزء الشمالى من ساحل العاج وفى غينيا وسيراليون ، وزاد ذلك من عدد جنوده ورقيقه . بيد أن الصدام مع الفرنسيين لم يكن ممكناً تجنبه طويلاً لاسيما أنه لم يعد لديهم ما يشغلهم عن مواجهته . وحتى عام ١٨٧٩ كان ساموری قد غزا أراضى صغار الرؤساء ، وشرع فى تكوين جيش كبير يغير به على مناطق التوكولور . بيد أنه فى عام ١٨٨٢ اصطدم الصوفا بالفرنسيين بالقرب من بماكو ولحقت بهم الهزيمة . وفى عام ١٨٨٥ دخل ساموری مرة ثانية فى مناوشة مع الفرنسيين . وزعم كل من ساموری والفرنسيين أنه صاحب منطقة بوری الغنية بالذهب ، وساء موقف ساموری وانسحب إلى سيراليون . وهناك وقع معاهدة مع فرنسا يعترف فيها بملكيتها للضفة اليسرى من النيجر ، حتى نقطة التقائه مع تِنْكيسُو . وهنا أيضاً واجه المتاعب . ولم تعترف مملكة كيساكو بسلطانه ، وصمدت القلعة الكبيرة فى وجهه أكثر من عشرة شهور . والآن طلب ساموری من الفرنسيين

---

(١١٠) العلم الثلاثى الألوان هو العلم الفرنسى .

(١١١) الصوفا : المعنى العرفى لهذه الكلمة هو سائس الخيول (Groom) أو أحد أفراد الفرقة التى تحرس قصر الحاكم . وقد استخدمهم كل من رابح وساموری فى جيوش نظامية . ويقول تريمنجهام ، الصفحات ١٦٥ و ١٨٥ و ١٩١ نقلاً عن ا . بيروز ، إن ساموری قام بتجميع القرى فى ١٦٢ مقاطعة تضم كل منها أكثر من عشرين قرية ، وتخضع كل مقاطعة لرئيس يتم اختياره وفقاً لأعراف المندنكا ، وإلى جانبه يعين إثنان من الصوفا ، وذلك ظاهرياً لمساعدته ، وفى الحقيقة للإشراف عليه .

مساعدته فى إخضاع القلعة . ومن منطلق حكمة شديدة رفض الفرنسيون طلبه ، وذلك لأن ساموری كان مستغرقاً فى كيساكو ، فى حين كانت فرنسا تخضع بقية بلاد السـودان .

كذلك واجه ساموری المتاعب من جانب آخر . فحتى الآن كان ساموری يحصل على السلاح من البريطانيين الذين وجدوا أن تلك أفضل طريقة لشغل الفرنسيين . ولكن سرعان ما تبادل الصوفا إطلاق النار مرتين مع البريطانيين ، مما جعل هؤلاء يدركون الأخطار التى ينطوى عليها تزويد ساموری بالسلاح . وبدأت القوات البريطانية تتحرك صوب حدود ساحل الذهب . وإذ كان الفرنسيون يدركون أن الاحتلال الفعلى يمثل من وجهه نظر القانون الدولى تسعة أعشار حق الملكية ، فقد تحركوا سريعاً بدورهم نحو حدود ساحل الذهب .

وما إن وقف الفرنسيون والبريطانيون فى مواجهة بعضهم بعضاً ، حتى أخذ القلق يساور ساموری بشأن استمرار حصوله على السلاح والذخيرة . لذلك قرر التحرك من جبال كونج صوب حدود ليبريا ، حيث يمكنه من هناك مواصلة إنهاك الفرنسيين . ولكن الفرنسيين واصلوا مطاردته بعنف ، وكانت حركة جيشه قد تباطأت للغاية بسبب كثرة من معه من نساء ورقيق وممتلكات وأتباع . كما أن الشعوب التى قهرها طويلاً أصبحت قيداً على حركته ، فكانت تهاجم جيشه باستمرار وتقوم بنهبه ، وتُطْلِع الفرنسيين باستمرار على تحركاته . وفى ٢٨ سبتمبر ١٨٩٨ ، بينما كان ساموری يؤدى صلاة العشاء ، باغته بعض الإفريقيين من حلفاء الفرنسيين وقطعوا رأسه .

ومع ذلك فقد أصبح ساموری هو البطل القومى لغرب إفريقية . أما قسوة فظائعه ، وأساليبه فى التجنيد ، وكثرة الرقيق الذين يعملون فى جيشه كحمالين للسلاح والذخيرة ، والمتطلبات اليومية لجيش يتحرك باستمرار ، فهذه قد نساها الناس جملةً وتفصيلاً ؛ ولم يعودوا يذكرون الآن سوى قوات الصوفا المروّعة التى كان باستطاعتها شن حرب العصابات . كذلك نُسيت الآن حقيقة أن هذه الحرب كان موجهة ضد التوكولور وكيّساكو ، على حين أن حملاته ضد الفرنسيين ،

فيما عدا حملاته فى السنتين الأخيرتين التى لم تكن ذات أهمية حقيقية ، قد تحولت إلى أسطورة وطنية . ففى ذلك يعد ساموري شخصية هامة حقاً ، حيث برز فى الأحوال غير المستقرة لسودان القرن التاسع عشر كواحد من أمراء الحرب ذوى الأهمية الكبيرة ؛ غير أننا ينبغى ألا نخلط بين الصراعات الوطنية حقا التى شنتها دول مثل أشانتى أو داهومى وبين حملات سامورى . فحتى عمر قد أدرك ضرورة تدعيم سلطةٍ فى بلاد السودان ، إذا كان يتعين شن نضال وطنى حقيقى ضد فرنسا . وكانت محاولته بناء إمبراطورية تمتد من السنغال إلى ماسنة تشكل تهديداً حقيقياً للغاية لفرنسا . غير أن فرنسا كانت هى القوة السائدة بالفعل فى السنغال ، وعجز عمر عن تدعيم بلاد السودان . أما سامورى ، على خلاف عمر ، فلم تكن لديه فكرة عن ضرورة هذا التدعيم . وكان السلب والنهب هما ما يفهمه من الناحية الواقعية . بيد أن جنوده من الصوفا كانوا أقوياء ، وأبدوا مقاومة فعلية ضد الفرنسيين ، فأصبح سامورى رمز المقاومة الإفريقية ضد أوروبا .

غرب إفريقية فى القرن التاسع عشر

الدول الساحلية

شهدت نهاية القرن الثامن عشر تفسخ الأويو . وكان موت أبيودُن هو بداية النهاية . يقول صموويل جونسون[1] : « لقد طفح بالأمة كيل الظلم : فالقسوة والاغتصاب والغدر انتشرت على نطاق واسع : والمقاطعات كانت تئن تحت نير القهر . وأصبح الاسترقاق واغتصاب الأملاك لأتفه الجرائم من الأمور التى تحدث كل يوم ، وكان إرهاب الأمراء ومظالمهم فوق كل احتمال » . وهب كبار النبلاء ثائرين .

وكان من أبرز هؤلاء أسانفا ، **كافانكا الألافين**[2] ، الذى كان مقره فى إيلورين . وطلب الألافين إلى أسانفا مهاجمة إيويرى المدينة المنيعة . وكان ذلك بمثابة حكم بالموت ، لأن من عادة اليوربا أن الكافانكا إما أن ينتصر أو يموت . فقام الكافانكا بقتل الرسول الملكى ، وأعلن استقلاله . وكانت هذه هى الضربة الأولى ، وتبعه رؤساء آخرون . وسرعان ما أصبح الرؤساء التابعون ، برغم ولائهم الإسمى للألافين ، مستقلين من جميع النواحى ، وأخذو يتقاتلون فيما بينهم . وقد انفرد أسانفا بأنه أول من أدخل عناصر أجنبية فى هذه الحرب المهلكة .

---

(١) صموول جونسون : صاحب كتاب History of the Yorubas (تاريخ اليوربا ، لندن : ١٩٢١) . وقد اكتمل هذا الكتاب فى عام ١٨٩٧ ، ولكنه لم ينشر إلا فى عام ١٩٢١ . ويوصف بأنه أهم دراسة أجريت لتاريخ اليوربا ، ويستند أساساً إلى الروايات الشفهية لمملكة اليوربا (انظر الحاشية ١-٣٩ أعلاه) .

(٢) كافانكا الألافين : القائد العام لجيش الألافين (الملك) .

كانت هذه العناصر هى الفولانى الذين أخذوا يستقرون فى إيلورين . وطلب أسانفا إلى عالم بارز يدعى عليمى أن يستقر فى إيلورين ، فجاء ومعه أتباعه المسلمون ، وانضم إليهم كثيرون من مسلمى اليوربا والهوسا . والهوسا جنودٌ من طراز جيد ، مما أعطى أسانفا ميزة على أمراء الحرب الآخرين من اليوربا . وانتقلت أعداد كبيرة من الفولانى ببطء إلى إيلورين ، وأدخلوا السكان المحليين فى الإسلام ، وظهر حزب مسلم قوى . وتبع ذلك وقوع انقلاب ، وهزم أسانفا على يد قائد فولانى هو أبو السلام ، إبن عليمى . أما الفولانى الذين لم يكملوا بعد غزوهم لبلاد الهوسا ، فقد كسبوا موقع قدم فى بلاد اليوربا .

كانت أحوال اليوربا خلال هذه الفترة جديرة بالشفقة . فالحروب المهلكة كانت أمراً مألوفا . وأخذت تطوف بأرجاء البلاد مجموعات قوية تنقض على القرى الآمنة فى سكون الليل ، وبذلك فإنه حتى إذا تمكن الرجال من الفرار ، فلابد أن يسقط الأطفال والنساء فى أيديها ليباعوا كرقيق .[1] وأصبحت الجندية المهنة الشائعة لليوربا ؛ وأهملت الصناعة والزراعة . وتقدم الصفوف رجال جبارون طموحون يفتقرون إلى الضمير والأخلاق ، وحاولوا بناء سلطتهم حول أماكن محصنة . وكانت تلك هى بداية إبادان وأبيوكوتا ، المدينتين القويتين فى بلاد اليوربا . وقد أقيمت الأولى فوق صخرة لصد غزوات داهومى ، وأقيمت الثانية لصيانة بلاد اليوربا من هجمات الفولانى .

---

(١) كان قناصة الرقيق ينقضون على القرى فى الصباح الباكر أو أثناء الليل يطلقون الرصاص على أهلها ويشعلون النار فى منازلها ، حتى إذا بادر سكانها بالهرب تلقفهم المحاصرون وشرعوا فى اصطيادهم . وكان الموت نصيب من يبدى أية مقاومة ، وإذا نجح بعض الهاربين فى الاختباء بأحد الكهوف فإن الغزاة يطلقون عليهم مادة الفلفل فيرغمونهم على الخروج مخافة الاختناق . وكان الرقيق يساقون كالماشية بعد أن يربطوا من أعناقهم بالحبال ، ويسيرون فى صفوف طويلة تحت مباشرة رؤساء يحملون فى أيديهم كرابيج كبيرة يهبطون بها على أبدان هؤلاء البؤساء . وكان الضعيف الذى يسقط من الإعياء يحل وثاقه ويترك مكانه حتى يموت . [نقلا عن الدكتور زاهر رياض ، تاريخ غانة الحديث ، دار المعرفة ، ١٩٦١ ، الصفحتين ٥٠ و ٥١ .]

أما الفولانى الذين انتفخت أوداجهم من جراء سهولة انتصارهم على ممالك الهوسا ، فقد ساد لديهم اعتقاد بأن بلاد اليوربا بدورها قد دان قطافها ، ولكنهم جانبوا الصواب . فطاقة الفولانى كانت مشتتة بالفعل على امتداد منطقة فسيحة للغاية . كما أن الافتقار إلى فكرة سياسية ، وإلى خطة حربية فعالة ، وقبل كل شئ إلى التنسيق ، كان يلحق الخراب والفوضى بفتوحاتهم . وقد أخفقوا فى إحكام قبضتهم على بلاد الهوسا قبل أن يمدوا نشاطهم إلى الكمرون وإلى برنو ، وأخيراً إلى بلاد اليوربا . ولذا لم تكن قوتهم ترتكز على أساس صلب . فكل ما فعلوه هو اجتياحهم للأراضى وإدخال بعض الناس فى الإسلام . وفى بلاد اليوربا لم يُضَيَّق عليهم الخناق فحسب ، وإنما حوصروا فى نهاية الأمر داخل قعلتهم فى إيلورين .

وكان الكبح الذى يقع فى بلاد اليوربا مزدوجا . فخيالة الفولانى لم يكونوا ذوى أثر فى المنطقة[٤] ؛ ثانيا كانت هذه هى المرة الأولى - بخلاف برنو - التى تعين فيها على الفولانى مواجهة شعب ينمى وعياً قومياً . فالحرب فيما بين اليوربا بعضهم بعضا لم تكن تعتبر عملا خاطئا ، وإنما فى حرب ضد أجانب مثل الفولانى فإن الأمة كلها تقف متحدة . وهكذا فإن ما كان يقف بالفعل فى وجه الفولانى فى بلاد اليوربا ، كما فى برنو ، هو شعور بالانفصالية . وكان لدى اليوربا شعور بأنهم أمة ، ويعتبرون الفولانى غزاةً أجانب ، لذا وقفوا فى وجههم جبهه موحدة . بيد أنهم استمروا فى الوقت نفسه يحاربون بعضهم بعضا . وكانت إيلورين مقاطعة حدودية ، وعجز الفولانى عن تركيز أية قوات كبيرة ؛ ومن ثم فإن الحرب المهلكة لم يكن لها من الناحية الفعلية أى أثر فى القضية . وقد يقول المرء إن فتح إيلورين وغدر أسانفا قد عادا على اليوربا بإدراك أنهم شعب واحد . وقد حُطَّ من قدر أسانفا باعتباره خائنا لشعب اليوربا ، وأصبحت الحرب ضد الفولانى نضالاً من أجل صيانة الوجود القومى .

---

(٤) هذه منطقة غابات يتعذر على الخيالة الحركة فيها .

وتعد بداية ظهور وعى قومى فى النضال ضد الفولانى ، فى كل من برنو وبلاد اليوربا ، ذات أهمية حيوية فى فهم الوضع السياسى فى نيجيريا اليوم . فقد تفوقت قومية اليوربا على قومية الكانورى بسبب التعليم المسيحى الذى عزز وعى اليوربا بإعطائهم وسيلة لكتابة لغتهم وأدباً قومياً . كما لقيت القومية التشجيع فى كتب مثل **تاريخ اليوربا** لصمويل چونسون ، ولكن تظل الحقيقة الأساسية ، وهى أن غزو الفولانى لإيلورين كان الصخرة التى بنيت عليها قومية اليوربا . لذلك أصبح من المبادئ الأساسية فى عقيدة اليوربا أنه مهما اشتدت المعارك الداخلية ، فإن القتال من أجل طرد الفولانى يعد التزاماً قومياً لا ينبغى أن يخل به شئ .

وهكذا كانت نتيجة عدوان الفولانى نهوض قومية اليوربا . فلقد ظهرت إلى الوجود فى غرب إفريقية فكرة جديدة أكثر فعالية فى الصمود فى وجه الفولانى من مقاومة اليوربا المسلحة . وبعد ذلك بمائة عام كان لزعيم شمالى أن يتحدث عن استئناف تقدم الفولانى نحو البحر . كان ذلك مجرد بلاغة ؛ فالشماليون عجزوا عن أن يدركوا ما الذى اعترض طريقهم .

داهومى

سادت فى نهاية القرن الثامن عشر فترة هدوء تحت حكم **أغونويو** ، وهو أمير مسالم وفر فترة هامة لالتقاط الأنفاس ، لأن داهومى فى القرن التاسع عشر كانت أكثر ولعا بالحرب . وعند موته خلفه **أدانزان** ، وسجن أخاه الأكبر غيزو الذى كان وليا للعهد ، وبيعت أم غيزو لتجار الرقيق .

كان أدانزان أميرا قاسيا ، ومازالت تحكي في داهومي روايات كثيرة عن قسوته ، منها المدرسة التى أنشأها لتدريب الضباع والأسود لاستخدامها فى إرهاب أعدائه بالقائهم فى أقفاصها ، واعتياده شن بطون النساء لمعرفة نوع الجنين ، وإخصاء الرجال الذين يعتقد أنهم يتخلّقون بأخلاق النساء . ولم يكن الداهوميون مستعدين لتحمل هذا الحكم القاسى فترة طويلة . ودخل إخوة غيزو وأخواته فى حلف للإطاحة به ، ولقوا فى ذلك مساعدة فريق من الناس الذين قُدِّر لهم القيام بدور هام فى القرن التاسع عشر .

وقد ترتب على إغارة داهومي على الساحل أن أصبحت على اتصال مع الأوروبيين . وكان النفوذ الأوروبى ينمو فى بطء بسبب سيطرة الدولة على التجارة الخارجية . ومع ذلك حصل بعض التجار عند نهاية القرن الثامن عشر على قدر من النفوذ يكفى لتمكينهم من التدخل فى شؤون المملكة ، ومن هؤلاء **شاشا فرانشسكودى سوزا** ، وهو برتغالى مُوَلَّد قدم إلى وايداح فى عام ١٧٨٨ كقائد للقلعة البرتغالية . وقد اعتزل شاشا منصبه بعد وصوله بقليل ، وبدأ يعمل كتاجر مستقل له ارتباطات فى بادجرى ووايداح ، وكذلك في البرازيل . وكان دى سوزا صاحب نفوذ كبير فى وايداح ، بل كان أكثر أهمية من الحاكم نفسه . وقد استدان منه أدانزان أموالا كثيرة كان دى سوزا يخشى عدم سدادها ، فقدم إلى أبومى وهدد بقطع جميع الارتباطات التجارية والانتقال إلى بلاد اليوربا إذا لم يسدد له دينه .

وكانت تلك خطوة متــهورة إذ أودعه أدانزان السجن . وفى السجن دخل دى سوزا فى حلف دم مع غيزو ، وتمكن بمساعدة مؤيدى غيزو من الفرار من السجن . وأصبح دى سوزا الآن مرتبطا مع غيزو بكلمة شرف ، وكذلك بمصالح اقتصادية ، وقدّم إلى الأمير كميات من المنسوجات القطنية والمشروبات الروحية والدخان مكنته من استمالة حراسه والهرب بدوره من السجن . وقد ازداد أنصاره كثيرا حتى أنهم لم يجدوا صعوبة فى الوصول إلى العرش .

وقد كان فرانشسكودى سوزا ، بوصفه أبرز مولد فى داهومى ، يمثل مجموعة التجار المولدين الذين سيطروا على الحياة الاقتصادية فى الساحل ، والذين كسب أدانزان عداءهم بسبب فداحة الضرائب والقسوة فى تطبيق القوانين . وقد ارتبط بعضهم – مثل أولڤييه حاكم الحصن الفرنسى فى وايداح – بالأسر الحاكمة . فأخت أولڤييه كانت متزوجة بأغونويو ؛ لذلك عمل كوسيط بين غيزو ودى سوزا الذى كان مختفيا . وهكذا جاء غيزو إلى السلطة بمساعدة مجموعة من الأمراء المتحالفين مع طبقة كومبرادورية مولدة ، وبذلك يكون غيزو قد أدخل منذ بداية عهده عنصرا خطراً فى نظام الدولة بداهومى . وقام غيزو بتنصيب دى سوزا حاكما لغليهاوس ، وتقييد سلطات اليوغافان الذى كان حتى ذلك الوقت يشرف إشرافا فعليًا على الجالية التجارية الأجنبية . ومادامت المصالح الأوروبية تقتصر على التجارة ، فإن ذلك لم يكن يضعف داهومى ، بيد أن المولدين اتخذوا جانب الأوروبيين عندما أصبح لهؤلاء أطماع سياسية . وهكذا ففى عام ١٨٨٠ تآمر شاشا الرابع مع البرتغال لإخضاع داهومى للحماية البرتغالية .

ويتسم عهد أدانزان بأهمية كبيرة لأن داهومى لم تصبح مستقلة حقا إلا تحت حكمه . فحتى ذلك الوقت كانت داهومى تابعة للأويو ، وعلى الرغم من أنها قد قامت خلال القرنين السابقين بغزو كل الدول المجاورة تقريبا ، فإنها هى نفسها كانت مملكة تابعة . وقد توقف أدانزان عن دفع الجزية وأثار ذلك غضب حاكم الأويو ، وبعث إلى ملك داهومى برسول يحمل فأسا وأبلغه أنه لابد أن يكرس قدرا أكبر من الاهتمام بحقوله حتى تصل الجزية بانتظام . ورد عليه أدانزان فى تحد قائلا له إن ملوك داهومى عرفوا السيف أكثر مما عرفوا الفأس وإنهم يفضلون فلاحة الأرض بالسيف .

وقد أصبح غيزو ملكاً فى لحظة مواتية للغاية . فبمقدم عام ١٧٧٠ كانت إمبراطورية الأويو آخذة فى التداعى ، وكان تأكيد الكافانكا للاستقلال مجرد

ستر للضعف الكامن فى إمبراطوريته . وقد استفاد أتباع الأويو من الضعف الذى طرأ عليها ونفضوا ولاءهم للكافانكا . واحتفظت داهومى بقوتها الحربية ، على حين كانت قوة عدوها الرئيسى تتداعى . ولذلك عقد غيزو العزم على أن يحطم إلى الأبد التهديد الذى ظل معلقا فوق دولة داهومى مثل سحابة تنذر بالرعد والمطر . فقام بغزو إمارات اليوربا الواقعة على حدود داهومى وأدمجها فى مملكته . ولكن چين وهى دولة على حدود داهومى ، طردت الحاكم وأقامت أوليجاركيه تحت حكم جندى يدعى أشادا . وعجز غيزو عن غزو چين وأرغم على عقد صلح معها وعاد إلى بلده . وبعد عامين قام أشادا بصحبة ألف من التجار بزيارة أغبونى ، ففاجأه غيزو وهزمه ، وسقطت چين فى يده .

بيد أن نجاح غيزو الكبير كان فى الجنوب . فقد شد أزره الحلف الذى أقامه مع لاجوس ، والذى احتضنه « البرازيليون » وأبناء سيراليون المقيمين فى داهومى . إذ أن لاجوس ، على غرار داهومى ، كانت شديدة الاهتمام بتجارة الرقيق ؛ لذلك كان التحالف بينهما أمراً طبيعيا . وقد عاش كوسوكو ، أمير لاجوس ، فى پورتو نوڤو وايداح حيث أقام علاقات وثيقة مع تجار الرقيق البرتغاليين ، وكان لأفراد أسرتى دى سوزا وأولڤييه تأثير كبير فى اكتساب جانبه . وقدتدعمت كثيرا مصالح تجار الرقيق فى عام ١٨٤٥ عندما استولى كوسوكو على لاجوس . واعتاد الحلفاء أن يغيروا على المناطق الداخلية باستمرار . وتأثرت بادجرى بوجه خاص بهذه الحملات التى تُشَن من أجل الرقيق . وأصبحت لاجوس وايداح وپورتونوڤو المراكز الرئيسية لهذه التجارة على الساحل .

وكان غيزو على علاقات ودية مع تشودى ، رئيس أبيوكوتا ، ويكنّ احتراماً كبيراً لمهارته العسكرية ، وساوره اشك فيما إذا كان يستطيع غزو أبيوكوتا . وبموت تشودى ساءت العلاقات سريعا مع أبيوكوتا ، فهاجمها غيزو . ولم يوفق غيزو فى الاستيلاء على المدينة ، ولكنه نهب القرى . وكان مرجع فشله أن الإيغبا

أقاموا علاقات ودية مع المبشرين والتجار البريطانيين ، ولذا أرسل البريطانيون العون لهم . وبهذا العون تمكنت أبيوكوتا من أن تصد الهجوم . وأخذ غيزو هزيمته مأخذ الجد ، وشرع يعد للحرب بهمة وحماسة . بيد أن غزو أبيوكوتا أوقف مرارا ، وسبب ذلك أن هدف غيزو كان الحصول على الرقيق . فالحرب لم تكن من أجل التوسع ، وإنما من أجل الرقيق . وأوضحت المقاومة التى أبدتها أبيوكوتا أن فتحها سيكون باهظ الثمن ، ولذلك فإنه على الرغم من غاراته المستمرة على الإيغبا لم يقم بأية محاولة للاستيلاء على أبيوكوتا ، وفضل مهاجمة مدن أضعف مراساً ، مثل أوكيادُن ، على بعد ثلاثين ميلا إلى الشمال الغربى من بادجرى . وفى عام ١٨٤٨ تمكن غيزو من الاستيلاء على المدينة بمساعدة أهلها والحصول على عشرين ألفا من الأسرى .

وفى هذه الأثناء أخذت الدول الأوروبية ، وبخاصة بريطانيا وفرنسا ، تبدى اهتمامها بتدعيم نفوذها على الساحل . ونجحت فرنسا فى عام ١٨٥١ فى توقيع معاهدة تجارية مع داهومى ، تعهد غيزو بمقتضاها بالمحافظة على سلامة الحصن الفرنسى فى وايداح . وأرسلت بريطانيا بعثة إلى غيزو لإقناعة بالتخلى عن تجارة الرقيق مقابل تعويض مالى . فضلاً عن ذلك كانت حريصة على وقف هجمات غيزو المستمرة على أبيوكوتا والجزء الجنوبى من بلاد اليوربا . ومنذ عام ١٨٤٣ كان ملك داهومى مستعدا للموافقة على استقرار البريطانيين فى وايداح ، بل كان راغبا أيضا فى التخلى عن تجارة الرقيق إذا ما دفع له تعويض مناسب . كذلك كان المبشرون تواقين بوجه خاص إلى استمالة الداهوميين إلى مجال نشاطهم . وفى عام ١٨٤٨ ذهب وينيت حاكم ساحل الذهب إلى أبومى ، ووقع معاهدة أضفت الحماية على التجارة البريطانية ، وأعلن الملك أنه سيتخلى عن تجارة الرقيق . وفى عام ١٨٥٠ حاول القنصل البريطانى بيكروفت مرة ثانية إدخال الملك فى المسيحية عن طريق إبراز مزايا التجارة المشروعة ، وعُرِض على الملك تعويض مقداره ثلاث آلاف جنيه استرلينى لمدة ثلاث سنوات مقابل تخليه عن تجارة الرقيق .

غير أن الملك لم يكن على استعداد للتخلى عن تجارة الرقيق ، وأعلن أن الداهوميين ليسوا فلاحين وإنما هم محاربون ، وأن رخاء الدولة يتوقف على هذه التجارة . ومضى الملك فى طريقه معربا عن شكواه من نفوذ المبشرين المتزايد فى بادجرى وأبيوكوتا ، واقترح أن تترك بريطانيا هاتين المدينتين وشأنهما ، وأن يستقر البريطانيون فى وايداح . ورفض بيكروفت ذلك . وكانت النتيجة أن وقع غيزو فى عام ١٨٥١ معاهدة مع فرنسا .

وأصبحت بريطانيا الآن مقتنعة بأن داهومى عاقدة العزم على تدمير أبيوكوتا ، وأرسل إلى غيزو احتجاج شديد اللهجة ، وحذّر المبشرون في أبيوكوتا وبادجرى من الغزو الوشيك . وكانت خطة الداهوميين تقضى بغزو أبيوكوتا ، فى حين تقوم پورتونوڤو ولاجوس بغزو بادجرى . وتدخلت بريطانيا بصورة فعالة ،إذ قدمت الذخيرة لأبيوكوتا وقام رعاياها بتوجيه الدفاع عن المدينة .

وتقدم غيزو نحو أبيوكوتا بجيش قوامــه عشرة آلاف رجل وسـتة آلاف من « الأمازونات » . وتظاهر شعب إيشاجا بالاستسلام ، ولكنه حذر أبيوكوتا خفية ، وهكذا فقدالداهوميون عنصر المفاجأة ، فضلاً عن ذلك فسدت بعض ذخيرتهم ، ومع ذلك تقدموا بفيلق مترابط . ووصف بيرتون ، الذى زار داهومى فى ذلك الوقت ، الهجوم قائلا إنه وقع على كلا ضفتى أوغون ، وكانت المسافة بين نقطتى الهجوم حوالى الميل . وحارب الداهوميون منذ شروق الشمس حتى الغسق ، وتراجعوا فى نظام ، ولم يجرؤ جيش الإيغبا على تعقبهم . وكانت خسائر الداهوميين فى الأرواح فادحة .

وأدى الفشل عند أبيوكوتا إلى تعريض الائتلاف بأكمله للخطر . ورغبت أبيوكوتا ، بتأييد من المبشرين ، فى إزاحة كوسوكو من لاجوس ، كما رغبوا فى أن يظل الطريق بين أبيوكوتا وبادجرى مفتوحا ، ولذا كان من الضرورى حماية بادجرى من كل من داهومى ولاجوس . وهكذا شكلت بادجرى وأبيوكوتا حلفا ضد داهومى وأصدقائها ، ووضعتا نفسيهما تحت حماية بريطانيا غير الرسمية .

والآن حاول غيزو إقناع بريطانيا باتباع سياسة الحياد . وبرر هجومه على أبيوكوتا بغارات الإيغبا المستمرة على أراضيه ؛ كما برر فشله أمام أبيوكوتا

بالافتقار إلى القوات الكافية سواء لحماية المدن المفتوحة أو لمحاصرة أبيوكوتا . ووعد بأنه في هجومه التالي على أبيوكوتا لن يمس البريطانيين إذا اتخذت بريطانيا موقف الحياد .

غير أن اعتبارات التبشير ومحاربة تجارة الرقيق كانت تُسيطر على السياسة البريطانية ، كذلك كان للمصالح التجارية دور هام . وسرعان ما التقت مصالح التبشير بالمصالح التجارية . وكانت لاجوس هى المفتاح إلى الداخل ، كما كانت تعد أهم ميناء لتجارة الرقيق بعد وايداح وپورتونوڤو . لذلك كان ضروريا لكي تزدهر « التجارة المشروعة » الاستيلاء على لاجوس وتدمير تجارة الرقيق .

ولم يقف غيزو مكتوف اليدين بعد هزيمته تحت أسوار أبيوكوتا . وفى كل عام كان يهدد بالهجوم ، ثم يقنع بالإغارة على مناطق الإيغبا . ومع ذلك فقد هاجم ملك سافو وهزمه ، وهو الملك الذى كثيرا ما تباهى بأنه أقوى من داهومى .

وفى عام ١٨٥٨ مات غيزو ، وخلفه غليغلى الذى واجه ثورة داخلية أمكنه سحقها بسهولة . وفى عام ١٨٦٠ أقام غليغلى « الطقس الدينى الكبير » لأبيه ، وفى العام التالى أخذ يستعد لكي يشن على أبيوكوتا الحملة التى أُرجئت طويلا . ولكن مرض الجدرى أضعف كثيرا من قوة جيش داهومى ، وأُرْغِم الداهوميون على التراجع قبل محاصرة أبيوكوتا . وفى عام ١٨٦٢ قاد غليغلى جيشاً من ستة آلاف للهجوم على إيشاغا التى قدمت لغيزو معلومات خاطئة خلال غزوه لأبيوكوتا ، وسقطت المدينة ونُهِبَت دون صعوبة كبيرة . وفى العام الذى تلاه هاجم الداهوميون إيغبارا – وهى مدينة صغيرة – ودمروها تماما ، ثم تقدموا نحو أبيوكوتا ، غير أن غليغلى انسحب دون مهاجمتها بسبب سوء قيادة جيشه ذى العشرة آلاف رجل ، والكميات الكبيرة من الذخيرة لدى أبيوكوتا التى رممت أسوارها تحت إشراف البريطانيين . ومع ذلك عاود غليغلى الهجوم عليها فى العام التالى ، وإنما من أحد جانبى النهر فقط . وبعد قتال استمر ساعتين فقد فيه غليغلى الكثير من رجاله قرر أن يتراجع ، ولكن التراجع هذه المرة لم يكن منظما ، وسرعان ما تحول إلى فوضى شاملة ، وتعقبه الإيغبا ، وفقدت داهومى فى هذه الحملة أربعة آلاف رجل .

وهيمن على الفترة اللاحقة من حكم غليغلى قيام علاقات مع فرنسا . فمع تزايد النفوذ البريطانى فى لاجوس ، كانت فرنسا تركز على وايداح وبورتونوڤو . وكل خطوة بريطانية فى لاجوس كان يرد عليها بخطوة فرنسية فى داهومى .

وكانت شركة فرنسية قد حصلت فى عام ١٨٤٠ على إذن ببناء حصن فى وايداح حيث كان البريطانيون والبرتغاليون يمتلكون قلاعا بالفعل . وفى عام ١٨٥١ فشل البريطانيون فى إقناع رئيس بورتونوڤو بقبول الحماية البريطانية ثم قنفوا المدينة بالقنابل . ولذلك قبلت بورتونوڤو فى عام ١٨٥٣ الحماية الفرنسية . وفى عام ١٨٥٨ أعطى الملك غليغلى للفرنسيين قرية كوتونو وستة كيلو مترات من الأرض إلى الداخل .

وقداحتل الفرنسيون بيتى بوبو فى عام ١٨٦٤ ، وبورتو ساجريرو فى عام ١٨٦٨ . وفى هذه الأثناء كان البريطانيون يدعمون ممتلكاتهم على طول الساحل النيـچيرى . وكانت ألمانيا بدورها منهمكة فى توجو لاند . وقد أدت الحرب الفرنسية الألمانية فى عام ١٨٧٠ إلى وقف التوسع الفرنسى ، ولكن الفرنسيين الذين كانوا يواجهون نمو قوة الألمان فى توجو احتلوا كوتونو وبورتونوڤو بقوة عسكرية . واحتج الملك غليغلى على هذا الخرق للمعاهدة ، غير أن فرنسا بدلا من أن تسحب قوتها العسكرية بدأت تفرض الرسوم فى عام ١٨٨٧ . وكان لذلك أهمية كبرى بالنسبة للملك لأنه أدى إلى نقص كبير فى إيراداته ، وأوضح للتجار أن الرسوم ينبغى دفعها لوكلائه المعتمدين وحدهم . وفى الوقت نفسه أعلن فسخ معاهدة عام ١٨٧٨ ، وطلب إلى الفرنسيين الجلاء عن بورتونوڤو وكوتونو . ولم يبد الفرنسيون استعداداً للانسحاب ، وفى عام ١٨٨٩ استولى الداهوميون على بورتونوڤو إثر هجوم مفاجئ ، ولم تكن لدى فرنسا قوات كافية بالقرب من بورتونوڤو حتى تستطيع اتخاذ إجراء فعال ضد الداهوميين ، ورأت أن من الأفضل تسوية الأمور بالوسائل الدبلوماسية . وبوضع هذا الرأى فى الاعتبار قام الحاكم بايول بزيارة داهومى فى عام ١٨٨٩ ، فاستقبله غليغلى بكياسة ، ولكنه رفض أن يبحث معه أية أمور ، كذلك لم يسمح له بمغادرة البلاد . بيد أن بايول قبل أن يغامر بدخول داهومى كان قد أخذ كابوسير (حاكم)

كوتونو كرهينة . وتوقعا للأحداث المقبلة تم تعزيز حامية كوتونو بثلاث فصائل من الرماة المهرة ، فى الوقت الذى كان فيه الطراد ساكس يقف على مقربة من المكان . وفى عام ١٨٨٩ استبد بغليغلى مرض قضى عليه ، وخلفه بيحانزين .

واستفاد بايول من الفترة بين موت غليغلى ومجئ بيحانزين وفر من داهومى . والآن انتزع الفرنسيون پورتونوڤو من الداهوميين ، وأخذ بيحانزين يستعد لمهاجمة المواقع الفرنسية على طول الساحل ، وقبل أن يشرع فى الهجوم على الفرنسيين قبض على مبشرى وايداح وتجارها كرهائن . وكان بين الرهائن المبشر دورچيرى الذى قام فيما بعد بدور هام فى مفاوضات السلم .

ولم يفلح الداهوميون فى الاستيلاء لا على كوتونو أو پورتونوڤو ، ولذلك بدأوا المحادثات . ولكى يدلل بيحانزين على حسن نواياه أفرج عن المبشرين . وكان الفرنسيون بدورهم راغبين فى التفاوض ، وأوفدوا الأب دورچيرى إلى أبومى . وكان بيحانزين على استعداد للتنازل عن حقه فى جمع الرسوم فى كوتونو وتسليم پورتونوڤو ، كما وافق أيضا على قبول الحماية الفرنسية . وفى مقابل ذلك وافقت فرنسا على أن تدفع له عشرين ألف فرنك سنويا .

ومع ذلك فإن الداهوميين لم يكونوا قد قبلوا الهزيمة ، وكانوا يريدون فترة يلتقطون فيها الأنفاس ويعيدون تنظيم جيوشهم ، إذ كانوا يدركون أن الجيش الفرنسى أفضل تسليحا وتنظيما . وبالنقود التى يقدمها الفرنسيون اشترى بيحانزين مدافع سريعة الطلقات من الألمان ودعا جنود توجو الذين دربهم الألمان لإعادة تنظيم الجيش . وفى عام ١٨٩١ قام بيحانزين بمحاولة ثانية لطرد الفرنسيين بدأها بغزو پورتونوڤو فى أغسطس من العام نفسه ، وعاد بألفين من الأسرى . وفى العام التالى هاجم الداهوميون سفينة فرنسية فى نهر الويمى . ورأى الفرنسيون الغزو الألمانى لتوجو ، وأدركوا ضرورة العمل بسرعة حتى يمكن إبقاء الألمان بعيدين عن داهومى . وفى العام نفسه قام الكولونيل دودز بغزو أبومى ، وفى غضون عام واحد كان قد غزا المملكة بأسرها .

أشانتى

ارتقى أوزاى كوامينا أسيبى[٥] عرش أشانتى فى عام ١٨٠٠ ، وكان حاكما مرموقا دخل الأشانتى فى عهده فى نزاع مع كل من الفانتى والأوروبيين على الساحل ، وواجه فى بداية عهده المتاعب المعتادة مع جيرانه ، ولكنه تغلب عليها بحلول عام ١٨٠٥ ، وبدأ الحرب فى ذلك العام ، وهى حرب استمرت مائة عام مع فترات توقف ، ولم تنته إلا مع توّطد السيادة البريطانية .

وقد بدأت هذه الحرب على نطاق محدود ، عندما قام الأشانتيهين[٦] بتسوية خلاف بين ثلاثة من رؤساء الأسّين ، ولكن رئيسين منهم تنازعا حول مضمون التسوية ولم يتقيدا به . وبعد أن حاول الأشانتيهين تسوية الأمر عن طريق التفاوض بدأ الحرب وطورد الأسّين عبر نهر برا ، وفى النهاية لجأوا إلى أبورا عاصمة اتحاد الفانتى .

كان الفانتى فى ذلك الوقت أقوى شعوب الساحل ، ولهم اتصال دائم مع الأوروبيين الذين اعتاد الفانتى معاملتهم بقدر كبير من الازدراء . وبحلول عام ١٧٦٥ كان رؤساء الفانتى المختلفون فيما بينهم قد أقاموا اتحاداً ، وكان المسائل العامة تناقش فى مجلسهم ، واستطاعوا توسيع حدود مملكتهم طريق الدبلوماسية والحرب . وأدرك الفانتى أنه سيكون عليهم إن عاجلا أو آج أن يحاربوا الأشانتى . ولم يكن الأشانتى حتى ذلك الوقت قد دخلوا فى نزاع مع أية قوة كبيرة فيما عدا داهومى ، حيث كان النصر فى هذا الصدام حليف الداهوميين . وكان رؤساء الفانتى الذين اجتمعوا فى أبورا يعلمون أنهم يبتّون فى مسألة سلم وحرب ، ولكن لم يكن من اليسير وجود خيار لديهم . فبعد أن أخرجوا الأشانتى من حساباتهم تعين عليهم إما أن يتخذوا جانب الأسّين ،أو

---

(٥) ورد اسمه فى كتاب الدكتور زاهر رياض تاريخ غانا الحديثة : « أوزاى توتوكوامينا بونسو » ؛ أما فى الموسوعة البريطانية فقد ورد اسمه « أوزاى بونسو » فقط . وعلى أية حال فإن هذا الاسم هو الذى يعرف به ، بل إنه أستخدم على هذا النحو فى المتن ، انظر الفقرات التالية من هذا الفرع .

(٦) الأشانتيهين : ملك الأشانتى .

يقبلوا التبعية دون إطلاق نار . ومع ذلك فثمة عامل آخر ساعدهم على اتخاذ قرارهم ، وهو أنهم لن يستطيعوا في حالة الهزيمة الالتجاء إلى القلاع . وهكذا لم يكن لدى الفانتى ما يفقدونه إذا ما حاربوا الأشانتى .

ولم يكن الأشانتيهين توّاقا إلى محاربة الفانتى ، واقترح عليهم إرسال مندوبين لمناقشة الأمر ، والسماح للأشانتى بمطاردة الرؤساء الهاربين داخل أراضى الفانتى . وأجاب الفانتى بقتل الرسل ، وكانت النتيجة نشوب الحرب التى انتهت بتعرضهم لهزيمة قاسية ، ووصل جيش الأشانتى إلى أبورا . والآن لجأ الرئيسان – من الأسّين – اللذان كانا سببا فى الحرب ، إلى قلعة كيب كوست ، وأرغم الحاكم البريطانى على أن يصل إلى قرار . وقضى قراره بتأييد الفانتى والرئيسين اللذين لجآ إلى الحصون . وتقدم جيش الأشانتى الآن نحو الحصون ، وعلى الرغم من إخفاقه فى الاستيلاء عليها ، فإن البريطانيين وحلفاءهم حوصروا بداخلها . وقرر الحاكم تورين تسليم الرئيسين ، ووافق على الاعتراف بتبعية بلاد الفانتى للأشانتى ، وبحق الأشانتى فى ملكية الأرض التى تقوم عليها الحصون الأوروبية . بل إن تورين سلم نصف من لجأوا إلى حصن أنامبو . وهكذا خرج الأشانتى مظفرين تماما من أول حملة لهم على الساحل .

وهكذا اشترى الحاكم تورين السلم بخيانة أصدقائه . وتيقن الأشانتى من ٬ن أن البريطانيين لا يولون اعتباراً للناس ، وأن اهتمامهم منصرف إلى ـارة وحدها . وقد كانت فعْلة تورين التى لا يمكن تبريرها أول حلقة فى ـلسلة التخبط والأخطاء الفاحشة التى تميزت بها علاقات بريطانيا مع الأشانتى .

وفى النصف الثانى من عام ١٨٠٦ قرع الأشانتى طبول الحرب وأخذوا يتقدمون نحو الشرق مدمرين ما فى طريقهم من محاصيل . وفى عام ١٨٠٧ كانوا لا يزالون عند الساحل ، ثم أرغمهم انتشار الجدرى والدوسنتاريا على عبور نهر برا .

ورفض الفانتى قبول الخضوع لمجرد أنهم خسروا معركة واحدة . وما إن انسحب الأشانتى حتى بدأوا يتحرشون بحليفتى الأشانتى على الساحل - أكرا والمينا . واستطاعت أكرا أن ترد الفانتى بحسم ؛ وعند إلمينا أخفق الفانتى أيضا . وفضلا عن ذلك بعثت إلمينا برسول إلى أشانتى ، وسيّر الأشانتيهين جيشا قوامة خمسة وعشرون ألفا تحت قيادة أبوكوفيرفير إلى إلمينا ، وقوة أصغر من أربعة آلاف بقيادة أبيادَنكوا إلى إكرا . وطلب إلى أبوكوا رئيس الأكيم مساعدة دَنكوا ، ولكنه بدلا من أن يفعل ذلك أعلن الحرب على الأشانتى ، وانضم إليه قريبه رئيس الأكواپيم . وقلب ذلك خطة الأشانتى رأسا على عقب . وطلب إلى أبو كوفيرفير أن يستدير نحو المتمردين ، على حين اتجه دَنكوا نحو الساحل وعبر فيرفير نهر برا فى فبراير ١٨١١ ، ولكن الرؤساء المتمردين قاتلوا بعناد وأنزلوا بالأشانتى خسائر فادحة فى الأرواح ، وأرغم الأشانتى على طلب العون من أكرا . وعندما وصل المدد من أكرا قرر المتمردون التقهقر ؛ واستطاع الأكواپيم شغل جيش الأشانتى عن طريق شن حرب عصابات فى المؤخرة .

وفى هذه الأثناء كان فيلق دنكوا الصغير قدهزم جيش الفانتى عند أبام ، ولكنه أصيب بخسائر فادحة ، ولم يعد فى حالة تسمح له بمحاربة جيش الأكيم . لذلك قرر دنكوا التقهقر ، بيد أنه مات بالجدرى قبل أن ينفذ خطته . وهكذا فشلت تماما حملة عام ١٨١١ التى علق عليها الأشانتى كل هذه الآمال الكبار .

لذلك كان أوزاى بونسو غير راض عن نتائج الحملة ، وقرر فى عام ١٨١٤ إخضاع بلاد الفانتى كلها لسيطرته . ولتحقيق هذا الغرض كان من الضرورى أولاً سحق رؤساء الأكيم والأكواپيم المتمردين . فأرسل فيلقا صغيرا بقيادة أبيا دنكوا ليغلق طريق الهرب فى اتجاه الجنوب الغربى - إلى الأكيم . وتقدم الجيش الرئيسى بقيادة أمانكوا وهزمه فى يسر ، وواصل سيره نحو أكرا . وهناك انتظر عاما مؤملا أن يبدأ المتمردون بمهاجمته ، وفى هذه الأثناء لم يكن لدى جنوده عمل يؤدونه فنهبوا أكرا ، فتحول هذا الحليف إلى عدو . والآن تحرك أوزاى نحو الأكواپيم ، ولكن دون نجاح ينكر . ومع ذلك سرعان ما واتاه الحظ لقاء مثابرته . فقد سقط رئيس الأكيم فى أيدى وحدة مغيرة من الأشانتى ولجأ إلى الانتحار ، كذلك وقع رئيس الأكواپيم فى أيديهم عن طريق الغدر .

ونتيجة للحملات الثلاث توطدت أقدام الأشانتي وأصبحوا أصحاب السلطة العليا على ما يسمى غانة الآن . إذ خضع لهم الأكيم والأكواپيم ، وتحطمت أطماع الفانتي في إقامة دولة ساحلية لهم ، وتحولوا إلى ولاية تابعة للأشانتي ، واضطر الأوروبيون إلى الاعتراف بسيادة الأشانتي .

ومع ذلك كان موقف أشانتي ضعيفا بدرجة جوهرية . لقد كان لها ميزة محلية ، ولكن بريطانيا كان باستطاعتها في أي وقت ممارسة تفوقها الساحق على الساحل . وفي هذا الوقت كانت بريطانيا مشغولة بإحكام قبضتها على الهند ، ولكن كان يتعذر عليها أن تعيش في ساحل الذهب في ظل تهديد دائم بوقوع غزو من الشمال ، واستغل الفانتي الموقف بمهارة شديدة ، فنعتوا الأشانتي بأسوأ الصفات ، وقالوا عنهم إنهم لا يولون إهتماما لشئ غير الحرب . وعامل الأشانتي البريطانيين كأصدقاء للفانتي ، إذ أن البريطانيين قد تدخلوا والتمسوا لهم المغفرة . وكانوا يعتقدون أن باستطاعة بريطانيا حمل الفانتي على احترام نصوص الاتفاقية . وكانت « الشركة » من جانبهم حريصة على الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع الأشانتي الذين يتحكمون في الطريق إلى الداخل ، فإذا ما مورست التجارة المشروعة بفعالية كان على الشركة أن تختار بين الاتفاق مع الأشانتي أو غزوهم .(٧)

وكان البريطانيون واعين بالبدائل المتاحة ، وفي عام ١٨١٧ أوفدت إلى كوماسي بعثة برئاسة فردريك چيمس ، وعضوية ت . أ . باوديتش(٨) ،

---

(٧) كانت هناك ثلاث شركات في منطقة ساحل الذهب ، بريطانية وفرنسية ودانمركية ، ولكن ضعف الشركة الدانمركية اضطرها إلى بيع جميع حقوقها للشركة البريطانية ، ولم يلبث التنافس التجاري بين الشركتين البريطانية والفرنسية أن اضطر الشركة الفرنسية إلى الانسحاب ، وبذلك خلا الجو للشركة البريطانية .

(٨) توماس إدوارد باوديتش : (١٧٩٠ - ١٨٢٤) ، رحالة إنجليزي ومؤلف . في عام ١٨١٤ حصل على وظيفة لدى « الشركة الإفريقية للتجارة » التي أوفدته إلى ساحل الذهب . وفي عام ١٨١٧ أوفد بصحبة چميس وهتشنصون في بعثة إلى كوماسي . وأعد في عام ١٨١٩ سردا لرحلته في كتاب عنوانه Mission From Cape Castle to Ashantee (بعثة من كيپ كوست إلى أشانتي) .

وهتشنصون وآخرين . ووُقِّعت معاهدة وافق الأشانتي بمقتضاها على ألا يشنوا الحرب ضد الدول الساحلية « قبل أن يتيحوا للحاكم فرصة للتدخل » ؛ وعلى أن تكون صيانة السلم بين الأشانتي والشعوب الساحلية تحت حماية الشركة . وأعطِي الحاكم حق معاقبة الزائرين من الأشانتي « الذين يدانون بجرائم ثانوية » ، فى حين يعهد بالجرائم الكبرى إلى الأشانتيهين . واحتج بلاط الأشانتي أيضا على تخفيض إيجار القلاع ، وهذه المسألة بدورها أمكن علاجها .

وهذه « المعاهدة المبهمة الصياغة ذات الوجهين » كانت عرضة لسوء التفسير . وثمة صعاب ثلاث كان يمكن أن تنشأ . فقد قبلت بريطانيا مسؤولية قمع الفانتي إذا ما فشل الأشانتي فى ذلك ، وأن تتخذ موقف الحياد فيما إذا قرروا معاقبة الفانتي . فضلا ذلك كان هناك اختلاف تام بين المفاهيم القانونية لدى البريطانيين والأشانتي ؛ إذ كان من الصعب الاتفاق على ما يعد عناصر جريمة ثانوية وعناصر جريمة كبرى . كما أن الفانتي الذين تعمل الشركة لصالحهم لم يكونوا بدورهم مستعدين للتقيد بنصوص المعاهدة .

وسرعان ما واجهت المعاهدة اختباراً قاسياً . ففى عام ١٨١٨ انهمك الأشانتي فى حرب مع غايمان ، ومنع الملك إرسال أية أنباء عن الحرب إلى الساحل . ولما انقطعت الأنباء خلص الفانتي إلى أن الأشانتي تعرضوا لهزيمة حاسمة . ولذلك أساءوا معاملة التجار الأشانتي ، وأخذوا يتصرفون على أساس أن الأشانتي قد هزموا . أما الرسل الذين جاءوا فى النهاية بأنباء الانتصار وهم يحملون عظام الفك الخاصة بالأعداء فقد أهينوا بشدة . وشكا الأشانتى إلى الحاكم الذى تحاشى التدخل فى المسألة . وفى مارس ١٨١٩ احتج الأشانتيهين رسميا لدى الحاكم طالبا معاقبة المجرمين ، وإلا اضطر إلى غزو مملكة الفانتي . ولم يتخذ الحاكم أى إجراء برغم كثرة ما قُدِّم من احتجاجات ؛ ولكن باوديتش الذى كان حاضرا عرض الذهاب إلى كوماسى .

واستقبل باوديتش بحفاوة ، وشكا الأشانتيهين من عدم أمانة الحاكم . وقد جرت العادة أن يُدْفَع إيجار الحصون فى صورة بضائع . وطبقا لما قاله الملك فإن الحاكم يفرض أثمانا للبضائع أعلى من الأثمان العادية بمقدار خمسين فى

المائة ، ولذلك لم يكن الإيجار يدفع بالكامل . وقد أقرت المعاهدة الجديدة بذلك ، كما سلمت بأن بلاد الفانتى جزء من إمبراطورية الأشانتى . أما الأشانتيهين والرؤساء الأشانتى فقد أقروا هم أنفسهم بأنهم رعايا بريطانيون .

وكان ذلك إنتصاراً هاماً لباوديتش ، فالمعاهدة جعلت من أشانتى محمية بريطانية ، ومع ذلك رفض الحاكم التصديق على المعاهدة لأنها جعلت الفانتى مقاطعة من مقاطعات أشانتى ، بل رفض أن يسمح لرسل الأشانتيهين بالتوجه إلى لندن لشرح الأمور للحكومة فى لندن . وقد تحلى الأشانتيهين بقدر ملحوظ من الصبر والحلم ، فعلى الرغم من أن الشركة وحلفاءها الفانتى قداستثاروه مرارا، فقد أحجم الأشانتى عن غزو الساحل . وفى عام ١٨٢٢ راود الأشانتى أملا فى أن تتحسن الأمور عندما تستولى الحكومة البريطانية على الحصون الساحلية من الشركة وتخضعها لإدارتها المباشرة . وعين سيرتشارلز ماكارتى ، حاكم سيراليون ، حاكما لساحل الذهب أيضا . ولكن سير تشارلز سرعان ما خضع لنفوذ تجار الساحل ، ولم يفعل شيئا لعلاج مظالم الأشانتى .

وفى عام ١٨٢٢ أدت حادثة صغيرة فى نهاية الأمر إلى استثارة الأشانتى . فقد سب أحد رجال الشرطة الأشانتيهين أمام بعض تجار الأشانتى فاختطفوه . لذلك عبرت جيوش الأشانتى نهر برا فى عام ١٨٢٣ قبل أن يتمكن الحاكم ، الذى كان يستعد للحرب ، من القيام بهجوم . وفى معركة أسمانكو التى دارت رحاها فى عام ١٨٢٤ واجه سير تشارلز جيش الأشانتى بقوة صغيرة من وحدات بريطانية وبعض وحدات إضافية من الفانتى . وتأكد لسير تشارلز أن السخط متفش فى صفوف الأشانتى ، وإنه إذا ما عزف النشيد القومى البريطانى ، فإن رؤساء الأشانتى لابد أن يتخلوا عن ملكهم ، فلما لم يحدث ذلك لم يعد أمام ماكارتى من خيار سوى محاربة الأشانتى . وفى الساعة الرابعة بعد الظهر نفدت ذخيرته ، فعبرت جيوش الأشانتى النهر ، وهزمت البريطانيين تماما وكان الحاكم نفسه بين من سقطوا فى ساحة القتال .

ولم يعش أوزاى بونسو ليقطف ثمار النصر ؛ إذ مات فى أثناء الحملة ،

وخلفه أوزاى يلو . وكان موته يعنى أن الأشانتى قد غابت شمسهم . ومع ذلك ففى عام ١٨٢٦ عبر جيش كبير نهر برا ، وبعد تحركات دامت بسبعة أشهر تجمع هذا الجيش فى دودوا استعدادا لمهاجمة أكرا . وهنا أحرز البريطانيون وحلفاؤهم نصرا جديرا بالذكر ، وتداعت قوة الأشانتى الهجومية ، وأعربوا عن رغبتهم فى السلم . غير أنه بسبب عناد الفانتى والدنكييرا استمرت حرب لا نهاية لها حتى عام ١٨٣١ .

وفى عام ١٨٣١ وقعت معاهدة مع الأشانتى ، وبمقتضاها : ١ – وافق الأشانتى على إيداع ستمائة أوقية من الذهب وعضوين من الأسرة المالكة كضمان ؛ ٢ – يمنح الاستقلال لأتباع الأشانتى السابقين ، وكذلك للأسّين وغيرهم ممن طلبوا الحماية البريطانية ، على أن يمنعوا من إهانة الأشانتيهين ؛ ٣ – يمتلك البريطانيون بمقتضى حق الفتح الأرض المقامة عليها حصونهم ؛ وهذا البند هو أهم البنود جميعا .

وبمقتضى معاهدة عام ١٨٣١ أصبحت الأجزاء الجنوبية من ساحل الذهب – أى المنطقة التى يحدها نهر برا شرقا ، ونهر الفولتا غربا ، وتمتد حتى حدود أشانتى – محمية بريطانية وعزل الأشانتى عن البحر ، وأصبحت الذخيرة التى يشترونها تمر بمناطق تخضع للحماية البريطانية . وأدت هذه المعاهدة إلى وقوع حرب أهلية فى أشانتى . ذلك أن الجوابن ، من أعضاء الاتحاد الأصليين ، لم يكونوا مستعدين لقبول سيادة كوماسى ، فأعلنوا الثورة ، ولكن سرعان ما حلت بهم الهزيمة . ولكن على الرغم من الصدام المتكرر بين مصالح البريطانيين والأشانتي ، ووقوع حوادث مختلفة حاول كل من أنصار الحرب في كوماسى وحلفاء بريطانيا استغلالها كمبرر لشن الحرب ، فإن الحرب لم تقع لأن الأشانتيهين كان حاكما مسالما .

ومع ذلك أرغم الأشانتي في عام ١٨٦٣ على الحرب . فقد عثر رجل من الأشانتى على « صاجتين » من الذهب ، وبدلا من أن يسلمهما إلى خزانة الأشانتى كما يقضى العرف ، احتفظ بهما لنفسه واتجه نحو الجنوب . وكان

ذلك جرما كبيرا فى قانون الأشانتى ، وبعث الأشانتيهين إلى الساحل طالبا تسليم الرجل ، بل إن الأشانتى تعهدوا بألا يلحق بالرجل أى أذى . ووقع الحاكم پاين فى مأزق شائك . فالدليل ضد الرجل مجرد إشاعة ؛ والجريمة من وجهة نظر الإنجليز ليست بالجريمة الكبرى . ولم يكن الحاكم مطمئنا إلى العهد الذى قطعه الأشانتيهين على نفسه . ومع ذلك لم يفت پاين أن حمايته للرجل « ستوغر صدر أقوى ملك على الساحل ، إن لم تثر غضبه » .

وقررت الحكومة عدم التنازل عن الجانى . وجاءت سفارة ثانية من كوماسى فى فبراير ١٨٦٣ ، واتهمت بريطانيا رسميا بخرق المعاهدة . وهكذا كانت المعاهدة المبهمة الصياغة سببا للحرب التى نشبت في ذلك العام . فعندما رفضت بريطانيا تسليم الرجل شرع الأشانتى فى شراء الذخيرة . وكانوا مازالوا فى سلم مع الدنكييرا الخاضعين للحماية البريطانية ، غير أن هؤلاء عندما أدركوا أن شراء السلاح سيؤدى إلى الحرب اعترضوا طريق هذه القوافل . واعتبر ذلك استفزازا جديدا . وفى مارس ١٨٦٣ عبر الأشانتى عبر نهرا برا مرة أخرى ، وأرغموا البريطانيين الذين كانوا تحت قيادة الماجور كوتشرين على الانسحاب . وبرغم هذا الانتصار فقد اضطر الأشانتى إلى الانسحاب خوفا من انتشار الجدرى والدوسنتاريا .

وشعرت الحكومة فى لندن ، مثلما شعر الحاكم فى كيپ كوست ، بأنه لا مناص من غزو الأشانتى ، وبأنه لابد من إظهار قوة بريطانيا للاشانتى والدول لخاضعة للحماية . ورأت الحكومة أن إرسال جيش بريطانى عبر نهر برا يمكن أن يكون أكثر تأثيرا . وحتى الآن كان الأشانتى دائما فى موقف الهجوم ؛ وعقد الحاكم پاين العزم على غزو الأشانتى . ولكن الفصائل المكونة من أبناء جزر الهند الغربية ، والتى تشكل قلب الجيش ، لم تستطيع تحمل قسوة المناخ ، واضطر البريطانيون إلى الانسحاب . وفى عام ١٨٦٥ أرسل الأشانتى سفارة بهدف إقرار السلم ، ولكن تباهى الماجور كوتشرين بأن الأشانتى يلتمسون السلم أدى إلى انسحاب السفارة على الفور . ومع ذلك لم يقم الأشانتى بغزو المحمية مرة ثانية . وقد مات الأشانتيهين كواكو دوا الأول فى عام ١٨٦٧ ، فى حين كان الأشانتى من الناحية الرسمية مازالوا فى حالة حرب مع البريطانيين .

ونتيجة لنهوض الأشانتى ونمو قوة البريطانيين على الساحل تبدد كل ما كان لدى الهولنديين من مطامع فى إقامة إمبراطورية فى غرب إفريقية . غير أنه كان لهم عدد كبير من الحصون انتزع أغلبها من الأشانتى ، وأهمها إلمينا . وتوصل الهولنديون والبريطانيون إلى اتفاق بشأن تبادل بعض الحصون لتجنب التداخل بينها . وهكذا فإن تبعية قبائل إفريقية حليفة للبريطانيين ، الننكييرا والواسّاو والكومِنْدا ، كانت تنتقل من دولة أوروبية إلى دولة أوروبية أخرى ، على حين ظلت إلمينا ، التى كانت تابعة للهولنديين ، راسخة فى ولائها للأشانتى . ولم يشارك الهولنديون أنفسهم فى الحروب ، والحقيقة أنهم كانوا يحتفظون بعلاقات ممتازة مع كوماسى .

وفى عام ١٨٦٧ واجهت أشانتى متاعب من جراء احتفالات تشييع جنازة الملك الراحل ، ولكن الملك الجديد **كوفى كريكارى** أرسل فى العام التالى جيشا لمساعدة إلمينا المشتبكة فى حرب مع اتحاد الفانتى . وحاولت الحكومة البريطانية التوصل إلى هدنة بين الفانتى وإلمينا وقدمت اقتراحات قبلتها إلمينا وقبلها الفانتى ، وتقضى بتعليق التحالف بين الأشانتى وإلمينا لمدة ستة أشهر وباستئناف العلاقات التجارية . وكان طبيعيا أن تقبل إلمينا هذه الاقتراحات لأن وصول جيش الأشانتى لمساعدتها يتطلب ستة أشهر على الأقل .

وغدت المشكلة حتى أكثر تعقيدا عندما قرر الهولنديون في عام ١٨٦٩ ترك الساحل ، كما كانوا مستعدين للتخلى عن حصونهم لاعتبارات مالية . وزعم الهولنديون أن الأشانتى ليس لهم حقوق فى إلمينا ، وأنه لا يربطهم بها سوى علاقات صداقة ؛ غير أنهم عجزوا عن أن يفسروا لماذا كانوا يدفعون إيجار القلعة للأشانتي . ولذلك أحجم البريطانيون عن الاستيلاء على إلمينا قبل أن يلمسوا دليلا على أن الأشانتى ليس لهم حقوق هناك . وأرسل الهولنديون موظفا إفريقيا يدعى بانچى إلى كوماسى ليحصل على إعلان بهذا المعنى من الأشانتيهين . وقام بانچى بتزوير وثيقة كان من الواضح أنها أرضت البريطانيين .

وفى ٩ ديسمبر ١٨٧٢ تحرك جيش الأشانتى من كوماسى صوب الجنوب ، وبعد أن عبروا نهر برا هزموا الجيوش المتحالفة فى سلسلة من المصادمات . وبوغتت قوة بريطانية صغيرة ولحقت بها الهزيمة بالقرب من نوكوا . وتقهقرت الجيوش المتحالفة ، ولكنها بعد أن دعمت صفوفها استطاعت صد الأشانتى . وبدا أن الأشانتى قد هزموا ، ولكن الحلفاء أصيبوا بخسائر فادحة فى الأرواح ، ولذلك قرروا التفرق . ولم يتعقب الأشانتى الجيش المتحالف ، وإنما أقاموا معسكرهم فى نوكوا . وفي شهر مايو تجمع جيش كبير للفانتى والدنكيرا فى جوكوا ، عندما انقض عليهم الأشانتى وقضوا تماما على الجيش المتحالف . وتحرك الأشانتى الآن نحو إلمينا التى كانت تحاصرها قوة بريطانية قوامها مائة وعشرة من جنود البحرية ومساعديهم من الإفريقيين . ولم يكن كل شئ على ما يرام بالنسبة لجيش الأشانتى ؛ فالجدرى والدوسنتاريا كالمعتاد نالا منه كثيرا ، ولذلك كانوا تواقين إلى التراجع بشرف ، ولكن الأشانتيهين كان متصلبا ، وليس على استعداد للسماح للجيش بالعودة إلا بعد غزو كيپ كوست .

فى هذه الأثناء كان المدد يتدفق من سيراليون وبريطانيا . وفى أكتوبر وصل سير جارنِت وولزلى ، أحد جنود بريطانيا البارزين ، ليتولى قيادة الحملة . ووضع وولزلى خطة لهجوم ذى ثلاث شعب ، بيد أن طابور كولونيل وارد تعرض لهزيمة حاسمة على أيدى أساموا نكوانتا ، بل إن الطابور الآخر لم يبدأ فى التحرك . ومع ذلك فإن الجيش الرئيسى بقيادة وولزلى عبر نهر برا . وواصل جيش الأشانتى الذى تمرس على حروب الغابات إعاقة التقدم البريطانى ، ولكنهم لم يكونوا نداً للبريطانيين الأفضل تسليحا ؛ فبنادق الأشانتى التى تحشى من فوهتها لم تكن تقارن بالبنادق البريطانية ذات الطلقات السبع . يقول ستانلى – الذى رافق الجيش كمراسل حربى – إن الأشانتي كانوا بالمثل نوى تجهيز طيب ، وإنهم كانوا أكثر من ندٍ للبريطانيين فى مناطق الغابات . ووصل وولزلى إلى كوماسى ، ولكنه وجدها قد هجرت . وكان قلقا على خطوط تموينه ، ويتحاشى أن يضُيّق عليه الخناق في كوماسى ، فقرر الانسحاب قبل موسم الأمطار . وفى طريق عودته لحق به رسول من قبل الأشانتيهين ، وأبلغه أن

الأشـانتيهين على استعداد للتسليم بشروط . وكانت النتيجة توقيع معاهدة فوميناَ[٩] التي وجهت في نهاية المطاف ضربة إلى قوة الأشانتي أصابتها بالشلل . فبمقتضاها وافق الأشانتيهين على ما يلي : ١ - التنازل عن كل إدعاءاته بالسيادة على الدنكييرا والأكامبو والأسين والأدانسي ؛ ٢ - دفع تعويض مقداره خمسون ألف أوقية من الذهب ؛ ٣ - التخلي عن التحالف مع إلمينا ؛ ٤ - سحب قواته من الجنوب الغربي ؛ ٥ - إبقاء الطرق التجارية والطريق بين كوماسي وبرا مفتوحة ؛ ٦ - وقف تقديم الأضاحي البشرية .[١٠]

ودمرت معاهدة السلم نسيج النظام الإمبراطوري للأشانتي ، فقد ثارت المقاطعات ، وفي كوماسي عزل كوفي كريكاري في عام ١٨٧٤ ، وارتقى العرش ملك جديد يدعى مِنْسا بونسو . واستطاع منسا بونسو هزيمة الجوابن الذين أعلنوا راية العصيان ، وأعاد تلك الولاية إلى سلطة كوماسي المباشرة . ولكن على الرغم من أنه استطاع إقرار سلطة كوماسي فإنه لم يكن محبوبا ، إذ كان ينظر إليه على أنه تابع للبريطانيين . وفاض الكيل بالزعماء عندما فر أمير من

---

(٩) تقول الموسوعة البريطانية إن الأشانتي لم يقبلوا هذه المعاهدة كتسوية دائمة ، وظلوا يشكلون تهديدا لأراضي الشاطئ ، وإنه بعد مفاوضات مطولة لاحقة أرسل البريطانيون إنذارا إلي كوماسي في عام ١٨٩٥ ، أعقبوه بحملة عسكرية أخرى ، وحل اتحاد الأشانتي ، وإعلان الحماية البريطانية على البلاد . وبسبب حاجتهم إلى حماية مناطق الأشانتي الداخلية التجارية من الاحتلال الفرنسي والألماني ، وكذلك إلى مكافحة غارات ساموري من أجل الرقيق ، قاموا في الفترة ١٨٩٦ - ١٨٩٩ بتعزيز نفوذهم في مناطق الأشانتي الشمالية .

(١٠) كانت لدى الأشـانتي قبل اعتناقهم المسيحية عادة تقديم الأضاحي ، فينحرون الطير والكلاب والخنازير والأغنام حسب المناسبات ، والغرض هو انتقال قوة الحياة والإخصاب إلى المتعبد . أما الأضاحي البشرية فلم تكن تقدم إلا في المناسبات الكبيرة مثل موت الملك والأعياد السنوية .

الأشانتي يطالب بعرش غايمان إلى البريطانيين طالبا حمايتهم . فأرسلت إلى الساحل بعثة من الأشانتي تحمل الفأس الذهبية . وأساء البريطانيون فهم طبيعة الفأس ، واعتقدوا أن الأشانتي الذين يشترون بنادق شنيدر التي تحشي من الخلف يستعدون للحرب . لذلك أعد البريطانيون لعبور نهر برا ثانية ، وعلى الفور استسلم مِنْسا بونسو طالبا السلم . وأغضب ذلك حزب الحرب في كوماسي ، وعندما طلب مِنْسا في عام ١٨٨٣ تحكيم البريطانيين في الخلاف بين إثنين من الرؤساء ، عزل من منصبه ، وخلفه **كواكا دوا الثاني** ، ولكنه مات في يونيه ١٨٨٤ . وكان موته بداية فترة من الحرب الأهلية استمرت حتى عام ١٨٨٨ ، عندما أجلس برمبه على العرش تحت اسم **كواكا دوا الثالث** ، وكان صبيا في السادسة عشرة يخضع لسيطرة أمه (الملكة الأم) . وفي عهده أعاد الأشانتي تدعيم موقفهم . بيد أنه في عام ١٨٩٥ طلب وزير المستعمرات إلى الأشانتي قبول مقيم بريطاني ، وعدم شن الحرب على القبائل التي تعيش خارج أراضيهم . وتشاور الأشانتي فيما بينهم ، وفي ٢٨ مارس ١٨٩٥ بعثوا بسفارة إلى إنجلترا . وفي أبريل وصل حاكم جديد[١١] يحمل تعليمات بتقديم إنذار إلى الأشانتي يذكرهم فيه بأن الغرامة لم تدفع ، وبأن طرق التجارة لم تبق مفتوحة ، وبأن تقديم الأضاحي البشرية مازال مستمرا ؛ وإذا لم تصل إجابة مرضية حتى ٣١ أكتوبر فستعتبر الحكومة البريطانية نفسها حرة في اتخاذ ما تراه من إجراءات .

وكانت السياسة التي يتبعها البريطانيون ذات وجهين : فكانوا يمنحون الحماية لكل رئيس يتمرد على الأشانتيهين ؛ وفي الوقت نفسه يريدون منه تحمل عبء الغرامة بأكمله . وكان السبب الحقيقي للإنذار هو أن بريطانيا قد قررت غزو أشانتي . وعندما لم يقم الأشانتيهين بالرد في الوقت المحدد ، تحرك طابور

---

(١١) هو السير وليم مكسويل الذي عين حاكما لقلعة كيب كوست .

بريطانى نحو كوماسى ، ولم يلق أية مقاومة ؛ وفى كوماسى أعلن الأشانتيهين خضوعه بخلع نعليه ، وخلخاليه الذهبيين ، وأحاط بقدمى القائد البريطانى .(١٢)

بل أن الأشانتى عانوا حتى مهانة أكبر . ففى عام ١٩٠٠ قدم الحاكم العام إلى كوماسى ، وطلب إليهم أن يسلموه « عرش الملك الذهبى » ليجلس عليه ، وأعلن أن ملكة بريطانيا هى سيدة الأشانتى ، وأن من حقه كممثل للملكة أن يجلس عليه .(١٣) وأصاب هذا الطلب الأشانتى بالذهول ، فالعرش هو رمز قوميتهم ، ولذلك أخذوا تحت حكم الملكة الأم يستعدون للحرب ، واحتجز الحاكم ومن معه فى الحصن ، وفرض عليهم حصار محكم . وعلى الرغم من أن الأشانتى أبدوا مقاومة عنيفة ، كما لجئوا إلى حرب العصابات ، فإن طابور الإنقاذ الذى أرسل تحت قيادة الكولونيل ولكوكس استطاع الوصول إلى كوماسى وأصبح الأشانتى فى نهاية الأمر جزءاً من إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس .

---

(١٢) قرر الأشانتى الخضوع والدخول في حماية « الرجل الأبيض » ، ومع ذلك تقدم الطابور البريطانى ، ودخل كوماسى فى ١٧ فبراير ١٨٩٩ ، وفى اجتماع عام قدم الملك خضوعه التام للقائد البريطانى فرانسس سكوت .

(١٣) كان الملك قد أخفى « عرشه الذهبى » فى مكان ما حتى لا يدنسه الغزاة . وكانت مطالبة الأشانتى بتسليمه إهانة يتعذر عليهم احتمالها ، إذ هم ينظرون إليه كرمز تتجمع فيه جميع أرواح أسلافهم ، ولم يكن الملك يجلس عليه إلا نادرا وفي المناسبات الكبيرة ، فكيف وجلوس حاكم أجنبى عليه !!


صفحة فارغة

الجزء الثاني


صفحة فارغة

الاقتصاد

أولا

لم تكن أوروبا القرن التاسع عشر هى منشأ الاستعمار فى إفريقية ، فاقتصاد بلاد السودان منذ أقدم العصور كان اقتصاد مستعمرات . والسمة المميزة لاقتصاد المستعمرات هى أن التجارة تكون هى السائدة فيه ، وليس الإنتاج . صحيح أنه فى العالم الحديث تضطلع المناطق المستعمرة بإنتاج البضائع للبلدان الاستعمارية . من ذلك أن المنتجات الاستوائية التى لا تنتجها أوروبا ، وكذلك المعادن كالقصدير أو الحديد التى لا تتوفر لهذه البلدان كفايتها منها ، يتم إنتاجها لإشباع حاجة السوق . بيد أن اقتصاد المستعمرات تسيطر عليه بضع شركات أجنبية تكاد تنفرد بكل أرباح التجارة . وقد كانت تسيطر على التجارة فى مستعمرات فرنسا السابقة فى غرب إفريقيا ثلاث شركات كبيرة ، وفى مستعمرات بريطانيا السابقة فى المنطقة نفسها تسع شركات . وثمة سمة ثانية هى أن تمويل التجارة والإنتاج يكون فى أيدى جالية أجنبية . فالشركات التجارية تقدم قروضا إلى الوسطاء المحليين ، وهؤلاء بدورهم يقدمون القروض إلى المنتِج الفعلي . وهكذا فإن المحصول حتى قبل أن ينضج لا يعود ملكًا للمنتِج . وسمة ثالثة لاقتصـاد المستعمرات هـى أن الموارد الإنتاجية للبلد لا تُنَمَّى لصالحه وإنما لتلبية متطلبات اقتصاد أكثر تقدما . وهكذا فإن غالبية المناطق إنما تعتمد على ناتج أوّلى واحد ، أو منتجين ، تتقلب أسعاره أو أسعارهما تقلبا شديداً .

فهل كانت هذه الظاهرة جديدة فيما يتعلق ببلاد السودان ؟ وهل كان اقتصاد هذه البلاد فى العصور الوسطى يختلف اختلافا كبيراً عن اقتصادها

اليوم ؟ لابد من الاعتراف بأنه فيما عدا بلاد الهوسا واليوربا لم يكن النظام يختلف اختلافا ملحوظا . والحقيقة إنه فيما يتعلق بالمناطق الواقعة شمال بلاد الهوسا كان النظام فى حالة أسوأ ، ذلك أن الأستعمار الحديث ينمى الموارد الاقتصادية ، وإن يكن بطريقة غير متوازنة ، على حين أن استعمار العصور الوسطى لم يكن ينمى أية موارد . ولم تجر دراسة جادة للسيطرة الاقتصادية التى مارستها دول شمال إفريقية على بلاد السودان من زاوية تأثيرها على اقتصاد المنطقة . والمنتجات التى كانت موضوعا للطلب – الرقيق والخصيان والذهب والعاج والزباد والعنبر والمسك – لم يكن ممكنا أن تؤدى بحكم طبيعتها إلى تنمية الموارد الاقتصادية . وكان محصول التصدير النباتى الوحيد هو الدخن الذى يصدَّر إلى قبائل الصحراء . وقد أدخل العرب الذين قدموا من الشمال والشرق بعض محاصيل جديدة – القطن والأرز والقمح ، وفي مقدمتها جميعا التبغ – ولكن إنتاج هذه المحاصيل كان من أجل التجارة البينية (فيما بين المناطق الإفريقية) فى المقام الأول ، ولم تكن موضوع طلب فى الشمال بسبب حجمها الكبير ، وتكاليف نقلها عبر الصحراء . وهكذا كانت صلة الشمال الإفريقى التجارية تفرض على بلاد السودان اقتصاد سلب ونهب .

ثانيا ، كانت التجارة فى أيدى تجار شمال إفريقية . فتجار غدامس وتوات ومراكش أو وكلاؤهم كانوا يوجدون فى كل المراكز التجارية الرئيسية . والواردات، وكذلك الصادرات ، كانت فى أيديهم . ونحن بينما نسمع عن العدد الكبير لقوافل الشمال الإفريقي التجارية التى كانت تزور بلاد السودان ، فإننا لا نسمع شيئا عن أى تجار من أهل السودان قاموا بزيارة لشمال إفريقية . وحتى فى بلاد السودان كان تجار شمال إفريقية يمولون التجارة ، ولم يكن الإفريقيون سوى وكلاء لهم .

ولذلك كان شمال إفريقية هو الذى يجنى منافع التجارة ، فأبناؤه كانوا يتحملون عبء المخاطر ويحصلون على الأرباح . والحقيقة أن بعض المدن الصغيرة الواقعة على طرق القوافل الرئيسية كانت تعيش أساسا على التجارة عبر الصحراء . كما أن رخاء سجلماسة العظيم بأكمله كان مرجعه التجارة مع

بلاد السودان . وقد برزت أهميتها عندما منع السلطان أحمد بن طولون (١) التجار المصريين والسوريين من استخدام الطريق الذى يبدأ من الواحة الخارجة إلى غرب بلاد السودان بسبب كثرة حوادثه . وأدى ذلك بتجار المشرق إلى المجئ إلى مراكش حيث أقاموا فى سجلماسة . وتزايد رخاء المدينة بدرجة كبيرة ، وأصبحت تحقق لخزانة القيروان إيرادات مقدارها أربعمائة ألف دينار ، وهو مبلغ كان يعادل نصف إيرادات منطقة البربر بأكملها ، ويعطينا فكرة عن أهمية التجارة . وعلى الرغم من أن المدينة كانت مزدهرة عندما زارها إبن بطوطة ، (٢) فقد كتب ليو الإفريقى في أيامه يقول إن المدينة كانت أطلالا ، (٣) إذ أنها خُرِّبت بعد موت السلطان أحمد المنتصر فى عام ١٣٩٣ .

ومدينة تلسمان كانت مركزاً آخر تمتع برخاء كبير بسبب تجارته مع بلاد السودان . وكانت قليلة الإنتاج ، بل لم يكن بها سكان كثيرون ، ولكنها أصبحت محطة نهائية للتجارة عند الطرف الشمالى ، وبخاصة بعد أن احتل المسيحيون وهران . وقد حققت أرباحاً وفيرة عن طريق فرض المكوس على واردات بلاد السودان وصادراتها . ولم تكن المدن الكبيرة هي وحدها التى تحصل على الأرباح من التجارة ، بل إن المدن الصغيرة الواقعة على طول طريق القوافل كانت تحصل بدورها على أرباح ضخمة . فمدينة مثل تاغواست كانت تصدر المنتجات الصوفية إلى ولاته وتمبكت ؛ ومدينة أخرى مثل يفران تصنع الأوعية النحاسية وأوانى الزينة كانت سوقها الوحيدة فى بلاد السودان . ولقد كان ليفران بطبيعة الحال فترة مجد عارضة . ففيما بين عامى ١٥٠٩ و ١٥٤١ ، عندما احتل البرتغاليون أغادير ، كانت مركزاً لتصدير المصنوعات الأوروبية إلى بلاد السودان .

وكانت توجد بغالبية المدن الجنوبية في مراكش نسبة كبيرة من السكان

---

(١) أحمد بن طولون : مؤسس الدولة الطولونية فى مصر ، التى حكمت فى الفترة ٨٦٨ – ٩٠٤ .

(٢) « وتوجهت برسم السفر إلى بلاد السودان فوصلت إلى مدينة سجلماسة وهى من أحسن المدن وبها التمر الكثير الطيب » تحفة النظار ، الصفحتان ٦٨٣ و ٦٨٤ .

(٣) « وتبدو سجلماسة فى الوقت الحاضر مهدمة تماما كما سبق أن قلنا ، فإن سكانها تجمعوا فى قصور وتشتتو فى كل مكان تقريبا من أراضى المنطقة » وصف أفريقيا ، طبعة الرياض ، الصفحة ٤٩٩ .

السود . ومرجع ذلك ليس سواد بشرة السكان ، بل إن عدداً كبيراً منهم اتخذ محظيات من بلاد الزنوج ، وكان معظم سكان هذه المدن من أبناء المحظيات . من ذلك أن أبا يزيد الحمّار [٤] الذى قام بثورة فى شمال إفريقية كان إبن جارية سودانية . وقد حقق هؤلاء الشماليون أرباحا طائلة من التجارة ؛ فالجارية الصغيرة السن التى تساوى ستة مثاقيل فى غاو يمكن أن تباع في فاس بخمسة عشر ؛ والحصان الذى يساوى ست دوكات[٥] فى بلاد البربر يمكن أن يباع بأربعين أو خمسين دوكة فى غاو . بيد أن منتجات غرب إفريقية كانت دائما من مواد الترف فى شمال إفريقية . لذلك لم تكن التجارة تعود على الفقراء بمنفعة تذكر ، وإنما كان المستفيدون الرئيسيون منها هم التجار الأغنياء والأمراء .

لقد كانت هذه أساساً تجارة فى سلع الترف ، ويمكن أن نلمس ذلك من البضائع التى أرسلها حاكم تنِبُكتُه على سبيل الهدية إلى سلطان فاس . وقد حمل هذه البضائع سفير زنجى أثار سلوكه ونطقه فكاهة ومرحا وغبطة بين رجال البلاط فى فاس ، وكانت كلها تقريباً واردة من بلاد السودان ، ومن بينها خمسون رقيقاً زنجيا وخمسون جارية زنجية وعشرة خصيان وزرافة وجمل وعشر نعامات وستة عشر من قط الزباد ورطل من المسك وآخر من العنبر وستون من جلود بقر الوحش التى تصنع منها الدروع الخفيفة . ويذكر ليو الأثمان التى كانت هذه الأشياء تباع بها فى فاس ، فالرقيق يباع بعشرين دوكة والجارية بخمس عشرة والخصىّ بأربعين والجمل بخمسين وقط الزباد

---

(٤) أبو يزيد مخلد بن كيداد : من قبيلة يفران الزناتية . ولد من " جارية هوارية " . قاد أقوى الثورات ضد الفاطميين فى المغرب الأقصى وأخطرها وأطولها أمدا . وشملت ثورته أربع مراحل بين انتصار وانكسار ، وشغلت هذه الثورة عصر القائم بأمر الله كله وعامين من عهد إبنه اسماعيل المنصور الذى سجل انتصاره على أبى يزيد فى عام ٩٤٧ ببناء مدينة أسماها "المنصورية" . وقد وقعت بأبى يزيد هزيمة منكرة فى ذلك العام وسقط أسيرا فى أيدى المنصور . وعندما استولى على مرماجنة فى المرحلة الثانية من ثورته أهداه أهلها حماراً أشهب اللون ، فكان يركبه ، ولذلك سُمّى صاحب الحمار . [انظر ، دكتور السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، الجزء الثانى (العصر الاسلامى) ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ ، الصفحات ٦٢١ إلى ٦٣١ ؛ وكذلك الموسوعة البريطانية ، مادة "Abu Yazid" ، وأيضا تاريخ أفريقيا العام ، اليونسكو ، الطبعة الانجليزية ، المجلد الثالث ، الصفحات ٣٢٣ وما بعدها .]

(٥) الدوكة Ducat : عمله إيطالية ذهبية ترد فى المصادر العربية باسم مثقال ، وكانت تزن فى أيام ليو الإفريقى حوالى ثلاثة غرامات ونصف الغرام .

بمائتى دوكة وكان الرطل من المسك أو العنبر يساوى ستين دوكة ، أما جلود بقر الوحش وهى أرخصها ، فكانت القطعة منها تباع بثمانى دوكات ، لذلك كان من المجزى القيام برحلة إلى بلاد السودان بأكبر عدد ممكن من الجمال .

ومع ذلك فإن الرحلة إلى بلاد السودان لم تكن أبداً رحلة للمتعة . فقد كانت الصحراء حاجزاً مهيباً يحدد الظروف التى تباشر فيها التجارة . كما أن بحر الرمال الذى يفصل السودان عن عرب شمال إفريقية هو فراغ من الناحية الفعلية ، وتسيطر بلاد السودان على الجزء الجنوبى منه بمختلف واحاته . وفى فترات الضعف ، أو عندما تسود الفوضى في المناطق المأهولة ، كان أهل الصحراء ، الطوارق والبربر ، والعرب أيضاً ، ينقضّون على السكان الزنوج المستقرين ويُعْمِلون فيهم النهب . ونادراً ما كان **البيض** (٦) فى الصحراء هم السادة ، حتى حلت الفوضى التى أعقبت الغزو المراكشى فأعطتهم الفرصة لأن يُعْمِلوا النهب دون خوف من الانتقام .

لقد كانت الصحراء عازلا بين بلاد السودان والشمال ، ولم يكن بالإمكان عبورها إلا عن طريق القوافل المنظمة . ومرجع ذلك هو الصعوبات الضخمة التى تكتنف عبور الصحراء فرادى أو فى أعداد صغيرة . فضلا عن ذلك كان هناك خطر قيام قبائل الطوارق والتيبو بمهاجمة من يعبرها . وهكذا أصبحت القوافل هى وسيلة عبور الصحراء .

ولكى تحقق التجارة أقصى ربح لها ، فلابد أن تكون الأصناف التى يتم الاتجار فيها خفيفة الوزن غالية الثمن ، وفى مقدمة هذه الأصناف الذهب والرقيق والعاج والمسك والعنبر والزباد ، وذلك بسبب ربحيتها الشديدة وخفة وزنها . وأدت التجارة مع الشمال إلى وجود طرق مألوفة ونشأة المحطات الوسيطة التي يجد فيها المسافر المتعب بعض الراحة . وفى بلاد السودان نفسها أدت هذه التجارة إلى نمو المدن الواقعة على حافة الصحراء والتى هى بمثابة نهايات لخطوط القوافل . وهذه المدن أشبه ما تكون بالحصون والمدن الواقعة على الساحل والتى نشأت بعد الكشف الأوروبى للساحل الغربى . وربما

---

(٦) إشارة إلى الطوارق ، وهم ليسوا زنوجا .

كانت العلاقة التى ربطت بين نهوض غانة ومالى وتجارة الصحراء هى نفس العلاقة التى ربطت بين نهوض أشانتى وداهومى والتجارة البحرية . إذ أن نتيجة هذه الحركات - من بحرى الرمال والمياه - كانت واحدة : وهى تنمية وازدهار حضارة تجارية .

وتطور تجارة غرب إفريقية يمكن أن يكون - منذ العصور التاريخية على الأقل - وثيق الإرتباط بدخول الجمل والنخيل . وثمة اختلاف فى الرأى حول تاريخ استخدام الجمل لأول مرة فى الصحراء . فالبعض يقول إن الجمل وجد فى الصحراء منذ زمن بعيد ، ودليلهم على ذلك الهياكل العظمية لجمل العصور السحيقة . ومن ناحية أخرى توجد أدلة كثيرة على أن الجمل يمكن ألا يكون من أصل إفريقى . والأدلة سلبية بحكم طبيعتها . فالقرطاچيون بينما كانوا يعرفون الحصان والفيل ، يبدو أنهم لم يكونوا يعرفون الجمل . كما أن هيرودوت فى تعداده الشامل لحيوانات إفريقية لم يشر مطلقا إلى الجمل . ولم يستخدم الرومانيون الجمال فى حملاتهم الإفريقية المبكرة . ويقول سالوست إن الرومان رأوا الجمل لأول مرة فى الحملة ضد ميثريداتس.[7] ويذكر بلينى أيضا أن الجمل له أصل أسيوى أكثر منه أصل إفريقى . لذلك يبدو محتملا أن يكون الجمل والنخيل مستجدين نسبيا فى شمال إفريقية ، وأن يكونا قد وصلا إليه حوالى القرن الرابع الميلادى . وكان جوتييه وجيزيل ، وهما خبيران فرنسيان فى شؤون شمال إفريقية والصحراء الكبرى ، من أنصار هذا الرأى .

ومن المؤكد أن إدخال الجمل والنخيل قد أحدثا ثورة فى النقل ، وهى ثورة لابد أنها أثرت بدورها فى التجارة . فبمساعدة سفينة الصحراء أصبح من الممكن نقل حمولات أثقل وزنا ، وقلت المخاطر عما سبق ولو أنها كانت لا تزال كثيرة ، كما أصبحت الرحلة تستغرق وقتا أقل . وكانت النتيجة نمواً فى النشاط

---

(٧) ميثريداتس السادس : (١٣١ - ٦٣ق . م) ملك بونتوس القديمة ، ويعرف بميثريداتس الأكبر . اشتبك مع الرومان فى ثلاثة حروب عرفت باسمه . كان بسبب دهائه وشجاعته وقدرته على التنظيم أخطر خصوم روما الشرقية .

التجارى أسفر عن نشأة عدد كاف من المدن عند نهايات الطرق عند الجانب الآخر من الصحراء . ونمت المدن لضمان إمدادات مطردة وكبيرة من البضائع المطلوبة ، وتوفير احتياجات المسافرين ووسائل الراحة اللازمة لهم . وهذه المراكز الحضرية لابد أنها شكلت النوى لدول جيدة التنظيم . كما أن غانة التى جاءت إلى الوجود فى هذا الوقت لابد أنها أصبحت على علاقة وثيقة بالتجارة عبر الصحراء الكبرى .

وكانت هناك خمسة طرق معروفة جيداً تربط شمال إفريقية ببلاد السودان . وكان أبعدها غربا هو الطريق الذى يسير بمحاذاة الساحل من مراكش حتى بلاد السودان فى الجنوب ، وكان هذا الطريق هو أيسرها قبل إدخال الجمل . أما الطريق الغربى فكان يبدأ من مراكش والجزائر حتى سجلماسة ومنها إلي بلاد السودان . وكان هناك طريقان فى الوسط ، أحدهما يبدأ من طرابلس ويمر بفزان ومُرْزُق وكُوَّار إلى بحيرة تشاد ، والآخر يبدأ من غدامس ويمر بغات حتى بلاد الهوسا وغرب بلاد السودان . أما الطريق الشرقى فكان يبدأ من برقة ويمر بالكفرة وتبستى . وكان هذا الطريق وعرا ولم يطرأ عليه تحسن ما إلا فى القرن التاسع عشر مع نمو قوة السنوسيين فى هذه المنطقة وإنشاء المزارع وحفر العيون . فضلا عن ذلك فإنه بينما كان مايات برنو أقوياء ، وكان الحفصيون الذين أقاموا علاقات طيبة معهم يحكمون فى تونس ،[(٨)] كان باستطاعة إمبراطورية البرنو حماية الطريق من فزان حتى تشاد من تهديد الطوارق بالرغم من أنه كان طريقا اصطناعيا ووعرا . ولكن هذا الطريق لم يعد مأمونا فى القرن الثامن عشر بسبب الضعف الذى طرأ على إمبراطورية البرنو ، ولذلك هجرته القوافل . وفى القرن التاسع عشر أصبحت زندر أكثر أهمية ؛ فقد أفادت فى ربط برنو بالشمال على امتداد الطريق الغربى المار بغات وغدامس .

---

(٨) « (قال ابن سعيد) .. ويليهم الكانم وهم خلق عظيم ... ولهم التغلب على بلاد الصحراء إلى فزان وكانت لهم مهادنة مع الدولة الحفصية منذ أولها .. » العبر ، المجلد السادس ، الصفحة ١٩٩ .

وربما كان ضروريا بالمثل أن نلم بالأخطار والمصاعب التى كان على القوافل أن تواجهها . فالصحراء الكبرى ذات مساحة شاسعة على الرغم من كثرة ما يوجد بها من واحات ووديان تنعم بحياة نباتية وحيوانية . وهناك مناطق جبلية مثل تبستى وأحجار وأير ، بيد أن غالبية الصحراء تتكون من كثبان رملية عالية ثابتة ومتحركة ، ومنخفضات تغطى بطونها الحصباء ، وهضاب عرت العوامل المختلفة صخورها . وكانت هناك دائما مشكلات العطش والمتاعب الجسمانية ، مثل تشقق الشفاه وبشرة الوجه بسبب العواصف الرملية . وعلى الطريق من فاس إلى تمبكت كانت المياه مشكلة دائمة ، لذلك اعتاد المسافرون أن يحملوا معهم على ظهور الجمال مؤونة من المياه تكفيهم سبعة أيام ، بيد أنه حتى هذه الكمية كانت تنفد فى بعض الأحيان ، عندئذ كانوا يرغمون على ذبح الجمال واستعمال الماء الذى تختزنه ، وإذا لم يكن هذا الماء كافيا فلا يكون أمامهم سوى مواجهة الموت . هذا فضلا عن الخوف الدائم من أن تضل القوافل طريقها فى الصحراء ، وكانت القوافل تتغلب إلى حدما على هذه المشكلة باصطحاب أدلاء[٩] يعرفون مواقع العيون ويمكنهم الاهتداء بالنجوم مثل الملاحين . كذلك كان هناك دائما احتمال تعرض القوافل لهجمات رجال القبائل الصحراوية . ومع ذلك كان للصحراء سحرها أيضا ؛ ففيما وراءها يوجد ذهب بلاد السودان الذى أغرى كثيرين جدا من المغامرين بالسعى إلى الثروة على الجانب الآخر من الصحراء .

وقدأثارت بعض القصص الخيالية شهية التجار من أهل الشمال ، ومنها تلك القصة التى رواها منساموسى للعمرى فى القاهرة ،[١٠] وهى قصة كانت بطبيعة الحال دعاية خالصة ، ومفادها أن الذهب نتاج نباتى ، كما أنها قصة

(٩) الدليل : أسماه إبن بطوطة « التكشيف » . « والتكشيف إسم لكل رجل من مسوفة يكتريه أهل القافلة » تحفة النظار ، الصفحة ٦٨٥ .

(١٠) انظر ، رواية منساموسى لفضل الله العمرى ، الحاشية ٣-٤٩ أعلاه .

ونورد هنا قصة أخرى رواها الإدريسى : "فإذا أخذ النيل فى الرجوع والجزر رجع كل من فى بلاد السودان المنحشرين إلى تلك الجزيرة بحاثا يبحثون طول أيام رجوع النيل فيجد كل منهم فى بحثه هناك ما أعطاه الله سبحانه كثيرا أو قليلا من التبر وما يخيب منهم أحد فإذا عاد النيل إلى حده باع الناس ما حصل بأيديهم من التبر ..» نزهة المشتاق ، المجلد الأول ، الصفحة ٢٤ . [المقصود بالنيل هنا هو نهر النيجر .]

موغلة فى القدم . فالفقيه(١١) فى القرن العاشر الميلادى يذكر أن الزنوج يزرعون الذهب فى الصحراء ، كما يزرع غيرهم الجزر ، وأنهم يحصدونه فى الصباح . ويكرر ياقوت هذا المعنى . ومن العمرى يمكننا أن نقف على التفاصيل الكاملة لهذه القصة المثيرة . فقد قال له الإمبراطور إن هناك نوعين من النباتات التى تنتج الذهب ، نوع يظهر فى الربيع وينمو فى الصحراء فى أعقاب سقوط المطر ، وذلك لا يُعوَّل عليه لأن سقوط الأمطار فى الصحراء ليس مؤكدا ، والنوع الآخر ينمو على ضفاف النيل ويزدهر طول العام . والمنطقة التى يوجد بها الذهب بكثرة هى تلك الواقعة جنوب غانة . ويظهر الذهب فى أغسطس عند اشتداد الحرارة ، وعندما يفيض النهر لا يكون لازما سوى الحفر للحصول عليه . ويبدو أن المنسا كان يتمتع بسعة خيال هائلة ، لأن القصة الأخرى التى رواها للعمرى عن سلفه الذى أبحر إلى المحيط تبدو بالمثل ممارسة لخيال خالص .(١٢) وثمة قصة أخرى لأحد الرحالة تتعلق بذهب بلاد السودان رُوِيت لبتنكورت فى جزركنارى . وتفيد هذه القصة أن الزنوج كانوا يدعون نوعا ضخما من النمل يحفر الأرض ليخرجوا الذهب ثم يبادلونه بمنتجات أخرى .

وكان تجار مصر وشمال إفريقية يميلون إلى تصديق هذه الروايات ، وكان يتدفق عليهم من الذهب ما يكفى لإثارة اهتمامهم بالتجارة . وكانت الأرباح

---

(١١) إبن الفقيه : أبو بكر أحمد بن محمد بن إسحاق الهمزانى . جغرافى عربى وضع حوالى عام ٩٩٣ مؤلفا شاملا عنوانه كتاب البلدان . وقد فقد هذا الكتاب ، ولكن عُمل له مختصر يقول دى غويه إن الذى وضعه يحتمل أن يكون على بن حسن الشَّيْزَرى حوالى عام ١٠٢٢ . ونشر دى غويه هذا المختصر فى عام ١٨٨٥ فى المكتبة الجغرافية العربية ، المجلد الخامس . [أنظر ، الموسوعة الاسلامية ، الطبعة العربية ، مادة « إبن الفقيه » .]

(١٢) « قال فى مسالك الأبصار : قال إبن أمير حاجب : سألته عن سبب إنتقال الملك إليه — فقال إن الذى قبلى كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك ، فجهز مئين سفن ، وشحنها بالرجال والأزواد التى تكفيهم سنين ، وأمر من فيها ألا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته أو تنفد أزوادهم ؛ فغابوا مدة طويلة ، ثم عاد منهم سفينة واحدة وحضر مقدمها ، فسأله عن أمرهم . فقال : سارت السفن زمانا طويلا حتى عرض لها فى البحر فى وسط اللجه واد له جرية عظيمة ، فابتلع تلك المراكب وكنت آخر القوم فرجعت بسفينتى ؛ فلم يصدقه : فجهز ألفى سفينة ألفا للرجال وألفا للأزواد ، واستخلفنى وسافر بنفسه ليعلم حقيقة ذلك ؛ وكان آخر العهد به وبمن معه ... » صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحتان ٢٩٤ و ٢٩٥ .

هائلة ، وفيها تكمن الإثارة . وفى أوقات استقرار الحكم ببلاد السودان كان الخطر يقل إلى أدنى حد . كذلك لم يعدم الأمر عناصر مثيرة أخرى . فنفس أسماء سجلماسة وأودغست وولاته وتوات ، تلك المدن الخاملة فى الصحراء ، كانت تثير فيهم ذكريات تجارة الذهب . ومن هذه المدن سجلماسة التى شيدها البربر فى عام ٧٥٨ ، وأصبحت عاصمة **تافيلت** (١٣) - الجزء الجنوبى من مراكش - فى عام ٩٠٨ ، وكانت النقطة التى تبدأ منها القوافل رحلتها الطويلة . وقد أعطاها وضعها الممتاز عند سفح منطقة الكول بجبال الأطلس موقعا مواتيا . وكانت تشكل المحطة النهائية العظيمة فى الشمال لتجارة الصحراء . وقد أمكن زراعة الخضروات والمحاصيل الغذائية عن طريق نظام للقنوات . قال إبن بطوطة عن سجلماسة إنها « من أحسن المدن وبها التمر الكثير الطيب وتشبهها مدينة البصرة فى كثرة التمر ولكن تمر سجلماسة أطيب وصنف إيرار منه لا نظير له فى البلاد .»(١٤) وكان المكان يزدحم بأمراء التجارة الذين أثارت بيوتهم وحدائقهم حسد أكثر الناس ترحالا وهو إبن بطوطه الذى قابل هناك أخا لتاجر تعرف إليه فى الصين . (١٥)

وكان المسافرون الذين يتجمعون هناك ينعمون بكل الملذّات التى يمكن أن توفرها « مدينة من أكبر مدن العالم المزدحمة بالسكان » ، والتى تعيش على التجارة . وكانت هناك وكالات تجارية وسماسرة يمكنهم تزويد القادم بمعلومات عن حالة التجارة فى بلاد السودان ، وفوق كل ذلك ذهب وصياغ اشتهروا بصنع أرقى المشغولات الذهبية وأنقاها . وللباحثين عن اللذة كان هناك الطعام الشهى :

---

(١٣) تافيلت : أكبر واحات الصحراء الكبرى . بها حتى الآن أطلالُ سجلماسة . وهى مهد أسرة الأشراف العلويين التى لا تزال تحكم المملكة المغربية .

(١٤) تحفة النظار ، الصفحة ٦٨٤ .

(١٥) « ونزلت منها عند الفقيه أبى محمد البشرى ، وهو الذى لقيت أخاه بمدينة قنجنفو من بلاد الصين فياشذ ما تباعدا فأكرمنى غاية الأكرام » ، المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

السحالي والكلاب المسمنة [١٦] والقمح والتمور التي تفوق في حلاوتها كل فاكهة أخرى .[١٧] ثم كانت هناك نساء جميلات الطلعة يسهل نيلهن ، ويتمتعن ببدانة كانت موضع الإعجاب على نطاق العالم العربي .[١٨]

وعلى مسيرة خمسين يوما إلى الجنوب من سجلماسة توجد المدينة الشهيرة أودغست . وكان بإمكان المسافر الذي يمضي قرابة الشهرين في الصحراء تحت نير الحرارة والعواصف الرملية أن يجد الراحة في هذه المدينة التي تمتعت بشهرة لا تفوقها فيها سوى باريس المعاصرة . وقد اشتهرت بجودة طعامها ، وتفوقت طاهياتها في صنع الفطائر والكعك المحشو بالجوز والشعرية بالعسل ولحوم الجمال المجففة والتعابين المطهوة في الماء والملح أو الاسفنط . وأطعمة كهذه لابد أن تثير شهية أكثر الناس ولعاً بالطعام وتنوقا له . وكانت أثمان الطاهيات مرتفعة ، وتباع الواحدة منهن بمائة مثقال ذهبا . [١٩]

وعندما زار بارث أودغست الصحراء الكبرى وجد نساءها في حالة عبث وسعى إلى اللذة على الرغم من أن أخلاقهن كانت قد تحسنت على أيامه . وقد اشتهرت نساؤها بجمالهن علي الرغم مما قاله أحد المسافرين في العصور الوسطى من « أنك لا تكاد تجد أحدا من السكان ليس ضحية حمّى أو أعراض

---

(١٦) « وأهل سجلماسة يسمنون الكلاب ويأكلونها كما يصنع أهل مدينة قفصة وقسطيلية ...» البكري ، المرجع السابق ، الصفحة ١٤٨ .

« وقد حكى إبن سعيد .. وليس فيها ذئاب ولا كلاب لأنهم يسمنونها ويأكلونها ...» صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ١٤٦ .

(١٧) « وبها نخيل كثير وأنواع من التمر لا يشبه بعضها بعضا وفيها الرطب المسمى بالبرني وهي خضراء جدا وحلاوتها تفوق كل حلاوة » نزهة المشتاق ، المجلد الأول ، الصفحة ٢٢٦ .

(١٨) « ونساؤهم يستعملنه في السمن وخصب البدن ولذلك هن في نهاية السمن وكثرة اللحم . » نزهة المشتاق ، المجلدالأول ، صفحة ٢٢٦ .

(١٩) « وبها سودانيات طباخات محسنات تباع الواحدة منهن بماية مثقال وأكثر تحسن عمل الأطعمة الطيبة من الجوزنيقات والقطايف وأصناف الحلوات وغير ذلك . . » البكري ، المرجع السابق ، الصفحة ١٥٨ .

الاكتئاب » . وكان المسافرون يهيمون في نشوة غامرة من خصورهن النحيلة وأردافهن وصدورهن وأكتافهن الممتلئة ، على حين كانوا فى الوقت نفسه ينعون عليهن تجردهن من الأخلاق . (٢٠)

ومع ذلك فإن أوديغست ، ملكة الصحراء ، لم تكن تنتج ما يكفيها من الطعام . فكل ما كانت الواحة تنتجه هو مقدار محدود من الأغذية بمجهود الرقيق لمواجهة استهلاك سكانها ، ولكنها كانت تستورد الجانب الأكبر من احتياجاتها من مواد الترف ، بما فيها الأغذية . وكان باستطاعة التجار المحليين أن يفرضوا ما يشاءون من الأسعار التى يُرغَم المسافرون المتعبون على دفعها . وقد قام المرابطون بتدمير هذه المدينة الغريبة التى سيطر الجشع التجارى على كل شئ فيها ، حتى على نزوات النساء ، وسقطت فى أيديهم فى عام ١٠٥٠ .(٢١)

وفى الطرف الجنوبى من الطريق كانت تقع مدن السودان الكبيرة – غانة وتمبكت وولاته ثم كانو فيما بعد . وكانت ولاته تقع عند الطرف الجنوبى لطريق القوافل على مسيرة عشرة أيام من تغازة ، وتمر الرحلة إليها بأكثر مناطق الصحراء قسوة . فالحر فيها قائظ ، ولا يوجد بها سوى القليل من النخيل ، ولكن السكان كانوا يزرعون القثاء . وكان يقطنها المسوفة الذين يرتدون ملابس مستوردة من مصر . ويقول إبن بطوطة الذى كان يولى النساء الجميلات اهتماماً كبيراً إن نساء ولاته ذوات جمال فائق . (٢٢)

---

(٢٠) « وبها جوار حسان بيض الألوان منثنيات القدود لا تنكسر لهن نهود لطاف الخصور ضخام الإرداف واسعات الأكتاف .» المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

(٢١) « وفى سنة ست وأربعين غزا عبد الله بن ياسين أوديغست ، وهو بلد قايم العمارة مدينة كبيرة فيها أسواق ونخل كثير وأشجار الحناء .» المرجع نفسه ، الصفحة ١٦٨ . [الاشارة هنا إلى العام الهجرى ٤٤٦ الذى يقابل العام الميلادى ١٠٥٤ ، وفى هذا اختلاف عما ورد بالمتن .]

(٢٢) « وبلدة إيوالاتن شديدة الحر وفيها يسير نخلات فى ظلالها البطيخ وماؤهم من أحساء بها ولحم الضأن كثير بها وثياب أهلها حسان مصرية وأكثر السكان بها مسوفة ولنسائها الجمال الفائق وهن أعظم شأنا من الرجال .» تحفة النظار » الصفحة ٦٨٧ . [إيوالاتن هى ولاته ؛ والمسوفة هم الطوارق أهل اللثام .]

وكانت هذه المدن تعتمد كلية على تجارة الشمال . ويمكن بدرجة ما تفسير ظهورها وسقوطها بما يطرأ من تغيرات على السلطة عند الطرف الشمالى ، فالطريق يفقد أمنه بسبب ظهور قبيلة صحراوية ، وما يفاقمه من دمار ناشئ عن قحولة المنطقة . ونرى ذلك على نحو أفضل فيما يتعلق بتمبكت .

فقد تأسست تمبكت فى عام ١٠٠٠ ، وكانت محلة صغيرة استقر فيها بعض تجار چنى للمتاجرة مع الطوارق ، وسرعان ما برزت أهميتها بسبب موقعها الجغرافى . وهى تقع عندمنحنى النيچر حيث يتوغل النهر فى الصحراء كثيرا ، ويكون عند أقرب نقطة له من واحة الصحراء الفسيحة – توات . لذلك كان « المسافرون يتوقفون هنا . وزاد السكان بمشيئة الله ، وبدأ الناس يبنون لأنفسهم مبانٍ أنيقة . وكانت القوافل القادمة من الشمال والشرق فى طريقها إلى مالى تتوانى فى المعسكر لتكملة مؤونتها وسرعان ما قامت سوق ، واستبدلت بالحاجز المصنوع من أشجار شائكة جافة حظيرةٌ مرتفعة من الحصير أصبحت مكانا يلتقى فيه المسافرون القادمون بالزوارق والجمال » .

هذه هى الميزة الكبيرة التى تمتعت بها تمبكت . فلم تكن هناك مدن كثيرة على غرارها يتحكم موقعها فى التجارة الصحراوية والنهرية ؛ ذلك أن المدن الواقعة فى المنطقة المنخفضة تغمرها المياه فى أثناء الفيضانات ، على حين أن المدن المرتفعة تتعرض للعزلة والجفاف عندما ينخفض النهر . وكان يمكن لچنى التى أسماها دى بوا[٢٣] « لؤلؤة النيچر » أن تكون منافسا لتمبكت لو لم تكن تقع فى منطقة منخفضة . والنيچر ينحنى متجها نحو الجنوب الشرقى قبل وصوله إلى تمبكت ، ثم تنحسر المستنقعات التى تتكون بسبب ارتفاع منسوب المياه لتصبح مجرى محدداً للغاية . وتمبكت نفسها تنعزل عن النهر عندما

(٢٣) فليكس دى بوا : صاحب الكتاب الممتع Tombouctou la Mysterieuse (تمبكت الغامضة) الذى يتضمن سرداً لتاريخ المنطقة ووصفا لمدنها وسجلا بالنطق الفعلى لأسماء سلاطين السنغى . أنظر الحاشية ١ – ١٤ أعلاه .

تنخفض المياه ، ولكن قناة تصلها بقرية كابرة[٢٤] التى تبعد عنها مسافة ثمانية أميال ، وتضطلع بمسؤوليه التجارة النهرية عندما تنخفض المياه .

وفى عهد منساموسى كانت تمبكت قد أصبحت مدينة هامة ، وزادها موسى أهمية عندما بنى بها مسجد سنكورى[٢٥] ، ولكنها لم تصل إلى أوج مجدها إلا فى عهد سلاطين السنغى . فمع انتقال السلطة السياسية إلى شرق منحنى النيجر أصبحت تمبكت ،المركز التجارى الأول لبلاد السودان . ومع ذلك احتفظت تمبكت طوال تاريخها بالسمات المميزة لمدينة صحراوية . ويقول إبن بطوطة إن تمبكت لها مظهر مدن الطوارق ، وإن معظم سكانها ينتمون إلى قبيلة المسوفة .[٢٦] كذلك يذكر بارث – الذى زار المدينة فى الفترة ٣-١٨٥٤ – أن تمبكت خاضعة لنفوذ الطوارق ، وعلى الرغم من مظهر تمبكت كمدينة صحراوية فقد كانت ذات أهمية كبيرة نتيجة لتحكمها خلال العصور الوسطى فى توزيع الواردات القادمة من الشمال . فبسبب وقوعها عند نقطة حيوية على النهر ، فإن تجار الشمال عندما يصلون إليها يستطيعون الاستفادة من النهر فى توزيع بضائعهم . وقد أدرك أباطرة بلاد السودان منذ وقت مبكر أهمية النقل النهرى وبذلوا ما فى وسعهم لتنظيم هذه الوسيلة الحيوية من وسائل الاتصال ، فكان هناك موظفون مهمتهم تزويد المسافرين بحاجتهم من القوارب ، وجمع المكوس ممن يستخدمون النهر فى أغراض النقل . وقد تمتعت تمبكت وكابرة بموقع نموذجى ساعدهما على التحكم فى التجارة .

---

(٢٤) ورد فى طبعتى الرياض والمغرب لكتاب ليو الأفريقى وصف إفريقيا أن كابرة تبعد إثنى عشر ميلاً عن تمبكت . وجاء اسمها « كابَرَ » فى النص العربى لكتاب تاريخ السودان . كذلك ورد بحاشية فى الصفحة ٢٥ من الترجمة الفرنسية لهذا الكتاب أنها كتبت فى إحدى مخطوطات النص العربى « كبيرة » وليس كابر .

(٢٥) هو مسجد تمبكت الكبير الذى بنى فى عهد منسا موسى فى عام ١٣٢٥ ، وقد قام ببنائه عربى من الأندلس صحب المنسا فى عودته من مكة . هدمه القاضى العاقب فى عهد أسكيا داود وبنى مكانه مسجدا جديداً ما زالت أطلاله باقية حتى اليوم .

(٢٦) « ثم سافرنا منها إلى تُنْبُكتو ... وبينها وبين النيل أربعة أميال وأكثر سكانها مسوفة أهل اللثام » تحفة النظار ، الصفحة ٧٠١ [ويقصد إبن بطوطة بالنيل هنا نهر النيجر ، أما المسوفة فهم الطوارق .]

وميزة أخرى تمتعت بها تمبكت هي شهرتها على نطاق بلاد السودان كمركز للدراسات الإسلامية . ويثير ذلك قدراً من الدهشة لأن غاو وجدت بها مساجد ومدارس حتى قبل أن تبدأ تمبكت حياتها . ولكن تمبكت كانت على اتصال أوثق مع الشمال ، وتوجد بها دائما أعداد كبيرة من البربر والطوارق ، إلى جانب طبقة من المرابطين من أهل موريتانيا لها وضع سائد فى المدينة . وهذه الطبقة هى التى قدَّمت إلى تمبكت خيرة ما لديها من أساتذة وفقهاء عظام ، وكانت مصدر شهرتها كمركز للدراسات الإسلامية ، مما جذب إليها طبقة من التجار الأثرياء لديها الرغبة فى تشجيع العلماء .

وأدى سقوط حكم الأساكى [٢٧] إلى تدهور تمكبت : فالباشوات عجزوا عن حفظ النظام ، والبمبرة والفولانى والطوارق أخذوا يغيرون عليها بصورة مستمرة . ونتيجة لذلك أخذ التفوق التجارى يتسلل فى بطء إلى مدن الهوسا ، حتى أن القوافل القادمة كانت وقت زيارة بارث لغرب إفريقية قد أصبحت صغيرة الحجم ، وبارث يعتبر التقديرات التى توضع فى شمال إفريقية ، مثل تقديرات جاكسون ، بأن متوسط القافلة عشرة آلاف جمل ، تقديرات تنطوى على مبالغات شديدة . ففى أيامه نادراً ما كانت أية قافلة تزيد على ألف جمل ، بل إن عدد جمال القافلة العادية كان يتراوح بين السبعين والمائة .

وكان لمدن السودان بعض السمات المميزة . ففى غالبيتها تعيش جاليات أجنبية كبيرة ترتبط بالطبقات الحاكمة بروابط الدين ، وفى بعض الأحيان بروابط المصاهرة .[٢٨] ولكن رجال الأعمال والعلماء المقيمين فيها لم يكونوا سواء بحكم الأصول العرقية أو العقيدة مؤيدين للدول الزنجية ، بل كانوا فى كل مناسبة على استعداد للتضحية بمصالح الدولة من أجل مصالح الشماليين .

---

(٢٧) بعد الغزو المراكشى ، وانهيار دولة السنغى ، وتولى باشوات مراكشيين حكم البلاد .

(٢٨) « فوصلت إلى مدينة مالى .. وقصدت محمد بن الفقيه ... وكان الفقيه متزوجا ببنت عم السلطان فكانت تتفقدنا بالطعام وغيره » تحفة النظار ، الصفحة ٦٩١ .

ووُجِدت بهذه المدن أحياء خاصة للمقيمين الأجانب . ففى غانة ، كما يقول البكرى ، كانت تفصل المدينة الوثنية عن المدينة الإسلامية منطقة شجيرات كثيفة يتخللها طريق يصل بينهما .(٢٩) وهكذا كان التجار الأجانب المسلمون يعيشون فى منطقة مختلفة ؛ وفى مدن معينة مثل غاو كانوا يعيشون على الضفة الأخرى للنهر . وكانت لهم حياتهم الخاصة ، شأنهم شأن التجار الأوروبيين الذين ظلوا حتى وقت قريب يعيشون على الساحل . والحقيقة أنه كان هناك تشابه صارخ بين التاجر القادم من شمال إفريقية المقيم في بلاد السودان والتاجر الأوروبى على الساحل . فكلاهما انتهى إلى نوع من حياة العزلة بعيدا عن الجماعة التى يستخلص منها أرباحه . وكانت الحياة الاجتماعية لهؤلاء التجار تقتصر على استضافة بعضهم بعضا ، أو استضافة أعيان البلد . وكان الزائر « الأبيض » الرفيع الشأن يلقى دائما ما يلقاه الملوك من ترحيب وضيافة وتكريم . وكان يوجد فى مدن الهوسا قنصل للعرب يرعى مصالح التجار الأجانب .

وفى القرن التاسع عشر كانت تجارة شمال إفريقية بأسرها تقريبا فى أيدى تجار غدامس وتوات . وعلى الرغم مما لحق بهذه التجارة من أضرار نتيجة لبزوغ نجم الفولانى وظهور القبائل الصحراوية وإلغاء تجارة الرقيق ، فقد كان لا يزال لها شأنها . ومن حين لآخر كان يشاهد على الطريق تاجر مراكشى يدعى أنه من الأشراف يسافر مع « سُرِّيته »(٣٠) ومرافقاتها الكثيرات . وكان لهؤلاء التجار الأغنياء ، شأن اليهود فى أوروبا العصور الوسطى ، نفوذ كبير

---

(٢٩) « مدينة غانا مدينتان سهليتان أحدهما المدينة التى يسكنها المسلمون وهى مدينة كبيرة فيها إثنا عشر مسجدا .. ومدينة الملك على ستة أميار من هذه وتسمى بالغابة والمساكن بينهما متصلة ... » البكرى ، المرجع السابق ، الصفحة ١٧٥ .

« وقد ذكر فى تقويم البلدان : أنها مدينتان على ضفتى نيلها ، إحداهما يسكنها المسلمون والثانية يسكنها الكفار ....» صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٤٨٢ .

(٣٠) وردت فى المتن «siriya» والسُرِّية كلمة عربية صحيحة ، جمعها سرارى ، ومعناها المرأة المملوكة التى يتخذها الرجل للذاته الجسدية بطريقة غير شرعية . [انظر ، جبران مسعود ، الرائد ، مادة « السُرِّية » ، الصفحة ٨١٩ .]

على سياسات البلد استطاعوا تحقيقه عن طريق تقديم القروض للأمراء المحليين . من ذلك أن الأمير الكبير والقدير عبد المؤمن[٣١] كان مدينا للتاجر المغربي عبدالخالق بثلاثين مليون كوردى . والعلاقة مع الأهالي كانت دائما على مستويين : فعلى المستوى الأعلى كان باستطاعه التجار ، بسبب ثروتهم ومعرفتهم بالعالم الخارجي وانتمائهم إلى نظام اجتماعى أجنبى ، إقامة علاقات ودية مع أفراد الأسرة الملكية وكبار الأعيان . وهكذا يمكن مقارنة مكانة دى سوزا فى وايداح بمكانة التاجر محمد بن الفقيه[٣٢] فى بلاط المنسا . أما على المستوى الأدنى فكانت علاقتهم لا تتعدى وكلاءهم ومن يعشن معهم من النساء . وكان لهؤلاء العملاء أهمية كبيرة .إذ أن التاجر الأجنبى الذى يعيش على الساحل أو فى العاصمة بعيدا عن وطنه ، كان يعتمد كلية على وكيله فى الحصول على البضائع وتصريفها . وعلى غرار قباطنة السفن والوسطاء الذين اكتسبوا نفوذا على الساحل ، كان التجار من الونقارة بالمثل عنصرا قوياً فى مجتمع السودان .

وربما كان الونقارة أكثر الشعوب السودانية غرابة . فهم على غرار الديولا[٣٣] الذين جاءوا بعدهم كانوا جميعهم تقريباً مسلمين وتجارا محترفين يقومون بجمع المنتجات وبيعها فى المدينة . وقد ساد الاعتقاد طويلاً بأن بلاد الونقارة هى التى

---

(٣١) عبد المؤمن بن على : مؤسس دولة الموحدين فى المغرب . في عام ١١٤٥ تمكنت طائفة جديدة من الموحدين تحت قيادته من محاصرة فلول المرابطين فى فاس ، ثم الاستيلاء عليها . أسس مملكة جديدة امتدت من المحيط الأطلسى إلى سرت ، ولكنها لم تعمر أكثر من مائة عام . [أنظر ، المغرب الكبير ، المرجع السابق ، الصفحات ٥١٧ وما بعدها ؛ وكذلك تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير ، الصفحتين ١٤٥ ، ١٤٦ –وهو ترجمة عربية صدرت فى ليبيا لكتاب بوفل ، المرجع السابق .]

(٣٢) محمد بن الفقيه زوج بنت عم المنسا سليمان سلطان مالى الذى حكم فى الفترة ١٣٤١ – ١٣٦٠ . أنظر ، الحاشية ١١–٢٨ أعلاه . وبخصوص أسرة دى سوزا فى وايداح ، أنظر الصفحات الأخيرة من المتن بالفصل السابع أعلاه .

(٣٣) الديولا : إحدى المجموعات العرقية فى ساحل العاج ، وبينهم نسبة كبيرة من المسلمين .

يجئ منها الذهب ،[٣٤] ففى أغلب الأحوال كان هؤلاء الوسطاء هم الذين يجلبون الذهب لبيعه فى المدن السودانية . وكان التجار من الونقارة يعملون لحساب رؤسائهم فى شمال إفريقية ، بيد أنهم كوسطاء حققوا أرباحاً كبيرة استثمروها فى تجارة الرقيق . وقد أصبحوا بوجه عام من المسلمين واتخذوا عادات رؤسائهم ، وكانوا أساسا أداة فى انتشار الإسلام فاقت فى أهميتها الدول المنظمة . وكانت مصلحتهم فى انتشار الإسلام ذات ثلاثة أوجه : (١) كانت الجماعات التى تعتنق الإسلام توفر سوقا مأمونة لبيع التمائم ؛ (٢) كان الونقارة يشجعون بيع القطن ، ذلك أن مزارع القطن الواسعة التى بدأوها بعمل الرقيق كانت تحقق أرباحا كبيرة ؛ (٣) كانت الاحتياجات المادية للسكان الذين يعتنقون الإسلام تضمن للونقارة سوقا مواتية مطردة الاتساع . وهكذا فإن انتشار الإسلام فى غرب إفريقية كان يرجع إلى الحماسة الدينية لدى بعض المجاهدين ، بقدر ما يرجع إلى اعتبارات الربح المجردة لدى الونقارة .

فما الدور التى قامت به البيوت التجارية الكبيرة فى عواصم الدول فى ذلك كله ؟ كانت هذه البيوت تعمل أساسا كوسطاء بين التجار الإفريقيين والعالم الخارجى ، وهى التى تقرر الصادرات والواردات وكمية كل صنف . فضلا عن ذلك فإنها تتحكم فى أسعار الصرف ، لأنها على غرار المؤسسات التجارية فى العصور اللاحقة كان بإمكانها ، مادامت واردات البلاد وصادراتها فى أيديها ، أن تحدد أين ينبغى تحقيق الأرباح .

وقد تغير نظام التجارة من **التجارة الصامتة** [٣٥] التى وصفها هيرودوت

---

(٣٤) « وتتصل مملكته (ملك غانة) وأرضه بأرض ونقارة وهى بلاد التبر المذكورة الموصوفة به كثرة وطيبا ... » نزهة المشتاق ، المجلد الأول ، الصفحة ٢٣ .

(٣٥) أنظر الحاشية ١ – ٥٤ أعلاه وبها اشارة إلى التجارة الصامتة واقتباس واف بشأنها عن ياقوت الحموى ، كتاب معجم البلدان . ونورد هنا اقتباسا آخر عن صبح الأعشى : « قال إبن الصائغ : وحدثت أن من أمم السودان الداخلة من لا يظهر لهم بل إذا جاء التجار بالملح وضعوه ثم غابوا ، فيجئ السودان فيضعون إزاءه الذهب ، فإذا أخذ التجار الذهب ، أخذ السودان الملح .» الجزء الخامس ، الصفحة ٢٩١ .

إلى المبادلات التجارية المعقدة القائمة على الائتمان . وكانت التجارة الصامتة فعالة في الذهب بوجه خاص . وقد جرت عادة تجار الشمال أن يذهبوا إلى المناطق التى يوجد بها الذهب ، ويضعون كمية البضائع التى يريدون بيعها ، ويضع السكان المحليون مقدار الذهب الذى هم على استعداد لدفعه ، وإذا اتُفق على ترتيب يقبله الطرفان يتم التبادل .

فماذا كانت أسباب ممارسة « التجارة الصامتة » ؟ ليس من اليسير معرفة هذه الأسباب : فصعوبات اللغة كان يمكن التغلب عليها ، وإذا كان الخوف هو السبب فلابد أن يكون ذلك كافيا لكى تمتنع التجارة أصلا . ربما يكون التفسير المعقول الوحيد هو أن السكان المحليين لم يكونوا يرغبون فى الكشف عن مصدر الذهب ، وأن أفضل طريقة اعتقدوا أنها تحقق لهم ذلك هى تجنب كل اتصال . وقد يفسر ذلك لماذا قطعت العلاقات التجارية مع الونقارة عندما أسروا إثنين من الأهالى وأخذوهما إلى مالى . فالأهالي كان باستطاعتهم إرغام الونقارة على إعادة الرجلين قبل أن يستأنفوا التجارة . وقد تكون هذه أول محاولة للمقاطعة ، ولاستخدام الاحتكار بشكل فعال من جانب شعب بدائى استطاع عن طريق منع التوريد أن يحقق مراميه . ويمكن أن نلمس أن ذلك كان أساسا محاولة للمحافظة على الاحتكار من حقيقة أن الصينيين قد مارسوا الأسلوب نفسه فيما يتعلق بتجارة الحرير .

وبصرف النظر عن العنصر الاحتكارى فى « التجارة الصامتة » فإن التقدم فى التجارة مع الشمال ربما لم يكن أقل من مثيله فى أى مكان آخر من العالم ، وليس فى ذلك ما يثير الدهشة ، إذ أن التجارة كانت بأكملها فى أيدى العرب ، وتسيطر عليها بضع شركات تجارية . فتنظيم قافلة تجارية وتوفير دليل لها ، ثم المضى فى رحلة تستغرق عادة ستة أشهر ، وتوزيع البضائع فى الداخل من خلال التجار المحليين ، وشراء الذهب والعاج والزباد والرقيق ، كل ذلك يتطلب خبرة ائتمانية وجسارة وكفاءة تنظيمية . وكان ذلك فى الحقيقة مشروعا ينطوى على المغامرة وذا طبيعة رأسمالية عالية . فالمخاطر التى تحف بسفر الأفراد على مسؤوليتهم الخاصة لابد أنها كانت بالغة الضخامة ، كما أن رأس المال اللازم

كان من شأنه ألا يبقى داخل التجارة سوى الأفراد ذوى الثراء الشديد والموغلين فى المخاطرة .

وكان أشهر البيوت التجارية التى نعرف عنها شيئا بيت **إخوان المقرى** .(٣٦) وكان المركز الرئيسى لهذا البيت التجارى الكبير فى سجلماسة ، المحطة التى تبدأ منها القوافل . وقد أقام إثنان منهما فى تلسمان وإثنان آخران فى ولاته . وكان الأخوان المقيمان فى ولاته مسؤولين عن الطرف الجنوبى لطريق القوافل فى السودان ، ومن مهامهما تنظيم تصدير المنتجات السودانية . أما الطرف الموجود عند تلمسان فكان يشرف على الواردات من شمال إفريقية وأوروبا والشرق الأوسط . ولكن المركز الحقيقي كان فى سجلماسة ؛ حيث يمكن مقارنة أثمان منتجات كل من أوروبا وبلاد السودان ، واتخاذ قرار بشأن الأصناف المطلوبة والأثمان التى يمكن أن تباع بها . وقد حاول إخوان المقرى ، على غرار المغامرين التجاريين فيما بعد ، التوغل فى الداخل ، بل إن أحدهما وصل فى عام ١٣٥٢ إلى العاصمة مندنغو حيث لم يواجه أية متاعب لأن البيت التجارى التابع لهم كان معروفا جيدا ، كما كان لهم وكيل فيها .

أما الجالية التجارية العربية فى مالى فكانت تجمع بين أفرادها رابطة وثيقة ولها تنظيمها الخاص بها . وفى عهد سليمان كان رئيس الجالية العربية فى مالى هو **محمد بن الفقيه الجزولى**(٣٧) ، وهو مراكشى تزوج بابنة عم منسا سليمان . وكان من بين أعضائها البارزين الآخرين **عبد الوكيل المقرى** ، المتزوج

---

(٣٦) تكون بيت تجارى من خمسة إخوة يسمون المقرى ، وكانوا شركاء متساوين ، يقيم إثنان منهم فى ولاته حيث يجمعان العاج والذهب ، وفى بعض الأحيان يزوران الأسواق الهامة فى الجنوب ، ويقيم إثنان أخران في تلمسان مهمتهما تزويد الآخرين بالمنتجات الأوروبية ، أما الخامس فهو رئيس المؤسسة ومقره فى سجلماسة التى كانت لا تزال أهم مراكز الشمال ، حيث يراقب الأسواق عن قرب ويخبر إخوته بتقلبات أسعار البضائع .

(٣٧) « وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البيضان وكبيرهم محمد بن الفقيه الجزولى وشمس الدين بن النقويش المصرى ليكتروا لى دارا ...» تحفة النظار ، الصفحة ٦٩٠ .

بابنة محمد بن الفقيه ، وشمس الدين بن النقويش المصرى .[38]

ولم تكن مصالح المصريين فى السودان بالأمر الجديد . ويذكر حدود العالم [39] أن التجار المصريين اعتادوا زيارة بلاد السودان ومعهم الملح والرصاص لبيعهما مقابل وزنهما ذهبا ، كما اعتادوا أيضا سرقة أطفال الزنوج وخَصيّهم وبيعهم فى مصر . وكانت واحة الخارجة هي منفذ مصر إلى بلاد السودان ، وقد أشار إبن حوقل إلى تجارتها مع بلاد السودان .[40] ويؤكد السودان بدورهم العلاقات القديمة مع مصر . وكانت غاو بصفة خاصة على علاقة وثيقة بواحة الخارجة ، ولكن يبدو أن النشاط التجارى مع المصريين قد توقف بعد سقوط غانة . وقد أراد منسا موسى إحياء المصالح المصرية للحد من السيطرة الشمالية ، لذلك روّج للحج على نطاق واسع ، فعادت بلاد السودان إلى ذاكرة التجار المصريين والسوريين ، ولم تكد تمضى بضع سنوات حتى أصبح الشرق منافسا للشمال .

ويذكر إبن خلدون أنه عندما زار بسكرة فى عام ١٣٥٣ (٧٥٤هـ) التقى

---

(٣٨) الاسم الصحيح لعبد الوكيل المقرى هو « الفقيه المقرى عبد الواحد » وهو صهر محمد بن الفقيه .

« وجاء صهره الفقيه المقرى عبد الواحد بشمعة وطعام ثم جاء إبن الفقيه إلى من الغد وشمس الدين بن النقويش ، وعلى الزودي المراكشى ، وهو من الطلبة ... » تحفة النظار ، الصفحة ٦٩١ .

(٣٩) حدود العالم : مخطوطة فى الجغرافيا ، مؤلفها فارســى مجهول الإســم ، وتعرف باســم « مخطوطة يومانسكى » ، وربما كانت أقدم مخطوطة جغرافية بالفارسية .

(٤٠) «حتى يمضى على ظهر الواحات إلى أرض النوبة ، آخذا إلى البحر المحيط وممتدا إلى حقيقة الغرب بنواحى أرض غانة وأرض أودغست » « وأما الواحات فإنها بلاد كانت معمورة بالمياه والأشجار والقرى والروم قبل فتحها ، وكان يسلك من ظهرها إلى بلاد السودان بالمغرب على الطريق الذى كان يؤخذ ويسلك قديما من مصر إلى غانة فانقطع » ابن حوقل ، المرجع السابق ، الصفحتان ٦٤ و ١٤٣ .

بالسفير القادم من تكده الأمير يوسف بن مرزا الذى أبلغه أن قافلة قوامها إثنا عشر ألف جمل قدمت من الشرق ومرت بتكده فى طريقها إلى مالى .[٤١] ويشكل ذلك فى أى وقت مغامرة تجارية كبيرة ، كما أن دخول التجار العرب الشرقيين إلى هذا المجال قد حطم بصورة فعالة الاحتكار الذى تمتع به حتى ذلك الوقت الإفريقيون الشماليون .

كما أن ملفانتى (عام ١٤٤٧) أفاض كثيرا فى شرح أهمية التجارة الشرقية ، وإن تبين له أن تجار غدامس ومراكش يسيطرون على التجارة . كذلك لم تكن التجارة من حيث قيمتها مما يستهان به . ولما كانت هذه التجارة تتجه إلى تشجيع الاحتكار فقد ترتب عليها تركز مالى . ويذكر إبن حوقل أنه وجد فى حوزة تاجر من أودغست صكًا قيمته أربعون ألف دينار حصل عليه من تاجر فى سجلماسة .[٤٢] وكان مضيف ملفانتى فى توات يمتلك ثروة شخصية مقدارها مائة ألف دينار ، وكان أخوه المقيم فى تمبكت أكبر تاجر هناك . كما يذكر ملفانتى أن التجار المصريين اعتادوا القدوم إلى توات وهم فى طريقهم إلى السودان ومعهم قطيع من الأغنام تعداده نصف مليون .

وهكذا كانت تجارة السودان ذات طابع رأسمالى عالى التنظيم ، وتستهدف تحقيق الربح السريع أكثر مما تستهدف تنمية الإنتاج . وكانت الأرباح تتدفق على خزائن أمراء التجارة فى توات وغدامس وسجلماسة ، ومنها يمولون التجارة . وكان تجار توات يحمون مصالحهم بفرض عمولة مقداها مائة فى

---

(٤١) «ولقد قدمت على بسكرة سنة أربع وخمسين أيام السلطان أبى عنان ... ولقيت صاحب تكرت عند يوسف بن مزنى أمير بسكرة وأخبرنى عن استبحار هذا المصرى فى العمارة ومرور السابلة وقال لى اجتاز بنا هذا العام سفر من تجار المشرق إلى بلد مالى كانت ركابهم إثنى عشر ألف راحلة وذكر لى غيره أن ذلك هو الشأن فى كل سنة ، وهذا البلد فى طاعة سلطان مالى من السودان » العبر ، المجلد السابع ، الصفحة ٥٢ .

(٤٢) « ولقد رأيت صكا بدين على محمد بن أبى سعدون بأودغست ، وشهد عليه العدول باثنين وأربعين ألف دينار » إبن حوقل ، المرجع السابق ، الصفحة ٦٥ .

المائة على جميع العمليات التى يؤدونها للتجار غير المنتمين إلى شركتهم .

والطبيعة الاحتكارية للتجارة فى حاجة إلى تأكيد وتوضيح ، وذلك لأن السودان ، فيما عدا الونقارة ، لم يكونوا يحققون أرباحاً من التجارة . إذ أن التجارة كان يسيطر عليها العرب ، كما كانوا يموّلونها ، ولم يكن دور الونقارة يتعدى التوزيع المحلى ، بل إن التمويل القصير الأجل كان يقوم به التجار الأجانب . وهكذا فإن أى شخص فى تمبكت يمتلك جملا أو جزءاً من جمل كان يمكنه أن يطلب قرضا فى صورة قماش ، فيقدم إليه الممول الأجنبى القماش ، وبهذا القماش يشترى إما رقيقا أو ملحا ، وأى من هاتين السلعتين كان يمكن بيعه بربح كبير . ويمكن للتاجر أن يشارك فى الربح دون أن يستخدم شيئا سوى رأسماله . وهذا التمويل القصير الأمد هو الأساس الذى تمارس وفقاً له التجارة عند الطرف السودانى . فالتاجر يقدم البضائع والموزع يذهب لبيعها وتسوُّق البضائع التى يحتاج إليها . وبفضل التسهيلات الائتمانية فى شكل بضائع تجارية كان باستطاعة التاجر الأجنبى التحكم فى تجارة الداخل . ولم يكن ذلك قصرا على الموزعين ، فكلابرتون عرضت عليه سلفة مالية غير محددة المقدار من تجار غدامس ، وكان باستطاعته الحصول على نقود فى كانو بإعطاء كمبيالة على القنصل البريطانى فى طرابلس .

فما السلع التى كانت بلاد السودان تصدرها ؟ كان الذهب أبرز السلع . وقد رُوِيت عن تصدير الذهب من بلاد السودان قصص حافلة بالمبالغات . وقد رأينا خيبة أمل أحمد .(٤٣) وقد قدر بارث التجارة فى الذهب القادم من تمبكت فى منتصف القرن التاسع عشر بعشرين ألف جنيه استرلينى سنويا . وكان الذهب يجلب من بامبوك أو بورى ، وإن كان أساسا من المدينة الأولى . وحتى

---

(٤٣) الاشارة هنا إلى أحمد الذهبى سلطان مراكش الذى راودته أحلام ضخمة حول ثراء دولة السنغى وذهبها والسيطرة على مناجم الملح فيها ، فقرر غزوها ، ثم جاءت نتائج الحملة هزيلة ومخيبة لآماله . انظر الفصل الخامس أعلاه : الغزو المراكشى .

إذا إفترضنا أن التجارة كانت أضخم حجما وقت ازدهار الإمبراطوريات ، فإنها لم تكن كبيرة للغاية . فضلا عن أن المنطقة الغنية بتبر الذهب كانت توجد فى السودان الغربى ؛ وبداية من القرن السابع عشر انتقل مركز تجارة بلاد السودان إلى كاتسنا وكانو . وكانت تجارة الرقيق أكثر أهمية حتى من تجارة الذهب . فهذه التجارة كانت توفر الجنود للجيوش من مراكش حتى تركيا ، والجوارى للحريم أو كخادمات فى المنازل ، والخصيان لحراسة الحريم ، والرقيق العاديين لزراعة الأرض . وكانت قافلة الرقيق الطويلة تذهب إلى الشمال وإلى الشرق ، ولذلك فإن كل البلدان العربية تقريبا كان لديها خليط كبير من الدم الزنجى فى سكانها .

وكانت تجارة الرقيق تعنى أن الدول المنظمة تقوم بحملات اعتيادية فى المناطق الوثنية – بلاد لم لم –(٤٤) لأسْرهم . وقد وصف كل من بارث ودنهام حملات أسر الرقيق فى كثير من التفصيل . وعرفنا من البكرى أن غانة اعتادت أن تفعل الشئ نفسه ، وكذلك مالى وسنغى . وترتب على ذلك أن الحروب فى بلاد السودان كانت أساسا غارات من أجل الرقيق ، بل إن الجزية كانت تدفع بالرقيق أكثر مما تدفع بالذهب . فالرقيق أصبح هو العملة الشائعة فى غرب إفريقية .

وكان للرقيق بطبيعة الحال أهمية بالغة . وكانت كل الممارسات التجارية تجرى فى غرب إفريقية على أساس ائتمان يتراوح مدته بين شهرين وثلاثة أشهر . والرقيق أفضل وسيلة للدفع للتجار الأجانب . ومن ذلك أن مونتييه الذى باع كمية من البضائع لسلطان سكتو أُعْطِى سنداً باثنين وسبعين رقيقا يحصل عليهم فى كانو . ويذكر ليو أيضا أن السلطان فى برنو يشترى الأصناف التى

---

(٤٤) يقول عنها إبن بطوطة « بلاد الليميين وهى آخر عمالة مالى ... » تحفة النظار ، الصفحة ٦٩٠ . ويسميهم البكرى النمنم « وإذا سار الساير من بلاد كوكو .. انتهى إلى مملكة يقال لها النمنم يأكلون من وقع إليهم » البكرى ، المرجع السابق ، الصفحة ١٨٣ .

يحتاج إليها من التجار الأجانب ، ثم يخرج فى حملة لأسر الرقيق ، فإذا استطاع الحصول على عدد كاف دفعه للتجار ثمنا للبضائع التى اشتراها ، فإذا لم يتمكن فعليهم الانتظار حتى العام القادم والصلاة من أجل نجاح حملة السلطان القادمة .(٤٥)

وصنف آخر أكثر إثارة هو قط الزباد . فهذا الحيوان البرى فى غرب إفريقية كان يصدَّر فى أعداد كبيرة إلى شمال إفريقية لأنه ينتج إحدى مواد الترف العربى التى يشتد الطلب عليها - وهى المسك - ويتم الحصول على المسك بضرب القط حتى يفرزه . وتجدر الإشارة إلى صنفين آخرين ، أحدهما الصمغ . ويذكر البكرى أن المملكة العربية فى أسبانيا تستورد كميات كبيرة من الصمغ من غرب إفريقية .(٤٦) والثانى هو العاج ، ويصدر أساسا إلى أسواق شمال إفريقية . وكانت تجارة غرب إفريقية مع أوروبا أيضا تتكون من العاج والصمغ والرقيق .

فما البضائع التى كانت بلاد السودان تستوردها ؟ ان استقرار تجارة الواردات من الشمال يدعو إلى الدهشة . وكانت الأصناف الأساسية منذ البداية

---

(٤٥) « لكن الملك الحالي لهذه البلاد جاء بتجار من بلاد البربر ليأتوه بخيل يستبدلونها بعبيد ، يأخذون مقابل كل فرس خمسة عشر أو عشرين عبدا ، فكان يشن الغارة على العدو بهذه الخيل ، ويترك التجار ينتظرونه إلى عودته . وربما مكثوا فى انتظاره شهرين أوثلاثة أشهر ، وهم على نفقة فى هذه المدن . وعند عودته يجلب معه أحيانا من العبيد ما يكفى لأداء المبلغ الواجب للتجار ، وأحيانا يضطر التجار إلى انتظار السنة الموالية لأن الملك لم يكن له من العبيد ما يفى بالثمن ، فهذه الغارة لا يمكن القيام بها دون خطر إلا مرة واحدة فى السنة » وصف إفريقيا ،طبعة المغرب ، الجزء الثانى ، الصفحتان ١٧٦ و ١٧٧ .

(٤٦) « ثم تسيرُ منه إلى شرف عال مشرف علي أودغست فيه طير كثير - وفيه أشجار الصمغ الذى يجلب إلى الأندلس يصمغ بها الديباج » ، البكرى ، المرجع السابق ، الصفحتان ١٥٧ و ١٥٨ .

هى الملح والخيول والملابس والكتب ، ومجموعة منوعة من البضائع الأوروبية بدءا من السيوف من مصانع سولنچن فى ألمانيا إلى المرايا والزجاج من البندقية . وكان الملح أهمها جميعاً لانعدام وجوده فى أى مكان فى غرب إفريقية . وكانت الدول القوية ، مثل غاو وبرنو ، تتحكم فى مناجم الملح بالصحراء الكبرى – فبرنو تتحكم فى مناجم بلما ، وغاو فى مناجم تغازة وفيما بعد فى مناجم تاودينى . وقد أصبح الملح سلعة مربحة للغاية بسبب بعد مناجمه عن مراكز الاستهلاك الرئيسية ، وصعوبات نقله ، والطلب الهائل عليه مع قلة الكميات المعروضة منه . ويقول إبن بطوطة إن حمولة جمل من الملح كانت تساوى في ولاته ما بين ثمانية وعشرة مثاقيل أودنانير ذهبية ، وفى مالى كانت تباع بمبلغ يتروواح بين عشرين وثلاثين دينارا ، وقد يصل إلى أربعين دينارا فى بعض الأحيان .(٤٧)

وكان ملح تاودينى مكوّنا من خمس طبقات ؛ والطبقة الرابعة منها خليط من الأسود والأبيض وهى أفضل الطبقات . وفى تمبكت كان ثمن لوح الملح بين ثلاثة آلاف وستة آلاف ودعة ، تبعا لما إذا كانت القوافل قد وصلت أم لا . ويصف بارث فى شئ من التفصيل الأساليب المعقدة لتجارة الملح . وتجار غدامس الذين يتحكمون فى هذه التجارة كانوا يشترون التوركيدى (٤٨) فى كانو ، ثم يمضون إلى أروان حيث يبادلونه بالملح بسعر ست قطع من التوركيدى لكل لوح من الملح ، ثم يأخذون الملح إلى تمبكت حيث يباع بستة مثاقيل لكل ثمانية ألواح من الملح . بل إن ثمنه أعلى من ذلك فى سانسانديغ حيث يبادل لوح الملح

(٤٧) « فيحملون منها الملح ويباع الجمل منه بايوالاتن بعشرة مثاقيل إلى ثمانية ، وبمدينة مالى بثلاثين مثقالا إلى عشرين وربما انتهى إلى أربعين مثقالا . وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة ، يقطعونه قطعا ويتبايعون به .» تحفة النظار ، الصفحة ٦٨٤ .

(٤٨) التوركيدى : نوع من القماش كان ينسج فى كانو ، وشاع استعماله كعملة فى تمكبت .

بمثقال . ومرجع ذلك أساسا تكلفة النقل ؛ فالملح يتم تفريغه من فوق ظهور الجمال فى چافربى ، ومن هناك يحمل على ظهور الحمير . أما الدول الجنوبية ذات الموقع غير الملائم فكان عليها أن تعتمد على غاو وتمبكت من أجل الحصول على الملح . وكانت ألواح الملح تجزأ إلى قطع أصغر يأخذها التجار المحليون إلى الداخل . وكان التحكم فى مناجم الملح يعنى السيطرة الاقتصادية على بلاد السودان . والحقيقة أن رغبة أحمد الذهبى فى استغلال احتكار الملح والسيطرة على تجارة بلاد السودان هى التى دفعته إلى الغزو المراكشى . لهذه الأسباب كان الملح غالى الثمن ويكاد أن يساوى مثل وزنه ذهبا .

والحصان كان صنفا هامًا آخر . فالخيول الأصيلة لم تكن توجد فى غرب بلاد السودان ، بل إن البغال كانت تجلب إلى بلاد الهوسا عن طريق الحجاج . وفيما بعد أصبحت الخيول نادرة ، وترتب على ندرتها ارتفاع كبير فى أثمانها . فدولة السنغى ، فى قمة مجدها ، لم يكن لديها سوى أربعة آلاف حصان ، فى حين كانت لديها أعداد كبيرة من المشاة . ومع ذلك فإن الحصان هو الذى أعطى الشماليين ميزة على جيرانهم الوثنيين . وكانت الخيول تجلب من الشمال والشرق ، وفى السودان كانت أثمانها ، استنادا إلى ليو ، تصل إلى عشرة أمثال أثمانها فى بلادها الأصلية .(٤٩) ويمكن أن نلمس أهمية الخيول من الرعاية التى كانت توفرها لها الإمبراطوريات السودانية . فكعت ، على سبيل المثال ، يذكر أن الاسطبلات الملكية فى غانة كان بها ألف حصان . « ويقال إن له ألف خيل مربوطين فى داره عادة معروفة إن مات واحد منهم فى صبح جئ بآخر مكانه عوضه قبل المساء وفى الليل كذلك ولا ينام واحد منهم إلا على زربية

---

(٤٩) « لا يوجد فى هذه البلاد من الخيل غير البراذين الصغيرة ... أما الجياد فتأتى من بلاد البربر ، تصل مع القافلة ثم تعرض بعد عشرة أيام أو اثنى عشر يوما على الملك ليأخذ منها العدد الذى يريده ويدفع فيه ثمنا مناسبا .» وصف إفريقيا ، طبعة المغرب ، الجزء الثانى ، الصفحتان ١٦٦ و ١٦٧ .

ولا يربط إلا بحرير فى عنقه وفى رجله ولكل منهم آنية من النحاس يبول فيها لا يقطر من بوله على الأرض قطرة إلا فى الإناء لا فى ليل ولا فى نهار ولا ترى زبلا واحدا تحت واحد منهم ولكل منهم من الخدمة ثلاثة أنفس يجلسون تحته واحد منهم يقوم بعلفه وواحد منهم بسقيه وواحد منهم موكل على رصد بوله وحمل زبله .»(٥٠) وفى سنغى كانت هناك قبيلة خاصة بالخيول ، وكانت لكانو وكاتسنا تجارة ناجحة مع الجنوب فى الخيول .

كما كانت القوافل تنقل إلى الجنوب النحاس والملابس المطرزة والدمقس وزجاج البندقية والرصاص ، والصلب والسيوف من سولنچن ، والبنادق فيما بعد . ويقول ليو إن الكتب كانت صنفاً هاما وإن الإفريقيين أحبوها أكثر من أى شعب آخر ، وإنهم كانوا يستوردونها بأعداد كبيرة . (٥١)

وبينما استحوذت العلاقات التجارية الخارجية على اهتمام كبير ، فإن التجارة الداخلية التى أهملت كانت أعظم أهمية . وأيّاً ما كانت العلاقات السياسية لدول السودان فإن هذه الدول نادراً ما كانت تتدخل فى شؤون القوافل التجارية . ويذكر بارث أنه على الرغم من أن ممالك الهوسا المستقلة كانت تحارب الفولانى ، فإنها كانت تسمح للقوافل بالمرور دون أن تتعرض لها . وقد برزت فى هذه التجارة الداخلية ثلاث جماعات – الونقارة والديولا والهوسا . ويذكر ليو أن الونقارة – وهم بلد يضعه ضمن بلاد الهوسا – كانوا يتاجرون مع بلاد بعيدة .(٥٢) وحتى فى المناطق التى يتعذر استخدام الحيوانات فيها كانت

---

(٥٠) تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤١ .

(٥١) « يوجد فى تومبوكتو العديد من القضاة والعلماء والأئمة .. ويباع هنا الكثير من الكتب المخطوطة التى تأتى من بلاد البربر . ويجنى من هذا البيع ربح يفوق كل بقية السلع . » وصف إفريقيا ، طبعه الرياض ، الصفحة ٥٤١.

(٥٢) « والسكان أغنياء كثيراً لأنهم يذهبون مع بضائعهم لأقطار بعيدة ولأنهم يجاورون من الجنوب ، البلاد التى يوجد بها الذهب بكميات كبيرة » المرجع نفسه ، الصفحة ٥٥٢ .

البضـائع تحمل فوق رؤوس الحمـالين .[٥٣] ونجد تأييداً لذلك أيضا لدى بارث الذى كتب بعد ليو بثلاثة قرون . فاستناداً إليه كان تجار الهوسا يذهبون إلى برنو ومعهم أعداد كبيرة من الحمالين يحملون على رؤوسهم شحنات الكولا والتبغ والقطن والأقمشة والملابس ، بل كانوا يزورون دارفور ومعهم التوركيدى والريجا لمبادلتهما بنحاسها وحميرها .

وربما كان الهوسا أكثر الجماعات الثلاث أهمية . فموقعهم الجغرافى علي جانب الطريق الممتد من الشمال إلى الجنوب، وقربهم من برنو وبلاد اليوربا ، وفرا لهم ميزة كبيرة . كما أن خصوبة التربة وكدح الشعب سمحا لهم بالاستفادة من هذه الميزة إلى أقصى درجة . وكانت كاتسنا وكانو من أكثر مدنهم تقدما . ويذكر ليو الإفريقى أن كاتسنا قرية صغيرة ليس بها صناعة وسكانها فقراء وجهلة .[٥٤] ومع ذلك فإنها برزت فى ميدان التجارة عند نهاية القرن السابع عشر . فبفضل موقعها وطيب هوائها أصبحت لها ميزة على منافستها العظيمة كانو . وبينما كان المرء يرغم على استخدام الحمار للسفر من كانو جنوباً ، فإنه كان يمكنه استخدام الجمل من كاتسنا . كما أن كاتسنا أقرب إلى الشمال ، ومن ثم أكثر ملاءمة للقوافل التجارية القادمة من الشمال . كذلك كان لدى كاتسنا صناعة هامة متخصصة فى المنتجات الجلدية والسروج التى اشتهرت بها على نطاق غرب إفريقية .

غير أن كانو كانت أهم مدن الهوسا . ويتحدث ليو عن تجارها المتمدنين الأثرياء ، وعن سورها المبنى من الطين .[٥٥] وقد تدهورت أهميتها بسبب

(٥٣) « ويضطر تجار وانغارة ، حينما يسافرون لبلاد الذهب ، أن يجتازوا جبالا عالية ووعرة لا تستطيع حيوانات النقل اجتيازها فينظمون أنفسهم كالتالى : يحمل عبيدهم على رؤوسهم البضائع والأشياء الضرورية لهم ، والموضوعة فى قشور قرع عريضة وعميقة . ويستطيع كل عبد أن يقطع عشرة أميال سيرا وحتى أكثر من ذلك مع حمل مقداره مائة رطل على الرأس .» المرجع نفسه ، الصفحة ٥٥٣ .

(٥٤) « وكل الأماكن المسكونة فى هذا القطر هي قري صغيرة مؤلفة من أكواخ القش ولجميعها منظر كريه .. وهنا يجتمع الفقر والدناءة.» المرجع نفسه ، الصفحة ٥٥٠ .

(٥٥) « ولها جدار سور ، مبنى من عواميد ومن طين . والبيوت مبنية من نفس المواد . ويتألف السكان من صناع متمدنين ومن تجار أغنياء .» المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

الحروب المستمرة التى أفقدت القوافل أمنها ، والضرائب الباهظة التى يفرضها الحكام . وانتقل التجار إلى كاتسنا . وفى القرن التاسع عشر حدثت حركة فى الاتجاه الآخر ، فتحت حكم الفولانى أصبحت كانو العاصمة العظيمة لبلاد السودان . وكانت الميزة التى تتمتع بها كانو ذات وجهين : فقد كانت أعظم مدينة صناعية داخل إفريقية ، كما كانت مركزاً تجارياً عظيماً . ونظراً لوقوعها فى أكثر مناطق غرب إفريقية خصوبة كان باستطاعتها أن تفى باحتياجاتها من الطعام ، وكذلك باحتياجات صناعاتها من المواد الأولية . كما أن أسوارها التى بلغ محيطها سبعة أميال ، كانت تعطى مواطنيها شعوراً بالأمن .

ويصف كل من كلابرتون وبارث كانو بشيئ من التفصيل ، ويقولان إن سكانها يتراوحون بين ثلاثين وأربعين ألف نسمة ، ويصلون خلال موسم العمل إلى ستين ألفا . وهم خليط يسوده الكانورى والهوسا ، وإن تواجد بها التجار من جميع أنحاء غرب إفريقية وشمالها ، بل من مصر أيضا . والمدينة تفتقد الجانبية ، وبيوتها تبنى من الطين والقش ، وهى مقسمة إلى جزأين يفصلهما مستنقع يستخدم كمجرور أيضا .

وكانت أهمية كانو ترجع إلى تجارتها ، إذ كانت أكبر سوق فى بلاد السودان ، وكانت لسوقها أهمية رئيسية ، ويوجد بها موظف لتنظيمها والإشراف عليها . وتم توفير أحياء مستقلة بها للأنواع المختلفة من البضائع . فالماشية تباع في الضواحى ، والأطعمة والخضروات فى أحد الأحياء ، والأقمشة سواء المنتجة محلياً أو المستوردة فى حى ثان ، والسيوف والسكاكين والأصناف المماثلة فى حى ثالث ، والمرايا وأدوات الطعام والأوانى الفخارية فى حى رابع . وكانت هناك سقائف مستقلة للرقيق بعضها للذكور وبعض للأناث وبعض ثالث للأطفال . وثمن كل صنف يحدده موظف السوق الذى يحصل عن كل صفقة تزيد قيمتها على ثمانمائة كردى على عمولة مقدارها خمسون كردياً . ومن العادات الأخرى التى سادت فى سوق كانو أن يقدم البائع خصماً مقداره إثنان فى المائة من ثمن البيع « مَجلَبةً للحظ » ؛ وإذا تم البيع فى بيت مستأجر يكون صاحب البيت هو المستفيد . وإذا لم يكن المشترى بعد وصوله إلى بيته

راضيا عن السلعة التى اشتراها يمكنه إعادتها - لأن اسم البائع يطبع على القماش - واسترداد نقوده بعد خصم نسبة مئوية صغيرة .

ولما كانت صناعتنا القطن والجلود هما الصناعتان الأساسيتان فى كانو ، فإن منتجاتهما تشكل جزءاً كبيراً من تجارتها . وكانت الأقمشة القطنية تُصدَّر إلى تمبكت ، وإن لم يكن مباشرة بسبب الأحوال المضطربة ، إذ تنقل أولا إلى غات وغدامس ، ومنها إلى تمبكت .

وكانت ميزة كانو الكبيرة هى أنها بيت المقاصة الكبير لبلاد السودان . وبينما كانت قيمة المثقال تتقلب بعنف فى تمبكت ، وكان حكام برنو يتلاعبون فى أسعار الصرف لاستخلاص أكبر قدر من الأرباح ، فإن قيمته ظلت ثابتة فى كانو ، لذلك كانت لديها تجارة ترانزيت ذات قيمة كبيرة . وكانت أثواب النوبى والريجا تأتى إلى كانو حيث تباع لتجار الشمال . وقد برز فى سوق كانو تجار من النوبى . وكانت هناك سلعة هامة أخرى فى تجارة الترانزيت هى ملح النطرون الذى تقوم القوافل القادمة من برنو بنقله إلى جومل ، ومنها ينقل إلى النوبى عن طريق كانو . وكان الملح بدوره سلعة هامة فى هذه التجارة ، وتتزود ممالك الهوسا الجنوبية والأجزاء الشمالية من بلاد اليوربا بحاجتها منه عن طريق كانو . وقد قدر بارث قافلة الكيل أوى القادمة إلى كانو بما يتراوح بين ألفين وخمسمائة وثلاثة آلاف جمل ، يستطيع كل جمل منها أن يحمل أربعة ألواح من الملح . وتصل المكوس المفروضة على الملح إلى نصف مليون كردى .

وقد حاول بارث أن يعطى تقديراً لتجارة كانو وللإيرادات التى تعود على الدولة منها . ووضع قائمة بالأصناف المصنوعة فى شمال إفريقية وأوروبا والمتوفرة فى كانو . فالقطن أهم الواردات ، وتصل قيمته إلى أربعين مليون كردى ؛ كما تستورد كانو من الحرير السميك حمولة قرابة مائة جمل قيمتها سبعون مليون كردى ، ومن الأقمشة الصوفية ما قيمته خمسة عشر مليون كردى ، ومن الخرز خمسون مليوناً ، ومن السكر إثنا عشر مليونا ، ومن الورق خمسة ملايين ، والسيوف خمسون مليونا ، والنحاس والقصدير عشرون مليوناً ، وزيت الورد أربعون مليونـاً . وبذلك تبلـغ قيمة واردات كـانو مبلغـاً جديـراً بالاعتبار هو

٢٩٧ مليون كردى . وحتى إذا حولنا هذا المبلغ إلى جنيهات استرلينية لكان مبلغاً له دلالته يقرب من مليون ونصف المليون . وكانت الصادرات كبيرة بدورها . فقد وصلت قيمة صادرات الأقمشة القطنية وخدها ، استناداً إلى بارث ، إلى ثلاثمائة مليون كردى ؛ تبلغ حصة تمبكت فيها ستين مليوناً . وبلغت قيمة صادرات الصنادل عشرة ملايين ، والجلود خمسة ملايين ، والعاج خمسة وسبعين ألفاً ، والرقيق مائتى مليون .

ومع ذلك كانت هناك سلعة أخرى فى التجارة الداخلية هى جوزة الكولا التى تعدُّ من أهم مواد الترف فى غرب بلاد السودان . وكانت آمنة إحدى مواطنات زاريا هى التى أدخلت الكولا فى بلاد الهوسا ؛ وبسبب مذاقها المر ، وخواصها كمثيرة للشهوة الجنسية ، وقدرتها على إرواء العطش ، اشتد الاقبال عليها وأصبح من المألوف تقديمها إلى الضيوف . وتقسم جوزة الكولا إلى ثلاث رتب حسب الحجم والموسم ؛ فالمحصول المبكر منخفض الثمن ، فى حين أن المحصول المتأخر أغلى ثمناً بسبب صغر حجم الجوزة . ويمكن الاحتفاظ بالجوزة الجيدة لمدة سنتين ، أما الجوزة الرديئة فلا تتجاوز عشرة أشهر . ويقول بارث إن كانو تصل إليها كل عام حمولة خمسمائة حمار . وكانت سلجا هي المركز العظيم للكولا . أما الحمير فيقدمها الموسى والأشانتى . كذلك كانت سلجا مدينة تجارية ، ويَقْدِم إليها التجار من بلاد الهوسا البعيدة عبر طرق غير مأمونة لشراء جوزة الكولا ، وبيع مصنوعات الساحل (٥٦) للشعوب الواقعة على المحيط . وكانت سلّجا مدينة بائسة ، فحتى الماء عليها أن تشتريه . لذلك فإن الهوسا إذا

---

(٥٦) وردت فى النص الانجليزى كلمتا Coast , Sahel متجاورتين ، وكلتاهما تبدو للوهلة الأولى بمعنى واحد ، ولكن الواقع في النص غير ذلك . فالمقصود بكلمة Coast هنا هو الدول الواقعة على المحيط الأطلسى ، أو الدول الساحلية . أما كلمة Sahel فربما قصد بها أمر آخر . ومن المعروف أن العرب يسمون الصحراء بحر الرمال . وكل بحر له ساحل ، وبذلك يكون الساحل هنا هو الدول الواقعة جنوبى الصحراء الكبرى ، أى المتعارف عليه فى المتن ببلاد السودان . وقد اصطلحت دوائر الأمم المتحدة علي تسميتها « بدول الساحل » .

ما قرروا الإقامة لفترة طويلة فإنهم يفضلون الإقامة فى يندى ، وهي مكان مريح . وكانوا يُحْضِرون معهم الأقمشة والملح والبطاطين الصوفية والأخفاف ، وهى أصناف تحقق التجارة فيها أرباحاً عالية « إن المائة من جوزة الكولا التى تشترى فى سلجا بثلاثة عشر تباع فى سكتو أو كانو أو أية سوق رئيسية أخرى من أسواق الهوسا بما يتراوح بين مائة وثلاثة وأربعين ومائة وخمسة وستين . » بل إنها تباع بأثمان أعلى فى تمبكت التى تحصل على حاجتها من جوزة الكولا من تنفرين . وقد يتروراح ثمن الجوزة الواحدة بين عشر ودعات ومائة ودعة (٥٧) تبعا لحالة العرض . وكان يمكن الاستفادة من الأرباح فى شراء الأشياء التى يندر وجودها على ساحل المحيط .

وثمة سلعة أخرى احتلت مكاناً هامًا فى التجارة هى ملح النطرون . ويقول بارث أن كانو يمر بها فى السنة العادية ما لا يقل عن عشرين ألف حمل من هذا الملح الذى يجلب أساساً من برنو ونوبى وزندر .

فضلًا عن ذلك دخلت فى التجارة منتجات أخرى مصنوعة فى مختلف المناطق . فزجاج النوبى وخرزهم انتشرا على نطاق غرب إفريقية . كذلك كانت للصنادل التى يصنعها الأرما فى تمبكت سوق جاهزة تمتد حتى شمال إفريقية . وكان تخصص المناطق المختلفة فى منتجات مختلفة من بين الحوافز المشجعة للتجار . من ذلك أن أثمان الثياب التى يصنعها النوبى تقل أسعارها فى غُنْدُ عنها فى كاتسنا بقدار ٢٠ فى المائة . ولذا يقوم التجار بنقل البضائع من منطقة لأخرى .

ثانيا

من المتطلبات الجوهرية للتجارة الواسعة وجود عملة سليمة . وكان أساس العملة هو الذهب . فعلى سبيل المثال يذكر ليو أنه لم تكن توجد فى جنى أية عملات أجنبية ، وإنما يستخدم الذهب الخالص كعملة ، أما المعاملات الصغيرة

---

(٥٧) يقول ليو الأفريقى إن الودع « قواقع مجلوبة من بلاد فارس » ، وصف إفريقيا ، طبعة الرياض ، الصفحة ٥٤١ . وتقول الحاشية ٤٣ فى الصفحة نفسها إنها « تأتى فى الحقيقة من جزر المالديف فى المحيط الهندى » .

فتتم بالقضبان الحديدية .(٥٨) وفى تمبكت أيضاً يستخدم الذهب الخالص كمقياس للقيمة ، حيث المثقال هو العملة المسكوكة الرسمية ، وتتحدد قيمته بالتبر . وفى أيام ليو كانت قيمة المثقال فى تمبكت ٤,٢٣٨ غرام من الذهب .(٥٩) ويقول بارث إنه تُستخدم فى بلاد السودان أنواع مختلفة من المثاقيل ، ومثاقيل أغادس ومنفو وتمبكت أكثرها رواجاً ، بيد أن مثقال أغادس فقدأهميته عند بداية القرن التاسع عشر . وقد كان من المتعذر استخدام المثقال في الحياة اليومية ، وذلك لارتفاع قيمته بالنسبة لاحتياجات الناس اليومية ، ومن هنا ظل – فيما عدا الصفقات الكبيرة – مجرد معيار للقيمة ، كما كان – شأن العملات الذهبية فى كل مكان – عملةً إسميةً ، وله تداول عام حتى فى المناطق التى لم يكن هو العملة فيها . ومن أمثلة ذلك أن الأشانتى لم يكونوا يرفضونه فى معاملاتهم على الرغم من أنهم يستعملون التبر أكثر مما يستعملون المثقال . وكانت له قيمة ثابتة من الذهب ؛ فكل ثلاثة عشر مثقالا تعادل أوقيتين من الذهب الخالص .

وفى القرن التاسع عشر استعملت عملات أخرى . وقد شاع استعمال ريال ماريًا تريزا(٦٠) والريال الأسبانى(٦١) ، وبخاصة فى برنو وبلاد الهوسا . والشئ الهام فى هاتين العملتين هو أنهما ثقيلتا الوزن ومصنوعتان من معدن نفيس .

(٥٨) « والعملة التى يستعملها الزنوج من ذهب غير مسكوك أى التبر . كما يستعملون قطعا من الحديد لتسديد ثمن أشياء زهيدة القيمة ، كالحليب والخبز والعسل ، وتزن الواحدة من هذه القطع رطلا أو نصف رطل أو ربع رطل .» المرجع نفسه ، الصفحة ٥٣٧ .

(٥٩) « وتستخدم قطع الذهب الصافى عوضا عن العملة المسكوكة فى حين يستعمل الودع لشراء الأشياء البسيطة ، وهى قواقع من بلاد فارس ، ويعادل الأونس الرومانى من الذهبْ ستة وثلاثين من دنانيرهم . » المرجع نفسه ، الصفحة ٥٤١ .

(٦٠) ريال ماريًاتريزا : الريال كلمة مقتبسة من « ريال » الأسبانية بمعنى « الملكى » . ضرب ريال ماريًاتريزا لأول مرة فى عام ١٧٥١ ، ويسمى فى مصر بالريال « أبو طاقة » نسبة للنافذة أى « الطاقة » المرسومة على صدر النسر المصور على أحد وجهيه .

(٦١) الريال الأسبانى : سمى فى مصر « بالريال أبو مدفع » ، وقد اختلفت أسعار الريالات المختلفة من نمساوية وهولندية وألمانية وأسبانية وغيرها طيلة تداولها بمصر منذ عهد محمد على ، وتراوحت بين ١٩ و٢٤ قرشا ، وقد ظلت متداولة إلى أن أوقف التعامل بالريالات الأسبانية والهولندية والنمساوية .

وكان التبر والعملات الذهبية تستعمل لأغراض التجارة على نطاق واسع ، وبالنسبة للصفقات الكبيرة كان باستطاعة التاجر أن يقدم إذن صرف . وقد اعتاد التجار العرب تقديم كمبيالات (أوراق مالية) يمكن صرفها فى إحدى المدن التجارية الكبيرة . فبارث على سبيل المثال عرض عليه مبلغ نقدى مقابل سحب كمبيالة على القنصل البريطانى فى طرابلس .

وبالنسبة للصفقات الصغيرة كان الإفريقيون يستعملون عملات عديدة من أكثرها شيوعاً الودع والخرز الزجاجى . وكان الخرز الشائع فى لون الشيكولاته وتحيط حلقة بيضاء بوسط كل خرزة . أما الودع الذى يجى من المحيط الهندى فترجع أهميته إلى صغر قيمته . وجميع الصفقات التى يجريها الإفريقيون لتلبية احتياجاتهم اليومية تتم بالودع أو الخرز الزجاجى . وكان الودع أكثر العملات قبولاً على نطاق إفريقية بأسرها ، وقد حل محل أكثر النقود قيمة مثلما حدث للفارذنغ [٦٢] فى إنجلترا العصور الوسطى .

وقدأخذت قيمة الودع فى الانخفاض السريع فى أواخر العصور الوسطى . ففى أيام ليو كان المثقال يحتوى على ٤,٢٣٨ جرامات من الذهب ،[٦٣] ويساوى ٤٠٠ ودعة فقط . وسبب ذلك أن الودع أحضر فى أول الأمر من جزر ملديف إلى الهند . ومن هناك جاء به التجار العرب إلى مصر ، ومن مصر ذهب إلى غرب إفريقية . وبعد التغلغل الأوروبى فى المحيط الهندى انتقلت كميات هائلة من الودع إلى موانى غرب إفريقية ، ومن هناك أخذ يتغلغل إلى الداخل فى بطء . وقد أدى الغزو المراكشى إلى انخفاض قيمته ، ويذكر كعت أن قيمة الودع

---

(٦٢) الفارذنغ : أصغر عملة إنجليزية ، ويساوى ربع بنس . أصبح جزءا من نظام العملة منذ حكم إدوارد الأول ، وكان حتى أيام مارى عملة فضية ، ثم استعمل فارذنغ نحاسى فى عهد جيمس الأول ، ثم استبدل به فارذنغ من البرونز فى عام ١٨٦٠ .

(٦٣) « وتساوى الأوقية الرومانية من الذهب عندهم ستة مثاقيل وثلثى مثقال . » وصف إفريقيا ، طبعة المغرب ، الجزء الثانى ، الصفحة ١٦٧ . ومن المعرف أن الأوقية تساوى ٢٨,٢٥٦ جراما ، وبذلك فإن المثقال السودانى يساوى ٤,٢٣٨ جرامات من الذهب .

انخفضت بعد الغزو إلى ثلاثة آلاف ودعة للمثقال الواحد . وفى الوقت الذى زار فيه بارث غرب إفريقية كانت قيمته قد انخفضت بدرجة هائلة . ففى كانو كان سعر صرف المثقال أربعة آلاف ودعة ، فى حين كان فى تمبكت يتراوح بين ثلاثة آلاف وخمسمائة وأربعة آلاف . وكان الجنيه الاسترلينى فى أيام بارث يتراوح بين إثنى عشر ألف وثلاثة عشر ألف ودعة ، فى حين كان ريال ماريّاتريزا والريال الأسبانى يساوى كل منهما ألفين وخمسمائة ودعة .

ولم تكن هذه العملات هى المقاييس المقبولة الوحيدة للقيمة . ففى برنو مثلا يذكر المقريزى أن نوعاً من القماش يسمى « الوندى » يستخدم كعملة ، وكل « قطعة منه طولها عشرة أذرع » ، ولكنه تيسيراً لاستعمالها تقسم إلى قطع طول كل منها ذراع واحد أو أقل . كما يقول إنه استعملت فى التجارة مواد أخرى مثل النحاس والرصاص وبعض الأصداف ، ولكن قيمتها تقدر بالقماش . ويذكر دنهام ذلك أيضا ويقول إن العملة الشائعة فى برنو هى أقمشة قطنية على هيئة قطع ، ولكنه يضيف أنه عرفت فى لوجون عملة معدنية مكونة من ألواح رقيقة من الحديد على هيئة حدوة حصان ، كل ٣٠٠ قطعة منها تساوى ريالاً .

فضلا عن ذلك استعمل النحاس والبرونز أيضا . يقول إبن بطوطة : « ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عليه فى الأرض ، ويأتون به إلى البلد فيسبكونه فى دورهم ، يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم . فإذا سبكوه نحاساً أحمر صنعوا منه قضبانا فى طول شبر ونصف ، بعضها رقاق وبعضها غلاظ . فتباع الغلاظ منها بحساب أربعمائة قضيب بمثقال ذهب ، وتباع الرقاق بحساب ستمائة وسبعمائة بمثقال ذهب وهى صرفهم . يشترون برقاقها اللحم والحطب ، ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح . ويُحمل النحاس منها إلى مدينة كوبر من بلاد الكفار وإلى زغاى وإلى بلاد برنوا .»[٦٤] وعلى ساحل المحيط كانت الحلقات المعدنية وقضبان البرونز والنحاس الأصفر والأحمر تقبل على نطاق واسع فى التعامل . ولكن الملح هو العملة الأكثر قبولا . ويقول إبن بطوطة إنه ليس من الضرورى عند السفر فى السودان حمل أية نقود ، بل يكتفى ببعض الملح ، فبه يمكن الحصول على كل ضرورات الحياة .

---

(٦٤) نقلا عن تحفة النظار ، الصفحة ٧٠٥ . [كوبر المشار إليها فى هذا الاقتباس هى غوبر .]

ثالثــا

كان لدى إفريقية فى العصور الوسطى نظام صناعى . وقد استطاع هذا النظام ، على الرغم من أنه لم يكن كمثيله فى آسيا وأوروبا ، أن ينتج سلعاً جيدة النوع لتلبية احتياجات السوق المحلية . وهذه الصناعة لا تعنى بطبيعة الحال الإنتاج الكبير فى ظل نظام المصانع ، وإنما مجرد حرف وصناعات منزلية . وكان عدم ارتداء جماعات وثنية كثيرة للملابس قيداً على التوسع فى الصناعات القطنية . وكانت المصنوعات الفخارية هى الأوانى الأكثر شيوعاً فى المنازل ، وذلك بدوره لم يكن يشجع على الانتاج الكبير . فضلا عن أنه لم يكن فى هذا البنيان الاجتماعى سوى القليل من العائلات التى تهتم بالحصول على منتجات الصناعة . ولما كانت هذه العائلات شديدة الثراء ، فقد كانت تستعمل الأقمشة الحريرية المشجرة وغيرها من أنواع المنسوجات القادمة من أوروبا وشمالى إفريقية أكثر مما تستعمل المنتجات المحلية .

وفي كل حضارة من حضارات العصور الوسطى كان كبار حماة الفن والثقافة هم رجال البلاط والنبلاء ورجال الدين الذين يحتاجون إلى الملابس المطرزة الغالية الثمن وإلى معدات الحروب وأسلحتها . ولما كان باستطاعتهم بناء القصور الفخمة ، فإن ذلك لم يكن من شأنه فقط أن يوفر الوظائف للشعب ، وإنما أن يخلق أيضاً الأساس الضرورى لإنتاج البضائع ذات النوعية الجيدة . أما فى أفريقية فإنه فيما عدا بضعة استثناءات ملحوظة لم تكن الصناعات المحلية تلقى تشجيعاً من رجال البلاط أو رجال الدين .

والحقيقة أن الدولة فى بلاد اليوريا وبلاد الهوسا ومنطقة خليج بنين كانت تشجع الفنون إلى حد ما ، كما أن ذلك صحيح بوجه خاص بالنسبة لإيفه وبنين وداهومى . فالمعابد بما تحفل به من أعمال برونزية وخشبية ، والقصور بما فيها من أعمال الحفر والنقوش ذات النسق العربى ، والدروع وغيرها من المنتجات التى يطلبها رجال البلاط ، كانت بمثابة تشجيع للصناعة المتخصصة . ولكن ذلك كان فى الجنوب أساساً ، وبخاصة فى المناطق التى يتمتع فيها الأويو بنفوذ قوى . فالأويو كما رأينا كانوا دولة أوليجاركية بها أرستقراطية مستقرة .

ويفضل العدد الكبير من النبلاء وصغار الملوك وكبار التجار توفرت سوق للمنتجات المحلية . ومن المناطق الأخرى التى تطورت فيها الصناعة إلى حد ما بلاد الهوسا ، التى كانت مع ذلك ظهيراً سياسيًا . ومرجع ذلك أنه كان يوجد بهذه البلاد ، كما فى بلاد اليوربا ، عدد كبير من الدول الصغيرة والتجار الكبار . بيد أنه حتى فى هذه الدول كانت الفنون الصناعية امتيازاً خالصاً لطبقة معينة . وفى بنين كانت عملية سبك البرونز بأكملها فى أيدى أحفاد الشخص الذى أدخل هذه الصناعة فى البلاد ، الذين يعيشون فى حى خاص بهم . وفيها اقتصرت الصناعات على العاصمة ؛ ومع ذلك كان باستطاعة رؤساء الأحياء والقرى الحصول على الدفوف والسيوف الخشبية ذات المقابض المنحوتة اللازمة للشعائر الدينية . أما العاج فيخصص كلية للملك .

وكانت كانو أشهر مركز للصناعة فى بلاد السودان . ويقول بارث إنه بينما انحصرت أهمية تمبكت فى كونها مركزاً للتجارة ، فإن أهمية كانو كانت مستمدة من التجارة والصناعة معا . وكانت كانو فى الحقيقة هى مانشستر غرب إفريقية ، فقد كان القطن هو صناعتها الرئيسية . وكانت تنسج فى كانو أنواع مختلفة من الأقمشة أهمها التوركيدى ، أى ملابس النساء ، والريغا وهى قمصان الرجال الطويلة ، والزين أى الأقمشة الصوفية المخططة المختلفة الألوان ، واللثام الأسود (البراقع) ، وارتبطت بذلك صناعة النيلة . وقد أمكن للكاناوا (أهل كانو) أن يضفوا على التوركيدى أجمل مواد الصباغة ، وهو ما لم يستطيعوا أن يحققوه بالنسبة للريغا ، وذلك أمر مستغرب تماما . وكانت المنسوجات القطنية المصنوعة فى كانو تصدَّر إلى جميع أنحاء غرب إفريقية من أرغوين إلى بيغرمى ، ولكن كانو كانت تواجه فى الجنوب منافسه شديدة من اليوربا .

وفى كتابه Black Byzantium (**بيزنطة السوداء**) وصف نادل فى تفصيل كثير كيان نظام الطوائف فى نوبى ، كما وُجِد قبله بثلاثين عاماً ، وهو ما لم يطرأ عليه تغيير يذكر منذ العصور المبكرة . ويقول إن المجموعة التى تشارك فى ورشة عامة فى بيدا تكون أيضا وحدة عمل ، وعرف ذلك بالإيفاكو . وكل شخص

ينتمي إلى وحدة العمل ، سواء أكان من أقرباء رئيسها أم غريباً عنه ، يخضع لقواعد الإيفاكو . ولكل ورشة عريف يشرف على إنتاج المجموعة . ولذلك فلا يوجد إلى جانب دخل المجموعة أى دخل فردى . « إن التعاون الكثيف تفسره طبيعة هذا الإنتاج الكبير ، كما تفسره متطلبات الكفاءة والوفر ؛ فاستخدام فرن مشترك ومخزن مشترك للوقود والمواد الأولية ، وتخصص مهام الورش المختلفة ، وتقسيم العمل داخل الورشة الواحدة ، هذه جميعاً تضافرت لضمان درجة عالية من الكفاءة والعمل المشترك .»

ويقول دكتور نادل إنه فى العصور الأولى كان عريف الورشة هو الذى يقوم بدور المقاول والممول بالنسبة للورشة ، ورئيس الطائفة هو الذى يقوم بهذا الدور بالنسبة للصنعة ، ورئيس الطائفة موظف لدى البلاط ويمثل الملك فى كل الشؤون المتعلقة بتلك الصنعة . وهكذا ففى بيدا إذا وصل أى تاجر أجنبى ومعه الخرز فإنه لا يعرض بضائعه أو أحجاره الثمينة فى السوق ، وإنما يذهب إلى رئيس الطائفة الذى يختار من بضائع التاجر ما يراه لائقا بالملك ورجال البلاط . ويقدم رئيس الطائفة نصائحه إلى الملك بخصوص الشراء ، وبعد إتمام الصفقة يوزع العمل بين الورش المختلفة . ويحتفظ رئيس الطائفة لنفسه بعمولة مقدارها ٢٠ فى المائة ، وهذا المال يساعد على تمويل الصنعة . فإذا ما طلبت ورشة ما رأسمالا أو مواد أولية أو عمالا قام بتوفير احتياجاتها . لذلك فإن رئيس الطائفة هو محور الصنعة بأسرها . وينطبق هذا بوجه خاص على صناعة الخزف فى بيدا . ورجال البلاط هم العملاء الرئيسيون لهذه الصناعة التى تعمل بكامل طاقتها لتلبية متطلبات مرافقات الحريم والبائنات والمهور .

وقد تطور نظام الطوائف كثيراً فى غرب إفريقية . فالفتاش على سبيل المثال يذكر أنه كانت توجد فى تمبكت ٢٧ ورشة للترزية ، كل منها تحت إشراف عريف ، ولدى كل عريف ما بين خمسين صبيًا ومائة صبى يعملون تحت إدارته .(٦٥) وذلك إلى جانب مشرفون مدققون لملاحظة عمل الصبيان . وفى غير

(٦٥) « وأخبرنى محمد بن المولود أنه رأى منها ستة وعشرين بيتاً من بيوت الخياطين المسماة بتند بتاء مكسورة ولكل واحدة من تلك البيوت شيخ رئيس معلم وعنده من المتعلمين نحو خمسين وعند بعضهم سبعين إلى ماية ...» تاريخ الفتاش ، الصفحة ١٨٠ .

صناعتى الخرز والبرونز ربما لم تكن سلطات العريف بمثل هذه الضخامة فى الصناعات الأخرى التى لا تتطلب رأسمالا بمثل هذا الحجم ، ولكن لا يوجد اختلاف ملحوظ بين هذه الصناعات . فرسوم الالتحاق بالطائفة ، والعلاقة بين العريف والصبى ، والمدة التى يقضيها الصبى فى التدريب ، وعلاقة الورش المختلفة برئيس الطائفة ، وعلاقة رئيس الطائفة بالبلاط ، كل ذلك كان نسقاً جيد الإعداد وركيزة للتنظيم الصناعى . وباستطاعة العامل المدرب ، فى فترات الرخاء ، أن ينشئ ورشة خاصة به عن طريق الاقتراض من أحد تجار الهوسا أو الونقارة .

وفى غالبية الحرف المتخصصة كانت التقنيات وقفا على فئة معينة من الناس . فصناع الخرز فى بيدا كانوا وحدة وثيقة الترابط ويزعمون أنهم هاجروا من مصر . وكانت فترة التدريب الطويلة التى يقضيها الصبى ، وتكلفة فتح ورشة جديدة ، بمثابة قيد على انتشار الحرفة . وفى تمبكت على سبيل المثال كان فن صنع الأخفاف وقفاً على رجال الأرما الذين يرفضون قبول صبيان من القبائل الأخرى .

ورأس المال كان قيدا آخر . ففى صناعة الزجاج كان ينبغى بناء فرن عرضه خمسة أقدام وعمقه قدمان فى وسط الكوخ ، ويتعين تغطية فوهته بقطع من الفخار ، وتزويده بكمية ضخمة من حطب الوقود كى يظل عند درجة حرارة عالية لمدة إثنتى عشرة ساعة على الأقل لإتمام العملية . وتتطلب صناعة الزجاج أيضا الحصول من برنو على الصودا والرمل والمعدات اللازمة لها . وإلى جانب دفع الأجور للصبيان ، يوجد لدى كل عريف عدد من الرقيق للقيام بالأعمال الشاقة ، وذلك بدوره يتطلب قدراً من رأس المال .

ولم يكن هناك تخصص وظيفى فقط ، وإنما تخصص جغرافى أيضاً . فالنوبى على سبيل المثال تخصصوا فى صنع الخرز والخلاخيل والزجاج ، وكان زجاجهم ذا لون أسود داكن لامع ، ولكنهم لم يتفوقوا أبداً فى تلوينه . وأنتج النوبى أيضا نوعاً خاصا من « الأتواب » . وتخصصت بنين وإيفه فى المشغولات

والتماثيل البرونزية . وكانت لهذه المشغولات أهمية خاصة لأنها لم تكن تستخدم فى الطقوس الدينية فقط ، بل فى تسجيل التاريخ أيضاً . وكانت صناعة الأخفاف تخصصاً لتمبكت وكانو . كذلك كانت كانو مركزاً كبيراً لصناعة الجلود . والأخفاف المصنوعة فى كانو تجمع بين المتانة وقوة التحمل والذوق الرفيع ، ولها سوق كبيرة لا فى غرب إفريقية فقط ، وإنما فى الشمال أيضا . وكانت الجلود المدبوغة ، وبخاصة النوع الذى اشتهر باسم « الجلد المراكشى » صناعة أخرى مستقرة فى كانو . وكان هذا النوع يصنع من جلود الأغنام الحمراء التى انفردت بها كانو ، وذلك بعد دبغها بعصير نبات محلى .(٦٦) ومن مراكش كان هذا الجلد يصدر إلى أوروبا . كما اشتهرت كاتسنا بدروعها المبطنة .

وصناعة القطن هى الصناعة التى انتشرت على نطاق غرب إفريقية بأكمله . ويقول دنهام إن صناعة القطن كانت على درجة كبيرة من التقدم فى بلاد اليوربا ، ويذكر الشئ نفسه عن بلاد الهوسا . ويعطينا كلابرتون وصفا لصناعة القطن . فبعد أن يجمع القطن من شجيراته يجهز بعناية ويوضع فى سلال ، ثم تقوم النسوة بغزله على مغزل رقيق . وقد عرف هناك نوعان من الأنوال : رأسى ويستخدمه الرجال ، وأفقى وتستخدمه النساء . والأول مستقيم ضيق يعمل بالبدالات . والشريط الطويل الضيق من القماش ينسج بعرض خمس بوصات وطول عشرة أذرع ، ويقسم إلى خمس قطع طول كل منها ذراعان . وذلك نمط ذو طابع فردى من أنواع العمل يخالف مثيله فى صناعة الزجاج ، ويقوم به الرجل مع أبنائه غير المتزوجين . وقد شاهد كلابرتون فى بعض هذه الأكواخ أكثر من ثمانية أو تسعة من المغازل والأنوال .

---

(٦٦) « وعلى وادى درعة شجر كثير وثمار عظيم وهناك شجر التاكوت يشبه شجر الطرفاء وبهذا التاكوت يدبغ الجلد الغدامى » البكرى ،، المرجع السابق ، الصفحة ١٥٢ .

وكانت الأقمشة القطنية سلعة هامة فى تجارة غرب إفريقية ، وكان التجار البرتغاليون والهولنديون والبريطانيون ينقلونها من بنين إلى ساحل الذهب حيث يشتد الطلب عليها . والأقمشة المصنوعة فى إفريقية شديدة المتانة . وقد تبين لكاتب بريطانى فى بداية القرن العشرين أن أقمشة كانو واليوربا القطنية أمتن كثيرا من أقمشة لانكشير وتعيش مدة أطول ، وإن تميزت لانكشير برخص منتجاتها . وقد تفوقت أقمشة كانو بوجه خاص من حيث الجودة واللمعان وجمال الألوان .

وعلى الرغم من أهمية هذه الصناعات ، فإن مكانة صناعة التعدين فى الاقتصاد جديرة بإشارة خاصة . ذلك أن استخراج الملح والذهب والنحاس ، وكذلك ملح النطرون ، كان من دعائم اقتصاد بلاد السودان . وقد اكتسبت تكدا أهميتها لا بسبب تجارتها فقط ، وإنما بسبب صناعتها التعدينية أيضاً ، فقد تخصصت هذه المدينة فى إنتاج النحاس ، ويقوم بالعمل في مناجمها الرقيق من كلا الجنسين . وبسبب وقوع مناجمها فى وسط الصحراء كانت ظروف العمل فيها بالغة القسوة ، لذلك فإن إحلال عمال جدد كان يجرى على نطاق واسع ، وربما تطلب الأمر دفعة جديدة من الرقيق كل ستة أشهر . ويتم تحويل النحاس إلى قضبان طولها شبر ونصف شبر ، بعضها رفيع والآخر سميك . وتستخدم هذه القضبان محلياً ، أما النحاس فى صورته الخام فيصدر إلى برنو وغوبر والمناطق الوثنية .

وقد عرف غرب إفريقية منذ القدم استخراج النحاس على نطاق واسع : عرفه سكان غانة ، كما أبلغ منسا موسى المصريين بأنه يمتلك مناجم للنحاس . ووصف إبن بطوطة استخراج النحاس فى تكدا بشئ من التفصيل ، ويقول : وديار تكدا مبنية بالحجارة الحمر ، وماؤها يجرى على معادن النحاس . يتغير لونه وطعمه بذلك» .(٦٧) وعلى الرغم من معرفة السودان القديمة بالنحاس ، فإن مدى سيطرتهم على مصادر إمداداته موضع خلاف . فنحن نسمع منذ أقدم العصور عن أن بلاد السودان تستورد النحاس من شمال إفريقية ومصر . والحقيقة أن بعض إمبراطوريات بلاد السودان سيطرت على تكدا ، ولكن الأمر الأرجح هو أن تكدا لم تكن تنتج من النحاس ما يفى باحتياجاتها .

(٦٧) يرد هذا الاقتباس فى تحفة النظار ، الصفحة ٧٠٤ .

وثمة مدينة أخرى كانت تعتمد كلية على الصناعة هى تغازة ، وهى مدينة تقع على مسيرة خمسة وعشرين يوما إلى الجنوب من سجلماسة ، ولم تكن لها حضارة يمكن أن تعتز بها . وبيوتها مبنية من صخور الملح الصلبة ، ولكن سقوفها تصنع من جلود الجمال .(٦٨) والعنصر السائد فيها هو رجال القبائل الذين يستخدمون الرقيق فى استخراج الملح . ولبلما طابع مماثل إلى حد كبير .

وفى منطقة بحيرة تشاد كان لصناعة ملح النطرون أهميتها الكبيرة . ويقول بارث إن قوافل هذا الملح تذهب بانتظام إلى كانو ، ومنها ترسل إلى الجنوب . ومع ذلك فمن الناحية الاقتصادية تتم مبادلة كل ذلك بالذهب . صحيح أن معظم الذهب هو من الذهب الغرينى ، وأن عمليات استخراجه ربما لم تكن أكثر تقدما من العمليات التى يتبعها الإفريقيون اليوم فى تلك المناطق ، ولكن بعض الذهب فى أشانتى والموسى كان يستخرج عن طريق التعدين ، وعلى أية حال فقد احتفظ بالإنتاج عند مستوى عال جداً ، وأصبحت بلاد السودان تعرف بأنها أرض الذهب .

رابعا

من الأسئلة الهامة فى التاريخ الإفريقى هو لماذا لم يتطور فى القارة نظام سليم للزراعة . فغرب إفريقية به أنهار كثيرة ، ومما يثير الدهشة أنه لم يستخدم منها نهر واحد فى أعمال الرى . ولا يمكن أن يكون مرجع ذلك أن أبناء غرب إفريقية عجزوا عن اختراع الساقية ، لأن الصفوة منهم كانوا يقومون بانتظام بزيارة شمال إفريقية وشرقها ، فلو أنهم كانوا مهتمين حقًا بالاشتغال بالزراعة لما تعذر عليهم الاستعانة بخبير من هناك . وإذا كان منسا موسى قد استطاع الحصول على مهندسين معماريين من شمال إفريقية ، وإذا كان أباطرة البرنو قداستطاعوا الحصول على خبراء أتراك لتدريب جيوشهم على استعمال الأسلحة

---

(٦٨) « فوصلنا ... إلى تغازى ... وهى قرية صغيرة لا خير فيها ومن عجائبها أن بناء بيوتها ، ومساجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال .. ولا يسكنها إلا عبيد مسوفة الذين يحفرون على الملح ... وقرية تغازة على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من الذهب ...» المرجع نفسه ، الصفحة ٦٨٤ .

النارية ، فإنه لا يمكن قبول التفسير القائل بأن الافتقار إلى الساقية كان هو السبب فى إهمال الزراعة . كما لا يمكن القول بإن الزراعة لم تتطور بسبب عدم سخاء التربة . فهضبة الجزائر والهضبة الإيرانية وهضبة الدكن بالهند ليست أكثر سخاء . بيد أن نظام **الفوجّارا**(٦٩) فى شمال إفريقية ، ونظام الرى الجيد فى بلاد فارس ، والقناطر والسدود والخزانات فى هضبة الدكن ، هذه جميعا توضح أنه حيث تبدى الدولة اهتماماً بالزراعة يمكن التغلب على العقبات الزراعية . كذلك لا يمكن القول بأن الإفريقيين كانوا زرّاعاً غير مهرة . فالزراعة هى فى المقام الأول علاقة الإنسان بالبيئة – فعليه أن يُكيِّف أساليبه لتناسب بيئته – فحقول المصاطب على سفوح الجبال ، وزراعة الفاداما ، وحتى **الزراعة المتنقلة**(٧٠) ، كانت كلها مساعٍ للتكيف مع البيئة ، وتبين أن الإفريقى زارع ماهر . وإذا ما تعين إنجاز المزيد فلا يمكن أن يكون ذلك إلا عن طريق تدخل الدولة . فلماذا عجز النظام الحكومى فى غرب إفريقية بصورة متسقة عن رعاية الزراعة ؟

التفسير بسيط . وهو ان أهتمام دول غرب إفريقية كان منصباً فى المقام الأول على التجارة ، ولم يكن لديها اهتمام يذكر بتنمية الزراعة . كما أن تجارة الرقيق أدت إلى إهمال الزراعة . فالرقيق كان الحصول عليهم سهلا ، وكانت الدول فى بلاد السودان تقوم بغارات نهب من أجل أسر الرقيق وبيعهم لتجار شمال إفريقية . وقد عرفت بلاد السودان منذ أقدم العصور بأنها سوق للرقيق . بل يبدو أن قرطاجة كانت تحصل منها على الرقيق . وكانت برنو بلا منازع فى

---

(٦٩) استخدم سكان الواحات أساليب مختلفة للرى ، من بينها **الفجّارا** والشادوف والعيون والآبار الطبيعية والاصطناعية . والفوجّارا موجودة بوجه خاص فى توات وغورار ، وهى عبارة عن قنوات من صنع الإنسان تحفر تحت سطح الأرض بميل خفيف لجلب المياه الجوفية إلى الواحة بفعل الجاذبية الأرضية .

(٧٠) كانت خصوبة الأرض تقل بعد عدد من المحاصيل بسبب عدم استخدام الحيوان فى الزراعة وعدم معرفة التسميد ، ولذلك كان الزارع يضطر إلى التخلى عن قطعة الأرض التى يزرعها والانتقال إلى غيرها ، وربما عاد إلى القطعة الأولى بعد فترة من الوقت ، ومن هنا سميت هذه الزراعة بالمتنقلة . وبذلك لم تكن الأرض غير المزروعة سوى احتياطى للأرض الزراعية المملوكة للقبيلة .

مقدمة الدول المشتغلة بتجارة الرقيق ، وكان الطريق من تشاد إلى طرابلس مارا بكُوّار وفزان هو طريق الرقيق . وهذا الطريق الملطخ بالدماء ، الذى تتناثر فيه آلاف الهياكل العظمية ، لابد أن يذكر المرء باستمرار بما أحدثته تجارة الرقيق من تأثير مدمرٍ على حياة السودان الاقتصادية . فالزراعة تعنى خلق طبقة من الفلاحين ، سواء على هيئة أقنان مرتبطين بالأرض أو رجال أحرار لفلاحتها ، ثم بعد ذلك يصدر الفائض للحصول على مواد الترف . بيد أنه لم تكن هناك سوق يصدر إليها الناتج الزراعى ، كما لم يكن من بين السمات المميزة للتجارة الإفريقية وجود فائض من منتجات الزراعة يسمح بالتصدير . ولم يكن ممكنا أن تتطور الزراعة ما دام الرق سائداً : فقد كانت الدول فى بلاد السودان حتى فى أفضل أيامها ، باستثناء الهوسا ، تقوم على سلب الرقيق .

ويتضح ذلك إذا ما قارنا بين بلاد السودان والهند . ففى الهند التي قام اقتصادها دائما على الاكتفاء الذاتى ، كان رخاؤها يعتمد لاعلى التجارة وإنما على الزراعة . وكانت الدولة تعتمد على الإيرادات التى تعتمد بدورها على الزراعة ، لذلك قامت الدولة بدور فعال فى رعايتها . فأقيمت السدود والجسور والخزانات والبحيرات الصناعية . ولما كانت إيرادات الأرض هى المصدر الرئيسى للدخل ، فقد كان هناك حشد هرمى من الموظفين ابتداء من باتوراى (رئيس) القرية فصاعداً ، مهمته تقدير إنتاجية الأرض واتخاذ الإجراءات لزيادتها ، ومسح الأرض وتقدير درجة خصوبتها حتى يمكن ربط الضريبة عليها . كما أن أشغال الرى والتحكم فى المياه كانت تعنى بدورها وجود إدارة للأشغال العامة وجهاز إدارى لترشيد استخدام المياه . لذلك كانت الهند ، على غرار غيرها من البلدان الزراعية ، دولة بيروقراطية فى جوهرها .

أما فى غرب إفريقية فلم تكن الزراعة أبداً حرفة هامة ، وإن كانت قد ازدهرت بالفعل . فكعت يذكر أن الأساكى كانت لديهم مزارع كبيرة تنتج الدخن والأرز . كما يذكر بارث أن تجارة أغادس هى أساساً فى الدخن الذى يشترى من الزنوج . وكانت أشجار الصمغ من بين المحصولات الأخرى التى تزرع على نطاق واسع . وقد ذكر البكري فى القرن العاشر أن منطقة السنغال تنتج

الصمغ الذى يبادل به القطن من المالك العربية فى الأندلس .(٧١) ويشير ليو الإفريقى ألى أنه توجد فى چنى كميات وافرة من الشعير والأرز والقطن . وكان اللحم رخيصاً أيضا بسبب القطعان الكبيرة من الماشية . وفى تمبكت ومالى وغاو وغوبر وكانو كانت المواد الغذائية موجودة بوفرة .(٧٢) كما يقول ليو إن الحقول تفلح بطريقة جيدة . ويذكر كل من بارث وكلاپرتون أن الزراعة يعتنى بها كثيرا ، وأن جميع الحقول محاطة بسياح محكم ، وأن المحصولات الرئيسية هى القطن والأرز والنيلة والقمح والبصل والقثاء . وقد وجد بارث مزارع كبيرة للتبغ بالقرب من كانو وبلاد الموسغو . أما دنهام فقد وجد القمح والنيلة والأرز والتمر هندى ، وكذلك الفول السودانى والبقول ، بكميات وافرة . وكلاپرتون بدوره يعتبر بلاد الهوسا منطقة للزراعة الجيدة ، وتحدث عن « بلد ذى زراعة جيدة » أشبه بمنتزه مُنَمَّق فى بريطانيا . كما توجد مزارع للقطن محكمة السياج ، بل إن الهوسا يستخدمون بذرة القطن لتغذية الماشية .

وقد أدخل التبغ إلى غرب إفريقية بعد الغزو المراكشى ، وكانت مراكش قد حصلت عليه من الأندلس . وقرب نهاية القرن الثامن عشر أصبحت زراعته حرفة أساسية . ويبدو أن بعض التبغ كان يُصَدَّر إلى مراكش . وقد ترتب على تدعيم سلطة الفولانى فى حمدألاى توجية ضربة إلى محصول التبغ ، فقد حُرِّم مضغه وتدخينه باعتبار ذلك مخالفاً لتعاليم الإسلام .

وكان التدهور الكبير فى الزراعة يرجع إلى حقيقة أنه لم يكن هناك ، بعد انهيار الإدارة المركزية فى بلاد السودان ، أمن يسمح للفلاحين بفلاحة حقولهم

---

(٧١) أنظر الحاشية ١١ -٤٦ أعلاه .

(٧٢) « أما الشعير والروز والماشية والسمك والقطن فتوجد (فى چنى) بكثرة كاثرة ... والحبوب والمواشى (فى تمبكت) كثيرة جداً ، بحيث إن اللبن والسمن يستهلكان فيها بكيفية مفرطة ... ويكثر فى البلاد (فى مالى) الحب والقطن واللحم ... الخبز واللحم فيها (فى غاو) كثيراً جداً .. تضم (غوبر) عدداً كبيراً من قرى يسكنها رعاة الغنم والبقر ، لأن فيها كمية وافرة من هذه الأنعام ... ويعيشون (فى كانو) من تربية الغنم والبقر أو من فلاحة الأراضى التى تنبت كثيراً من الحب والأرز والقطن .. » وصف إفريقيا ، طبعة المغرب ، الجزء الثانى ، الصفحات ١٦٢ إلى ١٧٣ .

فى هدوء وسلام . وقد لاحظ بارث ، وهو مراقب شديد التدقيق ، أنه فيما بين عامى ١٨٥٠ و ١٨٥٤ تحولت المنطقة الواقعة بين زندر وكانو إلى صحراء حقيقية بعد أن كانت يوما ما أحد مشاهد الحياة الزاخرة بالنشاط والكثيرة المدن والقرى ، بل إنه فى عضون أربع سنوات مضت بين زيارتين متتاليتين له كانت حقول التبغ المزدهرة بالقرب من كاتسنا قد خربتها الحروب الداخلية الضروس .

كذلك لم يكن نظام الزراعة وقفاً على المناطق الداخلية . فالحقيقة أن الزراعة فى الدول الساحلية كانت أكثر تطوراً . وقد وجد دنكان محصولات ممتازة من أنواع مختلفة من القمح والأرز تزرع فى داهومى ، وكان يرى أن شعب مالى يتمتع بكفاءة زراعية ممتازة ويستخدم روث البقر سماداً للتربة . وكان دنكان شديد التأثر بحالة الزراعة حتى أنه قارن الحقول المزروعة جيداً فى داهومى بمثيلاتها فى بريطانيا .

كذلك لم يكن ملوك داهومى غافلين عن أهمية الزراعة . ففي القرن التاسع عشر كانوا يشجعون بنشاط توطين الزنوج الذين قدموا من البرازيل أو سيراليون بمنحهم قطعاً من الأرض دون مقابل . وقد وجد دنكان بالقرب من وايداح مزارع ناجحة يمتلكها زنوج عائدون من البرازيل .

وقد أدخل هؤلاء الرقيق العائدون أساليب جديدة . وزار دنكان مزرعة بها طاحونة لطحن الذرة والكاسافا « عبارة عن طارة ، ليست أفقية وإنما عمودية مثل طاحونة الشعير ، وعرضها قرابة ست بوصات ، وتدورداخل جرن على شكل نصف دائرة . وحافة الطاحونة مغطاة بلوح من النحاس مخرم بثقوب صغيرة ، واللوح مثبت على الحافة بالمسامير مع وجود الجانب المدبب نحو الخارج . وتدار الطارة بنفس الطريقة التى يدار بها حجر المسنّ ، ويمكن رفع الجرن أو خفضه حسب الحاجة . وهذه الآلة صنعها صاحب المزرعة بنفسه بالقرب من هذا المكان » .

ومع ذلك ينبغى أن يقر فى الأذهان أنه على الرغم من أن أباطرة السودان وملوك داهومى وغيرهم كانو يشجعون زراعة المحاصيل الغذائية ، فإن دولهم كانت قائمة أساساً على تجارة الرقيق ، وتضحى بأى محصول يتعارض مع هذه المصلحة الحيوية . فعندما أراد الونقارة تشجيع زراعة القطن ، وانتهاج سياسة

نشطة لهداية الوثنيين ، تعارض ذلك بشدة مع مصالح تجارة الرقيق . وبالمثل فى داهومى ، حيث استطاع البرتغاليون فى القرن التاسع عشر ، عندما أحسوا أن صادرات زبد الشيئة ستشجع نمو التجارة المشروعة ، ومن ثم تلحق الضرر بتجارة الرقيق ، حمل حاكم داهومى على فرض رسم باهظ على هذه المادة . ولكن التجارة استمرت دون نقصان فضوعف الرسم . ولم يحل ذلك المشكلة ، وإنما إدى إلى التهريب ، فاضطر الملك إلى اقتلاع أشجار زبد الشيئة .

وكانت الغُرتى أو شجرة زبد الشيئة التى يستخرج الزبد من حباتها تزرع على نطاق واسع فى بلاد السودان . يقول إبن بطوطة « والغرتى .. ثمر كالأجاص شديد الحلاوة مضر بالبيضان إذا أكلوه ، ويدق عظمه فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع . فمنها أنهم يطبخون به ويسرجون السرج ، ويقلون به هذا الأسفنج ، ويدهنون به ويخلطونه بتراب عندهم ويسطحون به الدور كما تسطح بالجير » .[٧٣]

أما سكان مناطق الغابات المطيرة فالزراعة هى حرفتهم الرئيسية ومحور ديانتهم . ووظيفة الحاكم ، كما رأينا ، هي استرضاء الآلهة كى ينتظم المطر . ولديهم سنة قمرية طولها ٣٥٤ يوماً ، وترتبط كل فترة من السنة ارتباطاً وثيقاً بعملية زراعية معينة . من ذلك أنه فى شهر مارس ينبغى أن يؤسر رجل أجنبى ويضحى به بدفنه فى الأرض فى احتفال كبير . وفى بنين يتعين التضحية بعذراء عند الاعتدال الربيعى لضمان محصول طيب . وبالمثل فإن احتفال اليام[٧٤] فى أشانتى وبنين هو أساسا احتفال دينى مرتبط بالزراعة . ويؤكل محصول اليام

---

(٧٣) تحفة النظار ، الصفحة ٦٨٩ .

« ومنها شجر اسمه فاريتى ، حَمْله شبيه بالليمون وطعمه يشبه الكمثرى بداخله نوى ملحم ، يؤخذ ذلك النوى وهو طرى ، فيطحن فيخرج منه شيى شبيه بالسمن يجمد ، وتبيض به البيوت وتوقد منه السروج ، ويعمل منه الصابون وإذا قصد أكله وضع ...» صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٨٨ .

(٧٤) اليام : نبات من الفصيلة الديوسقورية ، منه أنواع تزرع لدرناته التى تؤكل ، وأنواع للتزين . ولفظه يام معربه عن البرتغالية ، وهذه من أصل إفريقى .

الجديد فى احتفال كبير بعد أن يضحى بالرقيق قربانا لإلهة الأرض كى يزيد نسهم من خصوبة التربة . وفى اليوم الخامس يوفد رسول إلى الأسلاف . ولاحتفال اليام دلاله سياسة أيضاً . ففى أشانتى وداهومى وبنين يتعين وجود الرؤساء الصغار فى البلاط خلال هذا الاحتفال .

وعلى شاطئ المحيط كان المحصولان الرئيسيان ، إلى جانب اليام ، هما الكسافا ونخيل الزيت . وهذه المحاصيل الثلاثة تشكل أغذية السكان الأساسية . وقد ازدهرت القاقلة الذكرية لبعض الوقت إلى أن أتى الفلفل الهندى على سوقها ، وحاول البرتغاليون إدخال شجرة جوز الهند ، ولكن المحاولة أخفقت .

كيف كانت الزراعة منظمة فى بلاد السودان ؟ ففى إمبراطورية السنغى كان الامبراطور نفسه أكبر مالك الأرض ، ويذكر الفتاش أنه توجد ضياع ملكية فى جميع أقاليم الإمبراطورية .(٧٥) كذلك كان الحكام والوزراء يمنحون مساحات ضخمة من الأرض ، وكان العلماء بدورهم يمنحون مساحات ضخمة . ويقدم كعت مثالاً للسخاء الملكى ، هو أن محمد تُل – المعلم الواسع النفوذ – قد منح سبعين قرية بجميع من يقيم عليها من الرقيق ، كما مُنح حق تسلم إيجار الأرض من الرجال الأحرار فى هذه القرى .(٧٦) وكان النبلاء والعلماء هم كبار ملاك الأرض ، ولم يكن الملك يمنحهم الأرض فقط ، بل الرقيق اللازمين لأعمال الزراعة أيضاً .

ولكن الرقيق الذين يفلحون الأرض تم إمتلاكهم فى الحروب .(٧٧) فقد أدت الحروب المستمرة مع مالى إلى امتلاك أربع وعشرين من القبائل المستعبدة ،

---

(٧٥) « وليس فى قرية من قرى ماذكرناه إلا وله فيه عبيد وفَنْفَ وحرث . » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤٩ . [الفَنْف هو الملاحظ أو المشرف .]

(٧٦) « ويكون ماوجد في تلك المسافة من ثلاث قبائل – ملكا له ، أى للشيخ محمدتل ، ومن ليس هؤلاء فيكون حوزا له » المرجع نفسه ، الصفحة ٣٢ .

(٧٧) « ثم سأله أيضا (أسكيا محمد سال السيوطى) عن أمر أربعة عشر قبيلة الذين وجدهم بيد شى بار مملوكة له ورثها عن آبائه فقال الشيخ صفهم لى فوصفهم له فقال أما نصفهم فملكه لك سائغ وأما النصف الآخر فتركهم أفضل لأن فيه شبهة . » المرجع نفسه ، الصفحة ١٤ .

ثلاث منها تنتمى إلى البمبرة ، وأفرادها أقنان يعملون بالزراعة لدى ملوك مالى ، وقد قام حكام السنغى بتوطين الزارعين المهرة من أبناء هذه القبائل الثلاث فى ضياعهم ، وفى الحملات ضد الموسى والدوغون ثم اقتناء أعداد أخرى من الرقيق ، وتم توطين رقيق الموسى فى منطقة دِنْدِ .

ويتفاوت عدد الرقيق فى كل ضيعة بين عشرين ومائة أسرة حسب مساحتها .(٧٨) وتتكون كل أسرة من رجل وزوجته وأطفاله وتمنح قطعة من الأرض تفلحها من أجل الملك ، وتعمل تحت إشراف ملاحظ يعرف بالفَنْفَ ينتمى إلى رقيق المالك . ويشرف فَنْفَ واحد على عمل عشرين أسرة من الرقيق ، وإذا كانت المزرعة كبيرة - يورد كعت مثالا لمزرعة فى دند يعمل بها مائتا رقيق - يعيّن فَنْفَ كبير ليكون مسؤولا عن المزرعة .

وإلى أن جاء أسكيا محمد كان الملك يمتلك كل ما تنتجه المزارع الملكية ، ويستخدم هذا الانتاج لمواجهة متطلبات أهل بيته الكثيرى العدد ، بمن فيهم رقيق البلاط ، وكذلك لإطعام القوات الموجودة فى الحاميات المختلفة . أما الفائض فيخزن فى الشون الملكية لمواجهة أى نقص عارض . ويقوم الحاكم بتوفير البنور والأكياس الجلدية التى تعبأ فيها الحبوب . وفى وقت الحصاد يقوم كبار الموظفين فى إدارة الإيرادات بزيارة المزارع للإشراف على الحصاد والتعبئة ، واعتاد الملك أن يمنح الفَنْفَ المسؤول عن مزرعة ما قضيبا من الملح وبعضا من جوزة الكولا وقميصا أسود ورداء أسود لزوجتة .(٧٩)

و الناتج من المزارع الملكية يكفى لسد احتياجات البيت الملكى . ويقول كعت

---

(٧٨) « فى تحت يد بعض الفنافى ماية عبد وعند بعضهم خمسون وستون وأربعون وعشرون ...» المرجع نفسه ، الصفحة ٩٤ . [الفنافى جمع فَنْفَ]

(٧٩) « ويرسل أسكى لرئيسهم مع الرسول الذى يأتى لحمل صنونه ألف كورية والكملية الواحدة من الملح والقميص الأسود والملحفة السوداء لزوجة ذلك الرعيس » المرجع نفسه ، الصفحة ٩٥ . [الصنُون جمع صنّية ، وهى كيس من الجلد يسع حوالى ٢٥٠ لترا ؛ والكملية هى القضيب .]

إن هذا الناتج يتجاوز في بعض السنين أربعة آلاف كيس يسع كل كيس ما بين مائتي لتر ومائتين وخمسين لترا من الحبوب .(٨٠) والنبلاء بدورهم ينتجون طعاما يكفي أهل قصورهم . أما الطبقات الفقيرة فتتضور جوعا أو تعيش على التسول ما لم تكن مرتبطة بأحد النبلاء . وهناك ضياع موقوفة على المساجد ، ومن ثم فهي مخصصة لسد حاجة أبناء السبيل . فأسكيا داوود ، على سبيل المثال ، قدم مزرعة يقوم بفلاحتها ثلاثون من الرقيق لسد حاجة الفقراء في تمبكت (٨١) ، ولابد أن آخرين قد اقتفوا أثره .

ويبدو من رواية الفتاش أن المنح الملكية إذا لم تستخدم فلابد أن ترد للتاج ، من ذلك أن الملك كان قد منح حقل أرز لأحد المعلمين ، فأهمل فلاحته ، فادعى كَبَرَ فَرْمْ .(٨٢) ، وهو رقيق يقع الأرز في منطقة نفوذه ، أن المعلم فقد حقوقه في حقل الأرز بسبب الإهمال ، وقال إن الحقل نتيجة لذلك قد أعيد إلى أملاك الملك وإنه من واجبه كممثل للملك أن يقوم بفلاحته .

ولا يبدو أن السودان قد تمتعوا برخاء أكبر في العصور الوسطى . فالطبقة العليا من الأمراء والتجار والمعلمين كانت أفضل حالا بكثير ، كما أن أحوال المسلمين الفقراء لم تكن شديدة السوء ، ولكن الوثنيين – وهم كثيرون – كانوا يعيشون بالتأكيد في ظل ظروف بدائية للغاية . ذلك أن قَدَرهم في ظل حكام يعتبرونهم "أشياء" تباع كان قَدَرا يدعو إلى الأسى حقًا .

---

(٨٠) « وقد يحصل له من ذلك من الطعام في بعض سنين ما ينيف على الأربعة آلاف صنية » المرجع نفسه ، الصفحة ٩٤ .

(٨١) « وكان يرسل (أسكيا داوود) للقاضي العاقب بن محمود كل عام أربعة آلاف صنية يقسمها على مساكين تنبكت وأقام لمساكين تنبكت جنانا فيها ثلاثون عبدا اسمه جنان المساكين » لمرجع نفسه ، الصفحة ١١٥ .

(٨٢) فَرْمْ معناها حاكم ، والمعنى هنا حاكم كَبَرَ ، أو كابرة في كتابات أخرى .


صفحة فارغة

الإدارة

أولا

الدولة كيان اصطناعى تعتمد قوته على مدى حسن تنظيمه . وما المحافظة على القانون والنظام ، وتوفير الأمن فى وجه العدوان الخارجى ، ووجود نظام للقوانين ونظام محكم لجمع الإيرادات ، سوى علامات مميزة لدولة حسنة التنظيم . وقياسا على هذه المعايير هل يمكن القول بأن إمبراطوريات السودان فى العصور الوسطى كانت دولاً أكثر منها تجمعاتٍ ضخمةً من القبائل ، أدت إليها وجمعت بينها القوة المجردة ؟ الإجابة على هذا السؤال واضحة لا لبس فيها ؛ فدول السودان فى العصور الوسطى كانت لديها تنظيمات على درجة عالية من الكفاءة .

ومن الخطأ النظر إليها علي أنها دول إقطاعية . فالإقطاع بمعنى حيازة أرض من أمير إقطاعى يدين له فرد فى المقابل بالولاء ، ويؤدى له خدمة عسكرية ، لم يتطور فى غرب إفريقية . والحقيقة أنه نشأ فى مناطق معينة من غرب إفريقية إقطاع وليد . غير أن هذا الإقطاع يختلف اختلافا له دلالته عن الإقطاع الذى وجد فى أوروبا .

ففى بلاد السودان كان النظام العام نوعا من السمو والسيادة ، والسلطة العليا يُعترف بها على أنها التفوق ، ولكن الدول التابعة تحتفظ ببلاطها الخاص وجيوشها . وكان كل من الجزية والرقيق هما الأسلوب المألوف الذى يتبعه الأمراء المهزومون تعبيرا عن اعترافهم بالإمبراطور سيداً لهم . ويعنى هذا أن سلطة هؤلاء الأمراء تظل كاملة ، وأن أى إضعاف للسلطة الإمبراطورية كان يؤدى إلى ثورات مستمرة . وهكذا نجد فى تاريخ هذه الدول تكرارا للحملات ضد نفس الشعب .

وقد اختلف التنظيم من منطقة لأخرى . ففى مالى والسنغى وغيرهما من إمبراطوريات السودان كانت الدولة منظمة كوحدة ومقسمة إلى إدارات إقليمية . واتبع إطار مماثل فى داهومى . ولكن فى بلاد اليوربا والأشانتى كان الحاكم رئيسا لاتحاد ؛ ويحتفظ الحكام الخاضعون له بسلطتهم فى مناطقهم . وفى بنين كانت سلطات النبلاء الذين يتوارثون ألقابهم ، حتى وإن قُيِّدت ، سلطات لها دلالتها ؛ وفى اليوربا كان ألافين أويو يُعترف به باعتباره الحاكم الأعلى ، ولكن عليه أن يؤكد سلطته من وقت لآخر ليجعل دعاواه المبهمة حقيقة واقعة . أما حكام ممالك اليوربا المختلفة فكادوا أن يكونوا مستقلين ، وقد أجرى فروبنيوس مقارنة بارعة بين دول اليوربا وبين الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

وهكذا يمكن تقسيم النظام الإدارى فى بلاد السودان إلى فئتين عريضتين : أولاهما تتكون من برنو ويوربا وبنين ، ولديها نظام إقطاعى وليد به نبلاء بالوراثة يسيطرون على مقاطعات . والنظام ربما بلغ حد الكمال فى برنو فى عصورها الأولى ، فهنا كان مجلس الملك يسيطر عليه أمراء الأقاليم الذين يكونون فى بعض الأحيان أقوى من الملك ، فالكيغامة والغلديمة واليِريمة [1] ، على سبيل المثال ، أمراء إقطاعيون أقوياء ، بل هم أمراء عسكريون شبه مستقلين . وكانت طبقة الأمراء – بسبب كثرة أولاد الملوك – عنصر تمزيق فى الإمبراطورية . أما فى مالى وسنغى ، وربما فى غانة ، فالعناصر الإقطاعية كانت ضعيفة ، والسلطة عادة فى أيدى أمراء أو حكام يدفعون الجزية أو قادة عسكريين . ومن **الفتاش** يمكن الحصول على فكرة عن الإدارة فى إمبراطورية السنغى . ولذلك يجدر أن ندرس بشىء من التفصيل التنظيم الإدارى لهذه الإمبراطورية .

كان تنظيم إمبراطورية السنغى بسيطا للغاية . ففى المركز توجد السلطة الإمبراطورية وحولها تتجمع الدول التابعة التى تدفع الجزية ، وتقدم الهدايا المعتادة ، وتساعد السلطة الإمبراطورية فى حملاتها على الدول الأخرى بالرجال والمؤن . وفى بعض الأحيان يوجد فى البلاط ممثل مقيم للإمبراطور ، ولكن

---

(١) انظر الحاشية ٦ – ٧٠ أعلاه .

سلطته محدودة ، وبوسع الدول التابعة أن ترفع راية العصيان فى أى وقت تضعف فيه السلطة المركزية ، أو إذا ارتقى السلطة فى الدول التابعة أمير مولع بالحرب .

والأقاليم الرئيسية فى الإمبراطورية أفضل تنظيما ، فهى مقسمة إلى مناطق يتولاها حكام . وهؤلاء الحكام يكونون غالبا أمراء من الدم الملكى ، إما إخوة للإمبراطور أو أبناء عمومته ، ويتوقف توليهم لمناصبهم على الرضى الملكى ، وبإستطاعتهم الانتقال من مقاطعة لأخرى .

وكان النظام الإدارى فى الواقع على ثلاثة مستويات : نواب الملك الكبار الثلاثة – **الكُرْمِنَ فارِ** (٢) الذى يسيطر على المناطق الشمالية ؛ **الدِنْدِ فارِ** (٣) الذى يسيطر على المناطق الجنوبية ؛ **الباغَنَ فارِ** (٤) الذى يسيطر على المناطق المتاخمة لمالى . وهذه المناصب يشغلها الأمراء الذين يتمتعون بثقة الإمبراطور الكاملة ، والكرمن فار هو أيضا **الكنفار** (٥) ، وهو لقب شرفى يعترف بحامله على أنه الأمير الأول . والكرمن فار هو أكثر المناصب أهمية فى الإمبراطورية ، وفى عهد

---

(٢) كُرْمِنَ فارِ : أى حاكم كُرمِنَ ، وكلمة فارِ أو فَرَنْ أو فَرِنْ أو فَرْبَ من أصل مندنغو ومعناها رئيس أو حاكم أو قائد عسكرى ، وكرمن فار هو أرفع منصب بعد الأسكيا ، وقد شغله عمر أخو أسكيا الحاج محمد ، وكرمن هى موطن محمود كعت صاحب تاريخ الفتاش ، «اعلم رحمنا الله وإياك أن الإمام العادل والسلطان الفاضل أسكيا الحاج محمد لما تولى السلطة أقام طريقة سنفى وجعل فيها قواعد وذلك أن ليس له أحد فى جنده يفرش له فى مجلسه إلا جنكى وكلهم يحملون له التراب إلا جنكى فإنه لا يحمل إلا دقيق الطعام وكلهم يقلعون الطاقية عند حمل التراب إلا كرمن فار» تاريخ الفتاش ، الصفحة ١١ .

(٣) دندفار : رئيس أو حاكم دند فى جنوب السنغى . «وليس فيهم من يتعدى عليه بقول الصدق إلا دندفار .» المرجع نفسه ، الصفحة ١١ .

(٤) باغَنَ فار : أى رئيس باغن أو حاكمها . وباغن مقاطعة تابعة ضخمة المساحة بين بحيرة ديبو وتمبكت ، «وفى العام الخامسة غزى (أسكيا محمد) باغن فار . » المرجع نفسه ، الصفحة ٧ .

«وفى السابع عشر أرسل (أسكيا محمد) عليا المسمى علِ فُلَنْ وبلمع محمد كرى إلى باغن فار مع فتِ .» المرجع نفسه ، الصفحة ٧٦ .

(٥) كنفار : كلمة من أصل مندنغو تعنى الحاكم الأول أو الرئيس الأعلى .

« فاستقات لذلك بكنفار عمر . » المرجع نفسه ، الصفحة ٤٠ .

أسكيا محمد شغله عمر في أول الأمر ثم يحيى بعد موته ، وكلاهما من إخوة الإمبراطور ، وبعد موت يحيى ، خلال حكم أسكيا ، شغل عثمان بن أسكيا محمد منصب الكرمن فار ، وعندما تولى أسكيا محمد بونكان السلطة ، عهد إلى أخيه عمر بهذا المنصب . وقد شغله حمّاد حفيد أسكيا محمد بعد موت بونكان وفرار عمر ، وعند موته خلفه على كُسِلِ [٦] إبن أسكيا محمد . وخلال عهد أسكيا داوود تولى هذا المنصب ثلاثة أشخاص : أحدهم كسيه الزغرانى [٧] ، وقد يكون هو الشخص الوحيد الذى ولى هذا المنصب من غير أفراد الأسرة الحاكمة ؛ وخلفه يعقوب أخو إسماعيل ؛ وأخيراً محمد بوندان بن داوود . وخلال عهد إسحاق الثانى شغل منصب الكرمن فار محمود إبن أسكيا إسماعيل [٨] .

ولكن الفتاش الذى يذكر بالتفصيل أسماء الأمراء الذين شغلوا منصب الكرمن فار لا يشير إلى نائبى الملك فى بِنْدِ وباغن ، وتوضح إشارة عارضة أنه يتولاهما أمراء إما إخوة للإمبراطور عن طريق الأم أو من أقرب أقربائه ، والأرجح أنه ساد فى بند وباغن نظام مماثل ، لأن السنغى فى دند على صلة بكبّ وممالك الهوسا وغورمة وممالك الموسى الجنوبية ؛ ولم تكن باغن تسيطر فقط على المناطق الغربية والمناطق المتاخمة لمالى ، وإنما على الصحراء الجنوبية حتى ولاته أيضا . وكان السنغى يعلقون أهمية كبيرة على حدودهم الشمالية ، لأنه إلى جانب منصب نائب الملك كان أهم قائد عسكرى لديهم ، وهو بلَمَع [٩] يوجد أيضا فى الشمال ، ويتخذ مقر قيادته فى كابرة .

---

(٦) «ثم أمر بأن ينادى كل من حضر هنالك من أولاده كلس فرم ... وكنفار على كُسِلِ وأحضروهم وأمره بقراءة الكتاب عليهم .» المرجع نفسه . الصفحة ٧٤ .

(٧) «كسيه بن حولم : وهو زغرانى الأصل ، وكان من أحباب أسكى داوود وأحظى الناس عنده فلما تولى داوود اسكيويه وكسى حينئذ يكون بلمع وجعله كنفار ومات فى كنفاروية فى بلد بويُ وقبره هناك .» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٨٥ و١٨٦ . (كسى هو كسيه .)

(٨) «ثم كرمن فار يعقوب بن أسكى محمد تولى بعده ومكث فيها خمسة عشر سنة ومات فى تندرم ... ثم كرمن مرينكن بن داوود عقب يعقوب ثم عزل حين مات أبوه أسكى داوود وتولى أخوه الحاج أسكيويه ... ثم كرمن فار محمود بن إسمعيل تولى كنفاروية بعد صالح وهو آخر كرمن فار ... » المرجع نفسه ، الصفحة ١٨٦ . مرينكن الوارد فى هذا الاقتباس هو نفسه محمد بونكان الذى أشار إليه پانيكار خطأ على أنه محمد بوندان .

(٩) بلَمَع : لقب بلغة المندنغو يعنى الأمين العام للمملكة . ويرد جمعه بلامع فى المرجع نفسه ، الصفحة ١٨٦ .

ونواب الملك الثلاثة هم أهم موظفى الإمبراطورية ، ويسيطرون مع بلمع على معظم قواتها المسلحة ، وبإستطاعتهم إذا وحدوا قواهم أن يطيحوا بالأسكيا ، ولذلك يشغل هذه المناصب أكثر من يوثق فيهم من الأمراء .

وبينما كانت المقاطعات الوسطى تخضع لإدارة مباشرة ، فإن غالبية المقاطعات كان يحكمها أمراء تابعون من أهمهم البَرْكَىْ (١٠) وهو الحاكم الوحيد الذى يشير إليه تاريخ الفتاش على أنه ملك ، وترجع أهمية بَرَ إلى موقعها ، فبسبب وقوعها على الذراع الأيمن للنيجر ، أسفل كُرْمِنَ ، فإن لحكامها دورا هاما فى تاريخ السنغى ، كما أن حاكم بَرَ هو الأمير الحاكم الوحيد الذى أيّد الأسكيا فى العصيان الذى وقع ضده ، وكوفىء على ذلك بمنحه حكم فَرَ . (١١) ولكن محاولة ثانية للقيام بنفس الدور خلال ثورة بلمع صادق (١٢) انتهت بكارثة ، إذ تمكنت قوات إسحاق الثانى من تخريب بَرَ . وهكذا فمن الخطأ اعتبار الدول المختلفة التى أشارت إليها التآريخ مقاطعات فى الإمبراطورية ؛ فهى أساسا ولايات تابعة تعترف بسيادة الإمبراطور . وبينما يشير الفتاش مرارا إلى الكرمن فار وبلمع ، وأحيانا إلى الدندفار والباغن فار ، باستثناء مملكة بر ومَقْشَرَنْ كَىْ (١٣) ، فإنه لا يشير مطلقا إلى حكام الممالك التابعة .

---

(١٠) البَرْكَىْ : كَىْ بلغة السنغى معناه الرئيس أو صاحب الأمر والنهى ، بَرَ مقاطعة شمال بحيرة دبيو على الذراع الأيمن للنيجر ، «ولا فيهم من ينهاه عن أمر ويتبعه أحب أم كره إلا بركى .» المرجع نفسه ، الصفحة ١١ .

(١١) «ومع اسكى محمد بركى منس كور وليس معه أحد من سلاطين التكرور وسنغى غيره ولم يجبه أحد دعاه غيره ونصره الله اسكى محمد الحمد لله على ذلك فهرب شى بار إلى زاغ ... وكلهم مع شى بار إلا منس كور وحده فإنه هرب إلى أمير اسكى محمد وبايعه ... مع بركى منس كور بن موسى الذى أمره اسكى محمد على أرض فَرَ حين نصره الله على شى بار .» المرجع نفسه ، الصفحات ٥٣ و٥٤ و٦٥ . [مَنْس هنا بمعنى ملك بلغة الماندنغو ، وهو لقب يحمله رؤساء بَرَ .]

(١٢) بلمع صادق : إبن أسكيا داوود . «وأما سبب الشر الواقع بين أسكى محمد بان بن أسكى داوود وبين أخيه بلمع صادق وذلك سبب فناء سنغى وفتح باب الشر بينهم وسبب فساد ملكهم وقطع سلك نظام دولتهم إلى أن نزلت محلة أهل مراكش بهم .» المرجع نفسه ، الصفحة ١٢٦ .

(١٣) مَقْشَرَنْ كَىْ : رئيس المقشرن ، وكان المقشرن يشكلون إحدى قبائل الطوارق بالقرب من النيجر «وبِنْتَ زوجة مقشرن كى ماتت ببلدة تنبكت .» المرجع نفسه ، الصفحة ١١٨ .

ومن سوء الطالع أن الإدارة فى إمبراطورية السنغى ليست مدعمة بصورة كاملة بالوثائق ، والقليل الذى نعرفه من **تاريخ الفتاش** يسمح لنا بأن نفترض وجود إدارة عالية التنظيم لديها ، إذ يقدم ، على سبيل المثال ، قائمة بالمناصب الهامة يمكن منها أن نلم بفكرة عن هذا النظام الإدارى ، فقد كان هناك نواب الملك الثلاثة :

الكُرْمِنَ فارِ : ويقال عادة الكنفار – نائب الملك فى كُرْمِنَ ، وعاصمته تِنْدرمَ .

الدِنْدِ فار : نائب الملك فى دند فى الجنوب .

الباغن فار : نائب الملك عند الحدود الشمالية والغربية ؛ ويسيطر على الحدود المتاخمة لمالى .

كذلك كان هناك الأمراء التابعون الآتون :

بَرَكُىْ

بَنِ كُىْ

دِرِمَ كُىْ

تمبكتُ كُىْ

تَرتَنْكُىْ

كَرَكُىْ

چِنكُىْ

هُنْبرِكُىْ (١٤)

مَقْشَرَنْ كُىْ

---

(١٤) «وأما دِرِمَ كى سندى ، وترتنكى ، وبن كى ، وكُركى ، وچنكى وغيرهم ...» المرجع نفسه ، الصفحة ٥٤ . « هُنْبِرِكُىْ مُنْسَ ... » المرجع نفسه ، الصفحة ١٨٠ .

ويشير تاريخ الفتاش إلى الحملات التي وجهت ضد تمبكت وچنى ، ويقول صراحة إن چنكُىْ ظل يحكم مملكته حتى بعد الغزو .[١٥]

وكان بلمع أكثر الزعماء العسكريين أهمية ، ويشغل منصب قائد عام الجيش ، وتحت إمرته ضباط كثيرون أهمهم :

١ - **الأسكيا** : كان لقبا حربيا إلى أن اضطلع أسكيا محمد بالسلطة العليا .[١٦] وينكر الفتاش أن أسكيا باغَنَ قاد جيشا ضد تُسُكُ[١٧] ، كما يشير إلى محمد الذى خلف باغن فى منصب الأسكيا على أنه قائد فى الجيش .

٢ - **المارِنْفَ** : بعد أن أصبح أسكيا لقبا لملوك الأسرة الحاكمة يبدو أن وظائف ذلك المنصب مارسها المارنف ، فاسحاق ، على سبيل المثال ، قام بترقية أخيه محمد هاو من منصب المارنف إلى منصب بلمع .[١٨]

٣ - **تَرَعْ فَرْمَ**[١٩] : رئيس الخيل .

٤ - **ديينا فَرْمَ**[٢٠] : قائد المقدمة .

---

(١٥) «أرسل رسوله إلى تنبكت وهو فى بلد چنَّ يحاصرهم واتاه بأن أهل تنبكت يهربون ...» المرجع نفسه ، الصفحة ٤٨ .

« وچنكُىْ من أصغر عبيد ملِكى وارذل خدمه وحسبك أنه لا يقف إلا على زوجته أى زوجة ملكى ولها يعطى غرامة إقليم چنى . » المرجع نفسه ، الصفحة ٣٧ .

(١٦) « فانظر اسم اسكى فى وقت شى وزمنه وهو بخلاف ما عليه الناس بأن اسكى هو أول من لقب به . » المرجع نفسه ، الصفحة ٤٦ .

(١٧) « ثم اخرج اسكى يغن وارسله إلى تُسُكُ .. وهزم تُسُكُ جيش اسكى بغن . » المرجع نفسه ، الصفحتان ٥ و٤٦ .

(١٨) « واطلع أخاه محمد كاغ ماوِنْفَ وجعله بلمع . » المرجع نفسه ، الصفحة ١٤٥ . [محمد كاغ هو محمد غاو ، وقد ورد خطأ فى المتن محمد هاو .]

(١٩) « ومن أولاد تَرَعْ فَرْمَ الفك . » المرجع نفسه ، الصفحة ٨٠ .

(٢٠) « وذلك أن ليس له أحد فى جنده يفرش له فى مجلسه الا چنكى . » المرجع نفسه ، الصفحة ١١ . [چنكى هو ديناكى أو ديينا فرم .]

٥ – تُنْدِ فَرْمَ [٢١] : قائد الجبل ، وقد تولى أسكيا محمد هذا المنصب قبل أن يصبح أسكيا .

٦ – كُرَىْ فَرْمَ [٢٢] قائد المعسكر .

٧ – كُتَلْ فَرْمَ
٨ – كِسَرِبَنْك
٩ – حَصَلْ فَرْمَ

واجبات هذه المناصب غير معروفة ، ولكنها بوضوح ألقاب حربية ، فحصل فرم ، على سبيل المثال ، أرسل لمطاردة الثائر بلمع صادق . [٢٣]

وكان الأسطول صغيراً نسبياً ، وليس به سوى ضابطين لهما بعض الأهمية ، وكان الهيكُىْ هو قائد الأسطول [٢٤] ، وله أهمية بالغة ، حتى أنه أسندت إليه القيادة المستقلة لأحد الجيوش فى عهد سنّ على ، وكان الضابط الآخر هو الحارِ فرم [٢٥] رئيس الملاحة .

وإلى جانب هؤلاء الضباط العسكريين ، الذين يبدو أنهم يشاركون فى الإدارة المدنية ، كان هناك عدد كبير من الوزراء الذين يتولون الإدارات المختلفة ، ومن بينهم :

---

(٢١) « وفى هذا الجيش اسكى محمد وهو ملقب يومئذ بتندفرم . » المرجع نفسه ، الصفحة ٤٦ .

(٢٢) « وكرى فرم علو . » المرجع نفسه ، الصفحة ١٤٨ .

(٢٣) « وفيه أخوه عمر كمزاغ وهو يومئذ كتل فرم . » المرجع نفسه ، الصفحة ٤٦ .

« ولا من يناديه باسمه (الحاج محمد) فى مجلسه إلا كسربنك . » المرجع نفسه ، الصفحة ١١ .

« واختار من قومه خمسين فارسا وأمر عليهم حصل فرم علوا ... ولحقهم حصل فرم هنالك وخيول أصحاب بلمع (صادق) فى المرعى يأكلون الحشيش ودخل حصل فرم وقومه بينهم وبين خيولهم وجمالهم وهنالك أخذوا جميع من معه وما معه من الجوارى والبسط وقبضوا جميع من تبعه إلا بلمع وحده فإنه رمى فرسه فى بحيرة كُيم . » المرجع نفسه ، الصفحات ١٣٧ إلى ١٣٩ .

(٢٤) « وفى الجيش هيكى انظر أيضا اسم هيكى فى دولته وهو أيضا بخلاف ما يقولها أهل سنغى بانه لم ينشأ إلا فى زمن اسكيا محمد وذكروا سبب تلقيب هيكى بذلك . » المرجع نفسه ، الصفحة ٤٦ .

(٢٥) « وحار فرم عبد الله ... » المرجع نفسه ، الصفحة ٧٤ . [حار فرم بلغة السنغى معناه وزير المياه . أى المسئول عن شرطة الأنهار والبحيرات ومصايد الأسماك الخ .]

فار مَنْذْ : ربما كان أهم منصب مدنى فى الإمبراطورية ، وقد شغله كل من إسماعيل وداوود قبل ارتقائهما العرش ، ومن المحتمل أنه كان مسؤولاً عن الشؤون الداخلية .(٣٦)

ونيفرم : وزير الأرض .

باكل فرم : وزير الزراعة .

سع فرم : وزير الغابات .

كَلِسفرم : وزير الخزانة .

بَتَفرم : وزير المرتبات (مرتبات الجند والموظفين) .

باركى : وزير المبادلات (التجارة) .

نَعَىْ فرم : وزير المشتريات .

أرمـيز :
جَيْمَكُىْ :
} وزيرا الأشغال العامة ، عهد إليهما ببناء تندرم .

كُرُىْ فرم : وزير البيضان .

وَرُكى فرم : وزير التموين .

كارْ فرم : وزير العدل .

لَتِنْ فرم : دلالة هذا المنصب غير معروفة .(٣٧)

---

(٣٦) « وكان فى أيام اسكى إسماعيل قحط وجوع وكان فار منذ يوم ينتقل ويطلع اسكويه . » المرجع نفسه ، الصفحة ٨٧ .

«فأجابه كبيرهم وهو فار منذ . » المرجع نفسه ، الصفحة ١٠٥ .

(٣٧) ونيفرم : «ونيفرم ...» ، الصفحة ٧٤ .

باكل فرم : ورد اسمه خطأ فى النص الإنجليزى وصحته بابل فرم . « وبابل فرم قَعَمَ ...» الصفحة ٧٩ .

سع فرم : «وقام سع فرم وقال ... » الصفحة ١٥٠ . [ورد شاع فرم أيضا فى موضع آخر من تاريخ الفتاش : «شاع فرم علوا . » الصفحة ٧٤ .

=

وإلى جانب ذلك كان للمدن والقرى أيضا موظفوها الخاصون بها ، فالقرية لها رئيسها المسؤول أمام رئيس المقاطعة ، المسؤول بدوره أمام حاكم الإقليم . أما المدن فكان لها نظام أكثر إحكاما وتعقيدا ، فكل مدينة تخضع لحاكم يعرف بالفَرْبَ .[٢٨] وكان حكام المدن عادة من سلالة الرقيق . ويشير الفتاش إلى حاكم كَبَرَ الذى تحدى سلطة بلمع ودعاه رقيقا متغطرسا .[٢٩] وكان تحت إمرة الفَرْبَ موظفون مختلفون يذكر كعت منهم :

مُنْذْ : مفتش شرطة المدينة أو رئيسها ؛

اشرع منذ : منفذ الأحكام ؛

تصر منذ : اختصاصه غير معروف ؛

بريوش منذ : المسؤول عن الأجانب ؛

كَبَرَ بَنْدَ منذ : المسؤول عن ضواحي المدينة ؛

= كلسفرم : «كلسفرم سليمان . » الصفحة ١١٨ .

باركى : «باركى بكر الزغرانى . » الصفحة ٦٥ .

دعى فرم : «دعى فرم سنَ . » الصفحة ١١٨ .

أرميز : «أن يأتيا تندرم ويتمان بناء سور داره والذى يتولى تلك البناء أرميزو واخاه باركى بكر الزغرانى ابنى دند فار . » الصفحة ٦٥ . وهكذا يتضح أن من عهد إليهما ببناء تندرم هما أرميز وباركى بكر، وليس أرميز وجيمكى كما ورد فى المتن . «وقام جيمكى داوود بن اسحاق . » الصفحة ١٥٠ .

كُرَىْ فرم : الوزير المسؤول عن شؤون الأسر البيضاء المقيمة فى المملكة والمسافرين العرب أو البربر . «كرى فرم مور موسى » . الصفحة ٧٩ .

وَرْكى : «ورْكى حمَاده » الصفحة ١١٨ .

كلزَ فرم : «كازَ فرم بكَرْ» ، الصفحة ١١٨ .

لَنْتَن فرم : «لنتن فرم بكَر» ، الصفحتان ١٠٥ ، ١١٨ .

(٢٨) الفَرْبَ : كلمة بلغة المندنفو ، وقد تكون اسما لشخص أو لقبا ، ومعناها الرئيس الكبير . «ثم أمر بعبده الذى هو رئيس عبيده وقومه المسمى فرب» الصفحة ٣٤ .

(٢٩) «وقصة ذلك .. إن كبر فرم كان غلاما (حاكما) لاسكى على كَبَرَ على عادتهم ومسكن بلمع ودار سلطنته هى كبر .. وكان كبر فرم علوا هذا ظلوما غشوما خصيا فاجرا مسيطرا جاهلا جبارا عتيدا ... » ، الصفحة ١٢٦ وما بعدها .

يوبُ كى : رئيس الأسواق .[٣٠]

ولدى إمبراطورية السنغى أيضاً عدد كبير من الموظفين الملحقين بشخص الإمبراطور ، أهمهم أسكيا الفع[٣١] رئيس المجلس القضائى الخاص بالملك والمعلم الملحق بالأمبراطور ، ويعمل تحت إمرته عدد كبير من الكتبة ، من بينهم :

١ – بارِيْكُىْ : رئيس المراسم والمشرف على الاحتفالات ؛

٢ – هُك كُرَى كى : الخصى الرئيسى (رئيس خصيان القصر) ؛

٣ – هو كُركى : الأمين العام للقصر ؛

٤ – وَنْدَع : المترجم ؛ وربما كان المتحدث الرسمى باسم الملك ؛

٥ – غارشغ : المشرف على الخيل ؛ وربما يعهد إليه بالإشراف على الاسطبلات الملكية .

٦ – زَنْغَ : اختصاصه غير معروف ؛

٧ – طُرْكُىْ : الحلاق الملكى .

٨ – جَيْمكى : رئيس خدم القصر ؛

---

(٣٠) «تنبكت منذ والبريوش منذ وكُبُرّ بند منذ . » الصفحة ١١٠ . [البريوش قبيلة عربية من قبائل موريتانيا الرئيسية .]

اشرع منذ لقب يستخدمه السنغى بمعنى رئيس الشرطة أو منفذ الأحكام ، «هو مكون من كلمة شرع (شريعة) التى انتشر استخدامها فى لغات السودان فى صورة الشرع . » هكذا قاله بابا اشرع منذ بمدينة جنى .. » الصفحة ٢٥ .

«وأصحاب اسكى الذين كانوا سكان تنبكت منذ وتصر منذ . » الصفحة ١٢١ .

ورد بحاشية بالصفحة ٢٠٢ من الترجمة الفرنسية لتاريخ الفتاش أن بريوش منذ هو المسؤول عن شؤون البريُوش العرب . و«والبريوش منذ .. » الصفحة ١١٠ .

«ويجد بُوبُ كى وتنبكت منذ والبريوش منذ وكُبُرّ بَنْدّ منذ . » الصفحة ١١٠ .

(٣١) أسكيا الفع : سكرتير اسكيا داوود وخلفائه . عرف باسم اسكى الفع الانبارى ، وكذلك باسم بكر لنبار . « اسكى الفع بكر الانبارى . » ، الصفحة ١٠٤ « وبكر لنبار أسكيا الفع هو الكاتب . » الصفحة ١٢٤ .

٩ – فَنْفَ : رئيس الرقيق . وكان عدد الرقيق كبيرا ، وكان لهم دور هام فى إدارة الممتلكات الملكية . (٣٢)

ويشغل الأمراء غالبية المناصب الهامة فى الدولة . ويصدق ذلك بوجه خاص على مناصب الوزراء . ويذكر الفتاش أنه فى خلال عهد أسكيا محمد شغل مناصب باغن فرم وكلسفرم ونيفرم وسع فرم وكرى فرم وحار فرم هذا أو ذاك من أبنائه . (٣٣) وقد شغل إثنان من أبناء كرمن فار عمر منصبين لهما أهمية كبيرة هما : باغن فار وترع فرم . (٣٤) كذلك يتعين توفير مناصب مناسبة لأبناء الملوك الذين لا يحصى لهم عدداً . فمثل هذه الوظائف هى التى تضمن ولاءهم . والبنات بدورهن لا يمكن تجاهلهن ، كما يمكن بطبيعة الحال أن يتزوجن بالأمراء التابعين . وهكذا فإن إحدى بنات أسكيا محمد تزوجت ببلمع هنبركى ، وتزوجت

---

(٣٢) «ثم نادوا باركى وهو كركى وبطانته وبعض كبراء الجيش . » الصفحة ١٣٢ . « وباريكى تبكل الخصى . » الصفحة ١٤٨ . وردت هنكرى كى أيضا فى تاريخ الفتاش . «ومن أمراء النواحى ابنه اسكى موسى وهنكر على فَلَنْ وغيرهم . » الصفحة ١٦ .

«ومعه ثمانمائة رجل من الجندى منهم ابنه اسكى موسى وهك كرى على فلان . » الصفحة ٦٥ .

وندع : المترجم بلغة السنغى . «وقال لترجمانه وندع قل لهذه الجماعة . » الصفحة ١٤٥ .

غارشغ : سرّاج أو مرتّق السروج ، «فقال أنا غارشغ بكر فقال انت من جندى قال نعم . » الصفحة ١٠١ .

«فقال (اسكيا داوود»)... فقال إلى من وفى أى شىء فقال العبد بعثتنى لحمل ميراث خديمك زنغ موسى سَكَنْسارُ» الصفحة ١٠٢ .

طركى : حلاق بلغة السنغى . «سرق ملحفة بعض جواريه اسمها غُنْفَى أم طُرْكُى بُرِ .» الصفحة ١٣٦ .

جيمكى : رئيس العمال بلغة السنغى ، المسؤول عن الأشغال العامة ، ويقال أيضا رئيس ميناء غَيّمَ فى أطراف مدينة غاو . «وقام جيمكى داوود بن اسحاق ....» الصفحة ١٥٠ .

فَنْفَ : والجمع فنافى «وليس فى قرية من قرى ما ذكرناه إلا وله فيه عبيد وفنف وحرث فى تحت يد بعض الفنافى ... والفنافى جمع فنف ، وهو رئيس العبيد ويقال أيضا لرئيس السفينة .» الصفحتان ٩٤ و٩٥ . «اعطاه الحرث والعبيد وفنفيهم .» الصفحة ١٠٩ .

(٣٣) «ثم أمر بأن ينادى كل من حضر هنالك من أولاده كلس فرع سليمان كند تكرى ونيفرم موسى يَنْبل وشاع فرم علوا وحار فرم عبد الله وكتفار على كسل .» الصفحة ٧٤ .

(٣٤) «وأما كرمن فار عمر قد ولد أولاداً كثيراً إلا إن أكثرهم لم يصب اسما ولا موضعا يشتهر به غير أنهم كلهم شجعانا أهلى القتال ... ومن أولاده ترع فرم الفك ... وباغن فار عبد الرحمن . » الصفحة ٨٠ .

أخرى ببلمع محمد كرى [٣٥] ، الذى خلفه ابنه محمد [٣٦] فى منصب بلمع . وأكثر بنات عمر أهمية زوجة بركى وزوجة الأمير يعقوب الذى تولى منصب كرمن فار فيما بعد . وعند موت كرمن فار يعقوب تزوجت أرملته باسكيا داوود [٣٧] . ولم تكن الوظائف الهامة توفر لأبناء الحاكم وحدهم ، وإنما لأبناء الأمراء الآخرين أيضا . فبنغفرم محمد حَيْغَ [٣٨] هو ابن حار فرم عبد الله . كما أن اثنين من أبناء دندفار شغلا خلال عهد أسكيا محمد منصبى ارميز وبركى [٣٩] ، وكان بركى ، عند ارتقاء أول أسكيا العرش ، يشغل وزارة هامة ، كما تزوج بابنة عمر .

ولا يقدم الفتاش تفاصيل عن شاغلى المناصب خلال عهود خلفاء أول أسكيا ، ولا تتوفر أية تفاصيل أخرى إلا خلال عهد أسكيا داوود ، وهى تفاصيل تؤكد أن المناصب الرفيعة كادت أن تكون وقفًا على الأمراء . ففى عهد داوود شغل منصب كرمن فار على التوالى ثلاثة من أبنائه ، كما شغل منصب بلمع إبنان أخران . [٤٠] ومن المناصب الأخرى التى شغلها أبناء الأمبراطور بَنَ فرم ،

---

(٣٥) «ومن بناته ... حاو دمكى أم هنبركى مُنْسُ .» تاريخ الفتاش ، الصفحة ٨٠ .

«ومن بناته ... حاو داكى أم هنبركى مُنْسُ .» تاريخ السودان ، الصفحة ١٣٤ .

«وجعل هماد ولد أرْيَ بنت أسكيا الحاج محمد كرمن فارى ابن بلمع محمد كرى .» المرجع نفسه ، الصفحة ٩٤ .

(٣٦) صحة الاسم هنا حماد : «ثم حماد أريو بن بلمع محمد كرى .» المرجع نفسه ، الصفحة ١٣٥ .

«ثم استخلف بعد هروب كنفار عثمان فى كنفاروية كرمن فار حماد بن أريو بنت اسكى محمد وأبوه بلمع محمد كرى .» تاريخ الفتاش ، الصفحة ٨٧ .

(٣٧) «وبناته كَبِّرَ تزوج بها كنفار يعقوب ثم تزوجها اسكيا داوود بعد موت يعقوب .» الصفحة ٨٠ .

(٣٨) «ثم تولى اسكى اسحاق بعد موت اسكى إسماعيل وهو وحار فرم عبد الله شقيقان أمهما كلثوم ... وحار عبد الله والد بنغفرم محمد حَيْغَ .» المرجع نفسه ، الصفحة ٨٧ .

(٣٩) «وأمر اسكى محمد بلمع محمد كرى وبنكفرم على كندا نكتكى أن يأتيا تندرم ويتمان بناء سور داره والذى يتولى البناء أرميز وأخاه باركى بكر الزغرانى ابنى دندفار .» الصفحة ٦٥ .

(٤٠) «ثم كرمن فار مربنكن بن داوود عقب يعقوب ثم عزل حين مات أبوه اسكى داوود ... ثم كرمن فارى الهادى بن اسكى داوود تولى كنفاروية بعد مربنكن المذكور ... ثم تولى بعده كنفار صالح ابن اسكى داوود .» الصفحة ١٨٦ .

لنان فرم ، دعى فرم ، ونيفرم ، كارفَرم ، وركى فرم ، حار فرم ، ويشير الفتاش إلى ثلاث فقط من بناته تزوجن بالحكام الذين يدفعون الجزية والمعلمين .

أما برنو فكانت منظمة بطريقة مختلفة ، إذ كان لها طابع إقطاعى أكثر وضوحا . وفى أيام برنو الأولى كان أهم الأشخاص فى المملكة هم الأمراء الإقطاعيون الأعضاء فى المجلس الأعلى . وفى البلاط تمارس **الماجيرا** (٤١) ، الملكة الأم ، والغوسما ، الملكة ، نفوذاً كبيراً . وللأمراء والمعلمين والرقيق بدورهم أهمية كبيرة فى البلاط . ويتكون مجلس الملك من طبقتين : طبقة **الكاروبى** ، أو المستشارين الأحرار مولدا ؛ طبقة **الكاتشيلا** أو الرقيق . ومع ذلك فقبل حروب البولالا كان المجلس الأعلي مكوّنًا من أمراء المملكة الذين يقبضون على السلطة كلها . ويتكون المجلس الأعلى من الموظفين الآتين :

١ – الكيغامة – القائد العام للجيش ؛

٢ – البريمة ؛

٣ – المونييومه ؛

٤ – الغلديمة ؛

٥ – التشيرومة – ولى العهد ؛

٦ – الأريچينومة ؛

٧ – الفوفومة ؛

٨ – الكاضِلمة ؛

---

(٤١) الماجيرا : الملكة الأم الشرعية ، ولكن ليس من الضرورى أن تكون الأم الحقيقية للماى ، وسواء حكم إبنها ، إن كان لها أبناء ، أو حكم شخص آخر ، فإنها تظل محتفظة بلقبها ومنزلتها وسلطتها ، ولها الكلمة النافذة فى شؤون الحكم . وقد قضت الماجيرا فاطمة بحبس إبنها الماى (حوالى عام ١٩٧٧) لسوء إدارته فى شؤون الحكم . وكانت الماجيرا عائشة أم الماى إدريس ألوما تمارس مهام الحكم الإسمى والفعلى خلال فترة وصايتها على إبنها فى الفترة ١٥٦٣ – ١٥٧٠ . (عن الدكتور طرخان ، المرجع السابق) . ومن المشهور فى دولة البرنو الإسلامية نسبة الماى إلى الأم بسبب سمو منزلة النساء عندهم ، وأمثلة ذلك كثيرة فى الفصل السادس أعلاه .

٩ – الكاغوستمة ؛

١٠ – البغارومة .

هؤلاء النبلاء هم الحكام الوراثيون لمختلف مناطق الإمبراطورية ، وينبغى أن يضاف إثنان من أبناء الرقيق :

١١ – المسطريمة ؛

١٢ – اليرومة .

ومرة أخرى فإن الإدارة فى إمبراطورية الفولانى مختلفة عنها فى الدول الأخرى . فقد أنعم عثمان دان فوديو براية الجهاد الخضراء على أفراد كثيرين . وكان هؤلاء يقومون مع أبنائهم بغزو الأقاليم ، ولكنهم كانوا يعترفون بأمير المؤمنين بوصفه رئيس الإمبراطورية . (٤٢) وكان أمراء الأقاليم حكاما مستقلين فى كل الأمور الداخلية ؛ بل إنهم يشنون الحرب ويقيمون علاقات خارجية خاصة بهم . ولم تكن هناك سياسة متناسقة أو إدارة . فكل رئيس قرية يبت فى كل الأمور المتعلقة بالقرية ، كما يقوم بتحصيل الضرائب التى يرسل ما يتبقى منها بعد اقتطاع حصته إلى رئيس المقاطعة . وهذا الأخير له نفس الوضع بالنسبة للأمير . وبينما يقوم الأمير بتحصيل الإيرادات فإن الجزية الخاصة بسكتو يقوم بتحصيلها موظفو السلطان . ويعهد بتحصيل الجزية من المناطق إلى موظفى سكتو المختلفين ، فالغلديمة ، على سبيل المثال ، مسؤول عن تحصيل الجزية من زمفرا وكاتسنا .

ولم تكن الجزية منتظمة أبدا ، وبخاصة من المناطق الشمالية والشرقية الدائمة الاضطراب . فبينما كانت زاريا تدفع الجزية كل شهرين ، فإن كاتسنا

---

(٤٢) «ثم بعد نحو عام جهز أمير المؤمنين جيشا وأعطى الراية محمدا فساروا مع جيش قليل ...» تزيين الورقات ، الصفحة ٧١ .

«فلم يفجأنى إلا صائح : السلاح السلاح ، واصباحاه ، فغرزت الرايات حتى يأخذها أمير الجيش قائد الجيوش .» انفاق الميسور ، الصفحة ١٠١ .

«ثم أنه لما اطمأننا أياما ، خرجت بالراية فى طلب القوم ، فسلكت الشمال ...» المرجع نفسه ، الصفحة ١١٠ .

كانت تستطيع دائما انتحال الأعذار لعدم دفع الجزية بحجة أن الحرب مع غوبر ومارادى تأتى على كل إيرادات المنطقة ، وأن دفع الجزية يُحمِّلها ما لا تطيق . كذلك لم تكن زمفرا أفضل حالا ، إذ بينما كان لكاتسنا على الأقل أمير مسؤول عن المنطقة كلها ، فإن الحالة المضطربة فى زمفرا ألزمت حاكم كل مدينة محصنة أن يدين بولاء مباشر للسلطان .

ولم يترتب على غزو الفولانى لأراضى الهوسا أى تغيير فى النظام الإدارى لمختلف ممتلكاتهم . ففى كانو مثلاً ظلت المناصب القديمة على ما هى عليه ، وإن شغلها حكام جدد . وكان الغلديمة أكثر الموظفين أهمية ، ويقول بارث إن نفوذه يفوق نفوذ الأمير نفسه .

وكان كبار الموظفين هم : السيركين دواكى – المشرف على شؤون الخيل ؛ الباندن كانو – قائد المشاة ؛ الألكالى – القاضى ؛ التشيروما – الوارث الشرعى ؛ السيركين باى – رئيس الرقيق ؛ الغادو – المشرف على بيت المال ؛ السيركين شانو – الأمين العام للإمدادات والتموين فى الجيش . وخلال غياب الأمير لا يعهد بالسلطة إلى الغلديمة وحده ، وإنما بمشاركة الغادو والسيركين شانو .

وفى منطقة الغابات لم يكن الحكم ديمقراطيًا ، فالطابع المفكك للمجتمع يعنى أن يكون لكل عشيرة رئيسها ، وأن تتوحد العشائر وقت الحرب تحت قيادة رئيس أعلى . ولما كانت السلطة مجزأة على هذا النحو فإن القرارات المتعلقة بالقبيلة لا يمكن اتخاذها إلا عن طريق التشاور ، ولذلك يجتمع الرئيس الأعلى مع كبار السن للبت فى جميع المسائل الهامة .

وهذا التنظيم كان كافيا لقبيلة ، ولكن كانت توجد على شاطىء المحيط دول مثل داهومى وبنين وأشانتى ، وهى دول تتطلب نظاما أكثر تعقيداً . ويمكن أن نأخذ داهومى مثالا ، على الرغم من أنها من نواح كثيرة لا تصلح نموذجا . فملوكها ذوو سلطة مطلقة ، وقد اكتسبوا بمرور الزمن قدسية كبيرة باعتبارهم أصلا زعماء لأبناء بلادهم . كما تعزز مركزهم الدنيوى عن طريق عبادة الأسلاف التى مكنت كل ملك حى من الاعتماد على أسلافه المقدسين . والملك

محور السلطة كلها ، ويمكن أن نلمس سلطاته المطلقة من حقيقة أنه يستطيع تحويل الزنجى إلى رجل أبيض ، ولم يكن هذا بطبيعة الحال يعنى تغيير لون بشرته ، وإنما الإنعام عليه بوضع معين ، فيستطيع أن يرتدى بنطلونا وأن يحمل مظلة من طراز أوروبى .

ويلى الملك فى سلم السلطة الأمراء الملكيون ، ويلى هؤلاء كبار موظفى الدولة ، ومنهم «مين غاو» أعلى الضباط المدنيين ويشغل منصب رئيس الشرطة ؛ ويليه «غاو» – القائد العام للجيش . وكان «ماو» – قائد الميسرة والشخصية ذات المرتبة الثانية فى المملكة – هو المتحدث الرسمى باسم الملك والمسؤول عن إعلان الحرب وتحصيل الإيرادات واستلام الجزية . أما الشخصية ذات المرتبة الثالثة فى المملكة فهو «يوغاو» أو نائب الملك على الساحل ، بل هو عينا الملك وأذناه ، ويشرف على المقيمين الأجانب وعلى تجارتهم . وكانت الشخصية ذات المرتبة الرابعة فى المملكة هى الخصىّ الرئيسى ، وكان رئيسا للقصر ومشرفا على أهل البيت الملكى .

وفى داهومى لم يكن الموظف فرداً أبداً ، وإنما كان إثنين دائما ، فحتى الملك كان مزدوجا – ملك للريف وآخر للحضر . ولم يكن ذلك ازدواجاً فقط ، وإنما كان شخصين فى شخص واحد . فكل موظف كان مزدوجاً ، موظف للملك الحى وآخر للملك الميت .

والكابوسيرات ، كما يعرف موظفو المقاطعات ، هم مجرد موظفين إداريين ، حتى عندما يكون الكابوسير مسؤولا عن منطقة هامة . ومع ذلك فإن السفالو يعد استثناء لهذه القاعدة ، فهو يشرف على الطريق إلى ماهى ، ولذا فإن للحاكم حقوقا معينة يترك تقديرها للظروف . ولكن ليس باستطاعة أحد ، حتى نائب الملك ، أن يحكم بإعدام أحد رعايا داهومى .

وتتم الاتصالات بين العاصمة ويوفا – مخفر الحدود مع مالى عند الشمال الغربى – بوساطة عدائين يقفون عند محطات بينها مسافات منتظمة .

ثانيا

كانت إمبراطورية البرنو على نقيض ملحوظ مع إمبراطورية السنغى ، فعلى الرغم من أن هذه الإمبراطورية بدأت كملكية إقطاعية ، فقد اتجهت فى فترة العصور الوسطى نحو المركزية ، وقطعت المركزية فيها شوطا أبعد بكثير من الشوط الذى قطعته فى منطقة السنغى . وقد شهدت حروب البولالا أفول الدولة الإقطاعية وظهور ملكية مركزية . كما أن عهود أباطرة البرنو الثلاثة العظام التى استغرقت القرن السادس عشر قد شهدت تدعيم الدولة ، وهو تدعيم تحقق من خلال سلسلة من الإجراءات . أولها إنشاء جيش عامل فرقته المختارة هى حرس القصر المكون بأكمله ، حتى ضباطه ، من الرقيق ، والذى يتولى تدريب أفراده على استعمال الأسلحة النارية مدربون أتراك . ثانيها انتزاع الإمبراطور للسلطات القضائية من الرؤساء القبليين وحكام المقاطعات ، وتعيينه قضاة يشغلون مناصب دائمة فى الإمبراطورية . ثالثها تحصيل الإيرادات لمواجهة الانفاق على الجيش والإدارة ، وهو ما يعنى أن رجال الملك قد زادوا سلطتهم . فضلا عن ذلك أدت حروب البولالا إلى انحلال فى الإقطاع الذى كان قد نما فى برنو ؛ ففقد بعض الأمراء مقاطعاتهم ، وأصبحوا شاغلى مناصب مرموقة ، ولكن دون سلطة فعلية . غير أن البعض ، مثل الغلديمة ، الذى لم يتأثر بحروب البولالا ، لم يحتفظ بمكانته فقط ، وإنما بسلطته أيضا ، وعدد هؤلاء قليل . وعلى غرار النبلاء الفرنسيين فى عهد «العاهل العظيم» (٤٣) تدفق نبلاء البرنو إلى مناصب البلاط وإلى الحروب .

وفى بطء أفل نجم الأمراء الإقطاعيين ، ونشأ البيروقراطيون الرقيق . وفى الجيش ربما سار التحول بسرعة لا بأس بها ، ولكنه سار ببطء فى مستويات

---

(٤٣) GRAND MONARQUE : ربما يكون المقصود هنا هو لويس الرابع عشر الذى حكم فرنسا فى الفترة ١٦٤٣ - ١٧١٥ ، والذى يلقب «بالملك الشمس» «لويس الأكبر» . رفع الملكية إلى ذروة مجدها ، وحول الدولة إلى ملكية مطلقة ، فقد أكره النبلاء على الاعتماد على الملك فى أرزاقهم وفى الاحتفاظ بمراكزهم ، وأنقص سلطات ولاة الأمور المحليين .

الإدارة العليا . ومع بداية القرن الثامن عشر ازدادت أهمية الرقيق حتى سيطروا على الإدارة فى القرن التالى .

وأدى التدهور فى سلطة كبار ضباط الأقاليم إلى ظهور فريقين : أحدهما فريق الكوغانة - المستشارين الأحرار مولداً - الذين يمثلون مختلف المجموعات العرقية والإقليمية ؛ ثانيهما وأكثرهما أهمية فريق الرقيق ، وبخاصة ضباط الجيش المعروفون بالكلاتشيلا . وفيما عدا المونبيوما ، فإن جميع الضباط الذين قابلهم بارث ينتمون إلى هذه الطبقة . ويذكر ناختيغال [44] إثنين وأربعين من هؤلاء الرؤساء وستة عشر من حملة البنادق وخمسة وعشرين من رماة الرماح وواحدا من رماة السهام . ويسمح لنا ذلك بأن نلم بفكرة عن جيش برنو الذى كانت قوته الرئيسية تكمن فيما لديه من رماة الرماح ، ومع ذلك كان حملة البنادق هم الأكثر أهمية ، إذ أن البندقية كانت أداة فعالة فى ترسيخ سلطة برنو . وفى الوقت الذى دعم فيه الكانمى سلطته كان الرقيق ، موظفين مدنيين كانوا أم جنودا ، قد أحكموا قبضتهم على البلاد . كما أن مجلس الملك الذى اشترك فيه أشراف المملكة ، المانياوات ، والمستشارون الأمراء مولداً ، قد تحول بعد حروب البولالا إلى هيئة صورية ، فالسلطة تركزت فى يد الإمبراطور ويمارسها الرقيق الذين يحيطون به . وفى البلاط احتفظ المستشارون الأحرار مولداً وكبار الأمراء بمكانتهم ، ولكن سلطتهم كانت محدودة . وفقد أعظم لقب بينهم ، الكَيْغامة ، القائد العام للجيش ، قيمته كلية ؛ إذ أصبح يمنح للرؤساء الصغار . والمهام التى أكسبت الكيغامة قوته فى الأيام الأولى أصبح يمارسها أحد الرقيق ، أما الخَصِيّان ، المسطريمة واليرومة ، فلم يزيدا سلطتهما فقط ، وإنما اضطلعا أيضا بإدارة مناطق مختلفة .

---

(٤٤) جوستاف ناختيغال : (١٨٤٣ - ١٨٨٥) مستكشف ألمانى ، أوفده ملك بروسيا فى عام ١٨٦٩ فى بعثة إلى سلطان البرنو ، فزار تبستى وبوركو ومناطق فى الصحراء الكبرى لم تكن معروفة للأوروبيين . ومن برنو ذهب إلى باجرمى ، ثم وصل إلى الخرطوم فى عام ١٨٧٤ ماراً بكردفان . وصف رحلته فى كتاب بالألمانية عنوانه SAHARA UND SUDAN . أوفده بسمارك كمفوض خاص إلى غرب إفريقية حيث قام بدور هام كانت نتيجته ضم توجولاند والكمرون إلى الإمبراطورية الألمانية .

ويمنح القادة العسكريون وموظفو البلاط والأمراء والأعيان مقاطعات حسب أهميتهم . من ذلك أن الملكة الأم تضع يدها على أربع وعشرين مقاطعة مع إيراداتها ، ويحصل القادة العسكريون الذين يعهد إليهم بالدفاع عن الحدود على نصيب أكبر . ولبعض القبائل ، وبخاصة الوثنيون والبدو ، مندوب مقيم في البلاط يمثل مصالحها ، ويحصل على راتبه من إيرادات القبيلة . ويشغل هذا المنصب عادة شخص أثير لدى السلطان . وفي بلاد الهوسا سيطر الرقيق على الإدارة ، وبخاصة منذ أيام محمد رومفا .[٤٥] فالأمير البرنوى دغاتشى حل محله أحد الرقيق . وبحلول منتصف القرن السابع عشر كان الرقيق قد وطدوا أنفسهم كطبقة إدارية ، وارتبط صعودهم بتدعيم السلطة الملكية .

وفيما عدا الأمراء الملكيون والرئاسات القبلية المحلية ، أصبح الرقيق أهم مجموعة في الدولة . وهم على غرار الانكشارية التركية والحرس البريتورى الرومانى كانوا السلطة الحاكمة الفعلية في البلاد ، لأن المناصب الإدارية والحربية يتم شغلها أساسا من بينهم . وهناك سببان لهيمنة الرقيق في الإدارة . أولهما أنه كان من تقاليد الحكام المسلمين أن يجندوا للإدارة والجيش أشخاصا لديهم ولاء تام لإمبراطورهم . ففي إمبراطوريات شمال إفريقية كان هذا الحرس البريتورى مكوّنا أساسا من أوروبيين ؛ وفي الهند كان الرقيق الأتراك والأفغان يزودون الحكام المسلمين الأوَل بحاجتهم من الكادر الإدارى . كما أن الاعتماد على الرقيق قد أملاه إلى حد ما يبديه الأمراء والرؤساء المحليون في كل مكان من اتجاه إلى عدم الولاء للحكومة الملكية المركزية . وكانت مزايا نظام الرقيق ذات شقين : أولهما أن الرقيق لا ولاء لديه إلا لمن ملكه ؛ ثانيهما أن هذا النظام أفسح الطريق للموهبة حيث المقدرة هي وحدها التي يُعوَّل عليها . وكان

---

(٤٥) محمد رومفا بن يعقوب : من أعظم ملوك أسرة الرنفاوية أو الريفاوية التى حكمت كانو فى القرن الخامس عشر ، وعهده من أزهى عهود كانو ، وخلاله حضر إلى كانو الإمام محمد المغيلى الذى تولى الإمامة والقضاء فيها ، كما حضر إليها من مصر الإمام جلال الدين السيوطى . (نقلا عن د. عيسى عبد الظاهر ، الدعوة الإسلامية فى غرب أفريقيا وقيام دولة الفولانى ، الزهراء للإعلام العربى ، الصفحة ١٧١ .) وهو الساركن العشرون فى كانو ، وقد حكم فى الفترة ١٤٦٣ – ١٤٩٩ .

باستطاعة الرقيق الارتقاء إلى أرفع المناصب فى الإمبراطورية ، كذلك كان للرقيق أهميتهم أيضا فى اقتصاد الدولة .

وللرقيق فى إمبراطورية السنغى أهميتهم فى المستويات الأدنى من الإدارة . والمعلمون هم الأشخاص المهمون حقًا فى الحكومة المركزية ؛ فقدرتهم على القراءة والكتابة ، وكذلك معرفتهم بالشريعة ، منحتاهم ميزة ساحقة . وهكذا شغل أحدهم منصب السكرتير الخاص للإمبراطور ، ومن ثم مستشاره الأمين ، ولذلك كانت أهمية الرقيق فى مجالات أخرى ؛ فهم المسؤولون عن أهل البيت الملكى ؛ كما أنهم رسل الملك ؛ ويشكلون الحرس البريتورى ، ويزودون الجيش بالجانب الأكبر من الجنود ، بما فى ذلك فيالق الصفوة ، بل إنهم فى المقام الأول يتحكمون فى الإيرادات . وفى أيام الأساكى الأخيرين أصبح الموظفون من الرقيق على درجة كبيرة من القوة حتى أن بلمع – وهو من كبار النبلاء فى الإمبراطورية – كان يمكن لأى رقيق أن يتحداه .

وإلى جانب ذلك يقدم الفتاش أمثلة لرقيق مرتبطين بالإدارة وتحصيل الإيرادات ، وشديدى الثراء ويمارسون سلطات هائلة . من ذلك أن مِسكَلّ الله [٤٦] ، وهو رقيق ، عهد إليه بالمسؤولية عن الإيرادات المتحصلة من مقاطعات معينة . وكان مِسكَلّ الله رجلا ثريا واعتاد أن يعيش كأى نبيل عظيم . وقد اتهم بالفساد وطالبه السلطان بأن يقدم ألف كيس من الغلال ، فعرض مِسكَلّ الله أن يقدم هذه الكمية من محصول العام السابق : وهو عرض أدهش السلطان الذى لم يكن لديه هو نفسه كل هذه الكمية فى مخازنه ، على حين كان لدى هذا الرقيق عدد كبير من «الشون» يختزن فيها الغلال ، ولذلك قدم الكمية المطلوبة دون مصاعب . [٤٧]

---

(٤٦) مِسكَلّ الله : يعنى بلغة السنغى من بوسعة أن يفعل أى شىء .

«ولهم رئيس يتفقون عليه اسمه مِسكَلّ الله ومعناه مِسّ كَلّ الله كل أمر كان ويكون من كل ما هو كائن فى الدنيا والآخرة الله هو مقدرة ومكونه سبحانه لا إله إلا هو ويحصد له من هذه المزرعة ألف صنون من الأرز ....» تاريخ الفتاش ، الصفحة ٩٥ .

(٤٧) بشأن هذه الواقعة انظر ، المرجع نفسه ، الصفحات ٩٥ إلى ١٠١ .

وقد قامت دول السودان ، ومن بينها برنو ، على الحكم المطلق ، ولذلك فإن الملك هو الشخص الأكثر أهمية . ويقوم الملك الحاكم عادة باختيار خليفته من بين إخوته وأبنائه ، ولكن مركزه يتوقف على تأييد الأمراء وكبار النبلاء . وفي كل من إمبراطورية السنغي والفولاني لم تكن وراثة العرش ، كما رأينا ، مقيدة بنظام معين . فأمير بارز مثل محمد بِلّْ يمكن أن يصل إلى السلطة دون حرب أهلية ، ولكن كثرة الأمراء أعطت كبار النبلاء ، وبخاصة قادة الجيش ، الفرصة للتآمر . ومع ذلك فإن هناك حدوداً لهذا التآمر ، فالحاكم لابد أن يكون من سلالة مؤسس الأسرة الملكية ، وهو شرط يتمسك به كبار حكام الأقاليم والأمراء . فعندما تحدى أسكيا محمد نفوذ شي بان لم يؤيد الأسكيا أحد من كبار موظفي الدولة أو كبار النبلاء ، فيما عدا استثناء بارز هو الأمير التابع بَرْكّي منسا موسى وابنه منساكورَ (٤٨) . وفي برنو بدورها لم يكن الشعب يكن حبًا صادقا لأسرة الكانمي الحاكمة ، على الرغم من أن الكانمي يعتبر محررا . وكان من القيود على سلطة الإمبراطور كثرة عدد الأمراء الذين يتحكم بعضهم في إيرادات وقوات مقاطعات بكاملها . وباستطاعة أعضاء الأسرة المالكة أن يعزلوا الملك وأن يستبدلوا به شخصا آخر . وإمكانية القيام بعمل كهذا كانت بطبيعة الحال وقفًا على أقرب الأقرباء ، كما أن من يخلف الملك ينبغي عادة أن يكون سليلا للأسرة المالكة . ومع ذلك فإن هناك استثناءً ملحوظًا هو مالي ، حيث وُجِد عدد من مغتصبي السلطة وقادة الجيش الذين صعدوا من صفوف الرقيق .

وفي مجتمع كهذا من الطبيعي أن يكون البلاط هو مركز السلطة . فالبلاط يوجد به الأمراء ومعظم الحكام ، فيما عدا الحكام المسؤولون عن الحدود . ويوجد في إميراطوريتي مالي والسنغي ، وكذلك في برنو ، تدرج في مراتب

---

(٤٨) دوله وزراء يومئذ تنيف على عشرة وزير منهم بركى منس موسى ..... وكلهم مع شى بار إلا منس كور وحده فإنه هرب إلى أمير اسكى محمد وبايعه .... وكان مع شى بار دندفار أفنب وهو من أشجع الناس .... وكان مع الحاج محمد مس كور المذكور ابن منس موسى . » الصفحتان ٥٤ و٥٥ . [شى بان الوارد إسمه فى المتن صحة إسمه شى بار .]

النبلاء . فبلمع أو القائد الأعلى له حق الجلوس على بساط في حضرة الإمبراطور ، كما أنه دون بقية النبلاء يظهر الاحترام للإمبراطور بالدقيق بدلا من التراب .[٤٩] كذلك فإن كرمن فار ، الرجل الأول في الإمبراطورية ، يعفى من خلع غطاء رأسه عندما يتترب .[٥٠] وقد أصبح كرمن فار أهم المناصب عندما أنعم أسكيا محمد على أخيه عمر - الكرمن فار - بلقب إضافي مماثل للقب «أمير الأمراء» عند أباطرة المغول ، هو لقب «كنفار» [٥١] . وبَرْكُيْ هو وحده الذي له حق معارضة السلطان ، سواء لقيت هذه المعارضة هوى لديه أو لم تلق . ودندفار له حرية الكلام [٥٢] ، كما أن لأحد الشرفاء امتياز الجلوس مع السلطان على سريره ، في حين باستطاعة القاضي استخدام الرسل الملكيين .[٥٣]

والامتيازات في برنو ذات ترتيب مختلف . فكبار النبلاء يتمتعون بامتياز تغطية سروجهم بقماش كبير يتدلى إلى الأرض ، والمرتبة الثانية تغطى سروجها بقماش يصل إلى نهاية كفل الحصان ، أما المرتبة الثالثة فلها حق تغطية سروجها بقماش أبيض .

وفي برنو ، كما في إمبراطوريتي السنغي والفولاني ، كان الرؤساء العسكريون أقوياء . فالقائد العام لجيش برنو يتمتع بسلطات هائلة ، ويعتبر أبناؤه، على غرار أبناء الماى ، أمراء للإمبراطورية . وعلى الرغم من أنه لا يستطيع أن يصبح الماى ، فبمقدوره أن يؤثر في الأمراء بدرجة تكفي لأن تجعل

---

(٤٩) اعتقد أن المقصود هنا هو «جنكي» وليس بلمع . «وذلك أن ليس له أحد من جنده يفرش له في مجلسه الاجنكي وكلهم يحملون له التراب إلا جنكي فإنه لا يحمل له إلا دقيق الطعام» الصفحة ١١ .

(٥٠) «وكلهم يقلعون الطاقية عند حمل التراب إلا كرمن فار . » الصفحة ١١ .

(٥١) «وتولى عمر كمزاغ الكنفاروية وذلك في تلك السنة وهو أول من تسمى بهذا الاسم ولم يكن قبل ذلك بخلاف بلمع وبنكفرم فإن اسميهما موجودان منذ زمن شى .... » الصفحة ٦٢ .

(٥٢) «وليس فيهم من يتعدى عليه بقول الصدق إلا دندفار ولا فيهم من ينهاه عن أمر ويتبعه أحب أم كره إلا بَرْكُيْ» الصفحة ١١ .

(٥٣) «ولا في أرضه من ينادي عبده ويرسله بأمر ولا يقدر أن يأبى ويفعل له في الأمر ما يفعل في امراسكي إلا القاضي ... ولا من يجلس معه على سريره إلا الشرفاء ...» الصفحة ١١ .

منهم أداة سهلة الانقياد . وكانت الكلمة الحاسمة فى اختيار السلطان فى إمبراطورية الفولانى بدورها هى للقائد العام للجيش . ولكن سلطة الإمبراطور فى برنو تحد منها بصورة فعالة سلطة أمراء الأقاليم : اليريمة الذى يحرس التخوم الشمالية ؛ الغلديمة حاكم الغرب ونائب الملك هناك ، والذى لا يتحكم فى المقاطعات الغربية فقط ، وإنما يشرف أيضا على ممالك الهوسا التى تدفع الجزية .

وفى غاو ، كما فى برنو ، ليس للحكام نفس أهمية كبار النبلاء . إنهم يحكمون مقاطعات ، ولذلك فهم موظفون لهم أهميتهم ، ولكن لكونهم لا يتحكمون فى مناطق الحدود ، ولا يشغلون أية قيادات حربية كبيرة ، فلا يمكن مقارنتهم بنبلاء المرتبة الأولى .

وفى منطقة السنغى يمكن القول إن كلمة «كُىْ» استخدمت بمعنى حاكم له مرتبه أمير . وهكذا يتحدث الفتاش دائما عن مَقْشَرَ كُىْ وملِكُىْ وباركُىْ . وقد يمنح لقب «فارِ» للولاة الذين يضطلعون بكل من السلطتين المدنية والحربية . من ذلك دندفار الذى يسيطر على دِنْدِ أبعد مقاطعات إمبراطورية السنغى إلي الجنوب ، على جانبى النيجر أسفل نهر ساى . كما أن فَرْبَ لقب يحمله أحد كبار رجال الإدارة من الرقيق . ويذكر الفتاش ذلك فيما يتعلق بمالى، مفترضا أنه مستخدم فى غاو بدورها . (٥٤)

وفى غالبية هذه الدول يعتبر رئيس الخصيان شخصا ذا أهمية كبيرة ووثيق الصلة دائما بالإمبراطور. ولما لم تكن له أسرة فإنه يُعتقد أن المشورة التى يقدمها – بوصفة رقيقاً – إلى سيده لايشوبها غرض . وكما رأينا فإن هؤلاء الرقيق زادوا سيطرتهم بالتدريج حتى أحكموا قبضتهم على الإدارة ، وهم لم يكتفوا بتركيز السلطة فى أيديهم ، بل كدّسوا ثروات كبيرة أيضا . ففى برنو يضطلع رئيس الخصيان بوظيفة المَسْطَرِيمة الذى يقوم على حراسة الملكة الأم ،

---

(٥٤) « وقد خرج كنك موسى (أى منسا موسى سلطان مالى) إلى الحج من هنا ... ثم أمر بعبده الذى هو رئيس عبيده وقومه المسمى فَرْبَ » ، الصفحة ٣٤ .

وتحت إمرته يوجد البوهمة الذى يقوم على حراسة الملكة ، ولكليهما أهمية كبيرة حتى خلال الفترة الإقطاعية . وعلى الرغم من أن هذين الموظفين من الرقيق ، فإن مكانهما هو فى المجلس الأعلى مع الأمراء . وفي إمبراطورية الموسى فإن رئيس الخصيان يلي كبار الإقطاعيين مباشرة ، ويتمتع بنفس مرتبة الكاهن الرئيسى والمشرف على أهل البيت الملكى . وفى داهومى لم يكن هناك أمراء إقليميون يتعين كبح جماحهم . فالكابوسيرات مجرد موظفين فى الدولة ليست لديهم أية سلطات مستقلة .

ولما كان للتجارة دور حيوى فى اقتصاد بلاد السودان وسياستها ، فقد حظيت باهتمام كبير من جانب الحكام . ويذكر إبن بطوطة أن التجار فى ولاته ، الواقعة فى اتجاه الشمال من مالى ، «وهى أول عمالة السودان ونائب السلطان فيها فرباحسين وفربا معناه النائب ولما وصلناها جعل التجار أمتعتهم فى رحبة وتكفل السودان بحفظها وتوجهوا إلى الفربا وهو جالس على بساط فى سقيف وأعوانة بين يديه بأيديهم الرماح والقسى وكبراء مسوفة من ورائه ووقف التجار بين يدية وهو يكلمهم بترجمان على قربهم منه احتقاراً لهم . فعندئذ ندمت على قدومى بلادهم لسوء أدبهم واحتقارهم للأبيض» . [٥٥] وهكذا فإنه يتعين على التجار فور وصولهم إلى محطة الحدود أن يبلغوا الحاكم .

وبعد أن يحصل التجار على إذن من الحاكم يتقدمون نحو إحدى مدن السودان الرئيسية . وهنا يحلون ضيوفاً على أحد التجار الأجانب المقيمين الذى يرتب مع السكان المحليين إيجاد اتصال بينهم وبين التجار المحليين الذين يعملون كوسطاء ووكلاء تجاريين . وللبيوت التجارية الكبيرة ذات المصالح الدائمة فى بلاد السودان مندوبون مقيمون يرعون مصالحها . من ذلك أن إخوان المقرى لهم مندوب فى تمبكت . وما إن يصل تاجر زائر حتى يسعى لزيارته التجار الأجانب المقيمون والتجار المحليون ، وكذلك رجال السلطات المحلية الذين يخصصون له ، إذا لزم الأمر ، مكانا فى السوق يمكنه أن يعرض بضائعه فيه .

---

(٥٥) تحفه النظار ، الصفحة ٦٨٧ .

وكان التجار الأجانب ، وكذلك أفراد الجالية الأجنبية بوجه عام ، يعيشون مستقلين . فلهم حى خاص بهم فى المدينة ، ويرأسهم تاجر منهم يكون عادة أكبر التجار المقيمين سنا ، ومن واجباته تقديم المشورة إلى القادمين الجدد بشأن الطريقة الصحيحة لمباشرة النشاط ، وله مكان فى مجلس المدينة حيث يستطيع أن يعرض وجهة نظر الجالية .

وعند موت أحد الأجانب يختم بيته بحضور الجالية الأجنبية ، ويدير ممثل الجالية شؤونه حتى يتولاها وريث له . [٥٦] ويوجد لدى الدول الإفريقية موظف مختص برعاية مصالح الجالية الأجنبية ، وتحت إمرته موظفون مختلفون مهمتهم التفتيش على السوق ، ورعاية القادمين الجدد . وقد أثنى الزائرون بوجه عام على أمانة السودان وصدقهم ونزاهتهم ، ويوقع الحاكم عقابا قاسيا بأى موظف يتبين فساده . بل إن الحكام على الساحل أكثر حزماً فى مراقبة التجار الأجانب . وفى داهومى وبنين كانت التجارة الخارجية من الناحية الفعلية احتكاراً حكومياً. فالتاجر الأجنبى عليه أن يخطر الموظف المختص بوصوله وبرغبته فى مزاولة التجارة ، ويقوم هذا الموظف بزيارة رسمية له . وبعد أن يقوم الموظف بالتفتيش على البضائع ويتبين له أنها مناسبة ، تناقش أثمان البضائع المقرر توريدها ، ويتم الاتفاق عليها . وبعد أن يحصل الملك وكبار النبلاء على حصتهم من الهدايا يسمح للموظفين والتجار الذين يأذن لهم الملك بالاتجار مع الأوروبيين .

ولما كانت الممالك فى بلاد السودان تهتم اهتماما حيويا بالتجارة الخارجية، فقد كانت الإجراءات تتخذ لضمان انتعاش هذه التجارة . ومن أهم الأمور ، إلى جانب نزاهة الإدارة ، ضمان الأمان الكامل للطرق ، ووجود نظام سليم للموازين والمكاييل . وقد وحّدت إمبراطوريات مالى والبرنو والسنغى موازينها ، كما أن من بين وظائف مفتشى السوق التأكد من استعمال موازين ومكاييل صحيحة .

---

(٥٦) « فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم ، فهم أبعد الناس عنه ، وسلطانهم لا يسامح أحد فى شئ منه ، ومنها شمول الأمن فى بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب ، ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان القناطير المقنطرة إنما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه » المرجع نفسه ، الصفحة ٦٩٨ .

ولم تكن أساليب الحرب المستخدمة فى بلاد السودان تختلف عن تلك المستخدمة في آسيا وأوروبا . فالأسلحة تتكون من الأقواس والسهام والنبال والسيوف . بيد أنه يوجد فرق حيوى واحد ، هو أن بدو آسيا الوسطى أدخلوا الحصان فى حروبهم ، وأن الجيوش الآسيوية والأوروبية قامت على الخيالة . وفى أوروبا كانت الهيمنة فى العصور الوسطى للفارس ، وهو راكب حصان يرتدى الدروع أعطته قدرته على الحركة ميزة على المشاة .

فماذا كان الوضع فى بلاد السودان ؟ إن الحصان لم يكن من الحيوانات الشائعة . فملك غانة لم يكن لديه سوى ألف حصان ، وتوضح العناية التى يعطى إياها مدى قيمته العالية . ولم يكن يستثنى من ذلك الا برنو . فحصان البرنو على الرغم من صغر حجمه حيوان قوى البنية ، مما جعل حكام البرنو فى غير حاجة إلى الحصول عليه من الشمال . وبفضل الحصان حققت الدول السودانية الإسلامية تفوقاً حربيًا على الوثنيين . أما فى المناطق التى تعوق طبيعتها حركة الحصان ، فإن الوثنيين كانوا يستطيعون الصمود .

والميزة التى وفرها الحصان للدول التى لديها خياله يمكن أن نلمسها من وصف سنيلغروفى لغزو قام به الأويو لداهومى . فقوات داهومى كانت تتكون من المشاة ، ولكن لديها مدافع ، وهو ما تفتقر إليه الدول الداخلية فيما عدا برنو . وعلى الرغم من أن ملك داهومى أحرز نصراً فإنه كان يخشى غزواً ثانياً . «ولما كان قد خبر من قبل هول مثل هذه الأعداد من الخيول بالنسبة لجيشه المكون من المشاه ، فقد استقر رأيه على الفرار إلى الغابات والأدغال . »

وإذ آثر جيش داهومى دفع الجزية علي مواجهة خيّالة الأويو ، فإن المرء يمكن أن يتفهم جيدا سر نجاح حملات الإغارة من أجل الرقيق التى تشنها غانة ومالى والسنغى فى مناطق الوثنيين . وجدير بالذكر أن نجاح العصابات

الصغيرة من الكونكويستادورات [٥٧] الأسبان فى أمريكا اللاتينية ضد دول مستقرة ، مثل المكسيك وبيرو ، إنما يرجع إلى الميزة التى لاتقارن التى منحها الحصان لهذه العصابات .

وكانت معرفة إمبراطوريات السودان الإسلامية للحديد ميزة أخرى لها على الوثنيين . فزا الأيمن [٥٨] أحضر معه حدادين يصنعون الحربون . [٥٩] كذلك عرفت غانة ومالى الأسلحة المصنّعة من الحديد التى أدخلتاها على الأرجح عن طريق الشمال . وكما حدث في أجزاء أخرى من العالم ، فإن الجمع بين الأسلحة الحديدية والحصان أعطى المسلمين ميزات هائلة على الوثنيين الذين لم يكونوا قد عرفوا مثل هذا الجمع بعد . ولم تكن جيوش دول السودان تقل كفاءة عن أى جيش آخر فى العالم حتى بداية الحروب الحديثة . وقد استطاعت غانة الصمود أمام البربر ، وكانت الحرب التى شنها المرابطون المتحمسون طيلة أربعة عشر عاما هى وحدها التى حطّمت قوتها الحربية .

ولم تكن الدول الوثنية فى حالة عجز تام . فما إن يحسن حملة الأقواس تنظيم صفوفهم ، وعندما لاتكون بلادهم مكشوفة للغاية ، فانهم يكونون أكثر من ندٍّ للخيالة . ففى كريسى [٦٠] وأجينكورت [٦١] هُزِمت زهرة الخيالة الأوروبيين

(٥٧) الكونكويستادور : معناه الفاتح ، وقد أطلق على المحاربين الأسبان الذين فتحوا بقوة السلاح أجزاء من العالم الجديد ، وبخاصة المكسيك وبيرو ، فى القرن السادس عشر .

(٥٨) زا الأيمن : ومعناه «جاء من اليمن» «أما الملك الأول زا الأيمن أصل اللفظ جاء من اليمن قيل إنه خرج من اليمن هو وأخوه سائرين فى أرض الله تعالى حتى انتهى بهما القدر إلى بلد كوكيا ....» تاريخ السودان ، الصفحة ٤ . [أنظر أيضاً الحاشية ٤ – ٧ أعلاه .]

(٥٩) الحربون : رمح شائك أو حربة شائكة لصيد الحيتان .

(٦٠) كريسى : بلدة فرنسية صغيرة دارت فيها إحدى معارك حرب المائة العام بين فرنسا وانجلترا فى عام ١٣٤٦ . وفيها انتصر إدوارد الثالث ملك إنجلترا على فيليب السادس ملك فرنسا ، واستطاع فيها الانجليز بأقواسهم الطويلة التى ظهرت لأول مرة في أوروبا أن يبيدوا زهرة النبلاء الفرنسيين .

(٦١) أجينكورت : قرية فى شمال فرنسا اشتهرت بالنصر الذي حققه هنرى الرابع ملك انجلترا على الفرنسيين فى عام ١٤١٥ ، وكان الجيش الانجليزى فيها يضم ٦٠٠٠ من رماةالسهام ، وفى المعركة لم يأخذ الفرنسيون موعظة من خبرة معركة كريسى ، إذ كان خيالتهم هدفا سهلا لرماة السهام الإنجليز .

أمـام حملة الأقواس من العامة . وفى إفريقية بدورها كثيراً مـا أكد حملة الأقواس تفوقهم . ويصف أبو حامد [٦٢] الأسلحة التى استخدمها الوثنيون وكان لها مثل هذا الأثر الفتاك على الخيالة السودان . «وقسيهم صغار قصار رأيتهم فى بلاد المغرب ونبلهم ورأيت قسيهم وأوتارهم من لحاء الشجر الذى فى بلادهم ونبلهم قصار كل سهم شبر ونصالهم شوك شجر كالحديد فى القوة قد شدوه في نبلهم بلحاء شجر يصيبون الحدق » . [٦٣] وهكذا كان باستطاعة الوثنيين الصمود أمام الخيالة السودان .

كذلك لم تكن القوارب غير مألوفة لدى السودان . ورواية منسا موسى عن الحملة التى خرجت لاكتشاف الجانب الآخر من المحيط لاينبغى أن تؤخذ مأخذ الجد . [٦٤] بيد أن سنّ على حاصر چنى بأربعمائة قارب ، بل فكر فى استخدام إحدي قنوات النيچر في الالتفاف حول جناح جيش الموسى . [٦٥] ويشغل الهيكى المشرف على القوارب منصبا رفيعا فى إمبراطورية السنغى . وفى برنو

---

(٦٢) أبو حامد الأندلسى الغرناطى : محمد بن عبد الرحمن بن سليمان المازنى القيسى . رحالة أندلسى عربى وجامع للعجائب فى القرن الثانى عشر الميلادى . روى فى مصنفاته التواريخ الهامة لحياته الحافلة بالمغامرات . ولد فى غرناطة ، وترك موطنه إلي غير رجعة وهو في الثلاثين ، فقضى بضع سنوات فى إفريقية ، ثم انتقل إلى القاهرة ، وتوقف فى دمشق ، ومنها إلي بغداد ثم فارس . وفى بغداد نشر المصنفين اللذين تسببا فى شهرته وهما : «المُعْرب عن عجائب المغرب» ؛ «تحفة الألباب (أو الأحباب) ونخبة الأعجاب» . وهما يحفلان بمعلومات طريفة وسجلات وثيقة ، وكذلك بأخبار تدخل فى باب العجائب والأساطير .

(٦٣) هذا الاقتباس نقلا عن الصفحتين ٤٢ و٤٣ من كتاب تحفة الألباب ، الذى نشر نَصُّه العربى فى عدد يوليه – سبتمبر ١٩٢٥ من مجلة Journal Asiatique.

(٦٤) انظر الحاشية ١١ – ١٢ أعلاه .

(٦٥) «فلما أصبح حتى فاض البحر وأحاط بالبلد وحال الماء بينهما وحصرهم شى بأربعمائة سفن لئلا يخرج خارج ولايدخل داخل ثم ما فارقهم إلا أن قهرهم وملكهم ودخل فى سورهم ونزل فى وسط دار چنكى ...» تاريخ الفتاش ، الصفحة ٥٠ . «ثم شرع فى حفر بحر رأس الماء للوصول إلى بير فى البحر وهو يشتغل بذلك بالجد والاجتهاد فى قوة عظيمة فإذا الخبر جاء أن موسى كس عازم إليه فى جيشه بغزو ... فرجع لملاقاة موش كى فالتقى معه في چنكى تُعىْ قرية فى قرب بلد كب من وراء البحر فاقتتلوا هناك فهزمه سن على وهرب وتبعه حتى دخل فى حد أرضه » تاريخ السودان ، الصفحة ٧٠ .

وفرت بحيرة تشاد لآل سيفى حافزا كافيا على صناعة أسطول نهرى مزود بقوارب يبلغ طول الواحد منها خمسين قدما ، ويستطيع نقل أكثر من خمسين شخصا مع خيولهم . ولدينا بعض الروايات عن معدات الجنود والطريقة التى يحاربون بها . ويقول دنهام إن الرؤساء وحرس الشيخ يرتدون دروعا من السلاسل أو الزرد . ويذكر كلابرتون أن حملة الأقواس من الفولانى لديهم حقائب من الجلد تسع حاجاتهم ، كما «يحملون أوان من الحشائش الجافة مجدولة بإحكام شديد تستخدم فى حفظ الماء » .

والخيالة مسلحون بالسيوف والدروع والرماح . وسيوفهم مماثلة لتلك التى استخدمها فرسان مالطة ، ولكن دروعهم أكثر إثارة . فالرأس مغطاة بخوذة مبطنة من القماش الأحمر ، أما الجنود فيرتدون دروعا مبطنة وجوارب تحمى سيقانهم . وفى كانو أدخل رومفا الخوذة الحديدية . ودرع الخيالة هو أكفأ الأجزاء فى معداتهم ، وسواء منه المصنوع من جلد الثور أو الفيل «يكوّن جزءا دائريا ضخما قطره قرابة خمسة أقدام» .

وأسلوب القتال بسيط للغاية : فالخيالة هم القوة الرئيسية ، والمشاة يستخدمون كقوة مساعدة . وللخيالة عدد معين من المشاة لدعمهم ، ويستفيد المشاة من كل فرصة يتيحها لهم الخيالة .

ليس ذلك فحسب ، إذ أن السودان كان لديهم نظام للفروسية ، والعمرى يذكر ذلك عن مالى ، وعلى الرغم من أن المؤرخين لم يشيروا إلى هذاالموضوع فإن دول السودان الأخرى لابد أنها أدخلت نظاما شبيها . ويقول العمرى : «والأبطال من فرسانهم (فرسان دولة مالى) تلبس أساور من ذهب ، فمن زادت فروسيته لبس معها أطواقا من ذهب ، فان زادت لبس مع ذلك خلاخل من ذهب ، وكلما زادت فروسية البطل ألبسه الملك سراويل متسعة ....» (٦٦)

---

(٦٦) ورد هذا الاقتباس في صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٩٩ ، نقلا عن الشيخ سعيد الدكالى ، وليس نقلا عن العمرى .

والتنظيم الحربى بسيط بدوره . فهناك جيش صغير عامل مكون من رقيق البيت الإمبراطورى ، ثم هناك القوات الخاصة لأمراء الأقاليم ، ويتعين على كل حاكم منهم أن يقدم عددا محددا من الجنود للجيش الإمبراطورى ، وإلى جانب ذلك تسند إليهم مسؤولية حراسة الأقاليم الخاضعة لهم والإشراف على الحدود. أما القوات الإمبراطورية فمهمتها حراسة المدن الهامة ، وبخاصة تلك الواقعة على طرق التجارة ، وكذلك حراسة الطرق الصحراوية . وهذا النظام شبيه للغاية لما كان سائدا فى المشرق الاسلامى بأسره . كما أن الحاكم شبيه بالمَنْسابْدار فى الهند الذى تتوقف أهميته على عدد القوات التى يطلب إليه إعدادها .

وكانت داهومى هى أكثر الدول الحربية شهرة في غرب إفريقية . ويقدم چون دنكان الذى طاف بداهومى فى الفترة ٢ - ١٨٤٣ ، وريتشارد بيرتون الذى ذهب على رأس بعثة دبلوماسية إلى بلاط غليغلى [٦٧] ، وصفين لجيش داهومى يسمحان لنا بأن نلم بفكرة عن مقدرة داهومى العسكرية .

كان الجيش الداهومى مكونا من المشاة ، وليس به خيالة . ومع ذلك فبسبب الطريقة التى يجرى بها إعداده للحرب أصبح قوة تثيرالرعب فى غرب إفريقية . ودنكان ، على سبيل المثال ، يعتبره متفوقا على أى جيش آخر جنوبى الصحراء الكبرى . والحملات التى تشنها داهومى كان يجرى التخطيط لها بعناية كبيرة ، فالجواسيس يرسلون أولا إلى المملكة التى يقرر الملك غزوها ، ويتخفون عادة فى هيئة تجار ، ويدخلون في «ميثاق دم » [٦٨] مع الملك ، ويُزوَّدون برجال يوثق بهم

---

(٦٧) للإلمام بفكرة عن ريتشارد بيرتون ، انظر الحاشية ١ - ٥٩ أعلاه ، ونضيف إلى هذه الحاشية أنه من بين مؤلفات بيرتون كتاب عن داهومى عنوانه بعثة إلى غليلى ملك داهومى A Mission to Gelele, King of Dahomey . ويلاحظ أن غليغلى يسمى أحيانا غليلى .

(٦٨) ميثاق الدم : فى داهومى وتوجو توجد جمعية «ميثاق الدم» . يقوم نظام الاحتفال بها على مجموعة معقدة من الطقوس والنقوش والأدوات والمخاليط التى يجلس الأعضاء الجدد حولها ، ثم تحضر جمجمة بشرية بها خليط عجيب من تراب ورماد وحجر الصواعق وحديد البنادق ، ويؤخذ دم فصادة من مقدم ساعد كل منهم، ويلتقط هذا الدم السائل على قشرة ليمون ويصب فى الجمجمة التى تدار عليهم ليشربوا منها ، وبذلك يصبح كل الحضور إخوة فى الدم يتوجب عليهم التآخى والتعاون فى السراء والضراء ، ويسود اعتقاد بأن من يخرج على هذا الميثاق يصاب بالجنون المطبق أو تنزل به أشنع الكوارث .

في هيئة رقيق يعرضونهم للبيع لعلية القوم . وبذلك يكون هؤلاء الرقيق في موقع يسمح لهم بجمع معلومات يُطْمَأن إليها يبعثون بها إلي رؤسائهم الذين هم فى حالة حركة مستمرة بوصفهم تجاراً . ويبعث التجار بهذه المعلومات إلى المسؤلين العسكريين في داهومى . والجواسيس لا يكافئون على الفور ، وإنما بعد انتهاء الحملة ، بعد التأكد من جدوى المعلومات التى يقدمونها ومدى صحتها . وهكذا كانت هذه المعلومات عونا كبيرا لداهومى فى تخطيط حملاتها بدقة شديدة . وبعد جمع المعلومات يحاول الملك تهدئة شكوك عدوه الذي وقع عليه الاختيار . ويمكن له أن يحقق ذلك بالتظاهر بتحريك قواته في اتجاه مختلف والقيام بأنشط مضللة .

والجيش مقسم إلي جناحين ، كل جناح منهما تحت قيادة ضابط : الجناح الأيمن تحت قيادة المين غو ، والأيسر تحت قيادة الميو ، ويتكون كل جناح من فصائل مختلفة ، أشهرها فصائل الفانتى والأشانتى التى تشكل حرس البيت الملكى .

ويظل الجيش الداهومى فى حالة استعداد دائم عن طريق التدريب العنيف . وقد أشرنا فيما سبق إلى تدريب «الأمازونات» ، ولم يكن تدريب القوات النظامية أقل عنفا ، إذ تقوم باستعراضات عسكرية منتظمة أمام القادة العسكريين والملك ، ويجرى التفتيش على ملابس أفرادها وأسلحتهم . كما أن الحملات المستمرة فى أرض متفاوتة الوعورة ، مثل مستنقعات الساحل وتلال الماهى ، قد أهلتها لمواجهة كل مخاطر القتال .

وكان لدى دول السودان معرفة بالتحصينات ، وبخاصة برنو التى طورت فن البناء بالحجر ، لذلك أمكنها إيجاد نظام سليم لبناء الحصون ، كما أن غالبية المدن الواقعة على حدود برنو كانت ذات أسوار ضخمة . وانتقل فن بناء الحصون من برنو إلى بلاد الهوسا ، ولكن بينما تبنى الأسوار فى برنو إما من الحجر أو القرميد ، فإنها تبنى فى بلاد الهوسا من الصلصال أو الطين . فمدينة كتاغوم ، على سبيل المثال ، لها سوران من الصلصال الأحمر ارتفاع الواحد

منها عشرون قدماً وسمكه عشرة أقدام ، وهذان السوران متساويان فى الحجم . كما توجد ثلاثة خنادق عمق كل منها عشرون قدما : أحدهما فى الداخل ، والثانى بين السورين ، والثالث في الخارج . وبالمثل مدينة غزوا الصغيرة ذات الأهمية الاستراتيجية، لأنها تحمى الحدود الجنوبية لاتحاد مارادى – غوبر ، فقد كانت ذات أسوار رباعية الأضلاع لها بوابات على كل جانب عمق الواحدة منها إثنا عشر قدما ، وعند قمتها متاريس يمكن أن يتحصن فى كل منها إثنا عشر من رماة الأسهم .

والانطباع السائد لدي معظم الناس عن غرب أفريقية هو الإحساس بالعدل السائد بين الأهالى . ويدعوهم إبن بطوطة عن حق بأنهم نوو اهتمام أصيل بالعدل ، فقد اتصل بكثيرين من الزنوج وتبين له أنهم يمقتون الظلم أشد المقت . (٦٩) ويؤكد ليو الأفريقى ذلك ، فالزنوج شعب عادل ، وملوكهم يبذلون ما فى وسعهم لمنع الظلم . ويوافق الرحالة الأوروبيون بدورهم على ذلك .

وكان أباطرة مالى يضطلعون بجدية بدورهم كمصدر للعدل ، ويضرب إبن بطوطة مثالين لذلك : «وحضرت مجلس السلطان فى بعض الأيام ، فأتى أحد فقهائهم ... وقام بين يدى السلطان وتكلم كلاما كثيرا . فقام القاضى فصدقة ، ثم صدقهما السلطان ... وكان إلي جانبى رجل من البيضان ، فقال : أتعرف ما قالوه فقلت لا أعرف . فقال إن الفقيه أخبر أن الجراد وقع ببلادهم ، فخرج أحد صلحائهم إلى موضع الجراد فهاله أمرها فقال هذا جراد كثير . فأجابته جرادة منها وقالت إن البلاد التى يكثر فيها الظلم يبعثنا الله لفساد زراعتها فصدقه القاضى والسلطان ، وقال عند ذلك للأمراء إنى برئ من الظلم ومن ظلم منكم عاقبته ، ومن علم بظالم ولم يعلمنى به فذنوب ذلك الظالم فى عنقه ... وحضرت الجمعة يوما فقام أحد التجار من طلبة مسوفة ويسمى بأبى حفص ، فقال يا أهل المسجد أشهدكم أن منسى سليمان فى دعوتى إلى رسول الله صلى الله

---

(٦٩) «فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم ، فهم أبعد الناس عنه ، وسلطانهم لا يسامح أحد فى شئ منه» تحفه النظار ، الصفحة ٦٩٨ .

عليه وسلم . فلما قال ذلك خرج إليه جماعة رجال من مقصورة السلطان ، فقالوا له : من ظلمك ؟ من أخذ لك شيئا ؟ فقال منشاجو إيولاتن يعنى مشرفها أخذ منى ما قيمته ستمائة مثقال ، وأراد أن يعطينى فى مقابلته مائه مثقال خاصة . فبعث السلطان عنه للحين ، فحضر بعد أيام وصرفها للقاضى ، فثبت للتاجر حقه فاخذه . وبعد ذلك عزل المشرف عن عمله.»[٧٠]

فماذا كانت مصادر إيرادات الدول الإفريقية ؟ كانت ضريبة الأرض هى أساس نظامها المالى . وكقاعدة عامة لم تكن الضرائب تفرض على المحصول ، وإنما على الزارع . وفى بلاد الهوسا كانت هناك ضريبة الرأس على كل ذكر بالغ ، ومقدارها ثلاثة آلاف كوردى ، وإن تفاوت مقدارها من مكان لآخر . وفى كانو لم يكن **الكودين كازا** [٧١] – ريع الأرض – يفرض على الأرض ، وإنما كان على رب الأسرة أن يدفع ألفين وخمسمائة كوردى . وساد فى برنو نظام مماثل . وفى زاريا لم تكن الضريبة تفرض على الفرد ، وإنما على الأدوات – خمسمائة كوردى على كل فأس ، على أساس أن الفأس تنتج ما بين مائة ومائتى حزمة من سيقان الحبوب ، كل حزمة بها مكيالان ، في حين أن الفرد يكفيه خمسين مكيالا فى السنة . وهكذا فإن الفأس تنتج ما بين مائتى وأربعمائة مكيال ، فيكون الفائض لديه ما بين مائة وخمسين وثلاثمائة وخمسين مكيالا . وإذا كان كل رجل يعول فردين فان ذلك يحقق له دخلا كافيا . ولما كان الافريقيون متعددى الزوجات ، فإن العمل الزراعى تؤديه الإناث ، ولذلك لابد أن دخل الأسرة في زاريا كان كبيرا . وحتى فى كانو وبرنو ، حيث يفرض على كل أسرة سعر جزافي موحد ، فان دخل الأفراد الذين يعملون إلى جانب عمل الرقيق كان مرتفعا . وهناك ضرائب أخرى : سبعمائة كوردى على الوعاء الكبير من مواد الصباغة ؛ ستمائة كوردى على كل نخلة ؛ ضريبة صغيرة على الخضر

---

(٧٠) أوردپانيكار هذه الرواية بأسلوبه ، وقد أوردتها بنصها الأصلى ، المرجع نفسه ، الصفحة ٦٩٦ .

(٧١) وردت كودين كازا Kudi-n-Kasa فى پيتر ب. كلاك ، West Africa and Islam ، الصفحة ١٢٣ . ويقول كلارك ، نقلا عن تاريخ كانو ، إن الكودين كازا (ضريبة الأرض) واحدة من الضرائب المنافية للشريعة الإسلامية التى فرضها حكام كانو المسلمون في القرن السابع عشر .

التى تباع فى السوق . والضرائب على المنتجات الزراعية فى بلاد الهوسا كانت تمييزية . فاللحوم والماشية التى تباع في السوق معفاة من الضرائب . وقد فرض حكام الهابى فى القرن الثامن عشر ضريبة الجانجالى (٧٢) ذات العبء الفادح على الرعاة .

وفى العصور المبكرة لم تشكل إيرادات الدولة من الأرض عبئا ثقيلا على الفلاحين . تقول تأريخ كانو إن هذه الإيرادات لم تتعد ثمن المحصول خلال حكم الساركن السادس (فى بداية القرن الثالث عشر) . (٧٣) وفى أيام ليو كانت إيرادات برنو من الأرض تساوى عشر المحصول . (٧٤)

وقد زادت حاجة ممالك الهوسا إلي الايرادات زيادة كبيرة بحلول القرن السابع عشر ، لاسيما بسبب الحروب المستمرة التى أرغمتها على البحث عن مصادر جديدة ؛ وجمعت الجانغالى لأول مرة فى نهاية هذا القرن . ومع إدخال المدفع فى القرن الثامن عشر أصبحت الإيرادات الشغل الشاغل للحكام ، فازداد نشاطهم في جمع الضرائب من التجار . وفرضت ضريبة حتى على الزيجات . وقيدت بشدة سلطات الموظفين الإداريين ، سواء كانو محافظين أم رقيقا رئيسيين . وبدأ الحكام فى نهب هؤلاء الأخيرين وإرغامهم على تقديم الهدايا .

وإلى جانب هذه الضرائب كان لدى بلاد الهوسا وبرنو نظام محكم للغرامات . ففى كانو فرضت غرامة مقدارها عشرة آلاف كوردى للتعدى بالإيذاء البدنى أو استعمال العنف ، وغرامة مقدارها مائة ألف كوردى للعمل غير

---

(٧٢) الجانجالى : هى الضريبة على الماشية ، انظر الحاشية ٦ - ٦٧ أعلاه . ويقول كلارك (المرجع نفسه ، الصفحتان ٩٩ و ١٢٣) ، نقلا عن تأريخ كانو ، إنها ضريبة أخرى من الضرائب غير الاسلامية التى فرضها حكام الهوسا ، وإنها أثارت سخط الرعاة من الفولانى ، وكانت باهظة بدرجة أدت إلى تقليص التجارة.

(٧٣) هو ناغوش بن تسراكى ساركن كانو السادس ، الذى حكم في الفترة ١١٩٤ - ١٢٤٧ .

(٧٤) «ولا يفرض عليه أى خراج ماعدا عشر ما تنتجه الأرض .» وصف إفريقيا ، طبعة المغرب ، الجزء الثانى ، الصفحة ١٧٦ .

الشرعى ، وفى حالة القتل يتم الاستيلاء على ممتلكات القاتل . ولكن البند الأكثر أهمية هو الرسوم على المواد المتداولة فى التجارة ، والتى أعفى منها تجار أسبن الذين ينقلون الملح مقابل تقديم بعض منه على سبيل الهدية . أما البضائع الأخرى فتفرض عليها رسوم تصل إلى خمسمائة كوردى عن كل حيوان ينقل حِملاً . ويدفع نفس المقدار عن الجمل أو الثور الذى ينقل حمولات أثقل مما ينقله الحمار . وفى كاتسنا فرضت ضريبة مقدارها ألفان وخمسمائة كوردى عن كل أسرة ، وكذلك ضريبة مقدارها خمسمائة كوردى عن كل رقيق . وفى برنو ، وبخاصة فى مقاطعة مونييو ، يدفع كل رجل ضريبة رأس مقدارها ألف ودعة عن نفسه وألفا ودعة عن كل رقيق ، وألف ودعة عن كل حمل دابة . كذلك باستطاعة الأمراء الإقطاعيين تحصيل أموال كبيرة على سبيل الجزية .

وبند الإيرادات الأكثر أهمية فى بلاد الهوسا هو الضرائب على التجارة ، وقد استغل حكامها ذلك إلى أقصى حد . ويذكر ليو أن الضرائب أثقلت كاهل سكان غوبر – التى كانت فى ذلك الوقت مركزا تجاريا هاما ، وظلت كذلك إلى أن خرب الأسكيا تجارتها . [(٧٥)] وتشير تاريخ كانو إلى أن التجار الأجانب اضطروا إلى مغادرتها بسبب فداحة الضرائب . ويقول ليو إن حاكم ونقارة استخلص عائدات كبيرة من التجارة والضرائب . [(٧٦)] ففى كانو مثلا حقق تصدير البضائع واستيرادها إيرادات معقولة على هيئة مكوس ، وإلى جانب ذلك كان الحاكم يحصل على الإيجار من أكشاك عرض البضائع .

وكان يوجد بطبيعة الحال فساد ورشوة فى الإدارة . ومظاهر الفساد هذه هى التى أعلن الشيخ عثمان الحرب عليها . وبعض النقاط التى أثارها على

---

(٧٥) «وأثقل (الملك) كاهل السكان بالضرائب ، وكانوا قديما يحققون أرباحا تجارية هائلة ، فأصبحوا الآن فقراء ، ونقص عددهم أكثر من النصف ؛ لأن أسكيا أخذ من البلاد عددا كثيرا من الناس ، احتفظ ببعضهم أسرى واستخدم البعض الآخر كعبيد له» . المرجع نفسه . الصفحة ١٧١ . [أسكيا المشار إليه هنا هو أسكيا الحاج محمد الذى غزا كاتسنا فى عام ١٥١٢ ، ويمكن أن تكون حملته هذه قد وصلت إلى غوبر .]

(٧٦) «وانكرة إقليم .... يسكنه شعب كبير يحكمه ملك ..... ويستخرج موردا كبيرا من رسوم السلع والضرائب التجارية» المرجع نفسه ، الصفحة ١٧٥ . [وانكرة المشار إليها هنا فى ونقارة] .

جانب كبير من الأهمية لأنها تسمح لنا بأن نلم بفكرة عن طريقة سير الجهاز الإدارى . وكان لجانب من هذه المظاهر ، مثل الاستيلاء على ممتلكات الشخص الذى يموت فى مملكتهم ، أثر عنيف على الطبقات الغنية . ولكن من اليسير أن نفهم لماذا سادت هذه العادة . فالحاكم كان هو صاحب الأرض كلها ، ولم يكن الأمراء الكبار يتمتعون إلا بحق الانتفاع ، وتعود الملكية إلى الحاكم عند وفاة المالك . وفى الهند المسلمة بدورها ، تحت حكم بعض السلاطين ، كان الحاكم يرث الممتلكات تلقائيا . وقد ساد نظام مماثل إلى حد كبير فى أوروبا خلال العصر الإقطاعى ، حيث كان على إبن المتوفى قبل أن يضع يده على التركة أن يدفع مبالغ كبيرة للأمير الإقطاعى . أما المظاهر الأخرى لسوء استخدام السلطة التى أثارها الشيخ فهى ثانوية نسبياً : الهدايا والرشاوى التى تقدم إلى كبار الموظفين مقابل قضاء الأعمال ؛ التاوزا أو اللحوم التى يحصل عليها مفتش السوق من الجزار ؛ الأغاما أو الرسم غير القانونى على البضائع الأخرى غير اللحوم ؛ الكامورا أو الاستيلاء غير القانونى على الحيوانات لنقل مؤن السلطان . ولكن هذه الحيوانات يتم ردها إذا تقدم صاحبها بشكوى ضد الموظف إلى مجلس الملك . ولذلك يمكن تقسيم سوء استخدام السلطة فى مجال الإدارة إلى ثلاثة أقسام : طلب الهدايا – وهو فى رأى بارث له طبيعة الرسوم ؛ سوء استخدام السلطة فى السوق ؛ إعطاء احتياجات الحاكم الأفضلية على احتياجات الأفراد . وقد استمر بعض هذه المظاهر خلال حكم الفولانى ، بل إن الهدايا المألوفة ما زالت تقدم إلى الحكام والرؤساء .


صفحة فارغة

المجتمع والحضارة فى غرب إفريقية

أولاً

كان من الحقائق الثابتة فى فكر المؤرخين الأوروبيين أن إفريقية الاستوائية لم تقم فيها حضارة . ذلك أن نظام الدولة فى غرب بلاد السودان لم يكن حتى منتصف القرن التاسع عشر معروفا للدارسين الأوروبيين إلا من خلال الجغرافيين العرب مثل البكرى أو الإدريسى ، أو من خلال المؤرخين العرب مثل إبن خلدون والمقريزى . وقد كشفت زيارة بارث لإفريقية الغربية عن وجود كتابات باللغة العربية عن غرب إفريقية ، مثل كتابى السعدى وكعت ، وكذلك كتابات دان فوديو وبلُّ وعمر .

ومع ذلك فإنه حتى بعد اكتشاف فن بنين وإيفه ، رفض الدارسون الأوروبيون التسليم بوجود طابع مستقل بذاته لثقافة غرب إفريقية . وبالنسبة للبعض كان صهر البرونز بطريقة الشمع المفقود انعكاسا إما للتأثيرات البرتغالية أو الهندية التى تحللت بمضى الوقت . ففروبنيوس ، على سبيل المثال ، شاهد فى إيفه ، لا ثقافة وطنية ، وإنما تدهور الفن الإغريقى .

ووجهة النظر القائلة بأن ثقافة غرب إفريقية لم تكن ثقافة وطنية ، وإنما ثقافة مستوردة تحللت مع الوقت ، وجدت دعما فى الأفكار التى يؤمن بها الإفريقيون عن ماضيهم . فليست هناك قبيلة واحدة من قبائل غرب إفريقية الرئيسية تزعم أنها من سكان المنطقة الأصليين : فجميعها تزعم أنها هاجرت إما من المشرق أو من الشمال . وغالبية هذه القبائل تزعم أنها إما من أصل

بربرى أو مصرى أو آسيوى . وهذا التطابق بين وجهتى النظر الأوروبية والإفريقية أعطى دعما إضافيا للنظرية القائلة بأن الحضارات التى جاءت مع المهاجرين قد تعرضت للتدهور .

ومن الغريب أن هؤلاء المهاجرين لم يجلبوا معهم لا أبجدياتهم ولا معداتهم مثل العجلة . وذلك لأن معظم الناس يسلمون بأن الإفريقى قد أخفق حتى العصور الحديثة فى وضع أبجدية ، وبأن الافتقار إلى العجلة قد اتخذ تفسيرا لعدم تطوير نظام سليم للنقل والزراعة .

إن العجلة والأبجدية اللتين تشكلان الأساس لأية حضارة - فالأولى لتنمية الموارد المادية ، والثانية لتطوير قيمها الثقافية والروحية ، واللتين كان يمكن أن يحققهما التدوين وإمعان التفكير باستمرار فيهما - لم يتم استحداثهما فى غرب إفريقية . فإذا لم يكن المهاجرون يعرفونهما ، فمن المستبعد أنهم كانوا أفضل حالا من السكان المحليين .

كما أن غرب إفريقية لم يقدم حتى الآن سوى النزر اليسير سواء من المدونات أو من الآثار القديمة ، على حين أن مناخ المنطقة ، وكذلك المواد التقليدية التى استخدمت فى البناء ، لا تحملنا على أن نتوقع من الحفائر القادمة ما يساعدنا على حل هذا الغموض . ومع ذلك فإن ما نعرفه عن السودان الأوسط له من الأهمية ما يكفى لأن نخلص إلى بعض الاستنتاجات غير النهائية عن الحضارة فى غرب إفريقية .

ثانيا

يجدر بنا أن نضع نصب أعيننا حقيقة أن حضارة غرب إفريقية هى من الناحية الجوهرية حضارة عصور وسطى . لذلك ينبغى ألا تقارن بالحضارة الصناعية الراهنة ، وإنما بالحضارة التى عرفتها أوروبا قبل الثورة الصناعية .

والتنظيم الاجتماعى فى غرب إفريقية لا يختلف من الناحية المادية عن أى مجتمع آخر من مجتمعات الرقيق أو الأقنان . فعلى رأس المجتمع يوجد الحاكم

الذى كان يُعتبر فى إفريقية المسلمة أميراً للمؤمنين . وترتبط شخصية الملك ارتباطًا وثيقًا بالسحر . ولم يكن يُوَقّر كسحرة حكام من أمثال سونديانا وسنّ على فقط ، بل حتى حكام مسلمون مشهورون مثل إدريس ألوما وأسكيا محمد . وفى الدول الوثنية ارتبطت الخصوبة والأمطار بالملك . وكانت فترة السبع سنوات هى القاعدة بين النوبى واليوربا . كذلك كان الحكام هم الرؤساء الروحيون للشعب . فإمبراطور الموسى ، على سبيل المثال ، هو الحارس الرئيسى لأيك شعبه المقدسة ، وجرت عادته أن يستشير أسلافه بانتظام . وفى داهومى وبنين توفد رسل بانتظام إلى السماء لاطلاع الأسلاف على أحداث الأرض .

وللحكام قدسيتهم فى إفريقية الوثنية . وبين الإيبو تعقب موت الملك فترة سبع سنوات يجرى المطالبون بالعرش خلالها نبوءاتهم . فإذا صدقت نبوءة أحدهم انتخب ملكا ، ولكن عليه قبل أن يُتَوَّج أن يموت ميتةً احتفاليةً . فيعامل الملك المنتخب على أنه جثة ويدفن فى قبر قليل العمق ، وبعد أن يمر خلال احتفالات تَطهُّر مختلفة يظهر ككائن مقدس .

ولم يكن الملك نائبا للإله فقط ، وإنما هو نفسه مقدّس . وهو كملك مقدس ليس بحاجة إلى أن يأكل أو ينام ، ولذلك فهو لا يأكل فى حضور أحد على الإطلاق . ولدى ملوك بنين وأشانتى فروض دينية كثيرة ، أهمها تقديم القرابين للأسلاف . فالملوك لا يموتون ، وإنما يقصدون العالم الآخر ، ويظل موتهم سراً حتى يرتقى العرش ملك جديد . وإلى جانب الطقوس الدينية كان يفترض فى الملك أنه يتحكم فى المطر وخصوبة التربة ، وهو باعتباره متحكما فى الخصوبة عليه أن يموت ميتة احتفالية .

كذلك لم يكن الملك فى المناسبات الرسمية يخاطب أى شخص مباشرة ، بل يفعل ذلك من خلال موظف يعرف بترجمان الملك . ويصف إبن بطوطة مهام «الدوغا» فى بلاط مالى [1] ، كما أن كُتّابا بريطانيين وأوروبيين كثيرين أفاضوا

---

(١) «فمن أراد يكلم السلطان كلم دوغا ، ويكلم دوغا لذلك الواقف ، ويكلم الواقف السلطان ..» تحفة النظار ، الصفحتان ٦٩٢ و٦٩٣ .

فى شرح مهامه فى بلاط ملوك المناطق الساحلية . ولأن الدوغا هو المتحدث الرسمى باسم الملك ، فهو يتمتع بنفوذ هائل .

والملك ككائن مقدس يعامل باحترام شديد . وتعتبر طبيعة الملك المقدسة جوهرية لفهم النظام الاجتماعى واحتفالات البلاط فى إفريقية . فمن غير هذه الطبيعة لا يكون هناك معنى لبعض مراسم البلاط مثل اقتراب الشخص من الملك وهو يزحف على أربع ، وتتريب الرأس ، وغير ذلك من العادات .

ولم تكن الدول الوثنية هى وحدها التى تعامل الملك على أنه مقدس ، بل شاطرتها فى ذلك بعض الدول الإسلامية الشهيرة . فبرنو ، على سبيل المثال ، على الرغم من كونها دولة إسلامية ، كانت تعامل إمبراطورها على أنه ملك مقدس . ففى قاعة التشريفات يجلس الملك فيما يشبه قفصا ذا قضبان ، ويغطى وجهه بلثام . ولم يكن المايات الأخيرون فى برنو يحملون سلاحا أو يأكلون فى حضور أحد . كما أن النبلاء لم يكونوا يواجهون الملك ؛ مثال ذلك أن الغلديمة ، وهو الحاكم القوى للتخوم الغربية ، كان يجلس وظهره إلى الملك مخافة ألا تحتمل عيناه الضعيفتان مهابة الملك التى هى كأشعة الشمس القوية .

ومن المؤكد أن الملك فى العصور المبكرة كان كاهنا فى الأساس ، ولكن السلطات الكهنوتية انتقلت فى بطء إلى آخرين . ففى دلتا بنين كانت عبادة الأسلاف من الطقوس الدينية الرئيسية ، وظل الملك لا مجرد رئيس عسكرى ، وإنما الكاهن الأعلى أيضا .

ثالثا

لما كان الملك مصدر كل السلطة ، فإن البلاط كان المؤسسة الأكثر أهمية فى هذه الدول . ولدينا لحسن الحظ رواية شاهد عيان لاحتفالات مالى . فالبلاط يتبع مراسم دقيقة للغاية ، وعلى الرغم من أن هذه المراسم تختلف من منطقة لأخرى ، فإن المبادىء الأساسية واحدة . ويزودنا إبن بطوطة بوصف غاية فى الحيوية لبلاط مالى . فيقول إن سلطان مالى كانت «له قبة مرتفعة بابها بداخل

داره ، يقعد فيها أكثر الأوقات . ولها من جهة المشور طيقان ثلاثة من الخشب مغشاة بصفائح الفضة ، وتحتها ثلاثة مغطاة بصفائح الذهب . فإذا جلس أخرج من شباك إحدى الطاقات شرابة حرير ... ثم خرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد فى أيدى بعضهم القسى ، وفى أيد بعضهم الرماح والدرق . فيقف أصحاب الرماح منهم ميمنة وميسرة ، ويجلس أصحاب القسى كذلك .... فيدعون نائبه قنجا موسى ، وتأتى الفرارية وهم الأمراء ، ويأتى الخطيب والفقهاء فيقعدون أمام السلحدارية يمنة ويسرة من المشور . ويقف دوغا الترجمان على باب المشور وعليه الثياب الفاخرة» . ويمضى إبن بطوطة قائلا : «ذكر جلوسه بالمشور – ويجلس السلطان أيضا فى بعض الأيام فى المشور وهنالك مصطبة تحت شجرة ، لها ثلاث درجات يسمونها البَنْبى ، وتفرش بالحرير وتجعل المخاد عليها ، ويرفع الشطر ، وهو شبه قبة من الحرير وعليه طائر من ذهب على قدر البازى . ويخرج السلطان من باب فى ركن القصر وقوسه بيده وكنانته بين كتفيه ، وعلى رأسه شاشية ذهب مشدودة بعصابة ذهب ، لها أطراف مثل السكاكين رقاق ، طولها أزيد من شبر . وأكثر لباسه جبة حمراء موبرة من الثياب الرومية التى تسمى المطنفس . ويخرج بين يديه المغنون بأيديهم قنابر الذهب والفضة ، وخلفه نحو ثلاثمائة من العبيد أصحاب السلاح . ويمشى مشيا رويدا ويكثر التأنى ، وربما وقف ينظر فى الناس ، ثم يصعد برفق كما يصعد الخطيب المنبر . وعند جلوسه تضرب الطبول والأبواق والأنفار ، ويخرج ثلاثة من العبيد مسرعين ، فيدعون النائب والفرارية فيدخلون ويجلسون ، ويؤتى بالفرسين والكبشين معهما ، ويقف دوغا على الباب ، وسائر الناس فى الشارع تحت الأشجار» .

وفى يوم الجمعة يقام بعد صلاة العصر نوع مختلف من الاحتفالات . ويقول إبن بطوطة إنه كان موجودا فى مالى خلال احتفالات عيد الأضحى وعيد الفطر . «ويجلس السلطان فى أيام العيدين بعد العصر على البنبى ، وتأتى السلحدارية بالسلاح العجيب ، من تراكش الذهب والفضة والسيوف المحلاة

بالذهب واغمادها منه ورماح الذهب والفضة ودبابيس البلور . ويقف على رأسه أربعة من الأمراء يشردون الذباب ، وفى أياديهم حلية من الفضة تشبه ركاب السرج . ويجلس الفرارية والقاضى والخطيب على العادة ، ويأتى دوغا الترجمان بنسائه الأربع وجواريه ، وهن نحو مائة عليهن الملابس الحسان ، وعلى رؤوسهن عصائب الذهب والفضة فيها تفافيح ذهب وفضة . وينصب لدوغا كرسى يجلس عليه ويضرب الآلة التى هى من قصب وتحتها قريعات ، ويغنى بشعر يمدح السلطان فيه ويذكر غزواته وأفعاله . ويغنى النساء والجوارى معه ويلعبن بالقسى . ويكون معهن نحو ثلاثين من غلمانه ، عليهم جباب الملف والحمر ، وفى رؤوسهم الشواشى البيض ، وكل واحد منهم متقلد طبله يضربه . ثم يأتى أصحابه من الصبيان ، فيلعبون ويتقلبون فى الهواء كما يفعل السندى ، ولهم فى ذلك رشاقة وخفة بديعة . ويلعبون بالسيوف أجمل لعب ، ويلعب دوغا بالسيف لعبا بديعا ، وعند ذلك يأمر السلطان له بالإحسان . فيؤتى بصرة فيها مائتا مثقال من التبر ، وينثر ما فيها على رؤوس الناس . وتقوم الفرارية فينزعون فى قسيهم شكرا للسلطان . وبالغد يعطى كل واحد منهم لدوغا عطاء على قدره . وفى كل يوم جمعة بعد العصر يفعل دوغا مثل هذا الترتيب الذى ذكرناه» .

«وإذا كان يوم العيد وأتم دوغا لعبه ، جاء الشعراء ويسمون الجُلا (بضم الجيم) وأحدهم جالى ، وقد دخل كل واحد منهم فى جوف صورة مصنوعة من الريش تشبه الشقشاق ، وجعل لها رأس من الخشب له منقار أحمر كأنه رأس الشقشاق . ويقفون بين يدى السلطان بتلك الهيئة المضحكة ، فينشدون أشعارهم . وذكر لى أن شعرهم نوع من الوعظ يقولون فيه للسلطان إن هذا البنبى الذى عليه ، جلس فوقه من الملوك فلان وكان من أحسن أفعاله كذا ، وفلان وكان من أفعاله كذا ، فافعل أنت من الخير ما يذكر بعدك . ثم يصعد كبير الشعراء على درج البنبى ، ويضع رأسه فى حجر السلطان . ثم يصعد إلى أعلى البنبى فيضع رأسه على كتف السلطان الأيمن ، ثم على كتفه الأيسر ،

وهو يتكلم بلسانهم ، ثم نزل . وأخبرت أن هذا الفعل لم يزل قديما عندهم قبل الإسلام ، فاستمروا عليه .

«وحضرت مجلس السلطان في بعض الأيام ، فأتى أحد فقهائهم وكان قدم من بلاد بعيدة ، وقام بين يدى السلطان وتكلم كلاما كثيرا . فقام القاضى فصدقه ، ثم صدقهما السلطان . فوضع كل واحد منهما عمامته عن رأسه ، وترب بين يديه . »[٢] وحتى عندما أرسلت سفارة من مالى إلى بلاط مراكش حملت معها أوعية من التراب ليترب أفرادها رؤوسهم .[٣] ولكن المسلمين فى البلاط لم يكونوا يفعلون ذلك ، وإنما يكتفون بالتصفيق . وبالمثل فإن الأهالى يدخلون الحضرة الملكية وهم راكعون ، فى حين يعفى الأجانب من هذه العادة .

---

(٢) جميع الاقتباسات الواردة فى هذا الفرع مأخوذة ، كما هو واضح ، عن تحفة النظار . وقد أورد بانيكار بعضها مرسلا وأورد البعض الآخر بين معقوفين ، وقد أوردتها جميعا بنصها الأصلى . تحفة النظار ، الصفحات ٦٩٢ إلى ٦٩٦ .

ويقول بنيكار فى بداية الفرع التالى «رابعا» إن إبن بطوطة هو شاهدنا الرئيسى على عظمة بلاط مالى ، على حين أن المراجع العربية الأخرى لا تخلو من إشارات من هذا القبيل . وفيما يلى اقتباس لا يقل أهمية وطرافة أنقله عن صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٠٠ .

«أما جلوس السلطان فى قصره فإنه يجلس على مصطبة كبيرة ، على دكة كبيرة من أبنوس ، كالتخت على قدر المجلس العظيم المتسع ، عليها أنياب الفيلة فى جميع جوانبها ، الناب إلى الناب ، وعنده سلاح له من ذهب كله : سيف ومزراق ، وقوس ، وتركاش ونُشّاب ، وعليه سراويل كبير ، مُفصَّل من نحو عشرين نصفية ، لا يلبس مثله أحد منهم ، بل هو من خصوصيته ؛ ويقف خلفه نحو ثلاثين مملوكا من الترك وغيرهم ممن تبتاع له من مصر ، بيد واحد منهم جتر من حرير عليه قبة ، وطائر من ذهب صفة بازى يحمل على يساره ، وأمراؤه جلوس يمينا وشمالا ؛ ثم دونهم أعيان من فرسان عسكره جلوس ؛ وبين يديه شخص يغنى له وهو سيافه ، وآخر سفيرٌ بينه وبين الناس يسمى الشاعر ؛ وتنتهى إليه الشكاوى والمظالم فيفصلها بنفسه ؛ ولا يكتب شيئا فى الغالب ، بل يأمر بالقول بلسانه ؛ وحوله أناس بأيديهم طبول يدقون بها ، وأناس يرقصون وهو يضحك منهم ؛ وخلفه صنجقان منشوران وأمامه فرسان مشدودان محصَّلان لركوبه متى أحب .»

(٣) «أنه لما قدم الحاج موسى الونجراتى رسولا عن منسى سليمان إلى مولانا أبى الحسن رضى الله عنه كان إذا دخل المجلس الكريم حمل بعض ناسه معه قفة تراب فيترب مهما قال له مولانا كلاما حسنا كما يفعل ببلاده» تحفة النظار ، حاشية بالصفحة ٦٩٤ .

رابعاً

إبن بطوطة مرة ثانية هو شاهدنا الرئيسى على روعة بلاط مالى والاحتفالات المرتبطة بالتشريفات الملكية (المشور) «ذكر جلوسه بقبته – وله قبة مرتفعة بابها بداخل داره يقعد فيها أكثر الأوقات . ولها من جهة المشور طيقان ثلاثة من الخشب مغطاة بصفائح الفضة ، وتحتها ثلاثة مغشاة بصفائح الذهب ، أو هى فضة مذهبة ، وعليها ستور ملف . فإذا كان يوم جلوسه بالقبة رفعت الستور ، فعلم أنه يجلس . فإذا جلس أخرج من شباك إحدى الطاقات شرابة حرير قد ربط فيها منديل مصرى مرقوم ، فإذا رأى الناس المنديل ضربت الأطبال والأبواق .

« ثم خرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد فى أيدى بعضهم القسى وفى أيدى بعضهم الرماح الصغار والدرق . فيقف أصحاب الرماح منهم ميمنة وميسرة ، ويجلس أصحاب القسى كذلك . ثم يؤتى بفرسين ملجمين ، ومعهما كبشان يذكرون أنهما ينفعان من العين . وعند جلوسه يخرج ثلاثة من عبيده مسرعين ، فيدعون نائبه قنجا موسى وتأتى الفرارية وهم الأمراء ويأتى الخطيب والفقهاء فيقعدون أمام السلحدارية يمنة ويسرة فى المشور ويقف دوغا الترجمان على باب المشور وعليه الثياب الفاخرة من الزردخانة وغيرها ، وعلى رأسه عمامة ذات حواشى لهم فى تعميمها صنعة بديعة ، وهو متقلد سيفا غمده من الذهب ، وفى رجليه الخف والمهاميز ولا يلبس أحد ذلك اليوم خفا غيره ، ويكون فى يده رمحان صغيران ، أحدهما من ذهب والآخر من فضة وأسنتهما من الحديد .

« ويجلس الأجناد والولاة والفتيان ومسوفة وغيرهم خارج المشور ، وفى شارع هنالك متسع فيه أشجار ، وكل فرارى بين يديه أصحابه بالرماح والقسى والأطبال والأبواق ، وبوقاتهم من أنياب الفيلة ، وآلات الطرب المصنوعة من القصب والقرع ، وتضرب بالطاعة ولها صوت عجيب . وكل فرارى له كنانة قد علقها بين كتفيه ، وقوسه بيده ، وهو راكب فرسه ، وأصحابه بين مشاة وركبان .» [٤]

---

(٤) تحفة النظار : الصفحتان ٦٩٢ و٦٩٣ .

وقد أعقبت عودة منسا موسى من مصر إدخال عادات إسلامية إلى البلاط . فالمظلة [٥] ، على سبيل المثال ، أصبح معترفا بها كشارة ملكية ؛ وبدأت عباءات الشرف والعمائم تمنح تعبيرا عن الحظوة لدى الملك . ويقول كعت إن أسكيا محمد بَنكُنَ كان أول إمبراطور يدخل الفُتُرِفُ – وهو نوع من البوق . وقبل ذلك كان حكّام أيَرْ هم وحدهم الذين يستخدمون الفترف . كما أدخل بنكن عادة أخرى هي أن تسبقه موسيقى الدفوف عندما يخرج في رحلة نهرية ، وكان أيضا أول من صنع أزياء من القطن لخدمه ، وزيّنهم بالأساور . [٦] وفي دولة السنغي كان من عادة الملك حين يكون في مجلسه ويريد أن يبصق ، أن يتقدم إليه أحد رفيقه ويمد إليه كمه فيبصق فيه ، ويقدم رفيق آخر قطعة قماش كي يجفف شفتيه . وعندما يخرج الملك أو أمير ملكي في جولة بالمدينة على ظهر جواد ، يسير على جانبية رجلان يمسكان بسرجه ، ويضع الملك أو الأمير يديه على كتفيهما . [٧]

وجرت العادة في مالي ، عندما يصل أي عربي إلى المدينة ، أن يقدمه رئيس الجالية البيضاء رسميا في البلاط . [٨] كما اعتاد السلطان أن يقدم

---

(٥) « ومنها : المظلة ، واسمها بالفارسية : الچتر ، ويعبر عنها العامة الآن بالقبة والطير ، وهي قبة من حرير أصفر ، تحمل على رأس الملك ، على رأس رمح بيد أمير يكون راكبا بحذاء الملك ، يظلله بها حالة الركوب من الشمس في المواكب العظام ، وسيأتي ذكرها في الكلام على ترتيب المملكة في الدولة الفاطمية . » صبح الأعشى ، الجزء الثاني ، الصفحة ١٣٢ .

(٦) « وأول من فصل ملف وند وصنع السوار لخدمه وأول من مشى بالدفوف في السفينة وهو الذي اخترع فتوف وغبتند التي اللهو وفترف يشبه البوق وغبتند وهو كالطبل ... وهما معروفان عندهم ولم يكن فترف إلا لسلطان أير » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٨٤ . [ملف وند معناها «أزياء من الجوخ» ، كما ورد في الترجمة الفرنسية لتاريخ الفتاش ، الصفحة ١٥٨ (Vetements de drap) .]

(٧) « وكان إذا جلس مجلسه جاء رجل كلما أراد أن يتفل مد إليه كمه فيتفل فيه وكان إذا ركب يمشي معه رجلان يأخذ أحدهما قربوس سرجه على يمينه والآخر على يساره ويضع يده اليمنى على رأس الذي على يمينه واليسرى على رأس الذي بشماله وتبعوه في ذلك أولاده » . المرجع نفسه ، الصفحة ١١٦ . [القربوس هو حِنْو السرج ، أي قسمه المقوس المرتفع من قدام المقعد ومن مؤخره ؛ يتفل معناها يبصق .]

(٨) «فوصلت إلى مدينة مالي حضرة ملك السودان .. وصلت إلى محلة البيضان وقصدت محمد بن الفقيه .... ولما فرغ من ذلك تقدمت فسلمت على منسى سليمان .....» تحفة النظار ، الصفحتان ٦٩١ و٦٩٢ .

للزائر هدية رمزية تعبيرا عن الترحيب بقدومه . ولم يكن إبن بطوطة راضيا عن هديته . [٩] فعلى خلاف طغلق حاكم دلهى [١٠] لم يكرمه إمبراطور مالى على الرغم من أنه أقام شهرين فى بلده . ولذلك فاتح الدوغا الذى أشار عليه أن يشكو إلى الإمبراطور . ومن الواضح أن سليمان قد نسى وجود إبن بطوطة ، فأصلح خطأه بأن أمر له بحصان ، ومنحه كل ما يلزم لحياة مريحة ، كما أنعم عليه بهدية مقدارها ثلاث وثلاثون دوكة وثلث دوكة . وعند مغادرة إبن بطوطة البلاد منحه الإمبراطور هدية مقدارها مائة دوكة . [١١]

خامسا

ويلى الملك مرتبة أمراء الأسرة المالكة والرؤساء البارزون . وهؤلاء الرؤساء أمراء تابعون . وقد جرت العادة فى بلاد السودان على استقدام أبناء الأتباع فى بلاط الحاكم الأعلى ، وهى عادة مكّنت الإمبراطور من أن يغرس الشعور

---

(٩) «ذكر سلطان مالى – وهو السلطان منسى سليمان .. وهو ملك بخيل لا يرجى منه عطاء كبير ... واستدعى الأمراء والفقهاء والقاضى والخطيب وحضرت معهم .... ذكر ضيافتهم التافهة وتعظيمهم لها – ولما انصرفت بعث إلى الضيافة فخرج ابن الفقيه من داره مسرعًا حافى القدمين وقال قم قد جاءك قماش السلطان وهديته فقمت وظننت أنها الخلع والأموال فإذا هى ثلاثة أقراص من الخبز وقطعة لحم بقرى .... فعندما رأيتها ضحكت وطال تعجبى من ضعف عقولهم وتعظيمهم الشيء الحقير . » المرجع نفسه ، الصفحتان ٦٩١ و٦٩٢ .

(١٠) المعنى هنا ليس طغلق نفسه ، وإنما إبنه محمد طغلق (١٣٢٥ – ١٣٥١) ، الذى امتدت فى عهده رقعة بلاده ، وعرف بأنه طاغية سافك الدماء ، وقد بذل بعض المؤرخين محاولة لتبييض وجهه ، مثل إبن بطوطة ، « ولما مات السلطان تغلق استولى إبنه محمد على الملك من غير منازع له ولا مخالف عليه ... وهذا الملك أحب الناس فى إسداء العطايا وإراقة الدماء فلا يخلو بابه عن فقير يغنى أو حى يقتل وقد شهرت فى الناس حكاياته فى الكرم والشجاعة وحكاياته فى الفتك والبطش بذوى الجنايات» ، المرجع نفسه ، الصفحة ٤٦٥ .

(١١) وفيما يلى بقية قصة إبن بطوطة مع منسى سليمان : «ذكر كلامى السلطان بعد ذلك وإحسانه إلىّ – واقمت بعد هذه الضيافة شهرين لم يصل إلى فيهما شيء ... فتكلمت مع دوغا الترجمان فقال تكلم عنده وأنا أعبر عنك بما يجب فجلس فى أوائل رمضان وقمت بين يديه وقلت له إنى سافرت بلاد الدنيا ولقيت ملوكها ولى ببلادك منذ أربعة أشهر ولم تضفنى ولا أعطيتنى شيئا فماذا أقول عنك عند السلاطين ... فأمر لى عند ذلك بدار أنزل بها ونفقة تجرى علىّ ... وأعطانى معهم ثلاثة وثلاثين مثقالا وثلثا وأحسن إلى عند سفرى بمائة مثقال ذهبا» ، المرجع نفسه ، الصفحة ٦٩٢ .

بالولاء فى قلوب الأمراء الذين يدفعون الجزية ، وسمحت بأن يكون هؤلاء الأمراء على دراية بعادات البلاط الإمبراطورى وأساليبه ، كما أنها بمثابة تدبير وقائى : فالأمراء يعتبرون رهائن لضمان حسن سلوك آبائهم .

ويلى أمراء الأسرة المالكة كبار موظفى الإمبراطورية وولاة المقاطعات وقواد الجيش غير المنتمين إلى الأسرة المالكة . ويشكل هؤلاء الطبقات العليا . وهذه القشرة العليا الرقيقة – وقد رأينا فى الفصل الخاص بالإدارة كم هى رقيقة – هى صاحبة السلطة الفعلية ، وكادت أن تمتلك كل الأرض .

وللأمراء أهمية خاصة ، فهم مجموعة كبيرة بسبب كثرة أبناء الملك من حريمه الضخم ، والأسكيا العظيم يشتهر بأن لديه مائة من الأبناء ، ويشغل هؤلاء الأمراء معظم المناصب السياسية والرتب العالية فى الجيش ، ولأنهم يشكلون طبقة مستقلة – المَيْنا [١٢] فى برنو ، والسَنّ [١٣] فى سنغى – فهم يعدون عنصر اضطراب ، غير أنه ما عدا فى الموسى حيث يُقْطع أولاد الحاكم ضياعا واسعة ، استمرت عادة الأباطرة فى بلاد السودان فى استخدام الأمراء الملكيين فى الإدارة المباشرة . وقد حاول الحكام انتهاج سياسة تدعم نفوذ الأسرة الحاكمة باتخاذهن زوجات من قبائل مختلفة وتزويج بناتهم بأتباعهم . وهكذا تزوج مقشرن كى بإحدى بنات الأسكيا ، [١٤] ولو كان محمد الطورى من السركلى وإبن أخت سنّ على لتزوجت أخت هذا الأخير بأحد رؤساء السركلى .

---

(١٢) المَيْنا فى لغة الكانورى بمعنى أمير (Mai - Na أو Maina) ، على حين أن الماى رام أو المَرْيم (Mai - Ram أو Mariam) فى لغتهم بمعنى أميرة .

(١٣) سَنّْ بلغة السنغى تعنى الرئيس أو رب الأسرة ، أو أحد أعضاء الأسر النبيلة . وكان السَنّْ يعيشون فى تمبكت فى حى مستقل هو حى سنكرى (حى السَنّْ) ، وقد أطلق اسم سنكرى على المسجد الذى أقيم هناك (مسجد سنكرى) . «وأما سَنّْ بسين مفتوحة فنون ساكنة فهم أجل عباد الله فى زمانهم كرما وحفظ المروءة والسكوت وترك ما لا يعنى ولزوم بيوتهم ونفع المسلمين ورفد محتاجهم وتلك فيهم خلقة وجبلة رحمهم الله ورضى عنهم ...» تاريخ الفتاش ، الصفحة ١٧٩ .

(١٤) «وما عرفنا من الملوك من تولى له عشرة من الأولاد السلطنة سوى داوود وحده ومن أولاده أيضا ... ومن الإناث فكثيرة ومنهن ... وبنْتَ زوجة مَقْشَرَنْ كى ...» المرجع نفسه ، الصفحة ١١٨ .

يقـول إبن أمير حـاجب إن الطبقـات العليـا تتمتـع بحق «السيد» . وقد استدعى حـاجب انتبـاه منسا موسى إلى تعـارض ذلـك مع الإسـلام وضرورة عـدم السـماح به . وتسـاءل الإمبـراطور عمـا إذا كـان يمكن أن تستثنى الأسرة المالكة من ذلـك ، ولكن عندمـا قيل له إن ذلـك غير ممكن أقلع عنه .(١٥) ومع ذلـك ظل هـذا الحق قائما ؛ إذ يذكر الفتاش أن حاكم بَرّ حصل على وعد من أسكيا محمـد بـألا تؤخذ بناتـه كمحظيات وإنمـا كزوجـات شرعيات .(١٦) ويبدو من هذه الرواية أن الأمراء التابعين عليهم أن يرسلوا بناتهم إلى الحريم الملكى . وتقول تأريخ كانو بوضوح إن محمد رومفا قد أدخل «حق السيد» فى بلاد الهوسا .

ولم يقتصر الأمر على ذلـك ؛ فالفجـور يشجعـه حق الحـاكم فى أخـذ بنـات الجنـود كمحظيات . وسـبب ذلـك أن الجنود كـانـوا يعـدون رقيقـا للإمبـراطور ، ومن هنـا فله حـق على بنـاتهم . ولما كـان الرق هـو أسـاس المجتمـع فى بـلاد السـودان ، فقـد تفشى الفجـور على نطـاق واسـع . فالطبقات العليـا كانت تحتفظ بحريم كثير وكذلك بعـدد كبير من الجـوارى . كما جـرت عـادة السلاطين أن يقدمـوا هبـات من الجـوارى لكبـار النبـلاء والعلمـاء ، إذ كانت هـذه الهبـات إحـدى الوسـائل القليلة لكسب رضـاهم . لذلـك فلا عجب أن ذكر الفتاش أنه لم يولد أحد من الأساكى من أم حرة عدا أسكيا محمد مؤسس الأسرة .

---

(١٥) «قال فى مسالك الأبصار : وذكر لى عنه إبن أمير حاجب : أنه حكى أن من عادة أهل مملكته أنه إذا نشأ لأحد منهم بنت حسناء ، قدمها له أمَةً موطوءة ، فيملكها بغير تزويج مثل ملك اليمين – فقلت له : إن هذا لا يحل لمسلم شرعا – فقال : ولا للملوك ؟ – فقلت : ولا للملوك وأسأل العلماء . فقال : والله ما كنت أعلم ذلك ! وقد تركته من الآن ...» صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٩٦ .

(١٦) «دخل معه بَركَى منس كُورَ وأمسك بمَعْمَدة من الشبكة الشريفة وقال يا اسكيا محمد هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا أبو بكر وعمر رضى الله عنهما دخلت فى حرمتهم أطلب منك أشياء الأولى أن لا تجعل بناتى فى الدار إلا بالنكاح » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٦٩ . [دار هذا الحديث فى الأراضى المقدسة حيث كان بركى فى رفقة اسكيا محمد فى رحلته للحج .]

وعلى الرغم من أن الحريم الكبير كان شائعا فإن النساء كن موضع تقدير ، ولا ينظر إليهن بأية حال على أنهن مجرد متاع . وحتى أيام أسكيا محمد فى غاو ، ومحمد رومفا فى كانو ، لم يكن النقاب قد عرف بعد . فضلا عن ذلك فإن الملكة الأم والملكة تشغلان مناصب هامة فى البلاط ، لا فى الدول الوثنية وحدها ، وإنما فى برنو وبلاد الهوسا أيضا . وكما أشار بلُّ فإن هذه الدول كانت تضع الملكة على رأس الحريم ، وتلك عادة غير إسلامية سادت فى إفريقية غربيها وشرقيها ، كما سادت بين الغاندا بدورهم .

وفى برنو كان للملكة الأم - الماجيرا - مكانة هائلة ، ودور هام فى احتفالات البلاط ، كما كانت المسؤولة الوحيدة عمّن يضمهم البيت الملكى ، وعن طعام الإمبراطور ، ولها حق الفيتو على كل تصرفات الإمبراطور . أما الإمبراطورة - الغوسما [(١٧)] - فتشغل بدورها منصبا واسع السلطات . وبالنسبة لمالى لا تتوفر لدينا لسوء الحظ أية معلومات أصيلة ، ولكن إبن بطوطة يذكر أن العادة جرت بتتويج الإمبراطور مع الإمبراطورة التى تشاركه السلطة الأمبراطورية . [(١٨)] وبين الموسى أيضا تُتَوَّج الملكة وتشارك فى السلطة مشاركة فعالة . وفى أشانتى تقوم الملكة الأم بدور نشط للغاية . وبين الأكان ينتخب الملكة الأم مجلس العشيرة الملكية ، وهى ترأس الدولة عند غياب الملك . وإذا مات أحد الحكام فإن الملكة الأم تتشاور مع كبار الموظفين لتعيين خلف له . أما فى سنغى حيث قامت مملكة إسلامية تماما ، وفى إمبراطورية الفولانى ، فليس للملكة الأم والملكة أى دور على الإطلاق . وهكذا فإنه حتى فى برنو ، التى خلا إسلامها من الشبهات ، سادت الأعراف الوثنية الخاصة بالقرابة والنسب .

---

(١٧) وردت «غومسو» "Gumsu" فى إمبراطورية البرنو الإسلامية ، المرجع السابق ، الصفحة ٢١٠ ، وكذلك «غومسا» "Gumsa" فى بالمر ، Bornu Sahara and Sudan ، الصفحة ٢٦ .

(١٨) «واتفق فى أيام إقامتى بمالى أن السلطان غضب على زوجته الكبرى بنت عمه المدعوة بقاسا .. وهى شريكته فى الملك ويذكر إسمها مع إسمه على المنبر » . تحفة النظار ، الصفحة ٦٩٧ .

والطريقة المتحررة غير العادية التي يعامل السودان النساء بها تنعكس بدورها في موقف الشيخ عثمان الذى عالج هذه القضية بطبيعة الحال بالرجوع إلى القرآن . وقد دلّل على أن القرآن لم يخص المرأة فى أية آيةٍ منه بإعداد الطعام وغسل الملابس ، وإن ألزمهن بطاعة أزواجهن بما يتفق وتعاليم القرآن وأحكام السنة . ولذلك فمن الضرورى أن يتعلمن ، أما الرجال الذين لا يعلّمون بناتهم أو زوجاتهم فإنما يفعلون ذلك بدافع من حب الذات .

وهكذا كانت المرأة فى إفريقية تحتل مكانا مرموقا . فحتى فى مالى وبرنو حيث أصبح الإسلام هو الدين التقليدى أُعْطِيت المرأة مكانة عالية . ولعل مرجع ذلك أن البربر والطوارق أصحاب أعظم أثر على الإسلام فى بلاد السودان يكرّمون المرأة . ويقول إبن بطوطة إن الإباحية كانت سائدة بين الجنسين . «دخلت يوما على أبى محمد يندكان المسوفى الذى قدمنا فى صحبته ، فوجدته قاعدا على بساط ، وفى وسط داره سرير مظلل عليه امرأة معها رجل قاعد ، وهما يتحدثان . فقلت له ما هذه المرأة ؟ فقال هى زوجتى . فقلت وما الرجل الذى معها ؟ فقال هو صاحبها ! فقلت له أترضى بهذا وأنت قد سكنت بلادنا وعرفت أمور الشرع ؟ فقال لى مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وحسن طريقة ، لا تهمة فيها ، ولسن كنساء بلادكم . فعجبت لرعونته وانصرفت عنه» . ويمضى إبن بطوطة قائلا : «دخلت يوما على القاضى بإيوالاتن .. فوجدت عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن فلما رأيتها ارتبت وأردت الرجوع فضحكت منى ولم يدركها خجل ، وقال لى القاضى لم ترجع ؟ إنها صاحبتى ، فعجبت من شأنهما فإنه من الفقهاء الحجاج . وأُخْبِرت أنه استأذن السلطان فى الحج فى ذلك العام مع صاحبته ، لا أدرى أهى هذه أم لا ، فلم يأذن له» [١٩] .

وتلى هؤلاء الأمراء والملوك الأتباع طبقة المعلمين التى يتوقف نفوذها الفعلى على ورع الملك وعلى سياسته . فخلال حكم الأسكيا الذى منحوه تأييدهم كطبقة ، أو خلال حكم أباطرة البرنو الأخيرين ، تمتعوا بنفوذ قوى للغاية . وفى الوثنية

---

(١٩) ورد هذان الاقتباسان فى تحفة النظار ، الصفحة ٦٨٨ .

كان السحرة يحتلون مكان المعلمين ، فللسحرة نفوذهم القوى فى إفريقية الاستوائية ، ويعدون بصورة ما طبقة وراثية . وفى داهومى ربما كان النظام أشد تقدما بسبب نظرته إلى الدين كوسيلة إدارية . فلقد أدرك حكام داهومى دلالة الدين فى المجتمع ، ومع ذلك فإن داهومى ليست فريدة فى هذا المضمار . ففى بلاد الموسى ، وكذلك فى بلاد اليوربا ، يحتل الكاهن مكانة هامة ، ويعتبر الدين والكهانة أداتين للتكامل القومى ، ومن ثَمّ عنصرين هامين فى المجتمع .

ويلى الكهنة التجار ورؤساء الطوائف الذين كانوا موظفين يعينهم القصر على الرغم من ضآلة مكانتهم . وكان لدى البعض منهم عدد كبير من الرقيق الذين يستخدمون إما كحمالين أو كادحين فى الورش . وبرغم أنهم نادرا ما اهتموا بالسياسة وأن دورهم الاجتماعى كان محدودا ، فقد قاموا بدور هام فى الاقتصاد .

ودونهم بكثير يأتى الأحرار الذين يعرفون فى بلاد الهوسا بالتلاكاوا . وطبقة التلاكاوا أكبر مجموعة فى كل المجتمعات الإفريقية . فبارث على سبيل المثال يعتقد أن حوالى نصف سكان إمارة كانو ينتمون إلى هذه الطبقة ، وأن أفرادها بصورة ما أسوأ حالا بكثير من رقيق المنازل لدى الحكام وكبار النبلاء . فبينما باستطاعة هؤلاء الرقيق الارتقاء إلى المناصب العالية ، بل أن يصبحوا حكاما ، فإن الفلاحين الفقراء سحقتهم الضرائب ، وخربت الحروب المستمرة حقولهم ؛ كما أنهم يؤسرون فى حملات الإغارة من أجل الرقيق ، ويتعين عليهم باستمرار أخذ الحذر لا من غدر حكامهم فقط ، بل من قطاع الطريق من الطوارق والبربر . وقد أخذنا فيما سبق عن حدود العالم كى نوضح كيف كان التجار المصريون يأسرون أطفال الفلاحين الإفريقيين ؛ كما توضح الرسالة التى بعث بها ماى برنو إلى السلطان المملوكى فى مصر أن الفلاحين الأحرار ، سواء أكانوا مسلمين أم وثنيين ، ليسوا من هذه الناحية أفضل حالا من أسلافهم فى العصور المبكرة . ويحدث من حين لآخر ، إذا ما عجز أحد الحكام عن أسر الرقيق ليدفع ثمن وارداته ، أن يبيع فلاحيه رقيقًا .

ويلى الأحرار من هم من نسل الرقيق ، فهؤلاء حتى وإن لم يعودوا رقيقا لا يصبحون أبداً أحراراً تماماً . فهم يستخدمون عادة فى بيوت أسيادهم ، ويظلون من موالى الأسرة ، كما يقدمون الهدايا لأسيادهم السابقين الذين من حقهم أن يتخذوا من بناتهم جوارى لهم . بيد أنه كما يذكر باب كور [٢٠] فإن بعض الأطفال يحررون عند ميلادهم وتتبناهم الأسرة ، ويكون فى إمكانهم الزواج بنساء حرائر ، بل إن بعضهم تزوج ببنات أسيادهم .

ويلى الأحرار كذلك من يولدون لآباء من الرقيق ؛ فهؤلاء يظلون رقيقًا ، ويعمل أغلبهم فى خدمة أسيادهم ، ويظلون على أرضهم . ومع ذلك فهم لا يفلحون الأرض ، وإنما يصبحون من أرباب الحرف ، وباستطاعتهم أن يعملوا فى مزارعهم الخاصة بعد الانتهاء من العمل الذى يعهد به أسيادهم إليهم . وهناك حدود لحريتهم ؛ فليس باستطاعتهم مغادرة أرض سيدهم دون إذن منه ، وعليهم أن يحصلوا على إذنه قبل الزواج بفتاة سرعان ما تصبح جارية لسيدهم إذا حازت إعجابه . ومن ناحية أخرى لا يستطيع سيدهم بيعهم ، وبذلك يكونون أكثر شبها بالأقنان منهم بالرقيق .

وهكذا يمكن بوجه عام تقسيم الرقيق إلى أربع فئات . فى القمة يأتى الرقيق فى بيت الإمبراطور وبيوت علية القوم . وهؤلاء لا يديرون أملاك سيدهم فقط ، بل يستطيعون أيضا أن يصبحوا ضباطًا ، وأن يمارسوا نفوذًا قويًا فى الجيش . ويليهم رقيق الجيل الثانى الذين يتمتعون ببعض الحقوق ولا يمكن بيعهم . وإلى الفئة الثالثة ينتمى الرقيق الذين يحترفون المهن . وأخيرا يأتى الرقيق الذين يفلحون الأرض أو يعملون فى المناجم .

وقد قامت الزراعة فى بلاد السودان على عمل الرقيق . فالملك مثلا يمتلك عدداً كبيراً من القبائل ملكية شخصية . من ذلك أن الأسكيا حصل بعد انتصاره على سنّ بار على أربع وعشرين قبيلة مملوكة لأسرة سنّ ، وحرر منها

---

(٢٠) انظر ، الحاشية ٦ – ٦٨ أعلاه .

الأسكيا إثنتى عشرة قبيلة بناء على مشورة عبد الرحمن السيوطى ، أما القبائل الإثنتا عشرة التى احتفظ بها فهى أساساً طبقات محترفة تشتغل بأعمال تخص العبيد .[٢١] وكان الاقتصاد يعتمد على هذه القبائل الإثنتى عشرة إلى جانب الرقيق الآخرين الذين يؤسرون فى الحروب . وهؤلاء جميعًا مرتبطون بالأرض ويمكن بيعهم أو تقديمهم كهدايا هـم والأرض التى يفلحونها . وقد قدم الأسكيا إلى القاضى محمد تُلِ ، على سبيل الهدية ، أكثر من سبعين قرية تقيم فيها ثلاث من القبائل المستعبدة ، وكذلك الإيجار الذى يدفعه الرجال الأحرار فى هذه القرى . وذلك مجرد مثال واحد .[٢٢] فالكرم الملكى يتجلى فى صورة هدايا من الرقيق ومن الضياع بمن عليها من الرقيق . وهذا النوع الأخير يقدم إلى العلماء . ولكون القبائل المستعبدة أساس الاقتصاد فإنه يجدر بنا تتبع دورها فى الإمبراطورية .

وثلاث من القبائل التى حصل عليها الأسكيا من سنّ بار تتبع البمبرة واعتادت العمل فى ضياع أباطرة مالى . كذلك استخدم سنّ بار أفرادها كأقنان زراعيين ، فيعطى كل زوج قطعة أرض صغيرة يزرعانها لسيدهما ، ويكون محصولها لمن يضمهم البيت الملكى ، ويخزن الفائض فى المخازن الملكية . وظل هذا النظام معمولا به حتى أيام أسكيا محمد الذى انتهج سياسة مختلفة ، فقرر

---

(٢١) دثم تهيأ أسكى الحاج محمد للرجوع فلما وصل مصر وجد هناك الشيخ عبدالرحمن السيوطى فسأله ... ثم سأله أيضا عن أمر أربعة وعشرين قبيلة الذين وجدهم بيد شى بار مملوكة له ورثهم عن آبائه فقال الشيخ صفهم لى فوصفهم له فقال له الشيخ أما نصفهم فملك لك سائغ وأما النصف الآخر فتركهم أفضل لأن فيهم شبهة فقال للشيخ فما الذين ملكهم لى سائغ فقال الشيخ الأولى قبيلة ... ثم قال أسكى للشيخ المذكور فما حال من ادعى من هذه القبائل أنه ابن حر أو حرة فقال الشيخ أما من يثبت أن أباه حر وأمه من هذه القبائل فملكه لك سائغ وأما من ثبت ....» تاريخ الفتاش ، الصفحات ١٢ إلى ١٤ .

(٢٢) «والتنبيه الثانى نذكر فيه ما للشيخ العالم التقى الولى الصالح محمد تل وينسبونه إلى بنى مداس من الكرامات والعطاء من الأمير اسكيا ... وجعل له أن يركب جمله ويسير به نهارا واحدا ويكون كل ما وجد فى تلك المسافة من ثلاث قبائل ... ملكا له أى للشيخ محمد تل ومن ليس من هؤلاء فيكون حوزا له ومبدأ تلك المسافة ... ومنتهاه إلى تودكَسَر» المرجع نفسه ، الصفحتان ٣١ و٣٢ .

حداً أدنى يتعين على المزرعة أن تنتجه ، وحداً أقصى لما تحصل عليه الدولة منها ، وما يفيض عن ذلك يكون من حق الزارع . [٢٣]

وواجب القبيلة الرابعة هو قطع الحشائش اللازمة للجياد . وفي أيام الأساكي فرضت عليها أيضا مهمة جديدة هي صنع القوارب التي يستخدمها شبان القبيلة في قطع الحشائش من ضفة النهر . كذلك عهد إليها أسكيا محمد بمهمة رعاية الخيول الملكية . [٢٤] أما القبيلة الخامسة فعليها واجبان : أحدهما توفير الأسماك المجففة للبيت الملكي ؛ ثانيهما تلبية طلبات الأسكيا من وسائل النقل النهري . ولهذه القبيلة ميزة ما على غيرها ، فأبناؤها مكرسون كلية لخدمة الملك ، ولا يمكن لأحد أن يستخدمهم أو يبيعهم إلا بإذن صريح من الملك ، ما عدا الصقلي الذي منح بعضا منهم على سبيل الهدية . [٢٥] والقبيلة السادسة

---

(٢٣) «وسنذكر أسماء القبائل إن شاء الله ثلاثة منه من كفار قبائل بنبر الأولى ... فورثهم شي بار من أبيه شي عال .. ولكن هذه القبائل الثلاث من تلاد ملكي وعادتهم منذ كانوا بيد ملكي لا يتزوج أحد منهم إلا بعد أن أعطى أصهاره أربعين ألف ودع كراهية أن تدعى المرأة الحرية أو أولادها ورغبة في أن يكونوا مع أولادهم في ملك ملكي وهؤلاء القبائل الثلاثة المذكورة آنفا من أصل واحد ... وغرامتهم في زمن ملكي منذ كانوا ملكا له أربعون ذراعا للزوج وزوجته .. فلما ملكهم أسكي محمد جعل غرامتهم في كل عام إذا حصدوا زروعهم يأمر رجلا من قومه يأخذ غلاتهم فمن استطاع منهم أن يعطي عشر أفتات أخذها ومن استطاع عشرين فتا أخذها وهكذا إلى ثلاثين فتا فلا يجاوزها لأن هذا هو الحد الذي لا يزاد فوقها ولو استطاع صاحب الغرامة ألفا وكان اسكي محمد يأخذ بعض أولادهم ويجعلهم أثمان الأفراس» . المرجع نفسه ، الصفحتان ٥٥ و٥٦ . [التلاد : كلمة عربية صحيحة معناها التالد أو المال الأصلي القديم ، والمقصود هنا الرقيق الذين ولدوا في قصر ملكي ؛ الفت يساوي حوالي ١٢٠ لترا والجمع أفتات .]

(٢٤) «وأما القبيلة الرابعة والمسماة جِنْبِكِتْ .. ومعنى الكلمة في لغتهم قطاع الحشيش .. وغرامتهم .. قطع الحشيش للأفراس إلى أن صاروا في يد اسكي محمد وتركهم ووجدهم لا يصلحون إلا لخدمة الأفراس ولكن زادهم اسكي محمد بأن أمر كبراءهم أن يصنعوا لصبيانهم خدم الأفراس سفنا يخدمون بها الأفراس وكان اسكي محمد يأخذ بعض صبيانهم ويخدمهم أفراسه أين وجدهم» المرجع نفسه ، الصفحتان ٥٦ و٥٧ .

(٢٥) «وأما القبيلة الخامسة هم الزناجية ... يأخذ غرامتهم كلما غاص البحر يأخذ ممن استحق عشر حزمات من الحيتان اليابسات ومن استحق تسعا فتسع ... كل بقدره لاكن لا يزيد فوق العشر وكل من أتى إليه بحاجة من حوائج السفن أخذ منهم سفينة وملاحين ويعطيه واتخذهم اسكي محمد واختار لخدمته وأهل
=

مخصصة للعمل في البيت الملكي ، فأبناؤها يعملون خدمًا فيه ورسلاً خصوصيين للملك ، كما يقومون بدور الحرس للملك عند خروجه . ولكونهم مكرسين للخدمات الشخصية فقط ، فإنهم معفون من أن ينتجوا شيئًا لاستعمال القصر . [٢٦] أما أبناء القبائل من السابعة حتى الحادية عشرة فيستخدمون كحدادين فقط . وهذه القبائل من سلالة رقيق مسيحي قدم إلى غاو من جزر المحيط الأطلسي ، وعلى كل أسرة منها أن تصنع مائة حربة ومائة سهم في السنة . [٢٧]

وثمة حدث يلقي ضوءًا قويًا على الأحوال السائدة في تلك الأيام هو النزاع بين كعت وكَبَرَ فَرَمَ بشأن حقل أرز منحه الملك لكعت . من ذلك أن كبر فرم لم ينازع في المنحة الملكية ، وإنما ادعى أن الأرض جزء من الدومين العام ، وأنها كانت دائما جزءًا من أملاك كبر فرم يفلحه من أجل الملك . فضلا عن ذلك فإنه مهما يكن حق المعلم (كعت) في الأرض ، فهذا الحق لم يعد قائما لأنه لا يفلحها . وعلى الرغم من أن الموظف عجز عن أن يجد له مخرجا ، فإن أراضي الدومين الملكي تشكل جزءا بالغ الأهمية من اقتصاد الإمبراطورية .

وجرت العادة في بلاد السودان أن يستخدم الرقيق من أسرى الحرب في

=

بيته ما أذن لأحد أن يخدمهم ولا أن يبيعهم إلا هو وأولاده إلا الشريف الحسني صقل بن عال فإنه قد أعطاه أولاد زنجي يسمى قرنطلك كلهم وهو يومئذ ألفان وسبعمائة حين قدم هذا الشريف إلى كاغو . المرجع نفسه ، الصفحة ٥٧ . (الصقل : مولاي أحمد عرف بالصقل بنقال : «فقرأها فإذا أنا فيها أحمد بن عبد الرحمن بن إدريس .. بن الحسن بن علي بن أبي طالب وأمه فاطمة بنت رسول الله ..» المرجع نفسه ، الصفحة ١٩ .)

(٢٦) «وأما القبيلة السادسة فاسمها أربي وهم عبيده وحشمه وخدمه وبناته يخدم من زوجته ويحرثون له وأولاده وفتيانهم يحملون السلاح قدامة وخلفه في الحرب وغيرها ويرسلهم لحوائجه الخاصة ولا حاجة لهم غير خدمته ولذلك لا غلة عليهم» . المرجع نفسه ، الصفحة ٥٧ .

(٢٧) «وأما القبيلة السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة والحادي عشر فقبائل الحدادين ... وهؤلاء القبائل الخمس كلهم أبوهم واحد وهو عبدالنصارى حداد هرب من جزائر المحيط إلى كوكي ... وغرامتهم من زمن شي إلى زمن اسكي محمد مائة رمح ومائة سهم كل عام من كل بيت ... وأما الثانية عشر فقبيلة كُرُنْكَي ....» المرجع نفسه ، الصفحتان ٥٧ و٥٨ .

مزارع السلطان ما لم يكن قد بيعوا لتجار أجانب . وكانت تستخدم فى مزارعه بوجه خاص قبائل الموسى والدوغون والبمبرة التى حاربها السنغى . وكل عمل خيرى فى بلاد السودان كان أساسه الفلاحة التى يقوم بها الرقيق . وهكذا فإنه أجل إطعام فقراء تمبكت خصص أسكيا داوود للفقراء مزرعة عرفت بالجنان يفلحها ثلاثون من الرقيق . [٢٨]

أما مجموعة الرقيق الذين يعرفون برقيق البيت الملكى فلهم بطبيعة الحال وضع خاص ، فهم فرقة مختارة يتمتعون بميزات يفتقر إليها غيرهم من الرقيق . [٢٩] وتعد هذه المجموعة طريقة باهظة التكاليف لاختيار الموظفين الإداريين والقادة الحربيين . فالافتقار إلى طبقة حاكمة مناسبة – وهى الطبقة التى وفرها فى النظام الإقطاعى ملاك الأراضى ووفرتها فى المجتمع البورچوازى الطبقة التجارية – هو من أسباب ضعف النظام الإدارى فى بلاد السودان . كذلك لم تكن هناك مصلحة طبقية حيوية مرتبطة بالدولة ، لذا لم تكن هناك طبقة مستعدة للدفاع عنها أو طبقة لديها ما تفقده إذا انعدم وجود الدولة . والولاء الشخصى كانت له دائما حدود ، وتلك صعوبة عجز السودان عن التغلب عليها .

عيب آخر شاب التنظيم الاجتماعى فى بلاد السودان نابع من الأسس التى يقوم عليها . فقد كانت يفتقد ، إن شئنا تعبيرا أفضل ، ما يمكن أن يسمى إيديولوچية . فدول السودان ، بتجارتها وجهازها الإدارى وأساليبها الإنتاجية القائمة على الرقيق ، تحولت على نحو أو آخر إلى دول مغتصبة أساسها اقتناص البشر والاتجار بهم ، مما زَجَّ بها فى نزاع مع الإسلام . فهذه الدول ، وكذلك التجار الأجانب الذين يعيشون على الرقيق ، لم يكن من صالحهم أن

(٢٨) «فنادى الفع كعت كاتبة بكَرْ لَتْبَارْ ... وأعطاه (الأسكى) حرثا يقال له زَنْقَرِعْ فى أرض يونَ وعليها ثلاث عشر عبيد وهو الذى تخاصم (كعت) مع كبر فرم علوا عليه يحرثونه له اعطاه الحرث والعبيد وفَتَقَهُمْ واعطاه بِزْرَه أربعين صنَّية . » المرجع نفسه ، الصفحتان ١٠٨ و١٠٩ .

(٢٩) انظر الحواشى ١١ – ٨٦ و١١ – ٨٧ و١١ – ٨٨ أعلاه .

ينتشر الإسلام فى المناطق الوثنية . وقد أدى تحريم الإسلام لاسترقاق المسلمين إلى تباطؤ اعتناق الإسلام . بيد أنه فى الصراع بين المصالح التجارية والمصالح الدينية خرج الدين منتصرا .

سادسا

كان فن غرب إفريقية الذى ترك كل هذا الأثر العميق فى العالم الغربى فنًا هادفا . والإفريقيون لم يدركوا مذهب الفن من أجل الفن ، إذ أن الفن عندهم يخدم غرضين : أولهما غرض وحيد الجانب تماما هو توفير سلع الترف للبلاط ؛ وثانيهما دينى واجتماعى فى الأساس . وقد برعوا فى أشغال البرونز والنحاس والعاج والفضة ، وكان لأشغال البرونز فى إيفه وبنين وظيفتان ؛ أولاهما توفير الأشياء اللازمة للمعابد ؛ وثانيتهما تصوير تاريخ الشعب . فهذه الصور والتماثيل تعرض الجوانب المختلفة لتطور المجتمع ، وتيسر لنا فهم هذا التاريخ . فمن أعمال الحفر على قصر آهومى خلص ووترلوت إلى نتائج معينة عن تاريخ داهومى . ويمكن أن نلمس «طابع البلاط» فى الفنون من حقيقة أن رؤساء مختلف الطبقات الحرفية كانوا أعضاء فى البلاط الملكى ؛ ومن هؤلاء هنتوچى «رئيس الصيّاغ» الذى كان من رجال البلاط ذوى المرتبة الثانية فى داهومى . وقد سبق أن رأينا أن رؤساء مختلف الطوائف فى بنين ونوبى كانوا أعضاء فى البلاط الملكى .

والطابع الاجتماعى للفن الإفريقى يبرز بوضوح فى أقنعتهم . فهذه الأقنعة ، كما يشير هولاس ، هى التشخيص للدستور الأخلاقى ؛ الأداة الدائمة الموكل إليها المحافظة على تقاليد القبيلة وأعرافها .

سابعا

كان الإفريقيون يُصَوَّرون عادة على أنهم همج عراة . وهذا بالطبع أحد الأحكام المسبقة التى لا تبررها دراسة دقيقة للحقائق . فمن بين الأصناف التى كان السودان يستوردونها الأقمشة الحريرية المطرزة الغالية الثمن . وهذه

الأقمشة تستخدمها الطبقات العليا . ويصف تاريخ الفتاش كيف كان علية القوم يلبسون فى هذه الأيام ، ويقول إن بَلّمع كان يرتدى درعا من الحديد فوقه بوبو (قميص) أخضر مصنوع فى سوس ، وسيفه معلق فى عنقه . ويتمنطق بحزام ، (٣٠) وعندما أراد إسحاق الثانى أن يرى الخزانة التى كان سلفه يضع فيها ملابسه جاءه الرقيق بسبعين حقيبة مصنوعة من جلد النمر فى كل منها ثلاثون ثوبا من قماش يسمى دَبِ أو الحرير أو الجوخ ، وكل ثوب مكون من الجلباب الطويل المعروف بالبوبو وسروال وعمامة . (٣١)

كذلك لم يقتصر ارتداء الملابس على المناطق التى ساد فيها التأثير الإسلامى . ففى بنين كان عامة الناس يرتدون نطاقا حول وسطهم ، وترتدى النساء قميصا يصل إلى منتصف الساق ، أما الطبقات الغنية فملابسها أفضل كثيرا ، إذ يرتدى الفرد منها قميصاً داخلياً ، فوقه رداء أنيق من القطن يتراوح طوله بين ست عشرة وعشرين ياردة ومزين بزخارف عند الوسط ، ويعلوه لفاح طوله قرابة ياردة وعرضه شبران ، ويحلى بشريط من المخرمات . واعتادت النساء ارتداء ملابس رفيعة الذوق ، وأهم رداء لديهن قميص قطنى من الكاليكو «الذى ينسج فى هذه البلاد وهو بديع جداً ومشجر بألوان متعددة غاية فى الجمال» . ويغطين صدورهن بقماش جميل طوله ياردة ، ويتزين بعقود من المرجان وخواتم من النحاس ، ويستخدمن زيت النخيل على شعرهن الذى «يصففنه فى بكلات متفاوتة الحجم ، ويفرقنه عند الجبهة كعرف ديك مقلوب تشغل فيه التجعدات الصغيرة مكانها السليم» .

---

(٣٠) «وكان بلمع لابسا يومئذ درعًا من الحديد وجعله شعارا ولبس فوق ذلك قميصا سوسيًا أخضر دثاراً وسيفه فى عنقه وحزامه فى وسطه» تاريخ الفتاش ، الصفحة ١٢٨ . [كلمة «بوبو» لم ترد فى النص العربى لتاريخ الفتاش ، وإنما وردت فيه كلمة «قميص» ، وإنما وردت كلمة «بوبو «boubou» فى الترجمة الفرنسية لتاريخ الفتاش ، الصفحة ٢٣٢ ، التى أخذ عنها بانيكار بطبيعة الحال .]

(٣١) «أنه لما تولى (اسكيا إسحاق الثانى) ودخل فى دار المملكة وبات فيها أول ليلة ملكه أمر بخصىّ هنالك الذى كان عنده أثواب اسكى (محمد بان) وبيده مفتاح بيت لباسه ونودى بحضرة اسكى الفع بكر المذكور وأمره بإخراج الأثواب جميعا وأخرج إليه سبعين شيكارة من جلود النمر فى كل واحدة منها ثلاثون ثوبا من كتان دب والحرير والملف وكل مع قميصه السراويل الكبيرة وعمامة» المرجع نفسه ، الصفحة ١٤٤ .

والملابس فى برنو أكثر اتقانا ، وتقدر مكانة كبراء القوم بعدد ما يرتدونه من جلاليب ، والشائع أن يرتدى الرجل إثنى عشر جلبابا الواحد منها فوق الآخر ، وذلك لابد أنه معرقل للحركة وغير مريح ، وبخاصة عندما تشتد الحرارة . وشاع بين المسلمين أيضا ارتداء الطاقية أو العمامة .

وملابس الطبقات العليا والحكام أفضل كثيرا بطبيعة الحال . ويصف بارث ملابس أحد الحكام ، وهى عبارة عن ثوب مخطط باللونين الأخضر والأبيض ، وسروال فضفاض «ذى إطار أرقط ، ولونه شبيه بريش دجاج غينيا ، ومطرز بحرير أخضر عند مقدمة الساقين ، وفوقهما عباءة حمراء مطرزة ، فى حين تلف حول طاقيته الحمراء عمامة غاية فى الأناقة يتقاطعها اللونان الأحمر والأبيض ، وسيفه مدلى فوق كتفه الأيمن بمشابك سميكة من حرير أحمر مزينة بعدد هائل من الشراريب ، ويمتطى جوادا ممتازا أسرف فى تزيين رأسه وعنقه بشراريب وأجراس كثيرة وأكياس جلدية صغيرة بها أحجبة وتعاويذ ، ويبدو تحت السرج غطاء مكون من رقع مثلثة صغيرة من جميع ألوان قوس قزح» . وهناك تنوع أيضا فى ملابس الرجال ، فالريجا - وهو قميص الرجال - كانت توجد منه أنواع كثيرة ، ويذكر بارث منها الريجا ساكى ذا المربعات الصغيرة الزرقاء والبيضاء المنتشر بين الطوارق ؛ «وقميص دجاجة غينيا وهو باهظ التكلفة نوعا ما - ويعادل النوع الجيد منه عشرين ألف كوردى - والتوب الحرير المخطط ؛ والجلابية الحمراء والبيضاء المطرزة بالحرير الأخضر» .

وكان رداء النساء فى برنو يصنع فى بعض الأحيان من قماش قطنى أزرق طوله قرابة ثلاث ياردات ونصف ياردة وعرضه ياردة واحدة ، وفى أحيان أخرى من قماش مقلم بخطوط زرقاء وبيضاء . أما النساء الأفضل حالاً فيلبسن عادة توركيدى حول الوسط وآخر يطرح فوق الكتفين . والتوركيدى الأسفل يلف بإحكام حول الجسم ويثبت عند النهدين ويتدلى حتى الركبتين .

ونساء البرنو يُضَفِّرن شعرهن فى ضفائر دقيقة ؛ ضفيرتان عند كل جانب وضفيرة فى الوسط ، وتصبغ الضفائر بالنيلة ، كما يصبغ الحاجبان واليدان

والذراعان والقدمان والساقان باللون الأزرق ، وتستخدم الحناء على الكفين والأظافر وأصابع القدمين ، ويصبغ الرجال والنساء شفاهم بلون أحمر من زهور شجرة الغورجي ، فاللون الأحمر القاني الذي يستخرج من هذه الزهور هو من علامات الجمال ، واعتادت نساء البرنو التنزه في المدينة ، فتترك الواحدةُ منهن نيل فستانها يجرجر خلفها ، وتضع على كتفيها شالا زاهي الألوان ، كما تزين مؤخرة رأسها بحلي فضية .

ثامنا

يبدي الإفريقيون عناية خاصة بطعامهم ، والأذرة هي المحصول الغذائي الرئيسي ، وأكثر الوجبات انتشارا هي الأذرة المجروشة التي تضاف إليها «صلصات» مختلفة . وبرغم وفرة الطعام فإنه لم يكن يروق للأجانب . فالسودان على سبيل المثال يعتبرون الأذرة المجروشة المضاف إليها العسل واللبن طعاما شهيا ، أما إبن بطوطة المتأنق في مأكله فلم يستسغ طعمها ، كما نرى من ملاحظته «ألهذا دعانا الأسود ؟» . [٣٢] وفي بنين والمنطقة الساحلية تعتبر الكاسافا والبطاطس المحصولين الرئيسيين : والبطاطا بدورها طعام مفضل ، إذ تسلق وتدهق وتصنع منها فطائر تؤكل مع لحم البقر والضأن والدجاج . أما الفقراء فيأكلون السمك المجفف أو المدخن مع الخبز .

و «عرقي البلح» هو المشروب الشائع ، وفي السودان استعمل شراب أقوى تأثيرا يصنع من الأذرة : فالسنغي والبمبرة والهوسا يولعون بالشراب ، وقد ترتب على الاتصال بالأوروبيين في المنطقة الساحلية معرفة الروم والچن والبراندي التي أصبحت من المشروبات الوطنية .

---

(٣٢) «ثم إن مشرف إيوالاتن ، ويسمى منشاجو ، استدعى من جاء في القافلة إلى ضيافته ، فأبيت من حضور ذلك ، فعزم الأصحاب على أشد العزم ، فتوجهت فيمن توجه ثم أتي بالضيافة ، وهي جريش أنلي مخلوطا بيسير عسل ولبن ، وقد وضعوه في نصف قرعة صيروه شبه الجفنة ، فشرب الحاضرون وانصرفوا ، فقلت ألهذا دعانا الأسود ؟ قالوا نعم ! وهو الضيافة الكبيرة عندهم . فأيقنت حينئذ أن لا خير يرتجى منهم .» تحفة النظار ، الصفحة ٦٨٧ .

تاسعا

الموسيقى والرقص فى مقدمة وسائل التسلية ، ويذكر ليو أن الإفريقيين مغرمون بهما ، وأنهم يفضلون تمضية سهراتهم فى الرقص وإقامة الولائم . [٣٣]

ومن آلاتهم الموسيقية الأكثر انتشارا القيثارة والناى الشبيه بالبوق والطبلة . وقد عاب الفولانى على الهوسا غرامهم الشديد بالموسيقى وعزفهم على النقارية وغيرها من الآلات الموسيقية فى المناسبات ، فى حين أن المسلمين الحقيقيين لا يقرعون الطبول إلا لاستدعاء الجيش أو لاستثارة الهمم ، غير أنه لم تجر دراسة جادة للموسيقى الإفريقية إلا مؤخرا .

ومن بين الوسائل الأخرى للتسلية الحفلات التنكرية والملاكمة . وقدم لنا كلابرتون وصفا وافيا لمباراة ملاكمة عند الهوسا . فالمتلاكمان يدخلان الحلبة بعد أن يدلكا جسميهما بعناية ، ثم يحاولان إبراز قوتهما بعبارات من قبيل «أنا جدع» ، «أنا أسد» ، «أنا فيل» ، وإذا تبين وجود صداقة بين المتلاكمين انسحب أحدهما وحل آخر محله . غير أن هذا العراك ليس ملاكمة تلتزم القواعد المعروفة ، ولا يجمعه شبه بقواعد الملاكمة الحديثة ، وإنما هو صراع من أجل الحياة لا يحظر فيه على المتلاكمين أى نوع من الضربات ، وغالبا ما تنتهى الملاكمة بموت أحد المتنافسين .

عاشرا

يحدد طراز البيوت المواد التى تتوفر عند بنائها . وقد كثر استعمال الطمى لوفرته . والبيوت تبنى داخل مجمع كبير محاط بأسوار ، وتتخذ عادة أشكالا رباعية . وتتكون بيوت علية القوم من طابقين . أما الأكواخ فهى مستديرة ذات جدران منخفضة وسقف مخروطى . والمبانى الأكبر مستديرة بدورها وذات

---

(٣٣) «وقد فُطر أهل تنبكتو على المرح ، وتعودوا على التجول فى المدينة بين الساعة العاشرة ليلا والواحدة صباحا ، وهم يعزفون على آلات الطرب ويرقصون» وصف إفريقيا (طبعة المغرب) ، الجزء الثانى ، الصفحة ١٦٧ .

جدران رأسية . كما عرف نوع آخر هو البيت المستدير الذى يكتسب متانة من جدرانه المسلوبة (على شكل خيمة) وأبوابه المستندة إلى عمودين جانبيين . والغرف الواسعة التى لا يمكن تسقيفها بشَدَّةٍ واحدة تُقَبَّى من الداخل بعقد زائف من الطين يخفى الكوابيل الخشبية الحاملة . وتطلى البيوت باللون الأبيض ، وتكتسب مظهراً صلباً أملس بفضل الشمس الاستوائية ، ويعاد طلاؤها بالطين كل سنتين ، وتزين جدرانها وأبوابها بالتماثيل ، ويضفى عليها النحت على الخشب رونقا وجمالا .[٣٤]

ولم يكن السودان يجهلون فن البناء بالحجارة ، ومع ذلك لم تكن الحجارة تستخدم على نطاق واسع . من ذلك ما يذكره البكرى من أنه فيما عدا القصر كانت البيوت الوحيدة التى تبنى بالحجارة هى بيوت التجار الأجانب ، وهى بيوت كبيرة الحجم محاطة بالحدائق . ولما زار منسا موسى القاهرة عاد وبصحبته مجموعة كبيرة من المعماريين والحرفيين الذين انتشر على أيديهم البناء بالحجارة .[٣٥]

وفى فولتا العليا اكتشف ديلافوس ولابوريه خرائب لبيوت كبيرة كل بيت منها قائم بذاته . وهذه البيوت ، أو بالأحرى القلاع لأنها لم تكن تتجمع معا وإنما توجد منفصلة ، قد وجدت فى منطقة واسعة يرى الخبراء أنها كانت فيما سبق منطقة غنية بالذهب ، كما يرون أن هذه البيوت كان يقيم فيها المشرفون على مناجمه . ويقول لابوريه إنه توجد بالقرب منها آبار جيدة الإعداد يتراوح عمقها بين ١٥ و٢٠ مترا مما يوحى بأنها كانت تستخدم فى استخراج المعادن النفيسة . ومع ذلك ربما استخدمت هذه

---

(٣٤) «مدينة بَنْبى .. قال فى مسالك الأبصار .. وهى ممتدة تقدير طول بريد فى عرض مثل ذلك ؛ ومبانيها متفرقة ، وبناؤها بالباستا ، وهو أنه يبنى بالطين بقدر ثلثى ذراع ، ثم يترك حتى يجف ، ثم يبنى عليه مثله . وكذلك حتى ينتهى ؛ وسقوفها بالخشب والقصب ، وغالبها قباب أو جملونات كالأقباء ..» صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٨٣ .

(٣٥) «ومدينة غانة مدينتان سهليتان أحدهما المدينة التى يسكنها المسلمون ... ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة والمساكن بينهما متصلة ومبانيهم بالحجارة وخشب السنط وللملك قصر وقباب وقد أحاط بذلك كله حايط كالسور .. وحول مدينة الملك قباب وغابات ...» البكرى ، الصفحة ١٧٥ .

الآبار أيضا فى الحصول على المياه اللازمة للزراعة . وتؤيد ذلك شهادة بارث بخصوص آبار برنو التى كانت حتى أكثر عمقا . وليس لدى سكان هذه المنطقة علم بمن قام ببناء هذه البيوت ، وعلى أية حال فإن معلوماتهم الراهنة عن فن البناء تؤكد على الأقل انعدام صلتهم بها . وليس باستطاعة سكان بلاد اللابى تزويدنا بأية معلومات عمن قاموا بالبناء ، فهم لا يعرفون أكثر من أن هذه البيوت كانت قائمة عندما جاءوا إلى بلادهم .(٣٦)

ويذكر ديلافوس ولابوريه أن البيوت تبنى من الصخور الحمراء والطمى ، وعندما تكون البيوت من طابقين فإن قممها تبنى بالطمى مع تثبيت أحجار بداخلها . وقد قسما البيوت إلى نوعين : مستطيلة الشكل ودائرية ، وتحيط جدرانها بمساحة تتراوح بين خمسين ومائة متر ، وتقسم إلى غرف مختلفة ، من بينها غرفة المطبخ وأخرى تستخدم كمخزن ، ولذلك فهى رحبة ومريحة ، فضلا عن أنها مزخرفة بعناية ، وبها نقوش وقباب وأروقة وأعمدة ذات تناسب قريب للغاية من مثيله فى أى مكان آخر .

وقد ساد من قبل اعتقاد بأن هذه البيوت بناها البرتغاليون ، ولكن ديلافوس يؤكد أن ذلك لا يستند إلى حقائق . فالبرتغاليون لم يعيشوا فى هذه المنطقة ، والمرة الوحيدة التى زاروا فيها المناطق الداخلية كانت مع السفارة التى جاءت إلى مالى ، ومنذ ذلك الحين لم يصلوا إلى هذه البلاد ؛ وحتى إذا كانوا قد وصلوا إليها فالإقامة قصيرة للغاية لا تسمح لهم ببناء هذه البيوت الرحبة المريحة كذلك لم تكن هذه البيوت معزولة عن بقية غرب إفريقية . ففى قنب صالح أخرجت حفائر توماسى إلى النور بيوتا يمكن مقارنتها بتلك التى عثر عليها فى بلاد لابى . فهذه البيوت كبيرة نسبيا ، طولها سبعة وعشرون مترا وعرضها

---

(٣٦) نذكر من هؤلاء «شاعر الأندلس أبا إسحاق إبراهيم الساحلى المعروف بالطويجن» الذى صحب منسا موسى إلى بلاده وبنى له قبة مربعة الشكل أودع فيها كل مهاراته ، وكانت موضع استغراب منسا موسى لفقدان صنعة البناء فى بلاده» . انظر الحاشية ٣ - ٥٧ أعلاه .

خمسة عشر مترا ، ومقسمة إلى حجرات مختلفة ، الكبيرة منها طولها ثمانية أمتار وعرضها خمسة أمتار ، أما الصغيرة فطولها خمسة أمتار وعرضها متر وربع المتر ، وجدرانها متينة يبلغ سمكها فى بعض الأماكن حوالى المتر ، وهى مبنية من كتل الشست المغطاة بالملاط ، والسطح الداخلى للجدران مغطى بنوع من الجص الأصفر . وغالبية البيوت ذات طابقين يربط بينهما سلم من الشست ، وبجدرانها فتحات مدسوسة . ويذكر بارث أن قصر المونييورو «صلب بديع الزخرفة» . وفى غمبرو ، وهى مدينة صغيرة فى برنو ، عثر بارث على مسجد متين البناء ، تهدمت بعض أجزائه . وتوجد أطلال مبانٍ من «طوب أحمر مشكل بطريقة غير منتظمة ، كما هى الحال فى أوروبا ، ولكنه من نواح أخرى يبدو جيدا تماماً» .

وفى برنو بدورها شاعت البيوت المبنية بالحجارة . ويشير دنهام وأودنى إلى ضخّامة قصور السلاطين المتهدمة فى برنو ، وإلى أن بيوتها جيدة البناء ، وبداخلها عدة أحواش تفتح عليها أبواب الغرف المحيطة بها فتجعلها ألطف جوا . كما يذكر أودنى أن البيوت فى برنو القديمة ضخمة ومبنية بطوب أحمر ، ويتراوح سمك جدرانها بين ثلاثة وأربعة أقدام وارتفاعها بين ستة عشر وثمانية وعشرين قدما ، وأن المسجد ضخم ومهيب للغاية . ويؤكد باوديتش بدوره أن الإفريقيين كانت لديهم بيوت جيدة ، وكتب عن كوماسى ، على سبيل المثال ، يقول : «ثمة أمر أثار دهشتى كثيرا – وإن لم يكن على الإطلاق من أهم الجوانب الكثيرة التى تقرر تفوقهم على عامة الزنوج – هو اكتشاف أن كل بيت له مجرور إلى جانب المجارير العامة للطبقات الدنيا خارج المدينة . وهذا المجرور موجود تحت عقد صغير فى مكان ناء من المبنى ، ولكن لا يندر وجوده فى الدور العلوى فى غرفة منفصلة على هيئة مرحاض ... وحيث العمود المجوف الكبير يساعد أيضا على دعم الدور العلوى ، فإن الفتحات تكون ذات محيط صغير ، وإنما محفورة إلى عمق هائل ويصب فيها يوميا ماء مغلى يمنع بصورة فعالة حدوث أى تأفف أو امتعاض . وتحرق الفضلات والنفايات كل صباح فى خلف الشارع .

والإفريقيون يحرصون على الأناقة والنظافة فى محال إقامتهم ، مثلما يحرصون على نظافة أبدانهم» . (٣٧)

ومع ذلك فإنه فى مناطق معينة أخرى كانت البيوت تبنى من الطمى أو الخيرزان . وقد تبين لأودنى الذى أعجب إعجابا شديدا ببيوت برنو ولوجون أن بيوت كانو سيئة البناء ، ومبنية من الطين والصلصال . أما تمبكت فبيوتها مبنية بطوب قائم الزوايا مصنوع من الطين . وفى بوريم ، بين تمبكت وغاو ، توصل الأهالى إلى أنه يمكن عن طريق خلط الطمى بدهن نباتى الحصول على طلاء أكثر قدرة على مقاومة المطر ، وهو طلاء استخدم فى تمبكت أيضا . ويذكر إبن بطوطة إن لديهم نوعًا من التراب يمكن استخدامه بدل الجير بعد خلطه بزيت نباتى ، وقد استخدمه السودان فى أعمال البناء .

فضلاً عن ذلك كانت المدن فى بلاد السودان مخططة بعناية فائقة : فمدن برنو كانت كبيرة وجيدة البناء ، وتحيط بها أسوار يتراوح ارتفاعها بين خمسة وثلاثين وأربعين قدما وسمكها قرابة عشرين قدما . ويشير باوديتش إلى كوماسى على أنها مدينة متسعة ذات بيوت رحبة تقع على جانبى شوارع عريضة ، ويثنى الكتاب الهولنديون على شعب بنين لبيوته الجيدة البناء . فالقصور بها عدد لا يحصى من الغرف ، وتبنى على مساحة هائلة . أما بيوت علية القوم والتجار الأغنياء فنظيفة ورحبة ومقسمة إلى أجنحة مناسبة ، ولو أنها مبنية بالطين . وبرغم أن أمورا كثيرة كانت بمثابة الصدمة لهم ، فإنهم لم يكو يعتبرون الزنوج نوى مستوى منخفض من زاوية الرخاء المادى . وقد كانت غواتو ميناء بنين ، مدينة كبيرة يصلها ببنين طريق ممهد : يقول بارث الذى زار بنين إنها «شديدة الاتساع ، مساحتها قرابة ستة فراسخ (ثمانية عشر ميلا) .. وبها ثلاثون شارعا غاية فى الاتساع ، يبلغ اتساع معظمها عشرين باعا (مائة وعشرين قدما) ، أما طولها فيصل إلى ميلين» . وكان عرض الشارع فى بنين

---

(٣٧) ورد هذا الاقتباس فى بازل دافيدسون ، The African Past ، الصفحة ٣٢٤ ، نقلا عن توماس باوديتش ، Mission from Cape Coast to Ashantee .

يزيد ثمانى مرات على عرض شارع فارموس فى امستردام . ودنهام يعتبر لوجون مدينة جميلة ذات بيوت كبيرة مقامة على كلا جانبى الطريق ، والشارع الرئيسى فيها لا يقل عن شارع پول مول اتساعا أو إثارة .

وقد اتبعت المدن نموذجاً عاماً ؛ فبها أسواق كثيرة وطرق تظللها الأشجار . وحيث كانت الجياد تستخدم ، فإن الطرق كانت من الاتساع بحيث تسمح لثلاثة أو أربعة جياد بالسير جنبا إلى جنب دون أية مضايقات . كما إن إبن بطوطة الذى جال البلدان الإسلامية جميعًا وجد أن الطرق فى إفريقية شأنها شأن الطرق فى أى مكان أخر فى العالم . (٣٨)

---

(٣٨) «وتلك الطرق كثيرة الأشجار ، وأشجارها عادية ضخمة ، تستظل القافلة بظل الشجر منها. » تحفة النظار ، الصفحة ٦٨٨ .

الإسلام فى السودان

أولا

يشكل الصراع بين الإسلام والوثنية جذور مشكلة غرب إفريقية . فالدول الإسلامية واجهت مشكلة عويصة ؛ فلو أنها عزمت على المضى قدما في نشر الإسلام لتوقفت تجارتها وتقوّض إطارها الاجتماعى بأسره . وعلى الجانب الآخر فإن دينها يفرض عليها تبليغ الإسلام . وهذه المشكلة لم تحل إلا فى القرن التاسع عشر عندما تمزقت تجارتها مع شمال إفريقية ، وأبيدت تجارة الرقيق عبر المحيط . عندئذ حاول المجاهدون فى كل مكان إدخال المشركين فى الإسلام . ودون أن تحتل هذه المشكلة مكانها الجدير بها فى تفكيرنا ، فإن تاريخ الإسلام بأسره ، وعدم نجاحه فى هداية الفولانى والبمبرة ، بل وقسم كبير من السنغى ، سيظلان من الألغاز المحيِّرة .

وقد ذاع صيت بلاد السودان دائما بأنها أرض السحر . وتقول الأساطير إن الفراعنة كانوا يحصلون على سحرتهم من غاو . وقد عززت الروايات الإسلامية عن الجان أساطير السحر الوطنية . وهكذا فإن أم اسكيا محمد ، استنادا إلى الأساطير الوطنية ، تزوجت بواحد من الجان . وقد رأينا ما كان للسحر من دور هام في فولكلور غرب إفريقية . فسوندياتا ، على سبيل المثال ، تغلب على سُمَنْغُر بماله من قدرة أكبر على السحر . كما أن ذلك العمل لم يكن وثنيًا تماما . ذلك أنه حتى أباطرة كانم – برنو ، وهم أكثر حكام غرب إفريقية تمسكا بالإسلام ، قد زعموا أنهم سحرة متمرسون . كما أن المجاهدين من أمثال الحاج عمر أدخلوا فى روع أتباعهم أن التمائم التى يباركونها يمكن أن

تحمى الجنود من طلقات البنادق . ولقد أدى الاتصال بالإسلام إلى تعزيز أعراف السحر بدلا من إضعافها .

وكان الوثنيون في بلاد السودان من القوة والوضوح بحيث شبههم المسالك ببقع بيضاء فى جسم بقرة سوداء . يقول العمرى إن ملك مالى كان فى حرب دائمة ضد الوثنيين . وواصلت الوثنية الازدهار في مالى نفسها لأن معظم الجغرافيين والمؤرخين متفقون على أن الملك وعلية القوم فقط هم الذين يعتنقون الإسلام ، أما عامة الشعب فيدينون بدينهم التقليدى . وقد أعطى منساموسى ، الذي كانت لدية قدرة لاتبارى على استغلال حسن نية العرب ، سببا قويًا لعدم قيام إمبراطور مالى بإدخال الوثنيين فى الإسلام . ولم يكن السلطان ، استنادا إلي الزواوى ، يفرض الجزية على الوثنيين الذين يعملون فى مناجم الذهب ، لأن ذلك من شأنه خفض الناتج من الذهب . ويقدم إبن سعيد سببًا أكثر أهمية لتوانى هؤلاء الملوك في هداية الوثنيين ، فيقول إنه كان باستطاعتهم أن ينتزعوا بسهولة المناطق الغنية بالذهب ، ولكنهم لم يفعلوا ، لأن خبرتهم علمتهم أنهم عندما يغزون مدينة للوثنيين وينطقون فيها بالآذان ينخفض فيها محصول الذهب ، فى حين يزيد فى المناطق الوثنية المجاورة . ولذلك قرّروا ترك هذه المناطق فى أيدى الوثنيين ، والحصول منهم على إتاوة سنوية من الذهب والرقيق .(١)

---

(١) « فقد قال فى التعريف : وأما غانة فإنه لا يملكها وكأنه مالكها ، يتركها عن قدرة عليها : لأن بها وبما وراءها جنوبا منابت الذهب . وذكر ما تقدم من أن منابت الذهب متى فشا فيها الإسلام والآذان ، عدم فيها نبات الذهب ، وصاحب مالى يتركها لذلك لأنه مسلم ، وله عليها إتاوة كبيرة مقررة تحمل إليه كل سنة» صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحتان ٢٩٢ و ٢٩٢ .

« قال فى مسالك الأبصار . وكذلك فى طاعته قوم من الكفار بعضهم يأكل لحم الآدميين . ونقل عن الشيخ سعيد الدكالى أن فى طاعة سلطانها بلاد مغارة الذهب . وهم بلاد هَمَج ، وعليهم إتارة من التبر تحمل إليه كل سنة ، ولو شاء أخذهم ، ولكن ملوك هذه المملكة قد جرّبوا أنه ما فُتحت مدينة من هذه المدن وفشا بها الإسلام ، ونطق بها داعى الآذان ، إلا قل بها وجود الذهب ثم يتلاشى حتى يعدم ، ويزداد فيما يليه من بلاد الكفار ، فرضوا منهم ببذل الطاعة ، وحمل قُرّر عليهم ... » المرجع نفسه ، الصفحتان ٢٨٦ و ٢٨٧ .

« وذكر عن الشيخ عيسى الزواوى عن السلطان (منساموسى) المقدم ذكره أيضا أنه .. فى=

وهكذا آثرت مالى الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع الوثنيين فى المناطق الغنية بالذهب . ويشير إبن بطوطة إلى جماعة قدمت من مناطق هؤلاء الوثنيين ، يرتدى أفرادها ملابس من حرير ويضعون فى آذانهم أقراطا ضخمة من الذهب . واحتفى بهم منساموسى رسمياً ، وقدم لهم فتاة لغدائهم . (٢)

فلماذا إذن قبل حكام السودان الإسلام ؟ إن اعتناق الإسلام كان ذا دلالة اجتماعية أكثر منها دينية ، إذ كان وسيلة لاكتساب منزلة رفيعة . فهناك أولا مسألة الهيبة والمكانة ، ذلك أن تجار شمال إفريقية المسيطرين على العلاقات التجارية الخارجية مسلمون جميعا ، ويتحدثون مع الحكام الوثنيين باستمرار عن قوة الدول الإسلامية واتساع رقعتها . وكان حكام السودان يأملون ، عن طريق اعتناقهم للإسلام ، أن ينتموا إلى مجتمع الإسلام . سبب ثان أكثر أهمية هو أن الأديان الإفريقية أديان قبلية ؛ فعندما تحقق قبيلة ما هيمنة سياسية فإن القبائل المهزومة لايمكن أن تقبل ديانة القبيلة المنتصرة . وقد حقق الإسلام هدف توحيد الطبقات الحاكمة فى مختلف القبائل ، ولكن هذه الطبقات بينما اعتنقت الإسلام لم تتخل عن معتقداتها القبلية ، وظل رؤساؤها بمثابة الكهنة الكبار لطقوسهم القبلية . بل إن أسكيا محمد نفسه حاول السيطرة على الشعار التقليدى لأسرة السنفى الملكية ، ولم يتحول إلى الإسلام بكل قلبه إلا عندما فشل فى ذلك .

وهكذا كان الإسلام من الناحية الجوهرية دين طبقة عليا ودين مدن فى المقام الأول . وبذا لم ينتشر على نطاق واسع . فحتى بين المندنغو والهوسا

= مملكته آمناً من الكفار لا يأخذ منهم جزية ، إنما يستعملهم فى إخراج الذهب من معادنه .. » المرجع نفسه ، الصفحة ٢٨٩ و ٢٩٠ .

(٢) «قدمت على السلطان منسى سليمان جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بنى آدم ، ومعهم أمير لهم . وعادتهم أن يجعلوا فى آذانهم أقراطا كبارا ، وتكون فتحة القرط نصف شبر ، ويلتحفون في ملاحف الحرير . وفى بلادهم يكون معدن الذهب ، فأكرمهم السلطان وأعطاهم في الضيافة خادماً ، فذبحوها وأكلوها ، ولطخوا وجوههم وأيديهم بدمها وأتوا السلطان شاكرين .» تحفة النظار ، الصفحة ٧٠٠ .

الذين اتصلوا بالإسلام لفترة طويلة لم تكن نسبة المسلمين عالية . وعند بداية القرن التاسع عشر ، بعد أن شرع المجاهدون يدخلون الأهالى فى الإسلام بحد السيف ، ظل على الوثنية خمسون فى المائة من الهوسا وثمانون في المائة من البمبرة وعشرون فى المائة من المندنغو .

ويثير ذلك مزيدا من الدهشة فيما يتعلق بمالى وبرنو اللتين كانتا دولتين إسلاميتين منذ حوالى القرن الحادى عشر . وقد حمل الونقارة الإسلام إلى الهوسا فى القرن الرابع عشر ؛ والمغيلى نفسه حوّل أهالى كانو وكاتسنا إلى الإسلام ، ومع ذلك زعم المجاهدون فى القرن التاسع عشر بأن هؤلاء الناس وثنيون . فما أسباب هذا الفشل فى المحافظة على تراثهم الإسلامى ؟

إن اعتناق الإسلام لم يؤد إلى التخلى عن المعتقدات الوثنية ؛ كما أن الشعائر الإسلامية لا يعدو أنها فرضت من أعلى فوق الأعراف القديمة . وقد اعتنق السودان الإسلام ليتواءموا مع الظروف المحيطة بهم ، وهم بصفة عامة لم يكونوا متعلمين ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يؤدون الصلاة ويحرصون على إقامة شعائر الإسلام فقد ظلت الأعراف القديمة هى السائدة بينهم . وبمرور الوقت عبدوا الأشجار والحجارة ، وواصلوا ممارسة الطقوس القديمة التى لم تفقد سطوتها . بيد أنهم فى الوقت نفسه كانوا يزعمون أنهم مسلمون . بل إنه حتى يومنا هذا لم يتخل الهوسا واليوربا عن تقاليدهم القديمة . فالأشجار والحجارة مازالت تقدس فى بلاد الهوسا ، ومازال أهالى الهوسا يمارسون «البورى» التى أشعل الشيخ عثمان الحرب ضدها . أما رؤساء اليوربا الذين يدينون بالإسلام فمازالوا يتعبدون لآلهتهم الوطنية .

كذلك لم يتخل السودان عن أعرافهم الاجتماعية . ويقول إبن بطوطة إنه على الرغم من مواظبة الناس فى مالى على إقامة الشعائر الدينية ، فإنهم يسمحون للنساء بحرية لا مبرر لها . فنساؤهم لسن محجبات ، بل إن بنات

الإمبراطور يسرن عاريات تماما .[٣] وفى برنو تشغل الملكة الأم والملكة مناصب لا يقرها الإسلام ، وتحتفظ الدولة بطقوسها ونظامها الإدارى .

بل إن الإسلام اليوم لم يستطع أن يفرض تَوحُّداً أو تماثلا على السودان . ففي فوتاتورو يحتفظ التوكولور ، أقوى المجموعات المسلمة فى غرب إفريقية ، بجوانب معينة من تنظيمهم التقليدى . فهم يتبعون النظام الأمومى ، ويلقِّنون أنه برغم أن الأب والأم يمكن أن يفشلا فى التعرف على إبنهما ، فإن الخال لا يعجز عن ذلك . كما أن الاحتفالات الإسلامية تتلوها فى كثير من الأحيان الاحتفالات التقليدية .

ولا ينبغى أن يخلص المرء من ذلك إلى أن السودان يفتقرون إلى الوفاء والإخلاص . فإبن بطوطة الذى لايكن للسود غير الاحتقار ينكر أن أهل مالى يحرصون على إقامة الشعائر الدينية ، ويشتد إقبالهم فى أيام الجمع على المسجد الجامع ، ولذلك فإن علية القوم وميسورى الحال يبعثون بغلمانهم لحجز أماكن لهم بفرش سجادة الصلاة فيها ، فإن لم يفعلوا تعذر عليهم إيجاد مكان لهم ما لم يذهبوا فى الصباح الباكر . والناس يذهبون إلى المسجد فى أحسن هندام ، ومن لا يمتلك سوى جلباب واحد يحضر به نظيفا .[٤]

---

(٣) «ومن مساوىء أفعالهم كون الخدم والجوارى والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات . ولقد كنت أرى في رمضان كثيرا منهن على تلك الصورة . فإن عادة الفرارية أن يفطروا بدار السلطان ، ويأتى كل واحد منهم بطعامه ، تحمله العشرون فما فوقهن من جواريه وهن عرايا . ومنها دخول النساء علي السلطان غير مستترات ، وتعرى بناته ، ولقد رأيت فى ليلة سبع وعشرين من رمضان نحو مائة جارية خرجن بالطعام من قصره عرايا ، ومعهن بنتان له ناهدان ليس عليهما ستر» المرجع نفسه ، الصفحة ٦٩٨ .

(٤) « ومنها مواظبتهم للصلوات ، والتزامهم لها فى الجماعات ، وضربهم أولادهم عليها . وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد ، لم يكن يجد أين يصلى لكثرة الزحام . ومن عادتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجادته ، فيبسطها له بموضع يستحقه بها حتى يذهب إلى المسجد ... ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ، ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خلق ، غسله ونظفه وشهد به الجمعة » المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

فضلا عن ذلك يذكر ابن بطوطة أن السودان يحملون أطفالهم على حفظ القرآن ، كما يقول إن قاضيا قيد أطفاله ولم يفك قيدهم حتى حفظوا ذلك الجزء من القرآن الذى حدده كواجب يومى لهم .(٥)

ومع ذلك فإن الإسلام كان يقتصر أساساً على المدن . فإبن بطوطة ، وهو مصدرنا الرئيسى ، أمضى أطول فترة من زيارته فى العاصمة بطبيعة الحال . فضلا عن ذلك فإنه لم يكن على اتصال إلا برجال البلاط والفقهاء . وهؤلاء الفقهاء كانوا حريصين على أن يحفظ أبناءهم القرآن ؛ كما أن منصبى القاضى والإمام وغيرهما لم يكن يسمح بشغلها إلا لمن لديه فهم سليم للقرآن والشريعة والحديث . إنها لم تكن سوى مصلحة طبقية ؛ فالمعلمون الذين كتبوا التاريخ إنما مجّدوا أولئك الذين يدعمون مصالحهم

ثانيا

كانت الطبقات المتعلمة تمارس نفوذا أكبر كثيرا مما يسمح به اعدادها ، فكان باستطاعتها أن تلطخ سمعة حاكم عظيم مثل سنّ على(٦) . بل إن أسكيا محمد ، الذى كسب جانب العلماء بكثرة العطايا وقبول أفكارهم عن دور الحاكم العادل ، كان يخشى فى حالة وقوع هزيمة حربية في كبّ ما قد يقوم به العلماء

---

(٥) « ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم، وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر فى حقهم التقصير فى حفظه ، فلا تفك عنهم حتى يحفظون . ولقد دخلت على القاضى يوم العيد وأولاده مقيدون ، فقلت له ألا تسرحهم ؟ فقال لا أفعل حتى يحفظوا القرآن ! ومررت يوما بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة ، وفي رجله قيد فقلت لمن كان معى ما فعل هذا ؟ أقتل ؟ ففهم عنى الشاب وضحك ، وقيل لى إنما قيد حتى يحفظ القرآن . » المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

(٦) وإليكم ما قاله محمود كعت ، وهو من أبرز أبناء هذه الطبقات ، عن سنّ على : « ثم خلف سلْمَنْ دام الظالم الفاجر الملعون المسلط شى عال وهو آخرهم ملكا الذى سارت الرفاق بقبح سيره وكان منصورا وما قابل أرضا قصده إلا خربه وما كسر له جيش كان فيه قط غالبا غير مغلوب ... وهو سلطان جبار قاسى القلب يأمر بإلقاء الطفل فى المهراس ويأمر أمه أن تدقّه وتدقّه الأم وهو حى ويطعمه للخيول وكان فاجرا فاسقا» تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤٣ . [شى عال هو سنّ على] .

من إشارة . وقد أدرك أحمد الذهبي سلطان مراكش أنه ما لم يقض على نفوذ العلماء ، فإن بلاد السودان ستظل فى حالة اضطراب دائم .

وأسباب هذا النفوذ الهائل متعددة . فالعلماء هم الحفّاظ على سلامة العقيدة ، وكان باستطاعتهم التأثير على السكان المسلمين فى المناطق التى تقوى فيها قبضة الوثنية والسحر . أما فى المناطق التى لا يكون الإسلام فيها وطيد الأركان فيتعين وجود عين ساهرة . فداعيتان من أمثال الشيخ عثمان دان فوديو أو الحاج عمر كان باستطاعتهما دائماً استمالة القسم المتحمس من السكان وشن الجهاد . وقد حدث هذا فى بلاد الهوسا والتكرور التى كان الكانمى وبِلّ يمثلان هذا الجانب فيها ، ولما كان العلماء هم أبرز أبناء الطبقة المتعلمة ، فقد كانوا يشغلون مناصب القضاء والمناصب الرئيسية فى الإدارة ، ويسيطرون على مجالس المشورة ، كذلك كان الكتبة يسجلون أعمال الملك ، ويحملون مراسلاته إلى الدول الأخرى ، ومن ثم كان يستحيل تسيير الإدارة دون تأييدهم .

فضلا عن ذلك كان العلماء يتمتعون بتماسك تفتقر إليه الأقسام الأخرى فى المجتمع ، إذ كانوا يدركون أنهم كمتعلمين يتفوقون كثيرا على كبار القوم العاديين ، وربما كانوا المجموعة الوحيدة فى بلاد سودان العصور الوسطى التى إذا ما اتحدت أمكنها أن تشكل تحدّياً فعالا للسلطة الحاكمة . وهكذا اعترف الأساكى مرارا بتفوق العلماء ، فأسكيا محمد كان في موقف حرج بوجه خاص لأنه بعد مقتل سنّ على اتخذ منه أغلب النبلاء موقفا معارضا ، ولذلك اعتمد عليهم كلية . ولكى يظفر بالاعتراف به كحاكم شرعى فلابد أن يرتضوه خليفة ، ويذكر **تاريخ الفتاش** الخطوات التى اتخذها وصولا إلى هذا الاعتراف ، والتى أعلنه العلماء فى نهايتها الخليفة الحادى عشر .(7) وترتب على ذلك أنهم كانوا يمنحون امتيازات خاصة ، فالأسكيا كان يمنحهم الرقيق والأموال «مع

(7) «حتى اتفق جميع علماء عصره على أنه خليفة وممن صرح له بذلك الشيخ عبد الرحمن السيوطى والشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلى والشيخ شمهورش الجنى والشريف الحسنى مولاى العباس أمير مكة ... ثم تهيأ أسكى الحاج محمد للرجوع (من مكة) فلما وصل مصر وجد هناك الشيخ عبد الرحمن السيوطى فسأله أسكى عن الخلفاء الذين ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم سيأتون بعده فقال الشيخ هم اثنا عشر ، خمسة منهم بالمدينة واثنان بمصر وواحد بالشام واثنان بالعراق وقد مضى هؤلاء كلهم وبقي اثنان=

القيام بمصالح المسلمين، .[8] وانتهج الحكام الذين خلفوه السياسة نفسها، فكانوا يزودونهم بحراس لضمان سلامتهم ويعفونهم من أية التزامات قبل الدولة . واتبعت برنو سياسة مماثلة كما تشهد بذلك المحارم المتعددة .[9]

وجرت عادة الأساكى أن يسألوا العلماء النصيحة فى كل المسائل الهامة ، من ذلك مسألة القبائل المستعبدة التى أحالها أسكيا محمد إلى المغيلى والسيوطى ، والتى أخذ فيها بمشورتهما .[10] وفى الحج أيضا صحب الأسكيا شيوخا كثيرين . وهؤلاء المشايخ وأقاربهم ، إلى جانب قلة آخرين ، كانوا يهيمنون على الحياة الفكرية والشرعية للإمبراطورية .

ثالثا

يمكن تقسيم المعلمين فى بلاد السودان إلى ثلاث طوائف : أولاها طائفة المعلمين من أبناء شمال إفريقية ؛ ثانيتها طائفة المعلمين الموريتانيين ؛ ثالثتهما طائفة المعلمين من السودان . وكانت مصالح هذه الطوائف الثلاث تتباعد بين الحين والآخر . فمعلمو الطائفة الأولى نادرا ما استقروا فى بلاد السودان ، ومن هؤلاء المغيلى الذى يعتبر زائرا ، بل إن مولاى الصقلى الذى جاء إليها بصحبة أسكيا محمد بناء على وصية مولاى العباس لم يستقر هناك فى حقيقة الأمر .[11] فهو بوصفه شريفا استقبل بترحاب كبير وأعفيت أسرته من

= بأرض التكرور أنت أحدهما ويأتى بعدك الثانى قبيلتك منسوبة بطورد من أهل اليمن . » المرجع نفسه ، الصفحتان ١٢ و ١٣ .

(٨) «وله من المناقب وحسن السياسة والرفق بالرعية والتلطف بالمساكين ما لا يحصى ولا يوجد له مثيل لا قبلة ولا بعده وحب العلماء والصالحين والطلبة وكثرة الصدقات وأداء الفرض والنوافل وكان من عقلاء الناس ودهائهم والتواضع للعلماء وبذل النفوس والأموال لهم مع القيام بمصالح المسلمين وإعانتهم على طاعة الله وعبادته» المرجع نفسه ، الصفحة ٥٩ . [«وبذل النفوس والأموال لهم » هنا بمعنى منحهم هبات من الرقيق والمال .]

(٩) انظر الحاشية ٦ - ١٠ أعلاه .

(١٠) « فلما ثبتت له السلطنة واستقامت المملكة خرج من ذلك كله وجعل يسأل العلماء عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويمشى على أقوالهم رحمه الله . » المرجع نفسه ، الصفحتان ١١ و ١٢ .

أية التزامات ، وأصبح قاضيا لتمبكت ، ولكن الأسكيا كان شديد الاعتماد عليه حتى أنه عندما تحرك إلى غاو كان الشريف في صحبته . وقد تزوج بسيدة عربية من تافلالت وأنجب منها خمسة أطفال .(١٢) وعند موته غادر بعض أطفاله البلاد .(١٣) وأظهر أحد أحفاده فيما بعد بعض العقوق للسلطان . ومع ذلك فإن عربا أقل شأنا وجدوا فى بلاد السودان مكانا يستطيعون فيه أن يمارسوا نفوذاً هائلاً وأن يحيوا حياة مريحة . ويشير إبن بطوطة إلى كثيرين من القضاه العرب .

ومجموعة أخرى من المعلمين أكثر أهمية هى مجموعة المعلمين الموريتانيين . وعلى الرغم مما كان لدى هؤلاء من شعور بالاستعلاء على السودان ، فإن ولاءهم للدولة لم يكن موضع نقاش . وينتمى بعض من أبرز الرجال فى غاو إلى القبائل الصحراوية . ولكن المعلمين السودان يشكلون العدد الأكبر ، غير أن أرفعهم شأنا تعلموا فى شمال إفريقية أو فى الصحراء .

والمعلمون كطبقة لم يكونوا يبالون بالسياسة ، ولا يهمهم فى شىء أن يكون الأساكى أو المراكشيون هم الذين يحكمون بلاد السودان . أمران إثنان استحوذا على جُلِّ اهتمامهم : أن يكون طابع الدولة إسلاميًا ، وألا تمس

---

(١١) « ثم طلب (اسكيا محمد) من مولاى العباس أن يعطيه واحدا من الشرفاء إما أخاه أو ابنه ليتبركوا به وهذا بعد ما أمَّره مولاى العباس على أرض التكرور وبيَّن أنه واحد من الخلفاء الاثنى عشر وقال له مولاى العباس فسأعطيك إن شاء الله من هو كائنا ولكن لا يمكن ذلك الآن ثم أمر مولاى العباس ابن أخيه مولاى الصقلى أن ينزل إليه . » المرجع نفسه ، الصفحتان ١٦ و١٧ .

(١٢) « وقصدت تنكبت فاقام الشريف الحسنى أحمد الصقلى بتنبكت ونكح هناك إمرأة إعرابية من أهل تافلالت اسمها زينب فولدت له مزاور ومحمد وسليمان ورقية وزينب ثم إن الإمام اسكيا الحاج محمد أطال الله حياته وأسكننا وإياه جنته لما لم يجد صبرا على مفارقته قدم إليه بنفسه فنزعجه إلى كاغ وأضافه .. » المرجع نفسه ، الصفحة ٢٢ .

(١٣) « ورجع محمد وسليمان إلى مدينة بغداد وبقي مزاور فى بلد تنبكت ونكح إمرأة من الأعراب اسمها زينب بنت وهب فولدت .. ثم ارتحل هؤلاء الأشراف من تنبكت لسبب جوع خافوا منه على أنفسهم وعيالهم .. » المرجع نفسه ، الصفحة ٢١ .

امتيازاتهم . ولم يكن القواد المراكشيون ، محتذين فى ذلك حذو كل الأسبان الذين اعتنقوا الإسلام ، يعاملون العلماء بالاحترام الذى اعتادوه خلال حكم الأساكى ، ومن ثم فقد دخلوا في نزاع مع المراكشيين . ومع ذلك ففى البداية كانت هناك أعداد لها دلالتها من العلماء ممن لديهم على الأرجح ميل شديد نحو المراكشيين اعتقاداً منهم أن سيطرة الشمال السياسية لن تؤدى فقط إلى تعزيز الوجود الإسلامى ، بل كذلك إلي تطهير الإسلام من البدع . ولابد أن المعلمين من أبناء شمال إفريقية قد عززوا وجهة النظر هذه ، وكذلك بعض فقهاء السودان الأكثر تشددا .

وتحت حكم الأساكى أصبح تفرق مصالح قطاعات العلماء المختلفة أمرا علنيًا لأول مرة . وفى القرن التاسع عشر ازداد عمق التفرق والاختلاف داخل الجماعة الإسلامية إلي درجة لا يمكن التغاضى عنها . فآل البكاى ومؤيدوهم من الطوارق والأرما كانوا أقوياء فى تمبكت وغاو . والمعلمون من الأرما والموريتانيين هم الذين منعوا أحمدو الفولانى من أن يخطب في غاو ؛ لخشيتهم من أن يصبح إماما للمسجد الجامع . وفى تمبكت اتبع البكاى وأنصاره سياسة العداء المستحكم تجاه الفولانى . وقد أدى التشدد الدينى عند الفولانى إلى إبعاد من تبقوا من ممثلى النظام القائم ، بيد أن الأمر لم يعدم نغمات عرقية نشاذ . فمعلموا تمبكت ينتمون إلى القبائل الرحَّل ، ومعارضتهم للفولانى ذات جذور عرقية ، ووصل بهم الأمر إلى تفضيلهم للبمبرة الوثنيين ، لأن البمبرة لا يتدخلون فى الشؤون الدينية أو المدنية .

رابعاً

لقد كان المعلمون ، كما رأينا ، طبقة هامة فى بلاد السودان ، وكان السلاطين يمنحونهم كطبقة هبات كبيرة . ويتحدث المؤرخون باستمرار عن الملوك الورعين المتدينين . وكانت أفضل طريقة للتعبير عن الورع هى دائما تقديم المنح والعطايا من الأرض والرقيق للعلماء . وهكذا تمكن العلماء كطبقة من تجميع ثروات كبيرة بسبب المنح السخية التي يقدمها مختلف السلاطين . ويشير تاريخ

الفتاش فى مواضع كثيرة إلى المنح التى قدمها الأساكى إلى الفقهاء .(١٤)

وكان الحظ مواتيا أيضا للعلماء لكونهم على نحو ما طبقة وراثية . وإذا أخذنا حالة أسرة كعت كمثال لذلك ، فإنها لم تكن من أية ناحية حالة استثنائية . فمحمود كعت إبن الحاج المتوكل كعت هو إبن فقيه بارز أدى فريضة الحج . وقد ولد فى عام ١٤٦٨ ، وكان صديقا حميما لأسكيا محمد وأحد مستشاريه الأوفياء ، ورافقه إلى مكة عند أدائه فريضة الحج .(١٥) وكان أحد المعلمين الذين ذهبوا كمبعوثين إلى سنّ بار لمطالبته بالتخلى عن الوثنية واعتناق الإسلام .(١٦) وهكذا فإنه ينتمي إلى جماعة المعلمين الذين كانوا أداة في اغتصاب أسكيا محمد للسلطة ؛ وهو ما ترتب عليه تدعيم الدولة الإسلامية . وقد عاش كعت الكبير حتى سنٍّ متقدمة ، وشارك كمستشار فى مقاومة الأساكى للمراكشيين ، وتزوجت ابنته بالمختار قُنْبِل(١٧) قاضى تندرمه الذى كان من أبنائه محمد كعت الأصغر . كذلك كان أبناء كعت الكبير بدورهم على درجة كبيرة من الأهمية .

---

(١٤) «وفقهائهم الذي حج معهم لاستثنائيه صالح جور ومحمد تل وقال لهم فإذا جاءوا موضع الذى عرف باسكين إلى موضع عرف بقا حوز لك يا صالح جور وأنتم الشهداء . وفيه ثلاث قبيلة ملكا لك.. ثم قال يا محمد تل إذا وصلوا حركنس كيفر وركب فى مقابله من طلوع الشمس إلى حين غربت عليك حوز لك وفيه ثلاثة قبيلة ملكا لك .. » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٧١ .

(١٥) لمزيد من التفاصيل عن محمود كعت صاحب تاريخ الفتاش ، انظر الإضافة الملحقة بنهاية الكتاب .

(١٦) «ما نزل القتال بينهما (بين إسكيا محمد وسنّ بار) إلا بعد ما أرسل العالم الولى الصالح محمد تل ... إلى شى بار يدعوه إلى الإسلام ... وبعد ذلك أرسل اسكى محمد العالم الصالح التقى ذا المناقب والكرامات الوعكرى الأصل الفا صالح جور إلى شى بار أيضا ثانياً وأتاه وبلغه رسالة أمير أسكى محمد فما ازداد إلا عتوا وإباية وامتناعا وتجبرا ... واتفقوا علي أن يرسل رسولا ثالثا يداريه ويلين له الكلام لعل الله يهديه إلى الإسلام فأرسلنى إليه أى أنا الفقير المحتاج الفع كعت وذهبت إليه . » المرجع نفسه ، الصفحتان ٥٣ و ٥٤ .

(١٧) « سمعته من والدى المختار قنبل .. » المرجع نفسه ، الصفحة ٧٠ . وقد تولى المختار قنبل منصب قاضى تندرمة في عام ١٧١٠ عقب وفاة والده محمد قنبل الذى كان يتولى هذا المنصب . وكلمة قنبل ليست لقبا ، وإنما هى من لغة المندنفو ، ومعناها الأحمر ، وتطلق على بعض الأفراد بسبب لون بشرتهم وشعرهم . [انظر ، تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان ، الترجمة الفرنسية ، الصفحة ١٥٥ ، وكذلك تاريخ الفتاش ، الترجمة الفرنسية ، الصفحة ١٣٥ ، الحاشية ١ .]

فإبنه يوسف كان متفقها في الشريعة ، وإبنه إسماعيل كعت كان قاضيا .[18] أما حفيده محمد باب بن يوسف[19] فكان عالما بارزاً آخر .

أما عائلة المعلمين الأكثر تميُّزاً في فترة عظمة غاو فهي عائلة أقيت التي يرجع أصلها إلى قبائل جدالة . ولم تكن أهمية هذه العائلة ترجع فقط إلى تقوى أبنائها وورعهم ، بل كذلك إلى تفقههم الشديد في الدين . وقد أقامت أصلا في ماسنة ، ثم غادرتها إلى ولاته ، ومنها إلى تمبكت لتستقر هناك . فمحمد بن عمر بن محمد أقيت[20] ولد في تمبكت في عام ١٤٦٣ ، وعين قاضيا للمدينة في عام ١٤٩٨ ؛ وأصبح فيما بعد شيخا للإسلام . وقد مات في عام ١٥٤٨ ؛ وخلفه ثلاثة من أبنائه على التوالي في منصب قاضي تمبكت : محمد الذي شغل المنصب إلى أن مات عام ١٥٦٥[21] ؛ والعاقب الذي شغل المنصب حتى عام ١٥٨٣ ؛ وعمر الذي تولى قضاء تمبكت خلال عهد أسكيا الحاج .[22] وقد شيّد العاقب مسجد تمبكت الكبير مكان المسجد الذي تهدم والذي كان منسا موسى قد شيّده ؛ كما أعاد بناء المسجدين الآخرين ، سنكرى وسيدي يحيى ، اللذين كانا قد تهدما بدورهما .[23] ولأحفاد هؤلاء الفقهاء المتميزين دور هام في الحياة

---

(١٨) « اوقفني عليه خالي القاضي إسماعيل بن الفقيه القاضي محمود كعت » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٧٢ . «ذكره الفقيه يوسف كعت بن الفع كعت » المرجع نفسه ، الصفحة ١٢٩ .

(١٩) « وحكى لي سبطي محمد بابَ بن يوسف كعت » المرجع نفسه ، الصفحة ١٧٥ . [والحديث هنا لمحمود كعت . والسبط هو ولد الولد .]

(٢٠) صحة الاسم محمود بن عمر : « ولما رعاه ولّى الله تعالى الفقيه سيدي محمود بن عمر بن محمد أقيت . » تاريخ السودان . الصفحة ١٨ . ومرجع هذا الاختلاف أن بانيكار قد نقل عن الترجمة الفرنسية لتاريخ السودان التي ورد بها الاسم في الصفحة ٣٢ «محمد» مثلما جاء في النص الإنجليزي .

(٢١) « وتولى القضاء بعد الفع محمود بن عمر ولده القاضي محمد بن محمود ... » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٩٣ .

(٢٢) «ومنهم أولاد شيخ الإسلام أبي البركات ولى الله تعالى الفقيه القاضي محمود بن عمر بن محمد أقيت القاضي محمد والقاضي العاقب والقاضي عمر والفقيه عبد الله والولي الزاهد الفقيه عبد الرحمن ..» تاريخ السودان ، الصفحة ٣٣ .

« العاقب بن محمود بن عمر بن محمد اقيت بن عمر بن على بن يحيى الصنهاجي قاضي تنبكت .. » المرجع نفسه ، الصفحة ٤٠ .

الفكرية للمدينة ، ومن بينهم أبو حفص عمر كرى النحوى البارز .[٢٤] والفقيه أحمد بن محمد بن سعيد حفيد عمر بن محمد أقيت ، وهما معروفان جيداً.[٢٥] أما العالم الذى برز بين هذه العائلة المتميزة فهو أحمد بابا « العلامة الفقيه .. (الذى) حصّل عدة فنون من العلم كالفقه والحديث والأصول والبيان والنحو والمنطق والعروض والحساب»[٢٦] ، والذى كان أكثر أعضاء الصفوة المثقفة شهرة في تمبكت . وقد وضع أحمد بابا أسفارا كثيرة لم يصل إلينا شيء منها ، ولذا فهو يعرف أساسا بالإشارات الكثيرة إلى أسفاره في كتب التاريخ .[٢٧]

ومحمد تُلِ معلم هام آخر من أصل بربرى ، وهو ينتمى إلى فرع بنى مداس من قبيلة صنهاجة . وقد منحه أسكيا محمد كل ما يتعلق بثلاث قبائل مستعبدة ، وكذلك حق الانتفاع بريع الأرض التى تدخل فى نطاق هذه القرى . وذلك هو الثمن الذى دفعه له لقاء تأييده له ضد سنّ بار.[٢٨] كما أن الفع صالح جورْ

---

(٢٣) « أما الجامع الكبير فالسلطان الحاج موسى صاحب ملّى هو الذى بناها ... والقبور لاصقة بها ... وتلك عادة السودان أهل المغرب لا يدفنون موتاهم إلا فى رحاب مساجدها ... فلما جدد الفقيه العدل القاضى العاقب بن القاضى محمود بناها خربها وسواها مع جميع القبور بالأرض من كل جهة صيّرً الجميع مسجدا وزادها زيادة كبيرة .» تاريخ السودان ، الصفحتان ٥٦ و ٥٧ .

« ثم رجع وشرع فى بناء المسجد الجامع وفى سنة ... شرع في بناء مسجد سنكرى ... أنه لما حج وأراد الانصراف والقفول إلي تنبكت استاذن خادم الكعبة المشرفة أن يحد الكعبة ويكيله بقدمه طولا وعرضا وجاء بالحبل المكيل فلما أراد بناء مسجد سنكرى أخرج ذلك الحبل وكال تلك العرصة التى أراد بناءها فيه على الأوتاد وبنى عليها وهو على مقدار الكعبة مازادت وما نقصت عليها بشيء ... ثم رجع لبناء مسجد سوق تنبكت وهو آخر بنيته » تاريخ الفتاش ، الصفحتان ١٢١ و ١٢٢ .[وقد جاء بحاشية بالصفحة ٢٢٣ من الترجمة الفرنسية أنه من المحتمل أن يكون مسجد سوق تمبكت هو مسجد سيدي يحيى الذى يقع بالقرب من سوق رائجة للغاية فى تمبكت .]

(٢٤) «بيت الشيخ النحوى أبى حفص عمر كُرَيْ بن العلامة أبى العباس أحمد ذى الكرامات بن محمود بن عمر بن محمد أقيت » المرجع نفسه ، الصفحة ١٢٤ .

(٢٥) « ما جرى بينه وبين الفقيه أحمد بن محمد بن سعيد سبط القاضى محمود بن عمر بن محمد اقيت » المرجع نفسه ، الصفحة ١١٣ .

(٢٦) تاريخ السودان ، الصفحة ٣٢٢ .

(٢٧) يجد القارىء تعريفا بالعالم الجليل أحمد بابا فى الحاشية ٥ - ٤٣ أعلاه ، ويتضح من هذا التعريف - على خلاف ما يقوله پانيكار - أنه تبقت لدينا بضعة كتب من تاليفه ، وذلك بعدما فقد الجانب الأكبر منها فى أثناء اقتياده إلى مراكش .

الذى قام هو الآخر بدور مماثل قد كوفىء بالطريقة نفسها .[29] وهناك عائلة أخرى من البربر ، هى عائلة سيدى يحيى الأندلسى التادلسى أول إمام لمسجد سيدى يحيى فى تمبكت ، كما شغل منصب قاضى تمكبت حتى وفاته فى عام ١٤٩٣ .[30] وبغيغ[31] من العائلات الهامة الأخرى . فمحمود بغيغ خلف عمر أقيت فى منصب إمام تمبكت ، وكان إبناه محمد وأحمد من علماء الشريعة[32] ، كذلك قاوم محمد الاستبداد المراكشى . ومحمد بغيغ لم يقبض عليه ، والأرجح أن المراكشيين أرسلوه إلى مراكش أملا فى حمله على تأييدهم . فقد استدعاه القائد وطلب إليه أن يشهد على وثيقة تلقى تبعة كل الفظائع التى ارتكبت في غاو وتمبكت على العلماء وكبار القوم المتمردين . وعندما رفض بغيغ وُجه باسكيا الفع بكَرّ لَنبار[33] الذى أقسم بأنه رأى خطابا من بغيغ إلى أسكيا نوح .[34]

ومن الفقهاء الآخرين فى بلاط الأسكيا : محمد بن عمر ؛ محمد زكريا ؛

---

(٢٨) انظر الحاشيتين ١٤-١٤ و ١٤-١٦ أعلاه . « ما نزل القتال بينهما قط إلا بعد ما أرسل (اسكيا محمد) العالم الولى الصالح محمد تل الشريف ينسبونه إلى بنى مداس إلى شى بار يدعوه إلى الإسلام » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٥٣ .

(٢٩) انظر الحاشية ١٤ - ١٦ أعلاه أيضا .

(٣٠) « وسيدى يحيى الأندلسى التادلسى وهو ثابت النسب وهو سيدى يحيى بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن الثعالبى بن يحيى البكاى ... بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه . » المرجع نفسه ، الصفحتان ٥٢ و٥٣ . [وجاء بحاشية بالصفحة ١٠١ من الترجمة الفرنسية لتاريخ الفتاش أن سيدى يحيى كان أول إمام لمسجد تمبكت الذي يحمل إسمه ، وقد بناه محمد نضّ سلطان تمبكت أثناء حياة سيدى يحيى .]

(٣١) وردت « بقيع » فى كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا ، الصفحة ٩٤ « أخذ عنه جماعة منهم العلامتان الصالحان الفقيهان الأخوان شيخنا محمد وأخوه أحمد إبنا الفقية محمد بقيع » [بغيغ عشيرة من الفنغو .]

(٣٢) « حين أتاه مع السيدين الفقيهين محمد بغيغ وأخيه أحمد ابنى القاضى محمود بغيغ رحمهم الله فى كاغ » تاريخ الفتاش ، الصفحة ١١٣ .

(٣٣) ورد اسمه فى صيغ مختلفة فى تاريخ الفتاش ، فى الصفحات ١٠٤ و ١٠٨ و ١١٤ ، هى على التوالى : بكر الأنبارى ، بكر لنبار ؛ بكر الأنبار ؛ بكر بن لنبار ، وقد عمل سكرتيرا لأسكيا داوود وخلفائه . وعندما تسبق اسمه عبارة « اسكيا الفع » فإنه يعنى فقيه الأسكيا بلغة السنغى ، كما يعنى السكرتير الملكى .

(٣٤) جاء بحاشية بالصفحة ١٦٣ بالترجمة الفرنسية لتاريخ الفتاش أن اسكيا نوح خلف محمد غاو ، وأنه قاوم بنجاح فى الفترة ١٥٩٢ - ١٥٩٣ قوات القائد المراكشى محمود باشا فى دند حيث أقام هناك=

محمد تِنْك ؛ موبُ قاسم جنكاس ؛ القاضى العاقب ؛ الخطيب محمد جعيت ؛ القاضى هند الفع ؛ القاضى محمد بِنْدبع ؛ الشيخ هُوكار[٣٥] وكان هناك مؤرخ بارز آخر هو باب كور ابن الحاج محمد بن الحاج الأمين كانوا ، والأرجح أن أصله من كانو . وقد أخذ كل من السعدى وكعت عن كتابه ، درر الحسان فى أخبار بعض ملوك السودان[٣٦] وقد كان من حسن حظه أنه أفلت من مذبحة

= مملكة لم يستطع المراكشيون قهرها . وبذلك قامت فى سنغى بعد الغزو المراكشى مملكتان : الأولى تحت سلطة المراكشيين ؛ كان ينصب عليها أسكيا صورياً مقره تمبكت ؛ والثانية مستقلة تحت حكم أسكيا آخر مقره فى دند ، وفى أغلب الأحيان كان الأساكى الألعوبة فى تمبكت يصعدون ويسقطون مع صعود الباشوات المراكشيين وسقوطهم .

وردت قصة الباشا المراكشى (القائد المراكشى) واسكيا الفع بكر لنبار ومحمد بغيغ بالتفصيل فى تاريخ الفتاش ، الصفحات ١٧٥ إلى ١٧٧ ، وسأقتطف أقل عدد من الجمل يغطى أحداثها : « إن الباشا محمود مر بمحمد بغيع يوما فناداه ... ولما وصل إليه الشيخ .. ناوله كتاباً مطوياً ومد له دواة وقلما فقال اكتب شهادتك فيه وفتح الشيخ الكتاب وتأمله فإذا فيه ما صورته وليعلم أمير المؤمنين السلطان ... إننا ما قبضنا هؤلاء الفقهاء ... إلا أن ظهر لنا ما فى نفوسهم من عداوة السلطان ... وفيه شهادة جل أعيان تنبكت وكبرائها على ذلك وإعلام (إمضاء) القاضى محمد وقال له أكتب شهادتك ... فتعوذ الشيخ بالله من ذلك أى من أن يضع شهادته ... ثم التفت الباشا محمود إلي اسكى الفع لنبار ... وقال له يا الفع بكر أما رأيت الكتاب قال بلى رأيته بخط يده ... ثم قام (محمد بغيع) إلي موضع جلوسه ... وأخذ الباشا بيده وقبلها وقال ارجع إلى دارك بالسلام كثّر الله أمثالك .. فلما رجع إلى داره أتاه اسكى الفع بكر لنبار المذكور ووقف ببابه وسلم وقيل من أنت فقال أنا اسكى الفع بكر لنبار المذنب الفاجر الأثيم وتبسم الشيخ وأمر بالباب ففتح له .. »

(٣٥) محمد زكريا : ورد في تاريخ الفتاش كاغ زكريا ، أى زكريا المنتمى إلي كاغ ، « وكاغ زكريا بن أحمد » الصفحة ١١٦ . محمد تِنْك : أى محمد المنتمى إلى تنتك ، وهى موقع فى ما سنه « ومحمد تنتك » المرجع نفسه ، الصفحة ١٦ .

موبُ قاسم جنكاس : « الفقيه القاضى موبُ قاسم جنكاس » المرجع نفسه ، الصفحة ٥٢ . موبُ معناها مُؤَدِّب أو أستاذ . ورد موبُ زنكاس فى تاريخ السودان ، الصفحة ٧٠ « ومات موبُ زنكاس سنة .. »

« العاقب بن محمود بن عمر بن محمد اقيت .. قاضى تنبكت » تاريخ السودان ، الصفحة ٤٠ .

الخطيب محمد جعيت : « ثم أمر بسبعة وعشرين (عبدا) إلى الخطيب محمد جعيت خطيب كاغ وهو قاضى .. » تاريخ الفتاش ، الصفحة ١٠٦ .

القاضي هند الفع : « وأعطى أخت القاضى هند الفع ألف شاه .. » المرجع نفسه ، الصفحة ١٠٨ .

القاضي محمد بِنْدبع : « والقاضى محمود يندبع » المرجع نفسه ، الصفحة ٦٥ . ورد كذلك محمود بِدُبُغُ فى الصفحة ١٦ من المرجع نفسه . وقد ورد فى النص الإنجليزى ، وكذلك فى الترجمة الفرنسية لتاريخ الفتاش ، الصفحة ٢٥ ، Nidobogho . ولذا تكون صحة الإسم هى القاضى محمود بِنْدبع .

الشيخ محمد هُوكار: والشيخ مور محمد هُوكارُ ، المرجع نفسه ،الصفحة ١٦ .

العلماء[٣٧] .

وهناك إثنان من المعلمين لطخا سمعتهما بسبب عدم ولائهما للدولة ، أحدهما أسكيا الفع لنبار . وربما كان لنبار أهم عضو فى طبقته ، وإن لم يكن مرجع ذلك هو ورعه أو تفقهه . فقد شغل منصب رئيس مجلس القضاء فى بلاط الأسكيا ، وهكذا كان منه دائما بمثابة أذنيه . ويبدو من تاريخ الفتاش أنه نذر نفسه لخدمة المصالح المراكشية ، كما دعا إلى مهادنة المراكشيين ، وأخرج أسكيا إسحاق قسراً من ساحة القتال . وبعد أن استقر الباشوات المراكشيون فى تمبكت تعاون معهم فى مطاردة الخوارج والمنشقين . وربما يكون هو المعلم الإفريقى الوحيد من البربر الذى فعل ذلك .[٣٨] وحالة نكران أخرى للجميل أكثر افتضاحا هى حالة محمد بن القاسم ، وهو حفيد أحمد الصقلى الذى غمره أسكيا محمد بجوده وسخائه . وقد حصل إبن القاسم نفسه على عطايا ضخمة من بينها مائتان وخمسون رقيقا وفروا له جميع احتياجاته . ومع ذلك فلدى تلقيه رسالة من الشريف حاكم مراكش مفادها أنه لا يليق بأمثاله البقاء في بلد يخوض حربا ضده ، نسى إبن القاسم كل ما يدين به للسنغى ، وقرر مغادرة السودان برقيقه . ولم يوافق بعض الرقيق علي الانتقال إلى مراكش ، بيد أن الشريف أصر على

---

(٣٦) «هكذا نقلته من درر الحسان في أخبار بعض ملوك السودان تأليف باب كور بن الحاج محمد بن الحاج الأمين كانوا » المرجع نفسه ، الصفحة ٤٤ . وفى الصفحة ١٨٢ من المرجع نفسه ورد اسم درر الحسان على نحو آخر . « قاله باب جور بن الحاج محمد فى جواهر الحسان» (انظر الحاشيه ٦ – ٦٨ أعلاه)

« وفى أواسط ربيع النبوى .. توفى صاحب والدى وملاطفه فى جنى بابا كرى بن محمد كرى » تاريخ السودان ، الصفحة ٢٤٠ .

(٣٧) الإشارة هنا علي الأرجح هى إلى مذبحة العلماء التى ارتكبها القائد المراكشى محمود باشا فى غاو (انظر الحاشية ٥ – ٤٠ أعلاه) ، والدليل على أن باب كور قد أفلت من هذه المذبحة هو أنه أورد فى درر الحسان أحداثا وقعت بعدها .

(٣٨) انظر الحواشى ٥ – ٢٠ و ٥ – ٢٩ و ١٤ – ٢٣ أعلاه .

الذهاب إلى هناك .(٣٩)

خامسا

كانت بلاد السودان أحد مراكز الفقه العظيمه ، فليو الإفريقى مثلا يقول : «ويباع هنا الكثير من الكتب المخطوطة التى تأتى من بلاد البربر ويجنى من هذا البيع ربح يفوق كل بقية السلع» .(٤٠) وتلك إفادة جديرة بالإعتبار ، لأن جميع المؤلفين يتفقون على أن الملح فى تمبكت يساوى قيمته ذهبا . فإذا كانت الكتب قد نافست الذهب والملح فلابد أن التعطش للمعرفة كان عظيما للغاية حقاً .

وكان الأساكى يشجعون التعلّم والمعرفة ، وكانت لدى أسكيا داوود مكتبة ضخمة ، ويقول تاريخ الفتاش إنه اعتاد شراء مخطوطات أو نسخ من جميع الكتب الجديدة التى تصل إلى بلاده . ويقوم الكتبة فى مجلس القضاء بالبلاط بنسخ هذه الكتب ، ويتولى الأسكيا توزيع النسخ على المعلمين . كما جرت عادة الأساكى على شراء الكتب لهم ، مثال ذلك أسكيا داوود الذى اشترى لمحمود كعت نسخة من القاموس قيمتها ثمانون مثقالاً .(٤١)

وقد أصبحت المساجد فى تمبكت مراكز للتعلّم ، ولكنها لاتقارن بجامعات

---

(٣٩) محمد بن القاسم بن مزاور : « ونكح (الشريف أحمد الصقلى) امرأة من الأعراب اسمها زينب بنت وهب فولدت إبن القاسم ومحمد الهاشمى ..» تاريخ الفتاش ، الصفحة ٣١ . [ومن ذلك يتضح أن محمد بن القاسم هو حفيد أحمد الصقلى .]

« والتفت (اسكيا داوود) إلى ... إبن القاسم بن مزاور الشريف الونكرى وسأله عما يحبه من المال» المرجع نفسه ، الصفحة ١١٧ .

« .. أرسل الأمير مولاى أحمد الذهبى رسولا إلى أخيه الشريف محمد بن القاسم يأمره بالرحلة من تلك الأرض إذا لا يليق بامثاله الجلوس بارض الفتن فأرسل هو إلى جميع عبيده الزناجية ... فلما قدموا إليه أمرهم بالرحلة جميعا فاستشفعوا بأعيان ذلك البلد فقبل شفاعتهم فيهم كلهم إلا أهل انكند فقال يا أهل انكند إلى أحب أن ترحلوا ... ومع ذلك لم يرضوا بتلك الرحلة .. » المرجع نفسه ، الصفحة ١٤٩ ،

(٤٠) وصف إفريقيا ، طبعة الرياض ، الصفحة ٥٤١ . وحديث ليو الإفريقى هنا هو عن تمبكت .

(٤١) «ومناقب اسكى داوود وإحسانه مع طلبة العلم وحميد سيره مع الرعية أكثر من أن يؤتى ببعضه فكيف بكله وفى تتبعه طول ومن تلطفه وتوقيره العماء والصالحين وصبره عليهم ما حكاه لى بعض أشياخنا » تاريخ الفتاش ، الصفحة ١١٣ . =

الشمال . والحقيقة أن الرغبة فى الحصول على الكتب من شمال إفريقية وغرب آسيا كان مرجعها أنه على الرغم من وجود طبقة متعلمة فى بلاد السودان ، فإن إنتاجها الفكرى لم يكن على درجة كافية من الجودة . وعلى أية حال فإن الكتب التى يضعها العلماء السودان لايمكن مقارنتها بتلك التى تصدر عن جامعتى الأزهر وفاس . فضلا عن ذلك كانت هناك مسألة اللغة ، فالطبقات المتعلمة فى بلاد السودان كانت بارعة فى اللغة العربية – لغة الدين والأدب والثقافة – ولكن هذه البلاد كانت تبعد كثيراً عن المراكز الحيوية للمعرفة العربية . وكانت لمعاهدها طبيعة المعاهد التى أقامتها الدول الاستعمار فى مستعمراتها .

والجانب الاستعمارى فى ثقافة السودان مثير حقاً . فمثلما كان الآسيويون في العصر الاستعمارى يذهبون إلى أكسفورد وباريس لمتابعة الدراسات العليا واستكمالها ، كان السودان يذهبون إلى فاس والأزهر . وكان الطلبة من سنكرى[٤٢] يذهبون إلى فاس لدراسة المذهب المالكى ، وإلى الأزهر ومكة لدراسة الفقه والشريعة . وكان رجال الدين الزائرون يستقبلون باحترام كبير ويمنحون المناصب الهامة ، وكان للمعلمين الحق فى التدريس ، وباستطاعة أية أسرة أن ترسل إليهم أولادها ، بيد أن تكاليف التعليم كانت باهظة ، ولذلك كانت الأسر الغنية فى وضع أفضل ، إذ يكفى أن تدفع أحد الرقيق وبقرة ثمنا لتعليم الولد . أما الأطفال الفقراء فعليهم أن يعملوا لدى الشيخ كى يسددوا ثمن تعليمهم . وقد كان الاشتغال بالفقه مباحاً لكل من ولد حراً ، بيد أن تكلفة الحصول على الكتب ، والجهد الشاق الذى يتطلبه نسخها ، وحفظ القرآن عن

= « ويذكر (محمود كعت) أنه رأى فى بلد تنبكت نسخة القاموس تباع وقد قيل فيه ثمانون مثقالا واوقفتها فى يد صاحبها حتى اتيك واطلب منك خلاصها وتكون ذخيرة لك عند الله .. واشترى (اسكيا داوود) له تلك النسخة بثمانين مثقالا » المرجع نفسه ، الصفحان ١٠٨ و ١٠٩ . [القاموس المشار إليه هنا هو القاموس المحيط ، المعجم اللغوى الذى ألفه الفيروزبادى ، وهو أشهر المعاجم الصغيرة وأشملها .]

« وهو أول من اتخذ خزائن المال حتى خزائن الكتب وله نساخ ينسخون له كتباً وربما يهادى به العلماء» المرجع نفسه ، الصفحة ٩٤ .

(٤٢) الإشارة هنا إلى مسجد سنكرى الشهير فى تمبكت .

ظهر قلب ، والوقت الطويل الذى يتطلبه التمكن من الحديث والشريعة والدراسات الرفيعة المستوى فى المذهب المالكى ، وكذلك تكاليف السفر إلى الخارج - لأن معظم هؤلاء المعلمين السودان تلقوا تعليمهم لا فى مساجد بلاد السودان فقط ، وإنما فى موريتانيا وفاس بل فى القاهرة ومكة أيضا - كل ذلك يعنى أن التعليم كان وقفا على أقلية . وكما هى الحال فى كل مستعمرات العصر الحديث ، حيث كانت المناصب العالية تسند عادة إلى المتخصصين الذين تدربوا فى الخارج ، فإنه فى إمبراطوريات العصور الوسطى ببلاد السودان كان للعلماء الذين يتلقون تعليمهم فى مدارس فاس وموريتانيا مكانة خاصة مرجعها أن السودان كانوا يتبعون المذهب المالكى وأن أبناء موريتانيا وشمال إفريقية كانوا أصحاب النفوذ المهيمن فى بلاط ملوك السودان .

وما دام السودان قد تشربوا الثقافة العربية ، فقد حرصوا على أن تكون لهم صلة دائمة بآخر التطورات الأدبية والفقهية فى العالم العربى ، ومن ثمّ أقبلوا بشدة على اقتناء الكتب التى تصدر فيه . وشاعت المكتبات الضخمة فى بيوت العلماء ، إذ يذكر أحمد بابا أن مكتبته كانت تضم ألفًا ومائتى مجلد ، بالرغم من أنها كانت من أصغر المكتبات فى تمبكت .

ولا يعنى ذلك أن السودان لم يضعوا أية مؤلفات ، بيد أنه من الصعب تقدير عدد ونوع الكتب التى وضعت فى بلاد السودان لأن فترة الفراغ الكبير التى أعقبت موقعة تنديبى(٤٣) لم تشهد فقط دمار المكتبات ، بل شهدت أيضا نهاية النشاطات الثقافية كافة ، ومع ذلك فإن أسماء مثل محمد بن أبى بكر(٤٤) الذى أمضى حياته فى التعبد والتدريس والمحاجاة فى مجلس القاضى إنما هى

---

(٤٣) موقعة تنديبى : الموقعة التى ألحق فيها المراكشيون بقيادة جودار باشا هزيمة حاسمة بجيوش اسكيا إسحاق الثانى سلطان السنغى ، والتى كانت إيذانا بالنهاية الفعلية لدولة السنغى .

« وقدموا (المراكشيون) كاغ فى أول جمادى الأولى سنة تسع وتسعين وتسعماية .. وملاقاتهم مع اسكى إسحاق فى موضع تسمى سنكى قريبا من تنديبى .» المرجع نفسه ، الصفحة ١٤٦ .

(٤٤) « وفي ضحوة الأربعاء ، توفى الأخ البار النافع الصديق الملاطف المحب الناصح محمد بن أبى بكر بن عبد الله كرى السناوى كان محبًا للفقراء والمساكين والطلبة محسنا إليهم » تاريخ السودان ، الصفحة ٢٤٢ .

أسماء جديرة بالاحترام ، ويتحدث تاريخ السودان عن أحمد بابا باعتباره أوسع فقهاء بلاد السودان علمًا . كما أن بلُّ وعثمان دان فوديو وعبد الله ، من حكام الفولاني ، والحاج عمر لم يكونو فقط فقهاء مرموقين ، بل شعراء أيضا ، فضلا عن أن السعدى وكعت وإبن فرتوا والمؤرخين من الفولاني قد سجلوا بأمانة الأحداث الهامة فى بلادهم .

سادسا

كانت المعرفة الإسلامية تنتشر ببطء في بلاد الهوسا . وحتى نهاية القرن السادس عشر كانت غاو وتمبكت وغسرميغو هى المراكز الكبيرة للمعرفة . وقد دخل الإسلام بلاد الهوسا لأول مرة خلال التوسع العظيم لإمبراطورية مالى ؛ ويقول مؤرخ كانو إن الإسلام دخل بلادهم خلال حكم يلجى (١٣٤٩ – ١٣٨٥)[٤٥] على أيدى بعض التجار من الونقارة . ورغم أن هؤلاء قد شيدوا مسجدا فإنهم لم يوفقوا إلى إدخال الوثنيين فى الإسلام . وخلال حكم يعقوب[٤٦] (١٤٥٢ – ١٤٦٣) جاء المسلمون من الفولاني إلى بلاد الهوسا ؛ وبعضهم أقام هناك والبعض الآخر ذهب إلى برنو . وقد أحضروا معهم كتب الفقه والشريعة . ومنذ ذلك الوقت توطدت أركان الإسلام فى بلاد الهوسا . وتشير تأريخ كانو إلى قدوم شريف من المدينة ، خلال حكم محمد رومفا (١٤٦٣ – ١٤٩٩) . وربما كان هذا الشخص هو المغيلى الذى يُزْعم أنه زار كانو وكاتسنا . وكان له فضل إقامة الإسلام على أسس سليمة باقتلاع الشجرة التي يقدسها الوثنيون وإقامة مئذنة مكانها . ومنذ أيام المغيلى ظلت التقاليد الإسلامية قوية فى بلاد الهوسا .[٤٧] فعلى سبيل المثال يشير التأريخ إلى قدوم

---

(٤٥) ياجى بن تسامبا : الساركن الحادى عشر لكانو ويسمى عليًا ، حكم فى الفترة ١٣٤٩ – ١٣٨٥ . وفى عهده استقامت أمور الإسلام ، ووفد على كانو حوالى أربعين من العلماء المسلمين ، على رأسهم العالم عبد الرحمن زيت . وقد عهد إليهم ياجى بالإشراف على أمور القضاء وذبح الحيوانات وغيرها .

(٤٦) يعقوب بن عبد الله بورجا : الساركن التاسع عشر لكانو ، حكم فى الفترة ١٤٥٢ – ١٤٦٣ . وفى عهده وصل إلى كانو من برنو وغرب بلاد السودان عدد آخر من العلماء المسلمين الذين اكتملت بهم الثورة الدينية فى كانو .

فقهاء كثيرين في أيام كيسوكي[٤٨] (١٥٠٩ - ١٥٦٥) ، غير أن الهوسا لم يتخلوا عن عاداتهم الوثنية ؛ وكان الإسلام مجرد غطاء علوي للمعتقدات التقليدية .

لقد استعرضنا في عجالة حالة المعرفة في تمبكت أيام الأسكيا . ولم تكن برنو كمركز للثقافة تقل شهرة . يقول بلّ إنه كان يوجد في برنو معلمون ممتازون درسوا القرآن ، وليس لهم نظير في بلاد الهوسا . ويؤكد آخرون أيضا أن التقاليد الإسلامية كانت وطيدة الأركان في برنو ، ومنهم دنهام الذي يشير إلي أنه وجد في برنو عدداً كبيراً من الحجاج الذين برعوا في الكتابة بالحروف العربية . «كانت كل قافلة تغادر برنو إلى فزان تحمل عددا كبيرا من نسخ القرآن بخط الكتبة في برنو ، وكانت النسخة تباع في بلاد البربر أو في مصر مقابل خمسين أو ستين ريالا » . ومن بين معلمي برنو يذكر بلّ **البكري** وتلميذه **أبا بكر الباركوم** ، وكذلك الشيخ **طاهر الفولاني** .[٤٩] وفي أير يشير بلّ إلى المعلم **العاقب**[٥٠] كشارح لكتاب **مختصر خليل**[٥١] ويشير إليه السعدي بدوره على أنه فقيه من تمبكت ، وكان تلميذاً للمغيلي ، وقد عاش في النصف الاخير

---

(٤٧) انظر الحاشية ٤ - ٥٨ أعلاه .

(٤٨) محمد كيسوكي : انظر الحاشية ٦ - ٧١ أعلاه .

(٤٩) « من علماء ، هذا البلد (برنو) الإمام العالم العلامة ، المتفنن الفهامة ، شيخ الشيوخ ذو الفهم والرسوخ ، الشيخ البكري ، أخذ العربية والبلاغة في جاندوت .. ومنهم العالم العلامة ، الفقيه الفهامة ، المعروف بابن آجروم ، أخذ عن الشيخ البكري له تآليف تدل على وفور علمه .. ومنهم العالم العلامة ، الفقيه الفهامة ، أبو بكر الباركوم ، المعروف الشيخ الطاهر بن إبراهيم الفلاني ، كان نسيج وحده ، عالما بالمنقول والمعقول ..» إنفاق الميسور ، الصفحة ٣٧ .

(٥٠) «ويلي هذا البلد من جهة الشمال بلدة أهير .. فمنهم الأستاذ الفقيه العاقب بن عبد الله الأنصمني المسوفي ، قال أحمد (بن) باب .. العاقب .. من أهل تكدة ... فقيه نبيه ، ذكي الفهم ، وقاد الذهن ، له تعاليق من أحسنها كلامه على قول خليل » المرجع نفسه ، الصفحات ٣٩ إلى ٤١ .

«العاقب بن عبد الله الأنصمي المسوفي .. وقاد الذهن ، مشتغل بالعلم ، في لسانه دراية ، له تعاليق من أحسنها كلامه على قول خليل ..» تاريخ السودان ، الصفحة ٤١ .

(٥١) خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب : من فقهاء المذهب المالكي في القرن التاسع الهجري ، نشأ بمصر وشغل منصب مدرس المالكية بالشيخونية بمصر . ألف شرح ابن الحاجب في ستة مجلدات ، وله =

من القرن الخامس عشر .

كما برز كثيرون من المعلمين والمتفقهين في بلاد الهوسا ، في مقدمتهم عبد الله سكّ [٥٢] الذى درس فى أغادس وفزان ، ومن المسلم به أنه أعظم عالم فى زمانه . وفى كاتسنا ، فى القرن السادس عشر ، كان هناك محمد [٥٣] الذى درس على أيدى المغيلى وسافر إلى الشرق حيث التقى بشيخ الإسلام زكريا والعالم الكبير القلقشندى ، ووضع تعليقات وشروحا على كتاب مختصر خليل . ومن العلماء المبرزين الآخرين رمضان بن أحمد ، وهو مواطن من فزان درس البخارى .[٥٤]

وحتى القرن السادس عشر كان الاهتمام منصبًا فى المقام الأول على أمور الفقه والشريعة . وكان العمل الذى أنجز في هذا الجانب فى بلاد الهوسا عملا نقليًا أكثر منه عملا إبداعيًا . وكانت أغادس هى المركز العظيم للتعلُّم الذى يزوره الدارسون من الهوسا ، إذ كانت فى العصور الوسطى مركزا معروفا

= مختصر فى الفقه ، وكذلك شرح فى المدونة لم يكتمل . بقي فى تصنيف مختصر خليل خمسا وعشرين سنة ، وهو كتاب فى فقه المالكيه قصد فيه إلى بيان المشهور مجردا عن الخلاف وجمع فيه فروعا كثيرة جدا مع الإيجاز البليغ . [نقلا عن كتاب الديباج المذهب لابن فرحون وكذلك عن هامشه كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتى ، الصفحات ١١٢ إلى ١١٥] . وتوجد طبعة منه عنوانها مختصر خليل فى فقه الإمام مالك أصدرتها مكتبه عباس عبد السلام بن شقرون ، بالحمزاوى بمصر ، ١٩٦٤ .

(٥٢) «من علماء هذه الأقاليم السبعة المذكورة آنفا ، التى هى : دور وكاشنة وكنو وغوبر وزكزك – الشيخ الإمام العالم العلامة النحرير الفهامة ، فريد دهره ، وحيد عصره ، عبد الله سكّ ، الفلاتى البغاتى ، رحل فى طلب العلم إلى أقدر (أغادس) وإلى فزان .. وله من شيخه البكرى جزء يسير فى مجاوبته » إنفاق الميسور ، الصفحة ٥٠ [الإقليمان الباقيان هما بيرام ورانو .]

(٥٣) «ومنهم القاضى محمد بن أحمد بن أبى محمد التاذختى قال أحمد بابا .. عرف بأَيْدَ أحمد مضافا لأسم أحمد ومعناه : إبن كان فقيها عالما ، فهاما محدثا ، متفننا محصلا ، جيد الحفظ ، حسن الفهم كثير المنازعة ... ولقى بتكدة الإمام المغيلى ، وحضر دروسه ثم رحل للشرق .. فلقى أجلاء ، كشيخ الإسلام زكريا والبرهانين : القلقشندى ... له تقاليد وطرز على مختصر الشيخ خليل » المرجع نفسه ، الصفحة ٥١ .

(٥٤) «ومنهم الشيخ العلامة رمضان بن أحمد ، وكان أصله من فزان ، استوطن زنفر ، وله قصائد وتواليف : منها نظمة على رواة البخارى ، أى رواية الفروع عن الأصول » المرجع نفسه ،الصفحة ٥٢ .

للتعلُّم تخصص فى علوم الفقه . وقد ركز معظم معلمى أغادس على التدريس في المسجد ، ولكن بعضا منهم ، مثل الشيخ عثمان بندور(٥٥) وجبريل ، جمع بين التدريس فى المسجد والوعظ المتجول خارجه . وتخصصت الغالبية العظمى من معلمى أغادس في قضايا معينة ؛ منهم محمد ثُنْبُ(٥٦) الذى ألَمَّ بأخبار قريش وعلق عليها ؛ وجبريل الذى تخصص فى الكوكب الساطع(٥٧) ومحمد بن راج الذى درس البخارى(٥٨) ؛ ومحمد المغورى الذى اشتهر علي نطاق إفريقية كمعلق على المختصر . (٥٩) ويذكر عبد الله ، الأخ الأصغر لعثمان دان فوديو ، أنه درس الكوكب الساطع للسيوطى على أيدى جبريل .

وقد أصبح تأثير تمبكت منذ القرن السادس عشر هو السائد فى بلاد الهوسا . ويعنى ذلك أن المؤلفات الدنيوية أخذت تحظى باهتمام أكبر ، وأن كتابة التاريخ أصبحت أهم وظيفة يضطلع بها المعلمون .

---

(٥٥) الشيخ عثمان بندور الكبوي ، قرأ عليه عثمان دان فوديو الفقه .

(٥٦) «قاضى القضاة محمد سُنْبُ» إنفاق الميسور ، الصفحة ٥٦ .

« الإمام محمد ثُنْبُ بن عبد الرحمن » تزين الورقات ، الصفحة ٦١ .

(٥٧) الشيخ جبريل بن عمر: تخصص فى صحيح البخارى ، وكان له أثره الكبير علي عثمان دان فوديو . فقد رحل عثمان إلي أغادس حيث يقيم الشيخ جبريل ، ولازمه مدة عام ، وأخذ عنه صحيح البخارى ، وهو مالكي متشدد . «ومنهم الأستاذ جبريل بن عمر شيخ الإسلام العلامة المحقق ، القدوة النظار الصالح البركة الحاج» إنفاق الميسور ، الصفحة ٥٤ .

«ثم رجع شيخنا عثمان إلي الوطن وتركنى عنده (أى ترك الشيخ عبد الله عند الشيخ جبريل) فلبثت عنده نحو شهرين قرأت عليه الكوكب الساطع للسيوطى مستمعا كتبا شتى عنده تقرؤها الطلاب» تزين الورقات ، الصفحة ٣١ .

(٥٨) «فوجدت (الشيخ عبد الله) الشيخ عثمان خرج إلى الحاج محمد بن راج لقراءة البخارى» المرجع نفسه ، الصفحتان ٣١ و ٣٢ .

(٥٩) صحة الإسم محمد المنقورى «ومنهم شيخ الشيوخ ، الفقيه المهيب ، محمد المنقورى ، نقل مختصر خليل ، ومهر جدا ، وتصدر التدريس» إنفاق الميسور ، الصفحة ٥٦ . [ورد اسمه علي النحو الذى ورد به فى المتن (المغورى al-Maghuri) فى المقدمة الإنجليزية لكتاب تزيين الورقات ، الصفحة ٧ . ولذا يرجح أن يكون پانيكار قد أخذ عن هذا المصدر .]

وتنبغى الإشارة إلى أهمية المؤلفات الدنيوية فى بلاد الهوسا فى القرن الثامن عشر . فعبد الله يذكر أنه درس علم النحو والصرف والمنطق .[٦٠] وهو بالطبع قد درس القرآن وكتب التفسير ؛ وأعمال السنوسيين ؛ والشعراء الستة . كما درس «علم الحديث الذى يأتى عن طريق المعرفة ، مثل العراقى ، وعلم الحديث الذى يقتصر على الأحاديث الصحيحة التى يتصل سندها من الراوى إلى النبى ، مثل البخارى »[٦١] وقد تعلم على أيدى شيوخ كثيرين ، سواء من الشرق أو الغرب ، وأصبح من الدارسين المبرزين .

سابعا

أقامت إفريقية الغربية فى القرن التاسع عشر علاقات وثيقة للغاية مع المناطق المجاورة . ولا يرجع ذلك كلية إلى التجارة ، وإنما أقام هذه العلاقات أيضا على مراحل وئيدة الحجاج المتجهون إلى مكة ، مثلما يفعل البعض منهم حتى اليوم بإقامتهم فى المدن المختلفة . ولم تكن الدولة الإفريقية تتدخل فى شؤون المسافرين المعتادين ، سواء أكانوا حجّاجاً أم تجّاراً . وهكذا سافر كل من كلابرتون وبارث إلى بلاد الهوسا ومعهما خطابات توصية من حكام برنو . وفى ذلك ما يدعو إلى الدهشة كثيرا فى حالة كلابرتون لأن بِلّ والشيخ الكانمى تبادلا خطابات مليئة بالقدح والذم .

وفى معظم المدن كان هناك مواطنون أو زائرون يكثرون من السفر ؛ ففى كتاغوم التقى كلابرتون برجل من الفولا سبق أن سافر إلى القسطنطينية وبغداد .

---

(٦٠) «ولم أفسر لغات هذه القصيدة هنا لأنى فسرتها فى النسوخ المكتوبة ... وإن يسر الله لنا سنضع عليها شرحا إن شاء الله يبرز محدداتها لأنها قد حوت من علوم العربية وعلوم البلاغة ... » تزيين الورقات ، الصفحة ٣٧ .

(٦١) هذه الفقرة مأخوذة من المقدمة الإنجليزية لكتاب «تزيين الورقات» ، الصفحتين ٦ و ٧ . وعن أعمال السنوسيين وردت بهذه المقدمة إشارة إلى كتاب التوحيد لأبى عبد الله السنوسى . أما الإشارة إلى العراقى فتتعلق بألفيته الشهيرة فى علم الحديث .

وفى كاتسنا زار بارث شريفٌ من اليمن سبق أن زار بلاد البربر ، ويوشك على السفر إلي تمبكت . وفى مناطق الأداماوا قابل بارث رجلا من الفولاني زار مكة ، وعاد منها حاملاً كتبا كثيرة كان يأمل بيعها في تمبكت والغرب . ومرة أخرى هنا حالة الحاج أحمد ، وأصله من البمبرة . وقد بدأ حياته العملية بتنظيم الحفر لاستخراج الذهب فى بمبوك ، ثم قام بحملات تجارية صغيرة بين توات وتمبكت ، وبين كانو وأغادس ، وأخيرا ذهب إلي الشرق ورافق إبراهيم باشا فى حملته على سوريا ، وزار البصرة وبغداد . ثم التحق بخدمة الحرم النبوى فى المدينة ، وأرسله الإمام ليحصل على بعض الرقيق من بيغرمى .

وكان يوجد بالمراكز التجارية العظيمة ، مثل كانو أو تمبكت ، سكان لديهم معرفة كاملة بالبلاد الإسلامية ، وكان الاتصال بالشمال ذا جانب واحد . فلم يكن يزور شمال إفريقية إلا أقل القليل من السودان ، حتى من الهوسا الموجودين فى كل زمان ومكان . ولكن الأراضى القريبة من الشرق الأدنى والقاهرة وغرب بلاد السودان ، وفى مقدمتها الأماكن الإسلامية المقدسة ، كانت مألوفة لديهم . كما أنهم لم يكونوا يجهلون جغرافية بلاد السودان . ففى بيغرمى ناقش بارث نظام النهر فى وداى مع رجل من الفولا . وفى برنو تعرّف دنهام على أحد مواطنى سيراليون رأى الإنجليز هناك . والحقيقة أن بلّ أخبر كلابرتون أن كثيرين من أتباعه يزورون المنطقة الساحلية ، وأن نهر كارا يصل إلى البحر عند مكان يدعى ركا على مسيرة عشرين يوما من نوبى ، ومع ذلك لم يكن مستعداً لأن يُزَوِّده بخريطة خشية أن يبحر الإنجليز فى النهر إلى الداخل .


صفحة فارغة

قوائم الأسر الحاكمة

أسرة كيتا الحاكمة فى مالى

نارى فامغان	١٢٠٠ - ١٢١٨
دنجارام	١٢١٨ - ١٢٢٨
سوندياتا (مارى جاطة)	١٢٢٨ - ١٢٥٥
ولى الأول	١٢٥٥ - ١٢٧٠
ولى الثانى	١٢٧٠ - ١٢٧٤
خليفة	١٢٧٤ - ١٢٧٥
أبو بكر (مغتصب ؟)	١٢٧٥ - ١٢٨٥
سيكرة (مغتصب ؟)	١٢٨٥ - ١٣٠٠
قو	١٣٠٠ - ١٣٠٥
موسى الأول	١٣٠٥ - ١٣٣٧
مغان الأول	١٣٣٧ - ١٣٤١
سليمان	١٣٤١ - ١٣٦٠
كاسا (عزل)	١٣٦٠ -
مارى جاطة الثانى	١٣٦٠ -١٣٧٤
موسى الثانى	١٣٧٤ - ١٣٨٧
مغان الثانى	١٣٨٧ - ١٣٨٨
صندكى (مغتصب)	١٣٨٨ - ١٣٩٠
مغان الثالث	١٣٩٠ -

أسرة الأساكى الحاكمة فى غاو

محمد	١٤٩٣ - ١٥٢٩
موسى	١٥٢٩ - ١٥٣١
محمد بنكن	١٥٣١ - ١٥٣٧
إسماعيل	١٥٣٧ - ١٥٤٠
إسحاق الأول	١٥٤٠ - ١٥٤٩
داوود	١٥٤٩ - ١٥٨٢
الحاج	١٥٨٢ - ١٥٨٦
محمد بان	١٥٨٦ - ١٥٨٨
إسحاق الثانى	١٥٨٨ - ١٥٩١
محمد غاو	١٥٩١ - ١٥٩٢

الأسرة السيفية الحاكمة فى كانم - برنو

المايات السيفيون	التاريخ الميلادى التقريبى
أوم بن جبيل (أو هيوم بن جيل)	١٠٨٦ - ١٠٩٧
دونمه بن أوم	١٠٩٨ - ١١٥١
دالابيرى (أو بيرى بن دونمه)	١١٥١ - ١١٧٧
دالابكر (أو عبد الله بكر بن بيرى)	١١٧٧ - ١١٩٤
سالما (أو عبد الجليل بن بكر)	١١٩٤ - ١٢٢١
أحمد دونمه (أو دونمه بن دابالا بن سالما)	١٢٢١ - ١٢٥٩
كادى (أو عبد القديم) بن متالا (متالا اسم أمه)	١٢٥٩ - ١٢٧٨
عثمان (بيرى) بن زينب	١٢٧٩ - ١٣٠٠
الحاج إبراهيم نيجال بن كادى	١٣٠٠ - ١٣٢١
عبد الله بن كادى	١٣٢١ - ١٣٤٢

سالما (تسليم) بن حوا (أو إبن عبد الله)	١٣٤٢ – ١٣٤٨
كورجانا (أوكور) الصغير	١٣٤٨ – ١٣٤٩
كور الكبير	١٣٤٩ – ١٣٥٠
كور محمد (أو محمد بن عبد الله)	١٣٥٠ – ١٣٥٣
إدريس بن حفصة بنت نيجال بن إبراهيم (أمه حفصة بنت نيجال وأبوه إبراهيم)	١٣٥٣ – ١٣٧٦
داوود بن فاطمة بنت نيجال بن إبراهيم (أمه فاطمة بنت نيجال وأبوه إبراهيم)	١٣٧٦ – ١٣٨٦
عثمان بن داوود عثمان بن إدريس أبو بكر (لياتو) بن داوود	١٣٨٦

انتقال الأسرة السيفية من كانم إلى برنو

عمر بن إدريس	١٣٨٧/٦ – ١٣٩١
سعيد محمد مازا أوماچا	١٣٩١
كادى أفونو بن إدريس	١٣٩١ – ١٣٩٢
عثمان (بيرى) بن إدريس	١٣٩٢ – ١٤٢٥
عثمان كالينواما بن داوود	١٤٢٥
دونمه بن عمر	١٤٢٥ – ١٤٢٧
عبد الله أوچا بن عمر	١٤٢٧ – ١٤٣٦
إبراهيم بن عثمان	١٤٣٦ – ١٤٤٣
كادى بن عثمان	١٤٤٣ – ١٤٤٤
دونمه بن بيرى (أو دونمه بن عثمان)	١٤٤٤ – ١٤٤٨
محمد بن متالا (متالا إسم أمه)	١٤٤٨ – ١٤٥٠
أوم بن عائشة بنت عثمان	١٤٥٠ – ١٤٥٢

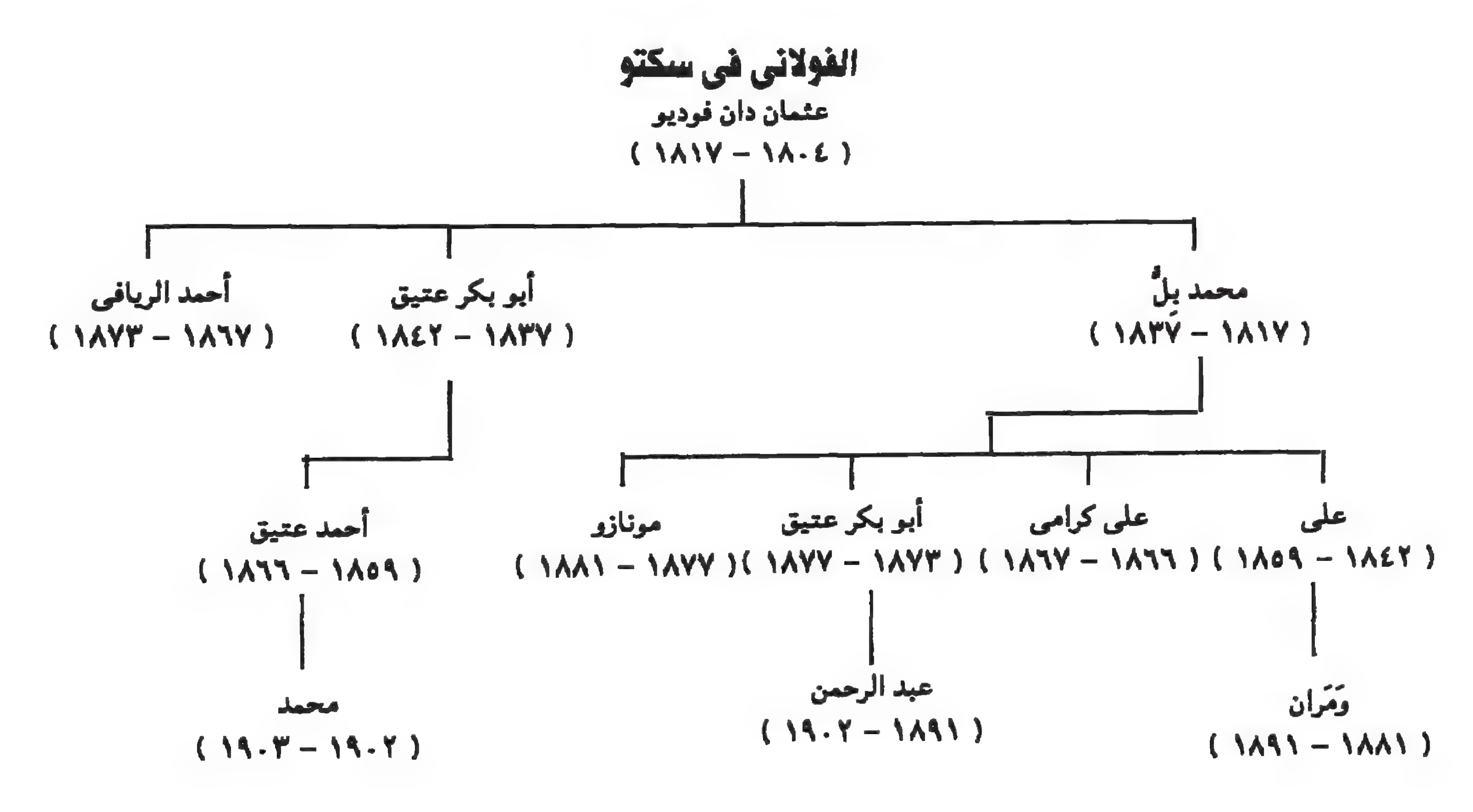
محمد بن كادى	١٤٥٢ - ١٤٥٥
حاچى بن إيمالا	١٤٥٥ - ١٤٦١
عثمان بن كادى	١٤٦١ - ١٤٦٦
عمر بن عبد الله أوچا	١٤٦٦ - ١٤٦٧
محمد بن محمد كادى	١٤٦٧ - ١٤٧٢
على جاچى بن دونمه بن زينب (أبوه دونمه وأمه زينب)	١٤٧٢ - ١٥٠٣
إدريس كاتاجار مابى بن على بن عائشة	١٥٠٣ - ١٥٢٦
محمد بن إدريس	١٥٢٦ - ١٥٤٥
على بن إدريس	١٥٤٥ - ١٥٤٦
دونمة محمد بن فانامى بن محمد (فانامى اسم أمه ، محمد اسم أبيه)	١٥٤٦ - ١٥٥٥
عبد الله بن دونمه	١٥٥٥ - ١٥٦٣
- وصاية الماچيرا عائشة على ابنها إدريس ألوما	١٥٦٣ - ١٥٧٠
إدريس بن على ألوما أو إدريس عائشة ألوما	١٥٧٠ - ١٦٠٣
محمد بن إدريس	١٦٠٣ - ١٦١٨
إبراهيم بن إدريس	١٦١٨ - ١٦٢٥
الحاج عمر بن إدريس	١٦٢٥ - ١٦٤٤
الحاج على طاير بن الحاج عمر	١٦٤٤ - ١٦٨٠
إدريس بن على	١٦٨٠ - ١٦٩٩
دونمه بن على	١٦٩٩ - ١٧١٧
الحاج حمدون بن دونمه	١٧١٧ - ١٧٣١
محمد بن الحاج حمدون	١٧٣١ - ١٧٤٧
دونمه جانا	١٧٤٧ - ١٧٥٠
على بن الحاج حمدون	١٧٥٠ - ١٧٩١
أحمد بن على	١٧٩١ - ١٨٠٨

وبعد « أحمد بن على » جاء « دونمه بن أحمد » (١٨٠٧ – ١٨١١) ، وفى عهده ظهرت أسرة الشيخ محمد الكانمى الذى أصبح صاحب السلطة الفعلية فى برنو ، وأعقبه «محمد نجلروما» (١٨١١ – ١٨١٤) ، وقد عزله الشيخ الكانمى وأعاد «دونمه بن أحمد» (١٨١٤ – ١٨١٧) ؛ وأعقبه أخوه «إبراهيم» (١٨١٧ – ١٨٤٦) ، ثم «على بن دلاتو» الذى حكم ٤٠ يوماً وكان آخر مايات الأسرة السيفية .

هذا وقد وردت الأسماء فى المتن مبتورة ، كذلك فإن تواريخ تولى المايات السلطة تختلف من مصدر تاريخى لآخر فى حدود بضع سنوات . وقد استكملت الأسماء مستعينا بمصدرين آخرين ، كما حاولت قدر الإمكان التوفيق بين التواريخ الواردة فى المتن وتلك الواردة فى هذين المصدرين : انظر ، إبراهيم على طرخان ، **إمبراطورية البرنو الإسلامية** ، المرجع السابق ، الصفحات ١٧٩ إلى ١٨٥ ؛ وكذلك ريتشموند بالمر Bornu, Sahara and Sudan ، المرجع السابق ، الصفحات ٩٦ إلى ٢٥٢ .

داهومى

أويغباشا	١٦٠٠ – ١٦٢٥
داكو	١٦٢٥ – ١٦٨٠
أكبا	١٦٨٠ – ١٧٠٨
أغاجا	١٧٠٨ – ١٧٢٨
تغبوصن	١٧٢٨ – ١٧٧٥
كنْغَلا	١٧٧٥ – ١٧٨٩
أغونوِيو	١٧٨٩ – ١٧٩٧
أدنْزان	١٧٩٧ – ١٨١٨
غيزو	١٨١٨ – ١٨٥٩
غليغلى	١٨٥٩ – ١٨٨٩
بيهانزن	١٨٨٩ – ١٨٩٤
أغلو أغلو	١٨٩٤ – ١٨٩٨


الفولاني في سكتو
عثمان دان فوديو
(١٨٠٤ - ١٨١٧)
محمد بلّ
(١٨١٧ - ١٨٣٧)
أبو بكر عتيق
(١٨٣٧ - ١٨٤٢)
أحمد الريافى
(١٨٦٧ - ١٨٧٣)
على
(١٨٤٢ - ١٨٥٩)
على كرامى
(١٨٦٦ - ١٨٦٧)
أبو بكر عتيق
(١٨٧٣ - ١٨٧٧)
مونازو
(١٨٧٧ - ١٨٨١)
أحمد عتيق
(١٨٥٩ - ١٨٦٦)
وَمَران
(١٨٨١ - ١٨٩١)
عبد الرحمن
(١٨٩١ - ١٩٠٢)
محمد
(١٩٠٢ - ١٩٠٣)

تواريخ الأحداث

مرتبة بحسب التسلسل الزمنى بالتقويم الميلادى

تأسيس دولة غانة	٣٠٠
تأسيس غاو	٦٠٠
عقبة بن نافع يغزو فزان	٦٦٩
أسرة «زا» الحاكمة فى غاو	٦٩٠
ظهور قوة صنهاجة	٧٠٠
غزو شمال إفريقية لغانة	٧٣٤
تأسيس مملكة وَغَدُغُ	٧٥٠
قَيَمَغَ يؤسسً إمبراطورية السوننكى فى غانة	٧٨٠
غزو البربر لتغازة	٨٠٠
وفاة تين يروتان	٨٣٦
لمطة تأسر محمد كاغ	٨٩٠
غزو لمتونة لغانة	٩٣٠
غاو تفرض سيطرتها على أودغست	٩٦١
غانة تسيطر على لمتونة ؛ وتعيد هيمنتها على أودغست	٩٩٠
اعتناق زاكُسُىْ للإسلام	١٠٠٩
بداية جهاد المرابطين	١٠٤٢
غزو المرابطين لأودغست	١٠٥٤
غزو إبن ياسين للسوس	١٠٥٦
وفاة إبن ياسين	١٠٥٧
غزو المرابطين لغانة	١٠٧٦

اعتناق دونمه بن أوم للإسلام	١٠٨٥
تأسيس تمبكت	١١٠٠
كيتا أللاكوى ينشىء مملكة المندى	١٢٠٠
ناجوشى ساركن كانو يفرض ضريبة الأرض	١٢٠٠
غزو الصوصو لغانة	١٢٠٣
انتصار سندياتة (مارى جاطة) فى موقعة كيرى	١٢٣٤
تأسيس غاو	١٢٥٠
انتقال الخلافة إلى كانم	١٢٧٩
ارتقاء منسا موسى العرش	
ظهور قوة الكوارارافا	١٣٠٧
سفر منسا موسى إلى مكة لأداء فريضة الحج	١٣٢٤
الموسى ينهبون تمبكت	١٣٣٣
هرب على كولن .	١٣٣٥
اعتناق محمد كورانى حاكم كاتسنا للإسلام	١٣٨٠
غزو بتنكورت لجزر كناريا	١٤٠٢
غزو الطوارق لأروان وولاته وتمبكت	١٤٣١
غزو الكوارارافا لبرنو وبلاد الهوسا	١٤٥٠
سنّ على	١٤٦٥
قيام سنّ على بغزو تمبكت	١٤٦٨
نهب الموسى لولاته	١٤٧٠
وصول جوان دى سنتريم	١٤٧١
البعثة البرتغالية إلى مالى	١٤٨٠
تولى إيوبارى الكبير للسلطة فى بنين	١٤٩٠
وفاة سنّ على	

أسرة الأساكى فى غاو	١٤٩٢
المغيلى فى بلاد الهوسا	١٥٠٢
حرب الإيدا	١٥١٥ – ١٥١٨
حملة السنغى ضد أيْرَ	١٥١٦ – ١٥١٧
الحملة المراكشية ضد ودان	١٥٤٢
السنغى يبدأون استغلال مناجم الملح فى تاوديني	١٥٦٢
موقعة القصر الكبير	١٥٧٨
الحملة المراكشية ضد توات	١٥٨١
الغزو المراكشى	
موقعة تندبى	١٥٩١
هزيمة المراكشيين لأسكيا نوح	١٥٩٥
قيام محمود سلطان مالى بغزوچنى	١٥٩٩
باشوات تمبكت يصبحون مستقلين	١٦١٢
غزو البمبرة لتمبكت	١٦٧٠
وصول الكواراراقا إلى كاتسنا	١٦٧١ – ١٦٧٢
استيلاء الطوارق على غاو	١٦٨٠
مولد عثمان دان فوديو	١٧٥٤
مولد عمرتل	١٧٩٤
الجهاد الفولانى	١٨٠٤
موقعة ألْوَس	
غزو الأشانتى للساحل	١٨٠٥
موقعة غوان فَافَرَ	١٨٠٦
خطر بريطانيا لتجارة الرقيق.	
الغزو الفولانى لبرنو	١٨٠٧

استغاثة الماى بالشيخ الكانمى	١٨١١
حملة الأشانتى ضد الفاننى	١٨١٤
موقعة نجالا	١٨١٧
محمد بلُّ يصبح أمير المؤمنين	
الفولانى فى ماسنة يصبحون مستقلين	١٨١٨
بعثة باوبيتش إلى كوماسى	١٨٢١
إلغاء بريطانيا لتجارة الرقيق	١٨٣٣
الفرنسيون يبنون قلعة فى وايداح	١٨٤٠
موقعة فوصيرى	
عودة عمر إلى فوتا	١٨٤٦
إعلان الحماية البريطانية على لاجوس	١٨٦١
انتصار الفولانى وموت عمر	١٨٦٤
توقيع معاهدة بين فرنسا وداهومى	١٨٧٨
داهومى تصبح محمية بريطانية	١٨٩٢
الفرنسيون يلحقون الهزيمة بالشيخ أحمدو	١٨٩٥
غزو رابح لبرنو	١٨٩٦
غزو الفرنسيين لملكة رابح	١٩٠٠
غزو بريطانيا لأشانتى	١٩٠١

القبائل الهامة ومواطنها

القبيلة	الموطن
١ – الأشانتى	منطقة الأشانتى فى غانة
٢ – البمبرة	مقاطعتا سيجو ويَمَكو فى مالى
٣ – البرنو	المنطقة الغربية من نيچيريا
٤ – الفولانى	على نطاق غرب إفريقية
٥ – الهوسا	فى نيچيريا الشمالية والنيچر
٦ – الكانورى	فى برنو
٧ – المندنغو	فى مالى
٨ – السنغى	فى السنغى
٩ – اليوربا	المنطقة الغربية من نيچيريا


صفحة فارغة

المصادر العربية

* إبراهيم على طرخان

١ - إمبراطورية غانة الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠ .

٢ - دولة مالى الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣ .

٣ - إمبراطورية البرنو الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ .

* إبن بطوطة

٤ - تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٢ .

* إبن حوقل

٥ - كتاب صورة الأرض ، دار الكتاب الإسلامى ، القاهرة .

* إبن خلدون

٦ - العبر ، وديوان المبتدإ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، طبعة بولاق ، سبعة مجلدات .

٧ - العبر ، دار الكتاب اللبنانى ، مكتبة المدرسة ، بيروت ١٩٨٤ ، سبعة مجلدات فى أربعة عشر جزءا .

٨ - مقدمة إبن خلدون ، طبعة دار الشعب ، معتمدة على الطبعة التى أصدرتها «لجنة البيان العربى» بتحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى .

* إبن سعيد

٩ - **كتاب الجغرافيا** ، منشورات المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، سلسلة «ذخائر التراث العربى» ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٠ .

١٠ - قطعة عن **«منطقة بحيرة تشاد»** نشرت بالمجلد السادس عشر من دورية **حوليات إسلامية** التى يصدرها المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، الصفحات ١٦١ إلى ١٦٥ .

* إبن فرحون

١١ - **الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب** ، دار عباس بن شقرون ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ .

* أبو حامد الغرناطى

١٢ - **تحفة الألباب** ، نشر فى عدد يولية - سبتمبر ١٩٢٥ من مجلة Journal Asiatique.

* أحمد بابا

١٣ - **نيل الابتهاج بتطريز الديباج** ، على هامش الديباج المذهب لابن فرحون .

* أحمد شلبى

١٤ - **موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية** ، المجلد السادس ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٢ .

* أحمد فؤاد بلبع

١٥ - **عبد الرحمن السعدى ، عصره وكتابه تاريخ السودان** ، دراسة فى ٥٨ صفحة نشرت بالمجلد العشرين من «المجلة المصرية للدراسات التاريخية» ، ١٩٧٣ .

١٦ – أفريقيا والإسلام ، سلسلة «أفريقيا اليوم» ، لجنة الشئون الأفريقية بالاتحاد الاشتراكى العربى .

* الإدريسى

١٧ – نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، فى مجلدين ، مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة .

* آدم عبد الله الألورى

١٨ – الإسلام فى نيجيريا وعثمان بن فودى ، دار عبد الحميد أحمد حنفى ، القاهرة ، ١٣٧٠ هـ .

* پانيكار ، ك . مادهو

١٩ – الثورة فى إفريقية ، ترجمة روفائيل جرجس ، مراجعة محمد محمود الصياد ، سلسلة الفكر السياسى والاشتراكى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ، ١٩٦٤ .

* البكرى

٢٠ – المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، دار الكتاب الإسلامى بالقاهرة ، مع مقدمة بالفرنسية بقلم دى سلين .

* بوڤل

٢١ – الممالك الإسلامية فى غرب أفريقيا وأثرها فى تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى ، ترجمة لكتاب بوڤل Golden Trade of the Moors قام بها دكتور زاهر رياض ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

٢٢ – تجارة الذهب وسكان المغرب ، ترجمة أخرى لنفس الكتاب قام بها دكتور الهادى أبو لقمة ودكتور محمد عزيز ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازى ، ليبيا ، ١٩٨٨ .

* البيرونى

٢٣ – تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة ، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، الهند ، ١٩٥٨ .

* حسن أحمد محمود

٢٤ – الإسلام والثقافة العربية فى إفريقية ، الجزء الأول ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٣ .

* حسن عيسى عبد الظاهر

٢٥ – الدعوة الإسلامية فى غرب أفريقية وقيام دولة الفولانى ، الزهراء للإعلام العربى ، ١٩٩١ .

* حسين مؤنس

٢٦ – أطلس تاريخ الإسلام ، الزهراء للإعلام العربى ، ١٩٨٧ .

* جلال يحيى

٢٧ – المغرب العربى الحديث والمعاصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فرع الإسكندرية ، ١٩٨٣ .

* الخوارزمى

٢٨ – صورة الأرض ، تحقيق هانس فون مزيك ، مطبعة أدولف هولزهوزن ، ڤيينا ، ١٩٢٦ .

* داڤيدسون ، بازل

٢٩ – أفريقيا تكتشف من جديد ، ترجمة نبيل بدر وسعد زغلول ، مراجعة محمود شوقى الكيال ، الدار القومية للطباعة والنشر ، سلسلة «من الشرق والغرب» ، العدد ٣٩ .

* ديشان ، هوبير

٣٠ – الديانات فى أفريقيا السوداء ، ترجمة أحمد صادق حمدى ، مراجعة محمد عبد الله دراز ، الألف كتاب الأول ، العدد ٥٢ ، دار الكتاب المصرى ، ١٩٥٦ .

* زاهر رياض

٣١ – تاريخ غانة الحديث ، دار المعرفة ، ١٩٦١ .

٣٢ – كشف أفريقيا ، إشراف وتقديم ، معهد الدراسات الأفريقية ، دار المعرفة ، ١٩٦١ .

* سليجمان ، س . ج .

٣٣ – السلالات البشرية فى أفريقية ، ترجمة يوسف خليل ، مراجعة محمد محمود الصياد ، مكتبة العالم العربى ، ١٩٥٩ .

* السيد عبد العزيز سالم

٣٤ – المغرب الكبير ، العصر الإسلامى ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ .

* سيدنكو ، ڤيكتور

٣٥ – الاستعمار البرتغالى فى أفريقيا ، سلسلة قضايا سياسية ، وكالة نوڤوستى للأنباء .

* شفيق مقار

٣٦ – قراءة سياسية للتوراة ، رياض الريس للكتب والنشر ، لندن ، ١٩٨٧ .

* شوقى عطا الله الجمل

٣٧ – المغرب العربى الكبير فى العصر الحديث ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٧ .

* صلاح الدين المنجد

٣٨ – مملكة مالى عند الجغرافيين المسلمين ، بيروت ، دار الكتاب العربى ، ١٩٦٣ . وهو اقتباسات تتعلق بدولة مالى الإسلامية وردت فى مصادر عربية قديمة متنوعة ، من أهمها «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» .

* صلاح العقاد

٣٩ – المغرب العربى ، الجزائر – تونس ، المغرب الأقصى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٢ .

* عبد الرحمن زكى

٤٠ – المسلمون فى العالم اليوم ، أفريقية الإسلامية (١) ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨ .

٤١ – المسلمون فى العالم اليوم ، أفريقية الإسلامية (٢) ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨ .

٤٢ – الإسلام والمسلمون فى غرب أفريقيا ، مجموعة محاضرات ألقيت فى معهد الدراسات الإسلامية ، مطبعة يوسف .

٤٣ – الإسلام والمسلمون فى أفريقيا ، مجموعة محاضرات ألقيت فى معهد الدراسات الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

٤٤ – **تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيا الغربية** ، الألف كتاب الأول ، رقم ٣٨٤ ، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٦١.

*** عبد الرحمن السعدى**

٤٥ – **تاريخ السودان** ، وقف على طبعه وترجمته إلى الفرنسية السيد هودا بمشاركة تلميذه بنوا ، مكتبة أمريكا والشرق ، باريس ، ١٩٦٤ .

*** عبد اللطيف حمزة**

٤٦ – **القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى** ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، سلسلة «أعلام العرب» ، ١٢ ، ١٩٦٢ .

*** عبد الله بن محمد الفودى**

٤٧ – **تزيين الورقات** ، قسم النشر بجامعة إبادان ، نيچيريا ، ١٩٦٣ ، مع ترجمة إنجليزية ومقدمة قام بهما م. هيسكيت .

*** عبد الله عبد الرازق إبراهيم**

٤٨ – **المسلمون والاستعمار الأوروبى لأفريقية** ، سلسلة «عالم المعرفة» ، الكويت ، العدد ١٣٩ ، ١٩٨٩ .

٤٩ – **الإسلام والحضارة الإسلامية فى نيچيريا** ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨٤ .

*** على أحمد الشحات**

٥٠ – **أبو الريحان البيرونى** ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨ .

*** على حسنى الخربوطلى**

٥١ – **المسعودى** ، دار المعارف بمصر ، سلسلة «نوابغ الفكر العربى» ، ٣٨ ، ١٩٦٨ .

* **العمرى ، إبن فضل الله**

٥٢ – **التعريف بالمصطلح الشريف** ، طبع بمطبعة العاصمة ، بحوش الشرقاوى بالقاهرة ، ١٣١٢ هـ .

* **القلقشندى**

٥٣ – **صبح الأعشى فى صناعة الإنشا** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥ ، أربعة عشر جزءا أضيف إليها جزءان من تصنيف وإعداد محمد قنديل البقلى ، أولهما يتضمن فهارس للكتاب ، وثانيهما يتضمن مصطلحات .

* **كراتشكوفسكى ، أ . ى . ن .**

٥٤ – **تاريخ الأدب الجغرافى العربى** ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، مراجعة إيغور بليايف ، الإدارة الثقافية ، جامعة الدول العربية ، ١٩٦١ .

* **كرفجال ، مارمول**

٥٥ – **إفريقيا** ، ثلاثة مجلدات ، مترجم عن النص الفرنسى ، المترجم بدوره عن الأصل الأسبانى ، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٨٤ .

* **ليون الإفريقى**

٥٦ – **وصف إفريقيا** ، ترجمه عن الفرنسية محمد حجى ومحمد الأخضر ، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثانية ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، ١٩٨٣ .

٥٧ – **وصف إفريقيا** ، ترجمه عن الفرنسية عبد الرحمن حميدة ، وراجعه على عبد الواحد ، قامت بنشره جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، كلية العلوم الاجتماعية ، بمناسبة انعقاد المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول بمدينة الرياض ، فى الفترة ٢/٢١ إلى ١٣٩٩/٢/٢٨ هـ .

* محمد بلّو بن عثمان بن فودى

٥٨ - إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور ، إدارة الوثائق والمكتبات بوزارة الأوقاف ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

* محمد الحافظ التيجانى

٥٩ - الحاج عمر الفوتى سلطان الدولة التيجانية ، الزاوية التيجانية بمصر ، ١٣٨٣ هـ .

* محمد سعيد المشاط

٦٠ - التوارق ، عرب الصحراء الكبرى ، مركز دراسات وأبحاث شئون الصحراء ، طرابلس ، ليبيا ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٩ ، وهو رسالة حصل بها محمد سعيد المشاط على درجة الدكتوراة من جامعة بودابست .

* محمد عبد الغنى سعودى

٦١ - قضايا أفريقية ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، العدد ٣٤ ، ١٩٨٠.

* محمد عبد الفتاح إبراهيم

٦٢ - حديث فى الطوابع الثقافية الإفريقية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٥ .

* محمد عوض محمد

٦٣ - الشعوب والسلالات الإفريقية ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٥ .

* محمد الغربى

٦٤ - بداية الحكم المغربى فى السودان الغربى ، رسالة دكتوراة تحت إشراف د. نقولا زيادة ، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر ، الكويت .

* **محمود كعت**

٦٥ – **تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس** ، قام بتحقيقه وترجمته إلى الفرنسية السيد هودا بالاشتراك مع السيد ديلافوس ، مكتبة أمريكا والشرق ، باريس ، ١٩٦٤ .

* **محمود محمد الوقاد**

٦٦ – **انتشار الإسلام فى غانة** ، رسالة تحت إشراف د. زاهر رياض ، ١٩٦٨ .

* **المسعودى**

٦٧ – **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ، أربعة أجزاء ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع ، صيدا – بيروت ، ١٩٨٧ .

* **مصطفى على بسيونى أبو شعيشع**

٦٨ – **برنو فى عهد الأسرة الكانمية** ، دار العلوم للطباعة والنشر ، ١٩٨٤.

* **المقريزى**

٦٩ – **كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك** ، الجزء الأول ، تحقيق جمال الدين الشيال ، دار الكتب المصرية ، ١٩٣٤ ؛ الجزء الثانى ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤١ .

٧٠ – **اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا** ، مطبعة دار الأيام ، سوريا ، ١٩٠٩ .

٧١ – قطعة تحت عنوان «**الخبر عن أجناس السودان**» ، منشورة بالصفحات ١٩١ إلى ١٩٥ من المجلد الخامس عشر من الدورية التى يصدرها المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، **حوليات إسلامية** .

٧٢ – **الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفا والملوك** ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد ، ١٩٥٥ .

*** نقولا زيادة**

٧٣ – **إفريقيات** ، دراسات فى المغرب العربي والسودان الغربي ، رياض الريس للكتب والنشر ، لندن ، ١٩٩١ .

*** هيرودوت**

٧٤ – **تاريخ هيرودوتس الشهير** ، ترجمه عن الفرنسية حبيب بسترس ، مطبعة القديس جاورجيوس ، بيروت ، ١٨٨٧ .

*** وايدنر ، دونالد ل .**

٧٥ – **تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء** ، الجزء الأول ، ترجمة شوقى الجمل وعلى أحمد فخرى مع مقدمة بقلم عبد الملك عودة ، مؤسسة سجل العرب ، ١٩٦٧ .

*** ووديس ، چاك**

٧٦ – **جذور الثورة الأفريقية** ، ترجمة وتعليق أحمد فؤاد بلبع ، ومراجعة عبد الملك عودة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١ .

*** ياقوت الحموى**

٧٧ – **معجم البلدان** ، سبعة أجزاء ، الجزءان الأخيران منها للفهارس ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندى ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان .

*** يسرى عبد الرازق الجوهرى**

٧٨ – **الكشوف الجغرافية** ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ .

* **اليعقوبى**

٧٩ - **تاريخ اليعقوبى** ، مجلدان ، دار صادر - بيروت .

٨٠ - **كتاب البلدان** ، السلسلة الجغرافية ٦ ، دار إحياء التراث العربى ، ١٩٨٨ .

* **اليونسكو**

٨١ - الطبعتان العربية والإنجليزية للمجلدات الأربعة الأولى من **تاريخ إفريقيا العام** .

* **طائفة من أساتذة الجامعات البريطانية**

٨٢ - **فجر التاريخ الأفريقى** ، ترجمة عبد الواحد الإمبابى ، مراجعة محمد عبد العزيز إسحاق ، الدار القومية للطباعة والنشر ، سلسلة «كتب ثقافية» ، العدد ١٧٥ .

٨٣ - **الموسوعة العربية الميسرة** ، دار القلم ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

٨٤ - **دائرة المعارف الإسلامية** ، الطبعة العربية حتى حرف «الحاء» ، إعداد وتقديم إبراهيم زكى خورشيد ، أحمد الشناوى وعبد الحميد يونس ، دار الشعب ، القاهرة .

المصادر الأجنبية

1 - ANTUBAM, kofi, ***Ghana's Heritage of Culture***, koehler & Amelang. Leipzig, 1963.

2 - ARKELL, A. J., ***Early Khartoum. An Account of th Excavations of on Early Occupation Site Carried out by the Sud Government Antiquities Service 1944 - 1945***, London, 1949.

3 - BAKER, I. N. L., ***History of Geographical Discovery and Exploration, London, 1949.***

4 - **BARTH, Heinrich,** ***Travels and Discoveries in North and Central Africa, (1857 - 58),*** London, Frank Class & Co. Ltd., 3 vols., 1965.

المجلدان الأول والثالث موجودان بالمكتبة المركزية لجامعة القاهرة ، المجلد الثانى مفقود .

5 - **BAULIN**, Jacques, ***The Arab Role in Africa***, Penguin African Library, 1962.

6 - **BOVILLE. W.,** ***The Golden Trade of the Moors***, Oxford University Press, London, 1958.

7 - **CLAPPERTON,** Hugh (1788 - 1827), OUDNEY and DENHAM, ***Narrative of Travels and Discoveries in Northern and Central Africa in the Years 1822 - 1824***, London 1826.

8 - **CLARKE, Peter B.,** ***West Africa and Islam***, London, 1982.

9 - **DAVIDSON, Basil,** ***The Africa Past, Chronicles From Antiquity to Modern Times***, Penguin African Library, 1966.

10 - **DIOP**, Cheik Anta, ***The African Orignin of Civilization, Myth or Reality***, Edited and Translated by Mercer Cook, Lawrence Hill & Co. 1974.

11 - **MEYEROWITZ, Eva. L. R.,** ***At the Court of an African King***

توجد له ترجمة عربية قام بها الدكتور زاهر رياض ، ضمن سلسلة الألف كتاب الأول ، تحت عنوان فى بلاط ملك أفريقى .

12 - **PALMER**, Richmond, ***The Bornu Sahara and Sudan***, John Murray, LONDON, 1936.

13 - **PALMER, R.**, ***Sudanese Memoirs***, Three volumes in one, Krank Class & Co. Ltd.

14 - **PARK**, Mungo, ***Travels in the Interior of Africa***, London, 1799.

15 - **PARRINDER**, Goffrey, ***Religion in Africa***, Penguin African Library, 1969.

16 - **POST, KEN**, ***The New States of West Africa***, Penguin African Library, 1964.

17 - **SIK**, Endre, ***The History of Black Africa***, 2 vols., Akadémiai Kiado, Budapest 1966.

18 - **TRIMININGHAM**, J. Spencer, ***A History of Islam in West Africa***, Glasgow University Publications, London, 1962.

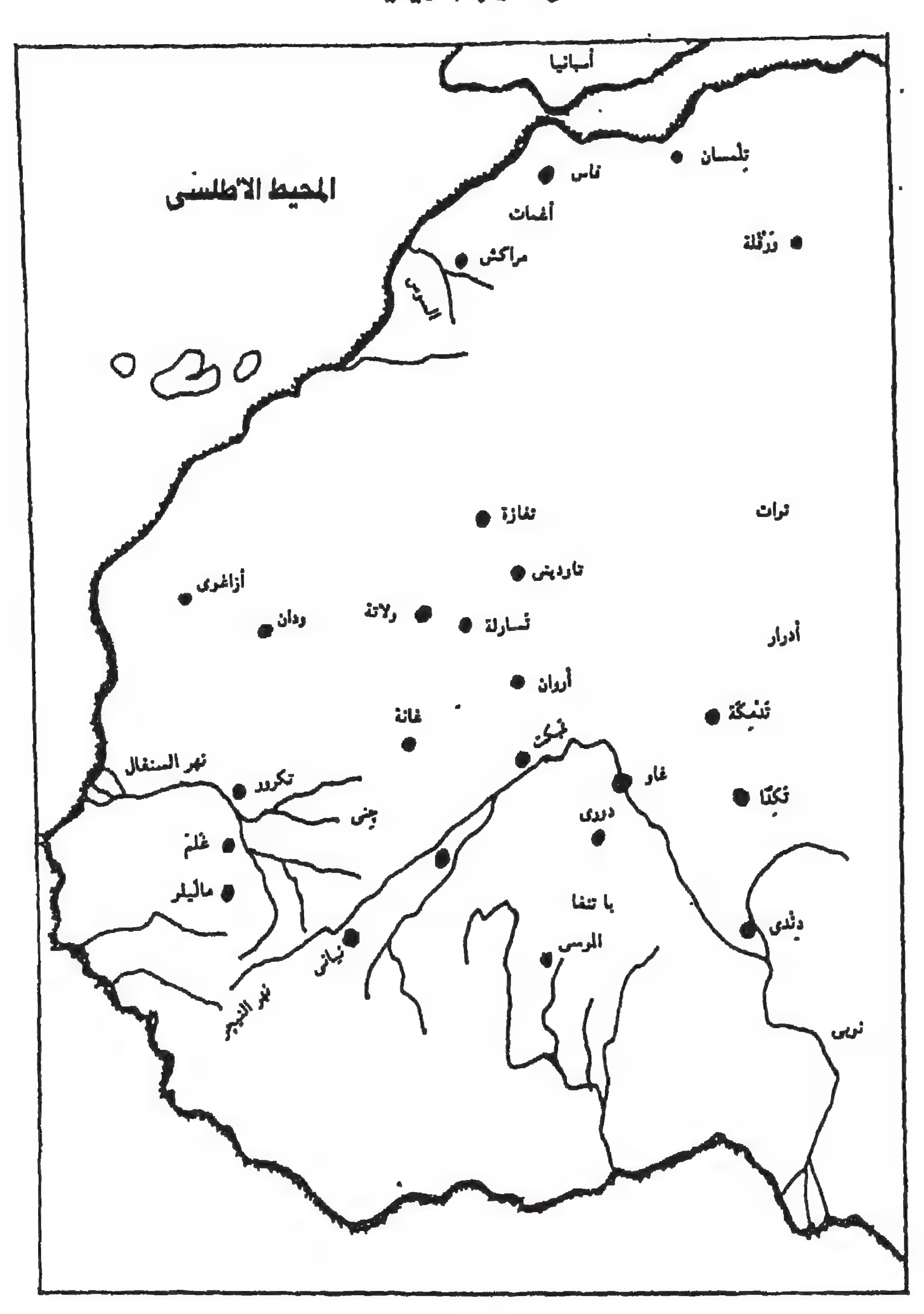
19 - **WESTERMANN**, Dietrich, **Handbook of African Languages**, Part II., ***Languages of West Africa***, Oxford University Press, 1952.

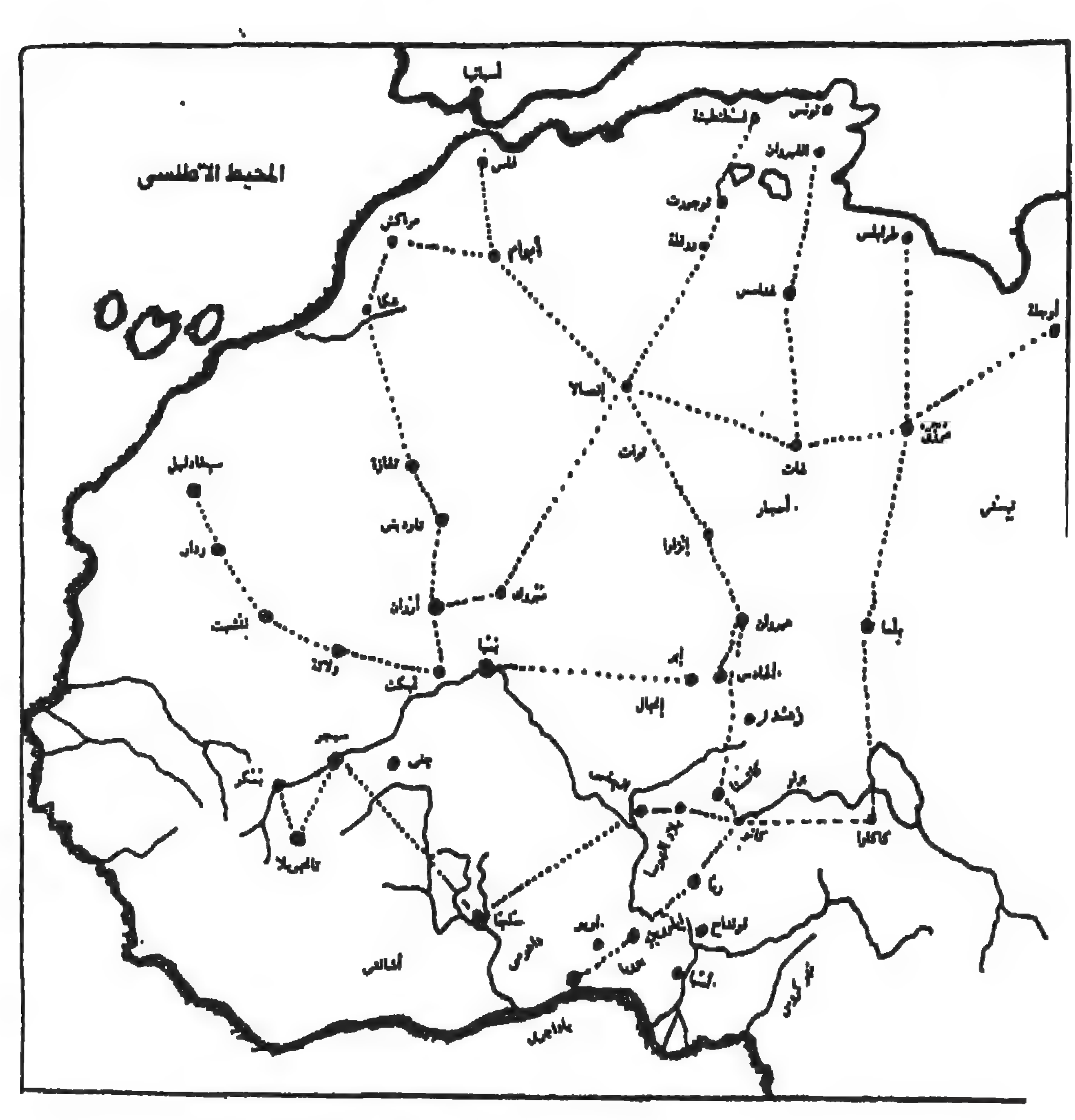
20 - ***TEDZKIRET EN-NISIAN FI AKHBAR MOLOUK ES-SOUDAN***

ترجمة فرنسية لكتاب تذكرة النسيان فى أخبار ملوك السودان ، قام بها أ. هودا ، الأستاذ بمدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس ، فى عام ١٩٠١ .

21 - ***ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA***, 1958 Edition.

شمال غرب إفريقية





طرق التجارة - غرب إفريقية

محمود كعت وكتابة « تاريخ الفتاش »(*)

(إعداد المترجم)

محمود كعت مؤرخ دولة السنغى الكبرى : ٨٧٣ - ١٠٠٢ هـ (١٤٦٨ - ١٩٥٣م) . ونأخذ فى تاريخ وفاته برواية السعدى فى **تاريخ السودان** «وفى ليلة الاثنين أول ليلة من المحرم الحرام الفاتح للعام الثانى بعد ألف قرب طلوع الفجر توفى العلامة الفقيه القاضى محمود كعة بن المتوكل على الله فى أركيا وحمل إلى تنبكت وصلى عليه بعد صلاة العشاء الآخرة من ليلة الثلاثاء ودفن ساعتئذ بمجاورة قبر الفقيه أحمد بن الحاج أحمد ...» **تاريخ السودان** ، الصفحة ٢١١ . (الفقيه أحمد بن الحاج أحمد الوارد اسمه فى عبارة السعدى هو والد العلامة الذائع الصيت أحمد بابا) . وبذلك يكون محمود كعت قد عاش قرابة مائة وتسعة وعشرين عاما هجرية ، أى حوالى مائة وخمسة وعشرين عاما ميلادية .

شغل منصب القضاء ، ونظراً لشهرته بالفقه وسعة العلم فقد سمى بالألفا (الفع) ، وهى كلمة استخدمها أهل تمبكت اختصاراً لكلمة «الفقيه» . كذلك كان يسمى أحيانا سيدى محمود كعت أو القاضى محمود كعت . كان صديقا شخصيًا للأسكيا الحاج محمد ، سلطان دولة السنغى ، فصحبه فى تأدية فريضة الحج ، وكان موضع ثقته وصاحب كلمة مسموعة لديه ولدى خلفائه ، عاش طويلا حتى أنه عاصر الغزو المراكشى .

(*) ملحوظة : هذه النبذة عن محمود كعت ، وكتابه تاريخ الفتاش ، والنبذة التى تليها عن عبد الرحمن السعدى ، وكتابه تاريخ السودان ، ملخوذتان ، فى الجانب الأكبر منهما ، عن مقدمة الترجمة الفرنسية لكل منهما .

ونتوقف قليلا عند إسم محمود كعت كما ورد فى صدر كتابه «محمود كعت الكرمنى دارا التنبكتى مسكنا الوعكرى أصلا» . وكلمة كعت تنطق عند أهل المنطقة «كاتى» ، فهم يكتبون حرف العين للدلالة على المد ، وتطبيقا على ذلك يكتبون كلمة «ألفا» فى صيغة «ألفع» ، وكلمة «واكورى» فى صيغة «وعكرى» ، وعلى الرغم من أنى أخذت بقاعدة كتابة أسماء الأعلام حسب ما تنطق وليس حسب طريقة كتابتهم لها ، فقد فضلت الاحتفاظ بكلمة «كعت» على حالها ، فهكذا تكتب فى الدراسات الإفريقية . أما عبارة «الكرمنى داراً» فتعنى أن عائلته كانت تقطن كرمن أحد أقاليم تندرمة حيث مازال يعيش بعض أحفاد هذه العائلة . وتعنى عبارة «التنبكتى مسكنا» أن مدينة تمبكت كانت موطنا له ، ولا يخفى أن الميم الساكنة السابقة على حرف الباء كثيرا ما تكتب «ن» . وأخيراً عبارة «الوعكرى أصلا» وهى تعنى أنه من أصل واكورى ، أى سوننكى أو سركلى .

وقد بدأ محمود كعت كتابة مُؤَلَّفِه وهو فى الخمسين من عمره ، وعلى الرغم من أنه عمَّر طويلا فإنه لم يكتب كل الأحداث التى وردت به . فهذه الأحداث تنتهى عند ١٠٠٨ هـ (١٦٠٠ م) ، أى بعد وفاته بست سنوات ، بل لقد أشير فى الكتاب إلى تواريخ تذهب إلى ١٠٧٦ هـ (١٦٦٥م) . والأرجح أن يكون كل ما كتبه هو معظم الفصول الستة الأولى ، حسب التقسيم الوارد فى الترجمة الفرنسية ، إذ توجد حتى فى هذه الفصول أجزاء من سيرة سنِّ على والأسكيا الحاج محمد يبدو أنها منقولة من منكرات خلَّفها . والأمر المؤكد أنه لم يُتِّه مؤلَّفه ، إنما ترك مسودَّات ومذكرات ووثائق كثيرة لإتاحة الفرصة أمام آخرين لتكملته . وقد ترك أولاده بدورهم ، وكثيرون منهم شغلوا مناصب هامة ، بعض الأوراق والمذكرات . واستفاد من هذا كله إبن إحدى بناته مستعيناً إلى جانب ذلك بالروايات التى سمعها من أخواله . وبذلك يكون **تاريخ الفتاش** ثمرة تعاون بين الجد وحفيده وثمرة جهد الأبناء . ويبدو أن هذا الحفيد كان يتحلى بقدر هائل من إنكار الذات ، كما كان يُجِلُّ جدَّه وينزله منزلةً عاليةً ، فحرص على أن ينسب العمل بكامله إلى جدِّه ، ومن ثم لم يذكر إسمه ، ولم يصل إلينا هذا الاسم ، كما لم يكن من المستطاع الاستدلال عليه . وكل ما نعرفه عن هذا الحفيد هو إسم

والده المختار قنبل ، كذلك نعرف من أسماء من استعان بأوراقهم ومذكراتهم من أخواله القاضي إسماعيل كعت والقاضي محمد الأمين كعت ويوسف كعت .

ويشتمل الكتاب على مُلحَقين ، الأول والثاني ، أشار إليهما پانيكار وأخذ عنهما كثيرا ، وهما بالطبع ضمن ما أضيف إلى الكتاب بعد وفاة محمود كعت . وقد خلا النص العربي مع الأسف الشديد من الملحق الثاني رغما عن أهميته الشديدة ، على حين انفردت به الترجمة الفرنسية ، وعلى الرغم من أنّي بصورة عامة قد اقتصرت في تحقيقي لما نقله پانيكار عن الكتاب على النص العربي ، فقد اضطررت في حالات قليلة إلى أن أرد إلى العربية بعض إشارات نقلها پانيكار عن الملحق الثاني .

وعنوان الكتاب هو : «تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس» . وإذا علمنا أن أهل منطقة تمبكتُ لا ينطقون حرف «الشين» مثلما ننطقه ، وإنما ينطقونه «س» ، فإن عنوان الكتاب يمكن أن يكون على النحو التالي : تاريخ الفتاس ، في أخبار البلدان والجيوس وأكابر الناس . وتلك صورة سجعية كان يفضلها في ذلك الوقت من يكتبون بالعربية . ومع ذلك فقد فضلت كتابة الاسم على النحو التالي : «**تاريخ الفتاش**» فذلك هو الاسم الشائع الآن .

وقد قام بتحقيق الكتاب ونشره وترجمته إلى الفرنسية المستشرقان الفرنسيان ديلافوس وصهره هودا ، وتم العمل تحت إشراف معهد اللغات الشرقية الحية بپارس في عام ١٩١٣ ، أي بعد نشر **تاريخ السودان** بخمسة عشر عاما ، وسبب ذلك أن العثور على مخطوطات **تاريخ السودان** سبق العثور على مخطوطات **تاريخ الفتاش** . وقد أعادت منظمة اليونسكو نشر النص العربي مع ترجمته الفرنسية في مجلد واحد في عام ١٩٦٤ .

عبد الرحمن السعدى وكتابه «تاريخ السودان»

(إعداد المترجم)

عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدى (ويقال السعيدى) : ١٠٠٤ هـ - ؟ (١٥٩٦م - ؟) من إسمه يتضح أن ليس فى أجداده سوى أسماء عربية ، ومع ذلك يتعذر القطع بأنه من أصل عربى خالص ، ففى ذلك العصر كان من عادة المسلمين ذوى الأصل البربرى أو غيره أن ينسبوا أنفسهم إلى أصل عربى أو شريف ، ولذا كانوا يقفون فى سرد الأسلاف عند حد معين بحيث لا يحتوى الاسم على أى اسم غير عربى . وإذا كانت كلمة السعدى صحيحة فإن ذلك يرجع انتسابه إلى قبيلة بنى سعد الذين تنتمى إليهم مرضعة الرسول ، وانتماءه بالتالى إلى الأمراء السعديين . وهو على أية حال ينتمى إلى عائلة محترمة فى تمبكت ... وقد أخذنا فى تاريخ ميلاده بروايته هو نفسه : «وفى ليلة الأربعاء ليلة الفطر عند استهلال الشهر والناس مازال فى الزغاريت والتهاليل عليه والتباشر به ولد جامع هذه الكراريس عبد الرحمن بن عمران بن عامر السعيدى ألهمه الله رشده وأثبته فى ديوان السعادة عنده وذلك فى العام الرابع بعد الألف ....» **تاريخ السودان** ، الصفحة ٢١٣ .

اشتغل السعدى فى أول حياته بتحرير العقود فى جنى إلى جانب وظيفة إمام جامع سَنْكُرى (حتى ١٠٣٦ هـ) ، ثم عزل وعاد إلى تمبكتُ حيث عين إماما لهذه المدينة ، ولقب بالكاتب مكافأة له على خدماته ، إذ أخذ يشارك فى شؤون بلاده ويقوم بدور الوسيط لدى أمراء السودان المختلفين . وربما كان ذلك هو ما حمله على التفكير فى كتابة التاريخ للربط بين الأحداث الجارية والماضية ، فخلّف لنا كتاب **تاريخ السودان** الذى يعد من المراجع الأساسية فى تاريخ هذه المنطقة ،

كما أنه من المصادر الرئيسية التى أخذ عنها بانيكار . والكتاب يقف فى أول الأمر عند أحـداث الخـامس من ذى الحجـة ١٠٦٣ (٢٨ نوفمبر ١٦٥٢) : «وهنا انتهت المجموعة بحمد الله وحسن عونه بتاريخ نهار الثلاثاء لخمس خلون من ذى الحجة الحرام العام الثالث والستين والألف ...» **تاريخ السودان** ، الصفحة ٣١٤ .

وبعد عام ونصف أضاف إليه فصلا يتضمن آخر ذكريات له بحيث وقفت أحداث الكتاب عند السادس عشر من جمادى الأولى ١٠٦٥ : «... وأخبر فيه أن السلطان مولاى محمد الشيخ توفى فى الثانى والعشرين من الربيع النبوى عام خمسة وستين وألف ... وفى السادس عشر من جمادى الأولى ورد كتاب من عند القائد على بن عبد العزيز الفرجى ... تم وكمل بحمد الله تعالى وحسن عونه» ، الصفحتان ٣٢٢ و٣٢٣ .

فى ذلك التاريخ كان السعدى قد بلغ التاسعة والخمسين ، والأرجح أن لم يعش طويلا بعد ذلك ، وإلا لأضاف جديدا إلى الكتاب . وهكذا فعلى الرغم من أنه بدأ كتابه بعد البدء فى كتابة **تاريخ الفتاش** بوقت طويل ، فإن أحداث كتابه تنتهى قبل أحداث هذا الأخير بحوالى عشر سنوات .

وكتاب **تاريخ السودان** لا يتناول سوى تاريخ جزء من بلاد السودان ، هو إمبراطورية السنغى ، وبخاصة أحداث الغزو المراكشى ، إلى جانب بضع عبارات عن دولة مالى . وينصب اهتمامه الأكبر على تمبكت مسقط رأس المؤلف وعلى دورها المجيد فى عالم الزنوج . وقد بدأ إعداد الكتاب وقت دخول تمبكت عصر الانحلال ، بعد أن عجز المراكشيون عن إدارتها وجعلها مركزاً للثروة لمراكش ، وبعد أن نشروا فيها أعمال القسوة والنهب .

ويتكون الكتاب من جزأين مختلفين فى طبيعتهما : الأول ، ويحوى موجزا للمعلومات التى جمعها المؤلف من روايات شفوية ومكتوبة يندر ذكر مصدرها ، لذلك تشوبها ثغرات وعيوب كثيرة وتفتقر إلى اليقين ، ولم يذكر السعدى فيما

يتعلق بتاريخ بلاده سوى معجم سيرة لأحمد بابا ، وكتاب إسمه الخبر ، ولم يذكر فيما يتعلق بتاريخ المغرب سوى كتاب «الحلل الموشية فى ذكر أخبار المراكشية» . الثانى ، وله طابع المذكرات الشخصية ومصدر معلوماته شهود عيان ، بل المؤلف نفسه أحيانا بحكم صلته المباشرة بأحداث بلاده . وهذا الجزء حيٌ وزاخرٌ بالمعلومات . إذ أن الوظائف التى شغلها والمهام التى كان يكلف بها سمحت له بالدخول فى تفصيلات بالغة الدقة وذات فائدة فى تعريفنا بالبيئة التى عاش فيها.

وقد كتب السعدى تاريخه على نسق غالبية المؤرخين العرب من حيث عدم وجود خطة للكتابة ، وكتابة التاريخ سنة بسنة . كما كان يجهل فن الكتابة ، واستخدم لغة فيها كلمات غير واردة بالمعاجم لا تعبأ بقواعد النحو ، ومع ذلك خلت غالبية كتابته من الغموض . ويمكن إرجاع بعض عيوب الكتاب إلى العادة التى جرى عليها الناسخون من حرصهم على جمال الخط أكثر من حرصهم على دقة النقل .

وفى الجزء الثانى يتضح رأى المؤلف فيما كان يجرى أمامه من أحداث ، كما نتبين منه اتجاهه وتفكيره . والكتاب رغم عيوبه يتيح الإلمام بفكرة عن التنظيم الحربى والإدارى للمنطقة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، كما يلقى ضوءا على نمط من النظام الإقطاعى لم يكن لأمراء الأقاليم فيه من هدف سوى هدم وحدة الحكومة وتشجيع الغزاة الخارجيين . ويفيد ما ذكره الكتاب عن المراكشيين فى تقويم ما كتبه المراكشيون أنفسهم عن تاريخ بلادهم . والكتاب حافل بنبذ عن سير العلماء ولكنها لاتهدينا بدقة إلى أفكار ومشاعر الفئة المستنيرة من السكان . كما يزخر بأحداث بالغة الأهمية تبين أن هؤلاء الذين يُنكِر عليهم الكثيرون أية مبادرة فى مجال التقدم إنما كانت لهم حضارة خاصة بهم لم يفرضها عليهم شعب آخر .

وقد كان أ. روسو هو أول من أشار إلى وجود الكتاب ، وإن كان الرحالة الألمانى بارث هو أول من عَرَّف أوروبا به ، فقد استقى منه معلومات كثيرة استخدمها فى سرد رحلته ، ولكن أهالى تمبكت خدعوه فنسب الكتاب خطأ إلى

أحمد بابا ، ومرجع الخطأ أن تراث السودان بأسره متجسد فى أحمد بابا ، لذلك ينسب إليه كل كتاب قيِّم . وتولى تحقيق النص العربى ونشره وإعداد ترجمته الفرنسية المستشرق الفرنسى هودا (بمساعدة مسيو بنوا) تحت رعاية مدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس ، وكما حدث بالنسبة لتاريخ الفتاش أعادت منظمة اليونسكو فى عام ١٩٦٤ نشر النص العربى وترجمته الفرنسية فى مجلد واحد .


صفحة فارغة

محتويات الكتاب

رقم الصفحة

رقم الصفحة

الجزء الثانى

المشروع القومى للترجمة

اللغة العليا	جون كوين	أ. د. أحمد درويش
الوثنية والإسلام	مادهو بانيكار جى. ام	أ. أحمد فؤاد بلبع
التراث المسروق	جورج/ جيمس	ت : شوقى جلال
كيف تتم كتابة السيناريو	اتى كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : د. محمد علاء الدين منصور
اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : د. سعد مصلوح/ د. وفاء كامل فايد
العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الانطاكى
مشعلوا الحرائق	ماكس فريش	ت : د. مصطفى ماهر
التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : د. محمود محمد عاشور
خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وآخرون
مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : د. محمد هناء عبدالفتاح
طريق الحرير	ديفيد برانستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
ديانة الساميين	روبرتسون سميث	ت : عبد الوهاب علوب
التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
حركات الفن المعاصر	ادوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : د. لطفى عبد الوهاب يحى/ د. فاروق القاضى/ د. حسين الشيخ/ د. منيرة كروان / د. عبد الوهاب علوب
واحة سيوة وموسيقاها		ت : محمد جمال عبد الرحيم
تجلى الجميل	هانز جورج جادامر	ت : سيد توفيق
المثنوى	جلال الدين الرومى	ت : د. إبراهيم الدسوقى شتا
ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : د. بكر عباس
مصادر دراسة التاريخ الإسلامى		

المشروع القومى للترجمة
(تحت الطبع)

مختارات	فيليب لاركين	ت : د. محمد مصطفى بدوى
الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : د. طلعت شاهين
الأعمال الكاملة	جورج سفيريس	ت : د. نعيم عطية
قصة العلم	ج. ج. كرواثر	ت : د. يمنى طريف الخولى/ د. بدوى عبد الفتاح
خوخة وألف خوخة	صمد بهرنكى	ت : د. ماجدة محمد على
مذكرات رحالة	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
اللهب المزدوج	اكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
التنوع البشرى الخلاق		ت : نخبة
ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : د. محمد عاطف أحمد السيد/ إبراهيم فتحى سليمان/ محمود ماجد
الانقراض	ديفيد روس	ت : د. مصطفى إبراهيم فهمى
النظريات الحديثة للسرد	والاس فاوتن	ت : د. حياة جاسم
قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : د. محمود السيد
التراث المغدور	روبرت دونيا جون فاين	ت : أحمد محمود
الرواية العربية	روجر ألن	ت : د. حصة عبد الرحمن منيف

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الاميريه

رقم الإيداع ١٣٢٤٣ / ١٩٩٧